عباس محمود العقاد

شخصيات إسلامية

دار الكتاب العربي
بيروت – لبنان

شخصيات اسلامية

مجموعة

شخصيات اسلامية

فاطمة الزهراء

ابنة الرسول

الحسين بن علي

أبو الشهداء

عائشة

الصديقة بنت الصديق

بلال بن رباح

مؤذن الرسول

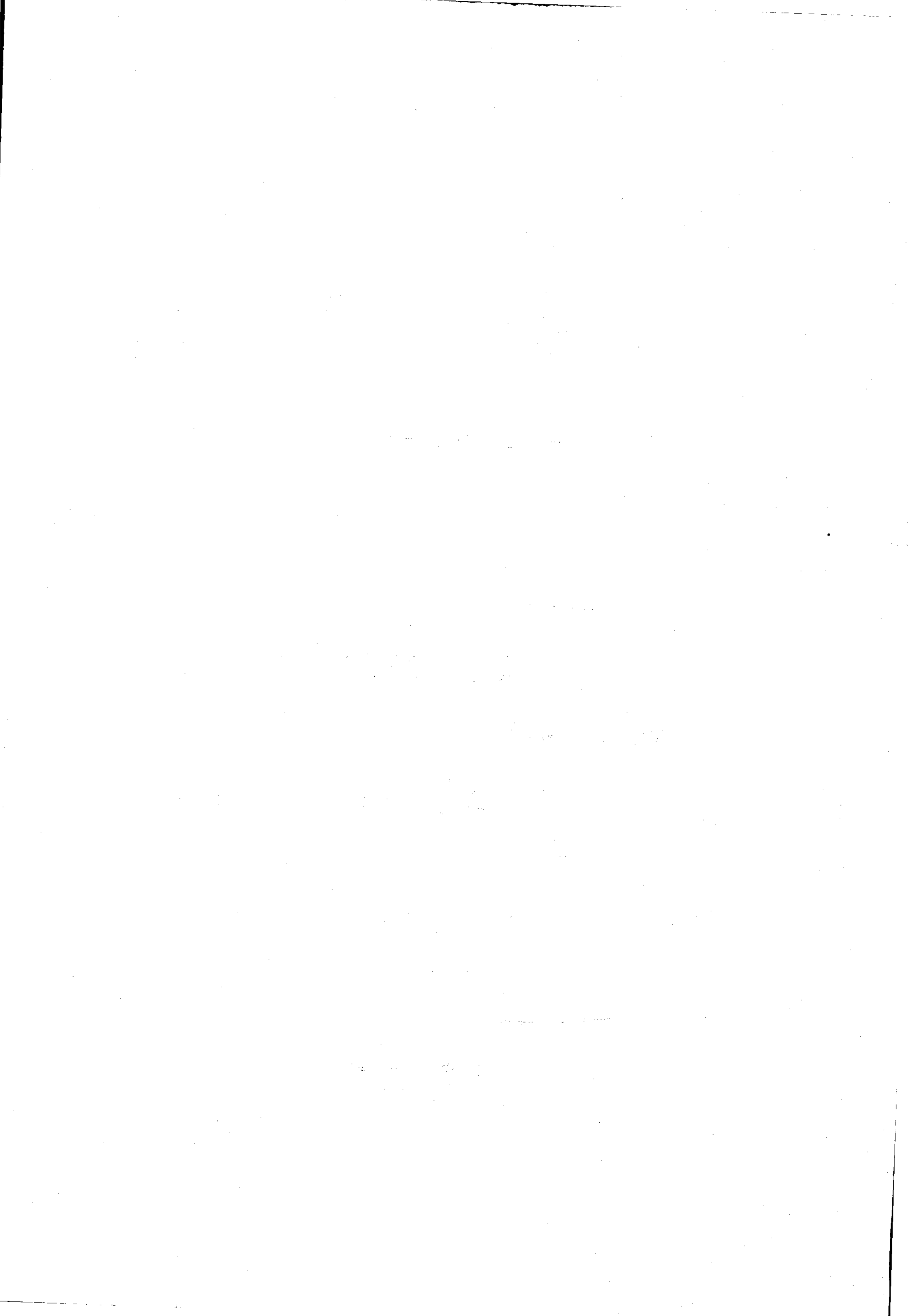
معاوية بن أبي سفيان

مؤسس الدولة الأموية

في الميزان

عمرو بن العاص

دهاء وبلاء



فهرست

الحسين بن علي

عائشة

بلال بن رباح

« داعي السماء »

معاوية بن أبي سفيان

« مؤسس الدولة الاموية »

عمرو بن العاص

* * *

مقدمة الناشر

سيظل « عباس محمود العقاد »، في تاريخ الأدب المتناول لهذه العقود الستة من القرن العشرين التي نحياها — الدوحة الأرحب: بما وسعت ظلالها من أقاليم المعرفة ، وبما قدّمت ثمارها من ألوان الثقافة المختلفة الطعوم .

وإن ذلك ليتضح إذ نُرجع البصر كَرَّة في ثبت المؤلفات التي نتجت عن يراع هذا المؤلف المعطاء . ففيها القصة والرواية ، وفيها الدراسة والبحث ، وفيها التحقيق والتقرير ، وفيها المطالعات والمراجعات، وفيها الخطرات والاستقصاءات ، وفيها غير ذلك وغيره ...

ولعل الجامعة التي تربط بين هذا الإنتاج البرّ المختلف المتلون هي تلك السمة الطاغية التي تسم ذلك الإنتاج كافة : سِمة تقديس الحقيقة ، وسمة احترام الوسيلة المفضية بها إلى الناس — بما تقتضيه هذه الوسيلة من لغة ونهج واختيار — .

ونحن إذ نورد هذا الانطباع العام عن نتاج العقاد لا ندّعي تقييمه، بل كل ما نهدف إليه هو الإشارة إلى طابعه العام ، وذلك بصدد هذا الإصدار لمجموعة من كتبه .

لقد شرح العقاد غايته من كتبه « العبقريات » ... و « شخصيات إسلامية » وغيرها ؛ لذلك لا نرى ضرورة لإعادة ما أورده في شرح تلك الغاية . ولكننا نأمل في هذا التقديم لفت القارئ الكريم إلى ما يلي :

إن الصورة المستحدثة ، التي مال العقاد في تأليف خطوطها واختيار ألوانها ، لإبراز كثير من وقائع التاريخ التي احتاج إلى إبرازها في رسم عبقرية كل من أبطال العرب المسلمين الذين هدف إلى إبراز عبقرياتهم ، وفي إبراز ملامح كل شخصية من « الشخصيات الإسلامية » التي تصدى إلى عرضها ، هي الصورة التي يستسيغ المحدثون استيعابها واستجلاءها والتملي من جمالها ، لينتهوا بعد ذلك كله إلى تمثُّلها .

ولقد كان في اطلاع العقاد على قسط وافر الغزارة من كتابات أهل الغرب في التاريخ الإسلامي مجال" لردّه الكثير من مواطن سوء فهم بعض المؤرخين الغربيين لبعض المواقف في ذلك التاريخ ، ولردّه الكثير من خطأ التعليل لدى أولئك المؤرخين في كثير من المواقف أيضاً ، فضلا عن تعريته لكثير من التغرض الذي ظهر منهم في الحكم على بعض المواقف في بعض الأحيان .

ولعل أقوى ما اصطنعه العقاد من وسيلة للإقناع فيما كتبه : الروح الحيادية ، والاحتكام إلى المنطق ، ومعطيات علم المناهج وعلم النفس ، والمحاكمة العقلية ، والنهج العقلاني. فلم يكن فيما أراد إثباته أو نفيه ذلك المؤمن الذي يكتفي بإيمانه ويقتصر على أدلة ذلك الإيمان ، ويدعو الخصم إلى منازلته في ساحته هو ؛ بل انتقل إلى ساحة الخصم واستعمل سلاحه ، حتى لا يكون للخصم ، إذ يُغلب ، أي تعلّة في انهزامه وحبوط رأيه وحكمه .

والعقاد بعدُ ، في « العبقريات » ... وفي « شخصيات اسلامية » ... وغيرها من كتبه المفردة للبارزين في التاريخ ، يتكشّف عن محلِّل نفسي لا يبارى في استكناه الدوافع النفسية للمواقف المصيرية الحاسمة ، ولنماذج السلوك في الأحداث العادية ، التي اتخذها أولئك البارزون . إذ هو في كل ذلك يعمد إلى اصطناع المحاكمة المناهجية العلمية ، فيلقي الأضواء على تلك الأحداث ، وينتهي إلى تأكيد السِّمات والعناصر التكوينية في النماذج العبقرية

من الشخصيات التي تناولها بالبحث .

وكلمة أخيرة في مجال بعث التراث العربي ، وتوجيه الأفكار إليه ، وحمل الجماهير العربية على الإعجاب به والاطمئنان إليه .

لقد رافق حركة البعث هذه — مذ تمادت أقيستها ، وتقبلتها الأجيال الطالعة قبولا حسناً — ، شعورٌ بأن إحياء هذا التراث سيف ذو حدّين : فهو إن كان يُطلع النشء الجديد على مدى الإسهام الحضاري البالغ ، الذي اضطلعت به أجيال متعاقبة من الشعب العربي في القرون الماضية ، ويخلق لديه الاطمئنان إلى أصالة هذا الإسهام ، ومن ثَمَّ — انطلاقاً من هذه الأصالة — إمكان الأجيال الحالية من هذا الشعب معاودة الإسهام في البناء الحضاري ، فإنه يُخشى أن يؤدي من جانب آخر إلى إيجاد شعور لديه بالاطمئنان والدعة ، والاكتفاء بما سبق أن قدم العرب من إنجازات ، والنوم على تلك الأمجاد ، والانخداع بالفخر بها ، دون أن تكون مدعاة — لهذا النشء الجديد — وحافزاً له إلى خوض المعركة الحضارية من جديد ، وما في خوضها من حتمي ومصيري في هذه الحقبة من تاريخه .

وحول ذلك نرى ان انتهاء بعث التراث إلى هذه النتيجة أو تلك إنما يكون مبعثه ومقرره — إلى حدّ بعيد — ، الصيغة التي نلقي بها ذلك التراث إلى هذه الأجيال الطالعة ، مضافة إلى المناخ التكويني العام لشخصيتها ومعتقداتها وحوافزها ومُثلها ؛ ولعل الصيغة التي اعتمدها العقاد — من بين العوامل المقررة لدرج مفعول التراث تحت العوامل الدافعة أو المثبطة لدى الجيل الصاعد — هي بلا مراء مما يؤدي إلى إيجاد الحافز إلى الانخراط من جديد في المعركة ؛ ويبقى على واضعي فلسفة التربية للشعب العربي في مرحلته الحالية ، وعلى منفذي تلك الفلسفة ، القيام بالشق الثاني من المهمة .

إن جميع ما ذكر كان وراء سعي « **دار الكتاب العربي** » ومزيد اندفاعها في إصدار ما أصدرت من تراث السابقين ،وحرصها الدائم على إصدار هذه

الآثار الأخرى ، التي تجلو ذلك التراث في الصورة المستحدثة المستساغة ؛
آملة أن يحسن ذلك لدى قرائها ، وأن يكون فيه ما يجسد إيمانها برسالة الناشر ،
والله من وراء القصد .

الناشر

عباس محمود العقاد





القسم الأول

فاطمة الزهراء

أمّ الزهراء...

نشأتها...

زواجها...

بلاغتها...

في الحياة العامة...

وفاتها...

شخصيّة الزهراء...

الذرّيّة الفاطميّة

أمّ الزهراء

حفظ التاريخ لنا قليلا من أخبار السيدة خديجة – أم الزهراء – رضي الله عنهما ، ولكن هذا القليل كاف للتعريف بها ، وبما يمكن أن تورثه بنيها من الخلائق والسجايا ، لأنه يعطينا منها صورة كاملة لا تزيدها الافاضة في الأخبار الا في التفصيل .

ومن جملة الأخبار القليلة التي حفظت لنا نعلم ان الزهراء أنجبتها أمٌّ ذات فطنة ورجاحة ، وأنها رضي الله عنها كانت غنية اليد غنية النفس بأكرم العواطف الأنثوية : عاطفة المحبة الزوجية ، وعاطفة الأمومة ، وعاطفة الإيمان ...

كانت تسمى في الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش ، لأنها جمعت الى مكانة النسب العريق مكانة الثروة الوافرة ومكانة الخلائق الموقرة ، وأهلها جميعاً لم يحفظ التاريخ سيرة أحد منهم الا كان علماً في الحكمة والدراية أو في الشجاعة والشمم ، كورقة بن نوفل وأسرة الزبير بن العوام.

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية ، وكلاهما ينتهي نسبه الى لوئيّ بن غالب بن فهر، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك الى هذا النسب المعرق في النبل والسيادة ، فهي فاطمة بنت هالة التي ينتهي نسبها كذلك الى لوئي بن غالب ، وهالة بنت قلابة التي

ينتهي نسبها الى ذلك الجد الأعلى ، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة كما تقدم ، فكانت قافلتها الى الشام تَعْدِل قوافل قريش أجمعين في كثير من الأعوام .

وأهم من هذا جميعه بالنسبة الى زوجة نبيٍّ ، والى جدة الأئمة من بيت النبوة ، انها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربية ...

فأبوها خويلد هو الذي نازع تبّعاً الآخِر حين أراد أن يحتمل الركن الأسود معه الى اليمن ، فتصدى له ولم يرهب بأسه غيرة على هذا المنسك من مناسك دينه ، وقال السهيلي في الروض الأنف : « ان تُبعاً روع في منامه ترويعاً شديداً حتى ترك ذلك وانصرف عنه » فلا يبعد ان روعة خويلد ومرآه وهو ينذر العاهل بالغضب الالهي اذا أقدم على فعلته قد شغل قلب التبع فتراءى له من المخوفات في منامه ما أرهبه وثناه عن عمله .

وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذي رجعت اليه حين بدا لها من اضطراب النبي عليه السلام عند مفاجأته بالوحي ما أزعجها ، فركبت الى ورقة تسأله لعلمه بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود ، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها . اذ لم يكن في مكة مسيحيون يرجعون بأمرهم الى كاهن أو كنيسة ، وانما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحي اليه الشكّ في عبادة الأصنام وتجنح به الى البحث والمراجعة عسى أن يهتدي الى عقيدة أفضل من هذه العقيدة . ويُنسب اليه شعر كان يقوله في الجاهلية يشبه شعر أمية بن أبي الصلت ، ويروي كتّاب السيرة انه استغرب علم السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له ، وقال لها : « إنه السفير بين الله وبين أنبيائه ، وان الشيطان لا يجترىء أن يتمثل به ولا يتسمى باسمه .. »

وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة ، لا يعنينا أن نستقصيها . لأن المهم في الأمر هو وجود هذا الشغف بمدارسة الأديان

بين بني عم السيدة الأقربين ، فهذا وانفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيرةً منه على مناسك الكعبة كافيان للإبانة عن طبيعة التدين التي ورثتها الأسرة ، مَن كان منهم على الجاهلية ، ومن تحول عنها الى النصرانية .

ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى انها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والاسرائيلية ، لأنها لم تكتف بسؤال ابن عمها بل سألت غيره ممن كانت لهم شهرة بالاطلاع على التوراة وكتب الأديان...

وقد روي عنها كلام قالته للنبي عليه السلام حين فاجأه الوحي فعاد اليها ، وقال لها : « لقد خشيت على نفسي ! » فكان كلامها الذي أرادت أن تسرّي به عنه وتثبّت به جنانه آية على العلم بلباب الدين علماً يُستكثر على الناشئين في أديان الجاهلية ، فان الدين لا يعدو أن يكون عندهم كهانة وسحراً ، ولكنها أدركت من حقيقة الدين ما لا يدركه عامة قومها ، فعلمت انه فضيلة وان النبي الجدير أن يُندب له هو الرجل الذي اتسم بالفضيلة ، وقالت للنبي وقد آمنت انه وحي وليس بعارض من عوارض الجِنة : « كلا ! والله ما يخزيك الله أبداً . انك لتصل الرحم ، وتحمل الكَل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتَصدق الحديث ، وتؤدي الأمانة » .

علامات للنبوة لا يدركها كل من يسمع بالدين ، ولولا انها عرفت من أبناء عمومتها من كان يفهم النبوة هذا الفهم لما كانت هذه علاماتها لتصديق الدعوة وصرف الوجل والخشية عن نفس زوجها الكريم .

وهي على هذا طبيعة مميزة ، وليست طبيعة منساقة الى السماع والتقليد، فمما نقل عنها انها طلبت الى النبي عليه السلام أن يخبرها اذا جاءه جبريل، فلما أخبرها قالت له : « قم فاجلس على فخذي اليسرى » ففعل ، فقالت : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . قالت : « فتحوّل الى فخذي اليمنى » وسألته:

« هل تراه ؟ » قال : « نعم » . فألقت خمارها وسألته ، فقال : « الآن لا أراه .. » قالت : « يا ابن العم اثبت وأبشر ، فانه ملَك وما هو بشيطان » .

وهذا الاختبار غاية ما كان ينتظر من سيدة في عصرها أن تمتحن به حقيقة الوحي . ولا غرابة فيه عند المسلم وعند غير المسلم في العصر الحاضر ، فان البديهة لا تشتغل بالوحي الديني والنظر الى جسد الأنثى في وقت واحد ، ولا سيما بعد الحوار واعادة السؤال مرة بعد مرة ، فلا موجب اذن لشك المتشككين من المتحذلقين في صحة هذه الأحاديث .

وقد رزقت هذه السيدة البارة صباحة الوجه مع ما رزقته من الخلق الجميل والحسب الأثيل والمال الجزيل ، وصدق من قال ان السعادة لا تتم ، فان هذه السيدة التي تم لها غاية ما تتمناه المرأة لم تتم لها نعمة السعادة في حياتها الزوجية ، فانها تزوجت في صباها برجل من هامات مكة هو أبو هالة ابن زرارة فمات ولها منه ولد صغير سُمِّي باسم هند (لعله دفعاً لأذى الحسد) وهو الذي تربى مع السيدة فاطمة وقتل في جيش الامام في وقعة الجمل على أرجح الأقوال ، ويُؤثر عنه أوفى وصف للنبي رواه سبطه الحسن عليهما صلوات الله ..

ثم بنى بها عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي ، واختلفوا في أي زوجيها كان الأول ولكنه على كل حال زواج لم يُكتب له الدوام ، وقد أعرضت عن الزواج بعد هذين الزوجين حتى عرض لها في حياتها الرجل الذي أصبحت بفضله علَماً من أعلام النساء في التاريخ ، ولا شيء أدل على رجاحة لبِّها من أناتها في اختيار زوجها ، مع تهافت الخطاب عليها ورجوع الأمر اليها فيما تختار .

أما كيف اتصل النبي عليه السلام بالعمل في تجارتها فتكاد الأقوال تتفق على انه كان بمشورة من عمه أبي طالب ، وان أبا طالب قال له في سنة من السنين : « يا ابن أخي . أنا رجل لا مال لي وقد اشتد علينا

الزمان ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك في عيرها فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت اليك » . وقد تردد النبي في مفاتحتها بهذا الطلب فذهب أبو طالب ، فأجابته على رضى وكرامة ، وقالت له : « لو سألت ذلك لبعيد بغيض لأجبناك ، فكيف وقد سألت لقريب حبيب ؟ » .

وقد سافر النبي الى الشام وباع واشترى وربح لها أضعاف ما كانت تربح في كل عام ، وأعجبها منه انه حين عاد من السفر وكل الى غلامها ميسرة الذي كان بصحبته أن يسبقه ليبشرها بعودة القافلة ووفرة كسبها ، فأكبرت منه مروءته وأمانته وحذقه ، وأحبته وودت لو يخطبها مع الخطاب ، وعرّضت له بذلك في حديث أقرب الى التلميح منه الى التصريح ..

وأحجم النبي حياء وأحجمت هي عن التصريح ، ثم أوعزت الى صديقة لها — هي نفيسة بنت منية — أن تشجعه على الخطبة ، فسألته نفيسة ذات يوم : « ما يمنعك أن تتزوج ؟ » قال : « قلّة المال » . قالت : « فان كُفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة ؟ » قال : « ومن تكون ؟ » قالت : « خديجة ! » قال : « فاذهبي فاخطبيها » .

وروى الزهري صاحب أقدم السير ان « رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشريكه الذي كان يتجر معه في مال خديجة : هلم فلنتحدث عند خديجة ، وكانت تكرمهما وتتحفهما ، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستنشئة — هي الكاهنة — فقالت له : جئت خاطباً يا محمد ؟ فقال : كلا . فقالت ولم ؟ فوالله ما في قريش امرأة — وان كانت خديجة — إلا تراك كفؤاً لها ... »

وأشبه الأشياء بأن يكون — بين الروايات المتعددة — ان النبي عليه السلام كاشف رئيس أسرته أن يتقدم لخطبتها ففعل وخطبها خطبة عزيز قوم لعزيزة قوم ، وقال وهو يفاتح عمها في الأمر : « .. ان محمداً ممن لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، وان كان في المال

قلّ فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك » فقال عمها عمرو ، أو ابن عمها ورقة بن نوفل في رواية أخرى : « هو الفحل الذي لا يقدع أنفه » . وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ، ولم يتزوج عليها في حياتها الى أن قارب الخمسين ..

ومن خديجة ولد للنبي جميع أبنائه ما عدا ابراهيم ابنه من مارية القبطية ، وهم : القاسم ، والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، أصغرهم باتفاق معظم الأقوال .

وكان النبي عليه السلام عند زواجه بالسيدة خديجة في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، أما السيدة خديجة فمن كتّاب السيرة من يقول انها كانت في الأربعين أو الخامسة والأربعين ، ومنهم ابن عباس يقول : « انها كانت في الثامنة والعشرين ولم تجاوزها » . وأحرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات الى الصحة . لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها ، ولأن المرأة في بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر لا تتصدى للزواج بعد الاربعين ، ولا يعهد في الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد ، عدا من جاء في بعض الروايات انهم ولدوا مع مَن ذكرنا أسماءهم ..

وقد يرجّح تقدير ابن عباس غير هذا ان مثل خديجة تتزوج في نحو الخامسة عشرة أو قبلها ، لجمالها ومالها وعراقة بيتها وطمأنينة أهلها ، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما طول الأمد ، وان كنا لا نعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجها من أبي هالة ومن عتيق ابن عائذ ، فمن الكلام عن ذريتها منهما يبدو ان أيامها معهما لم تزد على بضعة أعوام ..

« عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .. »

وأمامنا ألف مصداق على هذه الآية في سيرة الرسول العظيم الذي

تنزلت عليه تلك الحكمة الالهية .

لقد تأخرت به قلة المال فلم يتزوج قبل العشرين ، خلافاً لما جرى عليه العرف بين علية القوم ، وهو من تلك العلية في الذؤابة العليا .

ولقد عزت الهناءة الزوجية على السيدة الغنية الوضيئة الذكية ، فتأيمت في نحو الثلاثين .

ولو كثر مال محمد لعله كان يبني قبل العشرين بكريمة معشر تصغره ببضع سنين ، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل انسان عاقل رشيد ..

ولو تيسرت الهناءة الزوجية لخديجة لعلها كانت في غنى عمن يتجر لها ويؤتمن على قوافلها بين الحجاز والشام ، ولكان لها من مالها ومال زوجها عون في الرحلة والمقام ، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل انسان عاقل رشيد ..

أيهما كان خيراً ؟ ..

هذا الذي كان كما كان ، أو ذاك الذي كان يحسبه كل عاقل رشيد صفوة الحظ الحسن الرشيد ؟!

لم تمض سنوات على هذه الآصرة القدسية التي جمعت بين الزوجين الكريمين حتى طرأ طارىء لم يدخل لهما في حساب واستجاش الغيب نفس رسوله فتحفزت لأداء الأمانة الجلّى التي جاشت بها جوانح الدنيا مئات السنين ..

فلم يجد محمد الى جانبه فتاة غريرة تفزع ولا تدري ما تصنع ، بل وجد الى جانبه قلباً كريماً وروحاً عظيماً وسكَناً تهدأ عنده جائشة ضميره وتطمئن اليه خشية فؤاده ، ولم يكن قصارى الأمان عند حليلته التي سكن اليها انها حنكة السن وحنان الأمومة ، ولكنه أمان الذي يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرسالة وما أمانة الحق والفضيلة ، وما عاقبة الصبر على العرواء

التي تندك لها عزائم وتطيش لها أحلام ، ولا يتلقاها كما يتلقى البشارة المفرحة الا من هو كفؤ لها من بني آدم وحواء .

وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان خليق على قلته أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش ، ولكن هذا القليل الذي علمناه لو ذهب كله ولم يبق منه الا أيام حضانتها لبشائر النبوة في طلعتها — لضمن لها أن تتبوأ مقام السيادة بين نساء العالمين .

وقد بقي محمد يذكر لها تلك الأيام الى مختتم أيامه، وظل يتفقدها ويتفقد مواطن ذكراها أعواماً بعد أعوام ، لقد كان فيها الشغل الشاغل عن أطيب الأيام وأصعب الأيام . وان وفاء كهذا لهو وحده كفاية المستقصي في التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رؤوم ، فما من شهادة لانسانة هي أصدق من دوام الوفاء لها في قلب انسان عظيم .

نشأتها

اذا وصفت نشأة الزهراء بكلمة واحدة تغني عن كلمات فالجد هو تلك الكلمة الواحدة ..

درجت في دار ابويها ، والدار يومئذ مقبلة على أمر جلل لم تتجمّع بوادره في غير تلك الدار ، وغار حراء .

أمر جلل لا تقف جلالته عند جدران الدار ، ولا عند أبواب المدينة التي اشتملت عليها ، ولا عند حدود الجزيرة العربية بعمارها وقفارها ، بل هو الأمر الجلل الذي يطبق العالم بأسره عصوراً وراء عصور ، لأنه هو أمر الدعوة الاسلامية التي كانت يومئذ تختلج في صدر واحد ، هو صدر أبي الزهراء عليه السلام .

ما هذه الصلوات والتسبيحات ؟ ما هذه الهينمة بين الأبوين ؟ ما هذا الوجل وما هذا القنوت ؟

أكبر الظن أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئاً من هذا لأن الطفل لا يستغرب الأمر الا اذا رأى ما يخالفه ، وهي لم تفتح عينيها على غير هذه البوادر والمقدمات .

أكبر الظن ان الزهراء الصغيرة لم تستغرب شيئاً مما كان يحيط بها وهي تدرج في مهدها ، ولكن الطفل الذي يحسب هذه المشاهد من مألوفاته ينفرد

بمألوفات لا تتكرر من حوله ، ويتخذ له قياساً للألفة والغرابة منفرداً بين أقيسة النفوس .

وأكبر الظن أنه ينشأ منطوياً على نفسه ، مستخفاً بما يخف له الناس من حوله ، متطلباً من عادات النفوس وطبائعها غير ما يتطلبون .

ولقد أوشكت الزهراء أن تنشأ نشأة الطفل الوحيد في دار أبويها ، لأنها لم تجد معها غير أخت واحدة ليست من سنِّها ، وغير أخيها هند ، وهو أكبر منها ومن أختها ، ولم يكن من عادة الطفولة العربية أن يلعب البنات لعب الصبيان .

وأوشكت عزلة الطفلة الوحيدة أن تكبر معها ، لأنها لم تكن تسمع عن ذكريات أخوتها الكبار الا ما يحزن ويشغل : ماتوا صغاراً وخلفوا في نفوس الابوين لوعة كامنة وصبراً مريراً ، أو تزوج من الأخوات الأحياء من تزوج وخطب من خطب ، ثم لم تلبث الخطبة ان ردت الى اختين ، لأنهما خطبتا الى ولدي ابي لهب ، ثم أصبح أبو لهب عدواً للأبوين يمقتهما ويمقتانه ، فانتهت خطبة الأختين الشقيقتين بهذا العداء .

جدٌّ من كل جانب تركن اليه ، وانطواء على النفس لا تستغربه ولا تحب أن تتبدله ، ملاذها في كل هذا حنان أبوين لا كالآباء : حنان جاد رصين ، ونكاد نقول : بل حنان صابر حزين ، يشملها به الاب الذي مات أبناؤه ولا عزاء له من بعدهم غير عبء النبوة الذي تأهب له زمناً ونهض به زمناً ولا يزال يعاني من حمله ما تنوء به الجبال ، وتشملها به الأم التي جاوزت الأربعين وبقيت لها في خدرها هذه البنية الدارجة صغرى ذريتها ، والحنان على الصغرى من الذرية بعد فراق الذرية كلها بالموت أو بالرحلة حنان لعمر الحق صابر حزين .

ولقد نعمت الزهراء بهذا الحنان من قلبين كبيرين : حنان أحرى به أن يعلم الوقار ولا يعلم الخفة والمرح والانطلاق .

وتعلمت الزهراء في دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها في مكة : آيات من القرآن وعادات يأباها من حولهم العابدون وغير العابدين .

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من البنات في حاضرة الجزيرة العربية ، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك انها كانت تضمد جراح أبيها في غزوة أحد ، وانها كانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ولا يعينها أحد في أكثر أيامها .

ويبدو لنا انطواء الزهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها ، فلم تعرض قط لشيء غير شأنها وشأن بيتها ، ولم تتحدث قط في غير ما تسأل عنه أو يلجئها اليه حادث لا ملجأ منه ، فلا فضول هنالك في عمل ولا في مقال ..

وسواء صح ما جاء في الانباء عن محاجّتها للصدّيق بالقرآن الكريم أو كان فيه مجال للمراجعة ، فالصحيح الذي لا مراجعة فيه انها سمعت القرآن الكريم من النبي وسمعته من عليّ ، وانها صلّت به ووعت أحكام فرائضه ، وانها وعت كل ما وعته فتاة عربية أصيلة العرق والنسب ، وزادت عليه ما لا يعيه غيرها من الأصيلات المعرقات .

لقد نشأت نشأة جد واعتكاف : نشأة وقار واكتفاء، وعلمت مع السنين انها سليلة شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراه ، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذي لا يدانى ، وشبت بين انطوائها على نفسها واكتفائها بشرفها كأنها في عزلة بين أبناء آدم وحواء .

سكنت هذه النفس القوية جثماناً يضيق بقوتها ، وقلما رزق الراحة من اجتمع له النفس القوية والجثمان الضعيف ، فانهما مزيج متعب للنفس والجسم معاً ، لا قوام له بغير راحة واحدة : هي راحة الايمان ، وهذا هو التوفيق الأكبر في نشأة الزهراء ، فانها نشأت في مهد الايمان اذ هو ألزم ما يكون لها بين قوة نفسها ونحول جثمانها .

زواجها

قال الزرقاني في شرح المواهب اللدنية : — ان عبد الله بن حسن دخل على هشام بن عبد الملك وعنده الكلبي فقال هشام لعبد الله : يا أبا محمد ! كم بلغت فاطمة من السن ؟ قال : ثلاثين سنة ، فقال الكلبي : خمساً وثلاثين . فقال هشام : اسمع ما يقول ، وقد عني بهذا الشأن . فقال : يا أمير المؤمنين : سلني عن أمي وسل الكلبي عن أمه » .

وتوافق هذه الرواية روايات متعددة ، اتفقت على أن الزهراء ولدت في سنة بناء الكعبة قبل البعثة المحمدية ببضع سنوات ، فأصح الأقوال بين الأخبار المتضاربة أنها عليها السلام قد تزوجت وهي في نحو الثامنة عشرة .

ومن جملة الأخبار يتضح ان النبي عليه السلام كان يبقيها لعليٍّ رضي الله عنه . فقد خطبها أبو بكر وعمر فردهما وقال لكل منهما : انتظر بها القضاء ، أو قال انها صغيرة كما جاء في سنن النسائي .

وفي أسد الغابة انها لما خطبها أبو بكر وعمر وأبى رسول الله قال عمر : « أنت لها يا علي ! » فقال علي : « ما لي من شيء الا درعي أرهنها » فزوّجه رسول الله فاطمة ، فلما بلغ ذلك فاطمة بكت ، ثم دخل عليها رسول الله فقال : « ما لك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حلماً وأولهم سلماً » .

وفي رواية أن علياً لما سأله النبي : « هل عندك من شيء ؟ » قال : « كلا » . فقال له : « وأين درعك الحطمية ؟ » أي التي تحطم السيوف ، وكان النبي قد أهداه اياها ، فباعها وباع أشياء غيرها كانت عنده ، فاجتمع له منها أربعمائة درهم ..

جاء في أنساب الاشراف للبلاذري : « فباع بعيراً له ومتاعاً فبلغ من ذلك أربعمائة وثمانين درهماً ويقال أربعمائة درهم ، فأمره أن يجعل ثلثها في الطيب وثلثها في المتاع ففعل .. »

ثم استطرد صاحب الانساب الى رواية أخرى ، يرتفع سندها الى عليٍّ نفسه قال : « سمعت علياً عليه السلام يقول : « أردت أن أخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فقلت : والله ما لي شيء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها اليه » فقال : « وهل عندك من شيء ؟ » قلت : « لا » قال : « فأين درعك التي أعطيتك يوم كذا ؟ فقلت : هي عندي ! قال : فأعطها اياها » .

وفي طبقات ابن سعد أن رسول الله قال لما خطب أبو بكر وعمر فاطمة : « هي لك يا علي ! لستُ بدجال » يعني لست بكذاب . وذلك أنه كان وعد علياً بها قبل أن يخطبها .

ويروى عن النبي أنه قال لفاطمة : « ما آليت أن أزوجك خير أهلي» .

وجهزت وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف ونورة من أدم (اناء يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح ورحاءان وجرّتان ..

وعن أنس بن مالك أن النبي قال له : انطلق وادع لي أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار ، قال فانطلقت فدعوتهم ، فلما أخذوا مجالسهم قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهروب اليه من عذابه ، النافذ أمره في

أرضه وسمائه ، الذي خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم . ان الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لاحقاً وأمراً مفترضاً وحكماً عادلا وخيراً جامعاً، أوشج بها الأرحام وألزمها الأنام . فقال الله عز وجل : وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً ، وأمر الله يجري الى قضائه ، وقضاؤه يجري الى قدره ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ثم ان الله تعالى أمرني أن أزوّج فاطمة من عليٍّ وأشهدكم أني زوّجت فاطمة من عليٍّ ، على أربعمائة مثقال فضة ان رضي بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » .

قال أنس : « وكان علي عليه السلام غائباً في حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه فيها .. ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا ، فقال انتبهوا . فبينما نحن كذلك اذ أقبل علي فتبسم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا علي ! ان الله أمرني أن أزوجك فاطمة ، واني زوجتكها على أربعمائة مثقال فضة ، فقال علي : رضيت يا رسول الله ! ثم ان علياً خرَّ ساجداً شكراً لله ، فلما رفع رأسه قال الرسول صلى الله عليه وسلم : بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب» .

قال أنس : « والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب » .

ومن المرجح جداً أن الزهراء قد استشيرت في زواجها على عادة النبي عليه السلام في تزويج كل بنت من بناته كما جاء في مسند ابن حنبل ، فيقول لها : فلان يذكرك ، فان سكتت أمضى الزواج ، وان نقرت الستر علم أنها تأباه ، وفي زواج الزهراء قال لها : يا فاطمة ! ان علياً يذكرك. فسكتت ، وفي روايات أخرى أنه وجدها باكية ، فذاك حيث قال رسول

الله : « ما لك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حلماً وأولهم سلماً » .

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذي تم فيه الزواج ، ولكنهم قالوا انه كان بعد الهجرة ، وبعد غزوة بدر .. وأرجح الأقوال كما قدمنا انها كانت في نحو الثامنة عشرة ، وزوجها أكبر منها ببضع سنوات ..

توخينا في اقتباس هذه الأخبار أن نرجح منها الأوسط الأمثل بين أقوال الرواة والمحدثين ، فما من خبر من هذه الأخبار وصل الينا في كتب السيرة على رواية واحدة ، وقد يبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالزمن خمس سنوات أو أكثر ، ويبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالأقوال والأعمال أن تتناقض مناقضة القبول والإباء والرضى والانكار ، فلا مناص من الأخذ بالاوسط الامثل بين جميع هذه الاقوال .

ونحن نعني بالأوسط الأمثل أن يكون الترجيح قائماً على المقابلة والموازنة والرجوع الى حوادث الزمن وعادات أهله ، والى الأحرى أن يصدر ممّن أسند اليهم القول أو نُسب اليهم العمل .. فان الأخبار اذا تساوت رجح بينها ما هو أشبه بالزمن وأهله وأصحاب السيرة فيه .

فمن المعقول مثلا أن يؤثر النبي علياً بفاطمة وهما ربيبان في بيئة واحدة ، ومن المعقول أن يؤثر زواجها من عليٍّ على مشاركتها في بيت أبي بكر وعمر لزوجات الشيخين ، ومن المعقول أن يتردد علي في خطبتها لفقره . ولا يخالف المعقول ولا المألوف أن يقدم بعد تردد ، لشعوره بأنه مخصوص بها وأنه ينبغي عليه أن يقطع الشك باليقين ويعمل من عنده ما لا بد له من عمله ، ولا يخالف المعقول ولا المألوف كذلك أن يتأخر الزواج الى ما بعد الهجرة ، لأن حياة المسلمين في مكة — قبل الهجرة الى المدينة — لم تكن حياة أمن ولا استقرار ، ولم يكن من النادر أن يهاجر المسلمون بزوجاتهم الى بلد بعيد كالحبشة كلما ملكوا وسائل الهجرة ، فمن كان متزوجاً قبل اشتداد

العنت على المسلمين فلا حيلة له في الزواج ، ومن لم يكن فليس أخلق به من ارجاء الزواج الى حين .

ذلك كله هو المعقول المألوف ، وهو الأوسط الأمثل اذا تساوت الأخبار ووجبت الموازنة والترجيح .

الا أن التاريخ يكتب للاعتبار ، ولا يقصد من الاعتبار به شيء أهم من تصحيح النظر الى الحوادث والناس ، واستخلاص الحقيقة عما يقع ولا يقع وعما يجوز ولا يجوز .

وها هنا محل لعبرتين كأهم العبر في كتابة التاريخ : كتابته في الأزمنة الغابرة ، وكتابته في الزمن الحديث .

فأهم العبر التي تستخلص من تواريخ عصر البعثة المحمدية أن يقتصد ذوو الأحكام التاريخية في المسائل الكبرى فلا يرتبوا حكماً قاطعاً في مسألة كبيرة على أرقام السنين وألفاظ الروايات ، فما كان من الأخبار مجمعاً عليه أو مقارباً للاجماع فهو جدير باتخاذ الأحكام الجازمة فيه ، وما كان ميزان الحكم فيه كلمة تقابلها كلمات ، أو فرضاً تقابله فروض ، أو رقماً ويوماً تقابله أرقام وأيام بل أعوام ، فليس من القصد أن يعطى فوق معياره من الجزم واليقين ، وبخاصة حين ينبني عليه اتهام أو قضاء لا يقوم في مسائل كل يوم بغير بينة تنفي كل شبهة وتبطل كل محال .

أما العبرة في تاريخنا العصري فمرجعها الى كتابة طائفة من العصريين يزعمون انهم يطبقون روح العصر على تاريخنا القديم وأنهم يصححونه بهذا التطبيق ، وليس أعجز منهم عن تحقيق هذه الدعوى ، لأنهم أثبتوا فيما كتبوه أنهم يزنون بميزانين وينظرون بعينين ، ويختلقون أسباب التشويه والتحريف ..

أولئك هم طائفة المستشرقين الذين يجمعون بين الاستشراق والتبشير

فمن هؤلاء من يطالع في الكتب الدينية التي يصدقها فيقرأ فيها من أخبار الدعاة والأدعياء أموراً لا شك في أنها من العيوب فلا يحسبها عيوباً ، ولا يتأفف منها ، بل يعنت فكره ويعنتها تخريجاً وتعويجاً حتى يقبلها ، ويفرض قبولها على الناس ..

فاذا طالع كتباً عن أصحاب دين غير دينه لم يأخذ نفسه بمثل هذا التحسين والتزيين ، بل أخذها على النقيض من ذلك بالمسخ والتشويه وتحويل المحاسن الى عيوب ، أو بالتنقيب في كل مكان عما يعاب ان لم يجد ما يعيبه في ظاهر السطور والحروف .

وما من شيء يمسخ الدين ويمسخ العلم معاً كما يمسخها هذا الخلق الذميم ، فان الدين لا يعلّم الانسان شيئاً ان لم يعلمه حب الصدق واجتناب التمحل والافتراء ، وان العلم شر من الجهل ان كان يسوم الانسان أن يغمض عينيه لكيلا يرى ويوصد أذنيه لكيلا يسمع ، فليس هذا جهلا يزول بكشف الحقيقة ، ولكنه مرض يتعمد حجب الحقيقة عن صاحبه وهي مكشوفة لديه ، فهو شر من الجهل بلا مراء .

وفي تاريخ الزهراء مثال للعبرة التي تستخلص من كتب هؤلاء «العلماء» الذين هم شر من الجهلاء ، وأحدهم قد خصص كتاباً لتاريخ الزهراء يحاول فيه جهده أن « يطبق » ذلك العلم العصري المقلوب ، فاذا هو منقلب عليه ..

يؤلف رجل من رجال الدين المستشرقين الذين عاشوا زمناً في الشرق — كتاباً عن الزهراء ليرضي فيه ذلك « العلم العصري » المقلوب ، ويبحث عن العيوب حيث لا عيوب ، فاذا العيب هو في الاسفاف ، وكم في الاسفاف من عيوب ، بل من ذنوب !!

ومن تفاهاته وسفاسفه أنه يحاول جهده أن يثبت أن السيدة فاطمة لم تتزوج قبل الثامنة عشرة لأنها كانت محرومة من الجمال ، ولم تصدق

أن أحداً يخطبها بعد تلك السن ، ثم يقول انها لما عرض عليها النبي الزواج من علي سكتت هنيهة ولكنها لم تسكت خجلا بل دهشة من أن يخطبها خاطب ، ثم تكلمت فشكت ، لأنها تزوج من رجل فقير .. !

لو كان السند الذي استند اليه هذا « العالم » واضحاً ملزماً لقلنا انها أمانة العلم ، ولا حيلة للعالم في الأمانة العلمية .. !

لكن السند كله قائم على أن السيدة فاطمة تزوجت في الثامنة عشرة من عمرها ، وتقابله اسناد اخرى تنقضه وتتراءى للمؤلف حيثما نظر حوله ولكنه لا يحب أن يراها ، لأنه يحب ان يرى ما يعيب ولا يحب أن يرى ما لا عيب فيه ..

فالمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة ولدت لأبوين جميلين ، وان أخواتها تزوجن من ذوي غنى وجاه ، كأبي العاص بن الربيع وعثمان بن عفان .

وليس من المألوف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال وأن تُحرمه احدى البنات !

والمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة بلغت سن الزواج والدعوة المحمدية في ابانها ، والمسلمون بين مهاجر أو مقيم غير آمن ، والحال قد تبدلت بعد الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمات مقصورة على المسلمين ، وهؤلاء المسلمون قلة ، منهم المتزوج ومنهم من لا طاقة له بالزواج ، فلا حاجة بالمؤلف الى البحث الطويل ليهتدي الى السبب الذي يؤخر زواج بنت النبي الى الثامنة عشرة ، ولو كانت اجمل الجميلات ..

وفي وسعه كذلك أن يتصور أن النبي يخص بها ابن عمه ، وينتظر بها يوم البت حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ويستقر على حال بينه وبين آله الذين لا يزالون على دين الجاهلية فلا هم في ذلك الوقت ذووه ولا هم بعداء عنه .

كل ذلك قريب كان في وسع «العالم المحقق» أن يراه تحت عينيه ، قبل أن يذهب الى العلة التي اعتلها لتأخير الزواج ، فلا يرى له من علة غير فقدان الجمال .. ولكن الأسباب الواضحة القريبة لا يلتفت اليها لأنها لا تعيب ، والسبب الخفي البعيد تشوبه غضاضة ، فهو الجدير اذن بالالتفات.

وكأنما كان «العالم المحقق» في حاجة الى جهالة فوق جهالته ، فهو يفهم من بكاء السيدة فاطمة انه شكاية من فقر علي بن ابي طالب ، ويسند هذا الفهم الى رواية البلاذري في أنساب الاشراف ، بعد زعمه أن فاطمة أبلغت زواجها بعلي فسكتت من الدهشة لا من الخجل ، وانما دهشت لأنها لم تكد تصدق أن أحداً يخطبها بعد أن قاربت العشرين .

افمن المألوف أو من التطبيق العلمي أن تكون الفتاة يائسة من الزواج، مدهوشة من خطبة الخطيب ، ثم تتعلل العلل وتفرض الشروط وتستعظم نفسها على بني عمومتها الفقراء ، وليست هي يومئذ من الأغنياء؟

كلا ! ليس ذلك بالمألوف ولا بالتطبيق العلمي ، ولكنه تمحل للظن فضيلته الكبرى أنه يشمل على مساس بفاطمة وعلي ... فهو اذن أحق بالترجيح من كل تقدير مألوف .

والبلاذري – بعد – لم يذكر شيئاً من هذا وليس في كلامه عن مناقب علي أو فاطمة شيء من قبيل الجواب الذي ينسب الى الزهراء غير روايته الحديث بسنده وهو : «حدثنا عبد الله بن صالح عن شريك عن ابي اسحاق عن حبشي بن جنادة قال : لما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ارعدت فقال : اسكتي ! فقد زوجتك سيداً في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين» ..

هذا ما وجدناه في النسخة المنقولة من مخطوطة الاستانة ، ومن المطبوعة في أوربه ، فتفسير «الرعدة» بذلك المعنى انما هو من ابداع المؤلف الحصيف !..

هذا مثال من تحقيق هؤلاء المحققين حين يكتبون عن تاريخ أعلام الشرق وحوادثه ، نمر به لعبرته النافعة في وزن التواريخ العصرية المزعومة، ولا ننبه اليه لقول قائل ان السيدة فاطمة كانت محرومة من الجمال .. فانه لو صح لما كان فيه مهانة على سيدة شرفتها أكرم الأبوات كما شرفتها أكرم البنوات ، ولكننا ننبه اليه لأنه عبرة المعتبرين فيما يصنعه العقل بنفسه حين يمسخه مرض الأهواء ، فيفتري على العلم والدين ما تأباه امانة العلم، ويعافه أدب الدين ..

ونعود الى قياس الأخبار بالموازنة أو بما هو مألوف ومعقول ، فنقول اننا بحثنا عن خبر من اخبار زواج البنات في آل محمد وآل علي ، فلم نجد في عصر النبوة غير خبر واحد على قبيل الخبر الذي قيل فيه إن السيدة فاطمة أشارت الى فقر علي حين بُلغت خطبته لها ، وهو تزوج السيدة أم كلثوم..

وبين الخبرين ، مع هذا ، بون بعيد ..

جاء في اسد الغابة عن حسن بن حسن بن علي بن ابي طالب أنه قال : « لما تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخل عليها حسن وحسين أخواها فقالا : « انك ممن قد عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدتهن ، وانك والله ان أمكنت علياً من رمتك لينكحك بعض أيامه ، وان أردت أن تصيبي بنفسك مالا عظيماً لتصيبنه » ، فوالله ما قاما حتى طلع علي يتكىء على عصاه ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله وقال : قد عرفتم منزلتكم عندي يا بني فاطمة وأثرتكم على سائر ولدي لمكانكم من رسول الله عز وجل ، فقالوا : صدقت رحمك الله ، فجزاك الله عنا خيراً . فقال : أي بنية ! ان الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك ، فأنا أحب أن تجعليه بيدي . فقالت : اي أبه ! اني امرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء وأحب أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيا ، وأنا أريد ان انظر في أمر نفسي . فقال : لا والله يا بنية ! ما هذا من رأيك . ما هو الا رأي هذين.!

ثم قام فقال : والله لا أكلم رجلا منهما أو تفعلين ، فأخذا بثيابه فقالا : اجلس يا أبة ، فوالله ما على هجرتك من صبر . اجعلي أمرك بيده . فقالت : قد فعلت ! قال : فاني قد زوجتك من عون بن جعفر ، وانه لغلام ، وبعث لها بأربعة آلاف درهم » .

هذه المؤامرة المحببة بين أخوين وأختهما ليسعداها بزواج أرغد من الزواج الذي يختاره أبوهم – تنتهي بطاعة الحب للاب الذي لا يصبر على غضبه وتدل في سرها وعلانيتها على أجمل ما يكون بين الأخوة والآباء من عطف وتوقير .. وليس فيها من الشبه برواية البلاذري غير اشفاق الفتاة من عيشة الضنك دون أن يكون هناك خطيب معروف تقابل خطبته بالاعتراض والمراجعة ، وشتان مقال أم كلثوم وما رواه الرواة عن أمها البتول .

فاذا كان للخبر الذي جاء في أنساب الاشراف أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبي عليه السلام قد وجد الزهراء باكية وليس في ذلك من غرابة ، لأننا لا نتخيل فتاة في مثل موقفها لا يبكيها ما تثيره في نفسها ذكرى أمها ووداع بيت ابيها ، وقد فارقتها أمها وهي صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها والطافها لها في رخائها وعسرها ، ثم يكون يوم الفصال في غربة من البيت الذي لزمتها فيه ومن البلد الذي يحتويه ، فان جهدنا أن نتخيل فتاة لا تبكي حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقترب من اليوم الفاصل بين معيشتها في كنف ابيها ومعيشتها في غير كنفه ، فموضوع الغرابة أن نتخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسية ، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين وأسى دفين على أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين ..

ومثل النبي الذي كانت كبرى فضائله انه انسان عظيم ، وانه كان أباً مكلوم الفؤاد ، لن يفوته ذلك الخاطر في ذلك اليوم ، ولن يسكت عنه الا عامداً عالماً بما يلعجه في النفس من الحزن والشجن ، فمن اللطف بالفتاة

الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاءه لها ما قاله عليه السلام : « ما لك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حلماً وأولهم سلماً »..

ولم يمض غير قليل حتى تبين لنا سبب من الأسباب التي أطالت بقاء فاطمة في بيت ابيها ، فانه عليه السلام كان يحنو عليها لضعفها وحزنها ولا يصبر على فراقها ، فلما تحولت عن داره بعد زواجها لم تمض أيام حتى ذهب اليها فقال لها : اني اريد أن أحولك الي . فقالت : فكلم حارثة ابن النعمان أن يتحول عني . قال رسول الله : قد تحول حارثة بن النعمان عنا حتى استحيت منه . فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبي فقال : يا رسول الله ! انه بلغني انك تحول فاطمة اليك ، وهذه منازلي ، وهي أسقب بيوت بني النجار بك ، وانما أنا ومالي لله ولرسوله ، والله يا رسول الله للمال الذي تأخذ مني أحب الي من الذي تدع . فقال رسول الله : صدقت . بارك الله عليك ! فحولها رسول الله الى بيت حارثة .

جاء في كتاب السمهودي عن أخبار دار المصطفى : « ان بيت فاطمة رضي الله عنها في الزور الذي في القبر بينه وبين بيت النبي صلى الله عليه وسلم خوخة ... وكانت فيه كوة الى بيت عائشة رضي الله عنها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام اطلع من الكوة الى فاطمة فعلم خبرهم ، وان فاطمة رضي الله عنها قالت لعلي ان ابني أمسيا عليلين فلو نظرت لنا أدماً نستصبح به ! فخرج علي الى السوق فاشترى لهم أدماً وجاء به الى فاطمة ، فاستصبحت ... فأبصرت عائشة المصباح عندهم في جوف الليل – وذكر كلاماً وقع بينهما – فلما أصبحوا سألت فاطمة النبي صلى الله عليه وسلم أن يسد الكوة فسدها » .

الى أن قال ما خلاصته من جملة أسانيده : « انه صلى الله عليه وسلم كان يأتي باب علي وفاطمة وحسن وحسين كل يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بعضادتي الباب ويقول : السلام عليكم أهل البيت ، ويقول : الصلاة !

ثلاث مرات ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ... وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يثني بفاطمة ، ثم يأتي بيوت نسائه .

« وأسند يحيى عن محمد بن قيس قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ، فخرج مرة في سفر وصنعت فاطمة مسكتين من ورق (بكسر الراء) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ووقف أصحابه على الباب لا يدرون أيبقون أم ينصرفون لطول مكثه عندها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عرف الغضب في وجهه حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة انه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر ... فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها ونزعت الستر وبعثت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت للرسول : قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هذا في سبيل الله . فلما أتاه قال : قد فعلت ، فداها أبوها ، ثلاث مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » .

وانتظمت الحياة في السكن الجديد الذي أوى الى ظل النبي على مثال من حياة النبي في بيته : عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته ، اذ كان رزق عليٍّ من وظيفة الجندي ، ووظيفته من فيء الجهاد ، وقد كان قليلاً في حياة النبي ، وهو مقصور على الجزيرة العربية ، فكان نصيب علي منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم ، وكلما رزق وليداً جاءته حصته على قدر شأنه كشأن كل أب من المسلمين .

وما لبث البيت الصغير أن سعد بالذرية ، وقد رزق الأبوان الفقيران نصيباً صالحاً من البنين والبنات : الحسن والحسين ومحسن ، وزينب وأم كلثوم ..

وكان أسعد ما يسعدان به عطف الأب الأكبر الذي كان يواليهم به جميعاً ولا يصرفه عنه شاغل من شواغله الجسام في محتدم الدعوة والجهاد، وقد أوشكت كل كلمة قالها في تدليل كل وليد أو الترحيب به أن تصبح تاريخاً محفوظاً في الصدور والأوراق.

فلما ولد الحسن سماه والداه حرباً فجاء رسول الله فقال: أروني ابني ما سميتموه؟ قالوا: حرب! قال: بل هو حسن، وهكذا عند مولد الحسين، وعند مولد المحسن، وقد مات وهو صغير.

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبي، والنبي يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان، ولم يلبث أن حفظها المشرقان..

حُزقّه [1] .. حُزقّه .. ترقّه .. ترق عين بقّه.

وربما شوهد النبي عليه السلام ساجداً وطفل من هؤلاء الاطفال راكب على كتفيه، فيتأنى في صلاته ويطيل السجدة لكيلا يزحزحه عن مركبه، وفي احدى هذه السجدات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد: المطيّة مطيّتك!..

بل ربما كان على المنبر، فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران، فيسبقه حنانه اليهما وينزل من المنبر ليحملهما، وهو يقول: «صدق الله العظيم! انما أموالكم وأولادكم فتنة!»

وكان اذا سمع أحدهما يبكي نادى فاطمة وقال لها: «ما بكاء هذا الطفل؟.. ألا تعلمين ان بكاءه يؤذيني؟».

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حيناً بعد حين، ويتولى خدمة الأطفال بنفسه وأبواهم قاعدان. ففي احدى هذه الليالي سمع الحسن يستسقي

---

١ - الحزق: القصير.

فقام صلوات الله عليه الى قربة فجعل يعصرها في القدح ثم جعل يعبعبه ، فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن ، قالت فاطمة : كأنه أحب اليك ؟. قال : انما استسقى أولا !

وقد يلفهم جميعاً في برد واحد فيقول لهم : «أنا وأنتم يوم القيامة في مكان واحد !»

وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعاً من أبوة الأب الصغير، فكانت فاطمة تقول اذا رقصت طفلها :

وابأبي شبه النبي   لست شبيهاً بعلي

وكانوا يتغايرون على هذا تغاير المحبين ، الذين يتنافسون على حب لا يمنع بعضهم بعضاً أن يتنافسوا عليه.

* * *

حياة سعيدة مع الشظف والفاقة : سعيدة بالعطف في قلوب كبار ، ما كان حطام الدنيا عندها ليساوي مثقال ذرة من هباء.

ولم تخل هذه الحياة ، وما خلت حياة آدمي قط ، من ساعات خلاف وساعات شكاية ، فربما شكت فاطمة وربما شكا علي ، وربما أخذت فاطمة على قرينها بعض الشدة وما هي بشدة ، فما كان رجل مثل علي ليعنف على بنت رسول الله وهو يعلم مكانها من قلب رسول الله. انما هو اعتزاز فاطمة بنفسها واباؤها أن تهمل حيث كانت ، وانما هو الحنان الذي تعودته من أبيها فلا تستريح الى ما دونه ، وكل حنان بعد حنان ذلك القلب الكبير فكأنه قسوة أو قريب من القسوة عند من يتفقده فلا يجد نظيره في قلب انسان..

وكان الأب الأكبر يتولى صلحهما في كل خلاف ، وربما ترك مجلسه بين الصحابة ليدخل الى الأخين المتخاصمين فيرفع ما بينهما من جفاء.

والصحابة الذين يتتبعون في وجه النبي كل خالجة من خوالج نفسه ، ويبيحون أنفسهم أن يسألوه لأنه لا يملك من ضميره ما يضن به على المتعلم والمتبصر ، يجرون معه على عادتهم كلما دخل البيت مهموماً وخرج منه منطلق الأسارير ، فيسألونه فيجيب : « ولم لا وقد أصلحت بين أحب الناس اليّ ! » ..

ومرة من هذه المرات ، بلغ العتاب غاية ما يبلغه من خصومة بين زوجين ، ونمي الى فاطمة أن علياً يهم بالزواج من بنت هشام بن المغيرة ، فذهبت الى أبيها باكية تقول : « يزعمون انك لا تغضب لبناتك ؟ »

كلمة تعلم وقعها في نفس أبيها الذي ما زعمت هي قط انه يرضى بما يغضبها ، وقد عرف أبوها ما تعني . لأن بني هشام بن المغيرة استأذنوه في تزويج بنتهم من زوج فاطمة ، فصعد المنبر والغضب باد عليه ، وقال على ملأ من الحاضرين : « ألا ان بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن يُنكحوا ابنتهم علياً ، ألا واني لا آذن .. ثم لا آذن .. ثم لا آذن .. انما فاطمة بضعة مني يُريبني ما رابها .. »

ولا نعلم نحن من شرح هذه الخطبة غير ما جاء في رواياتها المختلفة ، ولكننا نعلم أن هذه الفتاة أسلمت وبايعت النبي وحفظت عنه ، فلعلها قد خيف عليها الفتنة أن تتزوج بغير كفء من المسلمين ، وأهلها هم من هم في المكانة والحسب لا يرضيهم من هو دون ابن أبي طالب من ذوي قرابتها ، أو لعلها غضبة من غضبات علي على أنفة من أنفات فاطمة ، أو لعلها نازعة من نوازع النفس البشرية لم يكن في الدين ما يأباها ، وإن أباها العرف في حالة المودة والصفاء .

ولا نحسب أن حياة الزهراء والامام تعرضت لخلاف غير الذي أشرنا اليه ، فان كتب السيرة تستقصي كل جليل ودقيق من الحديث عن ذرية النبي .. وهي وأبناؤها كل ذرية النبي الذين عاشوا بعده ، ولم يطل بها

العمر فلحقت بالنبي صلوات الله عليه بعد وفاته ببضعة أشهر ، وكان علي قد عاهد نفسه لا يغضبنها وقد غابت عنها عين أبيها، فلم يغضبها بعد ذلك حتى في أمر الخلافة ، وهو يومئذ أجل الأمور .

* * *

بلاغتها

قال الامام أبو الفضل أحمد بن طاهر في كتاب بلاغات النساء :

« .. لما أجمع أبو بكر رضي الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم — فدك ، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها وأقبلت في لمة من حفدتها تطأ ذيولها ما تخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار فنيطت دونها ملاءة ثم أنّت أنة أجهش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس ، فأمهلت حتى سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد القوم في بكائهم فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فان تعزوه تجدوه ابي دون نسائكم ، وأخا ابن عمي دون رجالكم فبلغ النذارة صاعداً بالرسالة ، مائلا على مدرجة المشركين ، ضارباً لثجنهم [1] آخذاً بكظمهم ، يهشم الأصنام وينكت الهام ، حتى هـُزم الجمع وولوا الدبر وتفرّى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه ، ونطق زعيم الدين وخرست شقائق الشياطين ، وكنتم على شفا

١ — الثجن (بسكون الجيم وتحريكها) : الطريق الوعر (يمانية) .

حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطىء الأقدام تشربون الطريق [1] وتقتاتون القد ، أذلة خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم ، فانقذكم الله برسوله صلى الله عليه وسلم بعد اللتيا والتي وبعد ما مُني ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب كلما حشوا ناراً للحرب أطفأها ونجم قرن للضلال وفغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه في لهواتها فلا ينكفىء حتى يطأ صماخها باخمصه ويخمد لهيبها بسيفه مكدوداً في ذات الله قريباً من رسول الله ، سيدا في أوليـــاء الله ، وأنتم في بلهنية وادعون آمنون ، حتى اذا اختـــار الله لنبيه في دار أنبيائه ، ظهرت خلة النفاق وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الآفلين وهدر فنيق [2] المبطلين فخطر في عرصاتكم وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه ، صارخاً بكم ، فوجدكم لدعـــائه مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين فاستنهضكم فوجدكم خفافا وأحمشكم فألفاكم غضابا، فوسمتم غير إبلكم، وأردتموها غير شربكم، هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل...»

إلى أن قالت : « وأنتم الآن تزعمون ان لا ارث لنا ، أفحكم الجاهلية تبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون . أيها المسلمة المهاجرة أأبتز ارث أبي ؟ أفي الكتاب أن ترثي أباك ولا أرث أبي ؟ لقد جئت شيئاً فرياً ، فدونكما مخطوطة مرحولة تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون».

ثم انحرفت إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهي تقول :

« قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب»

---

١ — الطريق : الماء المطروق .
٢ — الفنيق : الجمل القوي .

هذه رواية لخطاب الزهراء ، وفي الكتاب نفسه رواية أخرى مخالفة في لفظها ومعناها للرواية السابقة ، وقبل ايراد الروايتين قال أبو الفضل : ذكرت لأبي الحسين زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام وقلت له ان هؤلاء — يشير إلى قوم في زمانه يغضون من قدر آل البيت — يزعمون انه مصنوع وانه من كلام أبي العيناء فقال لي : رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعلّمونه أبناءهم وقد حدثنيه أبي عن جدي يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية ، ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جد أبي العيناء ، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفي انه سمع عبدالله بن الحسن يذكره عن أبيه . ثم قال أبو الحسن : وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة يتحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت ؟ » ..

ونسبت إلى السيدة فاطمة أبيات من الشعر قالتها بعد موت أبيها صلوات الله عليه ، وانها بعد دفنه أقبلت على أنس بن مالك فقالت : « يا أنس ! .. كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب » ؟ ثم بكت ورثته قائلة :

اغبرّ آفاق السماء وكُورت
شمس النهار وأظلم العصران

فالأرض من بعد النبي كئيبة
أسفاً عليه كثيرة الرجفان

فليبكه شرق البلاد وغربها
ولتبكه مضَر وكل يمان

وليبكه الطود المعظم جوده
والبيت ذو الأستار والأركان

يا خاتم الرسل المبارك ضـــوءه

صـــلى عليك منزِّل القــــرآن

ووقفت على قبر النبي وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينيها وبكت وأنشأت تقول :

ماذا على من شم تربـــة أحمـــد

أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صُبت عليّ مصائب لـــو أنهـــا

صبت على الأيام صِرن لياليـــا

وقالت على قبره أيضاً :

إنا فقدناك فقْد الأرض وابلها

وغاب مذ غبت عنا الوحي والكتب

فليت قبلك كان الموت صادفنا

لما نعيت وحالت دونك الكثُب

ومضى آنفاً انها تمثَّلت بعد خطابها عن فدك ببيتين من البحر والقافية مع تكرار شطر منهما وهما :

قد كان بعـــدك أنبـــاء وهنبثـــة

لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطبِ

انا فقدناك فقد الأرض وابلهـــا

واختل قومك فاشهدهم ولا تغبِ

وفيهما كما يرى القارىء إقواء ، لأن الباء مضمومة في روي البيت الأول مكسورة في روي البيت الثاني ، ولعل شطراً منهما حل محل شطر في نقل الرواية ..

نقول : ان الخلاف في أمر هذه الخطب وهذا الشعر كثير ، ولا نحب أن نخوض فيه لأنه خلاف على غير طائل ، وقد يحسمه أن نذكر في هذا الباب ما يقل فيه الخلاف بين جميع النقاد ، فانه أجدى من اللهو في جدال لا سند له ، يسلّمه جميع المخالفين .

فيقل الخلاف ولا شك حين نذكر ان ذلك الخطاب ليس مما يبدر من اللسان عفو الخاطر ، وان قائله يعده في نفسه قبل القائه كما كان يصنع الخطباء قبل استخدام الكتابة في التحضير .

ويقل الخلاف ولا شك حين نذكر أن سامع هذا الخطاب لا يستظهره عند سماعه ، فان حفظه فانما يحفظه منقولاً أو مكتوباً بعد حفظه .

فاذا قل الخلاف في هذا فعلام اذن يكثر الخلاف ؟

أتراه يكثر حين يقال ان السيدة فاطمة تحسن هذه البلاغة وتستطيعها حين تحتفل لها وتعدها في خلدها ؟

ان هذا النصيب من البلاغة اذا استكثر على السيدة فاطمة فما من أحد في عصرها لا يستكثَر عليه .

لقد نشأت وهي تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء ، وانتقلت إلى بيت زوجها فعاشت سنين تسمع الكلام من امام متفق على بلاغته بين محبيه وشانئيه ، وسمعت القرآن يرتل في الصلوات وفي سائر الأوقات ، وتحدث الناس في زمانها بمشابهتها لأبيها في مشيتها وحديثها وكلامها ، ومنهم من لا يحابيها ولا ينطق في أمرها عن الهوى .

جاء في الجزء الثالث من العقد الفريد عن « الرياشي عن عثمان بن عمرو عن اسرائيل بن ميسرة بن حبيب ، عن المنهال بن عمرو ، عن عائشة بنت طلحة ، عن عائشة أم المؤمنين انها قالت : « ما رأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة ، وكانت اذا دخلت

عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها في مجلسه ، وكان اذا دخل عليها قامت اليه ورحبت به وأخذت بيده وقبلتها ، فدخلت عليه في مرضه الذي توفي فيه ، فأسر اليها فبكت ، ثم أسر اليها فضحكت ، فقلت : كنت أحسب لهذه المرأة فضلاً على النساء فاذا هي واحدة منهن ، بينما هي تبكي اذا هي تضحك . فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها فقالت : أسر إلي فأخبرني انه ميت فبكيت ، ثم أسر إلي اني أول أهل بيته لحوقاً به فضحكت » .

وما قالته السيدة عائشة عن المشابهة بين الزهراء وأبيها قيل على ألسنة الثقات جميعاً ، ويزاد عليه في حديث السيدة عائشة ان امرأة في فضلها واعتزازها بنفسها كانت ترى للزهراء فضلاً على سائر النساء في حلمها ورصانتها . ففيم يكثر الخلاف على مثل ذلك النصيب من البلاغة اذا نسب اليها ؟ ولماذا تستعظم البلاغة على من نشأت سامعة لحديث محمد مطبوعة على مشابهته في حديثه ؟ ولماذا تُستعظم على زوجة الامام الذي كان المتفقون على بلاغته أكثر من المتفقين على شجاعته ، وهي مضرب الأمثال؟ ولماذا تستعظم على سامعة القرآن الكريم بالليل والنهار مع الذكاء واللب الراجح ؟ .

أما نسبة الشعر إلى الزهراء فالخطب فيه أهون من ذلك فهو لا يسلكها في الشاعرات ان ثبت، ولا يضيرها ان لم يثبت، ونحن إلى جانب الشك الكبير فيه أقرب منا إلى جانب القبول ، وليس بعيداً على غير الشاعر أو الشاعرة أن يدير في فمه أبياتاً يحكي بها حزنه وبثه ، فان النظم هنا أقرب إلى لغة العاطفة وعادة النحيب ، ولكن السيدة فاطمة كان لها من الاعتبار بآيات من القرآن في مقام الموت غنى عن نظم الأبيات أو التمثل بها في مقام العبرة والرثاء .

في الحياة العامّة

مضت السنون والسيدة فاطمة على دأبها الذي عهدناه عاكفة على بيتها ، تزيدها عكوفاً عليه تربية الأبناء وخدمة البيت التي تنفرد بها ولا تجد معيناً عليها في كثير من الأيام غير زوجها .

ثم توفي النبي صلوات الله عليه ، فأقامتها الحوادث فجأة على غير مرادها في معترك الحياة العامة أو الحياة السياسية كما نسميها في أيامنا ، ولم يكن لها منصرف عن ذلك المعترك في تلك الآونة ، لأن الخلاف فيها كان خلافاً على ميراث أبيها ، ميراث الخلافة ، وميراث التركة القليلة التي أعقبها .

ومسألة الخلافة في يوم وفاة النبي احدى المسائل التي طال فيها الجدل ولا يعسر على المنصفين أن يخرجوا من ذلك الجدل الطويل على رأي متفق عليه ، وذاك ان الخطر الأكبر في ذلك اليوم انما كان من فتنة السقيفة : سقيفة بني ساعدة ، حيث اجتمعت قبائل الخزرج بزعامة شيخها سعد بن عبادة ، تطلب الامارة ، ثم نصح لهم عويم بن ساعدة باختيار ابي بكر للخلافة فأعرضوا عنه ونبذوه ، ثم خطر لذي رأي منهم أن يقسمها شطرين : أمير من الانصار وأمير من المهاجرين ، وما برح سعد بن عبادة على جلالة شأنه في قومه نافراً من البيعة لأبي بكر بعد انعقادها وهو يأبى الا أن « يستبد الانصار بهذا الأمر دون الناس فانه لهم دون الناس » ... ثم أصر على ابائه حين انفض جمع السقيفة وجاءه الرسل يدعونه للمبايعة فعاوده الغضب وقال لهم : « أما والله

حتّى ارميكم بما في كنانتي من نبل وأخضب سنان رمحي » وناشدوه ان لا يشق عصا الجماعة فعاد يقول : « إني ضاربكم بسيفي ما ملكته يدي ، مقاتلكم بولدي وأهل بيتي ومن أطاعني من قومي .. وأيم الله لو ان الجن اجتمعت لكم مع الانس ما بايعتكم حتّى أُعرض على ربي » .

ثم كان ثمة خطر لا يقل عن هذا الخطر في حاضره ولا في مغبته لو لم يعجل له العاملون بما يقطع دابره ، وهو خطر الفتنة التي راح ابو سفيان يحضأ نارها بين علي والعباس وبين بني هاشم وسائر بطون قريش، يَعِدُ قوماً بنصرة بني أمية ونصرة قريش من ورائها ، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد ، وما كان من همه أن ينصف بني هاشم ولا أن يؤيد الأنصار ، وانما أراد الوقيعة التي يخذلهم بها جميعاً ويخرج منها بالسيادة الأولى التي كانت له على قريش في الجاهلية .

وما من شك في خطر هذه الفتنة من أبي سفيان ولا خطر تلك الفتنة من سقيفة بني ساعدة ، فانحسمت الفتنة بانعقاد البيعة لأبي بكر ، ولم يطلبها ، بل كان مشتغلاً بدفن الرسول . ودُعي إلى السقيفة مرتين وهو لا يعلم فيم يدعى ويعتذر باشتغاله ويغضب لدعوته ، حتى هم عمر بمبايعة أبي عبيدة ابن الجراح قبل أن ينشعب الجمع في السقيفة بين الخزرج والأوس والأنصار والمهاجرين ، وقبل أن تنجح المسعاة من أبي سفيان في خفائها ، وقد كاد أن يعلنها .

وكان علي في تلك الساعة العصيبة إلى جوار الجثمان الطاهر المسجى في حجرته ، فدخل عليه أبو سفيان قائلاً : « يا أبا الحسن ! هذا محمد قد مضى إلى ربه ، وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فابسط يدك أبايعك ! »

ويقول عمه العباس : « يا ابن اخي : .. هذا شيخ قريش قد أقبل ، فامدد يدك أبايعك ويبايعك معي . فإنا ان بايعناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف ، واذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قريشي ، واذا بايعتك

قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب » ..

فيجيبه علي : « لا والله يا عم ! .. اني لأكره أن أبايَع من وراء رتاج » ..

ولقد كان أحكم في جوابه هذا من شيخ الدهاة من بني هاشم وشيخ الدهاة من بني أمية ، فما للخلافة معدى عنه ان كانت ولاية عهد يعلمها جميع المسلمين ، وما للبيعة هناك جدوى ان تمّت وراء رتاج وانشقت بعدها عصا المبايعين والمعارضين .

ولقد تمت البيعة على الوجه الذي عرفه التاريخ ، فان يكن هناك جدال فلا جدال بين المنصفين في فضل الأئمة الذين أدركوا الفتنة قبل مسعاها من السقيفة ومسعاها من دار أبي سفيان ، ولا جدال بين المنصفين فيما ابتغوه من خير وحكمة ، فما ابتغى أبو بكر ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعاً لأنفسهم وما قصروا بعد يوم البيعة في نصرة دينهم ،وما كان في وسع أحد أن يبلي أجمل من بلائهم في دفع الغائلة عن الاسلام من فتنة الردة ومن غارة الفرس والروم ، ولا أن يفتح للاسلام في العراق والشام وفارس ومصر فتحاً أعظم وأقرب مما فتحوه .

وآمن عليٌّ بحقه في الخلافة ، ولكنه أراده حقاً يطلبه الناس ولا يسبقهم إلى طلبه ، ولم تمنعه البيعة لغيره أن يعينه بالرأي والسيف ويصدق العون لأبي بكر وعمر كأنه في عون رسول الله وهو بقيد الحياة .

وقد اختلف الصدّيق والفاروق والامام يوماً أو أياماً بعد وفاة النبي عليه السلام ، فمن شاء فليأخذ بحجة هذا ومن شاء فليأخذ بحجة ذاك ، ولكن الحجة الناهضة لهم جميعاً انهم لم يكدحوا لأنفسهم ولا لذويهم ، ولم يقفوا دون الغاية في خدمة دينهم ، ولم يحي أحد منهم حياةً تريب في صدقه وصدق طويته وحسن بلائه ، وما مات أحد منهم وله من الدنيا نصيب يأسى عليه ..

وكانت السيدة فاطمة ترى حق علي في الخلافة ، أو ترى أن قرابة

النبي أحق المسلمين بخلافته ، وأن بلاء علي في الجهاد وعلمه المشهود بـه يؤهلانه لمقام الخلافة . وكان هـذا رأي طائفة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يجري الأمر على غير هـذا المجرى ، فاجتمعوا عندهـا واجتمعوا في غير بيتها يتشاورون فيمـا بينهم ، أيبايعون أم يتخلفون ، ولم نطلع على رواية واحدة ذات سند يعول عليه ترمي أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعي في تأليب الناس على نقض البيعة . وبعد مساجلات بينهم وبين أبي بكر وعمر سفرت الفتنة عن مقصدهـا وتكشّفت الدسيسة التي بيّتها أبو سفيان ، فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته على عليٍّ ويتحفز للوقيعة . فصده علي وعرض له بذكر الغششة والمخادعين ، ثم قال له : « انك تريد أمراً لسنا من أصحابه » ، فلما يئس من هذا الباب طرق باباً آخر لعله يلج منه إلى مأربه ، وذهب إلى العباس يقول له : « امدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » ... ثم يقول : « انك والله لأحق بميراث ابن أخيك » فيرده العباس كما ردّه علي ، ويكاد الخلاف ينتهي عند هذا وينطوي بانطواء الكلام في مسألة الخلافة ، لولا مسألة « فدك » أو مسألة الميراث التي اختلف فيها سند أبي بكر وسند فاطمة مرة أخرى ، وأوشك أبو بكر أن يستقيل المسلمين من بيعتهم ، مخافة السخط من بنت رسول الله ..

وخلاصة الحديث في أمر « فدك » انها قرية كان النبي يقسم فيئها بين آل بيته وفقراء المسلمين ، فلما قضى عليه السلام أرسلت فاطمة إلى أبي بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقي من خمس خيبر ! .. فقال أبو بكر : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : اننا معشر الأنبياء لا نورث . ما تركناه صدقة .. واني والله لا أغيّر شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كان عليها » ويقال ان الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن نبي من أنبيائه — زكريا — « يرثني ويرث من آل يعقوب » وقوله تعالى : « وورث سليمان داود » .. وان أبا بكر قال لها : « يا بنت رسول الله ! أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يد لي بجوابك ولا أوقعك عن صوابك، ولكن هذا أبو الحسن

بيْي وبينك هو الذي أخبرني بما تفقدت ، وأنبأني بما أخذت وتركت » .

وجاء في شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة «إن أبا بكر قال: يا ابنة رسول الله! والله ما ورث أبوك ديناراً ولا درهماً وانه قال : ان الأنبياء لا يورثون. فقالت : ان فدك وهبها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فمن يشهد بذلك؟ فجاء علي بن أبي طالب فشهد وجاءت أم أيمن فشهدت أيضاً، فجاء عمر ابن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها . فقال أبو بكر : صدقت يا ابنة رسول الله ، وصدق علي ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك ان مالك لأبيك ، كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقي ويحمل منه في سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما يصنع بها أبي ! قال : فلك على الله ان أصنع كما يصنع فيها أبوك ، قالت : الله لتفعلن ؟ قال : الله لأفعلن . قالت : اللهم اشهد .. وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع اليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقي ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان علي كذلك » .

وفي خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبي بكر : « انطلق بنا إلى فاطمة فانا قد اغضبناها » . فانطلقا فأستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا علياً فكلماه ، فأدخلهما . فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلما عليها فام ترد عليهما السلام . فتكلم أبو بكر فقال : « يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب الي من قرابتي ، وانك لأحب إلي من عائشة ابنتي ، ولوددت يوم مات أبوك اني مت ولا ابقى بعده ، أفتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ الا اني سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث . ما تركناه فهو صدقة » . فقالت : « أرأيتكما ان حدثتكما حديثاً عن رسول الله تعرفانه وتعملان به ؟ » قالا : « نعم » . فقالت : « نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضاء فاطمة من رضائي وسخطها من سخطي ؟ » قالا :

« نعم سمعناه من رسول الله » . قالت : « فاني اشهد الله وملائكته انكما أسخطتماني وما أرضيتماني ، ولئن لقيت النبي لأشكونكما اليه » . فقال أبو بكر : « أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة » ، ثم انتحب يبكي حتى كادت نفسه تزهق ... ثم خرج فاجتمع اليه الناس فقال لهم : « يبيت كل رجل منكم معانقاً خليلته مسروراً بأهله وتركتموني وما أنا فيه ؟ لا حاجة لي في بيعتكم . أقيلوني بيعتي » .

والحديث في مسألة فدك هو كذلك من الأحاديث التي لا تنتهي إلى مقطع للقول متفق عليه . غير أن الصدق فيه لا مراء ان الزهراء اجلّ من أن تطلب ما ليس لها بحق ،وان الصديق أجل من أن يسلبها حقها الذي تقوم البينة عليه، ومن أسخف ما قيل انه انما منعها فدك مخافة أن ينفق عليٌّ من غلتها على الدعوة اليه ، فقد ولي الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ولم يسمع أن أحداً بايعهم لمال أخذه منهم ، ولم يرد ذكر شيء من هذا في اشاعة ولا في خبر يقين ، وما نعلم من تزكية لذمة الحاكم في عهد الخليفة الأول أوضح بينة من حكمه في مسألة فدك ، فقد كان يكسب برضى فاطمة ويرضي الصحابة برضاها ، وما أخذ من فدك شيئاً لنفسه فيما ادعاه عليه مدع ، وانما هو الحرج في ذمة الحكم بلغ اقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ولعلنا نجمل ما وقر في أذهان المسلمين الثقات من أمر فدك بكلمة قالها عدل من أعظم العدول بعد ثمانين سنة أو نحوها ، بعيداً من الخصومة ، بعيداً من زمانها ، بعيداً من الشبهة فيها ، لأنه قال كلمته وفدك في يديه ينزل عنها باختياره ، لا يدعوه إلى ذلك داع غير وحي ضميره .

ذلك هو عمر بن عبد العزيز القائل في مستهل عهده بالخلافة : « ان فدك كانت مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فسألته فاطمة اياها فقال : ما كان لك أن تسأليني وما كان لي أن اعطيك ،

فكان يضع ما يأتيه منها في ابناء السبيل ، ثم ولي أبو بكر وعمر وعثمان وعلي فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله ، ثم ولي معاوية فأقطعها مروان بن الحكم ، فوهبها مروان لأبي ولعبد الملك ، فصارت لي وللوليد وسليمان ، فلما ولي الوليد سألته حصته منها فوهبها لي ، وسألت سليمان حصته منها فوهبها لي ، فاستجمعتها ، وما كان لي من مال أحب إليّ منها ، فاشهدوا انني قد رددتها إلى ما كانت عليه » .

في هاتين المسألتين نرى السيدة فاطمة على غير مألوفها من العكوف على شؤون بنيها والابتعاد من الحياة العامة ، لأن كلتا المسألتين تدور حول حقها ووشيجة قرباها ، وهما مسألة الخلافة بعد النبي ومسألة الميراث من فيئه ، واحدهما مما نسميه في لغة عصرنا بالسياسة العليا ، والأخرى مما نسميه بسياسة الحكومة المالية أو الاقتصادية ، ولكل منها جوانب متفرعة يعالجها مؤرخ الحوادث والسياسة من نحوها . أما في الدراسات النفسية فالمهم فيهما وفي غيرهما هو ما تترجمان عنه من خلائق صاحبة السيرة ، وما تترجمان عنه حين نوجزه هو قوة ايمان بحقها تثبت عليه و « شخصية » مستقلة لا يهمل لها حساب .

وَفَاتها

قلنا في « عبقرية محمد » :

« حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التي دقّت عن الفهم وحارت في تعليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة ، وهو لا ريب يجري على قانون مطرد في جميع طبقات الأحياء ، وان كنا لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ولا نزيد على استقصاء بعض الملاحظات التي تقارب الحقيقة ، أو هي أقرب ما نستطيع الوصول اليه .

« وأهم هذه الملاحظات التقريبية انه يجري على سنة المكافأة والتعويض في معظم حالاته ، فيقابل النقص في جانب بالزيادة في جانب آخر ، ويقابل القصور في مزية من المزايا بالاتقان في مزية أخرى .

« فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير في طور الولادة والحضانة،فيقابل هذا ان الاحياء السفلى ترسل ذرياتها بالألوف وألوف الألوف ، فيبقى منها القليل الكافي لدوام النوع بعد فناء الكثير .

« والأحياء العليا يقل عدد المولود منها في البطن الواحد ، فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها ، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة في الاحياء السفلى .

« ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه ، فاذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجود ذلك على نسله وينتقص من قسمة في أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد في صورة من الصور ، فاذا أداها في صورة أعفي منها في الصور الأخرى أو كأنما هي مواهب وأرزاق لا يستوفيها الفرد الواحد الا بثمن غال يُحسب عليه،ويؤدي حسابه للنوع على نحو من الانحاء .

« والانسان اقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر في تجديد النسل وزيادة عدده .

« فهل يجوز لنا أن نقول ان العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضريبتهم باصلاح شؤون الناس فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريقة الذرية ؟

« ان قلنا ذلك فانما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التي أشرنا اليها ، ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذي تستحقه ، فغاية مبلغها عندنا انها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تفضي بنا إلى الجزم أو إلى التغليب ..

« فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا ، وفيهم أنبياء معظمون لا شك في سيرتهم من هذه الناحية ، كعيسى عليه السلام .

« وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها إناث ، أو رزقوا ذرية من الإناث والذكور ولم يعيشوا ، أو عاشوا ولم يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة ..

« وتواريخ العظماء في جميع نواحي العظمة ، وفي جميع الأمم ، وفي جميع العصور ، حافلة بالشواهد التي تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة

بالتأمل والمراجعة ، يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ، ويدخل فيهم القادة العسكريون .. ولا يصعب على أحد أن يدير بصره إلى فترة من الزمن في بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهـــد مصداق ذلك في نفر من عظمائـــه ومشهوريه ، وحسبنا في مصر أسماء جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد الله نديم ومصطفى كامل ومصطفى فهمي ومحمود سامي البارودي وحافظ ابراهيم .

« فاذا جاز لنا أن نقف عند الملاحظة وأن نتأمل مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم ان اصلاح شؤون النوع الانساني ضريبة تغني عن ضريبة الذرية في بعض الأحوال ، فأين ترانا نجد تلك الضريبة في أرفع حالة وأعلى قيمة ان لم نجدها في رسالة نبوية تتناول الأجيال وتتناول الملايين في كل جيل ؟ وأي أبوة روحانية تغني عن أبوة اللحم والدم كما تغني أبوة النبي الذي يتكفل بتربية الأرواح في أمته ، وفي أمم لا يلقاها في زمانه ، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه إلى أقصى الزمان ؟

« نذكر هذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤا في الجانبين جديراً بالملاحظة والاعتبار » .

***

نعم ونذكر هذا حين نذكر وفاة الزهراء في زهرة الشباب ، في الثلاثين أو ما دون الثلاثين ..

مات الذكور من ذرية محمد صغاراً لم يجاوزوا سن الرضاع ، وعاش الإناث من ذريته ولم يرزقن طول العمر ، ومنهن من لم ترزق قوة البنية في عنفوان الشباب ..

وكانت الزهراء نحيلة سمراء ، يمازج لونها شحوب في كثير من الأوقات ، وقد رآها النبي عليه السلام في مرض وفاته فقال لها انها أسرع

أهله لحوقاً به ، فلم تمض ستة أشهر ، وقيل أقل من ذلك ، حتى لحقت به في تلك السن التي تستقبل فيها الحياة .

وكانت تشكو حينا بعد حين ، ويعودها النبي يواسيها في مرضها فاذا هو يواسيها كذلك في حاجتها ، زارها يوماً وهي مريضة فقال لها : « كيف تجدينك يا بنية ؟ » فقالت : « اني لوجعة » . ثم قالت : « وانه ليزيدني اني ما لي طعـــام آكله .. » فاستعبر عليه السلام وقال : « يا بنية !.. أما ترضين انك سيدة نساء العالمين ! » ..

وزارها يوماً وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الابل ، فبكى وقال : « تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة » .

ولم يكن صلوات الله عليه يضن على فاطمة بما يملك من الأنفال ، فكان يخصها بالقسم الأوفى من حصته كلما فرق رزقاً بين ذويه وزوجاته ، ولكنها كانت فاقة تعمهم جميعاً حين لا يجد النبي ما يفرقه بينهم ، وقد شكا زوجاته تلك الفاقة فخيرهن بين التسريح لينعمن بالحياة الدنيا وزينتها ، أو يردن الله ورسوله فيصبرن على ما هو صابر عليه !

الله أكبر !..

* * *

مثل محمد يعلو على اشفاق المشفقين ، ومن كان في قدرته أن ينعم من الدنيا بما يقطع قلوب الحاسدين حسداً ثم يرضى لنفسه وآله منزلة الاشفاق ، فذلك هو الاعظام غاية الاعظام ، وذلك هو المرتقى الذي قيل فيه :

وبعيـــدٌ بلوغ هاتيك جـــمدا
تلك عليـــا مراتب الأنبيـــاء

ان محمداً يبكي لأنه يرى أحب الناس واقربهم منه جائعة مرهقة ، ثم لا يملك لها ما يشبعها ويعفيها من عنائها ،وهو يملك كل شيء في الجزيرة العربية .. ويسأل السائلون من زعانفة المعطلين والمتعصبين أعداء كل دين

« وما برهان النبوة عند محمد ! ؟ » .

الله أكبر .. ان لم يكن هذا برهان النبوة فبرهان أي شيء يكون ؟

* * *

ولم يكن بالزهراء من سقم كامن يُعرف من وصفه ، فان العرب لوصّافون وان مَن كان حولها من آل بيتها لمن أقدر العرب على وصف الصحة والسقم ، فما وقفنا من كلامهم وهم يصفونها في أحوال شكواها على شيء يشبه أعراض الأمراض التي تذهب بالناس في مقتبل الشباب . وكل ما يتبين من كلامهم انه الجهد والضعف والحزن ، وربما اجتمع اليها اعياء الولادة في غير موعدها ، ان صحَّ انها أسقطت « محسنا » بعد وفاة النبي كما جاء في بعض الأخبار .

ونعود فنقول انها ضريبة النبوة ، وكم للهداية من ضريبة تضاعفت على الهداة مرات بعد مرات !

وحضرها الموت .. وخذلتها جوارحها، وعزيمتُها في مواجهة الموت حاضرة لا تخذلها ، فتولت أمر غسلها وحملها على النعش بنفسها ، وقالت لصاحبتها أسماء بنت عميس بعد ان اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل « يا أمّه ! ائتيني بثيابي الجدد » ، فلبستها ثم قالت : « قد اغتسلت ، فلا يكشفن لي أحد كنفاً » ، وشكت نحول جسمها فقالت لصاحبتها : « أتستطيعين أن تواريني بشيء ؟ » قالت : « اني رأيت الحبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير » فعمل لها نعشها قبل وفاتها ، ونظرت اليه فقالت : « سترتموني ستركم الله .. » وتبسمت ، ولم تُر مبتسمة بعد وفاة أبيها الا ساعتها ...

* * *

وكانت وفاتها ، على القول الأشهر ، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من

رمضان سنة احدى عشرة للهجرة ، ودفنت ليلاً حسب وصايتها كما دفن رسول الله ..

في كل دين صورة للأنوثة الكاملة المقدسة يتخشع بتقديسها المؤمنون كأنما هي آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى ..

فاذا تقدست في المسيحية صورة مريم العذراء ، ففي الاسلام لا جرم تتقدس صورة فاطمة البتول .

شخصيّة الزهراء

من الواضح البين أن الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء في التاريخ لأنها بنت نبي ، وزوجة امام ، وام شهداء ..

ولكن لا يتضح هذا الوضوح ، ولا يبين هذا البيان ، انها تأخذ مكانها هذا « بحقها الشخصي » أو بصفتها التي كان لها أثر في حوادث التاريخ .

وهذا الذي نحب أن نقرره في الكتابة عن الزهراء ، فهي أصل قوي من أصل الدعوة التي ثبتت في مجرى الزمن أجيالاً طوالاً ولم تزل لها آثارها في عصرنا هذا ، وفيما يلي من العصور .

لم يعرف التاريخ نظيراً لثبات بني علي وفاطمة على حقهم في الامامة ، أو في الخلافة ..

حوربوا فيها زمناً ، وتولاها من لا شاك عندهم ولا عند الناس في فضلهم عليه ، كيزيد بن معاوية ، فأنفوا أن يتركوها استخذاء وخضوعاً ، وحاربوا فيها كما حوربوا ، وصمدوا للطالب الحثيث طالبين ومطاوبين مائة سنة ، ثم مائتين ، ثم ثلثمائة سنة ، حتى دانت لهم الخلافة باسمهم في عهد الدولة الفاطمية .

لولا خصال فيهم تعين على هذا النضال لما ثبتوا عليه هذا الثبات ،

ولا استطاعوا أن يصمدوا للعسف والعنت من بني أمية ثم من بني العباس ، ومعهم في المشرق والمغرب أعوان وأتباع ، وقد جدوا غاية الجد في نكالهم بأبناء علي وفاطمة في كل مكان ، وصنعوا بهم ما كان خليقاً أن يستأصلهم استئصالاً أو يرغمهم على اليأس والتسليم .

ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة فيه للحاكمين المسيطرين ، وخطر لهم كل خاطر إلا أن يستكينوا للرغم ويسلموا للسيف ، ويقعدوا مع الخالفين ..

لولا خصال فيهم لما كان هذا منهم .

فاذا كان مرجع هذه الخصال إلى وراثة ، ولا بد لها من نصيب من الوراثة ، فقد ورثوها عن فاطمة كما ورثوها عن علي ، بل هي إلى ميراثهم من الزهراء أقرب منها إلى ميراثهم من الامام .

بعض الأخبار يفيد ان صح ، وان لم يصح ،ومن هذه الأخبار خبر الرواة الذين قالوا ان علياً جامل فاطمة فلم يبايع أبا بكر الا بعد وفاتها .

ان صح هذا الخبر أو لم يصح فدلالته صحيحة ، وهي اعتقاد الناس في ذلك العصر ان القضية قضية الزهراء وان الامام يجاملها فلا يغضبها ، وانه كان يرى ان الخلافة أحق بأن تطلبه معرفة بحقه ، فان لم تعرف له هذا الحق فما هو بالحريص على الشغل بها والتدبير لطلبها والسعي اليها ..

وفي غير هذا الخبر ما يدل هذه الدلالة ، وربما كان من تلك الأخبار ما يعبره المؤرخ ولا يلقي اليه بالاً ، وهو في هذا الباب أدل من كثير ، كالخبر الذي رُوي عن الحسن عليه السلام وهو بعد طفل صغير ..

رووا ان الصديق رضي الله عنه قام على المنبر يخطب الناس ، فما هو إلا أن حمد الله وأخذ في خطبته حتى سمع وسمع الحاضرون معه صوتاً نحيلاً

يهتف : « ليس هذا منبر أبيك ، انزل عن منبر أبي ... »

والتفتوا فاذا بالصائح هو الحسن بن علي ، ولما يبلغ الثامنة ، فابتسم الصدّيق وقال والحنو يشيع في نفسه : « ابن بنت رسول الله ؟ صدقت والله ... ما كان لأبي منبر ، وانه لمنبر أبيك » ..

وسمع علي بالخبر فأرسل إلى أبي بكر رسولاً يقول له : « اغفر ما كان من الغلام ، فانه حدث ، ولم نأمره » .

قال أبو بكر : « اني أعلم . وما اتهمت أبا الحسن » .

وليست الزهراء ولا ريب هي التي أمرت الغلام الصغير أن يقول هذا المقال .. ولكن الطفل يفهم عن أمه في هذه السن ما يغنيه عن الأمر والايحاء ، ولعل الحسن كان قد سمع نقاشاً يتكرر بين أبويه في هذا الأمر ، فوقر في نفسه أن يثور تلك الثورة الصغيرة ، ثم نُهي عنها فلم يعاودها ..

في خلائق السيدة فاطمة مدد صالح للثبات على الحق الذي يعتقده صاحبه ، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رغم .

كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها الى أبيها ، وكانت مفطورة على يقين التدين ، وكانت ذات ارادة لا تهمل في حساب شأن من شؤونها ، فظهر منها في المواقف القليلة التي نقلت عنها أنها كانت ذات ارادة لا تنسى في الحساب ..

كان من اعتزازها بالانتساب الى أبيها أنها كانت تسر بمشابهة أبنائها لأبيها ، وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم ، فلم يكن أحب اليها من أن يقال لها ان أسباط رسول الله يشبهون رسول الله ..

وكانت فطرة التدين فيها وراثة من أبوين : كان حسبها ما ورثته من خاتم الأنبياء وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة ، ولكنها اضافت اليه ما ورثته

من أمها ، أمها بنت خويلد الذي تصدى لعاهل اليمن غيرة منه على الكعبة ، وابنة عم ورقة بن نوفل الذي شغل بالدين في الجاهلية حتى فرغ له حياته ، غير مدعو ولا مأمور .

ومن فطرة التدين في وريثة محمد وخديجة انها شديدة التحرج فيما اعتقدته من أوامر الدين ، حتى وهمت ان أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء ، يظهر ذلك من حديث الحسن بن الحسن عن فاطمة حيث قالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل عرقاً فجاء بلال بالآذان ، فقام ليصلي ، فأخذت بثوبه فقلت : يا أبة ! ألا تتوضأ ؟ فقال : مم أتوضأ يا بنية ؟ فقلت : مما مست النار . فقال لي : أو ليس أطيب طعامكم ما مست النار ؟ » ..

فهي فيما تجهله تتحرج ولا تترخص وتؤثر الشدة مع نفسها على الهوادة معها ..

وفي ذكر غير واحد من الصحابة ، وذكرت السيدة عائشة ، انها كانت أشبه الناس بمحمد في مشيتها وحديثها وكلامها ، وزادت عائشة فقالت : ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها ، واستغربت مرة أن تكون فاطمة كسائر النساء حين رأتها تبكي ثم تضحك إلى جوار رسول الله في مرض وفاته ، ثم علمت أنها ضحكت لأنها سمعت من أبيها أنها لاحقة به عما قريب .

أما انها كانت رضي الله عنها ذات ارادة لا تهمل ، فقد بدا ذلك في أمر زواجها ، وفي محاجتها لزوجها ، ومحاجتها لأبي بكر وعمر ، وفيما كان يتوخاه علي من مرضاتها بصدد المبايعة قبل وفاتها .

وقد يكون من دلائل الارادة في المرأة خاصة أنها تلزم الصمت ولا

تكثر الكلام ، وقد كان من عادة الزهراء أنها لا تتكلم حتى تسأل ، وانها لا تعجل إلى الحديث فيما تعلم فضلاً عما لا تعلم ، ولهذا انحصرت أحاديثها عن أبيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد ، ولم تزد عليه .

ولا ننسى ان الزهراء قد غوضرت وهي في الثلاثين أو قبل الثلاثين ، فاذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الارادة وهي في تلك السن الباكرة فذاك ولا شك دليل على قوة كامنة يرجع اليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين .

الذرية الفاطمية

كانت العرب أمة نسابة ، يعنيها النسب لأنها تعتمد عليه في مفاخرها كما تعتمد عليه في مصائرها ، فهو الذي يعين لها أصول قبائلها وأصول ذوي الرئاسة فيها ، وهو كذلك يعين لها من يطالبونه بثأر ويحاسبونه على جريرة ، ومن يلحق بهم عاره ويبرأون منه أو يخلعونه ، فالخليع عندهم من لا خلاق له فلا هو يبالي بشيء ولا يبالي به أحد ، ولا يوجد من يسأل عن دمه أو يحفل بحياته وموته .

ان الخليع عندهم هو القطيع عن نسبه .

ولهذا حفظوا أنسابهم في الجاهلية ما استطاعوا وجاءهم الخطأ فيها من تقادم العهد وكثرة الرحلة وجهل الكتابة والقراءة .

وبعد الاسلام وجب حفظ الانساب ولجأوا اليه في تدوين الدواوين كما لجأوا اليه في ميادين القتال ، فكلما حمي وطيس القتال نودي في القوم : انتسبوا . ليستحي المرتد من الهزيمة التي يلحق عارها به وبذريته ما بقيت لهم سيرة في ذاكرة ..

وعظمت العناية خاصة بذرية النبي عليه السلام، صوناً للنسب الشريف ، ودفعاً للادعياء من طلاب الخلافة ، فلم يقع لبس قط في نسب ابناء فاطمة

مدى الصدر الاول من الاسلام .. ولم ينهض منهم قط امام مشكوك في نسبه على عهد الدولة الأموية ، ولم يكن الشك في النسب مطعناً في دعوى احد منهم بعد قيام الدولة العباسية ، ولم يزل أمرهم كذلك إلى ان قامت لهم دولة بالمغرب وسميت بالدولة الفاطمية . أما قبل ذلك فقد كان دعاة الدولة العباسية يناقشونهم الحجة في حق الخلافة مع اعترافهم بانتسابهم إلى السيدة فاطمة ، ولا ينكرون عليهم صحة الانتساب اليها رضي الله عنها .

من ذاك ما روي عن المأمون أنه قال يوماً لعلي بن موسى الرضا : « بم تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة علي من رسول الله وبقرابة فاطمة رضي الله عنها ، فقال له المأمون : ان لم يكن ها هنا الا القرابة فقد خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان أقرب اليه من علي أو من في امثل قدره ، وان كان بقرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فان الحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس لعليٍّ في هذا الامر حق وهما حيّان ، فان كان الأمر كذلك فان علياً قد ابتزهما حقهما وهما صحيحان واستولى على ما لا يجب له » .

قال رواة هذا الحديث : « فما أجابه علي بن موسى بشيء »

وظاهر أن علي بن موسى قد لزم الصمت هنا على حد قول أبي العلاء :

تلوا باطـــلاً وجلـــوا صارماً

وقالوا : صدقنا ؟ فقلنا : نعم !

والا فما كان لحجة من أبناء علي وفاطمة — وقد رزقوا اللسن والفصاحة — أن يعجز في هذا المقام عن الكلام الذي يقال في الرد على كلام المأمون ، وأقربه على اللسان ان علياً ان كان قد استولى على حقه فهم ورثته ، وان كان قد استولى على غير حقه فهم أصحاب الحق ، وقد سمع خلفاء بني العباس كلاماً كهذا وأشد من هذا من الخارجين عليهم باسم العلويين والفاطميين ،

وأيسره أن أحداً من جدود بني العباس في حياة الحسن والحسين لم يطلب الخلافة حين طلباها .

الا أن دعاة الدولة العباسية انما كانوا يدفعون دعوى العلويين بمثل حجة المأمون ولا يتعرضون لصحة النسبة ولا يجسرون على محاربة الولاء للمنتسبين إلى الزهراء ، الا أن يدعوا عليه أنه حمل السيف وخرج للقتال أو أعلن العصيان .

قال العتبي : «كان بين شريك القاضي والربيع حاجب المهدي معارضة، فكان الربيع يحمل عليه المهدي فلا يلتفت اليه، حتى رأى المهدي في منامه شريكاً القاضي مصروفاً وجهه عنه ، فلما استيقظ من نومه دعا الربيع وقص عليه رؤياه فقال: يا أمير المؤمنين ، ان شريكاً مخالف لك ، وانه فاطمي محض . قال المهدي : عليّ به ! فلما دخل عليه قال له: يا شريك بلغني أنك فاطمي . قال شريك : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمي . الا أن تعني فاطمة بنت كسرى ! قال : ولكني أعني فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم . قال شريك : أفتلعنها يا أمير المؤمنين ؟ قال المهدي : معاذ الله . قال : فماذا تقول فيمن يلعنها ؟ قال : عليه لعنة الله ! قال : فالعن هذا — وأشار الى الربيع — فانه يلعنها ، قال الربيع : والله يا أميرالمؤمنين ما ألعنها . فقال شريك : يا ماجن ! فما ذكرك لسيدة نساء العالمين وابنة سيد المرسلين في مجلس الرجال؟ قال المهدي : دعني من هذا . فإني رأيتك في منامي كأنك مصروف عني وقفاك اليّ وما ذلك الا بخلافك عليّ ، ورأيت في منامي كأني أقتل زنديقاً . قال شريك : ان رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه ، وان الدماء لا تستحل بالأحلام ، وان علامة الزندقة بينة . قال : وما هي ؟ قال : شرب الخمر والرشى في الحكم ومهر البغي . قال : صدقت والله يا أبا عبدالله . أنت والله خير من الذي حملني عليك » .

وحدث مثل هذا في معارض كثيرة ، فوشي بأناس أنهم يوالون أبناء فاطمة فلم يجسر الخلفاء على المساس بهم ، واضطروا إلى التعلل لهم بغير تلك العلة ..

ثم هجمت الدعوة الفاطمية على الدولة العباسية بما لا طاقة لها بدفعه مع الاعتراف بنسب أصحاب الدعوة ، فانتقلوا من المناقشة بالحجة في حق العم وابن العم ، والموازنة بين حق العباس عم النبي وحق علي ابن عمه ، إلى انكار النسب بتة ، وساعدهم على ذلك تفرق الأئمة الفاطميين في الأرجاء واستتارهم بالدعوة ووقوع اللبس في الكنى والألقاب ، فطعنوا في انتساب الفاطميين إلى السيدة فاطمة، وأذاعوا عنهم ذلك المنشور الذي سيأتي ذكره في القسم الثاني من الكتاب ، واشترك في هذه المنابذات أناس من علماء النسابين شملتهم غواية السياسة كما شملت غيرهم ، وكان من عبرتهم أن هوى السياسة لا يؤمن على عقل الحكيم ولا على علم العليم .

مثال هذا أن صاحب كتاب جمهرة الأنساب ، وهو الفيلسوف الحكيم ابن حزم ، لم يسلم من فتنة هذه الغواية ، فقال وهو يتكلم عن ذرية اسماعيل ابن جعفر الذي ينتسب اليه الفاطميون ويسمون من أجل ذلك بالاسماعيلية: « وادعى عبيد الله القائم بالمغرب أنه أخو الحسن البغيض هذا ، وشهد له بذلك رجل من بني البغيض وشهد له بذلك جعفر بن محمد بن الحسين بن أبي الحر علي بن محمد الشاعر بن علي بن اسماعيل بن جعفر ، ومرة ادعى أنه ولد الحسين بن محمد بن اسماعيل بن جعفر ، وكل هذه دعوى مفتضحة لأن محمد بن اسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين ، وهذا كذب فاحش ، ولأن هذا النسب لا يخفى على من له اقل علم بالنسب ولا يجهل أهله الا جاهل » .

* * *

ونحن نخص ابن حزم بالذكر في هذا المعرض لأنه مثل للنقيضين المتقابلين فيما يوجب الثقة وما يوجب الشك غاية الشك في مؤلف واحد ونسابة واحد ..

فعلم ابن حزم بالأسانيد والأنساب معروف ، ولكنه في هذا المعرض خاصة عرضة للهوى كأشد ما يكون الهوى ، حتّى ليكون تكذيبه لرواية داعيةً من دواعي احتمالها وقبولها .

كان ابن حزم أموياً غالياً في التشيع للاموية ، وكانت دولتهم في الأندلس على خطر من الدعوة الأسماعياية ، وبلغ من كراهته للاسماعيليين أنه تحول من المذهب الشافعي إلى المذهب الظاهري أي المذهب الذي يأخذ بظاهر النص ويرفض التأويل ، لأن مذهب الاسماعيليين يقول بالتأويل وبأنه من حقٍّ الامام ..

بل قد بلغ من كراهته القوم انه لا يطيق أن يذكر الرجل منهم بلقبه المتعارف عليه ، فيلقبه بالبغيض بدلاً من الحبيب ، ولعله لم يضع كتابه في جمهرة انساب العرب الا ليثبت حق بني أمية في الخلافة لأنهم من قريش ، فصعد بحق الخلافة إلى جد الأمويين والهاشميين وقال في مقدمة كتابه : « ومن الغرض في علم النسب أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز الا في ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، ولو وسع جهل هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحل له ، وهذا لا يجوز أصلاً .. » . وقد ترقى ابن حزم من الحديث عن الفاطميين إلى المناقشة في معنى الحديث القائل ان فاطمة سيدة النساء وأنه لا يعني أنها أفضل نساء العالمين !

ونحن ننزه ابن حزم عن تعمد الافتراء ، ولكننا نقول ان هواه قد جنح به الى قبول ما ليس بحجة في اثبات نسب او دفع نسب ، ولولا ذلك لوقف على الأقل موقف التردد بين النفي والاثبات .

وفيما يلي كلام يتناول هذا الموضوع ببعض التفاصيل ، ونسلف القول في تلخيصه فنقول : اننا لا نزعم أننا وقفنا على الدليل القاطع الذي يثبت نسب عبيد الله رأس الدولة الفاطمية ، ولكننا لم نقف على دليل قاطع ينفي ذلك النسب ، ووقفنا على شبهات كثيرة توجب الشك في مطاعن الطاعنين ، وهذه الشبهات في روايات نسابة كابن حزم نموذج لما وقفنا عليه .

القِسمُ الثاني

... وَالفَاطِميّون

الفَاطِميّون ...

النسَبُ ...

البَاطِنيَّة ...

البَاطنيَّة الفَاطميَّة ...

حسَن بْن الصَّبَاح ...

السّريَّة الباطنيَّة ...

بُنَاة وَهدّامون ... وَمهدُومون ...

المعِزّ لدين الله

حَضَارة محتضَرة



الفاطِميُّونَ

كل ابناء السيدة فاطمة الزهراء فاطميون ، ولكن اسم الفاطميين يطلق في تاريخ الدول على أبناء اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق ، ويسمون من اجل هذا بالاسماعيليين .

وقد كان ابناء الزهراء يعرفون أحياناً باسم آل البيت ، فلما استأثر العباسيون بالخلافة غلب عليهم اسم العلويين .

وجاء الفاطميون ففضلوا الانتماء إلى الزهراء ، لأنهم يقيمون حقهم في الخلافة على أنهم اسباط النبي عليه السلام ، وانهم ابناء الوصي علي بن ابي طالب ، ولكن العباسيين ينازعونهم دعوى الوصاية وينكرونها ، ويقولون ان الانتساب إلى النبي من جانب عمه العباس أقرب من جانب علي ابن عمه أبي طالب ، ومن اجل هذا يتسمى الفاطميون بهذا الاسم لأن بنوة الزهراء نسب لا يدعيه العباسيون .

أما تغليب اسم الاسماعيليين عليهم فمرجعه انتماؤهم إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وقولهم انه هو الامام بعد ابيه ، وبهذا الاسم يتميزون من أبناء السيدة فاطمة الآخرين ، وهم ذرية موسى الكاظم ، وهو الأحق بالامامة في مذهب الاماميين الاثني عشريين .

وقد كان الامام جعفر الصادق وصّى بالامامة بعده لابنه الاكبر اسماعيل، ثم نحاه عنها ووصى بها لابنه موسى الكاظم، وقيل في أسباب ذلك انه عام

ان اسماعيل يشرب الخمر ، وقيل ان اسماعيل مات في حياة أبيه فانتقلت ولاية العهد إلى أخيه .

أما الإسماعيليون فمذهبهم أن تحويل الولاية لا يجوز ، لأن الولاية أمر من الله يتلقاه الامام المعصوم ، والبداء لا يجوز على الله ويعنون بالبداء أن يبدو لله أمر فيعدل عما أمر به قبل ذاك .

ومن الاسماعيليين من ينفي موت اسماعيل في حياة أبيه ، ويقولون انه شوهد بعد تاريخ الاشهاد على وفاته ، وانما أشهد أبوه على وفاته خوفاً عليه من الغيلة ومن تربص الخلفاء العباسيين به كما كانوا يصنعون بالعاويين المرشحين للدعوة ، واستدلوا على هذا بالاشهاد على وفاته وتوقيع الشهود عليه ، اذ لم تجر العادة بمثل هذا الاشهاد لولا الحيطة والتقية .

والخلاف بين الاسماعيليين وبين سائر الفاطميين قائم على امامة اسماعيل ، والاماميون الذين لا يسلمون الامامة لاسماعيل وذريته طوائف متعددة ، أهمها وأكبرها طائفة الاماميين المعروفين بالاثني عشريين ، لأنهم ينتهون بالامامة الى محمد المنتظر ابن الامام حسن العسكري ، وعندهم أنه سيظهر في زمانه الموعود ، ولهذا يدعون بتعجيل فرجه كلما ذكروه .

ويتفق الاماميون على اعتقادهم عصمة الامام في تبليغ شؤون الامامة ، لأنه موئل السؤال والفتوى في أحكام الدين والدنيا ، فلا يجوز الخطأ عليه في هذه الأحكام .

ويضيف الاسماعيليون الى أسباب العصمة عقيدة التأويل ، فان أحكام الدين عندهم لها ظاهر وباطن ، ولا يعلم تأويلها غير الله والراسخين في العلم ، والأئمة هم الراسخون في العلم وهم أولى الناس أن يعلموا ما ليس يعلمه المؤتمون ..

ولهذا يسمى الاسماعيليون بالباطنيين ، ومنهم من لا يقصر أمور الباطن

على أحكام الدين وآيات الكتاب ، بل يقولون ان كل موجود على الأرض فله نظير في الفلك الأعلى ، وان مقادير هذه الموجودات تابعة للمقادير التي تجري على نظرائها في السماء .

ولما استتر الأئمة شاع بينهم علم النجوم والرياضة والفلسفة على العموم ، وكان الاماميون من عهد علي رضي الله عنه يؤمنون بإلهامه واطلاعه على أسرار كتاب الجفر وما اليه من كتب النجوم ، ولكن الأئمة الاسماعيليين أمعنوا في دراسة هذه العلوم لأنهم لاذوا بالخفاء في عهد انتشارها وازدهارها ، وأصبح علمهم بالأسرار خاصة مطلوباً منهم فوق علمهم الراسخ بشؤون الامامة في الدنيا والدين ، فاذا سأل السائلون عن أمر مستور فأولى الناس بعامه الامام المستور الذي يعلم مواطن السر والجهر ويتحين أوقات الفلك لاظهار ما خفي من أمور الدعوة وأمور الامامة ، وكل أمر ترتبط به مصالح العباد.

ودخل عدد الأئمة نفسه في خصائص الاعداد ، فمن قديم الزمن يعتقد أصحاب النجوم سراً خاصاً في عدد السبعة وعدد الاثني عشر ، ويستشهدون على ذلك بعدد الأفلاك السبعة وعدد أيام الأسبوع وعدد فتحات الوجه ، كما يستشهدون عليه بعدد الشهور وعدد البروج السماوية وعدد أسباط بني اسرائيل ، وعلى هذا يدور الخلاف بين المهتمين بالتنجيم على عدد الأئمة أهو سبعة أم أثنا عشر .. ولكل منهم فيه كلام طويل ..

وللاماميين فروق يبسطونها بين النبي والإمام والحجة والنقيب ، فالنبي يبعث في زمان بعد زمان ، والامام قائم في كل زمان ، وقد يكون الامام اماماً مستقراً فهو صاحب الحق في التوصية لخليفته من بعده ، أو اماماً مستودعاً فهو يحمل أمانة الامامة لضرورة موقوتة ثم يردها الى صاحبها ولا حق له في التوصية لغيره . أما الحجة فهو لازم في الخفاء اذا كان الامام ظاهراً في العلانية ، لأن الامام الظاهر عرضة للضرورات فلا بد معه من حجة يرجع اليها لاستبانة الحقائق بمعزل عن ضرورات السياسة ، أما اذا

استتر الامام فلا بد له من حجة ظاهر ، وقد يسمون الامام بالناطق أو بالصامت تبعاً للظهور والخفاء والمجاهرة بالحكم والتأويل فيه .

أما النقباء فالغالب انهم دعاة أو وكلاء ، ولا بد لهم من أئمة يرجعون اليهم في كل زمان ..

أعلنت وفاة اسماعيل في حياة أبيه كما تقدم ، فانعقدت الامامة بعده لابنه محمد ، وارتحل محمد من الحجاز الى الريّ ، اما لأنه لم يُطق منافسة عمه موسى الكاظم على زعامة العلويين ، واما لأنه آثر الانزواء والتستّر ودفع الأذى من جانب العباسيين ، وقد لقب بالامام المكتوم لأنه لم يعلن دعوته وأخذ في بثها خفية وهو يتنقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر كلما تنبهت اليه العيون ولاحقته الظنون ، ثم ضاق المشرق كله بخلفائه فهجره عبيد الله الى المغرب وكان أول من نودي له بالخلافة الفاطمية ..

ونسبه كما يقره المعترفون بهذا النسب هو عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل الثاني بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق . أما القائلون بانتسابه الى ميمون القداح — كما سيلي — فهو في زعمهم محمد بن عبد الله بن ميمون ابن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق .

ويوفق المؤرخ الهندي « مأمور »[1] بين الروايتين توفيقاً محتملاً جد الاحتمال فيقول ان محمداً المكتوم كان يخفي نفسه ويتعاطى طب العيون مداراً لحقيقته ، وان اسم « ميمون » كان من الأسماء التي انتحلها في حال استتاره ، والقداح هو لقب الطبيب الذي يعالج العيون .

ولا نهاية للروايات والتخريجات التي تعلل سفره من المشرق الى المغرب ، فمن الرواة من يزعم أنه علم بتآمر القرامطة عليه فخرج من سلمية حيث كان مقيماً بجوار حمص ورحل الى مصر وهو يوري بالرحلة الى اليمن ،

---

(١) كتاب الجدل والمناقشات في الخلفاء الفاطميين:
Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs

ومن قائل ان بعض جلساء الخليفة العباسي ممن يدينون بالمذهب الاسماعيلي سراً قد علم بعزم الخليفة على اعتقاله وقتله فبادر الى تحذيره ، ومن قائل انه تلقى البشارة من كبير دعاته في المغرب بانتشار البيعة له بين القبائل المغربية فرحل الى المغرب ليتولى الأمر بنفسه في هذه الفترة الحاسمة . وتتفق الروايات على أنه حينما سافر الى مصر وانتقل منها الى المغرب كان مطارداً وكان على رأسه جعل لمن يأتي به حياً أو ميتاً حيث كان .

والروايات تتفق كذلك على ان الدعوة كانت موكولة في المغرب الى أبي عبيد الله الصنعاني من صنعاء اليمن ، واسمه الكامل هو الحسن بن أحمد ابن زكريا ، وكان من ولاة الحسبة في بغداد .

جاء في وصفه من كتاب – البيان المغرب في أخبار المغرب – لابن عذاري المراكشي وهو من أعداء الاسماعيليين – « فاختاروا منهم رجلاً ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة يسمى أبا عبد الله الصنعاني ... فسار أبو عبد الله هذا الى موسم الحج ليجتمع به مع من يحج تلك السنة من أهل المغرب ويذوق أخلاقهم ويطلع على مذاهبهم ويتحيل على نيل الملك بضعيف الحيل .. ورأى في الموسم قوماً من أهل المغرب فلصق بهم وخالطهم وكانوا عشرة رجال من قبيلة كتامة ملتفيْن على شيخ منهم ، فسألهم عن بلادهم فأخبروه بصفتها ، وسألهم عن مذهبهم فصدقوه عنه .. ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتي من فضل اللسان والعلم بالجدل الى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه ، فلما حان رجوعهم الى بلادهم سألوه عن أمره وشأنه فقال لهم : أنا رجل من أهل العراق ، وكنت أخدم السلطان ، ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البر فتركتها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال ، فلم أر لذلك وجهاً الا تعليم القرآن للصبيان ، فسألت أين يأتي ذلك تأتياً حسناً فذُكر لي بلاد مصر ، فقالوا له : ونحن سائرون الى مصر وهي طريقنا ، فكن في صحبتنا اليها ، ورغبوا منه في ذلك ، فصحبهم في الطريق فكان يحدثهم ويميل بهم الى مذهبه ويلقي اليهم الشيء بعد الشيء الى أن أُشربت

قلوبهم محبته ، فرغبوا منه أن يسير الى بلادهم ليعلم صبيانهم ، فاعتذر لهم ببعد الشقة ، وقال لهم ان وجدت بمصر حاجتي أقمت بها ، والا فربما أصحبكم الى القيروان ، فلما وصلوا مصر غاب عنهم فيها كأنه يطاب بغيته ، ثم اجتمعوا به وسألوه فقال لهم : لم أجد في هذه البلاد ما أريد ، فرغبوه أن يصحبهم فأنعم لهم بذلك .. »

ولا يتسع الكلام في هذا المجال لسرد أعمال أبي عبيد الله في المغرب ، فالذي عنيناه هنا هو الاشارة الى أساليب هؤلاء الدعاة في دخول البلاد التي يقصدونها بالدعوة ، وأول هذه الأساليب أن يكون الداعية مطلوباً لا طالباً وأن يكون له حماة وأتباع من أبناء البلد قبل دخوله اذا استطاع ، وقد سار أبو عبيد الله الشيعي على هذا الاسلوب حتى تمكن من القبائل واستمال اليه قبيلة كتامة القوية بعددها وشجاعة رجالها فاتخذ الحول بعد الحيلة وجرد السيف وهزم دولة الأغالبة أعوان العباسيين وضمن لمولاه النجاح فاستقدمه فوصل الى جبال الأطلس قبيل انتهاء القرن الثالث للهجرة (سنة ٢٩٦) .

كذلك يطول الكلام لو تتبعنا أعمال المهدي وخططه التي رسمها لاقامة عرشه في افريقية وبسط كلمته من ورائها الى الأقطار الاسلامية ، فان ملك المهدي في المغرب قد دام أربعـاً وعشرين سنة الى أن توفي (سنة ٣٢٢ للهجرة) فخلفه ابنه القائم وخلف القائم ابنه المنصور وخلف المنصور ابنه المعز (سنة ٣٤١ للهجرة) وهو الذي فتحت مصر في عهده وانتقلت من خلافة العباسيين الى خلافته (سنة ٣٥٦ للهجرة) فجاءوها كعادتهم مطلوبين ممهداً لهم الطريق في الداخل والخارج بالدعوة والسلاح .

* * *

ان تاريخ الدولة الفاطمية جدير أن تفرد له المجلدات الضخام ، لأنه تاريخ يغني عن التواريخ . اذ كانت هذه الدولة نموذجاً يقاس عليه ويعرض

فيه ما لا يعرض في قيام الدول الأخرى من العبر والأطوار وصنوف التدبير والمصادفة. فهي الدولة التي قامت بين ست دول أو أكثر من ست دول اسلامية وأجنبية تحاربها وتخشى عاقبة قيامها، وأسست حقها على دعوة يتألب الخصوم من حولها على انكارها، واعتمدت في الدعوة على وسائل لم يسبقها اليها سابق ولم يلحقها نظير لها في تلك الوسائل الى هذا القرن العشرين ... فمن تلك الوسائل فن التخذيل أو «الطابور الخامس» كما يسمى في العصر الحديث، ومنها تسخير العلم والفن والفلسفة والقصص في نشر الدعوة الظاهرة والخفية، ومنها الاستعانة بالجماعات السرية وترتيب الأدوار المنظمة لانفاذ سياسة بعد أخرى، ومنها المواكب والمواسم والمحافل والأعياد والعادات الاجتماعية، وكانت تثابر على الدعوة ولا تهمل معها أركان الملك من تشييد المدن وتنظيم الدواوين وترتيب الرتب وتدريب الجيوش وبناء الأساطيل وفتح المدارس والجامعات وتزويدها بالمكتبات وتشويق الناس اليها بمجالس المحاضرة والمناظرة في أيام محدودة يشهدها الرجال والنساء.

* * *

فقيام الدولة الفاطمية في الواقع نموذج لقيام الدول بالحول والحيلة، ولو استغنى التاريخ بدولة واحدة عن دول كثيرة لكانت هذه الدولة حسبه من عبره وأطواره وتدبيراته ومصادفاته. ولسنا في صدد الافاضة في هذه الدراسة بتفصيلاتها وفروعها، ولكننا نطرق منها في هذه العجالة ما له علاقة بالانتساب الى الزهراء وما له علاقة بآثارها الباقية في هذا البلد، لأنه البلد الذي شهد من الدولة الفاطمية أهم أدوارها وأفخم عهودها، وكانت مخلفاتها فيه أبقى المخلفات في تاريخها الحديث.

النسب

الدعوى المنتظرة هي أقوى الدعاوى ، وهي كذلك — ومن أجل ذلك — أضعفها وأولاها بالتشكك والمراجعة .

والمقصود بالدعوى المنتظرة كل دعوى تمليها البواعث النفسية أو البواعث السياسية والاجتماعية ، وهي قوية لأنها لا تأتي عفواً ولا يكتفي المدعون فيها بابدائها وترك السامعين وشأنهم في قبولها أو الاعراض عنها ، بل هم يدعونها ويحتالون على ايرادها مورد الصدق وتمثيلها في صورة الكلام السائغ المحقق ، ثم يكررونها ويلحّون في تكريرها ويتحينون الفرص لنشرها في مظان الاصغاء اليها والرغبة في اثباتها .

واذا كانت البواعث التي تمليها متعددة متجددة كان ذلك خليقاً أن يزيدها قوة على قوة والحاحاً على الحاح ، فهي تتوارد من جهات كثيرة وترجع الى الظهور كرة بعد أخرى ، كلما خيف عليها أن تضعف ، وكلما تعاظم الرجاء في التحدث بها والالتفات اليها .

ان الدعوى المنتظرة قوية من أجل هذا .

وهي من أجل هذا بعينه ضعيفة متهمة .

لأن البواعث التي تمليها تريب السامع حين تنكشف له ، وقد يكون الالحاح فيها مشككاً لمن يسمعها وكاشفاً للغرض والهوى من ورائها .

وإذا تعددت البواعث كان ذلك أحرى أن يسوق التناقض والاختلاط الى الروايات والأقاويل ، فلا يتفق مروّجوها على اختراعها ولا علـى نقلها ، ومن لم يكن منهم مخترعاً لروايته لم يجهد ذهنه في التوفيق بين النقائض والتقريب بين الأسانيد ، فتصاب الدعوى بالضعف من جراء تعدد البواعث كما تأتيها القوة والمثابرة لهذا السبب ، وتخسر من هنا كما تكسب من هناك ..

* * *

وقد كان اتّهام الفاطميين في نسبهم دعوى منتظرة ، وكانت البواعث اليها متعددة متجمدة ، فلا جرم تكون في وقت واحد أقوى الدعوات ثم لا تلبث أن تعود أضعف الدعوات .

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون في طلبها على النسب .

وكانوا يهددون بمساعيهم في طلب الخلافة خصوماً كثيرين يملكون الدول في المشرق والمغرب ولا يريدون النزول عما ملكوه ، أو لا يريدون بعبارة أخرى أن يسلموا للفاطميين صحة النسب الذي يعتمدون عليه .

فلم يكن أقرب الى الذهن من مهاجمتهم في نسبهم وتجريدهم من الحجة التي يؤيدون بها مسعاهم ، فهذه هي الدعوى المنتظرة التي تعددت بواعثها في المشرق والمغرب وتوافقت الأغراض على ترويجها وتثبيتها بين الخائفين على عروشهم من نسب الفاطميين ، وكلهم ذوو سلطان وذوو براعة وافتنان ، ومن ورائهم من يرغبون في بقائهم أو يتلقون دعواهم بالتصديق والايمان ..

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون في طلبها على انتسابهم الى النبي عليه السلام ، وكان هذا النسب حجة معتمدة لا يماري فيها الأكثرون من أتباع الدول الاسلامية الذين تسري بينهم دعوى آل البيت ، غير مستثنى

منهم أتباع الدولة العباسية في ذلك العهد على الخصوص ، وهو عهد النقص والإدبار الذي يكثر فيه طلاب الزوال أو طلاب العلل بالحق وبالباطل ، وعلى الانصاف الواضح أو على الجور الصراح .

كان مصير الخلافة الى الفاطميين نذيراً بزوال عروش كثيرة ، منها عروش العباسيين في بغداد والأخشيديين في مصر والأغالبة في افريقية الشمالية والأمويين في الأندلس ، والأمراء الصغار المنبثين في هذه الرقعة هنا وهناك ممن يطيب لهم القرار على ما هم فيه ولا يطيب لهم التبديل والانتقال ..

وكان هؤلاء المالكون غرباء عن أهل البيت ما عدا العباسيين ، ولكن العباسيين في ذلك العهد خاصة كانوا أخوف الخائفين من نسب الفاطميين ، بعد أن كانت دعوة أهل البيت تشملهم أجمعين منذ ثلاثة قرون .

عندما ضعفت دولة بني أمية قويت دعوة آل البيت التي كان يقوم بها العلويون والعباسيون .

ولكن العباسيين أخذوا بزمام الدولة الجديدة على اعتقاد الأكثرين أنهم كانوا يدعون إلى خلافة العلويين أبناء فاطمة وعلي ، أحق الناس باسم آل البيت في رأي أتباع الدولة الجديدة . وبلغ من ايمان أتباع الدولة الجديدة بهذا الرأي أن خلفاء بني العباس أظهروا العزم على الوصاية بعدهم لولاة عهد العلويين ، كما فعل الرشيد والأمين . ثم استحكم العداء بين بني العباس وبني علي حتى لجأ الأئمة العلويون الى الاختفاء وشاعت يومئذ العقيدة في الامام المستور ، ثم شاعت الدعوة الى العلويين باسم الفاطميين لأنها أقرب الدعوات الى بنوة محمد عليه السلام . فقد يقال ان العباسيين أبناء العباس عم النبي وان العلويين أبناء علي ابن عمه أبي طالب . أما الانتماء الى فاطمة الزهراء ، فهو انتماء الى بيت النبي نفسه ، وليس الى الاعمام ولا أبناء الأعمام .

في أوائل الدولة العباسية ، كانت دعوة آل البيت تشمل العلويين والعباسيين ، وكان الخلاف يسيراً بين الفريقين على أمل التوفيق بينهما بعد

حين ، وكانت قوة الدولة في نشأتها تصمد لهذا الخلاف الذي هان أمره ولم يبلغ أشده في أول عهده ، وكان يكفي أن يقال عند اشتداده ان وراثة الأعمام أقرب من وراثة أبناء الأعمام .

ولكن الدولة العباسية بقيت حتى تضعضعت وكثر الساخطون عليها والمتبرمون بها والراغبون في زوالها ، وكثر كذلك شهداؤها من آل البيت أبناء علي وفاطمة ، وزال عنها عطف العاطفين عليها لقرابتها من بيت النبوة ، فتحول عطفهم الى الشهداء المظلومين المشردين في أرجاء البلاد ، وأصبح تشردهم الذي يظن به أنه يضعفهم مدداً لهم من أمداد العطف والولاء ، وأصبحت دعوة « الفاطميين » وقفاً على هؤلاء المشردين المظلومين لا يشركهم فيها العباسيون ، لأن العباسيين هنا هم الخصوم المحاسبون على الظلم والنكال واختلال حبل الأمور .

ومن الفاطميين هؤلاء يأتي الخطر الأكبر على بني العباس ، ومن نسبتهم الى فاطمة الزهراء يأتي امتيازهم بحق الخلافة ، وبهذا الحق يطلبون النصفة للشهداء والمضطهدين ، فأي شيء أقرب الى مألوف السياسة من دفع هذا الخطر بانكار هذا النسب ، ومن حصر الولاء لأهل البيت في القائمين بالأمر من بني العباس ؟

وقد أنكر العباسيون نسب الفاطميين وزعموا انهم ينتسبون الى ميمون القداح بن ديصان الثنوي القائل بالالهين ، وتلقف التهمة كل ناقم على الفاطميين وهم صنوف ينتمون الى كل مذهب ونحلة ، منهم كما أسلفنا الاخشيديون والاغالبة والامويون والاندلسيون ، وزاد عليهم من كان تابعاً للفاطميين ثم تمحل المعاذير للخروج عليهم كوالي مكة وبعض رؤساء العشائر في الجزيرة العربية ، بل قيل ان أناساً من العلويين شهدوا عليهم بادعائهم النسب في علي وفاطمة عليهم السلام ، ونسب الى الشريف أبي الحسين محمد بن علي المشهور بأخي محسن الدمشقي انه كتب رسالة في تفنيد دعواهم ينكرها المقريزي وينسبها الى عبد الله بن رزام ..

ويروى عن سبب نشاط القادر باالله لى كتابة الأشهاد ببطلان نسب الفاطميين انه سمع أبياتاً نظمها الشريف الرضي يقول فيها :

ما مقامي على الهوان وعندي   مقول صارم وأنف حمي
ألبس الذل في بلاد الأعادي   وبمصر الخليفــة العلــوي
من أبوه أبي ومولاه مــولا   ي اذا ضامني البعيــد القصي
لف عرقي بعرقه سيد النــا   س جميعاً محمد وعلي
ان ذلي بذلك الجــد عــز   وأوامي بذلك الربع ريّ

فأرسل الى أبيه الشريف أبي أحمد الموسوي يقول : انك قد عرفت منزلتك منا وما تقدم لك في الدولة من مواقف محمودة ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه ويكون ولدك على ما يضاد ما لا نزال عليه من الاعتداد بك لصدق الموالاة منك ، وقد بلغنا انه قال شعراً — هو هذه الأبيات — فيا ليت شعري على أي مقام ذل أقام وهو ناظر في النقابة — نقابة الأشراف — والحج ، وهما من أشرف الأعمال ولو كان بمصر لكان كبعض الرعايا .

فأحضر أبو أحمد ولده الرضي فأنكر الشعر ، فأمره أن يكتب بخطه الى القادر بالاعتذار وانكار نسب الحاكم بأمر الله ، فأبى ، فقال له أبوه: « أتكذبني في قولي ؟ » فقال : « كلا ما أكذبك ، ولكني أخاف من الديلم ومن الدعاة في البلاد » فقال له أبوه : « أتخاف من هو بعيد عنك وتسخط من هو قريب منك .. وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك ؟ ... » وغضب أبوه وحلف لا يقيم معه في بلد ، فلما بلغ الأمر بينهما هذا المبلغ حلف الرضي انه لم يقل تلك الابيات ، وكتب بخطه في محضر الافكار ، وشاع الزعم بعد كتابة ذلك المحضر ان المهدي الفاطمي لم يكن يسمى عبيد الله، وان اسمه الصحيح « سعيد بن أحمد بن عبد الله القداح بن ميمون بن ديصان » ...

وقد اختلفوا في نسبته تارة الى المجوس وتارة الى اليهود.. واختلفوا في الجد الذي كان مجوسياً أو يهودياً فقيل ان عبيد الله كان ابن حداد يهودي مات عن زوجة فبنى بها الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون وتبنى عبيد الله، وقيل ان عبيد الله قتل في سجن سجلماسة بالمغرب فاشفق داعيه (أبو عبد الله الشيعي) فسماه عبيد الله وبايعه بالخلافة، وقيل ان أمة للامام جعفر الصادق علق بها يهودي فولدت منه عبيد الله ونشأ في بيت الامام منتمياً الى أهل البيت.

وقد كانت لهجة البيان العباسي غاية في العنف تنم على الغيظ وتخلو من الدليل، ومنه «ان هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم — حكم الله عليه بالبوار والدمار — ابن معد بن اسماعيل بن محمد ابن سعيد — لا أسعده الله — وان من تقدمه من سلفه الارجاس الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن ابي طالب رضي الله عنه، وان ما ادعوه من الانتساب اليه زور وباطل، وان هذا الناجم في مصر هو وسلفه كفار فساق ملحدون معطلون، وللاسلام جاحدون، أباحوا الفروج وأحلوا الخمور وسبّوا الأنبياء وادعوا الربوبية...»

ولم يقصر المؤرخون المنكرون عن القوم في العنف والسباب فقال صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين عن الفاطميين ان المعروف عنهم انهم «بنو عبيد»، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسي، وقيل: كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سلمية من بلاد الشام، وكان حداداً، وعبيد هذا كان اسمه سعيداً، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله وزعم انه علوي فاطمي، ثم ترقت به الحال الى أن ملك وتسمى بالمهدي، وكان زنديقاً خبيثاً عدواً للاسلام متظاهراً بالتشيع متستراً به حريصاً على ازالة الملة الاسلامية، قتل من الفقهاء والصالحين جماعة كثيرة، وكان قصده اعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم فيتمكن من افساد عقائدهم، ونشأت ذريته على ذلك منطوين يجهرون به اذا

أمكنتهم الفرصة والا أسرّوه ، والدعاة منبثون لهم في البلاد ، وبقي هذا البلاء على الاسلام من أول دولتهم الى آخرها ، وفي أيامهم كثرت الرافضة وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام ، وأخذت الافرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة الى أن منّ الله على المسلمين بظهور البيت الاتابكي وتقدمه مثل صلاح الدين فاستردوا البلاد وأزالوا هذه الدولة .. »

ومن اعتدل من المؤرخين في الانكار والسباب ، كابن خلكان ، أيد التهمة بالقصص التي تؤكدها لو انها ثبتت كالقصة التي اشتهرت عن سيف المعز وذهبه ، وان ابن طباطبا سأل المعز عند وصوله الى مصر عن نسبه فسل سيفه ، فقال : « هذا نسبي » ثم نثر عليهم الذهب وقال : « وهذا حسبي » وقنع منه الحاضرون بما سمعوه وشهدوه .

وظاهر بغير عناء ان الوثيقة العباسية لا قيمة لها من الوجهة التاريخية ، لأن الذين وقعوها من الاشراف العارفين بالأنساب قد أكرهوا على توقيعها ، ومن وقعها ، غيرهم من فقهاء القصر والحاشية لم يكن أحد منهم حجة في مسائل النسب والتاريخ ، وقد أضعفوا دعواهم غاية الضعف بنسبة جد الفاطميين الى ديصان الثنوي وهو من أبناء القرن الثالث للميلاد ذهب الى التوفيق بين المسيحية والزردشتية قبل البعثة الاسلامية بنحو اربعة قرون ، ولم يظهر أحد بهذا الاسم على عهد العباسيين غير من يسميه المؤرخون حيناً بديدان وحيناً بزندان أو دندان ولا شأن له بنشأة الثنوية ولا بالدعوة اليها في قول أحد من أولئك المؤرخين ، وانما قيل عنه انه كان على ثروة كبيرة وعاون اسحاق بن ابراهيم بن مصعب على الثورة في عهد الخليفة المأمون .

وادعاء الموقعين للوثيقة ان خلفاء الفاطميين أباحوا المحرمات واستحلوا الموبقات لم يقم عليه دليل قط من وقائع التاريخ ، بل ثبت من هذه الوقائع أن بعض هؤلاء الخلفاء اكتفى بزوجة واحدة ولم يبح لنفسه ما كان يباح في قصور الخلفاء من التسري واقتناء الاماء ، وقد خولط الحاكم بأمر الله

في عقله فجنح الى التنطس في الطعام وحرم المباح منه بدلا من اباحة الحرام!..

ولعله لا يخفى على أحد من النظرة الأولى قصة التبشيع والتشنيع في نسبة الفاطميين تارة الى المجوس وتارة الى اليهود ، فكأنه لا يكفي ان تسقط دعواهم في الخلافة حتى تسقط دعواهم في الاسلام وترجع نسبتهم الى أبعد الملل عن الديانة الاسلامية في عرف ذلك العصر على الخصوص ، ثم يقال عنهم ما لا يقال في جميع المجوس واليهود من استباحة المحرمات والتهافت على الشهوات .

والقصة التي رويت عن سيف المعز وذهبه غنية عن التكذيب ، لأن ابن طباطبا الذي قيل انه سأل المعز عن نسبه عند وصوله الى مصر قد توفي قبل قدوم المعز اليها بأربع عشرة سنة ، وابن خلكان صاحب القصة هو الذي ذكر تاريخ وفاته فلم يكذب القصة بل قال : لعله أمير آخر . مع ان اسم « المعز » هو الذي دار عليه مثل السيف والذهب المشهور ، وليس من المعقول بأية حال أن يقيم الفاطميون دعواهم على النسب ثم يعجزون عن ذكر هذا النسب حين يسألون عنه ، فكل جواب أيسر وأنفع من الجواب الذي وضعوه على لسان المعز لدين الله ولا معنى له الا الاعتراف الصريح بأنه مدخول النسب دعي في الخلافة ..

وقد روى ابن خلكان أيضاً ان العزيز بالله صعد المنبر فوجد فيه ورقة كتبت عليها هذه الأبيات :

انا سمعنا نسباً منكرا يتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدعي صادقاً فاذكر أباً بعد الأب الرابع
وان ترد تحقيق ما قلته فانسب لنا نفسك كالطائع
أو فدع الأنساب مستورة وادخل بنا في النسب الواسع
فان انساب بني هاشم يقصر عنها طمع الطامع

فان صحت هذه الرواية فالتحدي فيها باظهار النسب قبل الأب الرابع صادر من خبير بموضع الخلاف ، لأن تاريخ النسب قبل الأب الرابع

يوافق التاريخ الذي عمد فيه الأئمة العلويون الى الاختفاء والتنكر بأسماء غير أسمائهم وائتمان الدعاة دون غيرهم من أسرار ذريتهم وأولياء عهودهم، وانما العجيب في الأمر أن يكون العزيز بالله هو الذي يتحداه المتحدي باظهار نسب كنسب «الطائع» العباسي، مع أن الطائع نفسه قد علم بكتابة وزيره عضد الدولة الى العزيز وحمله الهدايا اليه واعترافه بنسبه وانه تلقى منه الشكر «لاخلاصه في ولاء أمير المؤمنين ومودته ومعرفته نحو امامته ومحبته لآبائه الطاهرين».

وقد تواتر ان عضد الدولة، هم بالخطبة في بغداد للخلفاء الفاطميين فرده أحد الدهاة من أصحابه عن هذا العزم وقال له: «انك مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ولكنك اذا أقمت علوياً في الخلافة كان معك من تعتقد انت واصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لاستحلوا دمك وقتلوك..»

وقد أشار صاحب «الروضتين في أخبار الدولتين» الى قيام الدولة الأيوبية بعد الدولة الفاطمية ولكنه يعلم ان صلاح الدين الأيوبي أذن بالخطبة في يوم الجمعة للخليفة الفاطمي، وانه انما حوّل الخطبة الى الخليفة العباسي بعد وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين، وانه اطاع في ذلك أمر رئيسه نور الدين بن زنكي، ولم يكن لصحة النسب أو بطلانه شأن في هذا التغيير، ومرجعه الأهم الى الخلاف بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة، اذ كان الأيوبيون سنيين يشتدون في اتباع مذهب أهل السنة، وزادهم فيه شدة ما كان بين الكرد والديلم من النفور والنزاع، وكان الديلم شيعيين والكرد سنيين، وقد تفاقم النزاع بين رؤسائهم حتى سرى الى الألقاب، فكان بنو بويه من الديلم يتلقبون بألقاب معز الدولة وركن الدولة وعضد الدولة، وكان الأيوبيون من الكرد يتلقبون بألقاب نجم الدين وعماد الدين وصلاح الدين.

ومما يلاحظ أن بعض المؤرخين يحياون على البعد في كتابتهم عن الدعوة الفاطمية ودعاتها كلما خلطوا بين هذه الدعوة والدعوة الباطنية . فأبو المعالي الفارسي يقول في كتابه « بيان الأديان » ان ميموناً القداح من مصر ، وجملة المؤرخين يقولون عنه انه من فارس ، وكل منهم يحيل الى المكان البعيد حيث يتعذر عليه تحقيق الرواية بالسند الصادق في مكان قريب ..

وصح من أجل هذا قول ابن خلدون ان شهادة الشاهدين بالطعن في نسب القوم كانت على السماع ، وأصاب المقريزي حين قال عن العلويين انهم « على غاية من وفور العدد وجلال القدر عند الشيعة فما الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم والدعاء لابن مجوسي أو لابن يهودي ؟ هذا ما لا يفعله مخلوق ولو بلغ الغاية في الجهل والسخف . »

والمقريزي وابن خلدون قد أرخا للمهدي الفاطمي بعد عهده بزمن طويل — وهما سنيان غير متشيعين — ولكنهما نظرا في مطاعن أعدائه نظرة المؤرخ المحقق فلم يجدا فيها حجة مقبولة وقامت عندهما حجة النسب الصحيح مقام التغليب والترجيح ، وقد عاصر المهدي مؤرخ أندلسي — هو عريب بن سعد — وكان ممن يوالون الأمويين فلم يقدح في نسب الرجل ولم يسمع من امراء أمية في الأندلس قدحاً فيه .

وغاية ما ننتهي اليه في هذه المسألة — مسألة النسب الفاطمي — ان المطاعن لم تمسسه بدليل واحد يعول عليه ، وان مطاردة عبيد الله عند اتجاهه الى المغرب دليل على ان العباسيين أنفسهم كانوا يخشون دعوته ، وان مبايعة الشيعة لأبنائه — سواء شيعة الديلم في بغداد أو شيعة الزيديين خاصة في اليمن — ترجح صدق انتسابهم الى السيدة فاطمة الزهراء ان لم تؤكده كل التوكيد ، وقد كانت دعوى المنكرين عليهم كما قدمنا في صدر هذا الفصل أضعف الدعوات لأنها الدعوى المنتظرة التي تمليها البواعث المتعددة فلا يتخيل أحد أن يتصدى الفاطميون لطلب الخلافة بحق ذلك النسب ثم لا يتعرضون لانكاره عليهم ما وسع المنكرين أن ينكروه ..

البَاطنيَّة

كان المنتفعون بالطعن في نسب الفاطميين كثيرين متعددين ، كلهم كما تقدم من ذوي السلطان أو أتباع ذوي السلطان ، وقد استعانوا بالحول والحيلة في ترويج مطاعنهم واختراع أقاويلهم فاستمالوا اليهم في البلاد الاسلامية من لا مصلحة له في مطاعنهم ، ولكننا نحسب — بعد مراجعة أخبار العصر وحوادثه — ان المطاعن في النسب لم تكسب على المصدقين الا القليل الذين ينظرون الى الأمر كله بغير اكتراث أو يكترثون له ولكنهم عيال على الحوادث لا يقدمون ولا يؤخرون . أما الأثر البالغ في تنفير الناس من الفاطميين فانما جاء في ربط الحركة الفاطمية بالحركة الباطنية وادعاء الخصوم ان الباطنيين جميعاً اسماعيليون ممن ينتمون الى اسماعيل ابن جعفر الصادق جد القائمين بالدعوة الفاطمية .

فمن زمن والناس في المشرق يفهمون ان الاسماعيلية هي كلمة مرادفة للباطنية ، ويلصقون بالاسماعيلية كل مـا لصق بالباطنية من المساوىء والمنكرات ، ومن الفضائح والقبائح ، وهي في الواقع كثيرة منفرة لا تحتاج الى جهد كبير في التنفير والتشهير .

وساعد على لصوق التهمة بالفاطميين ان بعض المجاهرين بالاباحة والاجتراء على مناسك الدين الاسلامي كالقرامطة في البحرين كانوا يعلنون التشيع للاسماعيليين ، أو بعبارة أخرى للفاطميين ، فوقر في الأذهان ان

دعاة الاسماعيلية جميعاً اباحيون ، وان الباطنية هي اخفاء المنكرات واعلان التشيع للتغرير والتضليل .

وقد قيل ان رجلا من دعاة الباطنية يدعى «علي بن فضل» ادعى النبوة وأباح جميع المحرمات وقال شاعره في روايات مختلفة :

خذي الدف يا هذه والعبي وغني هزازيك ثم اطربي
تولى نبي بني هاشم وهذا نبي بني يعرب
أحل البنات مع الأمهات ، ومن فضله زاد حل الصبي
وقد حط عنا فروض الصلاة وحط الصيام فلم يتعب
اذا الناس صلوا فلا تنهضي وان صوّموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا ولا زورة القبر في يثرب
ولا تمنعي نفسك المعرسين من الأقربين أو الأجنبي
فكيف حللت لهذا الغريب وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن ربّه ورواه في الزمن المجدب

وقيل على الجملة ان الباطنيين يظهرون الاسلام ليكيدوا له ويدسُّوا عقائد الشرك والضلال بين أهله ، وانهم في الأصل مجوس منطوون على بغض شديد للعرب ودينهم لم يقدروا على هذا الدين وتقويض دولة العرب بالقوة فاحتالوا على مأربهم بالدسيسة والمكيدة ، وأنشأوا نحلتهم لاستدراج المسلمين وتحويلهم شيئاً فشيئاً من عقائدهم الى التعطيل والاباحة والكفر بالبعث والمعاد وانكار الفرائض والعقائد والأديان .

قالوا : وان الاسماعيلية خاصة يبثُّون دعوتهم على درجات ويأخذون المواثيق والايمان على مريديهم ألا يفشوا لهم سراً ولا يظاهروا عليهم أحداً، ثم يتدرجون بهم من التشكيك وطلب المزيد من العلم على أيدي الأئمة المعصومين ثم تلقين بعض الرموز التي تروق المريد وتشوقه الى المزيد من الأسرار ، ثم تعريفه بنظام الدعوة ومن يتولاها ، ثم تأويل النصوص

وتحريف الألفاظ على ظواهر معانيها ثم الخوض في المذاهب الفلسفية التي تنتهي في الدرجة التاسعة من درجات الكشف والزلفى الى تأليه الامام على مذهب الحلول ، وانه هو روح الله حلت في جسد انسان ، ولعمري ماذا في وسع عشرة أو عشرين من « الواصلين » الى هذه الدرجة في أرذل العمر أن يصنعوه حين يعلمون سراً باباحة الشهوات ورفض الأديان ؟ !

وآفة الباحثين في هذه الألغاز والاشاعات أنهم جعلوها كلها مسألة أخبار وروايات وراحوا يعنتون أنفسهم في جمع هذه الأخبار فاذا هي تتناقض ولا تستقر على قرار .

هؤلاء المؤرخون الورقيون أو الحرفيون لا يصلحون لبحث هذه المسائل التي يبدأ البحث الصحيح فيها وينتهي في السريرة الانسانية وما يجوز فيها وما لا يجوز ، وما يجب أن يرفض بداهة ، فلا يطول البحث فيه بعد ذلك الا لتطبيق أصول النقد واتخاذ الأمثلة على حقائق التاريخ وأباطيله كما تعرضها عليها الأخبار والروايات .

فمن الطريف حقاً أن يقيَّد المريدون بالأيمان والأقسام ليكتموا السر ثم يأتي السر المكتوم فاذا هو سر يحلّهم من جميع تلك الأيمان والأقسام على سبيل اليقين ولا يضمن نقلهم الى يقين جديد !

وأطرف منه أن يقال عن رجل انه معطل منكر للمعاد منكر للأديان، منكر للوعود الالهية ثم يقال عنه ان كراهة دين من الأديان تبعثـه الى الجهاد سراً وعلانية والاستماتة في الجهاد حتى يتعرض للقتل والتشريد أملا في يوم من الأيام يزول فيه هذا الدين ويشهد هو زواله أو لا يشهده بعد سنوات أو بعد أحقاب وقرون .

انما يعمل هذا العمل لهدم دين من الأديان من يؤمن بدين غيره ويعمل لقيام دولة من أبناء دينه ، فأما المنكر المعطل لكل عقيدة فان يبقى في نفسه من الحماسة الروحية ما يهون عليه المشقة والخطر ويقيمه ويقعده

كراهة ، لان دين قومه وغيره من الأديان عنده سواء .

كان تصديق هذا مفهوماً في القرون الوسطى ، لأنهم كانوا يومئذ يعتقدون أن الكافر يكفر في سبيل الشيطان وانه يرى الشيطان بعينه ويسمع وسواسه بأذنه ويساومه ويشارطه ويبيعه روحه ويأخذ منه السطوة والمتعة بديلا من نعيم السماء ، وكانوا يومئذ يقولون عن أناس بأعيانهم أنهم على صلة بالشيطان وأنهم تعلموا على يديه السحر الأسود واطلعوا منه على أسرار النجوم والوجود واستهواهم مكره فعقدوا معه صفقة المغبون في حساب المؤمنين .

أما في عصرنا فمن العسير أن يتخيل الانسان ملحداً ينكر كل شيء ويتجرد لأهوال الدعوة الباطنية لأجل شيء من الأشياء كائناً ما كان ، الا أن يكون ذلك الشيء سطوة يطلبها لنفسه في حياته أو في بيته ، ولا يعقل حينئذ أنه يتدرج بالأتباع والمريدين من الجهل بحقيقة الى العلم بتلك الحقيقة والاطلاع على دسائسه وغواياته التي يلبسها على الناس بتلبيس من ألغاز العقائد واسرار الديانات .

وقد شغلت طائفة المؤرخين الأقدمين والمحدثين بدعوة القرامطة وأشباههم في اليمن وفارس وادعائهم النسبة الى الاسماعيلية في المغرب مع مجاهرتهم بالمعاصي واجترائهم على مناسك الحج وتمثيلهم بالحجاج من الرجال والنساء ، فخطر لهذه الطائفة من المؤرخين أن علاقة النسب بين القرامطة والاسماعيليين جد تحتمل البحث ، ويؤدي البحث فيها الى ثبوت العلاقة بين هؤلاء وهؤلاء .

وأغرب الغرائب أن أحداً من أولئك المؤرخين لم يخطر له أن يسأل : لماذا لم يظهر في المغرب حيث تقوم الدولة الفاطمية كلها أناس من دعاة الاباحية والعصيان ، كالذين ظهروا في البحرين واليمن وفارس وبعض بقاع الشام ؟ ..

فمن نظرة سريعة يمكن أن يتبين الناظر في التاريخ أن الانتماء الى الاسماعيليين مفهوم من أناس يقيمون في بلاد الدولة العباسية ويعلنون الخروج عليها ، فهم في حاجة الى سلطان مشروع يقاومون به سلطانها المخلوع ، وانتماؤهم الى الفاطميين أو الاسماعيليين هو السند الذي يركنون اليه في محاربة الدولة العباسية وانكار حقها في الطاعة والولاء ، ولو كان نشر الدعوة الفاطمية يتولاه دعاة العصيان والمعاصي لكان أولى البلاد أن تظهر فيه طوائف الاباحة هي بلاد المغرب حيث دان القوم لخلافة الفاطميين..

ولقد حدث فعلا أن القرامطة خلعوا البيعة الفاطمية ورجعوا الى الدعاء على المنابر باسم الخليفة العباسي حين وقعت النبوة بينهم وبين الخليفة الفاطمي في القاهرة ، وسوّل لهم الطمع انهم قادرون على فتح مصر بعد أن جربوا قوتهم وحيلتهم في فتح أطراف من بلاد الشام .

وقد يكون أغرب من هذا أن يقال من جهة إن الاباحة هي الدرجة السابعة أو الثامنة التي يصل اليها المريد المترقي في كشف الحجب وعلم الاسرار ، ثم يقال من جهة أخرى إن هذه الأباحة سر مباح في الطريق يعكف عليه المؤمن جهرة ويردده الشعراء ويتغنى به القيان ..

لم ينفصل علم النفس وعلم التاريخ في بحث من البحوث كما انفصلا في بحث قضية الاسماعيلية والباطنية ، ولهذا كبر فيه التخبط وقل فيه الثبوت والوضوح ، ونحسب أن محنة التاريخ هنا أصعب من كل محنة لأن المؤرخ هنا يعمل عملين ولا يستقل بعمل واحد : يعمل لمعرفة الحقيقة ويعمل لاستخلاصها من الأباطيل التي تحجبها عن عمد وتدبير ، وواحد من هذين العملين كثير على مؤرخي الورق والحروف .

اننا عرفنا ألواناً من النظم السرية التي اصطلحت عليها الجماعات المتسترة في العصور القديمة ، وبعضها ديني يتخذ له أغراضاً سياسية كالجماعات الأورفية والجماعات الفيثاغورية ، ولا ندري الآن كيف

تكشفت هذه النظم المزعومة ، بل لا ندري هل هي في الحق كانت موجودة متبعة أو هي أوهام وتخمينات من وحي الاستطلاع والاستنباط .

ولكننا اذا سمعنا عن نظم سرية في عصور التاريخ القريب فلا معنى في هذه الحالة للاحالة على القدم أو للخبط في الظنون ، اذ يحق لنا في هذه الحالة أن نسأل عن المريد الذي تدرج في مراتب الباطنية حتى وصل الى قيادة الدعوة ثم خانها وأفشى أسرارها ، أو يحق لنا أن نسأل عن الحاكم الذي تعقب الجماعة بعيونه وجواسيسه حتى كشف عن بواطنها ، أو يحق لنا أن نسأل عن الأوراق المطوية التي نشرت بعد العثور عليها في ابانها أو بعد انقضاء زمانها . ولسنا نذكر فيما اطلعنا عليه من أخبار الباطنية أن أحداً تحدث عن مريد واحد صعد على مراتبها من درجة التلميذ المبتدىء الى درجة الحجة المطلع على جميع خفاياها ، ولا ان أوراقاً لها فصلت فيها نظمها وأسرارها وأذيعت في أوانها أو بعد أوانها ، بل زعم الرواة أن الذي فضح الجماعة وأنكر على جعفر الصادق نفسه دعواه ، قبل دعوى اسماعيل ابنه وخلفائه ، هو عبد الله بن ميمون القداح . ومن هو عبد الله بن ميمون القداح ؟ هو واضع النظام كله ومرتب الدرجات كلها ومصطنع التخفي والتنكر لبلوغ مقصده من الدعوة باسم اسماعيل بن جعفر الصادق جد الاماميين أجمعين .. !

فعبد الله هذا هو الذي قال فيما زعم الرواة :

هات اسقني الخمرة يا سنبر فليس عندي انني أُنشر
أما ترى الشيعة في فتنة يغرها عن دينهـا جعفر
قد كنت مغروراً به برهة ثم بدا لي خبر يستر

ولم تكفه قطعة واحدة ينظمها حتى نقل عنه الرواة قطعـة أخرى يقول فيها :

مشيت الى جعفر حقبة فألفيتـه خادعـاً يخـلب

يجر العــــلاء الى نفسه وكل الى حبلــه يجذب
فلو كان أمركم صادقاً لما ظل مقتولكم يُسحب
ولا غض منكم «عتيق» ولا سما «عمر» فوقكم يخطب

وما كانت خلافة عمر، ولا أنباء القتلى من آل فاطمة وعلي، سراً مجهولا يوجب الشك ان لم تجزم باليقين من بطلان الخبر وتلفيقه. وخير من هذه الأسرار وغيرها أنه عدل عن الدعوة الاسماعيلية فيما تواترت به أخباره في المشرق والمغرب، فما زالت دعوة القداح الى ختام حياته قائمة على المبايعة بالخلافة لاسماعيل وأبناء اسماعيل.

وعلى هذا النحو يتتبع المؤرخ ما شاء من أخبار الباطنية فلا يمضي مع خبر منها خطوة أو خطوتين حتى يصطدم بالعقل أو الواقع صدمة توجب الشك ان لم تجزم باليقين من بطلان الخبر وتلفيقه. وخير من هذه «الورقيات والنصيات» أن نطمئن الى مقياس واحد لا شبهة عليه من أهواء السياسة ثم نعرض عليه الأخبار مما يوافقه أو لا يوافقه عسى أن نخلص منها الى قول صحيح أو نقد صحيح.

ذلك المقياس هو الحالة النفسية الاجتماعية التي كانت شائعة في العالم الاسلامي من القرن الثالث الى القرن الخامس للهجرة، ونخص منها بالنظر ما يرجع الى مطالب الحكم من جهة ومساعي التكتم والمداراة من جهة أخرى ..

فالدولة العباسية دخلت في دور الضعف والتفكك منذ أواخر القرن الثالث للهجرة، فاختلت قواعد الحكم وضاعت الثقة في الحكومة القائمة وكثر المنفصلون عن الدولة والمنتقضون عليها، وكان الدين هو حجة المطالبين بالحكم وحجة الخارجين عليه. فمن خرج على بني العباس أنكر عليهم حق الخلافة باسم النبي مع وجود عترة النبي من أبناء علي وفاطمة، ومن اعترف لبني العباس بالحق الشرعي في الخلافة زعم أن الحكم في دولتهم

لغيرهم من وزراء الترك أو الديلم أو كتاب الدواوين الذين يتواطأون مع الولاة على انتهاب الأموال وبذلها للصنائع والأعوان ، وأصبح دهماء الشعب على استعداد لانكار الخلافة على القائمين بها والاستسلام للادعياء الواثبين عليها ، وتتابع المنتحلون للمعاذير الدينية في طلب الحكم أو عصيان الحاكمين من المغتصبين أو المستضعفين .

وفي تاريخ شاعر مشهور بالطموح مثال لادعاء الحكم باسم الدين مرة وباسم الكتابة والأدب مرة اخرى أو مرات ، ذلك الشاعر هو أبو الطيب المتنبي الذي نسب في بعض الروايات باسم أحمد بن الحسين بن الحسن ونشأ بين العلويين في الكوفة . فانه ادعى النبوة أو المهدية في بادية السماوة وبلغ من تفاقم دعوته أن خافه والي حمص من قبل الاخشيد فاعتقله ولم يطلقه الا وقد عدل عن دعواه ، ومن أحاديث المعجزات التي طولب بها كما جاء في « رسالة الغفران » انهم قالوا له في بني عدي : « ها هنا ناقة صعبة فان قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل . فمضى الى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل وتحيل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت ساعة وتنكرت برهة ثم سكن نفارها ومشت مشي المسمحة وورد بها الحلة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم » .

قال أبو العلاء بعد ذلك : « وحدثت أيضاً أنه كان في ديوان اللاذقية وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحاً مفرطاً، وان أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته وقال للمجروح لا تحلها في يومك ، وعد له أياماً وليالي ... فبرىء الجرح فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم اعتقاد ، ويقولون انه كمحيي الأموات .. وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية ، أو في غيرها من السواحل ، انه أراد الانتقال من موضع الى موضع فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما في النباح ، ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : انك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فلما

عاد الرجل ألفى الأمر كما ذكر .. »

وقد كانت دعوى النبوة أو المهدية في عنفوان شباب أبي الطيب ، فلما أوفى على الشيخوخة كان قد عدل زمناً عن دعواه ولم يعدل عن طلب الولاية من كافور الذي كان خصياً مملوكاً فاستبد بالعرش وأصبح فيما زعم : « دون الله يعبد في مصر .. ! »

قال داعي الدعاة يصف حال الناس في تلك الأزمنة من كتاب أرسله الى أبي العلاء المعري : « ... انني شققت بطن الأرض من أقصى دياري الى مصر وشاهدت الناس بين رجلين : اما منتحلا لشريعة صبأ اليها ولهج بها الى الحد الذي ان قيل له من أخبار شرعه ان فيلا طار أو جملا باض لما قابله إلا بالقبول والتصديق ،ولكان يكفّر من يرى غير رأيه فيه ويسفهه ويلعنه ، فالعقل عند من هذه سبيله في مهواة ومضيعة .. أو منتحلا للعقل يقول انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطلا لجميع ما الناس فيه ، مستخفاً بأوضاع الشرائع ، معترفاً مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ، ولجاماً على رؤوس المجرمين المجازفين ، لا على أنها ذخيرة للعقبى أو منجاة في الدار الأخرى . فلما رمت بي المرامي الى ديار الشام ومصر سمعت عن الشيخ ، وفقه الله ، بفضل في الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويل ووضح به البرهان والدليل ، ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفي أمره متبلبلين ، فكل يذهب فيه مذهباً ويتبعه من تقاسيم الظنون سبباً ، وحضرت مجلساً جليلا أُجري فيه ذكره فقال الحاضرون فيه غثاً وسميناً ، فحفظته بالغيب ، وقلت ان المعلوم من صلابته في زهده يحميه من الظنة والريب ، وقام في نفسي أن عنده من حقائق دين الله سراً قد أسبل عليه من التقية ستراً ، وأمراً تميز به عن قوم يكفر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ولما سمعت البيت :

غدوت مريض الدين والعقل فالقني
لتسمـــع أنبـــاء الأمور الصحـــائح

وثقت من خلدي فيما حـدست عقوده ، وتأكدت عهوده ، وقلت : ان لساناً يستطيع بمثل هذه الدعوى نطقاً ، ويفتق من هذا العظيم رتقاً ، للسان صامت عنده كل ناطق ، وناطق من ذروة جبل من العلم شاهق ، فقصدته قصد موسى عليه السلام للطور اقتبس منه ناراً ، وأحاول أن أرفع بالفخر مناراً ، بمعرفة ما تخلف عن معرفته المتخلفون واختلف في حقيقته المختلفون .. »

وداعي الدعاة صاحب هذا الخطاب هو « أبو نصر هبة الله ابن موسى ابن أبي عمران » صاحب أكبر منصب من مناصب الدعوة في الدولـة الفاطمية ، كتب رسائله الى حكيم المعرة يناقشه في تحريمه اللحوم على نفسه ويسائله عن البعث والقيامة ، مستعظماً على المتقولين أن يتهموا بانكارهما حكيماً كأبي العلاء ، وقد استعار من اسمه « موسى بن أبي عمران » تفسيراً لوقوفه من رهين المحبسين موقف المقتبس من نار الطور .

وعلى ذكر أبي العلاء واعتقاد الناس في أسرار الحكمة وقوتها الخفية ننقل ما رواه ابن الوردي حيث ذكر في تاريخه « ان حساده أغروا به وزير حلب فجهز لاحضاره خمسين فارساً ليقتله ، فأنزلهم أبو العلاء في مجلس له بالمعرة واجتمع بنو عمه وتألموا لذلك فقال : ان لي رباً يمنعني ، ثم قال كلاماً منه ما لا يفهم ، وقال : الضيوف الضيوف . الوزير الوزير. فوقع المجلس على الخمسين فارساً فماتوا ووقع الحمام على الوزير بحلب فمات ، فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتهجده ، ومنهم من زعم أنه قتلهم بسحره ورصده » .

وروى صاحب الكوكب الثاقب هذه القصة بزيادة تفصيل فذكر عن الغزالي أنه قال : « حدثني يوسف بن علي بأرض الهركار قال : دخلت معرة النعمان وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب اليه بأن المعري زنديق لا يرى افساد الصور ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل ، فأمر

محمود بحمله اليه من المعرة وبعث خمسين فارساً ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان وقال له : يا ابن أخي ! قد نزلت بنا هذه الحادثة ، والملك محمود يطلبك ، فان منعناك عجزنا وان أسلمناك كان عاراً علينا عند ذوي الذمام ويركب تنوخ الذل والعار ، فقال : هون عليك يا عم ولا بأس عليك ، فلي سلطان يذب عني . ثم قام فاغتسل وصلى الى نصف الليل ، ثم قال لغلامه ، انظر الى المريخ اين هو . فقال: في منزلة كذا وكذا ، فقال : زنه واضرب تحته وتداً، وشد في رجلي خيطاً واربطه الى الوتد ، ففعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ! يـــا علة العلل ! يا صانع المخاوقات ! وموجد الموجودات ! أنا في عزك الذي لا يرام وكنفك الذي لا يضام ، الضيوف الضيوف .. الوزير الوزير .. ثم ذكر كلمات لا تفهم ، واذا بهدة عظيمة فسأل عنها فقيل: وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين ، وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر ألا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف ابن علي : فلما شاهدت ذلك دخلت على المعري فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أرض الهركار . فقال : زعموا أنني زنديق ، ثم قال : اكتب . وأملى عليّ أبياتاً من قصيدة أولها :

أستغفر الله في أمني وأوجالي

من غفلتي وتوالي سوء أعمالي[1]

هذه الحالة النفسية التي عمت أرجاء العالم الاسلامي في القرن الرابع خاصة خليقة أن ينجم فيها عشرات ممن يستهوون الناس بالأسرار الباطنة ، لأن عالم الباطن مستودع كل أمنية وبغية كل طالب : طالب الدين وطالب الدنيا ، طالب المعرفة وطالب السحر والعيافة ، أو طالب العلم الأبيض وطالب

---

(١) كتاب «أبو العلاء المعري» ، للمرحوم « أحمد تيمور باشا » .

العلم الأسود ، وخليق أن يقف النظر طويلاً عند قول داعي الدعاة إنه يطلب سرا من أبي العلاء ، وانه قام في نفسه أن عند أبي العلاء « من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقية ستراً » . فانه قد يكون في هذا القول مادحاً أو مازحاً ولكنه أبان عن سمة العصر كله من « الباطنية » التي يفرضها على نفسه العارف بأسرار الدين ...

وأخلق من هذا أن يستوقف النظر أن هذا الكلام صادر من داعي الدعاة في الدولة الفاطمية ، وهو الرجل الذي ينتهي اليه كل سر ، ويصل اليه التلميذ بعد درجات ليسمع منه – فيما زعم الزاعمون – ان الدين لغو وان القيامة وهم وان المحرمات مستباحة للعارفين ، فلو كانت هذه رسالته التي ينتهي اليها كل متقدم في درجات الأسرار فما حاجته إلى محاسبة أبي العلاء على الظنون التي تذاع عنه في أمر الحلال والحرام وأمر البعث والحساب ؟ لقد كان الرضى عن مذاهب الزندقة جميعاً أولى به من التعرض لذويها ومحاسبتهم عليها ، فانهم يتبرعون بما يجتهد له ويرتب المراتب ويحتال الحيل للوصول اليه ، بعد طول العناء .

الا أن الخلاصة الثابتة في ذلك العصر أن « الباطنية » الواقعية حالة من الحالات التي لا تستغرب من دعاته المخلصين وأدعيائه المغرضين ، فهناك « باطنية » يفرضها الناس على أنفسهم قبل أن يفرضها عليهم نظام مقرر أو مذهب منظم ، وادعاء الأسرار في تلك البيئة أمر منتظر مترقب لا غرابة فيه ، وأقرب ما يكون هذا الادعاء إلى من يطلب المنفعة لنفسه أو يطلب المكانة بما يعمله ويتعلمه منه غيره ، وفاقاً لشرطه وتدبيره .

وقد صار المجتمع الاسلامي إلى تلك الحالة في القرن الرابع وما تلاه بعد تمهيدات متلاحقة بعضها من فعل السياسة وبعضها من فعل الثقافة والعادة المستحدثة ..

فأما التمهيدات التي هي من فعل السياسة فهي ما أسلفناه من تزعزع

الثقة بحق السلطان القائم على اختلاف الحاكمين والحكومات ، وأما التمهيدات التي هي من فعل الثقافة والعادة المستحدثة فهي انتشار الفلسفة ونشأة البحوث العقلية في علوم الدين ومنها علم الكلام والتوحيد ، ومنها اقتباس الحضارات الغريبة وانقسام الأمر فيها بين المحافظة والتجديد والاسترسال مع العرف الطارىء في غير بحث ولا مبالاة .

وقد كان أنصار السلطان القائم محافظين لأنهم يبغضون التغيير ويحافظون على كل قديم .

وقد كان أنصار البحث والاستطلاع أقرب إلى التجديد والتغيير ، وكانوا مظنة للتهم من أنصار القديم ، فكان من الطبيعي الذي لا غرابة فيه أن يصطنعوا التقية ويظهروا للناس غير ما يبطنون ، سواء كانوا من المتصوفة الذين يلتمسون النجاة عند « الواصلين » المتمكنين من بواطن الأسرار ، أو كانوا من الفلاسفة الذين يشفقون من رجمات الظنون ولايأمنون العامة ولا ذوي السلطان المتوجسين من كل جديد ، أو كانوا من غير المتصوفة والفلاسفة أقواماً يعالجون من المعارف ما يشبه السحر والكهانة ، وهي علوم التنجيم والتماس الأسرار عند النجوم .

ولم يكن الفارق بين علم النجوم الصحيح وعلم النجوم الزائف قد حسم في ذلك العصر على وجه يمنع اللبس والاختلاط بين المطلبين ، فان الفلاسفة الذين كانوا يتحدثون عن العقول العشرة كانوا يربطون بين هذه العقول العشرة وبين الأفلاك ويقولون بغلبة الأرواح النورانية التي لا تقبل الفساد على كواكب السماء ، وأن الصلة بينها وبين الانسان تتوقف على الرياضة والصفاء ، وقد كان المتصوفة يؤمنون بالتجلي ولا يمنعون أن ينكشف الغطاء عن البصر والبصيرة فتلمح في العالم العلوي ما أودعه الله فيه من الدلائل والاشارات .

واذا كانت « الباطنية الواقعية » قد سولت لشاعر أن يطاب السلطان بدعوى

النبوة أو المهدية ، وقد أوقعت في النفوس ان ناسكاً ضريراً يسيطر على الوزراء والجنود بقوة الغيب أو بقوة النجوم ، فمن الخلط أن يقال ان الباطنية كلها وليدة الدعوة الفاطمية ، وان هذه الدعوة مسئولة عن كل ما كان يستباح يومئذ في الخفاء ، وكل ما تذرع به الطامعون في الحكم من ذرائع الدنيا والدين ..

الباطنيّة الفاطميّة

وكانت للفاطميين على هذا باطنية فاطمية أو اسماعيلية ، إلى جانب هذه الباطنية الواقعية ..

لم يقم الدليل على انتماء الباطنية الفاطمية أو الاسماعيلية إلى داعية من المجوس أو اليهود دبرها تدبيراً ولفقها تلفيقاً لهدم الاسلام خاصة وهدم الديانات عامة ، وتلقين « الواصلين » دروس الكفر والتعطيل وانكار البعث والحساب واستباحة المحرمات والمنكرات ، كراهة للعرب ودولتهم ، وانتقاماً منهم بالدسيسة وقد عجزوا عن الانتقام منهم بالقهر والعدوان ..

فالتهمة ضعيفة لأنها جاءت من مغرضين غرضهم معروف ، وهي ضعيفة بعد هذا لأنها مضطربة متناقضة لا تثبت على زعم واحد ولا تستقيم على وجهة واحدة . فأصل الدعوة تارة من المجوس وتارة من اليهود ، ومرة يرجع أصلها إلى ديصان الذي ظهر قبل الاسلام ، ومرة أخرى يرجع إلى ابن القداح الذي يتبين من شعره أنه مسلم وأنه شك في الامام جعفر بعد أن لاذ به وتتلمذ عليه ، لأن أئمة الشيعة يُقتلون وينهزمون .

وفي التهمة من الضعف فوق هذا وذاك أنها لا تجري جري المألوف من طبائع النفوس ، فان الرجل الذي يكفر بالدين عامة لا تملكه الحماسة لهدم دين ولا تبلغ منه هذه الحماسة أن يصبر للجهاد الطويل ويستهين بالخطر على

الروح والراحة وهو يحارب السلطان ويحارب اجماع الناس من حوله على اختلاف النحَل والأديان .

ومن المشكوك فيه بعد هذا جميعه أن ينهدم الدين اذا كفر به في كل عصر طائفة من « الواصلين » معدودين على الأصابع يستبيحون المحرمات في الخفاء على انفراد أو بين زمرة من الأصحاب والنظراء ، فما خلا عصر قط من أمثال هؤلاء بغير دعوة من داع وبغير سعي أو سعاية من ساع ، ولم يزل الشك يتسرب إلى آحاد آحاد من الحائرين والمترددين يحفظون شكهم لأنفسهم أو يطلعون عليه أمثالهم وذوي خاصتهم ثم يذهبون والدين باق لم ينهدم بين العلية ولا بين السواد .

وربما تشيع للفاطميين أناس خبطوا في العقائد خبط عشواء وجهروا بمذهب من مذاهب الفلسفة أو التصوف ينكره الاسلام الصحيح.ولكن التشيع من هذا القبيل قديم لم ينقطع قط من عهد الامام عليه السلام إلى عهدنا الذي نحن فيه ، ولم يكن هذا التشيع الممقوت حجة على الامـــام علي ولا على أحد من بنيه الأبرار الذين سمعوا به فأنكروه أو سكتوا عنه ولم يرتضوه . .

ففي حياة الامام عليّ كان عبد الله بن سبأ وأصحابه يؤلهون عليا ويؤمنون بحياته بعد مقتله ويقولون برجعة النبي وينشرون مذهب الحلول وتناسخ الأرواح . وبعد مقتل الامام نشط أصحاب النحلة الكيسانية وأعادوا مثل هذا القول في حياة « محمد بن الحنفية » . وقيل عن المختار الثقفي داعية القوم إنه ادعى النبوة ونظم له قرآناً يعارض به القرآن الكريم ويفرضه على صحبه في الصلوات . ومكان الإمام وابنه محمد في الاسلام أرفع من أن يتطاول اليه من أجل هذا عدو يلجّ في عدوانه فضلاً عن الولي والصديق . وقد بقي المرجئون والقائلون بالرجعة والحلول يتمادون في ضلالتهم بعد أن برىء منهم الامام علي وعاقبهم بالحريق ، وبعد أن كذبهم ابنه وأعرض عنهم وأقام في الحجاز وتركهم بالعراق يلجون في الادعاء له والادعاء عليه .

ولم يخل عصر الامام جعفر الصادق – أبي اسماعيل رأس الاسماعيلين – من داعية يفتري على الأئمة العلويين ، وهم احياء ، كما فعل ابو الخطاب الأسدي الذي كان يقول بتشخيص الجنة والنار ، وزعم في مبدأ أمره ان أولاد الحسن والحسين أنبياء الله ، ثم زعم أنهم أرباب وأن الامام جعفرا اله يُعبد فلعنه جعفر الصادق وبرىء منه ونفاه . قال أبو منصور البغدادي صاحب كتاب الفَرق بين الفِرَق « فادعى بعد ذلك في نفسه أنه الاله، قال أتباعه ان جعفرا الاله..غير ان أبا الخطاب أفضل منه وأفضل من علي وجوزوا شهادة الزور على مخالفيهم » .

وكان غيرهم كذلك يجوزون شهادة الزور على المخالفين ، ومن شهادة الزور ما نحلوه لأصحاب المذاهب من الشيعيين والسنيين .

وقد دعا القرامطة للفاطميين كما دعا عبدالله بن سبأ للامام عليٍّ وكما دعا المختار لابنه محمد بن الحنفية ، فأنكرهم الخليفة الفاطمي حين خرجوا على الدين وأغاروا على الحجاز واعتدوا على الحجاج . وكتب الخليفة القائم وهو بالمغرب إلى داعية القرامطة يقول له : « العجب من كتبك الينا ممتناً علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التي لم تزل الجاهلية تحرم اراقة الدماء فيها واهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذي هو يمين الله في الأرض يصافح بها عباده ، وحملته إلى ارضك ورجوت ان نشكرك ، فلعنك الله ثم لعنك والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده ! » ..

وعلى خلاف ما قيل عن اباحة المحرمات في المذهب الفاطمي ، ثبت من نصائح أئمة فيهم انهم كانوا يقصدون في الحلال المباح ويأمرون أتباعهم ومريديهم بالقصد فيه . وقد أوصى المعز أتباعه من زعماء كتامة بالمغرب فقال عن الزوجات : الزموا الواحدة التي تكون لكم ولا تشرهوا إلى التكثر منهن والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب

قوتكم وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة .. »

وعلى خلاف دعوى الربوبية كان المعز هذا — وهو أعلمهم بالتنجيم — يقول كما روى عنه القاضي النعمان في كتاب « المجالس والمسايرات » : « من نظر في النجامة ليعلم عدد السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره وما في ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك له فقد أحسن وأصاب ، ومن تعاطى بذلك علم غيب الله والقضاء بما يكون فقد أساء وأخطأ » ..

وكان العزيز كالمعز في هذا المعتقد كما قال أخوه تميم في احدى قصائده:

ولما اختلفنا في النجوم وعلمها
وفي أنها بالنفع والضر قد تجري
فمن مؤمن منا بها ومكذب
ومن مكثر فيها الجدال وما يدري
ومن قائل تجري بسعد وأنحس
وتعلم ما يأتي من الخير والشر
فعلّمتَنا تأويل ذلك كله
بما فيه من سر وما فيه من جهر
عن الطاهر المنصور جدّك ناقلاً
وكان بها دون البرية ذا خبر
فأخبرتنا أن المنجم كاهن
بما قال، والكهان من شيعة الكفر
وان جميع الكافرين مصيرهم
إلى النار في يوم القيامة والحشر
فجمعتنا بعد اختلاف ومرية
وألفتنا بعد التنافر والزجر

وأوضحت فيها قول حق مبرهن

يجلّي ظلام الشك عن كل ذي فكر

فعدنا إلى أن الكواكب زينـــة

وفيها رجوم للشياطين اذ تسري

مسخّرة مضطرة في بروجهـــا

تسير بتدبير الإله على قـــــدر

وان جميع الغيب لله وحـــده

تبارك من رب ومن صمدٍ وتر

وما علمت منه الأئمـــة انمـــا

رووه عن المختار جدّهم الطهر

وقد خولط خليفة من خلفاء الفاطميين في عقله — وهو الحاكم بأمر الله — فلم يثبت من تصرفه أنه تلقن من آبائه وأسلافه مذهب الاباحة وادعاء الربوبية ، وانه وريث قوم من اليهود أو المجوس مندسين على الاسلام ليفسدوه وينقضوه ، بل ظهر أنه يحرم المباح ويطارد اليهود تارة ويغضي عنهم تارة أخرى على كراهية ونفور ، وانه كان يمنع تقبيل الأرض بين يديه ولا يرضى أن تلثم يداه وركابه ، وأمر ألا يزيد الناس في السلام حين يدخلون اليه على قولهم : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

ويجوز أن يقال عن هذا الخليفة إنه كان في تخليطه وتجديفه فريسة المضللين من وزرائه ولا يجوز أن يقال انه تولّى العرش وهو يعلم انه يهودي أو مجوسي يستدرج المسلمين إلى الكفر والاباحة وانه يهدم دولته ودولة الاسلام كله وفاقاً لما تآمر عليه آباؤه وأضمروه .

ولم يثبت مع هذا كل ما قيل عن أوامر الحاكم وزواجره وكل ما شاع عن نقائضه وبدواته ، فان التشنيع بالمضحكات والمبالغات مألوف في القاهرة لذلك العهد وما تلاه .

وقد وضع كتاب عن « قره قوش » صوره للناس في صورة الطاغية الذي لا يبالي ما يأمر به من المستحيلات والغرائب وغفل الكثيرون عن موضع الفكاهة من تلفيقات الرواة ، فحسبوها كلها جداً لا مرية فيه ، وتناقلوها واضافوا اليها ، ولم يزالوا يرددونها على هذا الفهم الخاطىء إلى زمن قريب ، وقد كان « قره قوش » على خلاف ما صوّرته الروايات عنه مثلاً في الحزم واصالة الرأي وحسن التدبير .

وعند ابن خلدون «أن الاختلاق ظاهر فيما ادعوه على الحاكم من الدعاوى الدينية ، وانه كان مضطرباً في الجور والعدل والاخافة والأمن والنسك والبدعة، وأما ما يروى عنه من الكفر .. فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل ، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته ، وأما مذهبه في الرافضة فمعروف ، ولقد كان مضطرباً فيه ، ومع ذلك فكان يأذن لأهل السنة من المصريين في صلاة التراويح ثم ينهى عنها » .

على أن الأقاويل عن الحاكم — صحت أو لم تصح — انما تروى عنه ويعلم رواتها أنهم يتكلمون عن رجل مخالط في عقله لا يعول له على سر أو علانية ..

ونحب هنا أن نوضح ما نستبعد نسبته إلى الدعوة الفاطمية في صميمها على حسب ما انتهينا اليه من الشواهد النفسية والتاريخية .

فنحن لا نستبعد أن يكون من الدعاة الفاطميين أناس قد استخرجوا لأنفسهم من دراساتهم في التصوف أو الفلسفة أو التنجيم مذهباً ينكره علماء الدين من السنيين والشيعيين .

ولا نستبعد أن يكون منهم أناس خدموا القضية الفاطمية كلها خدمة لأنفسهم ولصقوا بها كما يلصق طلاب المنافع والنهازون للفرص بكل دعوة كبيرة تتسع لخدمة المنافع الخاصة مع خدمة المنافع العامة .

ولا نستبعد أن يعاب على الدولة الفاطمية ما يعاب على الدول في دور

التأسيس أو في دور الانحلال .

ليس شيء من ذلك بعيداً ولا موجب لاستبعاده نظراً إلى أحكام العقل أو شواهد التاريخ ..

ولكن الذي نستبعده ونرى أنه مناقض للواقع وللمألوف من الدواعي النفسية ان يكون هناك تواطؤ مبيت بين اناس من المعطلين على إنشاء دولة لهدم الدين الاسلامي والدولة الاسلامية معه، وأن يشمل هذا التواطؤ أقواماً في المغرب والمشرق ويدوم من قرن إلى قرن قبل نجاح الدعوة وبعد نجاحها بزمن طويل .

هذا هو البعيد عقلاً والبعيد في دعوى المدعين الذين لم يسندوه قط بدليل يقرب إلى العقل ذلك الزعم البعيد .

أما ما عدا ذلك من شؤون الدعوة الفاطمية ، أو شؤون الدعوة العلوية في جملتها فقد سار في التاريخ مطرداً على النهج الذي ينبغي أن يسير عليه .

ان الايمان بالامامة واطلاع الامام على الأسرار التي تخفى على غيره أمر لازم من لوازم الدعوة العلوية في نشأتها التاريخية .

فان المؤمن بحق علي وأبنائه في الامامة يسأل نفسه : لم لا ينصره الله على أدعياء الامامة والخلافة ؟

انه يؤمن بالله وقدرته وقدره ، فلا جواب لذلك السؤال عنده الا أنها حكمة يعلمها الله ، وان الامامة العلوبة منذورة لزمان غير هذا الزمان ، وان الامام الحق يعلم زمانه أو ينبغي أن يعلمه بالهام من الله .

وقد آمن شيعة علي بهذا وآمنوا معه بعرفانه لعلوم الجفر وتأويل الكتاب ، وكلما تباعدت المسافة بين امامة الواقع وامامة الحق تباعدت معها المسافة بين امامة الظاهر وامامة الباطن . ثم جاء الزمان الذي أصبحت فيه امامة الباطن مستورة حتماً فأصبح فيه علم الدين والدنيا مرهوناً بما يتعلمه الطالب من الامام المستور ومن دعاته الذين يخلصون اليه ويعلمون مكانه ويفسرون أقواله

واشاراته ، ولا بد من هؤلاء الدعاة ولا مناص من هذا التعليم ..

واذا كان السلطان صاحب الجند والصولة يعتمد في قيام دولته على الشريعة والقضاء وعلى السيف والشرطة فعلام يعتمد الامام المستور الذي لا سلطان له من شرطة ولا جند ولا قضاء ؟

انه لن يعتمد على شيء غير الطاعة والثقة التي لا تتزعزع ، فلا جرم يطيعه المطيع وهو يؤمن بعصمته على الأقل في شؤون امامته ، ويؤمن بهلاك روحه ان خرج على حكم الطاعة وخان أمانة الدنيا والآخرة ، ونقض العهود وحنث باليمين .

كل هذا بديه ولا حاجة به إلى رصف أوراق أو رص أسانيد ، لأنه لن يكون الا هكذا حيثما كان ، وقد كان .

ولا ننسى ان الأئمة أنفسهم يؤمنون بما يؤمن به أتباعهم ومريدوهم : يؤمنون بحقهم ويؤمنون بيومهم الموعود ويؤمنون بالسر الذي يروضون أنفسهم بالعبادة والعلم على أن يستلهموه من هداية الله .

ومن التوفيقات التي نسميها بتوفيقات « الموقف » أن الباطنية الواقعية والباطنية الفاطمية أو الامامية على الجملة تتلاقى هنا — بحكم الموقف الواحد — في كثير من الامور .

فالدراسات المستورة أو المكتومة تتلاقى في جانب واحد . وان كانت متعددة المطالب والموضوعات .

وقد كان المحافظون على الواقع الراهن ينكرون هذه الدراسات ويمنعونها على درجات من المنع تتفاوت في العنف والصرامة .

فكان « الموقف » الواحد يجمع بين أصحاب الدراسات المستورة أو الممنوعة التي لا يرتاح اليها أنصار الواقع والمحافظة على القديم .

وليس من مجرد المصادفة أن فلاسفة المشرق كانوا من الشيعة بتفكيرهم

كما كان منهم أناس متشيعون بنشأتهم وميراثهم من بيوتهم . فكان الكندي والفارابي وابن سينا من الشيعة ، وكان اخوان الصفاء كذلك من الشيعة . ومن كان من الفلاسفة سنيا كالفخر الرازي فمذهبه الفلسفي في صفات الله يوافق مذهب الاسماعيليين وأئمة الفاطميين . اذ كان يرى أن الايمان بتعدد الصفات واستقلال كل صفة منها عن الأخرى تعديد لا يوافق التوحيد ..

والذي نستخلصه من المذهب الفاطمي أن فلاسفتهم أخذوا بمذهب الفيض الالهي الذي تعلمه المشرقيون باسم الحكيم أفلاطون وهو ينتمي في حقيقته إلى الحكيم أفلوطين .

نستخلص هذا من قول ابن سينا إن أباه كان يذهب في الكلام عن العقل والنفس مذهب الاسماعيلية .

ونستخلصه من رسائل اخوان الصفاء وهم من القائلين بمذهب الفيض الذي كان يقول به أفلوطين .

بل نستخلصه من خلط الخالطين في هذا المذهب ، لأنه هو المذهب الذي يتعرض لهذا الخلط في كل مكان ، وقد تعرض له في الشرق كما تعرض له بين الأوربيين في القرون الوسطى ، ولا يزال يتعرض له في العصر الحديث .

وعلى نقيض ما قيل عن الاباحة في مذهب الاسماعيليين يمتاز مذهب الفيض الالهي بالمبالغة في التطهر والإعراض عن الشهوات والترفع عن غواية الدنيا التي يتهالك عليها الجهلاء ، والجاهل عندهم هو من يتعلق بشيء من الأشياء غير معرفة الحقيقة الالهية والبحث عنها في كل ظاهرة من ظواهر هذا الوجود ..

وقد نبه اخوان الصفاء في غير موضع من رسائلهم إلى وجوب التطهر على الحكيم الخالص للحكمة في حياته الخاصة والعامة ، وقالوا غير مرة ان الاستسلام لشهوات البدن يقطع الانسان عن آخرته ومعاده ، ومن ذلك قولهم في رسالة الجسمانيات والطبيعيات : « اعلم أن الاستغراق في الشهوات في

هذه الدنيا ينسي الانسان أمر الآخرة ويشككه وييئسه منها ، كما قال قائلهم في هذا المعنى :

هي الدنيا وقد وعدوا بأخرى
وتسويف الظنون مـن السـوام

وقيل أيضاً في هذا المعنى شعراً :

خذوا بنصيب من نعـيم ولـذة
وكلٌ وان طال المدى يتصرم

وقال آخر وقد كان ساهياً عن أمر الآخرة :

ما جاءنا أحـد يخبّـر انه
في جنة مذ مات أو في نـار

وأشعارهم كثيرة في مثل هذه الظنون والشكوك والحيرة التي وقعو فيها عقوبة لهم عندما تركوا وصية ربهم ونصيحة أنبيائهم واتباع علمائهم والحكماء فيما يدعونهم اليه ويرغبون فيه من نعيم الآخرة ، ويأمرونهم به من الزهد في الدنيا وينهونهم عنه من الغرور بشهواتهم وعاجل حلاوتها » .

ومنذ القدم عرف عن هذا المذهب الفلسفي انه مذهب نسك وعفة وعزوف عن الماديات وترفع إلى عالم الروح ، وكان أفلوطين صاحبه قدوة لأبناء عصره في العفة والزهد والانقطاع عن شواغل الثروة والجاه ، وكان من تلاميذه من يبيع قصوره ونفائسه ليلازمه في معهده ويعيش على مثاله .

ولا غنى عن خلاصة لهذا المذهب ننقلها هنا كما أوردناها في رسالتنا عن الشيخ الرئيس ابن سينا وهي كما يلي :

« ... انه يتجاوز – أرسطو – أشواطاً بعيدة في التنزيه والتجريد، فيرى أن الله – أو الأحد – من وراء الوجود ومن وراء الصفات ، لا يُعرف ولا يوصف ، ولا يوجد في مكان ولا يخلو منه مكان ، وكماله هو الكمال الذي

نفهمه بعض الفهم بنفي النقص عنه ، وهيهات أن نفهمه باثبات صفة من الصفات ، لأننا نستطيع أن نقول انه لا يكون هكذا ولا نستطيع أن نقول انه هكذا يكون ..

« وقد يتصل به الانسان في حالة الكشف والتجلي حين تتجاوز الروح جسدها كما يقول ، ولكنها حالة لا تقبل التأمل والتفكير ، فاذا انقضت فقد يثوب الانسان بعدها إلى عقله فيتأمل ويفكر وينحدر بذلك من مقام الأحد الى مقام العقل الذي هو دونه ، لأن الأحد فوق العقل وفوق المعقول . ويقول أفلوطين كما يقول أرسطو إن الله أو « الأحد » لا يشغل بغير ذاته ، لأنه مستغن بذاته كل الاستغناء . أما العالم فقد نشأ من صدور العقل عن الأحد وصدور النفس عن العقل من هذا التأمل ، وان العقل يعقل الأحد فهو أحد مثله وان كان دونه في مرتبة الوجدانية ، ثم يعقل ذاته فينشأ من عقله لذاته عقل دونه وهو النفس أو هو القوة الخالقة التي أبدعت هذه المحسوسات ..

« ومن البديه ان صدور الجسم من الجسم ينقصه ويخرج شيئاً منه ينتقل من المعطي إلى الآخذ فينقص بانتقاله ، أما صدور الفكرة من العقل فلا تنقصه ولا تجرده من شيء فيه ، ومن هذا المثال نفهم صدور العقل عن الأحد الذي لا يعتريه نقص بحال من الاحوال .

« والنفس — وهي المرتبة الثالثة في الوجود عند أفلوطين — تتجه إلى العقل فتنسجم معه في مقام التجريد والتنزيه ، وتتجه إلى الهيولى فتبتعد عن التجريد والتنزيه ، ولهذا تخلق الأجسام وتضفي عليها الصور على سبيل التذكر لما كانت تتأمله وهي في عالم القدرة الكاملة أو عالم الصور المجردة . فهذه المحسوسات هي كالظلال للمعقولات قبل أن تبرزها النفس في عالم المحسوسات ، أو هي كأطياف الحالم وهو يستعيد بالرؤيا ما كان يبصره بالعيان ..

« فالمحسوسات كلها أوهام وأحلام ، وكلها غشاء باطل يزداد بعداً من الحقيقة كلما ابتعد من العقل وانحدر في اتصاله بالهيولى طبقة دون طبقة ،

فان العقل دون الأحد ، والنفس دون العقل ، والمحسوسات دون النفس ، وهكذا تهبط الموجودات طبقة بعد طبقة حتى تنحدر إلى الهيولى التي لا نفس معها ، وهي معدن الشر في العالم ، لأنها سلب محض يحتاج أبداً إلى الخلق ، وهو الايجاد أو الإيجاب .

« وقد صدرت النفس الفردية من النفس الكلية ، ولها كالنفس الكلية التي صدرت منها اتجاهات . فهي باتجاهها إلى النفس الكلية الهية صافية ، وباتجاهها إلى المحسوسات والأجساد حيوانية شهوية . وليست النفس عند أفلوطين ملازمة للجسد كما يقول أرسطو ، بل هي جوهر منفصل عنه سابق له كالمُثل الافلاطونية ، فلا تقبل الفناء ولا يحصرها الزمان والمكان . وهي تصدر من النفس الكلية اضطراراً كما صدرت النفس الكلية من العقل الأول ، مستجيبة لطبيعة الاصدار في ذلك العقل ، وللشوق الهيولاني الذي يترفع بالهيولى إلى منزلة المحسوسات فالمعقولات ..

« والشر في العالم هو الهيولى لأنها سالبة تنزل بالمعقولات والروحيات التي لا تلابسها ، ولا محيد عن الشر مع وجود الهيولى وقدمها وضرورة الملابسة بينها وبين العقل والنفس في دور من أدوارها . وعلى النفس أن تجاهدها وتنتصر عليها وعلى شهواتها ، فان أفلحت عادت إلى النفس الكلية خالصة مخلصة ، وان لم تفلح عادت إلى الجسد مرة أخرى ولقيت في كل مرة جزاءها على الذنوب التي اقترفتها في حياتها الجسدية الماضية ..

« ولا حرية للانسان كما رأيت ، لأن وجوده ضرورة يستلزمها الصدور وملابسة الهيولى ، ولكنه يقاوم تلك الضرورة بجهاد الشهوات ، فيترقى من مرتبة الحس الى مرتبة التأمل إلى مرتبة الكشف ، وينتقل من شتات الحس إلى استجماع العقل إلى وحدة الأحد ورضوان الكمال ، فتجزيه ضرورة الارتقاء عن ضرورة الانحدار ، ولا محل بينها لشيء من الاختيار ، وان قال به افلوطين في بعض الاحيان ... » .

هذه خلاصة وجيزة جداً لأصول مذهب الفيض كما شرحه تلاميذ أفلوطين ، نعتمد فيها على المراجع الأوروبية الحديثة التي نقلت مباشرة من اليونانية . وقد نقل هذا المذهب مجملاً في بعض الأوقات ومفصلاً في أوقات أخرى إلى اللغة العربية،ووقع في نقله خطأ اسناد وخطأ تفسير.. فنسب الناقلون فصولاً منه إلى افلاطون ونسبوا مبادىء منه إلى أرسطو ، ولكن المتصوفة الإسلاميين وفلاسفة الإسلام في المشرق قبلوا منه ما يوافق الدين الاسلامي وهو تنزيه الأحد وعقيدة التجلي على الخلصاء من العبّاد والمتأملين ، ورفضوا منه على التخصيص قوله بتناسخ الأرواح وعقوبة الأنفس في هذه الدنيا بردها الى الأجساد التي تشقى فيها ، أو مكافأتها بردها الى الأجساد التي ترقى فيها الى مرتبة فوق مرتبتها .

ووجد الفلاسفة والمتصوفة معاً ما يوافقهم في اقوال أفلوطين ، فقال بالكشف وقدرة النفس على الخوارق طائفة من المفكرين لا يحسبون بين أهل الطريق ولا يدعون لأنفسهم صفة الامامة الدينية ، وانما قالوا بالكشف والقدرة على الخوارق أخذاً بالاقيسة الفكرية ، واستدل ابن سينا على امكان الكشف بأن النفس الصالحة تتلقى في الرؤيا الأنباء بالمغيبات عنها وعن غيرها فلا مانع من تلقيها العلم يقظة متى تهيأت له بالرياضة وصفاء السريرة ، وان نفس الانسان تتصرف في مادة الجسد فلا مانع أن تتصرف في مادة الكون بقدرة تستمدها من علة العلل التي تتصرف في جميع الأشياء .

وطائفة من أصحاب المآرب وجدوا في تناسخ الأرواح ما يعينهم على دعواهم ، ومنهم من كان يدعي انه ابن الامام علي بالتسلسل الروحاني مع اعترافه بأنه من غير نسله في السلالة الجسدية ، زاعماً ان النبوة تحصل بالانتماء إلى الروح كما تحصل بالانتماء إلى الجسد ، ولم يكن في هؤلاء أحد من الفاطميين ولا كانت بهم حاجة إلى هذه الدعوى لأنهم يصححون نسبهم جميعاً إلى الامام علي بغير وسيلة هذا التناسخ المزعوم ..

ولا شك أن العلامة الشهرستاني كان يلخص طرفاً من مذهب أفلوطين

كما وصل إلى المشرق حين قال في تلخيصه لكلام الباطنية عن الصفات : أن الله « لما وهب العلم للعالمين قيل هو عالم ، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ، فهو عالم قادر بمعنى انه وهب العلم والقدرة لا بمعنى انه قام به العلم والقدرة أو وصف بالعلم والقدرة .. وانه أبدع بالأمر العقل الأول الذي هو تام بالفعل ، ثم بتوسطه أبدع النفس الذي هو غير تام .. ولما اشتاقت النفس إلى كمال العقل احتاجت إلى حركة من النفس إلى الكمال واحتاجت الحركة الى آلة الحركة الخ الخ » .

فهذا المذهب في الصفات الالهية يوافق مذهب أفلوطين في جملته ، وفحواه بلا اغراب ولا ابهام . اننا حين نصف الله بالعلم لا ندرك من كنه العلم الا ما يعطينا اياه ، واننا حين نصف الله بالقدرة لا ندرك من كنه القدرة الا ما نقدر عليه بأمر الله ، وهكذا في سائر الصفات مما لا يجوز أن يفهم منه انه انكار لعلم الله وقدرته ، اذ كان أصحاب الفيض الالهي ينكرون نقائض الكمال ويرتفعون بالكمال الالهي مرتفعاً تعجز عن ادراكه العقول ..

لكن هذا المذهب كما أسلفنا عرضة للخلط في فهمه ممن يهرفون بما لا يعرفون ، فان هؤلاء يخلطون بينه وبين مذهب الحلول وهو يناقض مذهب الحلول أشد المناقضة وينكره غاية الانكار ، فان الخلاص من أوهاق المادة الجسدية عند أفلوطين هو غاية التنزيه والتطهير ، ولا يتفق هذا مع القول بحلول الله سبحانه وتعالى في الأجسام .

كذلك يخلطون بينه وبين وحدة الوجود وهما مذهبان متناقضان . فان القائلين بوحدة الوجود يسبغون الصفة الالهية على الموجودات جميعاً وهو قول ينفيه أفلوطين جد النفي تنزيها لله « الأحد » عن جميع المحسوسات والمتعددات ..

ويسمع السامع ان حكمة الخلق تتجلى في أناس فيخيل اليه ان اللاحق أفضل من السابق أو أن قيام مشيئة الله في كل عصر رسالة كرسالة الأنبياء ..

هذا الخلط في فهم المذهب قد جنى على الحقيقة في غير طائل ، وجر الى الخبط في الظنون لغير علة لولا الحماقة وخفة العقل وحب الحذلقة والادعاء ..

وقد كان ابن هانىء الأندلسي من هؤلاء الذين يتعاطون الفلسفة ويهرفون فيها بما لا يعرفون ، ولم تكن حذلقته مقصورة على مذهب الاسماعيلية بل هي طبيعة نشأت معه في موطنه ، ولغط بالفلسفة وهو يتصل بصاحب اشبيلية فأقصاه خوفاً من اتهامه بمشاركته في اضاليله وخزعبلاعته ، ولما مدح المعز الفاطمي بقصيدته الرائية التي قال في مطلعها :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

لم يكن يريد أن يقول ان المعز أقدر من الله والا لما قال بعد ذلك :

وكأنما أنت النبي محمد

وكأنما أنصارك الأنصار

وانما أراد أن يتحذلق بما سمع عن صفات القدرة والعلم وان الله يوصف بالقدرة لأنه يعطيها ، وان مشيئته سبحانه وتعالى تقوم بمن يندبه لامضاء تلك المشيئة ، فخلط وخبط واتهمه الناس ولهم العذر فيما اتهموه به ، ولم تكن به ولا بممدوحه حاجة اليه ..

إلا اننا اذا صرفنا النظر عن هذا وأشباهه من ضروب الحذلقة والمبالغة في الشعر خاصة لم نجد في كلام القوم ما لم يألفه المتصوفة وأبناء الطريق من عبارات المجاز والكناية ، وليس فيما روي عن ثقات الفاطميين شيء لم يسمع مثله من امام كبير كمحيي الدين بن عربي في كتب التأويل أو كتب الترسل الصريح ، وقد كتب محيي الدين إلى فخر الدين الرازي رسالة يقول فيها : « للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم ، وللعلماء بالله سر لو ظهر لبطلت الأحكام ، فقوام الايمان واستقامة

الشرع بكتم السرية .. » الى آخر ما قال عن التوحيد والاتحاد والوحدانية والأحدية .. وفوق كل ذي علم عليم ..

وهذا كلام لولا ولع المتصوفة بالاغراب لقال قائله ان النبوة لازمة لأن الناس لا يكشفون سر الغيب بغيرها ، وان العلم لازم لأن النبوة لا تصل الى الناس أجمعين ، وان الأحكام لازمة ، لأن العالم يزجره العلم والجاهل تزجره الأحكام . ولكن الاغراب في أساليب المتصوفة والحذلقة في أساليب من يسمعون ولا يفقهون أو من يفقهون القليل ويحبون أن يظهروا الفقه الكثير — كل أولئك يقود الى الظنون حيث لا موجب للظنون .

وجملة القول ان الباطنية الفاطمية لو لم تقترن بالدعوة الى قيام دولة تحارب الدول القائمة لما استغربها الناس ذلك الاستغراب ولا اضطربت حولها التهم والأقاويل ذلك المضطرب ، فقد كان كل مذهب في ذلك العصر « باطنياً » على نحو من الأنحاء ، وأوشك أن يتساوى في هذا أهل السنة وأصحاب التصوف وطلاب الفلسفة واخوان الصفاء ممن يتذاكرون العلم بينهم ويظهرون منه حينا بعد حين ما طاب لهم أن يظهروه .

فالامام الغزالي — وهو من أقطاب أهل السنة ومبغضي الفلسفة — كان يؤلف للعامة غير ما يؤلفه للخاصة ، وكان من كتبه ما يضن به على غير أهله . والامام ابن عربي المتصوف كان يدين بالسرية ويرى انها تمام العلم والمعرفة ، وأبو العلاء المعري الشاعر الحكيم كان في رأي داعي الدعاة يخفي ما يعلم عن أناس يلعن بعضهم بعضاً ويتهم بعضهم بعضاً بالكفر والمروق من الدين ، وشعارهم جميعاً :

خل جنبيك لرام — وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير — لك من داء الكلام

الا أن يكون مندوباً لعمل لا حيلة له فيه أو متجرداً لرسالة يهون فيها

عنده أن يقول وأن يقال فيه .

ومن المحتمق ان الباطنية الفاطمية أضيف إليها الكثير بعد دخول الحسن ابن الصباح الذي سيأتي ذكره في زمرتها، ومن هذا الكثير أنظمة لم تعهدها من قبل، وعقائد لم تكن لازمة لها ولا معقولة منها، وأهم هذه الأنظمة نظام الفدائيين الذين كانوا عدة الرؤساء في حوادث الغيلة والهجوم على المخاطر ، فهؤلاء لم يظهر لهم عمل في خدمة الباطنية الا بعد نشوء الدولة الفاطمية بأكثر من مائة سنة، ولو كان للخلفاء الفاطميين جند من هذا النظام لما استبد بهم الوزراء أحياناً من غير مذهبهم ولا من المجاملين لطوائف الاسماعيلية المخلصة لأولئك الخلفاء .

فقد استبد الأمير بدر الجمالي بالأمر دون الخليفة — وهو أمير الجيوش الذي ينسب اليه حي مرجوش والجمالية — وجاء ابنه الأفضل من بعده وسار مع الخليفة الآمر على خطة ابيه ، وكان بدر وابنه الأفضل على مذهب من مذاهب الشيعة غير مذهب الاسماعيلية ، فصادروا الاسماعيليين ونفوا أناساً من قادتهم وغلاتهم من الديار المصرية ، وضاق الخليفة الآمر بوزيره ذرعاً فتحدث الى ابن عمه في قتله عند دخوله اليه بقصر الخلافة ووافقه ابن عمه على وجوب الخلاص من الوزير المستبد ولكنه أشفق على سمعة القصر من جرائر اغتيال الوزراء والكبراء في رحابه ، وأشار عليه بتحريض رجل من صنائع الوزير نفسه على قتله ، واغرائه بمنصب سيده مكافأةً له على طاعته ، واتفقا على اختيار المأمون بن البطائحي لهذه المهمة فقبل هذا ما أمروه به طمعاً في الوزارة ، ولم يجد البطائحي من يعينه على مهمته غير أعداء الوزير الذين نفاهم من مصر ثم تسللوا اليها خفية.. وشجعهم على الانتقام منه اغراء البطائحي لهم ووعدهم بالعفو عنهم واسناد الوظائف اليهم متى آلت اليه وزارة الدولة ، ولو كان نظام الفدائيين معروفاً يومئذ في الدولة الفاطمية لما استطاع الوزير الأرمني المخالف لمذهب الاسماعيلية أن يستبد بالامام المطاع ولا احتاج

الامام المطاع الى التفكير في اغتيال الوزير بين يديه بقصر الخلافة ، ولا الى تدبير تلك المؤامرة التي اعتمد فيها على الوعد والاغراء والاستعانة بذوي المطامع والترات ..

ولا شك أن الحسن بن الصباح لم يعمد إلى نظام الفدائيين الا بعد استيلائه – كما سيلي – على قلعة « آلموت » واضطراره الى حماية نفسه من دول حوله تجرد الجيوش لقتاله ، وهو في قلعته بغير جيش يقاوم تلك الجيوش الزاحفة عليه بمثل عدتها وعددها في ميادين القتال .

وقد تغيرت الدعوة كلها حين تغير موضوعها وتغيرت وسائلها ، وأمعنت في التخفي أو في « الباطنية » الواقعية حين أمعنت في الهجوم على خصومها وأمعن خصومها في الهجوم عليها .

أما قبل دخول ابن الصباح في زمرة الباطنية فقد كان استخفاء الدعاة وأتباع الدعاة ضرورة لا محيد عنها لانتشار أصحاب الدعوة في بلاد واسعة تدين بالطاعة لحكومات متوجسة ، تسرع الى التنكيل بكل من يخالفها ويناصر أعداءها . ولم يكن هذا الاستخفاء لترويج الدسيسة التي تمالأ عليها « مجوس أو يهود » بيتوا النية على هدم الدين وتضليل المسلمين ، بل كان لزاماً لأصحاب تلك الحكومات ولا شك أن يشركوا رعاياهم معهم في الخوف من الاسماعيلية، فلو انهم قالوا لأولئك الرعايا ان الاسماعيليين طلاب ملك ينتزعونه من ملوك ذلك الزمن لما تحركت لأولئك الرعايا ساكنة في حربهم والدلالة على مكانهم ، اذ كان أكثر الرعايا يعلمون ان الحكم في ايدي أناس لا يستحقونه بعلمهم وعملهم وان استحقوه بنسبتهم ، وان أصحاب السلطان الفعال من أجناد الديلم والترك دخلاء على العباسيين كما كانوا دخلاء على الفاطميين ، فان لم يكن خطر الاسماعيلية خطراً على الدين وعلى المسلمين جميعاً فهو خطر لا يهم الناس في كثير ولا قليل ، ما دام مقصوراً على أصحاب العروش والدسوت .

ولهذا راجت خرافة النسب الى المجوس واليهود ، وهي خرافة تنكرها الحقائق النفسية ولا تؤيدها الشواهد التاريخية ، وكل ما ثبتت نسبته الى أصحاب الباطنية الفاطمية فهو من المسائل التي يختلف عليها طوائف المسلمين من سنيين وشيعيين ، بل يختلف عليها الشيعيون الاماميون أنفسهم بين القائلين بامامة موسى والقائلين بامامة اسماعيل من أبناء جعفر الصادق ، وليس وراء ذلك كله دسيسة لهدم الاسلام كله وتضليل المسلمين أجمعين ..

ومحصل القول في المذهب الاسماعيلي من الوجهة الفلسفية انه هو مذهب الفيض الالهي كما اعتقده المتصوفة المسلمون من أصحاب الدعوات السياسية وغير أصحاب الدعوات السياسية ، يضاف اليه القول بعصمة الامام وانه وحده القادر على التأويل الصحيح والاحاطة ببواطن التنزيل ، وينبغي أن نذكر هنا ان القول بالعصمة الواجبة لكل امام كان مذهباً من مذاهب الفلسفة في حكومة المدينة الفاضلة ، فان الفيلسوف الفارابي الذي كان يلقب بالمعلم الثاني قد طلب لامام المدينة الفاضلة كمال العقل والعلم والخيال والذوق والخلق والخلقة ، ولعله لهذا كان قريباً من الشيعة محباً للمتشيعين .

وقد كان القول بعصمة الأئمة لا يوجب على المؤمنين به سب كل خليفة غير الامام علي وأبنائه الأكرمين ، ولكن سب الخلفاء جرى على ألسنة طائفة من غلاة الفاطميين وغير الفاطميين ، فاستنكره عقلاؤهم وحكماؤهم ، واستنكره أدبا من لا ينكره اعتقاداً ولا يرى الخلافة لأحد غير الامام علي وبنيه ، ولا عذر من المسبة الباطلة على كل حال ، ولكن الخلاف القبيح الذي أطلق الألسنة بلعن عليّ على المنابر ستين أو سبعين سنة هو الخلاف القبيح الذي أطلق الألسنة بعد ذلك بالجرأة على أقدار الأئمة الآخرين رضوان الله عليهم أجمعين .

* * *

حسن بن الصباح

أشرنا في الفصل السابق الى التغير الذي طرأ على نظام الدعوة الاسماعيلية بعد دخول الحسن بن الصباح في زمرتها ، وسنرى من جملة الأخبار والأعمال التي رويت عن ابن الصباح ان الرجل من أصحاب تلك الشخصيات التي لا تتصدى لدعوة من الدعوات الا أضافت اليها شيئاً من عندها وطبعتها بطابعها ، وانه لم يكن من أولئك الذين يتعلقون بدولاب كبير يديرهم الى وجهته ، بل كان من الذين يديرون الدولاب الى وجهتهم حين يتعلقون به ، ولا يدفعهم الى التعلق به الا انهم لا يستطيعون أن يخلقوا لأنفسهم دولاباً مستقلاً يتعلق به الآخرون .

واتفقت الأخبار الصادقة والكاذبة التي رويت عن الرجل على صفة واحدة فيه يثبتها الخبر الصحيح والخبر الكاذب على السواء ، وهي الجنون بالسيطرة والغلبة ، ونتعمد أن نسميها الجنون بالسيطرة ولا نسميها حباً للسيطرة ولا رغبة فيها ، لأنه كان مغلوباً لدفعه نفسه أو كان أول من غلبته تلك النزعة فمضى معها مسوقاً لها غير قادر على الوقوف بها ولا الراحة معها .

والسيطرة محبوبة لكل انسان ، ولكن الفرق عظيم بين من يهيم بالسيطرة لأنه لا يطيق العيش بغيرها ، وبين من يطلبها لأنه يفضلها على عيشة بغير سيطرة أو يفضلها على عيشة الطاعة والاذعان للمسيطرين .

ذلك مضطر الى طلب السيطرة ، وهذا مختار في المفاضلة بين الحصول عليها والاستغناء عنها ، وقد يفضل الاستغناء عنها اذا جشمه الطاب فوق ما يطيق ..

وكان الرجل داهياً ولكنه لم يكن من الدهاء بحيث يستر مطامعه ولا يثير المخاوف فيمن حوله .

أو لعله كان داهياً عظيم الدهاء ، ولكن هيامه بالسيطرة واندفاعه اليها كانا أعظم من دهائه . فانكشفت غايته على كره منه وحيل بينه وبين بلوغ تلك الغاية من كل طريق ينافسه فيه المنافسون .

ومما لا ريب فيه ان الرجل لم يكن من الغفلة بحيث يصدق كل خرافة من الخرافات التي كان يذيعها ويتولى نشرها والدعوة اليها ، ولكن التواريخ والشواهد لم تحفظ لنا خبراً واحداً يدل على انه كان من السمو الفكري بحيث يسلم من جميع الخرافات ويتبطن ما وراءها من الحقائق ، ولا سيما اذا كان التصديق هو طريقه الى السلطان والغلبة وقهر الخصوم والانتصار على النظراء . فمن مألوف النفوس — أو من مألوف هذه النفوس خاصة — أن تعتقد ما يواتيها على هواها ويعزز ايمانها بمطمعها ، كما يفعل المحب الذي يؤذيه الشك ويؤذيه العلم بعيوب محبوبه فيروض طبعه على اليقين وتجميل العيوب لأنها أريح له وأعون له على هواه من عذاب الشكوك وانكشاف العيوب .

وهذه الطبيعة المعهودة في أمثاله دون غيرها هي التي تفسر لنا أعمالاً شتى يبدو فيها خادعاً مخدوعاً في وقت واحد ، فهو حصيف لا شك في حصافته ، ولكن كيف يقع الحصيف في مثل ذلك السخف الذي لج به حتى يسول له البطش بأقرب الناس اليه ومنهم ولده أو ولداه ؟ .

يقع الحصيف في مثل ذلك السخف ، وفيما هو أسخف منه ، اذا كان مغلوباً على أمره مضطراً الى تسويغ دفعته بعقيدة تجملها في نظره وتلبسها ثوب الواجب الذي لا محيد عنه ولا هوادة فيه .

أما ان حسن بن الصباح كان مغلوباً على أمره في طلب السلطان فحياته كلها سلسلة من الشواهد على طبيعة لا تطيق العيش بغير سلطان أو بغير السعي الى السلطان ، فانه ما اتصل بأحد قط الا خافه على مكانته وتوجس منه على الرغم من دهائه وفطنته ، ولو لم يكن طمعه أقوى من دهائه وفطنته لما تكشفت منه دفعة الطمع في كل علاقة وفي كل مكان .

سمع في شبابه عن الشيخ موفق النيسابوري ان تلاميذه جميعاً يرتفعون ببركة تعليمه في مراتب الدولة ، وكان ابن الصباح شيعياً ومدرسة الشيخ الموفق معهد السنة في نيسابور ، فلم يمنعه ذلك أن يختارها للتعلم فيها على أمل في الجاه والسلطان .

ومن الذين ذكروه من محبيه رشيد الدين بن فضل الله صاحب « جامع التواريخ » .. وفي روايته عن صباه يقول ان سبب العداء بينه وبين الوزير نظام الملك انه كان يتتلمذ معه في مدرسة نيسابور فتعاهدا على المعونة اذا وصل أحدهما الى منصب من مناصب الرئاسة ، وان ابن الصباح قد استنجز الوزير وعده فخيّره بين ولاية الري وولاية أصفهان ، وكان ابن الصباح عالي الهمة فلم يقنع باحدى هاتين الولايتين ، فاستبقاه نظام الملك في الديوان عسى أن يترقى فيه الى مكانة أكبر من مكانة الولاة ..

والرواية على هذه الصورة عرضة للنقد والمناقشة ، ولكنها على كل حال يصح منها شيء واحد : وهو علم المؤرخين للرجل — من محبيه فضلا عن مبغضيه — انه كان بعيد المطامع منذ صباه ..

وحدث ، وهو في الديوان ، انه تصدى لعمل من أعمال نظام الملك فوعد الملك بانجازه قبل أن ينجزه الوزير ، فاحتال هذا على احباط سعيه وأوصد عليه الباب الذي أراد أن يندفع منه الى منصبه فوق كتفيه .

وقيل في تعليل سفره الى مصر للقاء الخليفة الفاطمي انه استوعب كل ما تعلمه من الدعاة فاستصغره الى جانب علمه بأسرار الدعوة ، فأراد المزيد

من العلم بالشخوص الى دار الحكمة في القاهرة ، لعله يستوفي هناك علوم الاسماعيليين التي غابت عن دعاة العراق .

ومن الواضح ان الشخوص الى عاصمة الخلافة الفاطمية هو المسعى الذي لا تنصرف عنه همة طامع في مناصب الدولة ، فليس له مطمع في بغداد وليس له بين السلجوقيين مقام محمود ، ولم يبق له إلا أمل واحد لا منصرف عنه ، وهو بلوغ المنصب المرموق في عاصمة الخلافة ومرجع الدعوة والدعاة ..

ولكنه لسوء حظه بلغ القاهرة وقد تحكم فيها رجل قوي الشكيمة كبير المطامع يتولى القيادة والوزارة ولا يقنع بهما دون الامارة والملك لو تمهد اليهما السبيل ، ومن ثم زوج بنته للامير المستعلي ، ابن الخليفة ، وأكره الخليفة أو زين له أن يختار المستعلي لولاية عهده ، أملا في الملك ان استطاعه لنفسه أو في توطيد الملك لذريته من بعده .

ذلك هو أمير الجيوش بدر الجمالي الذي سبقت الاشار اليه ، وذلك هو الند الذي تحفز ابن الصباح لمصاولته ومداورته بعد وصوله الى القاهرة، فاختار نزاراً لولاية العهد واحتال جهده أن يحول بين المستعلي وعرش الخلافة ، واستمد من أساس المذهب الاسماعيلي كل حجة يدعم بها ترشيح نزار للخلافة بعد أبيه ، فزعم أنه مثل بين يدي الخليفة المستنصر فوكل اليه الخليفة أن يدعو اليه والى ولي عهده بين الأمم الاسلاميــة . قال : « فسألته ومن ولي العهد ؟ فأشار الى نزار .. »

تلك قصة تشبه قصة الولاية التي صارت الى اسماعيل بن جعفر الصادق وثبتت له بعد عدول أبيه عن ولايته واسنادها لأخيه موسى ، فان الاسماعيليين يرفضون تبديل ولاية العهد لأن الولاية بأمر الله والله يتنزه عن البداء ..

فلما أراد الحسن بن الصباح أن يثبت الولاية لنزار أقام لهــا أساساً كالأساس الذي قامت عليه الدعوة الاسماعيلية من مبدئها ، وروى تلك

القصة عن الخليفة المستنصر (والارجح عند أناس من ثقات المؤرخين ان الخليفة لم يدعه الى لقائه ، بل أنزله منزل الكرامة في دار الضيافة ، ثم أبقاه على أمل يتردد بين التقريب والاقصاء) ولكن ابن الصباح قد طال عليه الانتظار وأحس الخطر من أمير الجيوش فنجا بحياته من مصر ، ولما يصدق بالنجاة ، وراح بعد الافلات من الخطر ينشىء له دعوة جديدة في المذهب الاسماعيلي ، وهي الدعوة الى امامة نزار .

وراح الحسن يطوف في بلاد الشام والعراق وفارس لينشر دعوته الجديدة حيث يأمن الرصد والمطاردة ، ويبدو ان حوافز النفس الغلابة كانت في تلك الفترة على أشد ما تكون غلبة عليه ، حرجاً بما لقيه وضيقاً بالمطمع الذي ينازعه ولا يعلم المخرج اليه ، فقال يوماً لأحد أصدقائه في أصفهان : لو أن معي صديقين أركن اليهما لانتزعت من هؤلاء السلاجقة عرشهم ... فظن به صديقه الجنون وأوصى طباخه أن يتخير لضيفه ما لطف من الطعام وطاب غذاؤه ، وأدرك الحسن أن صديقه قد خامره الشك في عقله فتركه ومضى لسبيله .

والظاهر من مساعيه وحركته في هذا التطواف انه كان يبحث عن أستاذه القديم في الدعوة الاسماعيلية عبد الملك بن عطاش ، وكان ابن عطاش قد ولاه الوكالة عنه ثم زين له السفر الى القاهرة وأطلعه قبل سفره اليها على اسماء بعض الدعاة المستترين الذين يلقاهم في طريقه ولكنه لم يطلعه على أسمائهم جميعاً . وأهم من ذلك لدى التلميذ المتحفز انه لم يعرف من أستاذه مكامن الأموال المدخرة لبث الدعوة ولا عرف بطبيعة الحال كلمة السر التي تمكنه من أخذها وتكون علامة له عند المؤتمنين عليها ، فما زال الحسن يتعقب ابن عطاش حتى ظفر بلقائه ووثق من اطمئنانه اليه ، ولعله استطلعه أسرار الودائع المخبوءة فأطلعه عليها ..

وواضح ان تجارب الحسن في رحلاته بين بلاد السلاجقة وخلفاء بني العباس وخلفاء الدولة الفاطمية قد أيأسته من الوثبة الى السلطان من طريق

الولاية ، ولكنها لم تيئسه من الوثبة الى السلطان حيث كان لاستقرار هواه في طبعه ، فطمحت به همته الى معقل من المعاقل في أطراف الدولة ينفرد بحكمه ولا تمتد اليه فيه يد ملك أو خليفة . وتخير الأطراف فلم يجد منها ما هو أصلح لمطلبه من بلاد الديلم ، فخرج اليها مع رهط من صحبه وأتباعه ، وقيل انه تلقى من مصر في هذه الأثناء ولداً لنزار بايعه بالامامة وعمل باسمه ودعا اليه ، حتى انتهى به المطاف الى قلعة يقيم فيها زعيم من العلويين ، فاستضافه ، فأنزله على الرحب والسعة وتغاضى عنه وهو ينشر الدعوة لمذهبه ويجمع الأنصار حوله ، ثم احكم أمره كما يقول ابن الأثير فطرد صاحب القلعة واستولى عليها وعلى القلاع التي تجاورها . وساعده على انتزاعها انه خيل الى أهل الاقليم ان مجموعة حروفها بحساب الجمل توافق تلك السنة الهجرية : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة (٤٨٣) وهي مجموعة حروف الألف واللام والهاء والألف والميم والواو والتاء التي تتألف منها كلمة الهاموت ، وأتم الحيلة في أذهان القوم انه فسرها لهم بمعنى النسر المعلم من (اله) بضم اللام بمعنى النسر في الفارسية و (اموهث) [١] بمعنى المعلوم أو المعلم ، ايماء من الغيب بتعليم الدين من قمة النسر الشاهقة ، والدين في مذهب الباطنية تعليم لا يستغني عن الامام في كل زمان ! .

* * *

وقد تحدث المؤرخون والسياح عن أسرار تلك القلعة العجيبة التي تزجى الاحاديث عنها بين الناس فيصدقونها لأنهم يحبون الاستماع الى العجب والتحدث بالعجب ويصعب عليهم بعد العثور على حديث عجيب أن يفرطوا فيه كما يصعب عليهم التفريط في كل قنية عجيبة أو كل تحفة نادرة ..

من هذه الأعاجيب ان الحسن بن الصباح عرف سر الحشيش من استاذه الطبيب ابن عطاش فسخره في نشر دعوته ، وانه توسل به لاقناع

---

(١) ينطق اسم القلعة « الاموات » أو الموت بفتح اللام .

أتباعه برؤية الجنة عياناً لأنه كان يدير عليهم دواخين الحشيش ثم يدخلهم الى حديقة عمرت بمجالس الطرب التي يتغنى فيها القيان ويتلاعب فيها الراقصات ثم يخرجهم منها وهم في غيبوبة الخدر ويوقع في وهمهم ساعة يستيقظون انه قد نقلهم الى جنة الفردوس وانه قادر على مرجعهم اليها حيث يشاء ، وانهم اذا ماتوا في طاعته ذاهبون بشهادة أعينهم الى السماء.

قالوا : وان هذا الاقناع أو هذا « الايمان العياني » يفسر طاعة أتباعه الذين كان يأمرهم بالهجوم على أعوانه من الوزراء والأمراء بين حاشيتهم وأجنادهم فيهجمون عليهم ويغتالونهم غير وجلين ولا نادمين ، وان كلمة « أساسين » Assasin التي أطلقت في الغرب على قتلة الملوك والعظماء ترجع الى كلمة الحشاشين أو الحسنيين نسبة الى الحسن بن الصباح ، وقالوا ان الفتى من أتباع شيخ الجبل كان يبلغ من طاعته لمولاه أن يشير اليه الشيخ بإلقاء نفسه من حالق فيلقي بنفسه ولا يتردد ، وأن أحدهم كان يقيم بين جند الأمير المقصود بالنقمة ويتكلم لغتهم حتى لا يميزوه منهم ، وانه يفعل فعلته ويتعمد أن يفعلها جهرة ولا يجتهد في الهرب من مكانها ، وان أمهات هؤلاء الفدائيين كن يزغردن اذا سمعن خبر الفداء ويبكين اذا عاد الأبناء اليهن ولم يفلحوا في اغتيال أولئك الاعداء..

وظل الحديث بهذا وأشباهه يتعاقب ويتناثر بين الأمم ، ويروى عن الحسن كما يروى عن خلفائه الى عهد الرحالة البرتغالي « ماركوبولو » الذي ساح في المشرق في اوائل القرن الثالث عشر للميلاد ، ولا يزال هذا التفسير الخرافي مقبولا في القرن العشرين بين الأكثرين من المؤرخين والقراء . .

ونحن نستبعد جداً أن يكون للجنة المزعومة أصل في قلعة حسن بن الصباح ، فان التكذيب أرجح من التصديق في كل خيط من الخيوط التي نسجت منها القصة ذلك النسيج الواهي المريب .

إن الحسن بن الصباح كان معروفاً بالصرامة والشدة على نفسه وعلى أتباعه ، وكان يتنسك ويتقشف رياضة أو رياء أمام أتباعه وتلاميذه ، ولم

يكن من اليسير في تلك القلاع المنفردة أن يخفي أمر القيـــان ومجالس الراقصات والغناء زمناً طويلا دون أن يطلع عليه المقربون إن لم يطلع عليه جيرة القلعة أجمعين ، وليس من المعروف عن مدخني الحشيش أن يحفظوا وعيهم ويفقدوه في وقت واحد ، وأن يتلبس عليهم كلهم أمر العيان والسمع هذا الالتباس ، وليس من المعروف عن الحشيش انه يهيء صاحبه لمواقف الاقدام على المخاطر والاصرار عليها شهوراً أو سنوات .

ومن المحقق ان شيخ الجبل لم يطلع أحداً على سره ، وان أحداً من المؤرخين لم يشهد تلك الجنة بنفسه ولم يسمع روايتها من شاهد بعينه، فهل من العسير أن يتتبع مصدر هذا الخيال من روايات الزمن الذي نشأت فيه وسرت منه الى ما بعده من أزمنة القرون الوسطى ؟

* * *

ان روايات هذا الخيال قد نشأت بين الصليبيين ولم تنشأ بين المشارقة، وقد كان الصليبيون في حاجة الى تأويل شجاعة المسلمين ، وهم في عرفهم قوم هالكون لا يؤمنون بالدين الصحيح ، فخطر لهم وقالوا وكرّروا انهم يستميتون في الجهاد لأنهم موعودون بالجنة التي تجري تحتها الانهار وترقص فيها الحور الحسان ، اذا استحبوا الشهادة في سبيل الله .

واستغراب الشجاعة من الفدائيين هو الذي أحوجهم الى سبب كذلك السبب أو أغرب من ذلك السبب ، وقد كان ماركوبولو في روايته يقول ان الفدائيين صدقوا شيخ الجبل كما كان المجاهدون من العرب يصدقون النبي عليه السلام ، وكأنه يقول انهم لهذا يقبلون الموت وهم قوم هالكون، فهم في شجاعتهم مخدوعون .

ان القوم قد عجبوا كيف يطيع الفدائيون شيخهم هذه الطاعة وكيف يقدمون بأمره على الموت المحتوم . فلم يتخيلوا لذلك سبباً غير الجنـــة الموعودة ، وعرفوا الحشيش فالتمسوا فيه سر الجنة التي ترى في هذه الدنيا

رأي العيان . وقد جاء ذكر الحشيش في كلام مؤرخي المشرق وذكر بعضهم أن أناساً من شيوخ الطرق كانوا يستبيحونه ولا يحسبونه من المسكرات المحرمة ، وذكر البندري مؤرخ آل سلجوق جماعة الحشاشين وعنى بهم طائفة الاسماعيليين ، أما جنة « الموت » المزعومة فهي من مخترعات الغرب لا نعلم انها وردت في كلام مؤرخ اسلامي قديم ولا أن أحداً من مؤرخي الغرب أسندها الى مصدر من المصادر الاسلامية .. ولو كان لها مصدر من المشرق الاسلامي لكانت كتب الشرق أولى بابتداعها من كتب الأوروبيين ..

وأول دلائل البطلان في هذه الخرافة ان وجه الغرابة الذي دعاهم الى اختراعها غير غريب ، فان النخوة الدينية كانت اقرب شيء الى أتباع الأئمة في ذلك الزمن ، ولا تصلح رؤية الجنة عياناً لتفسير تلك النخوة في عجائز الفناء فضلا عن الفتيان المجردين للفداء . فاذا كان أولئك الفتيان يستهينون بالموت لأنهم شهدوا الجنة عياناً فالعجب لأمهاتهم اللائي كن يفرحن بفقدهم وينتحبن لنجاتهم كيف ملكن جأشهن بغير تلك الآية التي رآها أبناؤهن رأي العيان !

* * *

لقد كان الأمل في ظهور المهدي المنتظر رجاء كل نفس وحديث كل لسان في ذلك العصر من المؤمنين بالمهدية ، وكانت فتن العصر أشبه شيء بفتن آخر الزمان أو باشراط الزمن الذي يظهر فيه المهدي المنتظر ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً وينجو باتباعه ومصدقيه الى حظيرة الخلد والسلام ، وكان شيخ الجبل يتخير لتربية الفدائيين فتياناً اشداء يتفرس فيهم العزيمة والمضاء ولما يبلغوا الحلم ، ثم يأخذ في تدريبهم على المشقة والطاعة وهم دون الثانية عشرة واكثرهم من أبناء الجبال في تلك الأطراف التي نشأ أبناؤها على الفطرة وعلى استعداد للتصديق والايمان . وكان الايمان بالدعوة العلوية قد شاع في تلك الاطراف فخرج منها الامراء والوزراء الديلميون

الذين بايعوا خلفاء القاهرة وهم في بغداد ، وكانت لشيخ الجبل ارادة من حديد تتسلط على أجناده تسلط « المنوم المغناطيسي » على المدرّبين عنده على التنويم ، فلم يكن في طاعة هؤلاء واقدامهم على الاستشهاد من غرابة ولا من حاجة الى رؤية الجنة بالعين ، وتأتي الحروب الصليبية فتاهب ما فتر من النخوة التي أذكاها الصراع بين الدول والفرق والطوائف والخلفاء والسلاطين .. فلا يحتاج الفتى المدخر للاستشهاد الى دافع أو حافز ، بل لعله يحتاج الى الوازع والرقيب ..

والمؤرخون الأوربيون الذين كتبوا عن خداع القادة لأتباعهم في الجماعات السرية كثيرون ، منهم من يحسن التفسير ومنهم من يسيئه ، ومنهم من يسرع الى الاتهام ومنهم من يتريث فيه ، فمن الذين أحسنوا التفسير ايفانوف الروسي صاحب كتاب « مؤسس الاسماعيلية المزعوم » The Alleged Founder of Ismailism وهو ممن يصحّحون نسب الفاطميين ويرجحون الاختلاف من قبل « الأساتذة المربين » الذين يختارون لتعليم الأمراء وتثقيفهم في العلوم وفقه الدين ، وقد عمّ الدعاة بالخداع من عهد عبدالله بن ميمون وخص بالذكر أئمة « الموت » من « المهدي حسن بن الصباح ورشيد الدين سنان » وسائر هؤلاء الدعاة ..

فأما ان حسن بن الصباح كان يسوق أتباعه بالخداع فذلك ما لا ريب فيه عند الخصوم ولا عند الأنصار ، فهل يصدق القول عليه انه هو يخدع ولا ينخدع وانه هو يسوق ولا يساق ؟ ..

* * *

الراجح عندنا ان هذا « المهدي » لم يكن خلواً من الايمان بدعوته على وجه من الوجوه ، وان عمله في الدعوة عمل جاد غير هازل وصامد غير متردد ، ولا داعي للشك في ايمانه بعمله وان كان هناك شك كبير في ايمانه بكل ما يقول لسامعيه ومتبعيه .

وما بالنا نتخيله خلواً من الايمان منصرفاً كل الأنصراف الى التضليل والخداع ؟ أليس من دواعي الايمان أن يكون الانسان مدفوعاً الى عمله غير قادر على تركه ؟ أليس من دواعي الايمان أن يكون اعتقاد الانسان في عمله خيراً من اعتقاده في أعمال الآخرين ؟ أليس من دواعي الايمان أن يقنع نفسه برسالة صالحة وأن يستمد من علمه حجة لتلك الرسالة ؟ .

ان « التنويم الذاتي » معروف متواتر ، وانه لأقوى ما يكون حين تندفع اليه النفس ضرورة لا حيلة لها فيها ، وذريعة لها عذر من أحوال الزمن ودواعيه ..

وربما بدأت عقيدة ابن الصباح في رسالته سلبية قبل أن ترسخ في طويته بالاقناع الموجب واضحاً أو وسطاً بين الوضوح والغموض .

ونعني بالرسالة السلبية انه آمن ايماناً لا مثنوية فيه بفساد العصر وضلال ذوي السلطان فيه ، وانه مهما يفعل في حربهم واستئصال فسادهم فهو على صواب ..

وتقترن بهذه الرسالة السلبية دفعة فطرية الى السيادة والسلطان ، فماذا يصنع بهذه الدفعة ان لم يعمل بها عملا قوياً متصل العزيمة والثبات ؟ .

إما أن يستكين الى سيادة غيره ، والموت أحب الى أصحاب هذه النفوس الغالبة المغلوبة من استكانة الخضوع ، واما أن يمضي قدماً ولا بد له من مسوغ وبرهان — وليس أسرع الى السريرة من المسوغ والبرهان حين ينجيان من الغرق في لجج اليأس والانكسار وظلمات الفشل والهوان.

وقد قال داعي الدعاة في ذلك العصر ان الناس كانوا بين رجلين ، رجل لو قيل له ان فيلا طار أو جملا باض لما قابله الا بالقبول والتصديق « أو منتحل للعقل يقول انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطل لجميع ما الناس فيه ، مستخف بأوضاع الشرائع معترف مع ذلك بوجوب المساعدة

عليها وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ولجاماً على رؤوس المجرمين المجازفين .. »

* * *

وهذه عقيدة قوم لا دفعة في طبائعهم الى طلب السيادة والسلطان ، وليس في طويتهم ما يثيرهم الى الحركة اذا آثروا السكون ، فاذا كانت هذه العقيدة في طوية رجل لا يهدأ ولا يستكين ولا يرى في نفسه الا انه أهل للقيادة والامامة ، وان الذين حوله أهل للقمع والنكال ، فمن اليسير عليه أن يسوغ لنفسه خداع العامة والخاصة لتحقيق غاية على يديه ، هي أصلح مما هم فيه ، وأصلح مما يحققونه على أيدي سواه .

وقد سوغ أفلاطون في جمهوريته خداع الدهماء وخداع المتعلمين الناشئين ، وسوغ فيثاغوراس من قبله حجب الحقيقة عن بعض العيون وتقريب الأمر الى المريدين بالرموز والاشارات ، وأباحا ذلك وليس واحد منهما مأخوذاً بدفعة السيادة ، وليس في زمانهما دعوة سرية عامة كالدعوة التي لفت حسن بن الصباح من رأسه الى قدميه .. فلمَ لا يسوغ هذا المذهب في قيادة الدهماء لحسن بن الصباح ؟ وهل من البعيد انه اطّلع على أفلاطون وفيثاغوراس كما اطلع على أفلوطين ؟ ان القول باقتباس الباطنية من هذين الحكيمين راجح متواتر ، فليس مما يخل بحكمة الحكيم أن ينصب نفسه للهداية ويسلم نفسه ورسالته الى عناية الله يتوجه به حيث أراد.

* * *

ان المؤمنين الخالصين للايمان بغير مواربة ولا مراجعة أندر من الندرة بين بني آدم وحواء ، وما من أحد آمن بعقيدة الا عرف في بعض حالاته كيف يوفق بين الشك والاعتقاد وكيف يسلم الأمر لله ويستلهمه اليقين.

وتسعون في كل مائة ، ان لم نقل اكثر من ذلك ، يؤمنون بالعقيدة ايمان الوقاية أو ايمان الرغبة فيما يعدون به انفسهم أو يعدهم به الهداة ،

واذا استطاعت قوة الاعتقاد أن تقنع الملايين بالتسليم لقائد منجد أو دليل مرشد ، فأحرى بهذه القوة ان تقنع من ترفعه عقيدته في نفسه ، او في دعوته ، الى مقام السيادة والقيادة ، وتبسط يده على خصومه مستحقين لعقابه ، وعلى أصحابه مستحقاً منهم الطاعة والتسليم ..

لم يكن حسن بن الصباح خلواً من الايمان بعمله فيما نرى ، ولم يكن عسيراً عليه أن يركن الى دعوة تغريه بها ضرورة الفطرة ، ويحضه عليها فساد الزمن وسهولة المسوغ للخروج على المفسدين فيه ، ولا يعز عليه أن يعززها بعلامة من علمه الواضح أو من علمه الغامض وما يلتمع فيه من بريق يثبت عليه بالالهام حيناً بعد حين ، فما عاش الرجل بقية حياته غائباً عن صوابه ولا مالكاً لكل وعيه ، وبين هذا وذاك منزلة الغالب المغلوب والخادع والمخدوع ..

استولى الحسن على قلعة « آلموت » في سنة ٤٨٣ هجرية ومات في سنة ٥١٨ هجرية ، فظل مالكاً لتلك القلعة باسطاً نفوذه على ما حولها خمساً وثلاثين سنة ، لعله كان خلالها أقوى رجل في الديار الاسلامية من مراكش الى تخوم الصين .

وولي عهده ، وتسمى بالمهدي وانتحل البنوة الروحية للانتساب الى الامام واستعان بتعدد المراجع في المذهب فانفتحت أمام الحسن أبواب الدعوة لنفسه باسم « نزار » .

ومات « المستنصر » الخليفة الفاطمي سنة ٤٨٧ للهجرة فساعد ذلك الاسماعيلي على انتحال المرجع الذي يروقه أن يدعيه ، فهو حجة ومهدي وامام كما يشاء ..

* * *

وقد اعتمد في توطيد سلطانه على ثلاث : الحيلة ، والغيلة ، والفتنة

الدخيلة . فمن الحيلة أن السلطان السلجوقي ملكشاه سير اليه فرقة لمحاصرته بعد استيلائه على قلعة الموت بسنتين ، ولم يستكثر من الجند كما أوصاه وزيره نظام الملك استخفافاً بشأن القلعة وحاميتها ، فلما أحاطت الفرقة بالقلعة بين الجبال الجرداء والقفار الموحشة وطال على جنودها العهد بلهو العواصم والحواضر أمر الحسن بقافلة تحمل الخمور فيما تحمل من المتاع فسيرت على مرأى من الجيش المحاصر ، فما وقعت أيديهم على زقاق الخمر حتى أفرغوها في أجوافهم وانطلقوا يقصفون ويهزجون ، فانقضت عليهم حامية القلعة وأمعنت فيهم قتلا ونهباً وتشريداً من دون أن تصاب الحامية بخسارة ذات بال .

وأعاد ملكشاه الكرة وقد أصاخ الى نصيحة وزيره في هذه المرة ، فضيق المحاصِرون مسالك القلعة وساكنيها وبطلت الحيلة فاعتمد الرجل على الغيلة ، وأرسل الى الوزير فتى من فتيانه الفدائيين فقتله فعاد الجيش الذي سيره الوزير الى حيث استدعاه ملكشاه ، لحاجته اليه في اتقاء الفتنة واتقاء الغارة من المغول .

وتساعد الرجل مصادفات الحوادث .. فيموت ملكشاه ويزعم الأتباع والأشياع أنها كرامة المهدي تنجيه من اعدائه واحداً بعد واحد ، ويتنبه الرجل الى مواقع الفرص فلا تفوته منها فائتة . فلما نشبت الفتنة بين ولدي ملكشاه جعل همه أن ينصر أحدهمـــا على الآخر حتى يوشك أن يظفر بأخيه ، فيسلط على الجيش المنتصر سلاح الغيلة أو سلاح الفتنة الدخيلة . ومن أساليبه في هذه الفتنة أن يترك المحاربين في شك ممن هو معهم ومن هو عليهم ، وقد يشيع عن أحد أعدائه في دولة الأمير انه من الاسماعيليين « الصباحيين » المستترين ، وقد يوهم الامير غير ذلك فيقرب اليه ويظهر العداء لابن الصباح ومتبعيه .

فلما آل العرش الى السلطان سنجر بن ملكشاه ، وكان من أقوى الملوك وأغناهم في عصره ، لم يجد بدأ من مصالحة ابن الصباح . وقيل في

أسباب المصالحة أنه كان من أهمها شك السلطان في حاشيته وقواده وأجناده، وتخوفه من أن تكون الدعوة السرية قد قلبت عليه أقرب الناس اليه وهو لا يعلم، فتعاقد مع ابن الصباح على المسالمة وترك له جباية الضرائب والاتاوات في أقليمه. ويروى أنه وجد في طريقه الى حصار «آلموت» خنجراً مغروساً في فراشه مكتوباً عليه أن الذي غرسه هنا قادر على أن يغمده في صدرك، وانه سمع عن أمراء الحصون أنهم يضمرون العقيدة الباطنية ويعلنون الطاعة للسلاجقة في انتظار الأمر من شيخ الجبل، فآثر المسالمة على القتال.

* * *

ولم يبال شيخ الجبل بالانقطاع عن الدعوة الفاطمية، بل لم يبال بسقوط الخلافة الفاطمية ولم يحجم عن تهديد خلفائها علانية وخفية، وهمه قبل كل شيء أن يكون أتباعه خالصين لطاعته والثقة به في غير مشاركة ولا هوادة، فانقسمت الدعوة الاسماعيلية على نفسها وأصبح لها في البلاد الفارسية والعراقية معسكران متنازعان: أحدهما معسكر ابن الصباح يدعو الى نزار ويدعي المهدية لشيخ الجبل ويحارب المعسكر الآخر من الاسماعيليين، والثاني يدعو الى المستعلي وأبنائه. وبقيت منهما اليوم طائفة الاسماعيليين المعروفين باسم البهرة، يقولون ان المهدي المنتظر سيظهر عما قريب من سلالة الخليفة «الآمر» الفاطمي وأنه يحضر موسم الحج في كل عام، فمن رأى الحجاج جميعاً في موسم من مواسم الحج فقد رآه..

وحيرة المؤرخين والباحثين النفسانيين هي حياة الرجل في السنوات الأخيرة من مقامه بقلعة آلموت. انه لم يكد يفارقها بعد دخولها، ولم تكن له أسرة فيها غير امرأته وولديه. وهذا الزعيم «الباطني» الذي قيل عن مذهبه انه ذريعة الى استباحة المحرمات والتهالك على اللذات قد اتفق الكاتبون عنه على زهده واعتكافه وعزوفه عن المباح من الأطايب، فضلا عن الحرام، وزعم بعض المؤرخين حين قتل ابنه انه قتله لمخالفته اياه

في شرب الخمر على الخصوص ، ولم يقتل ولداً واحداً بل قتل ولديه الاثنين وهو في شيخوخة لا مطمع له بعدها في الذرية ، وهذه هي حيرة أخرى من حيرات لا تحصى في مسلك هذا الانسان العجيب كله ، وفي مسلكه قبيل وفاته على الخصوص .

* * *

هل هو مجنون مطبق الجنون ؟ ان المجنون المطبق الجنون لا يستغرب منه قتل أبنائه في شباب ولا شيخوخة ، وتزول بهذا غرابة القتل ولكنها تزول لتخلفها غرابة أعضل وأدهى ، وتلك هي قدرة المجنون المطبق الجنون على التدبير المحكَم عاماً بعد عام ، وقدرته على حفظ مكانه ومكانته بين وزرائه وأعوانه ومنهم الأذكياء والدهاة وفيهم الشجاعة والهمة والاقدام ! !

هل له عقيدة يصبر في سبيلها على الشظف والضنك ويستبيح من أجلها اراقة الدماء ، دماء الابناء كدماء الأعداء ؟ .

انه خلق العقيدة النزارية خلقاً فمن البعيد أن يخلق العقيدة وينخدع بها ويصبر في سبيلها على ما صبر عليه ويستبيح في سبيلها ما استباح .

والذي يبطل الحيرة في اعتقادنا هو التفسير المقبول لطبيعة هذا الانسان العجيب ..

ونبدأ فنقول اننا ينبغي أن نستغرب من حسن بن الصباح ما هو غريب منه لا ما هو غريب من غيره ، ولو كانوا معظم الناس .

فالغريب في طباع الناس تجردهم من الحنان الأبوي أو فتور هذا الحنان فيهم ، ولكن هل خلا الجنس البشري من آحاد يهون عندهم الحنان في جانب النوازع القوية التي لها السلطان عليهم وليس لهم عليها سلطان ؟ هل خلا الجنس البشري من آحاد نراهم بيننا تستهويهم الشهوات الصغار فضلا عن الشهوات الكبار ، فلا يبالون ما يصيب أبناءهم من جراء تلك الشهوات ؟ ..

وهل من البعيد أن يكون ابن الصباح هذا من أولئك الذين تملكهم نازعة تطغى على حنان الأبوة ؟ .

كلا ! ليس هذا بالبعيد على الاطلاق ، بل هو دأب الطامحين من امثاله الى السيطرة ، ودأب الذين يهون عليهم شظف العيش ولا يهون عليهم الخضوع والبقاء في زوايا الاهمال . وقد يكون الولدان اللذان أمر بقتلهما قد تآمرا عليه مع بعض أعوانه المتطلعين الى مكانه كما جاء في بعض الروايات ، وقد يكون أحدهما هو الذي تآمر عليه كما هو الأرجح ويكون ظنه بالآخر انه لا يفلح ولا يؤمن على مصير الدولة بعده . وقد يكون بطشه بابنه في سبيل رسالته هو المسوغ المقبول أمام ضميره لاقدامه على البطش بالغرباء في هذا السبيل .

* * *

فاذا كان الظن بجنونه المطبق حيرة ، وكان الظن بغفلته حيرة مثلها ، فأنفى الظنون للحيرة انه أطاع طبعه في طلب الغلبة على الرغم منه ، وانه اتخذ من فساد زمانه حجة على وجوب رسالته وقداستها ، وانه راض نفسه على شدائد تلك الرسالة لتكون الشدائد التي يضطلع بها حجة له على صدقه ومطاوعة طبعه ، وانه كان عرضة لسورة الغضب ونوبة الفتك في أزمات طبعه ولكنها سورات نوبات دون الجنون المطبق في جميع الأحوال، وهذا كله جائز غير مستغرب . أما المستحيل فهو أنه مصاب بالجنون المطبق أو خادع لا عمل له ولا غواية من وراء عمله غير الخداع والتضليل ، أو أنه مغفل لا يدري موضع الغفلة من سريرته ، وهو يتسلل بالاقناع الى سرائر المئات والألوف ، ومنهم الأذكياء والألباء والحصفاء ..

السّريّة الباطِنيّة

ولعل سيرة شيخ الجبل في نقائضها المعلومة هي ألزم السير للتعريف بمعنى السرية الباطنية أو السرية الاسماعيلية على التخصيص ، فهذه السرية كانت تشتد وتتراخى تبعاً للعمل الذي ينوطه الامام بدعاته ، لا تبعاً للفكرة أو للعقيدة التي يخالفون بها أصحاب الفكر والمعتقدات الأخرى .

كانت السرية تشتد كلما خشي دعاة الامام في بلاد أعدائهم على أنفسهم وعلى رؤسائهم وأئمتهم ، وكانت تشتد كلما كان الكتمان أنجح لمهمتهم وأعون على تشتيت أعدائهم وتبلبل الأفكار فيما حولهم . وكانت تتراخى حتى لا سرية على الاطلاق حيث تكون الدولة دولتهم والأمور مؤاتية لهم ولسياستهم . وقد يعقدون المجالس ويحاضرون في الأندية العامة لاعلان آرائهم واقناع معارضيهم كلما اطمأن بهم المقام في ديارهم .

* * *

ومن الجائز أن تكون تلك الأعمال مرتبطة بالعقيدة الخاصة في الامام، حين يكون تعظيم الامام وتقديسه لازمين لاقناع الداعية أو الفدائي بالهجوم على الخطر ومواجهة المصاعب والأهوال في غير اشفاق على حياته أو حذر من عاقبة أمر ، ففي هذه الحالة يتصف الامام بالقداسة التي توجب على المريد طاعته وتضمن له النجاة في هذه الدنيا أو الدار الآخرة . وكثيراً ما يستغني الامام عن المغالاة بقداسته في الأزمنة العصيبة التي تلتهب فيها

الحماسة الدينية ويشيع فيها الأمل باقتراب الأوان الموعود وتوالي العلامات والأشراط التي تؤذن بظهور المهدي وانتصار زمرته على أعدائهم وأعدائه. فاذا شاع في النفوس هذا الأمل فلا حاجة بالامام الى عقائد المبالغة والمغالاة في أمره ، وحسبه أنه قائد مصدق مطاع يأتمر بدعوته جند مصدقون مطيعون.

واذا أردنا التوسع الذي يشمل جميع المذاهب وينتظم مذاهب السنة والشيعة جميعاً ولا يخص الاسماعيلية أو النزارية وحدها فالخلاف على الامامة هو محور كل خلاف بين جميع المذاهب من جانب السنة أو من جانب الشيعة . فكل ما عزز ضرورة الامام الحي فهو من عقائد الشيعة . وكل اختلاف أردنا أن نعرف عقيدة الشيعة فيه فلنرجع بجانبي الرأي الى محور الخلاف كله ، فأيهما كان أقرب الى ضرورة الامام الحي فهو من مذهب الشيعة ، بغير حاجة الى البحث الطويل والاستقصاء البعيد .

* * *

وقد لخص الغزالي هذا الفارق في كتاب المنقذ من الضلال فقال : « الصواب أنه لا بد من الاعتراف بالحاجة الى معلم وأنه لا بد أن يكون المعلم معصوماً ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم : فاذا قالوا هو ميت فنقول ومعلمكم غائب ، فاذا قالوا : معلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد وهو ينتظر مراجعتهم ان اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل ، فنقول : ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم وأكمل التعليم ، اذ قال الله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته . يبقى قولهم : كيف يحكمون فيما لم يسمعوه ؟ أفبالنص ولم يسمعوه ، أم بالاجتهاد بالرأي وهو مظنة الخلاف ؟ فنقول : نفعل ما فعله معاذ رضي الله عنه لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن ، اذ كان يحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهاد عند عدمه ، بل كما يفعله دعاتهم اذا بعدوا عن الامام الى أقاصي الشرق ، اذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص فان النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية

ولا يمكنهم الرجوع في كل واقعة الى بلدة الامام ، والى أن يقطع المسافات ويرجع يكون المستفتي قد مات أو فات الانتفاع بالرجوع ، فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق الا أن يصلي باجتهاده ، اذ لو سافر الى بلدة الامام ليعرفه القبلة لفات وقت الصلاة . فاذا أجيزت الصلاة الى غير القبلة بناء على الظن — ويقال ان المخطىء في الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران — فكذلك في جميع المجتهدات .. »

ومهما يكن من قول في تفصيلات الشعائر أو الفرائض فما كان منه أقرب الى تعليم الامام المعصوم فهو قول الشيعة وما عداه فهو قول السنيين ، وجميع المقربين للامامة على مذهبهم كالزيديين . وهذا هو الذي يؤيد أن مرجع السرية كله هو الرأي في الامامة لا عقائد مستورة أو خلائق مخالفة لأدب الدين أو العرف بين المسلمين وغير المسلمين .

* * *

خذ لذلك مثلا اعلان بدء الصيام ، فان رؤية الهلال فيه كافية على مذهب السنيين ، ولكن هذا الرأي يغني عن اعلان الامام للصيام فلا يأخذ به الاماميون ، بل يقولون ان المسلمين كانوا في حياة النبي عليه السلام يصومون حين يصوم ، فلما أزمع السفر سألوه عن موعد الصيام فقال لهم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » ، ولم يكلهم الى الرؤية قبل ذاك وهو مقيم معهم يصوم فيصومون .

ووجود علم مستور يتعلمه الناس من الامام دون غيره هو العقيدة التي لا محيد عنها لمن يقولون بالامامية ، وانما يختلف العلم المستور باختلاف الأئمة والأوقات والسائلين ، فقد يكون العلم المستور هو تأويل القرآن ، واجابة كل سائل عنه بما يقدر عليه ، وقد يكون العلم المستور سياسة محكمة لا تكشف لكل طالب ولا يجوز التردد في طاعتها توقفاً على فهمها ، فانها لو كشفت في بعض الأزمنة لحاق الضرر بمن تشملهم تلك السياسة أجمعين.

وقد فسر ابن الصباح اسم قلعته بمعنى النسر المعلم ، فهي مرجع المؤمنين من أتباعه لا يستغنون عن تعليمها بالابتعاد عنها ، وقد ترخص بعض الاماميين في أمر العصمة الواجبة للامام ، فأباح بعضهم نقد الامام كما فعل حسن بن الصباح في نقد الخليفة المستنصر ، بل كما فعل داعي دعاة الخليفة نفسه هبة الله الشيرازي الذي سبقت الاشارة اليه ، ولكنهم يقولون ان الامام يصيب وهو مختار ، ويجري مع الخطأ وهو مكره ، ولا سيما في اختياره لولي عهده وصاحب الإمامة من بعده ، فان من اختاره طائعاً فهو الصواب المطاع .

* * *

لقد صحبنا منشيء « الاسماعيلية الجديدة » من عهد بروزه في ميدان الدعوة الفاطمية ، ولم نبدأ بسيرته من نشأته الأولى . لأن حياته العامة لا تتوقف على أخباره في أوائل نشأته .. فما مر خبز منها متفق عليه حتى اسمه وموطنه ونحلته ، فهو ينتسب الى اليمن ويذكر من نسبته أنه الحسن ابن علي بن محمد بن جعفر بن حسن بن محمد الصباح الحميري ، ومنكرو دعواه يقولون انه قروي من خراسان ، ومنهم من يقول ان أباه كان يعمل في الصياغة ، صناعة الصابئة على شواطيء بحر العجم ..

* * *

والثابت أنه مات ولم يظهر له في حياته ولا بعد مماته احد من ذوي قرابته ، وان دعوته لم تفلح في بلاد اليمن بل افلحت فيها دعوة الطيب ابن الآمر التي كانت تناقض الدعوة الى نزار امام الحسن المختار ، وقد أوصى الحسن بعده لرجل فارسي غريب عنه لا تربطه به نسبة ، ولعله من أقربائه المستورين ان صح أنه من الفرس وليس من أهل اليمن .

ورويت عن صباه تلك القصة التي جمعت بينه وبين الخيام ونظام الملك بمدرسة نيسابور ، ولكنها قصة يرتاب فيها طائفة من ثقات المؤرخين ،

لأن نظام الملك ولد سنة (٤٠٨ للهجرة) فاذا كان ابن الصباح والخيام من لداته فقد بلغا اذن اكثر من مائة سنة ولو قدرنا أنهما أصغر من نظام الملك ببضع سنوات، وفي ذلك موضع للشك غير ضعيف.

وأياً كان الخبر الذي يثبت من أخبار صباه فهو لا يغير شيئاً من ملامح «الشخصية» التي برز بها في التاريخ، وهي شخصية المغامر صاحب الدعوة التي انقطعت عن جذورها واتصلت به وبغاياته ومراميه. وهذه تعد شخصية أثبت في ملامحها من شخصية ميمون القداح وأحدث في الدعوة الفاطمية، وعلى دعوتها تقاس الدعوات التي اقترنت بالفاطمية في تاريخها المعلوم أو تاريخها المجهول.

* * *

بُنَاةٌ وهَدّامُونَ... وَمَهدُومُون

ينسب قيام الدولة الفاطمية الى جهود الدعاة الذين انبثوا في المشرق والمغرب وافتنّوا في تبليغ الدعوة سراً وجهراً الى كل طائفة بالوسيلة التي تلائمها ، ويغلو بعض المؤرخين في شأن هذه الجهود حتى يخيلوا لمن يقرأهم ان غير هذه الجهود لم يكن له في اقامة الدولة الفاطمية شأن ذو بال ..

ولا شك في براعة الدعوة الفاطمية وقوة أثرها في التمهيد لقيام الدولة ، ولكننا لا ننسى أن بعض هذه الدعوة كان يسيء الى القضية ولا يحسن . وان فريقاً من الدعاة كانوا يخدمون أنفسهم ويضرون قضيتهم . وان الدعوة لو انصرفت كلها الى الخدمة والتمهيد ولم ينصرف شيء منها للاساءة والتنفير — لما بلغت غايتها ان لم يكن جو العالم الاسلامي متهيئاً لقبول نظام جديد والاعراض عن نظام قديم .

والواقع أن جو العالم الاسلامي قد تهيأ في القرن الثالث لقبول هذا التبديل في نظامه ، وكان هذا التهيؤ من شقين : شق ينكر النظام القائم ، وشق يرحب بالنظام المنتظر ويعطف عليه .

وكانوا يسمون ذلك دلالات النجوم ، فيربطون بين مشيئة الانسان ومشيئة الكون كله ، ويلوح لهم حين يريدون التغيير ان التغيير كائن ولو لم يريدوه ، ولو لم يعملوا لتحقيق ما أرادوه .

وتوجد الكلمة التي تحفظ حين تلفظ ، ويسمع الناس « ان الشمس ستشرق من مغربها » فيهمس بها بعضهم الى بعض ، ويعجب السامع مما سمع فلا ينساه .

وقد كان علم النجوم قد استفاض في كل مكان ، وليس أكثر من مقارنات الفلك التي يحسب المنجمون أنها علامة الغيب على الغير والاحداث ، وطلاب التغيير هم المستبشرون دائماً بتلك العلامات وهم الذين يركنون اليها ويترقبونها ، ولا سيما حين يكون علم النجوم علماً يحبه المجددون ويمارسونه ، ويبغضه المحافظون ويتشاءمون به ولا يترقبون الخير من ورائه.

وما كان أبو تمام ينظم قصيدة من قصائد المدح وحسب حين قال عن النجم ذي الذنب في زمانه :

أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
قد صيروا الأبرج العليا مرتبة ما كان منقلباً أو غير منقلب
وخوفوا الأرض من دهياء داهية اذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب

ولكنه في الواقع كان ينظر في أوائـــل القرن الثالث الى الوجهتين المتقابلتين : وجهة الراضين عن نبوءات النجوم ووجهة المتبرمين بها ، وما زالت الوجهتان تنفرجان حتى شهدت نهاية القرن غاية التفاؤل وغاية التشاؤم بعلامات النجوم .

قال صاحب زهر المعاني : « وكان أهل النجوم والحساب يذكرون ظهور المهدي بالله ويبشرون بدولته ، ثم ان الملوك والأضداد أيقنوا بذلك ، وان صاحب الزمان تقدم للهجرة الى المغرب والمهدي في كنفه : حتى يكون أوان ظهوره وطلوع نوره .. وأن يكنوه بالشمس الطالعة .

وكان المهدي نفسه على علم بمراصد النجوم ، فكان يتفاءل بمقارناتها ويبشر بها اتباعه ، وهم بغير هذه البشارة مصدقوه ، فاذا علموا أن الكون كله يتأهب « لطلوع الشمس من المغرب » فقد بلغ التصديق غاية اليقين .

وقد أثر عن حفيد موسى الكاظم — كما جاء في المقريزي — انه قال في سنة اثنتين وخمسين ومائتين ان الامام المنتظر سيظهر بعد اثنتين وأربعين سنة ، ونظم الفهري هذه النبوءة فقال :

ألا يا شيعة الحق ذوي الايمان والبر
ومن هم نصرة الله على التخويف والزجر
فعند الست والتسعين قطع القول في العذر

وظل المتربصون بالدولة العباسية يقرأون في ارصاد النجوم علامات زوالها الى ما بعد نهاية القرن الثالث وبعد بداية القرن الرابع ، فقال أبو طاهر القرمطي :

أغركم مني رجوعي الى هجرْ فعما قريب سوف يأتيكم الخبر
اذا طلع المريخ في أرض بابل وقارنه النجمان ، فالحذر الحذر
فمن مبلغ أهل العراق رسالة بأني أنا المرهوب في البدو والحضر
أنا الداع للمهدي لا شك أنني أنا الضيغم الضرغام والحية الذكر

وقد تقدم ان الناس ظنوا بأبي العلاء المعري انه من رصدة النجوم ، فاذ بلغ بزمان ان يترقب فيه الضرير ارصاد السماء فهو زمان تفعل فيه العلامات الفلكية فعلها ، سواء أكان حب التغيير هو الذي علق الابصار والبصائر بمسالك الكواكب ، أم كانت مسالك الكواكب هي التي شحذت في نفوسهم حبهم للتغيير وتطلعهم الى الغيب من بصير وضرير .

وفحوى ذلك كله ان السماء والأرض في عرف أبناء القرن الثالث للهجرة كانتا تتطلعان الى شيء ، وان الناس كانوا يتفاءلون بذلك ويتشاءمون ، وأحرى الناس أن يتفاءلوا بعلامات التغيير هم طلاب التغيير .

وجاءت الدعوة الفاطمية الى قوم متبرمين أو قوم غير مكترثين للدفاع عن النظام القائم أو دفع النظام الجديد .

كان بين خدام الدولة العباسية نفسها من يبغضونها أو ينكرون حقها، ومن كان منهم لا ينكر حق الخلفاء العباسيين فهو منكر لسلطان الترك والديلم ، معتقد أن أهل البيت المقبلين خير من أهل البيت المولين ، أو أهل البيت الذين تولت عنهم الولاية عجزاً وسفهاً فليس لهم منها غير الأسماء .

* * *

وكان بطش العباسيين بأبناء علي من أسباب الكراهة لأصحاب الحكم وأسباب العطف على طلابه . فكان مع العباسيين من خدامهم وأعوانهم من يقدسون صاحب الدعوة العلوية ويمقتون أصحاب العروش في بغداد. ولولا عامل من عمال بني العباس في الرملة لاعتقل المهدي وقتل قبل أن يصل الى المغرب حيث أقام الدولة . يقول جعفر الحاجب في سيرته : « وصلنا الى الرملة فنزلنا بها عند عاملها ، وكان مأخوذاً عليه فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدي ... كيف يخدمه ورفع المهدي فوق رأسه وقبل يديه ورجليه » .

ثم قال ان النجّاب وصل من دمشق الى الرملة يصف له المهدي ويأمره بالبحث عنه والمهدي في داره فانكب الرجل على رجلي المهدي يقبلهما ويبكي فطمأنه المهدي قائلا : « طب نفساً وقر عيناً ، فوالذي نفسي بيده لا وصلوا الي أبداً ، ولنملكن أنا وولدي نواصي بني العباس .. »

وتبيّن غير مرة ان النجابين الاسماعيليين كانوا اسرع الى تبليغ المهدي واعوانه من النجابين الذين تعقبوه وهم موعودون بالجزاء الجزيل على اعتقاله وتسليمه . واستُخدم حمام الزاجل في تبليغ الرسائل الى المهدي وهو في طريقه كما جاء في روايات مختلفة ، فان صح هذا فهو دليل على ولاء عجيب وايمان برسالة المهدي على طول طريقه من الشام الى المغرب ، وان لم يصح فقد صح ما هو أغرب منه وهو نجاة المهدي من عشرات

الولاة والعمال في الشام ومصر والمغرب ، بل نجاته بعد دخوله الحبس حيث اعتقل قبل مصيره الى المغرب الأقصى .

وربما كان ولاء عامل تابع للأمراء أقل في باب العجب من ولاء أمير قائم على عرش دولة كالدولة المصرية ، لا تعترف لخلفاء بغداد من بني العباس بغير الدعاء على المنبر في يوم الجمعة ، فقد روي عن كافور الإخشيدي ان الشريف أبا جعفر مسلم بن عبيدالله ناوله سوطه — وقد سقط منه — فاستعظم كافور هذا التواضع منه ومال على يده يقبلها وهو يقول : « نعيت الى نفسي ، بعد أن ناولني ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطي غاية يتشرف لها .. »

هذه هي أشراط الساعة وعلامات الزمان التي وافتها دعوة الدعاة الفاطميين على قدر ، ولو لم تقترن دعوة الدعاة بهذه الأشراط التي تجمعت من فعل الحوادث التاريخية والبواعث النفسية لما تمكن الدعاة وحدهم من اقامة الدولة ولا تمكنوا من الاقناع وهو أهم أعمال الدعاة .

* * *

ونتابع الأمر الى غاياته فنقول ان الدعوة والحوادث التاريخية والبواعث النفسية كلها كانت خليقة أن تذهب سدى بغير نتيجة لو لم يقيض للدولة بناة وموطدون من أصحاب السلطان فيها ، يأخذون بزمام الأمور ويحسنون قيادتها على نهجها القويم الى أن تثبت دعائم الملك وتصمد البنية الجديدة لغواشي الزمن ، وهي بعد التأسيس عرضة لطوارىء الهدم والتوهين ..

وقد جرت العادة في كل دولة جديدة أن يكون لها مؤسس وموطد : مؤسس هو رأس الأسرة وموطد هو خلف له يتناول منه الملك ولما يستقر قراره فيمنعه أن ينهار قبل أن يبلغ التمام ، ثم يتمه ويتركه لمن يأتون بعده بناة أو مسترسلين أو هدامين ينقضون ما بناه الأولون .

ولم تكن دولة الفاطميين شذوذاً من هذه القاعدة ، فأسسها المهدي

عبيد الله ووطدها المعز لدين الله ، وكان كلاهما على نصيب وافر من الخلائق التي تنبغي لبناة الدول وموطدي العهود ، فلو تتابعت أعمال الدعاة ودواعي الزمن دون ان يتاح للدولة هذان البانيان لما برز لها من الأرض ركن ولا أساس .

اتصف عبيد الله بقوة البنية وجمال السمت والهيبة ، كما اتصف باليقظة مع سعة الحيلة ورباطة الجأش ، وعرف بالحزم واصالة الرأي وشدة المراس واستعصاء المقاد على المكابرة والعناد ، واجتمع له حسن التصريف ، فلم يفته قط أن يختار الوقت الملائم والرجل الملائم للعمل المطلوب كما ينبغي أن يكون ، وأعان ذلك كله بحب العمارة والتنظيم ، فوجدت الدولة الجديدة منه مؤسساً قليل النظراء .

قيل في قوة بنيته « انه كان بقوة عشرة رجال » .

وليست هذه القوة نادرة في ابناء علي من السيدة الزهراء ومن غيرها ، فقد روي عن محمد بن الحنفية انه جلد الأرض بمصارع الروم الذي جاء الى دمشق يتحدى الأقوياء في بلاد المسلمين كما تحداهم في بلاده . ولم تزل هذه القوة معهودة فيهم بعد الجيل الخامس ، فقيل عن يحي بن عمر الملقب بالشهيد انه « كان له عمود حديد ثقيل يكون معه في منزله وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه فيلوي العمود في عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله بيده » .

وليست قوة البنية شرطاً في اصحاب العروش ، ولكن مؤسس الدولة يحتاج اليها اذا وجبت عليه الرحلة أحياناً من مكان الى مكان فجأة وعلى غير استعداد ، ووجب عليه أن يصبر على متاعب الاستخفاء ومتاعب الحاجة ، وأن يصرع المطارد ويسبق المتعقب ويبرز للقتال ولا يزال على أهبته لمقاومة أعدائه ومقاومة أنصاره المنشقين عنه ، فاذا تصدى لهذا ولم يرزق ضلاعة الأركان أوشك أن ينقطع بالمسعى دون غاية الطريق .

أسعفته هذه البنية الوثيقة في مآزقه وفي ايام سلطانه ، واسعفته معها مهابة يعنو لها المؤمن به ومن يحاربه ولا يضمر مودته ، فلما كان أسيراً في المغرب الأقصى كان صاحب « سجلماسة » ينكل بأعوانه ولا يجسر على مجابهته بما يسوؤه ، وكان يعمل في مغيبه ما لم يكن يجترىء على عمله وهو ناظر اليه .

وقد تمت له المسعفات في مآزق الحرج باليقظة الجريئة والحيلة التي لا تفارقها رباطة الجأش وعزة الكرامة . فلما خرج من الشام الى مصر هرباً من خلفاء بغداد سيّروا الأدلاء الى كل بلد في الطريق ينادون على الناس بأوصافه ويبرئون الذمة ممن يراه ولا يدل عليه ، ويجعلون لمن يسلمه عشرة آلاف دينار وزلفى تنفعه عند الخلفاء والأمراء . واتفق أنه صلى الصبح يوماً في جامع عمرو فعرفه بعض المصلين بوصفه وهو يهم بالخروج من المسجد « وضرب بيده على كم الامام وقال له : « قد حصلت لي عشرة آلاف دينار » .

* * *

ولو رجل غيره في مثل ذلك الموقف العصيب لساخت به الأرض من الفزع ، ولكنه التفت الى الرجل غير مكترث وسأله كأنه خلو الذهن من كل خبر : وكيف ذلك؟ قال : لأنك انت الرجل المطلوب . فضحك المهدي وعاد مع الرجل الى المسجد وهو يقول له : « عليك عهد الله وغليظ ميثاقه انني اذا جمعت بينك وبين الرجل الذي تطلبه كان لي عليك ولصديقي هذا خمسة آلاف دينار ! .. » ولعله تفرس في الرجل الغفلة فأخذه الى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، وأدخله من جانبها وراغ منه .. وأجمع النية في تلك اللحظة على فراق مصر والمبادرة بالمسير الى المغرب .

وفي مسيره الى المغرب تعقبه والي مصر وأدركه وتردد في وصفه فأطلقه ، ولاح عليه انه يحدّث نفسه بلحاقه اذا تثبت من حقيقته ، فما

عمّ المهدي أن عاد بعد انطلاقه يبحث عن كلب من كلاب الصيد يتعلق به ابنه ، — وكانت تربيته لابنه كما نقول في مصطلح هذه الأيام تربية رياضية — فوقع في نفس الوالي ان رجلا يعود بعد النجاة في طلب كلب لا يظن به انه خائف على حياته، وانه خارج في طلب الخلافة وقال لأصحابه: « قبحكم الله . أردتم أن تحملوني على قتل هذا حتى آخذه . فلو كان يطلب ما يقال ، أو كان مريباً ، لكان يطوي المراحل ويخفي نفسه ، ولا كان رجع في طلب كلب ... »

وقد يكون الوالي أطلقه لمال أخذه منه كما يقول عريب بن سعد في تاريخه ، وانه خشي من أصحابه أن يرتابوا فيه ويرفعوا أمره الى رؤسائه وأن يلحقوا من ورائه بالمهدي وركبه ، فكانت حكاية الكلب هذه حيلة لتضليل أولئك الأصحاب وصرفهم عن المطاردة وعن الوشاية بالوالي الى بغداد ..

ومن حزمه بعد مبايعته بالخلافة انه بادر على الأثر الى تجديد نظام الدعوة في المغرب وفي مصر واليمن والعراق وخراسان ، وحمله على هذا التجديد أن أمر الدعوة لم يكن مجتمعاً في يديه أيام استتاره ، فتولى الدعاة ندب أعوانهم بغير مراجعة المهدي في اختيارهم ، وتعود هؤلاء الاعوان أن يتلقوا أوامرهم من الدعاة الذين ندبوهم واختاروهم ، ولم تكن عاقبة هذا النظام مأمونة على الخليفة الجديد ولا على الخلافة الناشئة ، فانه خليق أن يجعله عالة على أتباعه وأن يُطمِع هؤلاء في الاستبداد به وعصيان حكمه . فنقض نظام الدعوة وعزل رؤساء الدعاة ولم يستثن أكبرهم — داعي اليمن ابن حوشب — فعزله وهو الذي كان أستاذ دعاته في الأقاليم، وكان منهم عبد الله الشيعي الذي سبق المهدي الى المغرب واستقدمه اليها بعد التمهيد له وجَمْع القبائل على عهده ، وقد رابه من الشيعي هذا وأخيه العباس انهما على اتصال خفي بزعماء القبائل وانهما يستكثران على الخليفة أن يحصر السلطان في يديه ، ونمي اليه انهما يأتمران به ويبيّتان النية مع

زعماء القبائل على قتله ، فأمر بقتلهما وأظهر الرضى عن غيرهما ممن ظن فيهم الظنون ، فجعل يفرقهم في المناصب النائية كأنه يكافئهم ويعتمد عليهم ، وهو في الواقع يقصيهم عن مواطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمنافسة .

* * *

وأطلق دعاته الجدد ومن أبقى عليه من الأقدمين يجوسون خلال الديار الاسلامية ليبشروا به ويخذلوا الأنصار حول أعدائه ، فانطلق رسله الى بلاد الأمويين بالأندلس وبلاد الادارسة بالمغرب ، ونشط رسله في مصر واليمن والعراق وخراسان ، وأخذ بيديه أزمة الثورات في كل اقليم من تلك الأقاليم ، فاستمهل أعوانه كلما تعجلوا الثورة وظنوا أنهم قادرون عليها وان الأوان قد آن للجهر بها ، ورأى هو بثاقب نظره ان ثورة الأطراف قبل فتح مصر ، أو قبل المسير اليها ، تغرير بالثوار ، وان الثورة بعد فتح مصر تتمة منتظرة قد تأتي عفواً وقد تنشب دفعة واحدة مع سقوط هيبة الدولة العباسية ، فلا يعيي الثوار بالخروج عليها في غير حذر ولا ندم. وقد صح تقديره بعد تسيير الحملة على مصر وتجربة الموقف مرتين .

والراجح من المقابلة بين برامج المهدي انه كان مقسور اليد في حملاته على مصر . كان يوصي بالاناة والتريث حتى يفرغ العمل في التخذيل وكسب الأنصار .. ثم يضرب القدر ضربة من ضرباته التي تأتي على غير انتظار فيموت خليفة بغداد ويستحكم الشقاق بين قواده ووزرائه ويغتنم الثائرون الفرصة قبل تمام الأهبة ، وتتوارد الكتب الى المهدي بالحض على الهجوم فلا يملك القعود والاكتفاء بالنظر الى هذه الأحداث من بعيد ، ولا يبلغ من ثقته بجدوى الهجوم أن يجمع له قوته ويترك المغرب خلواً من الجند مطمعة للمغيرين عليه والمنتقضين ممن بايعوه على دخل في أول عهده ، فينفذ الى المشرق حملة اضطرار لا حملة اختيار ، كالحملة التي عقد لواءها

للزعيم البربري حباسة ثم حمله تبعة الاخفاق فيها والهرب منها بعد أن وصل الى الاسكندرية .

* * *

أما الخطة التي يبدو انه كان يؤثرها ويختارها فهي إرجاء الحملة على مصر الى أن يفرغ من شأن المغرب ويقضي على فتنه ومشاغباته ، ويبتني فيه المدينة التي ازمع أن يتخذها حصناً له يحتمي به من المغيرين والمنتقضين ، وقد شغلته فتن المغرب زمناً وأحرجته ايما احراج بعد مؤامرة عبدالله الشيعي وأخيه فقمع الفتنة قمعاً عنيفاً لا رحمة فيه ، ولم يسكن الى مقره الا بعد الفراغ من بناء المهدية حوالي سنة خمس بعد الثلثمائة ، فقال يومئذ : « لقد أمنت الآن على الفاطميات » ..

ولم تفارقه طبيعة الحيطة والدهاء في بنائه للمهدية ، فانتقى لها موقعاً يحيط به البحر من جهات ثلاث ، وأقام عليها سوراً من الغرب له بابان من الحديد زنة الواحد منهما ألف قنطار وبنى فيها الصهاريج وأجرى فيها القنوات وجعل للمؤن أقبية تسع ميرة الحامية عدة شهور ، وانتحى جانباً ثم بنى على مقربة من المهدية مدينة أخرى سماها باسم زويلة احدى قبائل البربر التي تواليه ، وخصص زويلة لدكاكين التجار ومخازنهم تخفيفاً عن المهدية وعزلاً بين السكان ومرافقهم ، وأفضى الى خاصته بأنه انما فعل ذلك ليأمن غائلتهم . قال : « ان أموالهم عندي وأهاليهم هناك . فان أرادوني بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عندي فلا يمكنهم ذلك ، وان أرادوني بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بيني وبينهم سوراً وأبواباً فأنا آمن منهم ليلاً ونهاراً ، لأني أفرق بينهم وبين أموالهم ليلاً وبين حرمهم نهاراً » .

بعد هذا استعد للحملة الكبرى على مصر وعقد لواءها لولي عهده القائم فدخل الاسكندرية سنة (٣٠٧ للهجرة) وتقدم الى الجيزة واحتل الفيوم ثم دهم الوباء جيشه وفتك بالألوف من جنده وحيل بينه وبين المدد من المغرب

بعد انهزام أسطوله ، لأنه كان أضعف من أسطول العباسيين .

ثم كانت الحملة الثالثة (سنة ٣٢١) وهو في وهن الشيخوخة ، وقيل انه مات قبل أن يحكم تدبيرها ، وبلغ من هيبته بين أهل المغرب أن خليفته القائم كتم خبر وفاته سنة كاملة ، مخافة الانتقاض ممن دانوا للحكم الجديد مهابة للمهدي ورهبة من نقمته .

* * *

مات المهدي في سنة (٣٢٢ للهجرة) وولد في تاريخ مختلف عليه بين (سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠ للهجرة) وبويع له بالخلافة وهو في نحو الاربعين ، فكانت مدة حكمه أربعاً وعشرين سنة ، ترك الدولة بعدها وقد استقر بنيانها ورسخت أركانها ودانت لها الدول التي كانت تنازعه في المغرب وصقلية من الأغالبة والادارسة ومن يؤازرهم من الأمويين بالاندلس والعباسيين ببغداد ، ولم يعرف عنه طوال أيامه بالمغرب حاكماً أو غير حاكم انه فرغ لمناعم نفسه أو غفل يوماً عن سياسة ملكه ، وكانت له زوجة واحدة وانقضت حياته وفي سيرته رد بلسان الحال لا بلسان المقال على الذين رموه بالانتماء الى اعداء الدين ، بل أعداء الاديان وانه تواطأ سرا مع رسل الفساد والغواية لاستباحة المحرمات والاغراء بالفجور . ولو لم يكن كذلك لما أبقى بعده ملكاً مؤسساً يغالب عوادي الدهر من أول القرن الرابع الى نهاية القرن السادس ، أو يغالبها بآثاره الباقية الى اليوم .

المعز لدين الله

واحتاجت الدولة الى التوطيد بعد التأسيس فقام بالقسط الأوفى من هذه المهمة ابن حفيده الملقب بالمعز لدين الله ، وهو الخليفة الذي فتحت مصر وبنيت القاهرة في عهده ونقل مقر الملك اليها بعد انقضاء أربعين سنة على وفاة جده الكبير ، وقيل انها كانت نبوءة ممن يحسبون الأوقات في مراحل التاريخ بالأربعينات .

تولى الملك بعد المهدي ابنه « القائم بأمر الله » ثم المنصور بأمر الله ، وكلاهما جدير بأمانة ميراثه وان لم يبلغ من العظمة مبلغ المؤسس من قبله أو مبلغ الموطد من بعده . فعزز القائم الأسطول واحتل الشواطىء الايطالية حتى ثغر جنوة حماية لبلده من غارة القراصنة ، ومات قبل التمكن من صدّ الخوارج الذين أطمعهم فيه موت أبيه ولولا اعتصامه بالمهدية لدالت الدولة كلها في عشرة أعوام . وارتقى ابنه المنصور الى العرش فاجتاح الخوارجَ أمامه وأسر زعيمهم القوي ابن كنداد وشتت جموعه ثم تردد بين صد الأمويين الذين أغاروا على مراكش في هذه الأثناء وبين صد الافرنج الذين خيف منهم على شواطئه ، فوزع قواه بين هؤلاء وهؤلاء ليقف زحفهم ولا يخلي الطريق أمام أحدهم . ومات مجهداً في سنة (٣٤١ للهجرة) فارتقى العرش ابنه «معد أبو تميم» المعز لدين الله الذي كان بحق صاحب دور التوطيد بعد انتهاء دور التأسيس .

* * *

قلنا في كتاب « عبقرية خالد » ان ولاية أبي عبيدة على الشام كانت لازمة بعد ولاية خالد . لأن الدول تحتاج بعد دور الفتح الى غصن الزيتون مع السيف ..

وقد كان هذا شأن المعز في المغرب بعد جده .. فانه كان يحسن المجاملة الى جانب البأس والصرامة ، وكانت نشأته نشأة علم وفروسية أو نشأة غلبة بالبرهان وغلبة بالسيف والصوجان .

كان المعز يحضر دروسه على أساتذته والحرب قائمة والمهدية محصورة ، فكان يتلقى دروس الفروسية علماً وعملاً ولما يفرغ من مراجعة الطروس والأسفار ، وتعلم لغات الأمم التي تتصل بالخلافة الفاطمية جميعاً ، فكان يحسن البربرية والرومية والايطالية والنوبية ، ويتوسع في علوم العربية ، وكان له شعر ونثر يميل فيهما الى المحسنات لانتشارها على الألسنة والأقلام في تلك الأيام .

ويروى عن أنفته من الجهل انه سمع من بعض خدمه كلمة صقلية لا يعرفها واعتقد انها كلمة شتم ومهانة فحفظها وأنف أن يسأل عن معناها ولم يبرح حتى أتقن علم تلك اللهجة فاذا بالكلمة من أرذل شتائمها ، وقد أنف من جهلها فأصبح يأنف من أن يواجهه أحد بمثلها ..

وبويع له بالخلافة وهو في الرابعة والعشرين ، فهمَّه أول الأمر أن يستوثق من أمنع المعاقل التي يعتصم بها الخارجون على الدولة ، فصعد الى جبل أوراس وفيه من القبائل من لم يكن قد دخل في طاعة آبائه فبايعوه ، وأسرع اليه المخالفون يتقربون اليه لما أنسوه من مودته وكرمه .

وأظهر ما ظهر من خصال المعز التي يتصف بها بناة الدول انه كان حريصاً على الانتفاع بالتجارب والعبر ، وانه كان يحسن اصطناع الرجال ، وانه كان جيد الفراسة في أحوال الأمم واغتنام الفرصة من بينها لما يترقبه ويعقد العزيمة عليه ..

فلم ينس هزيمة الاسطول في الحملة على مصر ، ولم يزل حتى أمن على شواطئه واستطاع بقوته البحرية أن يرد أساطيل الروم عن بلاده وعن جزر البحر الخاضعة لحكمه .. ثم جدّد حفر الآبار في الطريق الى مصر ليأمن قطع الزاد والماء عن جيشه .

ومن اصطناعه للرجال انه كان يستخلص الخدام والاعوان ولا يغار من تعظيمهم بين يديه بل يأمر الشعراء أن ينظموا القصائد في مدحهم ويأذن لهم أن يخاطبوهم بها في حضرته . وكذلك أمر شعرائه أن يمدحوا قائده جوهر الصقلي وأمر العظماء والكبراء أن يترجلوا عند توديعه ، ولما تم لجوهر فتح مصر وأرسل وكيله الكتامي جعفر بن فلاح لفتح الشام تخطى الوكيل جوهرا عند تبليغ بشارة الفتح الى المعز فلم يبدأ بابلاغها الى رئيسه « المباشر » ليبلغها من جانبه الى الخليفة ، فغضب المعز على جعفر بن فلاح ورد اليه كتبه ليعيدها من طريق جوهر اليه .

ومن اصطناعه للرجال انه كان يعفو عن الشجعان من أعدائه ويوقع في نفوسهم الأمن والطمأنينة بالتجربة حتى يمحضوه الطاعة خالصة بغير ريبة ، ومن المشهور عنه انه كان اذا لقي أحداً من مخالفيه تركه ينصرف وهو يحسبه من حزبه ورأيه ، ولعل هذا كان سبب الاشاعة التي تواترت بين الرهبان والقسوس بتنصره وبقائه على النصرانية ، فان الخبر الذي جاء في كتاب « الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة » لأحد الرهبان يقول انه اعتزل الملك وترهب ومات فدفن في مقبرة أبي سيفين ، ويقال في سر ذلك انه تحدى البطرق ايرام أن يزحزح الجبل فجاءه بمن زحزحه على ملأ من الأمراء والكبراء وقادة الجند ورؤساء الدواوين .

والثابت من الأخبار يغني عن هذه الاشاعات ، فان الخليفة المعز أمر قائده جوهر ألا يتعرض لمخالف في الدين ولا في المذهب بما يعطل شعائر دينه أو مذهبه ، وأطاع جوهر مولاه ، فبنى الدير الذي عرف بدير الخندق بديلاً من الدير الذي أصابه الهدم عند تمهيد الارض لبناء القاهرة ، وجاء المعز فجدد

كل ما تهدم من الصوامع والبيع وجدد كنيسة « مركوريوس » التي تسمى بكنيسة أبي سيفين (لأن القـــديس كان يرسم على صهوة جواد وفي يديه سيفان) ... وقيل انه أمر باقامة البناء على المجذوب الذي أثار الدهماء استنكاراً لبنائها وآلى ليبقين في جفرة الأساس حتى يقام عليه ، فلم ينقذه من مصيره الا شفاعة البطرق له عند الخليفة ..

فهذا وما جبل عليه المعز من المجاملة وما تعوده من الترحيب في مجلسه بالمتناظرين في الأديان والمذاهب هو على التحقيق أصل تلك الاشاعة عن مدفنه في مقبرة الكنيسة ، ولعلها اشاعة نبتت بعد عصر المعز بعدة سنين ، يوم كانت هذه الاشاعة وما اليها موئل العزاء في أيام الخليفة الحاكم المخبول ، لمن كان يضطهدهم من المخالفين وبينهم مسيحيون ومسلمون من الشيعة والسنيين .

* * *

ومن تفرسه في استطلاع أحوال الأمم واغتنام الفرص انه عول من اللحظة الأولى على فتح مصر ونشر فيها العيون والدعاة . وجاءه من مصر وزراء يستعجلونه ويستحثونه ، وتلاحقت الأنباء بسوء الحال واشتداد الغلاء وفتك الوباء ، فلم يعجله ذلك كله كما أعجله ما سمعه عن تدهور الأخلاق بين ولاة الأمر . ومنه في رواية المقريزي ان صبية عرضت في مصر للبيع وطلب فيها البائع ألف دينار « فحضر اليه في بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتطلب الصبية فساومته فيها وابتاعتها منه بستمائة دينار فاذا هي ابنة الأخشيد محمد بن طغج وقد بلغها خبر هذه الصبية ، فلما رأتها شغفتها حباً فاشترتها لتستمتع بها » .

قال المقريزي : « فعاد الوكيل الى المغرب وحدث المعز بذلك فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقصّ عليهم خبر ابنة الأخشيد مع الصبية الى آخره فقال المعز : يا اخواننا ! انهضوا لمصر فلن يحول بينكم وبينها شيء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج

بنفسها وتشتري جارية لتتمتع بها ، وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم ، فانهضوا لمسيرنا اليهم .. »

وقد كان الفاطميون يحبون المواسم والمواكب ويبتدعونها ويشجعون الرعية عليها ، ولكن المعز – على خلاف المعهود من سياسة أسرته – حظر الاحتفال بالنوروز بعد وصوله الى مصر منعاً للتبذل الذي شاع فيه على آخر أيام الأخشيديين ، وتطهيراً للأخلاق مما أصابها في تلك الأيام وأدرك منه المعز انه نذير بزوال ملك بني الأخشيد .

وقدم جوهر الى مصر في سنة (٣٥٨ للهجرة) فاشترط عليه وجوهُ الأمة ورؤساؤها قبل التسليم أن يؤمنهم على عقائدهم ومألوفاتهم ، فكتب لهم عهد أمانه الذي قال فيه « ذكرتم وجوها التمستم ذكرها في كتاب أمانكم ، فذكرتها اجابة لكم وتطميناً لأنفسكم ، فلم يكن في ذكرها معنى ولا في نشرها فائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهي اقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم ... ولكم عليّ أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام ... »

ووضع جوهر أساس القاهرة ، ولم يشأ المؤرخون أن ينسوا شهرة الفاطميين برصد النجوم – وهي شهرة صحيحة – فقالوا انها سميت بالقاهرة لأن المهندسين أقاموا على اسسها حبالاً وعلقوا في الحبال أجراساً ليسمعها العمال عند حلول الرصد المطلوب ، وان غراباً وقع على الحبال والمريخ في الفلك فاهتزت الحبال وأخذ العمال في وضع الحجارة فسميت المدينة باسم القاهر الذي يطلقه المنجمون على المريخ ، لأنه كان في معتقد الأولين الـه الحروب .. !

* * *

هذه القصة « أولاً » تروى عن بناء الاسكندرية .

وهي « ثانياً » لا تعقل ، لأن النجوم ترصد ليلاً والغربان لا تطير بالليل ، ولو طارت ليلاً أو نهاراً لما كانت وقعة غراب على حبل كافية لدق الأجراس على جميع الأسوار ، ولو كانت الاجراس تدق بهذه السهولة لدقت قبل وقوع الغراب على الحبل لأسباب كثيرة تحرك الحبال كما تحركها هزة الغراب ، ولو كان تحقيق الرصد مبنياً على العلم لا على الرؤية لأمكن أن يبدأ التأسيس في ساعة معلومة بغير حاجة الى الأجراس .

ثم من قال انه غراب وهو مجهول ؟ وكيف عرفوه . والمظنون ان المهندسين هم الذين حركوا الحبال ؟ ولم لا يكون طيراً آخر أو جملة من الطير ؟ ..

وقد رويت القصة وتناقلها المؤرخون وتقبلها الكثيرون ، وفي التنبيه الى ما فيها من الاحالة عبرة لمن يصدق السمعة التي تخلقها الأقاويل من هذا القبيل ..

واتبع جوهر سنة دولته في تخطيط المدن وتشييد العمائر ، فانهم تعودوا أن يبدأوا بتحديد المعالم والشارات ليستشعر الناس ألفة العهد الجديد بالنظر والسمع شيئاً فشيئاً قبل مطالبتهم بتغيير ما توارثوه وثبتوا عليه ، فشرع جوهر في بناء مسجد العاصمة الجديدة (٣٥٩ للهجرة) وسماه الجامع الأزهر على اسم الزهراء في أرجح الأقوال ، وكأنه أراد أن يستغني بالعاصمة الجديدة ومسجدها عن القطائع عاصمة الطولونيين ومسجدها المشهور بمسجد ابن طولون ، وعن الفسطاط ومسجدها المشهور بالمسجد العتيق ، وكلتاهما — أي القطائع والفسطاط — كانت عاصمة للقطر في أوانها ، واستحدث الأمراء بعد خراب القطائع عاصمة خارج الفسطاط سموها العسكر ثم أنشأ الفاطميون القاهرة معقلاً ومقاماً كدأبهم في تجديد المعالم والشارات على ما ألمعنا اليه .

وبعد فراغ جوهر من بناء القصور التي أعدت لاقامة الخلفاء أبلغ المعز فقدم إلى الاسكندرية (شعبان ٣٦٢ للهجرة) وجلس لاستقبال رؤساء المدينة والوافدين اليها للتسليم عليه ثم خطبهم قائلاً انه لم يقصد الى مصر طمعاً في زيادة ملك أو مال وانما قصد اليها لتأمين الأنفس وحماية طريق الحج ودرء الغارة عن ديار الاسلام، وهو كلام يقول مثله كل فاتح ولكنه كان في برنامج المعز خطة تمليها الضرورة عليه ، لأن تأمين الطريق الى الحجاز كان ضماناً لاستقرار الدولة الفاطمية ودفع الشبهات عنها، اذ كان القرامطة يعملون باسمها وكان أعداء الدعوة الفاطمية يشيعون عن القوم أنهم يقطعون طريق الحج عملاً بمذهب الاسماعيليين ويزعمون ان الاسماعيليين يسقطون الحج من الفرائض،فكان تأمين طريق الحجاز من قبل مصر والشام خطة تقضي بها مصلحة الحاكم والمحكوم ، ولم يلبث المعز في القاهرة سنة واحدة حتى تفاقم خطب النزاع بينه وبين القرامطة وأعلن البراءة منهم وأعلنوا الخروج عليه ، وزحفت جموعهم إلى مصر ومعها قبائل البادية التي تطلب الغنيمة وتخشى من عواقب تأمين الطريق ، فاستعد لهم المعز بعدة الحيلة حقناً للدماء وأرسل الى زعيم القبائل البدوية حسان بن الجراح الطائي من يطمعه بالمال اذا تراجع وتنحى عن أصحابه ، ووعده بمائة ألف دينار .. فقبل الصفقة ، وخرج المعز للقتال على اتفاق بينه وبين ابن الجراح أن ينهزم هذا بجموعه عند التقاء الصفوف ، وقد فعل وحمل معه أكياس الدنانير .. ولكنها لم تحو من الدنانير الصحاح غير مئات تبدو على وجه الاكياس ومن تحتها قطع النحاس المذهبة يخفيها الزعيم المخدوع جميعاً عن شركائه ، ودارت الدائرة على القرامطة في ذلك اليوم فقنعوا من الغنيمة بالاياب ودبت المخاوف والشكوك بينهم وبين أصحابهم فلم يرجعوا بعدها الى غاراتهم على مصر .

ولم ينته عهد التوطيد بانتهاء عهد المعز (في سنة ٣٦٥ للهجرة) فان ابنه العزيز الذي تولى الملك بعده كان من كفاة الملوك وكانت طاعته غالبة على المغرب ومصر وجزيرة العرب لا تخرج عليه خارجة فيها الا عجل بقمعها

وأعاد الأمور في أرجاء الدولة الى نصابها ، ولكنه مات (سنة ٣٨٦) . وقد بدأت في أيامه دسائس القصور وسياسة الحريم ، وتناثرت هنا وهناك بذور الانحلال التي اختفت الى حين في ابان نضرة الدولة وزهوها ، ثم برزت وتفرعت مع ادبار الأمور وتعاقب الضعفاء من الأمراء ..

الحاكم بأمر الله

قام بعد العزيز على سرير مصر أسطورة في شخص انسان ، لولم يكن تاريخه خبراً يقيناً لشك فيه المؤرخون أو جزموا بانكاره ، اذ كان مجموعة من النقائض والغرائب يكذب بعضها بعضاً ولا يتصور العقل لأول وهلة انها تصدر من انسان واحد .

ذلك هو الحاكم بأمر الله ..

كان يعمر ويخرب ، وكان يلين ويقسو ، وكان ينهى عن المراسم ثم يفرض منها ما يشبه العبادة ، وكان يجيز شعائر أهل السنة وأهل الذمة ثم يمنعها ويبطش بمن يعلنها .. وكان يحرِّم المباح ويبيح الكفر البواح ، وكان يبدل الليل بالنهار والنهار بالليل ، فمن فتح دكانا بالنهار جلده ومن أغلق دكاناً بالليل رماه بالعصيان ، وكان يعتق العبيد والاماء ويفرق عليهم الهبات والأرزاق ثم يستعيد الأحرار ويدينهم بما يأنف منه الأرقاء ، كان يخرج الى غيران الجبل في الظلام ويختبيء في حجرات قصره منذ مشرق الشمس الى المغيب ، وكان يدعي علم الغيب ويعاقب من يحرس ماله ومتاعه كأنه يشك فيه ، ثم يحاسب على الصغائر التي يغفرها المتنطسون ..

قال ابن خلدون : « ان حاله كان مضطرباً في الجور والعدل والاخافة والأمن والنسك والبدعة » . وقال ابن خلكان : « انه كان جواداً سمحاً ، خبيثاً ماكراً ، رديء الاعتقاد ، سفاكاً للدماء ، قتل عدداً من كبراء دولته صبراً ، وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها .. »

ولم يذكَر عن ملك في أحوال العقيدة ما ذكر عن هذا الحاكم بأمر الله ، وبأمره ، وبأمر المأمورين والأمراء .

فمن مؤرخي القبط من يقول انه مات على النصرانية ، ومنهم من يقول انه كان يعبد المريخ ويتوهم انه يراه ويتحدث اليه ، ومن مؤرخي السنة من يقول انه ادعى الربوبية ، ومن أتباعه اليوم من ينفي الموت عنه ويزعم انه صعد الى السماء ليعود الى الارض في آخر الزمان ، وأطبقت النقائض على تاريخ حياته بتاريخ وفاته ، فلم يعلم أحد متى مات وكيف مات .

وفي رأينا بعد هذا ان سيرة الحاكم هي أعجب السير وأوضح السير في وقت واحد ...

هي أعجبها في موازين النصوص والأوراق ، وهي أقلها عجباً في ميزان علم النفس الذي لم ينفصل عن التاريخ قط في الكلام عن دولة كما انفصل عنه في الكلام على ملوك هذه الدولة .

واضح من تطبيق علم النفس على أعراض هذا الرجل انها حالة من حالات الهوس بالاسرار أو الحالات التي تعرف بهوس الغموض Mystic Hallucinosis .

وأصحاب هذه الحالة مستغمضون مولعون بالاسرار ، يفرطون في التفاؤل والتشاؤم لايمانهم بالرموز واعتقادهم ان الغيب يتحدث اليهم عن مكنوناته بتلميحات من الحوادث والمعاني المزدوجة التي تحمل في أطوائها ما ينم عليه ظاهرها للعارفين ، واذا غلا الظن بأصحاب هذه الحالة كانت من الحالات التي تختلط بمرض الاضطهاد ، فيقع في روع المريض أن الناس يضمرون له الشر ويتعقبهم بالتجسس والاستطلاع ، وينتقم منهم للوهم العارض والشبهة الكاذبة ، لأنه يصدق كل خبر عنهم غير الخبر الصراح .

ويسكن المتهوسون بالأسرار الى مناظر الظلام ، ويستهويهم الليل بخفاياه ، وتروقهم الوحدة في الخلوات ..

وليس المصاب بهذه الحالة مجنوناً ذاهل الحس عما حوله في جميع الأوقات ، بل هي نوبات تعتريه ولا تمنعه أن يبدع ابداع العباقرة والموهوبين في بعض الفنون .

أما علة هذا المرض فأنصار فرويد يرجعون بها كعادتهم الى صدمات الطفولة وأزماتها التي ترتبط بالجنس على الخصوص ، فتكمن في الوعي الباطن وتتمكن منه على غير علم من ضحيتها ، حتى تنفجر دفعة واحدة أو رويداً رويداً في مقتبل الشباب .

وغير « الفرويديين » يعللونها باضطراب الحواس ولا سيما حاسة السمع وحاسة البصر ، فيتوهم المريض انه يرى ويسمع ما ليس يراه الأصحاء ولا يسمعونه ، ويحدث أحياناً أن ينظر الى الشيء الماثل فلا يراه ويصغي الى الصوت البين فلا يسمعه ، وقد يتفقون مع جماعة فرويد في الرجوع بالعلة الى صدمات الطفولة وأزماتها دون أن يربطوها بالمسائل الجنسية .

هذه الأعراض كلها ظاهرة فيما روي عن الحاكم من شتى المصادر ، ولم يكن الحاكم بمعزل عن البيئة التي تندس فيها الآفات الى نفس الطفل الناشىء ، فقد نشأ الحاكم كما أسلفنا في عهد دسائس القصور وسياسة الحريم ، وتركه أبوه وهو في الحادية عشرة من عمره وأقام على وصايته ثلاثة متنافسين هم المملوك برجوان والقاضي محمد بن النعمان والحسن بن عمار زعيم قبائل البربر من كتامة ، وأول هؤلاء برجوان كان غارقاً في دسائس القصور وسياسة الحريم .

وقد أحاطت هذه الدسائس بالحاكم وهو في سن الخطر ، لأنه لم يكن من الطفولة بحيث يجهل ما حوله ، ولم يكن من الفتوة بحيث يدرك ما يحاط به ويملك الوسائل الى استطلاعه . كان في الحادية عشرة وكانت كل خفية من خفايا الدسائس تغريه بالتطلع وتوسوس له بالريبة والتساؤل . فاذا كان مع هذا قد نشأ في بيئة التنجيم وكبر وهو يصغي الى أحاديث الباطن والظاهر

وأسرار الغيوب التي تنكشف للواصلين من الأئمة ، فلا عجب في ابتلائه بتلك الآفة ، آفة الهوس بالاسرار أو الولع بوساوس الغموض ، ثم يجهز على البقية الباقية من عقله أولئك الوزراء والعشراء الذين يتلمسون مواطن الضعف في نفوس الأمراء الناشئين فيمعنون في استغلالها ويبالغون في تحسينها وتزيينها ، كما فعل الدرزي والأخرم من حاشية الحاكم المقربين، اذ قيل انهم وسوسوا له بمذهب الحاول وخاطبوه مخاطبة الأرباب، وأطبقت آفة الاطلاع المضلل على آفة الاستطلاع المكبوت ..

ولم يكن الحاكم من المسرفين في الشهوات فتختل أعصابه من قبل الاسراف ، ولم يكن يعاقر الخمر أو يستطيبها بل كان يحرمها وينهى عنها ، ولم يشرب النبيذ الا بالحاح طبيبه الذي خطر له أن يعالجه بادخال السرور الى نفسه في مجالس الغناء مع يسير من الشراب ، وانما « عرض له كما قال الطبيب يحيى الانطاكي في تاريخه تشنج من سوء مزاج يابس في دماغه ، وهو مزاج المرضى الذي يحدث في المالنخوليات ، واحتاج في مداواته منه الى جلوسه في دهن البنفسج وترطيبه به ، وان كثرة سهره أيضاً وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان الدائم مما يقتضيه هذا السوء المتقدم ذكره،وان أبا يعقوب اسحاق بن ابراهيم بن انسطاس لما خدمه استماله الى أن تسامح في شرب النبيذ وسماع الأغاني بعد هجره لها ومنع الكافة منها ، فانصلحت أخلاقه وترطب مزاج دماغه واستقام أمر جسمه ، ولما مات أبو يعقوب وعاد الى الامتناع عن شرب النبيذ ومن سماع الغناء رجع الى ما كان عليه » .

تلك هي خلائق الحاكم كما يصورها علم النفس . ولا يصور لنا فيها شيئاً من تلك الأعاجيب التي يستغربها مؤرخو النصوص والأوراق ، فان طفلاً يصاب بالتشنج وتحيط به في سن المراهقة دسائس القصور التي تحيط بالملوك الصغار ، وينشأ وهو يسمع الأحاديث عن التنجيم واسرار البواطن والغيوب ، ثم يبتلى من حوله بالمتزلفين والمنقبين عن مواطن الضعف في نفسه الحائرة — غير بدع أن يصاب بهوس الأسرار وأن تصدر منه تلك النقائض

التي ينساق فيها على الرغم منه أو التي ينساق فيها مختاراً لانه يتوهم انه يروض نفسه بالتقشف والتهجد ، وحمل الناس عليها والتقرب الى الله بعقاب من ينحرف عنها ، فتنكشف له الحجب التي لا تزال مسدلة دونه ، ويتهم نفسه كلما خفيت عليه مساتيرها بنقص في الرياضة وقصور في العبادة، فلا يزال دهره بين خشوع العابد ومحاولة اليائس وقلق الحائر وايمان المستريح الى الظنون ، ودعوى المصدق لما يلقى عليه مما يستريح اليه .

وسواء صح أن نكبة الحاكم كانت احدي جرائر « الحريم » ودسائس القصور أو كانت نكبته جريرة المرض وحده فقد صدقت فراسة المعز في عاقبة التكثر من الزوجات والجواري وأخذت سياسة القصور تتشعب وتستشري حتى تناولت كل شيء في الدولة والمجتمع ، وكانت جرائرها آخر الأمر شراً قائماً بذاته وشراً محسوباً عليه سائر الشرور ، لأنه كان حائلاً دون اتقائها ومنعها كما كان حائلاً دون معالجتها بعد وقوعها .

فمن جراء دسائس القصور تعددت قوى الجيش وشجرت بينها نوازع الشقاق تبعاً لاختلاف الأحزاب في كل حريم ، فكان للدولة قوة من الترك وقوة من السودان الى جانب القوة التي كانت لها من البربر والعرب ، وأصبح حراس الأمن أول المزعجين للآمنين ولأنفسهم وللقادة والحكام .

ولم يمض غير جيل واحد على قيام الدولة في مصر حتى ابتليت بسياسة « البيروقراطية » أو تحكم الدواوين فوق ما ابتليت به من سياسة الحريم ..

وسبب هذه الآفة ولاية بعض الخلفاء في سن الطفولة وولاية خلفاء آخرين كالأطفال وان بلغوا مبلغ الرجال ، فقد ركنوا الى ترف القصور وقنعوا من الوزراء بجلب المال اليهم كلما طلبوه، فقبض الجباة ورؤساء الدواوين والوزراء على أزمة الثروة وعلى أزمة السياسة وطمعوا لأنفسهم ولسادتهم فاستباحوا المصادرة وجمع الاتاوات من الرشوة والارهاب عدا ما يجمعون من الضرائب في غير موعد .

والمصائب لا تأتي فرادى كما يقال ، فان المجاعة من الداخل وهجوم الصليبيين وغير الصليبيين من الخارج قد أصاب الدولة بعجز فوق عجز حتى تعذر عليها التماسك والدفاع ، فحق عليها القول .

وقد سمي عصر الخليفة « المستنصر » بالعصر الذهبي في الدولة الفاطمية مع ما كان يتخلله من القحط والمجاعة والوباء ، وما سمي عصره بهذا الاسم لأنه صنع فيه شيئاً خلال ستين سنة قضاها على العرش منذ جلس عليه وهو في السابعة (سنة ٤٢٧ هجرية) الى أن مات وهو يدلف الى السبعين ، ولكنه كان عصراً كموسم الحصاد الذي تبرز فيه الثمرات والأشواك وتنضج فيه السنابل وما يحملها من الهشيم الذي ستذروه الرياح عما قريب أو تطعمه النار ذات الوقود .

فلما مات تعاقب بعده على الخلافة من لا يحسب من البناة ولا من الهادمين ، وانما هو مهدوم تتداعى تحته قواعد الملك ، وقد يفارقها وهو قتيل ..

وكان بنو أيوب قد أخذوا بزمام السلطان في مصر قبيل انتهاء الدولة الفاطمية ، فلما استقر الرأي في أيام صلاح الدين على الدعاء للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي الملقب بالعاضد ، تجاوبت المنابر بالدعاء الجديد ولم يعلم به الخليفة الذي تحول عنه الدعاء ، لأنه كان يجود بنفسه في مرض الوفاة ، فكانت سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة هي خاتمة الأجلين : أجل الخليفة الذي عمر احدى وعشرين سنة ، وأجل الدولة التي عمرت بين المغرب ومصر مائتي سنة وسبعين.

وقد عزل أمراء الدولة بعد موت عميدها منفردين لينقرضوا بغير عقب ، وقال المقريزي عن صلاح الدين والخليفة الأخير : « وأضعف العاضد باستنفاد ما عنده من الأموال فلم يزل أمره في ازدياد وأمر العاضد في نقصان .. ومنع العاضد من التصرف حتى تبين للناس ما يريده من ازالة الدولة .. فلم يبق للعاضد سوى اقامة ذكره في الخطبة .. هذا وصلاح الدين يوالي الطلب منه

كل يوم ليضعفه ، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك حتى لم يبق عند العاضد غير فرس واحد فطالبه منه وألجأه الى ارساله وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لا يخرج من القصر .. »

هذه قسوة لم يحسبها التاريخ على صلاح الدين ، لأنها من قسوة الزمن وجناية الأسلاف على الأخلاف ، أو هو قد حسبها في حساب الموازنة بين المناقب والمعائب ، وبين حكم المروءة وحكم السياسة المشنوءة ، وبين القضاء الذي يجريه صاحبه ، والقضاء الذي يجري على قاضيه فيجزيه وكأنه يعاقبه ، فرجحت كفة الاقبال وهو دائم الرجحان ودالت دولة الزوال فشالت كفتها في ميزان الزمان .

حَضارة محتضَرة

اذا استثنينا الحضارات المصرية الأولى في ايام الفراعنة جاز أن يقال ان حضارة مصر في عهد الفاطميين لم يعرف لها نظير بعد الميلاد ، ولا استثناء لعهد البطالسة ، لأنه عهد غلبت فيه الصبغة الأجنبية على الصبغة الوطنية ، خلافاً للحضارة في ايام الفاطميين ، فان صبغتها المصرية كانت غالبة على كل صبغة ، ومن ثم لم تتكرر في وطن آخر على هذه الصورة وبقيت مصر على مذهبها الديني الذي كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها ..

وتصدق كلمة الحضارة هنا على كل حضارة تقاس بمقياس الثقافة أو مقياس الصناعة أو مقياس الثروة أو مقياس الشؤون الاجتماعية .

فلم توجد في مكتبة بعد مكتبة الاسكندرية خزائن للكتب كالخزائن التي وجدت في القصر الشرقي وتفاوت تقديرها بين ستمائة ألف مجلد ومليونين ، حسب اختلاف التقدير على ما يظهر بين عدد الكتب وعدد النسخ ، وقد كان فيهـــا لبعض الكتب عشرات من النسخ للاعارة أو الاطلاع ..

وتنافست القصور في اقتناء الكتب النادرة ، فكان في كل قصر مكتبة تحتوي عشرات الألوف من كتب الفقه والأدب والرياضة والطب وسائر العلوم ..

وكان الخليفة يزور المكتبة العامة من حين الى حين فيترجل ويخلع نعله ،

وتعرض عليه الكتب الواردة ليأذن بوضعها في الرفوف .

وأنشئت دار الحكمة ودار العلم ، هذه للمعلمين وتلك للمتعلمين ، وفتحت فيهما مجالس المناظرة والمحاضرة ، يخصص منها قسم للرجال وقسم للنساء ، وتنقل المناظرة أحياناً الى قصر الخليفة فيشترك فيها أو يشرف عليها ، ويأذن لكل ذي رأي أن يدلي برأيه فيها ، وان خالف به اجماع الآراء ..

وشاعت بين العامة ثقافتهم التي ترضيهم من ملاحم التاريخ المنثور أو المنظوم ، فلم يكن مجلس من مجالس السمر العامة يخلو من القصاصين أو الشعراء المنشدين ، يسمعون جمهرة الناس طرفاً من التاريخ الشعبي والقصص الشعبية ، عدا مجالس الوعظ والتفقيه التي تفتح للقصاد في المعاهد أو المساجد من صلاة الفجر الى صلاة العشاء .

وفي عهدهم أصلحت الدواوين ونظمت وسائل الري وأعيدت مساحة الأرض وفكروا في بناء الخزان عند أسوان ..

وتقدمت الفنون والصناعات ، وتنافس الفنانون والصناع في هندسة البناء ، وفي النقش على الجدران والحفر على الحجارة الكريمة ، وشوهدت رسوم على النسيج تحكي اللوحات الفنية في دقة التصوير وجمال التلوين ، وبلغ فن التصوير البارز والتصوير الغائر غاية ما يبلغه في عصر من العصور ، وصيغت التماثيل من المعادن والجواهر فأوشكت قيمة المعدن المرتخص أن تناظر قيمة المعدن النفيس بفضل الصناعة والاتقان .

وقد ألف الوصافون اذا بالغوا في وصف العجائب أن يشبهوها بعجائب ألف ليلة وليلة ، ولكن عجائب ألف ليلة وليلة كانت كالنسخة المنقولة من ذخائر القصور في تلك الحضارة ، لولا ان نسخة الحقيقة كانت هي الأعجب والأبدع من نسخة الخيال .

وكانت التجارة مدداً للصناعة لا ينقطع ولا يزال يعطيها كلما أخذ منها ويحثها على التوسع والمزيد : تأتي السفن من بحار المغرب وبحار الهند والصين

بالخامات وتعود ببدائع المصنوعات ، أو تأتي ببدائع المصنوعات وتعود بما هو أبدع وأغلى ، دواليك في مواسم العام كله لا تني ذاهبة آتية على مدى الصيف والشتاء .

وتعددت المواسم والمحافل الاجتماعية ، وحافظت الدولة الجديدة على مواسم الأزمنة الغابرة وأضافت اليها ، فبعد إلغاء النوروز عند مقدم الخليفة المعز الى القاهرة عادوا الى الاحتفال به وأضافوا اليه الاحتفال بالغطاس وخميس العهد وأعياد الربيع ، وأحصي من مواسم العـــام غير رأس السنة يوم عاشوراء ومولد النبي ومولد الامام ومولد آل البيت ، وليالي الوقود وهي ليال من رجب وشعبان يحتفل بها قبل نوافل الصيام ..

وتناظرت محافل الليل ومحافل النهار ، ولا سيما في شهر رمضان وليالي الاعياد ، وعود الخلفاء الشعب أن يستضيفوه ويمدوا له الأسمطة ويخرجوا اليه يحيونه ويتلقون منه التحية ، وأصبح الوافدون الى مصر يحسبونها أمة فرغت للمواكب والمحافل والأسمار .

ولم يكن قصارى ما في تلك المواكب انها مظاهر لهو وفراغ تعطل فيها الأعمال وتنسى فيها تكاليف المعيشة بل هي كانت في حقيقتها معارض للفنون والصناعات ، يسير فيها أصحاب كل فن وصناعة على نظام معلوم ، ويتقدم كل طائفة نقيبها وأساتذتها يترنمون بمفاخر فنونهم وصناعاتهم ويعلنون عنها ويدلون عليها ، ومن هذه المواكب ما بقي الى اليوم في زفة رمضان وزفة جبر البحر ، ومن تلك المحافل ما بقي في طلعة رجب ونصف شعبان وغيرها من ليالي الذكرى للأموات والزيارة للأحياء .

لا جرم كانت مصر ابان هذه الحضارة ملتقى الرواد والقصاد ، ولا جرم تحفل قصور الخلفاء والكبراء بمن يقصدون رحاب ذوي السلطان في كل زمان ومكان ، وأولهم السياح والشعراء .

فما من رحالة أنجبه العالم الاسلامي لم يتخذ من مصر مقاماً أو مزاراً في

تلك الأيام ، وما من قصر من قصور الملك في المشرق والمغرب عمر في ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور الفاطمية من الشعراء والأدباء .

وأوصى الخلفاء والأمراء شعراءهم بالايجاز لازدحام القالة وكثرة المقال ، وزادوهم في الجزاء لكيلا يقال انه قصد في العطاء لا قصد في الثناء ، فقال أحدهم ابن مفرج ، يخاطب الخليفة الحافظ :

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصراً
لم لا أمرت ندى كفيك يختصر

ومن شعراء العصر من كان على خلاف مذهب الشيعة وكان يجهر بهذه المخالفة كعمارة اليمني الذي قال :

مذاهبهم في الجود مذهب سنة
وان خالفوني في اعتقاد التشيع

وهو الذي بخع نفسه على آثارهم وأوردها مورد الهلاك أملاً في نصرتهم واستعادة مجدهم ، فهو أحق الناس برثائهم ، وقصيدته التي قيل فيها انها أبلغ ما نظم في رثاء دولة هي أحق ما نودع به عمرانهم المهجور :

لهفي ولهف بني الآمـال قاطبـة
على فجيعتهـا في أكرم الدول
قدمت مصـر فأولتني خلائفها
من المكارم ما أربى على الأمـل
مررت بالقصر والأركان خاليـة
من الوفود وكانت قبلة القبـل
فملت عنها بوجهي خوف منتقد
من الأعادي ووجه الود لم يمـل
أسلت من أسفي دمعي غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبـل

أبكي عى ما تراءت من مكارمكم
حال الزمان عليها وهي لم تحـــل
دار الضيافة كانت أنس وافدكـــم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست
ورثّ منها جديد عندهم وبلي
وموسم كان في يوم الخليج لكم
يأتي تجملكم فيه عـــلى الجمـــل
وأول العام والعيدين كان لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشـــل
والأرض تهتز في يوم الغدير كما
يهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض في وشي وفي شية
مثل العرائس في حلي وفي حلل
وما حملتم قرى الاضياف من سعة
الأطباق الا على الأكتاف والعجل
وما خصصتم ببر أهـــل ملتكـــم
حتى عممتم به الأقصى من الملـــل
كانت رواتبكم للذمتين وللضـــ
ـــيف المقيم وللطاري من الرســـل
ثم الطراز بتنيس الذي عظمت
منه الصلات لأهل الارض والدول
باب النجاة هم دنيا وآخـــرة
وحبهم فهو أصل الدين والعمـــل
والله ما زلت عن حبي لهم أبداً
ما أخرّ الله لي في مدة الأجل

ولم يؤخر له في الأجل ، فانقضى أجل الدولة في سنة سبع وستين وخمسمائة وانقضى أجل شاعرها في سنة تسع وستين وخمسمائة .

« قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير » .

* * *



عباس محمود العقاد

الحسين بن علي

أبو الشهداء



مقدمة المؤلف

يسرني أن أقدم إلى حضرات القراء هذه الطبعة من كتاب « أبي الشهداء » ويعظم رجائي أن يصل إلى أيد كثيرة غير التي وصل اليها في طبعاته السابقة ، وأن يتحقق له من عموم الرسالة بهذه المثابة ما يتمناه كل مؤلف لكل كتاب يريد به رسالة من الرسالات .

ليس من عادتي أن أطلع في كتبي بعد الفراغ من طبعها ، ويتفق أن تمضي السنوات دون أن ألقي عليها نظرة لغير مراجعة عاجلة ، فاذا حدث بعد ذلك أن أنظر فيها لتقديمها إلى طبعة جديدة ، أمكنني أن أشعر بها شعور القارىء الذي يطلع عليها لأول مرة ، بعد أن شعرت بها شعور المؤلف الذي امتلأ بها وأدارها في نفسه عدة مرات . وقد أستغرب منها أموراً كالتي يستغربها القراء الذين يحكمون على موضوعاتها حكم « الأجانب الغرباء » ..

عجبا ! .. إن مشكلة الحياة الكبرى لم تتغير منذ ألف وثلثمائة سنة ، ولم تزل الحرب على أشدها بين خدام أنفسهم وخدام العقائد والأمثلة العليا ، ولم يزل الشهداء يصلونها ناراً حامية من عبيد البطون والأكباد ، ولم يزل « داؤنا العياء » كما قال أبو العلاء ! ..

كان هذا شعوري بكتاب « أبي الشهداء » حين قرأته من جديد لتقديمه إلى هذه الطبعة : مسكينة هذه الانسانية ! .. لا تزال في عطش شديد إلى دماء الشهداء ، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الأثرة والأنانية

ونسيان المصلحة الخالدة في سبيل المصلحة الزائلة ، أو لعل العطش الشديد إلى دماء الشهداء يزداد في هذا الزمن خاصة دون سائر الأزمنة الغابرة ، لأنه الزمن الذي وجدت فيه الوحدة الانسانية وجوداً مادياً فعلياً وأصبح لزاماً لها أن توجد في الضمير وفي الروح كما وجدت في الخريطة الجغرافية وفي برامج السفن والطائرات .

الوحدة الانسانية اليوم حقيقة واقعية عملية ، ولكنها حقيقة واقعية عملية في كل شيء إلا في ضمير الانسان وروح الانسان .

حقيقة واقعية في اشتباك المصالح التجارية ، وفي اتصال الأخبار بين كل ناحية من الكرة الأرضية وناحية أخرى . .

حقيقة واقعية في أعصاب الكرة الأرضية إذا صح هذا التعبير ، فلا يضطرب عصب من أعصابها في أقصى المشرق حتى تتداعى له سائر الأعصاب في أقصى المغرب وفي أقصى الشمال والجنوب .

حقيقة واقعية في كل شيء إلا في ضمير الانسان وفي روح الانسان ، وهذ هو المهم والأهم إذا أريدت للانسانية وحدة صحيحة صالحة جديرة بالدوام .

ولن توجد هذه الوحدة إلا إذا وجد الشهداء في سبيلها . فأنعم بمقدم « أبي الشهداء » من جديد إلى ضمائر فريق كبير من بني الانسان ، لعلهم يقدمون رسالته خطوة واحدة أو خطوات في سبيل اليقين والعمل الخالص لوجه الحق والكمال .

نتفاءل أو لا نتفاءل .. نتشاءم أو لا نتشاءم ..

ليست هذه هي المسألة ، وانما المسألة هي أن طريق التفاؤل معروف وطريق التشاؤم معروف ، فلا تتحقق مصلحة الانسانية إلا اذا عمل لها كل فرد من أفرادها ، وهانت الشهادة من أجلها على خدامها ، وتقدم الصفوف من يقدم على الاستشهاد ومن ورائه من يؤمن بالشهادة والشهداء .

لا عظة ولا نصيحة ، ولكنها حقيقة تقرر كما تقرر الحقائق الرياضية . فلا بقاء للانسانية بغير العمل لها ، ولا عمل لها إن لم ينس الفرد مصلحته ، بل حياته في سبيلها ..

لا بقاء للانسانية بغير الاستشهاد ..

وفي هذه الآونة التي تتردد فيها هذه الحقيقة في كل زاوية من زوايا الأرض نلتفت نحن أبناء العربية إلى ذكرى شهيدها الأكبر فنحني الرؤوس إجلالا « لأبي الشهداء » ..

عباس محمود العقاد

طبائع الناس

يتناوب طبائع الناس مزاجان متقابلان : مزاج يعمل أعماله للأريحية والنخوة ، ومزاج يعمل أعماله للمنفعة والغنيمة .

والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال ..

فقد تقترن الأريحية بالمنفعة ، وتقترن المنفعة بالأريحية ، ولكنهما اذا اصطدما — ولا سيما في الأعمال الكبيرة — لم يعسر عليك أن تفصل المزاجين وتعزل المعسكرين . فهذا للأريحية حتى يجُبَّ المنفعة ويخفيها ، وهذا للمنفعة حتى يجب الأريحية ويخفيها .. أو كذلك يتراءيان ..

وأصحاب المطالب الكبرى في التاريخ يعتمدون على هذا المزاج كما يعتمدون على ذاك .. فمنهم من يتوسل إلى الناس بما فيهم من الجشع والخسة وقرب المأخذ وسهولة المسعى ، ومنهم من يتوسل إلى الناس بما فيهم من طموح إلى النبل والنجدة وركوب المخاطر ونسيان الصغائر في سبيل العظائم ..

ولكل منهما سبيله إلى النفوس وأمله في النجاح على حسب الأوقات والبيئات ..

الا أن الأريحية أخلد من المنفعة بسنة من سنن الخلق التي لا تتبدل مع الأوقات والبيئات ..

لأن منفعة الإنسان وجدت لفرد من الأفراد ..

أما الأريحية التي يتجاوز بها الإنسان منفعته فقد وجدت للأمة كلها أو للنوع الانساني كله . ومن ثم يكتب لها الدوام إذا اصطدمت بمنافع هذا الفرد أو ذاك ..

ولقد يبدو من ظواهر الأمور أن الأمر على خلاف ما نقول ، لأن الحريص على منفعته يبلغها ويمضي قدما اليها ، فينال المنفعة التي لا ينالها صاحب الأريحية لأنه يتركها اذا اصطدمت بما هو أجل منها .

وهذا صحيح مشهود لا مراء فيه ..

ولكن النجاح في الحركات التاريخية لن يسمى نجاحاً إذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد . فاذا قيل إن حركة من الحركات التاريخية قد نجحت ، فمغزى ذلك بداهة أن الأفراد القائمين بها يذهبون وهي الباقية بعد ذهابهم .. ومن هنا يصح أن يقال إن الاريحية أبقى وأنجح اذا هي اصطدمت بالمنفعة الفردية ، لأن ذهاب الفرد هنا أمر مفروغ منه بعد كل حساب ، سواء أكان حساب الأريحيين أم حساب النفعيين .

وأصحاب الأريحية إذن أبعد نظراً من دهاة الطامعين والنهازين للفرص والمغانم العاجلة . لأنهم خلقوا بفطرتهم على حساب أعمار تتجاوز حساب عمرهم القصير . فهم - شعروا أو لم يشعروا - بعيدو النظر الى عواقب الامور ، وإن خيل الى أناس أنهم طائشون متهجمون .

* * *

أما موقف المؤرخين في العطف على حركات التاريخ فهو على ما نرى موقف مزاج من هذين المزاجين ، وليس بموقف سبيل من سبل البحث أو مذهب من مذاهب التفكير ..

فالذين يجنحون بمزاجهم الى المنفعة يفهمون أعذار المنتفعين وينكرون ملامتهم على ناقديهم ..

والذين يجنحون بمزاجهم الى الأريحية يفهمون دوافع النخوة ويحسبونها عذراً لأصحابها أقوى من غواية المنافع والأرزاق .

إلا أن الصواب هنا ظاهر جد الظهور لمن يريد أن يراه :

الصواب أن العطف على جانب المنفعة عبث لا معنى له ولا حكمة فيه .

وان العطف على جانب الأريحية واجب يخشى على الناس من تركه واهماله ، اذ كان تركه مناقضاً لصميم الفطرة التي من أجلها فطر الناس على الاعجاب بكل ما يستحق الاعجاب .

فليس يخشى على الناس يوماً أن ينسوا منافعهم ويقصروا في خدمة أنفسهم ، سواء عطف عليها المؤرخون أو أعرضوا عنها ساخرين منكرين .

ولكنهم يخسرون الأريحية اذا فقدوها وفقدوا الاعجاب بها والتطلع اليها ، وهي التي خلقت ليعجب بها الناس. لأن حرص الانسان على منفعته لا يغنيهم في حياتهم العامة أو في حياتهم الباقية. أما الأريحية التي يتجاوز بها الانسان نفسه في سبيل معنى من المعاني أو مثل عال من الامثلة العليا ، فهي الخليقة النافعة للنوع الانساني بأسره، وإن جاز اختلافهم في كل معنى وفي كل مثل عال ..

صراع بين الأريحية والمنفعة

في ماضي الشرق وحاضره كثير من الحركات التاريخية التي وقع الصدام فيها بين الاريحية والمنفعة على أكثر من غرض واحد ..

ولكننا لا نحسبنا مهتدين الى نموذج لهذا الصدام أوضح في المبادىء وأهدى الى النتائج وأبين عن خصائص المزاجين معاً من النموذج الذي عرضه لنا التاريخ في النزاع بين الطالبيين والأمويين ، ولا سيما النزاع بينهما على عهد الحسين بن علي ، ويزيد بن معاوية .

قلنا في كتابنا « عبقرية الإمام » ما فحواه ان الكفاح بين علي ومعاوية ، لم يكن كفاحاً بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين .. ولكنه كان على الحقيقة كفاحاً بين الإمامة الدينية والدولة الدنيوية ، وان الأيام كانت أيام دولة دنيوية فغلب الداعون إلى هذه الدولة من حزب معاوية ، ولم يغلب الداعون إلى الامامة من حزب الإمام .

ولو حاول معاوية ما حاوله عليّ لأخفق وما أفلح ، ولو أراد عليّ أن يسلك غير مسلكه لما أفاده ذلك شيئاً عند محبيه ولا عند مبغضيه .

فإذا جاز لأحد أن يشك في هذا الرأي ، وأن يرجع بنجاح معاوية إلى شيء من مزاياه الشخصية فذلك غير جائز في الخلاف بين الحسين ويزيد . وكل ما يجوز هنا أن يقال ان أنصار الدولة الدنيوية غلبوا أنصار الإمامة على سنة الخلفاء الراشدين ، لأن مطالب الإمامة غير مطالب الزمان .

ما من أحد قط يزعم أن الصراع هنا كان صراعاً بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين . وانما هو الصراع بين الإمامة والملك الدنيوي ، أو بين الأريحية والمنفعة في جولتهما الأولى ، ولم يكن ليزيد قط فضل كبير أو صغير بما قد بلغه من الفوز والغلبة ..

* * *

بل لا يمكن أن يتعلل أحد هنا بما يتعلل به أنصار المنافع عامة من « تقريره للنظام وحفظه للأمن العام » ... فإن يزيد لم يكن له فضل قط في قيام الدولة كما قامت على عهده وبعد عهده . وانما كانت الدولة تتماسك برغبة الراغبين في بقائها لا بقدرة الأمير المشرف عليها . وقد حدث بعد موت يزيد أن بويع ابنه معاويه الثاني بالشام — وكان من الزاهدين في الحكم — فنادى الناس إلى صلاة جامعة ، وقال لهم : « أما بعد فإني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له

من أحببتم » ثم أوى إلى بيته ومضت شئون الدولة على حالها حتى مات بعد ثلاثة أشهر ، وله مع هذا منافس قوي كعبد الله بن الزبير بالحجاز .

فلا وجه للمفاضلة بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية .. ورأي معاوية وأعوانه في هذا أسبق من رأي الطالبيين وخصوم الأمويين ،فقد ترددوا كثيراً قبل الجهر باختيار يزيد لولاية العهد وبيعة الخلافة بعد أبيه . ولم يستحسنوا ذلك قبل ازجائهم النصح إلى يزيد غير مرة بالاقلاع عن عيوبه وملاهيه . ولما أنكر بعض أولياء معاوية جرأة الحسين عليه في الخطاب ، وأشاروا عليه أن يكتب له كتاباً « يصغر اليه نفسه » .. قال : « وما عسيت أن أعيب حسيناً؟.. والله ما أرى للعيب فيه موضعاً » .

وثم تعلة أخرى يتعلل بها المفاضلون بين علي ومعاوية ولا موضع لها في المفاضلة بين ولديهما الحسين ويزيد . وتلك ما يزعمونه من غلبة معاوية على « علي » بحجته في الاقناع ونشاطه أو نشاط أصحابه في الدعوة السياسية ..

فهذه التعلة إن صاحت لتعليل نجاح معاوية ، فما هي بصالحة لتعايل نجاح يزيد ..

لأن الذين انخدعوا أو تخادعوا للصيحة التي صاح بها معاوية في المطالبة بدم عثمان ، كانوا يرددون هذه الصيحة ويساعدهم على ترديدها حقد الثأر المزعوم وسورة العصبية المهتاجة ، ثم يساعدهم على ترديدها في مبدأ الأمر أن معاوية لم يكن مجاهراً بطلب الخلافة ولا متعرضاً لمزاحمة أحد على البيعة ، وإنما كان يتشبث بمقتل عثمان والمطالبة بدمه ، ولا يزيد في دعواه على ادعاء ولاية الدم وصلة القرابة .

* * *

ولكن الصائحين بهذه الصيحة مع معاوية قد عاشوا حتى رأوا بأعينهم مبلغ الغيرة على تراث عثمان ، وعلموا أن الملك هو الغرض المقصود من وراء تلك الفتن والأرزاء ، وان معاوية لا يقنع بأن يملك لنفسه حتى يورث

الملك ولده من بعده ، وليس هو من أهل الرأي ولا هو من أهل السلاح ولا هو ممن تتفق عليه آراء هؤلاء ، لكنه فتى عربيد يقضي ليله ونهاره بين الخمور والطنابير ، ولا يفرغ من مجالس النساء والندمان إلا ليهرع إلى الصيد فيقضي فيه الأسبوع بعد الأسبوع بين الأديرة والبوادي والآجام ، لا يبالي خلال ذلك تمهيداً للملك ولا تدريباً على حكم ولا استطلاعاً لأحوال الرعية الذين سيتولاهم بعد أبيه ، ثقة بما صار اليه من التمهيد والتوطيد وما سوف يصير .

فكل خلاف جاز في المفاضلة بين علي ومعاوية غير جائز في المفاضلة بين الحسين ويزيد .. وانما الموقف الحاسم بينهما ، موقف الأريحية الصراح في مواجهة المنفعة الصراح . وقد بلغ كلاهما من موقفه أقصى طرفيه وأبعد غايتيه ، فانتصر الحسين بأشرف ما في النفس الانسانية من غيرة على الحق وكراهة للنفاق والمداراة ، وانتصر يزيد بأرذل ما في النفس الانسانية من جشع ومراء وخنوع لصغار المتع والأهواء .

أقام الحسين ليلته الأخيرة بكربلاء وهو لا ينتظر من عاقبته غير الموت العاجل بعد سويعات ، فأذن لأصحابه أن يتفرقوا عنه تحت الليل إن كانوا يستحيون أن يفارقوه في ضوء النهار . فأبوا الا أن يموتوا دونه ، وقال له مسلم بن عوسجة الأسدي : « أنحن نتخلى عنك ولم نعذر إلى الله في أداء حقك ؟ .. أما والله لا أفارقك حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما بقي قائمه بيدي ، ولو لم يكن معي سلاحي لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » . وقد برّ بقسمه وبقي ومات .. ودنا منه حبيب ابن مظاهر وهو يجود بنفسه ، فقال له : « لولا اني أعلم اني في أثرك لاحق بك لأحببت أن توصيني حتى أحفظك بما أنت له أهل » ، فقال وكان آخر ما قال : « أوصيك بهذا — رحمك الله — أن تموت دونه » وأومأ بيده نحو الحسين .

* * *

وقتل الحسين .. وذهب الأمل في دولته ودولة الطالبيين من بعده إلى أجل بعيد ، ولكنه كان يشتم بالكلمة العوراء فيهون على الرجل من أصحاب الأريحية أن يموت ولا يصبر على سماع تلك الكلمة أو يترك الجواب عليها ..

فلما نعي الحسين في الكوفة نادى واليها ابن زياد الى الصلاة الجامعة . وصعد إلى المنبر ، وخطب القوم فقال : « الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته » .

فما أتمها حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن عفيف الأزدي الذي ذهبت إحدى عينيه يوم الجمل وذهبت عينه الأخرى يوم صفين . فصاح بالوالي غداة يوم انتصاره وزهوه : « يا ابن مرجانة ! .. أتقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ .. إنما الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه » .

فما طلع عليه الصباح إلا وهو مصلوب ..

إلى هذا الأفق الأعلى من الاريحية والنخوة ارتفعت بالنفس الانسانية نصرة الحسين .

وإلى الاغوار المرذولة من الخسة والاثرة هبطت بالنفس الانسانية نصرة يزيد .. وحسبك من خسة ناصريه ، أنهم كانوا يجزون بالحطام وهتك الأعراض على غزو « المدينة » النبوية واستباحة ذمارها فيسرعون إلى الجزاء .. يسرعون اليه وليسواهم بكافرين بالنبي الدفين في تلك المدينة ، فيكون لهم عذر الاقدام على أمر لا يعتقدون فيه التحريم ! ..

بل حسبك من خسة ناصريه انهم كانوا يرعدون من مواجهة الحسين بالضرب في كربلاء لاعتقادهم بكرامته وحقه ، ثم ينتزعون لباسه ولباس نسائه فيما انتزعوه من أسلاب ! .. ولو أنهم كانوا يكفرون بدينه وبرسالة جده ، لكانوا في شرعة المروءة أقل خسة من ذاك .

* * *

وتتقابل وسائل النجاح في المزاجين كما تتقابل المقاصد والغايات ..

فكان شعار معاوية وأشياعه : « إن لله جنوداً من العسل » وهو يعني العسل الذي يداف بالسم ليخلي طريق النجاح من كل معترض فيها ولو كان من الاصدقاء . فكثرت روايات المؤرخين عن مقتل الحسن بن علي والأشتر النخعي بهؤلاء الجنود ! .. وأعجب منها ما قيل عن مقتل عبد الرحمن بن خالد ، وقد كان نصيراً لمعاوية في حروب الشام .. فإنه مات مسموماً على ما اشتهر من الروايات ، لأنه رشح للخلافة بعد معاوية دون يزيد .. وعلم ذلك أقرباء عبد الرحمن بن خالد ، فقتلوا طبيب معاوية « ابن أثال » الذي اتهموه بسمه في الدواء .

ولو استباح الحسين وشيعته هذه الوسائل مرة واحدة ، لكانوا وشيكين أن يبلغوا مقصدهم من قريب . فقد كان هانىء بن عروة شيخ كندة من أنصار الحسين وأبيه ، وكانت كندة كلها تطيعه وتلبيه حتى قيل إنه « إذا صرخ لباه منهم ألف سيف » . فزاره عبيد الله بن زياد والي يزيد على الكوفة — ليعوده في بعض مرضه ويتألفه ويستميله اليه . وقيل ان هانئاً عرض على مسلم ابن عقيل بن أبي طالب أن يقتل عبيد الله بن زياد وهو عنده ، وقيل ان الذي عرض ذلك رجل من صحبة هانىء المقربين . فأبى مسلم ما عرضه هذا وذاك ، وهو يومئذ طلبة ذلك الوالي ، وجنوده قد تعقبوه وأهدروا دمه وأجزلوا الوعود لمن يسلمه أو يدل عليه ، وقال : « إنا أهل بيت نكره الغدر » . ولو أنه بطش بابن زياد ، لقد بطش يومئذ بأكبر أنصار يزيد ..

وليقل من شاء إن قتل ابن زياد كان صواباً راجحاً ..

وإن التحرج من قتله كان خطأ فادحاً من وجهة السياسة أو من وجهة الأخلاق ، فالذي لا يشك فيه أنه إن كان صواباً فهو صواب سهل يستطيعه كثيرون ، وإن كان خطأ فهو الخطأ الصعب الذي لا يستطيعه إلا القليلون ..

* * *

كذلك يقول من يقول إن الأريحية التي سمت اليها طبائع أنصار الحسين، إنما هي أريحية الإيمان الذي يعتقد صاحبه أنه يموت في نصرة الحسين فيذهب لساعته إلى جنات النعيم .. فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يجعلون المنفعة وحدها باعث الانسان إلى جميع أعماله ، حتى ما صدر منها عن عقيدة وإيمان . وينسون ان المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التي يصاب من جرائها الفرد طوعاً أو كرهاً في خدمة نوعه ، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها ، فلماذا لم يطلبوها كما طلبها أنصار الحسين ؟ .. انهم لم يطلبوها لأنهم منقادون لغواية أخرى ولأنهم لا يملكون عزيمة الإيمان ونخوة العقيدة ، ولا تلك القوة الخلقية التي يتغلبون بها على رهبة الموت ويقرعون بها وساوس التعلق بالعيش والخنوع للمتعة القريبة . فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف الناس جميعاً بجنات النعيم على نحو واحد ، ومضى الناس على سنة واحدة في الأريحية والفداء ، ومرجع الأمر إذن في آخر المطاف إلى فرق واضح بين طبائع الأريحيين وطبائع النفعيين .

وكذلك يقول من يقول ان الأريحية في نفوس أنصار الحسين كانت أريحية أفراد معدودين ثبتوا معه ولم يخذلوه إلى يومه الأخير .. وينسى هؤلاء ان الارتفاع ليقاس بالقمة الواحدة كما يقاس بالقمم الكثيرة ، وأن الغور ليسبر في مكان واحد كما يسبر في كل مكان ، وإنما تكون الندرة هنا أدل على جلالة المرتقى الذي تطيقه النفس الواحدة أو الانفس المعدودات ، ولا تطيقه نفوس الاكثرين ..

* * *

فمدار الخلاف إذن في هذه الجولة التاريخية انما هو الفارق الخالد بين مزاجين بارزين كائناً ما كان تفسير المفسرين للعقائد الروحية والمطامع السياسية، ولم يتلاق هذان المزاجان على تناحر وتناجز كما تلاقيا عامة في النزاع بين الطالبيين والأمويين ، وخاصة في النزاع بين الحسين ويزيد .

فحياة الحسين رضي الله عنه صفحة ، لا صفحة تماثلها في توضيح الفارق بين خصائص هذين المزاجين وبيان ما لكل منهما من عدة للنجاح في كفاح الحياة ، سواء نظرنا إلى الأمد البعيد أو قصرنا النظر على الأمد القريب .

* * *

أسباب التنافس والخصومة

قبل أن يقف الحسين ويزيد متناجزين ، كانت الحوادث قد جمعت لهما أسباب التنافس والخصومة منذ أجيال ، وكان هذا التنافس بينهما يرجع إلى كل سبب يوجب النفرة بين رجلين : من العصبية ، إلى الترات الموروثة ، إلى السياسة ، إلى العاطفة الشخصية ، إلى اختلاف الخليقة والنشأة والتفكير ..

تنافس هاشم وأمية على الزعامة قبل أن يولد معاوية .. فخرج أمية ناقماً إلى الشام وبقي هاشم منفرداً بزعامة بني عبد مناف في مكة . فكان هذا أول انقسام وتقسيم بين الأمويين والهاشميين : هؤلاء يعتصمون بالشام ، وهؤلاء يعتصمون بالحجاز ..

ثم علا نجم « أبي سفيان بن حرب بن أمية » في الحجاز ، فأصبحت له زعامة مرموقة إلى جانب الزعامة الهاشمية . فلما ظهرت الدعوة المحمدية أخذته الغيرة على زعامته ، فكان في طليعة المحاربين للدعوة الجديدة . وندرت غزوة من الغزوات لم تكن فيها لأبي سفيان أصبع ظاهرة في تأليب القبائل وجمع الأموال . وشاءت المصادفات زمناً من الأزمان أن يظل وحده على زعامة قريش في حربها للنبي عليه الصلاة والسلام . فمات الوليد بن المغيرة زعيم مخزوم ، ودان زعماء تيم وبني عدن وغيرهم من البطون القرشية الصغيرة بالإسلام ، وبقي أبو سفيان وحده على رأس الزعامة الجاهلية والزعامة الأموية في منازلة النبي ومن معه من المهاجرين والأنصار ، وبلغ

من تغلغل العداء في هذه الأسرة للنبي عليه الصلاة والسلام ، أن أبا لهب عمه كان أوحد أعمامه في الكيد له والتأليب عليه ، وانما جاءه هذا من بنائه بأم جميل بنت حرب ، أخت أبي سفيان التي وصفها القرآن بأنها « حمالة الحطب » كناية عن السعي في الشر وتأريث نار البغضاء ..

ثم فتحت مكة ، فوقف أبو سفيان ينظر إلى جيش المسلمين ويقول للعباس بن عبد المطلب : « والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك اليوم عظيماً » .. فلما قال العباس : « انها النبوة ! » . قال : « نعم إذن ! .. »

وقد أسلم أبو سفيان وابنه معاوية عند فتح مكة ، وكان اسلام بيته أعسر إسلام عرف بعد فتحها . فكانت زوجه هند بنت عتبة تصيح في القوم بعد اسلامه : « اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه .. قبح من طليعة قوم .. هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ! .. »

* * *

وظل أبو سفيان إلى ما بعد إسلامه زمناً يحسب غلبة الاسلام غلبة عليه ، فنظر إلى النبي مرة وهو بالمسجد نظرة الحائر المتعجب وهو يقول لنفسه : « ليت شعري بأي شيء غلبني ! » فلم يخف عن النبي عليه السلام معنى هذه النظرة ، وأقبل عليه حتى ضرب يده بين كتفيه وقال له : « بالله ، غلبتك يا أبا سفيان ! » ..

وكان في غزوة حنين يشهد هزيمة المسلمين الأولى فيقول : « ما أراهم يقفون دون البحر ! » وقيل انه كان في حروب الشام يهتف كلما تقدم الروم : « إيه بني الاصفر » ، فإذا تراجعوا عاد فقال : « ويل لبني الأصفر ! »

* * *

وقد تألفه النبي عليه السلام ما استطاع قبل فتح مكة وبعد فتحها ، فتزوج بنته أم حبيبة قبل الفتح وجعل بيته بعد الفتح حرماً « من دخله فهو

آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن » وأقامه على رأس المؤلفة قلوبهم الذين يزاد لهم في العطاء عسى أن يذهب ما في نفوسهم من الكراهة لغلبة الاسلام ..

ومع هذا كان المسلمون يوجسون منه فلا ينظرون إليه ولا يقاعدونه ، حتى برم بذلك وأحب أن يمسح ما بصدورهم من قبله .. فتوسل إلى النبي أن يجعل معاوية كاتباً بين يديه وأن يأمره فيقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين .

ثم قبض النبي عليه السلام ، ونجم الخلاف على مبايعة الخليفة بعده بين المهاجرين والأنصار وبين بعض الصحابة من جهة أخرى .. فاشرأب أبو سفيان إلى هذه الفتنة ، وخيل إليه أنه مصيب بين فتوقها ثغرة ينفذ منها إلى السيادة على قريش ، ثم السيادة من هذا الطريق على الأمة الاسلامية بأسرها .. فدخل على « علي » والعباس ، يثيرهما ويعرض عليهما المعونة بما في وسعه من خيل ورجل . فنادى بهما : « يا علي ! وأنت يا عباس ! .. ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ والله لو شئت لأملأنها عليه — على أبي بكر — خيلاً ورجلاً وآخذنها عليه من أقطارها » ..

* * *

وهو لا ريب لم يغضب لأن الخلافة قد فاتت بني هاشم ، ولا كان يسره أن تصير الخلافة اليهم فتستقر فيهم قراراً لا طاقة له بتحويله .. ولكنه أراد خلافاً يفتح الباب لزعامة أموية يملك بها زمام قريش والدولة العربية جمعاء ..

فلم يخف مقصده هذا على « علي » رضي الله عنه ، وقال : « لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلاً ورجلاً ، ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلاً ما خليناه وإياها » . ثم أنبه قائلاً : « يا أبا سفيان ! .. ان المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض ، وان المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض . متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم » .

وانقضت خلافة أبي بكر وخلافة عمر والأمور تجري في مجراها الذي يأخذ على المطامع سبيلها ، ويخيف أصحاب الفتن أن يبرزوا بها من جحورها ..

حتى قامت خلافة عثمان بن عفان فانتصر بها الأمويون أيما انتصار ، لأنه رأس من رؤوسهم وابن عم قريب لزعماء بيوتهم ، وأصبحت الدولة الاسلامية أموية لا يطمع في خيراتها ولا ولاياتها إلا من كان من أمية أو من حزبها . فمروان بن الحكم وزير الخليفة الأكبر يغدق العطاء على الأقرباء ويحبسها عن سائر الناس ، ومعاوية بن أبي سفيان والي الشام يجتذب إليه الأقرباء والأولياء ومن يرجى منهم العون ويخشى منهم الخلاف .

فلما قتل عثمان رضي الله عنه كان المنتفعون بمناصب الدولة وأموالها جميعاً من الأمويين أو من صنائعهم المقربين ، ومال السلطان إلى جانب أمية على كل جانب آخر من القرشيين وغير القرشيين .

* * *

لا جرم كان الصراع بعد ذلك صراعاً معروف النهاية من مطلع البداية ، فقتل علي بن أبي طالب غيلة وخلصت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ..

ثم بايع أناس من أهل العراق وفارس الحسن بن علي ، فلم يستقم له أمرهم وضاق صدره بجدالهم ومحالهم ، وكان رجلاً سكيتاً يكره المنازعة ويجنح الى العزلة ، فصالح معاوية على شروط .. وفّى له معاوية بالمعجل منها والتوى عليها بمؤجلها . وزاد على ذلك كما تواتر في شتى الروايات أنه أغرى امرأته جعدة بنت الأشعث بسمه ، ووعدها أن يزوجها يزيد ويعطيها مائة ألف درهم ، فوفى بوعد المال ولم يفِ بوعد الزواج .

وقد اوصى الحسن رضي الله عنه أن يدفن عند قبر جده إلا أن تخاف فتنة . فلما توفي أرادوا دفنه حيث أوصى ، فقام مروان بن الحكم وجمع بني أمية وزمرتهم ومنعوا مشيعيه .. فأنكر الحسين عليهم منع سبط النبي أن

يدفن إلى جوار جده ، فقيل له : « إن أخاك قال إذا خفتم الفتنة ففي مقابر المسلمين سعة . وهذه فتنة » .. فسكت على مضض .

أهداف معاوية

وقد كان معاوية ولا ريب ينوي أن يجعلها دولة أموية متعاقبة في ذريته من بعده ، منذ تصدى للخلافة وخلا له المجال من أقوى منافسيه ، إلا أنه كان يتردد ويتكتم ولا يفضي بنيته إلى أقرب المقربين إليه، ثم كبرت سنه وخاف أن يعجل عن قصده ، فمهد لبيعة ابنه يزيد بعض التمهيد وتوصل إلى ذلك بما طاب له من وسيلة..فلباه أهل الشام وكتب بيعته إلى الآفاق، ثم همه أمر الحجاز فكتب إلى مروان بن الحكم عامله أن يجمع من قبله لأخذ البيعة منهم ليزيد ، فأبى مروان وأغرى رؤوس قريش بالإباء ، لأنه كان يتطلع إلى الخلافة بعد معاوية ويحسبه أقدر عليها من يزيد ، لما اشتهر به من نقص وعبث.. فعزله معاوية وولى سعيد بن العاص مكانه، فلم يجبه أحد إلى ما أراد. فكتب معاوية إلى عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، والحسين بن علي ، وأمر عامله سعيداً أن يوصل كتبه إليهم ويبعث اليه بجواباتها. وقال لسعيد : « فهمت ما ذكرت من ابطاء الناس ، وقد كتبت إلى رؤسائهم كتباً فسلمها اليهم .. ولتشد عزيمتك وتحسن نيتك ، وعليك بالرفق . وانظر حسيناً خاصة فلا يناله منك مكروه ، فإن له قرابة وحقاً عظيماً لا ينكره مسلم ولا مسلمة .. وهو ليث عرين ، ولست آمنك إن ساورته ألا تقوى عليه » .

* * *

فأعيت سعيد بن العاص كل حيلة في اقناع وجهاء الناس وعامتهم بهذه البيعة البغيضة ، وخف معاوية إلى مكة ومعه الجند وحقائب الأموال ، ودعا بأولئك النفر فقال لهم : « قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم ،

يزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه » .

فأجاب عبد الله بن الزبير ، وخيَّره بين أن يصنع كما صنع رسول الله إذ لم يستخلف أحداً ، أو كما صنع أبو بكر ، إذ عهد إلى رجل ليس من بني أبيه ، أو كما صنع عمر إذ جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه .

فقال معاوية مغضباً : « هل عندك غير هذا ؟ »

قال : « لا .. »

والتفت إلى الآخرين يسألهم قائلاً : « فأنتم ؟ » فوافقوا ابن الزبير .

فقال متوعداً : « أعذر من أنذر ! .. إني كنت أخطب فيكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس فأحمل ذلك وأصفح ، واني قائم بمقالة... فأقسم بالله لئن رد عليّ أحدكم كلمة في مقامي هذا ، لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه » .

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين مع كل واحد منهما سيف ، وقال له : « إن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفهما » .

ثم خرج بهم إلى المسجد ورقي المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

– هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبرم أمر دونهم ولا يقضى إلا على مشورتهم ، وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوه على اسم الله .

فبايع الناس ..

وهكذا كانت البيعة ليزيد في الحجاز ..

* * *

ومات معاوية وهو يعلم أن بيعة كهذه لا تجوز ولا تؤمن عقباها .. فأوصى ابنه « انه لا يخاف إلا هؤلاء من قريش : الحسين بن علي ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن الزبير » . قال : « فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين بن علي فلا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه .. فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً .

« أما ابن الزبير فإنه خب ضب ، فإذا أمكنته فرصة وثب .. فإن هو فعلها فقدرت عليه ، فقطعه ارباً ارباً الا أن يلتمس منك صلحاً ، فإن فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت » ..

خلافة يزيد

وآل الأمر على هذا النحو إلى يزيد في سنة ستين للهجرة ، وهو بين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين ، ولكنه دون أنداده في تجارب الأيام ، وليس حوله من المشيرين والنصحاء أمثال المغيرة ، وزياد ، وعمرو بن العاص ، وغيرهم من القروم الذين كانوا حول أبيه .. فتهيب ما هو مقدم عليه ، وكتب إلى عامله بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان : « أن خذ حسيناً ، وعبدالله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام » .

فبعث الوليد إلى مروان بن الحكم يستشيره .. وكان مروان يريد الخلافة لنفسه ، ولكنه علم بعد موت معاوية وقيام يزيد ان الامر اليوم أمر بني أمية ، فإن خرج منهم فقد خرج منهم أجمعين . فنصح للوليد نصيحة ذات وجهين : ظاهرها الشدة في الدعوة ليزيد وباطنها السعي إلى الخلاص من يزيد ومنافسيه . فقال : « أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة . أما ابن عمر فلا أراه يرى القتال ، ولكن عليك بالحسين وعبد الله ابن الزبير ، فإن بايعا وإلا فاضرب أعناقهما .. »

وضرب عنق الحسين وابن الزبير معناه الخلاص من أعظم المنافسين ليزيد .. ثم الخلاص من يزيد بإثارة النفوس وإيغار الصدور عليه !

* * *

وقد ذهب رسول الوليد إلى الحسين وابن الزبير ، فوجدهما في المسجد.. فعلم الحسين ما يراد منه ، وجمع طائفة من مواليه يحملون السلاح ، وقال لهم وهو يدخل بيت الوليد « إن دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فاقتحموا عليّ بأجمعكم ، وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج اليكم » ..

فلما عرضوا عليه البيعة ليزيد قال : « أما البيعة فإن مثلي لا يعطي بيعته سراً ، ولا أراك تقنع بها مني سراً » .

قال الوليد : « أجل » !

قال الحسين : « فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحداً » .

ثم انصرفَ ومروان غاضب صامت لا يتكلم .. وما هو إلا أن توارى الحسين حتى صاح بالوليد : « عصيتني والله ! لا قدرت منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه » .

فأنكر الوليد لجاجته وقال له : « أتشير عليّ بقتل الحسين ! والله إن الذي يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله » .

* * *

وهكذا انتهت المنافسة بين بني أمية وبني هاشم إلى مفترق طريق لا سبيل فيه إلى توفيق ، ولم تنقطع قط سلسلة هذه المنافسة منذ أجيال وإن غلبها الاسلام في عهد النبوة ، وفي عهد الصدّيق والفاروق .

وكفى بالاسلام فضلاً في هذا المجال أنه غلب العصبية بالعقيدة ،

فجعلها تابعة لها غير قادرة على الجهر بمخالفتها ! ولكن العصبية المكبوحة عصبية موجودة غير معدومة ..

* * *

وكثيراً ما يفلت المكبوح من عنانه ، وإن طالت به الرياضة والانقياد .

فاتفق كثيرا في مساجلات شتى بين كبار الصحابة ، أن بدرت إلى اللسان بوادر العصبية والنبي عليه السلام حاضر ، فلما أشار عمر بقتل أبي سفيان — على خلاف رأي العباس في استبقائه وتألفه — قال العباس : « مهلاً يا عمر ! فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا .. ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف » .

ولما توثب أسيد بن حضير لضرب أعناق المفترين على السيدة عائشة ، ثار به سعد بن عبادة وصاح به : « كذبت لعمر الله ! ما تضرب أعناقهم . أما والله ما قلت هذه المقالة إلا انك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك — الأوس — ما قلت هذا .. »

وقد مات الفاروق وهو يوصي علياً فيقول : « اتق الله يا علي إن وليت شيئاً فلا تحملن بني هاشم على رقاب المسلمين » .. ثم يلتفت إلى عثمان فيقول له : « إتق الله إن وليت شيئاً فلا تحملن بني أمية على رقاب المسلمين » ..

* * *

ومن عجائب الحيل التي تحاول بها الغرائز الانسانية أن تبقي وجودها وتمضي لطيتها ، أن بني أمية انتفعوا من حرب الإسلام للعصبية في تعزيز عصبيتهم ، فجعلوها حجة على بني هاشم أن النبوة لا تحصر الأمر فيهم وأن الأنبياء لا يورثون .. وإذا نهضت هذه الحجة على بني هاشم ، فبنو أمية أقوى المنتفعين بها من بطون عبد مناف !

وقد أوجبت الضرورة قبول المجاملة في هذه المنافسات فترة من الزمن على عهد معاوية بن أبي سفيان ، فكان يلطف القول إلى أبناء علي ويواليهم بالهدايا والمجاملات ، ولكنه كان مضطراً إلى مجاملة آل علي ومضطراً إلى تنقص علي والغض من دعواه . فكان بذلك مضطراً إلى النقيضين في آن .

انه ملك وبايع بالملك ليزيد وهو يعلم أنه غالب بالسلاح والمال ، مغلوب بالسمعة والشعور . فكان الناس يفضلون علياً عليه وهو لا يملك أن يفاضله بقرابة النبي ، ولا بالسابقة إلى الأسلام ، ولا بالعراقة في قريش . فتجنب النسب والسابقة ، وعمد إلى شخص علي في منازعات الخلافة ، فاتهمه بتفرقة الكلمة بين المسلمين ، وأمر بلعنه على المنابر عسى أن يضعف من تلك المكانة التي هو مغلوب بها ويستبقي الدولة التي هو بها غالب .. ولج في ذلك حتى قتل أناساً لم يطيعوه في لعن علي واتهامه ، وأبى أن يجيب الحسن بن علي إلى شرطه الذي أراد به أن يرفع اللعن عن أبيه ... وكان معاوية على حصافته يجهل أنه قد أضاع سمعة وشعوراً من حيث حارب علياً في مقام السمعة والشعور .

وإن مجاملة كهذه التي تحيي الرجل وتغض من قدر أبيه لهي أضعف مجاملة بين متلاقيين ، فضلاً عن خصمين متنافسين قد آل بهما التنافس بعد أجيال إلى مفترق الطريق .

زواج الحسين

وكأنما كانت هذه المنافسة المؤصلة الجذور لا تكفي قصاص التاريخ ، فأضاف اليها أناس من ثقاتهم قصة منافسة أخرى هي وحدها كافية للنفرة بين قلبين متآلفين . وهي قصة زواج الحسين رضي الله عنه بزينب بنت اسحق التي كان يهواها يزيد هوى أدنفه وأعياه .

وكانت زينب هذه على ما قيل أشهر فتيات زمانها بالجمال ، وكانت زوجة لعبد الله بن سلام القرشي والي العراق من قبل معاوية .

فمرض يزيد بحبها وأخفى سره عن أهله ، حتى استخرجه منه بعض خصيان القصر الذين يعينونه على شهواته .. فلما علم أبوه سر مرضه أرسل في طلب عبد الله بن سلام واستدعى إليه أبا هريرة وأبا الدرداء ، فقال لهما ان له ابنة يريد زواجها ولم يرض لها خليلاً غير ابن سلام ، لدينه وفضله وشرفه ورغبة معاوية في تكريمه وتقريبه ، فخدع ابن سلام بما بلغه وفاتح معاوية في خطبة ابنته ، فوكّل معاوية الأمر إلى أبي هريرة ليبلّغها ويستمع جوابها . فكان جوابها المتفق عليه بينها وبين أبيها أنها لا تكره ما اختاروه ، ولكنها تخشى الضر وتشفق أن يسوقها إلى ما يغضب الله . فطلق ابن سلام زوجته واستنجز معاوية وعده .. فإذا هو يلويه به ويقول بلسان ابنته انها توجس من رجل يطلق زوجته وهي ابنة عمه وأجمل نساء عصره ..

* * *

وقيل ان الحسين سمع بهذه المكيدة ، فسأل أبا هريرة أن يذكره عند زينب خاطباً .. فصدع أبو هريرة بأمره وقال لزينب : « إنك لا تعدمين طلاباً خيراً من عبدالله بن سلام » . قالت : « من ؟ » قال : « يزيد بن معاوية والحسين بن علي ، وهما معروفان لديك بأحسن ما تبتغينه في الرجال » .

واستشارته في اختيار أيهما ، فقال : « لا أختار فم أحد على فم قبّله رسول الله ، تضعين شفتيك في موضع شفتيه » .

فقالت : « لا أختار على الحسين بن علي أحداً وهو ريحانة النبي وسيد شباب أهل الجنة » .

فقال معاوية متغيظاً :

أَنْعِمي أمَّ خَالِدٍ   رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدِ

ولم يلبث الحسين أن ردها إلى زوجها قائلاً : « ما أدخلتها في بيتي

وتحت نكاحي رغبة في مالها ولا جمالها ، ولكن أردت إحلالها لبعلها » .

* * *

فإن صحت هذه القصة وهي متواترة في تواريخ الثقات ، فقد تم بها ما نقص من النفرة والخصومة بين الرجلين ، وكان قيام يزيد على الخلافة يوم فصل في هذه الخصومة ، لا يقبل الارجاء ، وكان بينهما كما أسلفنا مفترق طريق ..

الخصمان

موازنة

لخص المقريزي المنافسة التي بين الهاشميين والأمويين في بيتين فقال :

عَبْدُ شَمْسٍ قد أضرَمَتْ لِبَني ها
شِمٍ حَرْباً يَشيبُ مِنْها الوَليدُ
فابنُ حَرْبٍ للمُصطَفَى ، وابنُ هِنْد
لِعَليّ ، وَلِلحُسَين يَزيدُ

وسنعرض في ختام هذا الفصل عرضاً موجزاً لهذه المقابلة المتسلسلة بين أفراد الأسرتين لتحقيق الرأي فيها ، ولكننا نجتزىء هنا بالمقابلة بين الخصمين المتصاولين من هاشم وعبد شمس في شخصي الحسين ويزيد .. فأياً كان الميزان الذي يوزن به كل من الرجلين فلا مراء البتة في خير الرجلين ..

وما من رجل فاز حيث ينبغي أن يخيب ، كما قد فاز يزيد بن معاوية في حربه للحسين ،وما اختصم رجلان كان أحدهما أوضح حقاً وأظهر فضلاً من الحسين في خصومته ليزيد بن معاوية .

والموازنة بين هذين الخصمين هي في بعض وجوهها موازنة بين الهاشميين والأمويين من بداءة الخلاف بين الأسرتين ، وهي موازنة حفظت كفتيها على وضعهما زهاء سبعة قرون ، فلم يظهر في هذه القرون أموي قح ، إلا ظهرت فيه الخصال الأموية المعهودة في القبيلة بأسرها ، ولم يظهر في خلالها

هاشمي قح ، إلا رأيت فيه ملامح من تلك الخصال التي بلغت مثلها الأعلى في محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

والهاشميون والأمويون من أرومة واحدة ترتفع إلى عبد مناف ، ثم إلى قريش في أصلها الأصيل ..

ولكن الأسرتين تختلفان في الأخلاق والأمزجة وان اتحدتا في الأرومة ... فبنو هاشم في الأغلب الأعم مثاليون أريحيون ولا سيما أبناء فاطمة الزهراء، وبنو أمية في الأغلب الأعم عمليون نفعيون ، ولا سيما الاصلاء منهم في عبد شمس من الآباء والأمهات .

وتفسير هذا الاختلاف مع اتحاد الأرومة غير عسير .. فإن الأخوين في البيت الواحد قد يختلفان في الأخلاق والأعمال ، كما يختلف الغريبان من أمتين بعيدتين ، تبعاً لاختلاف سلسلة الميراث في الاصول والفروع ، على ذلك النحو الذي يأذن أحياناً باختلاف الألوان والملامح في نسل واحد، تأخذ كل شعبة منه بناحية من نواحي الوراثة .

* * *

ومن الثابت الذي لا نزاع فيه أن عبد المطلب وأمية كانا يختلفان حتى في الصورة والقامة والملامح ..

وفي نسل أمية شبهة نشير اليها ولا نزيد ، فهي محل الإشارة والمراجعة في هذا المقام ..

دخل دغفل النسابة على معاوية فقال له : « من رأيت من علية قريش ؟ » . فقال : « رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس » . فقال : « صفهما لي » . فقال : « كان عبد المطلب أبيض ، مديد القامة ، حسن الوجه ، في جبينه نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب » . قال : « فصف أمية » قال : « رأيته شيخاً قصيراً ، نحيف

الجسم ضريراً ، يقوده عبده ذكوان » فقال معاوية : « مه ! .. ذاك ابنه أبو عمرو » . فقال دغفل : « ذلك شيء قلتموه بعد وأحدثتموه ... وأما الذي عرفت فهو الذي أخبرتك به » .

وذكر الهيثم بن عدي في كتاب المثالب أن أبا عمرو بن أمية كان عبداً لأمية اسمه ذكوان فاستلحقه ، ونقل أبو الفرج الأصبهاني — وهو من الأمويين — ما تقدم فلم يعرض له بتفنيد ...

ووضح الفرق بين بني هاشم وبني أمية في الخلائق والمناقب في الجاهلية قبل الاسلام . فكان الهاشميون سراعاً إلى النجدة ونصرة الحق والتعاون عليه ... ولم يكن بنو أمية كذلك ... فتخلفوا عن حلف الفضول الذي نهض به بنو هاشم وحلفاؤهم ، وهو الحلف الذي اتفق فيه نخبة من رؤساء قريش « ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا إليه حقه ، وليأخذن أنفسهم بالتآسي في المعاش والتساهم في المال ، وليمنعن القوي من ظلم الضعيف والقاطن من عنف الغريب » واتفقوا على هذا الحلف لأن العاص ابن وائل اشترى بضاعة من رجل زبيدي ولواه بثمنها ، فنصروا الرجل الغريب على القرشي وأعطوه حقه ...

ولما تنافر عبد المطلب وحرب بن أمية إلى نفيل بن عدي ، قضى لعبد المطلب وقال لحرب :

أَبُوكَ مُعَاهِرٌ وأَبُوهُ عَفٌّ وذَادَ الفِيلَ عَنْ بَلَدٍ حَرَامِ

يشير إلى فيل أبرهة الذي أغار به على مكة . وقال عن أمية انه « معاهر » لأنه كان يتعرض للنساء ، وقد ضرب بالسيف مرة لأنه تعرض لامرأة من بني زهرة . وكان له تصرف عجيب في علاقات الزواج والبنوة ، فاستلحق عبده ذكوان وزوجه امرأته في حياته ، ولم يعرف سيد من سادات الجاهلية قط صنع هذا الصنيع .

اختلاف النشأة

وندع اختلاف الطبائع ومغامز النسب ثم ننظر في اختلاف النشأة والعادة

– مع اختلاف الخلقة الجسدية – فنرى أنهما صالحتان لتفسير الفارق بين أبناء هاشم وأبناء عبد شمس بعد جيلين أو ثلاثة أجيال ...

فقد كان بنو هاشم يعملون في الرئاسة الدينية ، وبنو عبد شمس يعملون في التجارة أو الرئاسة السياسية ... وهما ما هما في الجاهلية من الربا والمماكسة والغبن والتطفيف والتزييف ، فلا عجب أن يختلفا هذا الاختلاف بين أخلاق الصراحة وأخلاق المساومة ، وبين وسائل الإيمان ووسائل الحيلة على النجاح .

ويتفق كثيرا في الكهانات الوثنية أن يتصف رؤساء الأديان بصفات الرياء والدهاء والعبث بأحلام الأغرار والجهلاء ، ولكنهم يتصفون بهذه الصفة حين يعلمون الكذب فيما يمارسون من شعائر الكهانة ، ومظاهر العبادة ، ويتخذونها صناعة يرجونها لمنفعتهم أو لما يقدرون فيها من منفعة أولئك الأغرار والجهلاء ..

أما أبناء هاشم فلم يكونوا من طراز أولئك الكهان المشعوذين ، ولا كانوا من المحتالين بالكهانة على خداع أنفسهم وخداع المؤمنين والمصدقين بل كانوا يؤمنون بالبيت ورب البيت ، وبلغ من إيمانهم بدينهم أن عبد المطلب – جد النبي عليه السلام – أوشك أن يذبح ابنه فدية لرب البيت لأنه نذر « لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة » ، ولم يتحلل من نذره حتى استوثق من كلام العرافة بعد رمي القداح ثلاث مرات .

* * * *

والأخلاق المثالية توائم الرئاسة الدينية التي يدين أصحابها بما يدعون إليه ... فإن لم تكن في بني هاشم موروثة من معدن أصيل في الأسرة ، فهي أشبه بسمت الرئاسة الدينية والعقيدة المتمكنة والشعائر المتبعة جيلاً بعد جيل ، وهي أخلق أن تزداد في الأسرة تمكناً بعد ظهور النبوة فيها ، وأن يتلقاها بالوراثة والقدوة أسباط النبي وأقرب الناس إليه ...

وإنك لتنحدر مع أعقاب الذرية في الطالبيين – أبناء علي والزهراء – مائة سنة وأربعمائة سنة ، ثم يبرز لك رجل من رجالها فيخيل اليك أن هذا الزمن الطويل لم يبعد قط بين الفرع وأصله في الخصال والعادات .. كأنما هو بعد أيام معدودات لا بعد المئات وراء المئات من السنين ، ولا تلبث أن تهتف عجبا : إن هذه لصفات علوية لا شك فيها ، لانك تسمع الرجل منهم يتكلم ويجيب من يكلمه ، وتراه يعمل ويجزي من عمل له ، فلا تخطىء في كلامه ولا في عمله تلك الشجاعة والصراحة ، ولا ذلك الذكاء والبلاغ المسكت ، ولا تلك اللوازم التي اشتهر بها علي وآله وتجمعها في كلمتين اثنتين تدلان عليها أوفى دلالة ، وهما : « الفروسية والرياضة » ...

طبع صريح ، ولسان فصيح ، ومتانة في الأسر يستوي فيها الخلق والخلق. ونخوة لا تبالي ما يفوتها من النفع إذا هي استقامت على سنة المروءة والإباء ..

فمن يحيي بن عمر ، إلى علي بن أبي طالب ، خمسة أو ستة أجيال .. ولكن يحيي بن عمر يوصف لك ، فإذا هو صورة مصغرة من صور علي ابن أبي طالب على نحو من الانحاء ، فمن أوصافه التي وصفه بها الكاتب الأموي أبو الفرج الأصبهاني انه كان « رجلاً فارساً ، شجاعاً ، شديد البدن ، مجتمع القلب بعيداً عن رهق الشباب وما يعاب به مثله » .

ومما روي عنه « انه كان مقيما ببغداد ، وكان له عمود حديد ثقيل يكون معه في منزله ، وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه .. فيلوي العمود في عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله يحيي رضي الله عنه » .

ولما ضايقه الأمراء وضنوا عليه بجرايته في بيت المال ، كان يجوع ويعرض عليه الطعام فيأباه ويقول : « إن عشنا أكلنا » .

ثم ثار وبلغت أنباء ثورته بغداد ، فأقبلت عليهم الجموع المحشودة لقتاله ، وأسرع إليه بعض الاعراب فصاح به : « أيها الرجل ، أنت مخدوع ... هذه الخيل قد أقبلت » ... فوثب إلى متن فرسه فجال به ، وحمل على قائد

القوم فضربه ضربة بسيفه على وجهه ... فولّى منهزماً وتبعه أصحابه ، فجلس معهم ساعة وهو لا يبالي ما يكون .

* * *

ولما تكاثرت عليه الجموع وقتل بعد ذلك ، اتهم الناس صاحبه الهيضم العجلي انه كان مدسوساً عليه ، وانه غرر به لينكص عنه عند احتدام القتال . فأقسم الرجل بالطلاق انه لم يكن له في الهزيمة صنع مدبر .. قال : « وانما كان يحيى يحمل وحده ويرجع ، فنهيته عن ذلك فلم يقبل..وحمل مرة كما كان يفعل ، فبصرت عيني به وقد صرع في وسط عسكرهم ، فلما رأيته قتل انصرفت بأصحابي » .

ويحيى الشهيد هذا هو الذي قال ابن الرومي جيميته المشهورة في وصف قتاله ومقتله ، وهي طويلة منها قوله يخاطب أمراء زمانه :

فَلَوْ شَهِدَ الهَيْجَا بِقَلْبِ أَبِيكم
غَدَاةَ الْتَقَى الجَمْعَانِ والخَيْلُ تَمْعَجُ[1]

لأعْطَى يَدَ العَانِي أو ارْتَدَّ هَارِبا
كما ارتَدَّ بالقَاعِ الظَّلِيمُ [2] المُهَيَّجُ

ولكِنَّهُ مَا زَالَ يَغْشَى بِنَحْرِهِ
شَبَا الحَرْبِ حَتَّى قَالَ ذُو الجهْلِ : أَهْوَجُ

وحَاشَى لَهُ مِنْ تِلْكُمُ غَيْرَ أَنَّهُ
أَبَى خطَّة الأمرِ الذي هُوَ أَسْمَجُ

وأين بِهِ عَنْ ذَاكَ ؟ .. لا أين — إنّه
إليه بِعِرْقَيْهِ الزَّكِيَّيْنِ مُحْرَجُ

(١) معج الفرس : أسرع سيره في سهولة .
(٢) ذكر النعام .

كأنّي بِـهِ كالليث يَحمِي عَرينَهُ
وأشبالَــهُ لا يَزْدَهِيهِ المُهَجْهَجُ

كَدَأبِ عَليٍّ في المَوَاطِنِ قَبْلَـهُ
ـ أبي حَسَنٍ ـ والغُصْنُ مِنْ حَيْثُ يَخْرُجُ

كأني أرَاهُ إذْ هَوَى عَنْ جَوَادِهِ
وعُفِّـرَ بالـتّرب الجَبِـينُ المشَجَّـجُ

فَحَبَّ بِهِ جِسْماً إلى الأرض إذْ هَوَى
وحـبَّ بِـهِ رُوحـاً إلى الله تَعْـرُجُ

* * *

وقد أصاب ابن الرومي الوصف والتعليل ، فما كان كل من يحيي ولا أسلافه من قبله إلا علياً صغيراً يتأسى بعلي الكبير ، أو غصناً زاكياً يخرج من دوحته الكبرى ، « والغصن من حيث يخرج » كما قال ، ولولا قوة هذه الطبائع في أساس الأسرة الطالبية لما انحدرت على هذه الصورة الواضحة بعد ستة أجيال . فنحن نرى يحيي بن عمر بعد هذه الأجيال — وهو بعموده الحديدي وجرأته التي لا تتزعزع ويقينه الذي لا يلوي به الاغراء والوعيد — كأنما هو نسخة من جده الكبير الذي يحمل باب خيبر وقد أعيا حمله الرجال ، وينهد لعمرو بن ود وقد تهيبه مئات الأبطال ، ويتوسط الصفوف حاسراً وقد برزوا له بشكة القتال ودروع النزال ...

ولم يكن لبني أمية — على نقيض هذا — نصيب ملحوظ من الخلائق المثالية والشمائل الدينية ، ولا كان ظهور النبوة في أسرة منافسة لأسرتهم من شأنه أن يعزز مناقبها فيهم كما يعتز بها أبناء بيتها وفروع أرومتها . بل لعله كان من شأنه أن يجنح بهم من طرف خفي إلى صفات تقابل تلك الصفات ، ومزايا تعوض لهم ما فاتهم من تلك المزايا . فتمكنت فيهم قبل ظهور النبوة وبعدها خلائقهم العملية التي دربتهم عليها المساومات التجارية وراضهم عليها

مراس المطامع السياسية . فاشتهر أناس من رؤوسهم بمحاسن هذه الخلائق ومعائبها على السواء ، وشاعت عنهم صفات الحلم والصبر والحنكة والدهاء كما شاعت عنهم صفات المراوغة والجشع والاقبال على الترف ومناعم الحياة .

* * *

ولقد تقابل الحسين بن علي ويزيد بن معاوية في تمثيل الأسرتين ، كما تقابلا في كثير من الخلائق والحظوظ ... ولكنهما تفاوتا في تمثيل أسرتيهما كما تفاوتا في غير ذلك من وجوه الخلاف بينهما .. فكان الحسين بن علي نموذجاً لأفضل المزايا الهاشمية ولم يكن يزيد بن معاوية نموذجاً لأفضل المزايا الأموية ، بل كان فيه الكثير من عيوب أسرته ولم يكن له من مناقبها المحمودة إلا القليل .

وليس لنا هنا أن نفصل القول في أحوال كل من الرجلين وخصائص كل من النموذجين ، ولكننا نجتزىء منهما بما يملأ الكفتين في هذا الميزان، وهو ميزان الأريحية والنفعية في حادث كبير من حوادث التاريخ العربي يندر نظيره في جميع التواريخ .

مكانة الحسين

وإذا كانت المعركة كلها هي معركة الأريحية والنفعية ، فالمزية الأولى التي ينبغي توكيدها هنا للحسين بن علي رضي الله عنه هي مزية نسبه الشريف ومكانه من محبة النبي عليه الصلاة والسلام ...

إن المؤرخ الذي يكتب هذا الحادث قد يكون عربياً مسلماً أو يكون من غير العرب والمسلمين ، وقد يؤمن بمحمد أو ينكر محمداً وغيره من الأنبياء .. ولكنه يخطىء دلالة الحوادث التاريخية إذا استخف بهذه المزية التي قلنا انها أحق مزايا الحسين بالتوكيد في الصراع بينه وبين يزيد .

فليس المهم أن يؤمن المؤرخون بقيمة ذلك النسب الشريف في نفوسهم أو قيمته في علوم العلماء وأفكار المفكرين ، ولكنما المهم أن أتباع يزيد كانوا يؤمنون بحق ذلك النسب الشريف في الرعاية والمحبة ، وأنهم مع هذا غلبتهم منافعهم على شعورهم فكانوا من حزب يزيد ولم يكونوا من حزب الحسين ...

فلولا هذه المزية في الحسين لما وضح الصراع بين الأريحية والنفعية عند الفريقين ، ولا كان المصطرعون هنا وهناك من مزاجين مختلفين ، ولا كان للمعركة كلها تلك الدلالة التي كشفت النفس الانسانية في جانبين منها قويين ، يتنازعان حوادث الأمم والأفراد من زمان بعيد ، وسيظلان على نزاعهما هذا إلى زمان بعيد .

* * *

ولقد كان الحسين بن علي بهذه المزية أحب انسان إلى قلوب المسلمين ، وأجدر انسان أن تنعطف إليه القلوب .

كان النبي عليه السلام هو الذي سماه ، وسمى من قبله أخاه .. قال علي رضي الله عنه : « ولما ولد الحسن سميته حرباً فجاء رسول الله فقال : (أروني ابني ما سميتموه ؟) . قلت : (حرب !) . فقال : (بل هو حسن) . فلما ولد الحسين سميته حرباً ، فجاء رسول الله فقال : (أرني ابني .. ما سميتموه ؟) . قلت : (حرب !) فقال : (بل هو حسين) . . »

وذهب إلى الحسين وإخوته كل ما في فؤاد النبي عليه السلام من محبة البنين ، وهو مشوق الفؤاد إلى الذرية من نسله. فكان عليه السلام لا يطيق أذاهما ، ولا يحب أن يستمع إلى بكاء منهما في طفولتهما ، على كثرة ما يبكي الأطفال الصغار . وخرج من بيت عائشة يوماً ، فمرَّ على بيت فاطمة فسمع حسيناً يبكي ، فقال : « ألم تعلمي أن بكاءه يؤذيني ؟ » .

وكان يقول : « ادعي الي ابنيَّ » ... فيشمهما ويضمهما إليه ، ولا يبرح

حتى يضحكهما ويتركهما ضاحكين . وروى أبو هريرة أنه كان عليه السلام يدلع لسانه للحسين ، فيرى الصبي حمرة لسانه فيهش اليه ، وكان عيينة بن بدر ، شهده في بعض هذه المجالس فقال متعجباً : « يصنع هذا بهذا ؟ فوالله ان لي الولد وما قبلته قط ! » قال عليه السلام : « من لا يرحم ، لا يُرحم ! ».

* * *

وخرج ليلة في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً أو حسيناً ، فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجدة الصلاة ، قال راوي الحديث : « فرفعت رأسي فاذا بالصبي على ظهر رسول الله وهو ساجد فرجعت إلى سجودي ، فلما قضى الصلاة قيل يا رسول الله : انك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك .. » قال : « كل ذلك لم يكن ... ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله .. »

وقام عليه السلام يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ... فنزل عليه السلام من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : «صدق الله !. (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) .. نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما » .

* * *

ولا يوجد مسلم في العصر القديم أو العصر الحديث يحب نبيه كما يحب المؤمنون أنبياءهم ، ثم يصغر عنده حساب هذا الحنان الذي غمر به قلبه الكريم سبطيه وأحب الناس اليه .. فبهذا الحنان النبوي قد أصبح الحسين في عداد تلك الشخوص الرمزية التي تتخذ منها الأمم والملل عنواناً للحب ، أو عنواناً للفخر ، أو عنواناً للألم والفداء ... فإذا بها محبوب كل فرد ومفخرته ، وموضع عطفه واشفاقه ، كأنما تمت اليه وحده بصلة القرابة أو بصلة المودة ..

وقد بلغ الحسين بهذا الحنان — مع الزمن — مبلغه من تلك المكانة الرمزية

فأوشك بعض واصفيه أن يلحقه في حمله وولادته ورضاعه بمواليد المعجزات. فقال بعضهم : « لم يوجد مولود لستة أشهر وعاش إلا الحسين وعيسى ابن مريم ». وقال آخرون انه رضي الله عنه لم ترضعه أمه ولم ترضعه أنثى « واعتلت فاطمة لما ولدت الحسين وجف لبنها فطلب رسول الله مرضعة فلم يجد ، فكان يأتيه فيلقمه إبهامه فيمصه ويجعل الله في ابهام رسوله رزقاً يغذيه، ففعل ذلك أربعين يوماً وليلة، فأنبت الله سبحانه وتعالى لحمه من لحم رسول الله .. »

وروي عنه غير ذلك كثير من الأساطير التي تحيط بها الأمم تلك الشخوص الرمزية التي تعزها وتغليها فتلتمس لها مولداً غير المولد المألوف ، والنشأة المعهودة ، وتلحقها أو توشك أن تلحقها بالخوارق والمعجزات ...

* * *

ولقد كانت حقيقة الحسين الشخصية كفؤاً لتلك الصورة الرمزية التي نسجتها حوله الأجيال المتعاقبة قبل أن يرى منه أبناء جيله غير تلك الحقيقة .

فكان ملء العين والقلب في خلق وخلق ، وفي أدب وسيرة ، وكانت فيه مشابه من جده وأبيه ... الا أنه كان في شدته أقرب إلى أبيه . قال رضي الله عنه مشيراً إلى الحسن : « ان ابني هذا سيخرج من هذا الأمر ، أشبه أهلي بي الحسين » . واتفق بعض الثقات على أن « الغالب على الحسن الحلم والأناة كالنبي ، وعلى الحسين الشدة كعلي » .

صفات الحسين

وقد تعلم في صباه خير ما يتعلمه أبناء زمانه من فنون العلم والأدب والفروسية ، واليه يرفع كثير من المتصوفة وحكماء الدين نصوصهم التي يعولون عليها ويردونها إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وقد أوتي ملكة الخطابة من طلاقة لسان وحسن بيان وغنة صوت وجمال

ايماء . ومن كلامه المرتجل قوله في توديع أبي ذر وقد أخرجه عثمان من المدينة بعد أن أخرجه معاوية من الشام : « يا عماه ! إن الله قادر أن يغير ما قد ترى . والله كل يوم في شأن . وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك ، وما أغناك عما منعوك وأحوجهم إلى ما منعتهم ، فاسأل الله الصبر والنصر ، واستعذ به من الجشع والجزع ، فإن الصبر من الدين والكرم ، وإن الجشع لا يقدم رزقاً والجزع لا يؤخر أجلاً » .

وكان يومئذ في نحو الثلاثين من عمره فكأنما أودع هذه الكلمات شعار حياته كاملة منذ أدرك الدنيا إلى أن فارقها في مصرع كربلاء .

* * *

وتواترت الروايات بقوله الشعر في أغراض الحكمة وبعض المناسبات البيتية ، ومن ذلك هذه الأبيات :

اغْنَ عن المخْلُوقِ بالخَالِقِ
تَغْنَ عَنِ الكَاذِبِ والصَادِقِ
واسْتَرْزِقِ الرّحْمنَ مِن فَضْلِهِ
فليسَ غَيرِ الله مِن رَازقِ
مَنْ ظَنَّ أنّ النَاسَ يغْنُونَهُ
فلَيس بالرحْمنِ بالواثِقِ

ومنه هذان البيتان في زوجته وابنته :

لَعَمْرُكَ إنني لأُحِبُّ دَاراً
تَكونُ بِهَا سُكَيْنَةُ والرَّبَابُ
أحبهما وأبذلُ كلَّ مَالي
ولَيس لِعَاتِبٍ عِنْدي عِتَابُ

وهما — سواء صحت نسبتهما اليه أو لم تصح — معبران عن خلقه في

بيته وبين أهله ، فقد كان من أشد الآباء حدباً على الأبناء وأشد الأزواج عطفاً على النساء ، ومن وفاء زوجاته بعد مماته أن الرباب هذه التي ذكرت في البيتين السابقين خطبها أشراف قريش بعد مقتله فقالت : « ما كنت لأتخذ حما بعد رسول الله » ... وبقيت سنة لا يظلها سقف حتى فنيت وماتت ، وهي لا تفتر عن بكائه والحزن عليه ..

خلق كريم

وقد سنّ الحسين لمن بعده سنّة في آداب الأسرة تليق بالبيت الذي نشأ فيه ووكل اليه أن يرعى له حقه ويوجب على الناس مهابته وتوقيره، فهو على فضله وذكائه وشجاعته ورجحانه على أخيه الحسن في مناقب كثيرة ومآثر عدة كان يستمع إلى رأي الحسن ولا يسوؤه بالمراجعة أو المخالفة . فلما همّ الحسن بالتسليم لمعاوية كان ذلك على غير رضى من الحسين . فلم يوافقه وأشار عليه بالقتال ، فغضب الحسن وقال له : « والله لقد هممت أن أسجنك في بيت وأطين عليك بابه ، حتى أقضي بشأني هذا وأفرغ منه ثم أخرجك .. »

فلم يراجعه الحسين بعدها وآثر الطاعة والسكوت ...

* * *

ومن رعايته لسنن الأسرة ووصايا الأبوة أنه ركبه دين فساومه معاوية بمائتي ألف دينار أو بمبلغ جسيم من المال على عين « أبي بيزر » فأبى أن يبيعها مع حاجته إلى بعض ما عرض عليه — لأن أباه تصدق بمائها لفقراء المدينة ، ولو أنه باعها لوقفها معاوية على أولئك الفقراء .

وقد أخذ نفسه بسمت الوقار في رعاية أسرته ورعاية الناس عامة ... فهابه الناس وعرف معاوية عنه هذه المهابة فوصفه لرجل من قريش ذاهب إلى المدينة فقال : « إذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير ، فتلك حلقة أبي عبد الله مؤتزراً إلى أنصاف ساقيه .. »

ولم يذكر عنه قط أنه كان يواجه الناس بتخطئة وهو يعلمهم ويبصرهم بشؤون دينهم ، إلا أن تكون مكابرة أو لجاجة فله في جواب ذلك أشباه تلك القوارص التي كانت تؤثر عن أبيه .

وما لم تكن مكابرة أو لجاجة فهو يحتال على تصحيح الخطأ حيلة لا غضاضة فيها على المخطئين .

فمن آدابه وآداب أخيه في ذلك أنهما رأيا اعرابياً يخفف الوضوء والصلاة فلم يشاءا أن يجبهاه بغلطه وقالا له : « نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بأمر الوضوء والصلاة منا ، فنتوضأ ونصلي عندك ، فإن كان عندنا قصور تعلمنا » . فتنبه الشيخ إلى غلطه دون أن يأنف من تنبيههما إليه . ومر يوماً بمساكين يأكلون فدعوه إلى الطعام على عادة العرب ، فنزل وأكل معهم ثم قال لهم : « قد أجبتكم فأجيبوني » ودعاهم إلى الغداء في بيته .

* * *

ورويت الغرائب في اختبار حذقه بالفقه واللغة كما رويت أمثال هذه الغرائب في امتحان قدرة أبيه عليهما السلام .. فقيل ان اعرابياً دخل المسجد الحرام فوقف على الحسن رضي الله عنه وحوله حلقة من مريديه فسأل عنه ، فقال لما عرفوه به : « إياه أردت ... جئت لأطارحه الكلام وأسأله عن عويص العربية » . فقال له بعض جلسائه : « إن كنت جئت لهذا فابدأ بذلك الشاب » . وأومأ إلى الحسين عليه السلام ، فلما سلم على الحسين وسأله عن حاجته قال : « اني جئتك من الهرقل والجعلل والأيتم والهمهم » فتبسم الحسين وقال :

— يا اعرابي ! .. لقد تكلمت بكلام ما يعقله إلا العالمون .

فأجابه الأعرابي قائلاً يريد الاغراب : وأقول أكثر من هذا ، فهل أنت مجيبي على قدر كلامي ؟ ... ثم أذن له الحسين فأنشد أبياتاً تسعة ، منها :

هَفَا قَلْبِي إلى اللَّهْوِ وَقَدْ ودَّعَ شَرْخَيْه

فأجابه الحسين مرتجلاً بتسعة أبيات في معناها ومن وزنها وقوافيها ، يقول منها :

فَمَـــا رَسم شَجَانِي قَـــدْ مَحَتْ آيَــاتُ رَسْمَيَــــهِ
سَفُورٌ دَرَجَــت ذَيلَـــينِ فــي بوغــاءِ قَاعَيَـــهِ
هَتُوفٌ مُرْجِـــفٌ تَتْــرَى عــلى تَلْبِيــدِ ثَوْبَيَـــهِ

إلى آخر الأبيات ... ثم فسر له ما أراد من الهرقل وهو ملك الروم ، والجعلل وهو قصار النخل ، والأيثم وهو بعض النبات ، والهمهم وهو القليب الغزير الماء ، وفي هذه الكلمات أوصاف البلاد التي جاء منها وإشارة إليها ..

فقال الاعرابي : « ما رأيت كاليوم أحسن من هذا الغلام كلاماً ، وأذرب لساناً ، ولا أفصح منه منطقاً » .

وتلك رواية من روايات على منوالها ، إن لم تنبيء بما وقع فهي منبئة بما تداوله الناس من شهرة الحسين في صباه الباكر بالعلم والفصاحة ...

ولخبرته بالكلام وشهرته بالفصاحة ، كان الشعراء يرتادونه وبهم من الطمع في إصغائه أكبر من طمعهم في عطائه... ولكنه على هذا كان يجري معهم على شرعة ذوي الأقدار والأخطار من أنداده ، فيبذل لهم الجوائز ما وسعه البذل ويؤثرهم على نفسه في خصاصة الحال . وقد لامه أخوه الحسن في ذلك فكتب إليه « إن خير المال ما وقي به العرض » إلا أنه في الواقع لم يكن يعطي لوقاية العرض وكفى ، ولكنه كان يعطي من قصده من ذوي الحاجات ولا يخيب رجاء لمن استعان به على مروءة .

وفاء وشجاعة

وقد اشتهر مع الجود بصفتين من أكرم الصفات الانسانية وأليقهما ببيته وشرفه ، وهما الوفاء والشجاعة .

فمن وفائه أنه أبى الخروج على معاوية بعد وفاة أخيه الحسن لأنه عاهد معاوية على المسالمة ، وقال لأنصاره الذين حرضوه على خلع معاوية أن بينه وبين الرجل عهداً وعقداً لا يجوز له نقضه حتى تمضي المدة ، وكان معاوية يعلم وفاءه وجوده معاً ، فقال لصحبه يوماً وقد أرسل الهدايا إلى وجوه المدينة من كسي وطيب وصلات : « إن شئتم أنبأناكم بما يكون من القوم .. أما الحسن فلعله ينيل نساءه شيئا من الطيب ويهب ما بقي من حضره ولا ينتظر غائباً ، وأما الحسين فيبدأ بأيتام من قتل مع أبيه بصفين فإن بقي شيء نحر به الجزر وسقى به اللبن .. »

وشجاعة الحسين صفة لا تستغرب منه لأنها « الشيء من معدنه » كما قيل . وهي فضيلة ورثها عن الآباء وأورثها الأبناء بعده ، وقد شهد الحروب في افريقية الشمالية وطبرستان والقسطنطينية ، وحضر مع أبيه وقائعه جميعاً من الجمل إلى صفين . وليس في بني الإنسان من هو أشجع قلباً ممن أقدم على ما أقدم عليه الحسين في يوم كربلاء .

وقد تربى للشجاعة كما تلقاها في الدم بالوراثة ، فتعلم فنون الفروسية كركوب الخيل والمصارعة والعدو من صباه ولم تفته ألعاب الرياضة التي تنم بها مرانة الجسم على الحركة والنشاط ... ومنها لعبة تشبه « الجولف » عند الأوروبيين كانوا يسمونها المداحي : جمع مدحاة ، وهي أحجار مثل القرصة يحفرون في الأرض حفرة ويرسلون تلك الأحجار ، فمن وقع حجره في الحفيرة فهو الغالب .

* * * *

أما عاداته في معيشته فكان ملاكها لطف الحس وجمال الذوق والقصد في تناول كل مباح . كان يحب الطيب والبخور ، ويأنق للزهر والريحان .. وروى أنس بن مالك انه كان عنده فدخلت عليه جارية بيدها طاقة من ريحان فحيته بها . فقال لها : « أنت حرة لوجه الله تعالى » فسأله أنس متعجباً :

« جارية تجيئك بطاقة ريحان فتعتقها ؟ » . قال : « كذا أدبنا الله ... قال تبارك وتعالى : (وإذا حُيِّيتُم بتَحيةٍ فَحَيّوا بأحْسَنَ منْها أو رُدُّوهَا) .. وكان أحسن منها عتقها » .

وكان يميل للفكاهة ويأنس في أوقات راحته لأحاديث أشعب وأضاحيكه ، ولكنه على شيوع الترف في عصره لم يكن يقارب منه إلا ما كان يجمل بمثله .. حتى تحدث المتحدثون أنه لا يعرف رائحة الشراب ..

وكانت له صلوات يؤديها غير الصلوات الخمس ، وأيام من الشهر يصوم نهارها ويقوم ليلها ..

وقد عاش سبعاً وخمسين سنة بالحساب الهجري ، وله من الأعداء من يصدقون ويكذبون ... فلم يعبه أحد منهم بمعابة ولم يملك أحد منهم أن ينكر ما ذاع من فضله ، حتى حار معاوية بعيبه حين استعظم جلساؤه خطاب الحسين له . واقترحوا عليه أن يكتب اليه بما يصغره في نفسه . فقال إنه كان يجد ما يقوله في علي ، ولكن لا يجد ما يقوله في حسين .

تلك جملة القول في سيرة أحد الخصمين ..

خلق يزيد

ويقف خصمه أمامه موقف المقابلة والمناقضة لا موقف المقارنة والمعادلة في معظم خلائقه وعاداته وملكاته وأعماله .

فيزيد بن معاوية عريق النسب في بني عبد مناف ثم في قريش ، ولكن الأصدقاء والخصوم والمادحين والقادحين متفقون على وصف الخلائق التي اشتهر بها أبناء هذا الفرع من عبد مناف . وأشهرها الأثرة ، وأحمد ما يحمد منها أنها تنفع الناس من طريق النفع لأصحابها . وندر من وجوه الأمويين في الجاهلية أو الاسلام من اشتهر بخصلة تجلب إلى صاحبها ضرراً أو مشقة في سبيل نفع الناس ..

وبيت أبي سفيان بيت سيادة مرعية لا مراء فيها ...

ولكن الحقيقة التي ينبغي أن نذكرها في هذا المقام أن معاوية بن أبي سفيان لم يكن ليرث شيئا من هذه السيادة التي كان قوامها كله وفرة المال ، لأن أبا سفيان على ما يظهر قد أضاع ماله في حروب الاسلام ولم يكن له من الوفر ما يبقى على كثرة الورّاث . وروي أن امرأة استشارت النبي عليه السلام في التزوج بمعاوية فقال لها : « إنه صعلوك ! .. »

كذلك ينبغي أن نذكر حقيقة أخرى في هذا المقام ، وهي أن معاوية لم يكن من كتّاب الوحي كما أشاع خدام دولته بعد صدر الإسلام ، ولكنه كان يكتب للنبي عليه السلام في عامة الحوائج وفي إثبات ما يجبى من الصدقات وما يقسم في أربابها ، ولم يسمع عن ثقة قط أنه كتب للنبي شيئاً من آيات القرآن الكريم .

وعرفت لمعاوية خصال محمودة من خصال الجد والسيادة كالوقار والحلم والصبر والدهاء . ولكنه على هذا لا يملك حلمه في فلتات تميد بالملك الراسخ ، ومنها قتله حجر بن عدي وستة من أصحابه لأنهم كانوا ينكرون سب علي وشيعته ، فما زال بقية حياته يندم على هذه الفعلة ويقول : « ما قتلت أحداً إلا وأنا أعرف فيم قتلته ما خلا حجراً فإني لا أعرف بأي ذنب قتلته .. »

وأم يزيد هي ميسون بنت مجدل الكلبية من كرائم بني كلب المعرقات في النسب ، وهي التي كرهت العيش مع معاوية في دمشق وقالت تتشوق إلى عيش البادية :

لَلُبسُ عَبَاءَةٍ وتَقَرَّ عَيْني ... أَحَبُّ إليَّ مِنْ لِبْسِ الشّفُوفِ
وبَيْتٌ تَخْفُقُ الأرواحُ فيه ... أَحَبُّ إليَّ مِنْ قَصْرٍ مُنِيفِ ..

ومن هذه الأبيات قولها :

وخِرق مِنْ بَنِي عَمّي فَقِيرٌ ... أَحَبُّ إليَّ مِنْ عِلْجٍ عَنِيفِ !.

فأرسلها وابنها يزيد إلى باديتها ، فنشأ يزيد مع أمه بعيداً عن أبيه ..

* * *

وقد أفاد من هذه النشأة البدوية بعض أشياء تنفع الأقوياء ، ولكنها على ما هو مألوف في أعقاب السلالات القوية تضيرهم وتجهز على ما بقي من العزيمة فيهم ..

فكان ما استفاده من بادية بني كليب بلاغة الفصحى ، وحب الصيد ، وركوب الخيل ، ورياضة الحيوانات ولا سيما الكلاب .

وهذه صفات في الرجل القوي تزينه وتشحذ قواه ، ولكنها في أعقاب السلالات – أو عكارة البيت كما يقال بين العامة – مدعاة إلى الاغراق في اللهو والولع بالفراغ لأنها هي عنده كل شيء وليست مدداً لغيرها من كبار الهمم و عظائم الهموم .

وهكذا انقلبت تلك الصفات في يزيد من المزية إلى النقيصة .. فكان كلفه بالشعر الفصيح مغرياً له بمعاشرة الشعراء والندماء في مجالس الشراب ، وكان ولعه بالصيد شاغلاً يحجبه عن شواغل الملك والسياسة ، وكانت رياضته للحيوانات مهزلة تلحقه بأصحاب البطالة من القرادين والفهادين ، فكان له قرد يدعوه « أبا قيس » يلبسه الحرير ويطرز لباسه بالذهب والفضة ويحضره مجالس الشراب ، ويركبه أتاناً في السباق ويحرص على أن يراه سابقاً مجلياً على الجياد ، وفي ذلك يقول يزيد كما جاء في بعض الروايات :

تَمَسَّكْ أَبَا قَيْسٍ بِفَضْلِ عِنَانِهَا
فَلَيْسَ عَلَيْهَا إنْ سَقَطتَ ضَمَانُ

أَلاَ مَنْ رَأَى القِردَ الذي سَبَقَتْ بِهِ
جيـاد أَمـير المؤمنـين أَتـانُ

وقد يكون عبد الله بن حنظلة مبالغاً في المذمة حين قال فيما نسب إليه :

« والله ما خرجنا مع يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء . إن رجلاً ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة ، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسنا » .

* * *

ولكن الروايات لم تجمع على شيء كإجماعها على إدمانه الخمر ، وشغفه باللذات ، وتوانيه عن العظائم .. وقد مات بذات الجنب وهو لما يتجاوز السابعة والثلاثين ، ولعلها إصابة الكبد من إدمان الشراب والافراط في اللذات . ولا يعقل أن يكون هذا كله اختلاقاً واختراعاً من الأعداء لأن الناس لم يختلقوا مثل ذلك على أبيه أو على عمرو بن العاص ، وهما بغيضان أشد البغض إلى أعداء الأمويين .. ولأن الذين حاولوا ستره من خدام دولته لم يحاولوا الثناء على مناقب فيه تحل عندهم محل مساوئه وعيوبه ، كأن الاجتراء على مثل هذا الثناء من وراء الحسبان .

ولم يكن هذا التخلف في يزيد من هزال في البنية أو سقم اعتراه كذلك السقم الذي يعتري أحيانا بقايا السلالات التي تهم بالانقراض والدثور ، ولكنه كان هزالاً في الأخلاق وسقماً في الطوية..قعد به عن العظائم مع وثوق بنيانه وضخامة جثمانه واتصافه ببعض الصفات الجسدية التي تزيد في وجاهة الأمراء كالوسامة وارتفاع القامة . وقد أصيب في صباه بمرض خطير — وهو الجدري — بقيت آثاره في وجهه إلى آخر عمره ، ولكنه مرض كان يشيع في البادية ولم يكن من دأبه أن يقعد بكل من أصيب به عن الطموح والكفاح .

* * *

وعلى فرط ولعه بالطراد حين يكون الطراد لهواً وفراغاً ، كانت همته الوانية تفتر به عن الطراد حين تتسابق إليه عزائم الفرسان في ميادين القتال ، ولو كان دفاعاً عن دينه ودنياه .

فلما سيّر أبوه جيش سفيان بن عوف إلى القسطنطينية لغزو الروم ودفاعاً عن بلاد الإسلام – أو بلاد الدولة الأموية – تثاقل وتمارض حتى رحل الجيش وشاع بعد ذلك أنه امتحن في طريقه ببلاء المرض والجوع ، فقال يزيد :

مَا أن أُبَالي بِما لاَقَتْ جُموعُهم
بالفرقدُونة مِن حُمّى ومن مُومِ
إذا اتكأتُ عَلى الأنماطِ مُرْتَفِقاً
بديرِ مرانٍ عِنْدي أم كُلْثومِ

فأقسم أبوه حين بلغه هذان البيتان ليلحقن بالجيش ليدرأ عنه عار النكول والشماتة بجيش المسلمين بعد شيوع مقاله في خلواته ...

* * *

ومن أعجب عجائب المناقضة التي تمت في كل شيء بين الحسين ويزيد أن يزيد لم يختص بمزية محمودة تقابل نظائرها من مزايا الحسين ، حتى في تلك الخصال التي تأتي بها المصادفة ولا فضل فيها لأصحابها ومنها مزية السن وسابقة الميلاد ...

فلما تنازعا البيعة كان الحسين في السابعة والخمسين مكتمل القوة ناضج العقل وفيّ المعرفة بالعلم والتجربة ، وكان يزيد في نحو الرابعة والثلاثين لم يمارس من شئون الرعاة ولا الرعية ما ينفعه بين هؤلاء أو هؤلاء .

ومزية السن هذه قد يطول فيها الأخذ والرد بين أبناء العصور الحديثة ، ولكنها كانت تقطع القول في أمة العرب حيث نشأ الأسلاف والأخلاف على طاعة الشيوخ ورعاية الأعمار ... وهذا على أن السابعة والخمسين ليست بالسن التي تعلو بصاحبها في الكبر حتى تسلبه مزية الفتوة ومضاء العزيمة ...

كذلك لا يقال إن « الوراثة المشروعة » في الممالك كان لها شأن يرجح

بيزيد على الحسين في ميزان العروبة والاسلام . فقد كان توريث معاوية ابنه على غير وصية معروفة من السلف بدعة هرقلية كما سماها المسلمون في ذلك الزمان ، ولم يكن معقولاً أن العرب في صدر الإسلام يوجبون طاعة يزيد لأنه ابن معاوية وهم لم يوجبوا طاعة آل النبي في أمر الخلافة لأنهم قرابة محمد عليه السلام .

فقد شاءت عجائب التاريخ إذن أن تقيم بين ذينك الخصمين قضية تتضح فيها النزعة النفعية على نحو لم تتضحه قط في أمثالها من القضايا ، وقد وجب أن ينخذل يزيد كل الخذلان لولا النزعة النفعية التي أعانته وهو غير صالح لأن يستعين بها بغير أعوان من بطانته وأهله . ولئن كان في تلك النزعة النفعية مسحة تشوبها من غير معدنها الوضيع لتكونن هي عصبية القبيلة من بني أمية ، وهي هنا نزعة مواربة تعارض الإيمان الصريح ولا تسلم من الختل والتلبيس .

* * *

لهذا شك بعض الناس في إسلام ذلك الجيل من الأمويين ، وهو شك لا نرتضيه من وجهة الدلائل التاريخية المتفق عليها . فقد يخطر لنا الشك في صدق دين أبي سفيان لأن أخباره في الإسلام تحتمل التأويلين ، ولكن معاوية كان يؤدي الفرائض ويتبرك بتراث النبي ويوصي أن تدفن معه أظافره التي حفظها إلى يوم وفاته . وليس بيسير علينا أن نفهم كيف ينشأ معاوية الثاني على تلك التقوى وذلك الصلاح وهو ناشىء في بيت مدخول الإسلام ، يتصارح أهله أحياناً بما ينم على الكفر به أو التردد فيه .

إنما هي الأثرة ، ثم الخرق في السياسة ، ثم التمادي في الخرق مع استثارة العناد والعداء .. وفي تلك الأثرة ولواحقها ما ينشىء المقابلة من أحد طرفيها في هذه الخصومة ، ويتم المناظرة في شتى بواعثها بين ذينك الخصمين الخالدين ، ونعني بهما هنا المثالية والواقعية ، وما الحسين واليزيد إلا المثالان الشاخصان منهما للعيان ..

أعوان الفريقين

رجال المعسكرين

كان الحسين في طريقه إلى الكوفة — يوم دعاه شيعته إليها — يسأل من يلقاهم عن أحوال الناس فينبئونه عن موقفهم بينه وبين بني أمية ، وقلما اختلفوا في الجواب ..

سأل الفرزدق وهو خارج من مكة — والفرزدق مشهور بالتشيع لآل البيت — فقال له : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء » .

وقال له مجمع بن عبيد العامري : « أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم ألب واحد عليك ، وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوى إليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك » .

وقد أصاب الفرزدق وأصاب مجمع بن عبيد ، فإن الناس جميعاً كانوا بأهوائهم وافئدتهم مع الحسين بن علي ما لم تكن لهم منفعة موصولة بملك بني أمية ، فهم إذن عليه بالسيوف التي تشهرها الأيدي دون القلوب .

وقد « أعظمت الرشوة » للرؤساء وأعظمت لهم من بعدها الوعود والآمال ، فعلموا أن دوام نعمتهم من دوام ملك بني أمية ..

فأما الرؤساء الذين كانت لهم مكانتهم بمعزل عن الملك القائم ، فقد كانوا ينصرون حسيناً ولا ينصرون الأمويين .. أو كانوا يصانعون الأمويين

ولا يبلغون بالمصانعة أن يشهروا الحرب على الحسين .

ومن هؤلاء هانىء بن عروة من كبار الزعماء في قبائل كندة ، وشريك ابن الأعور ، وسليمان بن صرد الخزاعي ، وكلاهما من ذوي الشرف والدين .

بل كان من العاملين لبني أمية من يخزه ضميره إذا بلغ العداء للحسين أشده ، فيترك معسكر بني أمية ليلوذ بالمعسكر الذي كتب عليه الموت والبلاء . كما فعل الحر بن يزيد الرياحي في كربلاء وقد رأى القوم يهمون بقتل الحسين ولا يقنعون بحصاره . فسأل عمر بن سعد قائد الجيش : « أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ » . فلما قال « نعم » ترك الجيش الأموي وذهب يقترب من الحسين حتى داناه فقال له : « جعلت فداك يا ابن رسول الله . أنا صاحبك حبستك عن الرجوع وجعجعت بك في هذا المكان ، وما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ، ووالله لو علمت أنهم ينتهون بك إلى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبت ، واني تائب إلى الله مما صنعت ، فهل ترى لي من توبة ؟ » .

فقبل الحسين توبته وجعل الرجل يقاتل من ساعتها حتى قتل ، وآخر كلمة على لسانه فاه بها : « السلام عليك يا أبا عبد الله ! » .

* * *

فمجمل ما يقال على التحقيق انه لم يكن في معسكر يزيد رجل يعينه على الحسين إلا وهو طامع في مال ، مستميت في طمعه استماتة من يهدر الحرمات ولا يبالي بشيء منها في سبيل الحطام .

ولقد كان لمعاوية مشيرون من ذوي الرأي كعمرو بن العاص ، والمغيرة ابن شعبة ، وزياد بن أبيه ، وأضرابهم من أولئك الدهاة الذين يسميهم التاريخ أنصار دول وبناة عروش ...

وكان لهم من سمعة معاوية وذرائعه شعار يدارون به المطامع ويتحللون من التأثيم ..

لكن هؤلاء بادوا جميعاً في حياة معاوية ، ولم يبق ليزيد مشير واحد ممن نسميهم بأنصار الدول وبناة العروش ، وانما بقيت له شرذمة على غراره أصدق ما توصف به أنها شرذمة جلادين ، يقتلون من أمروا بقتله ويقبضون الأجر فرحين ..

فكان أعوان معاوية ساسة وذوي مشورة ...

وكان أعوان يزيد جلادين وكلاب طراد في صيد كبير ..

وكانوا في خلائقهم البدنية على المثال الذي يعهد في هذه الطغمة من الناس ، ونعني به مثال المسخاء المشوهين .. أولئك الذين تمتلىء صدورهم بالحقد على أبناء آدم ولا سيما من كان منهم على سواء الخلق وحسن الأحدوثة ، فإذا بهم يفرغون حقدهم في عدائه وإن لم ينتفعوا بأجر أو غنيمة ، فإذا انتفعوا بالأجر والغنيمة فذلك هو حقد الضراوة الذي لا تعرف له حدود ..

وشر هؤلاء جميعاً هم شمر بن ذي الجوشن ، ومسلم بن عقبة ، وعبيد الله بن زياد . ويلحق بزمرتهم على مثال قريب من مثالهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ...

فشمر بن ذي الجوشن كان أبرص كريه المنظر قبيح الصورة ، وكان يصطنع المذهب الخارجي ليجعله حجة يحارب بها علياً وأبناءه ، ولكنه لا يتخذه حجة ليحارب بها معاوية وأبناءه .. كأنه يتخذ الدين حجة للحقد ، ثم ينسى الدين والحقد في حضرة المال ..

* * *

ومسلم بن عقبة مخلوق مسمم الطبيعة في مسلاخ انسان .

« وكان أعور أمغر ثائر الرأس ، كأنما يقلع رجليه من وحل إذا مشى » .

وقد بلغ من ضراوته بالشر وهو شيخ فان مريض ، أنه أباح المدينة في حرم النبي عليه السلام ثلاثة أيام ، واستعرض أهلها بالسيف جزراً كما يجزر القصاب الغنم حتى ساخت الأقدام في الدم ، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر ، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على أنه عبد قن لأمير المؤمنين .. !

وانطلق جنده في المدينة إلى جوار قبر النبي يأخذون الأموال ويفسقون بالنساء ، حتى بلغ القتلى في تقدير الزهري سبعمائة من وجوه الناس وعشرة آلاف من الموالي ، ثم كتب إلى يزيد يصف له ما فعل وصف الظافر المتهلل ، فقال بعد كلام طويل : « فأدخلنا الخيل عليهم ... فما صليت الظهر أصلح الله أمير المؤمنين إلا في مسجدهم ! ... بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم .. وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم واتبعنا مدبرهم وأجهزنا على جريحهم وانتهبناها ثلاثاً كما قال أمير المؤمنين أعز الله نصره ، وجعلت دور بني الشهيد عثمان بن عفان في حرز وأمان ، والحمد لله الذي شفا صدري من قتل أهل الخلاف القديم والنفاق العظيم ، فطالما عتوا وقديماً ما طغوا . أكتب هذا إلى أمير المؤمنين وأنا في منزل سعيد بن العاص مدنفاً مريضاً ما أراني إلا لما بي ... فما كنت أبالي متى مت بعد يومي هذا ... »

* * *

وكل هذا الحقد المتأجج في هذه الطوية العفنة إنما هو الحقد في طبائع المسخاء الشائهين ... يوهم نفسه انه الحقد من ثأر عثمان أو من خروج قوم على ملك يزيد ...

وكان عبيد الله بن زياد متهم النسب في قريش ، لأن أباه زياداً كان مجهول الأب فكانوا يسمونه زياد بن أبيه . ثم ألحقه معاوية بأبي سفيان لان أبا سفيان ذكر بعد نبوغ زياد ، انه كان قد سكر بالطائف ليلة فالتمس بغياً فجاءوه بجارية تدعى سمية ، فقالت له بعد مولد زياد أنها حملت به في تلك الليلة ..

وكانت أم عبيد الله جارية مجوسية تدعى مرجانة فكانوا يعيرونه بها وينسبونه إليها ، ومن عوارض المسخ فيه – وهي عوارض لها في نفوس العرب دخلة تورث الضغن والمهانة – انه كان ألكن اللسان لا يقيم نطق الحروف العربية ..

فكان إذا عاب الحروري من الخوارج ، قال : « هروري » فيضحك سامعوه ، وأراد مرة أن يقول أشهروا سيوفكم ، فقال افتحوا سيوفكم .. فهجاه يزيد بن مفرغ قائلاً :

ويومَ فَتَحْتَ سَيْفَكَ من بعيـد
أضعت وكلّ أمْـرِكَ للضّيَـاعِ

ولم يكن أهون لديه من قطع الأيدي والأرجل والأمر بالقتل في ساعة الغضب لشبهة ولغير شبهة . ففي ذلك يقول مسلم بن عقيل وهو صادق مؤيد بالأمثال والمثلات : « ويقتل النفس التي حرم الله قتلها على الغضب وسوء الظن ، وهو يلهو ويلعب كأن لم يصنع شيئاً » .

وقد كانت هذه الضراوة على أعنفها وأسوئها يوم تصدى عبيدالله بن زياد لمنازلة الحسين ، لأنه كان يومئذ في شرة الشباب لم يتجاوز الثامنة والعشرين ، وكان يزيد يبغضه ويبغض أباه لأنه كان قد نصح لمعاوية بالتمهل في الدعوة إلى بيعة يزيد ، فكان عبيد الله من ثم حريصاً على دفع الشبهة والغلو في إثبات الولاء للعهد الجديد ...

والذين لم يمسخوا في جبلتهم وتكوينهم هذا المسخ من أعوان يزيد بن معاوية ، كان الطمع في المناصب والأموال واللذات قد بلغ ما يبلغه المسخ من تحويل الطبائع وطمس البصائر ومغالطة النفوس في الحقائق ..

* * *

ومن هذا القبيل ، عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي أطاع عبيد الله

ابن زياد في وقعة كربلاء ولم يعدل بتلك الوقعة عن نهايتها المشئومة ، وقد كان العدول بها عن تلك النهاية في يديه .

فقد أغرى عمر بن سعد بولاية الري ، وهي درة التاج في ملك الأكاسرة الأقدمين . وكان يتطلع إليها منذ فتحها أبوه القائد النبيل العزوف ، وينسب إليه أنه قال وهو يراود نفسه على مقاتلة الحسين :

فوالله ما أدري وإني لحائــــرٌ ... أفكر في أمْرِي على خَطَرَين
أأترُكُ مُلْــكَ الريِّ مُنْيَـــتي ... أم أرجعُ مأثوماً بقتلِ حُسَيْنِ
وفي قتْلِهِ النارُ التي ليْسَ دُونها ... حجابٌ ، ومُلكُ الريِّ قرةُ عيني

فإن لم تكن هذه الأبيات من لسانه فهي ولا شك من لسان حاله ، لأنها تسجل الواقع الذي لا شبهة فيه ..

ومن الواقع الذي لا شبهة فيه أيضاً ، أن عمر بن سعد هذا لم يخل من غلظة في الطبع على غير ضرورة ولا استفزاز ، فهو الذي ساق نساء الحسين بعد مقتله على طريق جثث القتلى التي لم تزل مطروحة بالعراء .. فصحن وقد لمحنها على الطريق صيحة أسالت الدمع من عيون رجاله ، وهم ممن قاتل الحسين وذويه ..

هؤلاء وأمثالهم لا يسمون ساسة ملك ولا تسمى مهنتهم تدعيم سلطان ، ولكنهم يسمون جلادين متنمرين يطيعون ما في قلوبهم من غلظة وحقد ، ويطيعون ما في أيديهم من أموال ووعود .. وتسمى مهمتهم مذبحة طائشة لا يبالي من يسفك فيها الدماء أي غرض يصيب ..

* * *

ومنذ قضي على يزيد بن معاوية أن يكون هؤلاء وأمثالهم أعواناً له في ملكه ، قضي عليه من ساعتها أن يكون علاجه لمسألة الحسين علاج الجلادين الذين لا يعرفون غير سفك الدماء والذين يسفكون كل دم أجروا عليه ..

وهكذا كان ليزيد أعوان إذا بلغ أحدهم حده في معونته فهو جلاد مبذول السيف والسوط في سبيل المال ...

وكان للحسين أعوان إذا بلغ أحدهم حده في معونته فهو شهيد يبذل الدنيا كلها في سبيل الروح ..

وهي إذن حرب جلادين وشهداء ..

* * *

خروج الحسين

الحسين في مكة

عمل يزيد بوصية أبيه، فلم يكن له هم منذ قيامه على الملك إلا أن يظفر ببيعة الحسين وعبدالله بن الزبير في مقدمة النفر الذين أنكروا العهد له في حياة معاوية ..

وكان الوليد بن عقبة بن أبي سفيان والي معاوية يومئذ على المدينة. فلما جاءه كتاب يزيد بنعي أبيه،وأن يأخذ أولئك النفر بالبيعة « أخذاً شديداً ليس فيه رخصة » دعا إليه بمروان بن الحكم ، فأشار بمشورته التي جمعت بين الاخلاص وسوء النية .. وفحواها أن يبعث إلى الحسين وابن الزبير ، فإن بايعا وإلا ضرب عنقيهما !

وحدث بين الحسين والوليد ما تقدمت الإشارة إليه في محضر مروان ، إذ عاد الحسين إلى بيته .. وقد عول على ترك المدينة إلى مكة كما تركها ابن الزبير من قبله .. فخرج منها لليلتين بقيتا من شهر رجب سنة ستين للهجرة ومعه جل أهل بيته وإخوته وبنو أخيه ، ولزم في مسيره إلى مكة الطريق الأعظم فلم يتنكبه كما فعل ابن الزبير مخافة الطلب من ورائه . فصحت في الرجلين فراسة معاوية في هذا الأمر الصغير ، كما صحت في غيره من كبار الأمور ..

وانصرف الناس في مكة إلى الحسين عن كل مطالب بالخلافة غيره ،

ومنهم ابن الزبير . فكان ابن الزبير يطوف بالكعبة كل يوم ويتردد عليه في صباحه ومسائه ، يتعرف رأيه وما نمي إليه من آراء الناس في الحجاز ، والعراق ، وسائر الأقطار الإسلامية .

فلبث الحسين في مكة أربعة أشهر على هذه الحال ، يتلقى بين آونة وآونة دعوات المسلمين إلى الظهور وطلب البيعة ، ولا سيما أهل الكوفة وما جاورها .. فقد كتبوا إليه يقولون ان هنالك مائة ألف ينصرونك ، والحوا في الكتابة يستعجلونه الظهور .

وتردد الحسين طوال هذه الأشهر فيما يفعل بهذه الدعوات المتابعات ، فبدا له أن يتمهل حتى يتبين جلية القوم ويستطلع طلعهم من قريب ..

وآثر أن يرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب يمهد له طريق البيعة إن رأى فيها محلاً لتمهيد ، وكتب إلى رؤساء أهل الكوفة قبل ذلك كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فقد أتتني كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومي عليكم ، وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيـــل ، وأمرته أن يكتب إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم .. فإن كتب اليّ أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت عليّ به رسلكم وقرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكاً ان شاء الله . فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط ، والدائن بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله ، والسلام » .

* * *

ثم بلغ الحسين أن مسلماً قد نزل الكوفة ، فاجتمع على بيعته للحسين اثنا عشر ألفاً ، وقيل ثمانية عشر ألفاً ، فرأى أن يبادر إليه قبل أن يتفرق هذا الشمل ويطول عليهم عهد الانتظار والمراجعة ، فظهر عزمه هذا لمشيريه من خاصته وأهل بيته فاختلفوا في مشورتهم عليه بين موافق ومثبط وناصح بالمسير إلى جهة غير جهة العراق .

كان أخوه محمد بن الحنفية يرى — وهو بعد في المدينة — أن يبعث رسله إلى الأمصار ويدعوهم إلى مبايعته قبل اقتتال يزيد فإن أجمعوا على بيعته فذاك؛ وان اجتمع رأيهم على غيره « لم ينقض الله بذلك دينه ولا عقله » ..

وكان عبدالله بن الزبير يقول له : « إن شئت أن تقيم بالحجاز آزرناك ونصحنا لك وبايعناك ، وإن لم تشأ البيعة بالحجاز توليني أنا البيعة فتطاع ولا تعصى » .

ويزعم كثير من المؤرخين ان ابن الزبير كان متهم النصيحة للحسين .. ومن هؤلاء المؤرخين أبو الفرج الأصبهاني . قال : « إن عبدالله بن الزبير لم يكن شيء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز .. ولا أحب إليه من خروجه إلى العراق طمعاً في الوثوب بالحجاز .. لأن ذلك لا يتم له إلا بعد خروج الحسين ، فلقيه وقال له : « على أي شيء عزمت يا أبا عبدالله ؟ » .

فأخبره برأيه في إتيان الكوفة وأعلمه بما كتب به مسلم بن عقيل ، فقال الزبير : « فما يحبسك ؟.. فوالله لو كان لي مثل شيعتك بالعراق ما تلومت في شيء » .

* * *

ولعل أنصح الناس له في هذه المسألة كان عبدالله بن عباس لما بينهما من القرابة وما عرف به ابن عباس من الدهاء .. سأله :

— إن الناس أرجفوا أنك سائر إلى العراق ، فما أنت صانع ؟ ..

قال :

— قد أجمعت السير في أحد يوميّ هذين .

فأعاذه ابن عباس بالله من ذلك ، وقال له :

— إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك . إن أهل العراق قوم غدر.أقم

بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم ، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن ، فإن بها حصوناً وشعاباً ولأبيك بها شيعة .

فقال له الحسين :

– يا ابن عم ! ... إني أعلم أنك ناصح مشفق ، ولكني قد ازمعت وأجمعت على المسير .

قال ابن عباس :

– إن كنت لا بد فاعلاً ، فلا تخرج أحداً من ولدك ولا حرمك ولا نسائك ، فخليق أن تقتل وهم ينظرون إليك كما قتل ابن عفان .

السفر الى العراق

وخرج في الثامن من ذي الحجة لا ينتظر العيد بمكة ، لأن أخبار البيعة بالكوفة حفزته إلى التعجيل بالسفر قبل فوات الأوان ..

وكان مسلم بن عقيل قد نزل بالكوفة ، فأقبل عليه الناس ألوفاً ألوفاً يبايعون الحسين على يديه .. وبلغوا ثمانية عشر ألفاً في تقدير ابن كثير وثلاثين ألفاً في تقدير ابن قتيبة .

وهال الأمر النعمان بن بشير – والي الكوفة – فحار فيما يصنع بمسلم وأتباعه وهم يزدادون يوماً بعد يوم ، فصعد المنبر وخطب الناس معلناً أنه لا يقاتل إلا من قاتله ولا يثب إلا على من وثب عليه ..

* * *

وتسابق أنصار بني أمية إلى يزيد ينقلون إليه ما يجري بالكوفة ، فأشار عليه سرجون الرومي مولى أبيه أن يعزل النعمان ويولي الكوفة عبيدالله بن زياد ، مضمومة إلى البصرة التي كان يتولاها في ذلك الحين .

وقدم عبيد الله إلى الكوفة فكان أول ما عمل بها أن جمع إليه عرفاء المدينة — أي مشايخ أحيائها — فأمرهم أن يكتبوا له أسماء الغرباء ومن في أحيائهم من « طلبة أمير المؤمنين والحرورية وأهل الريب » ، وأنذرهم « أيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إليه ، صلب على باب داره ، وألغيت تلك العرافة من العطاء » .

والتمس وجوه المدينة من شيعة الحسين يترضاهم ويستخرج خفاياهم . فسأل عمن تخلف منهم عن لقائه وعلى رأسهم هانىء بن عروة ، فقيل له إنه مريض لا يبرح داره .. وكان يتعلل بالمرض تجنباً للقائه والسلام عليه .

فذهب عبيد الله إليه يعوده ويتلطف إليه ، وجاء في بعض الروايات أنه قد أشير على مسلم بن عقيل بقتله وهو في بيت هانىء ،فأبى أن يغتاله وهو آمن في بيت مريض يعوده ..

وقال ابن كثير ما فحواه إنهم أشاروا على مسلم بن عقيل بقتله وهو في دار شريك بن الأعور ، وقد علم شريك أن عبيد الله سيعوده .. فبعث إلى هانىء بن عروة يقول له : « إبعث مسلم بن عقيل يكون في داري ليقتل عبيد الله إذا جاء يعودني » .. فتحين مسلم عن قتله ، وسأله شريك : « ما منعك أن تقتله ؟ » قال : « بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الإيمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن) ، وكرهت أن أقتله في بيتك » ... قال شريك : « أما لو قتلته لجلست في الثغر لا يستعدي به أحد ، ولكفيتك أمر البصرة ، ولكنت تقتله ظالماً فاجراً » .

ثم مات شريك بعد ثلاثة أيام ...

* * *

وتضطرب الأقاويل في وقائع هذه الأيام لتلاحقها وكثرتها وكثرة رواتها والعاملين فيها .. ولكن الشائع من تلك الأقاويل ينبئنا عن عنت شديد لقيه عبيد الله بن زياد في مغالبة مسلم وشيعته ، وأنه هرب مرة من المسجد

لأن الناس بصروا بمسلم مقبلاً فتصايحوا بعبيد الله فاعتصم بقصره وأغلق عليه أبوابه ..

واجتمع إلى مسلم أربعة آلاف من حزبه ، فأمر من ينادي في الناس بشعار الشيعة : « يا منصور ! .. أمت » . ثم تقدم إلى قصر الإمارة في تعبئة كتعبئة الجيش ..

ولم يكن في القصر إلا ثلاثون رجلاً من الشرط وعشرون من أهل الكوفة . فخامر اليأس عبيدالله وظن أنه هالك قبل أن يدركه الغوث من مولاه . ولكنه تحيل بما في وسع المستميت من حيلة هي على أية حال أجدى وأسلم له من التسليم ، فأنفذ أنصاره إلى كل صوب في المدينة يعدون ويتوعدون.. وانطلق هؤلاء الأنصار يرجفون بقرب وصول المدد الزاخر من يزيد ، وينذرون الناس بقطع العطاء وأخذ البريء بالمذنب والغائب بالشاهد ويبذلون المال لمن يرشى بالمال ، والوعد لمن يقنع بالوعد إلى حين ..

مقتل مسلم بن عقيل

وتوسلوا بكل وسيلة تبلغ بهم ما أرادوا من تخذيل الناس عن مسلم بن عقيل حتى كانوا يرسلون الزوجة وراء زوجها والأم وراء ولدها والأخ وراء أخيه ، فيتعلقون بهم حتى يقفلوا إلى دورهم أو يدخلوا بهم في زمرة عبيد الله ..

فلما غربت شمس ذلك اليوم ، نظر مسلم حوله فإذا هو في خمسمائة من أولئك الآلاف الأربعة .. ثم صلى المغرب فلم يكن وراءه في الصلاة غير ثلاثين تسللوا من حوله تحت الظلام ، وبقي وحيداً في المسجد لا يجد معه من يدله على منزل يأوي إليه .

وتسمع عبيد الله من القصر حين سكنت الجلبة ، وسأل أصحابه أن يشرفوا ليروا من بقي من تلك الجموع .. فلم يروا أحداً ولم يسمعوا صوتاً .

فخيل إليهم أنها مكيدة حرب وأن القوم رابضون تحت الظلال ، فأدلى بالقناديل والمشاعل حتى اطمأن إلى خاو المسجد وتفرق مسلم وأتباعه، فدعا إلى الصلاة الجامعة وأمر المنادين في أرجاء الكوفة : « ألا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء والمناكب — رؤوس العرفاء — والمقاتلة ، صلى العشاء إلا في المسجد » .

* * *

وأقام الحراس خلفه وهو يصلي بمن أجابوه وقد امتلأ بهم المسجد ، فخطبهم بعد الفراغ من صلاته قائلاً : « برئت ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل في داره » .

وصاح في رئيس شرطته : « يا حصين بن نمير ! .. ثكلتك أمك إن ضاع باب سكة من سكك الكوفة وخرج هذا الرجل ولم تأتني به ، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة فابعث مراصد على أفواه السكك .. وأصبح غداً فاستبرىء الدور وجس خلالها حتى تأتيني بهذا الرجل .. »

وما هي إلا سويعات حتى جيء بابن عقيل وقد دافع الشرط عن نفسه ما استطاع . ووصل إلى القصر جريحاً مجهداً ظمآن فأهوى إلى قلة عند الباب فيها ماء بارد ، فقال له أحد أصحاب عبيد الله : « أتراها ما أبردها ! والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الجحيم في نار جهنم ! » .

وأنكر عمر بن حريث هذه الفظاعة من الرجل ، فجاءه بقلة عليها منديل ومعها قدح فصب في القدح وأدناه منه ، فإذا هو ينفث الدم في القدح كلما رفعه للشرب منه حتى امتلأ وسقطت فيه ثنيتاه ، فحمد الله وقال : « لو كان لي من الرزق المقسوم لشربته » .

وأدخلوه على عبيد الله فنظر إلى جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن ابي وقاص ، فناشده القرابة ليسمعن منه وصية ينفذها بعد موته . فأبى أن يصغي إليه ! .. ثم أذن له عبيد الله فقام معه فقال مسلم : « إن عليّ بالكوفة ديناً

استدنته سبعمائة درهم ، فبع سيفي ودرعي فاقضها عني ، وابعث إلى الحسين من يرده ، فإني قد كتبت إليه أعلمه أن الناس معه ولا أراه إلا مقبلاً » ..

فعاد عمر إلى عبيد الله فأفشى له السر الذي ناجاه به وأوصاه أن يكتمه . ثم دعا عبيد الله بالحرسي الذي قاومه مسلم وضربه على رأسه واسمه بكير بن حمران — فأسلم مسلماً إليه وقال :

— لتكن أنت الذي تضرب عنقه .

وصعدوا به إلى أعلى القصر فأشرفوا به على الجموع المحيطة به وضربوا عنقه ، فسقط رأسه إلى الرحبة وألقيت جثته إلى الناس . ثم أرسل برأسه إلى يزيد مع رؤوس سراة في المدينة كان مسلم يأوي إليهم أول مقدمه إليها ، ومنهم هانيء بن عروة الذي تقدمت الإشارة إليه .

طلائع الفشل

كان مقتل مسلم بن عقيل في التاسع من ذي الحجة ليلة العيد .. وكان خروج الحسين من مكة قبل ذلك بيوم واحد ، فلم يسمع بمقتله إلا وهو في آخر الطريق ..

ولما شارف العراق أحب أن يستوثق مرة أخرى قبل دخوله ، فكتب إلى أهل الكوفة كتاباً مع قيس بن سهر الصيداوي يخبرهم بمقدمه ويحضهم على الجد والتساند ، فوافى قيس القادسية وقد رصد فيها شرط عبيدالله واشخصوه إليه..فأمره عبيدالله أن يصعد القصر فيسب « الكذاب بن الكذاب الحسين بن علي » وينهى الناس أن يطيعوه .

فصعد قيس وقال : « أيها الناس .. إن هذا الحسين بن علي خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله إليكم ! وقد فارقته بالحاجز فأجيبوه ، والعنوا عبيدالله بن زياد وأباه .. »

فما كان منهم إلا أن قذفوا به من حالق . فمات ..

وحدث مثل هذا مع عبدالله بن يقطر .. فأبى أن يلعن الحسين ، ولعن عبيدالله بن زياد ، فألقوا به من شرفات القصر إلى الأرض فاندكت عظامه ولم يمت ، فذبحوه ..

وجعل الحسين كلما سأل قادماً من العراق أنبأه بمقتل رسول من رسله أو داعية من دعاته ، فأشار عليه بعض صحبه بالرجوع ، وقال له غيرهم : « ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع .. »

ووثب بنو عقيل فأقسموا لا يبرحون حتى يدركوا ثأرهم أو يذوقوا ما ذاق مسلم ..

ولم ير الحسين بعد ذلك أن يصحب معه أحداً إلا على بصيرة من أمره وما هو لاقيه إن تقدم ولم ينصرف لشأنه .. فخطب الرهط الذين صحبوه وقال لهم :

« وقد خذلنا شيعتنا .. فمن أحب منكم أن ينصرف فلينصرف، ليس عليهم منا ذمام .. »

فتفرقوا إلا أهل بيته وقليلاً ممن تبعوه في الطريق ..

الحسين والحر بن يزيد

والتقى الركب عند جبل ذي حسم بطلائع جيش عبيد الله يقودها الحر ابن يزيد التميمي اليربوعي في ألف فارس، أمروا بأن لا يدعوا الحسين حتّى يقدموا به على عبيد الله في الكوفة .

فأمر الحسين مؤذنه بالآذان لصلاة الظهر ، وخطب أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد فقال :

— أيها الناس إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا إمام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق فقد جئتكم..فإن تعطوني

ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم ، وإن لم تفعلوا أو كنتم لقدومي كارهين إنصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه ..

فلم يجبه أحد ..

فقال للمؤذن :

ـ أقم الصلاة !

وسأل الحر :

ـ أتريد أن تصلي أنت بأصحابك وأصلي بأصحابي ؟

فقال الحر :

ـ بل نصلي جميعاً بصلاتك ..

* * *

ثم تياسر الحسين إلى طريق العذيب ، فبلغها وفرسان عبيد الله يلازمونه ويصرون على أخذه إلى أميرهم وصده عن وجهته حيثما اتجه غير وجهتهم ، فأقبل عليهم يعظهم وهم يصغون إليه فقال :

« أيها الناس ! .. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله . ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالغيّ ، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غيري ..

« وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم وأنكم لا تسلموني ولا تخذلوني ، فإن بقيتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، وأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسي مع أنفسكم وأهلي من أهلكم ،

فلكم فيَّ أسوة . وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي ، وخلعتم بيعتي ، فلعمري ما هي لكم بنكير ، والمغرور من اغتر بكم ، فحظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم .. ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم والسلام » .

فأنصت الحر بن يزيد وأصحابه ثم توجه إليه يحذره العاقبة وينبئه : « لئن قاتلت لتقتلن ! »

فصاح به الحسين :

– أبالموت تخوفني ! .. ما أدري ما أقول لك .. ولكني أقول كما قال أخو الأوس لابن عمر وهو يريد نصرة رسول الله ، فخوفه ابن عمر وأنذره أنه لمقتول فأنشد :

سأمضي وما بالموتِ عارٌ على الفتَى
إذا ما نوى خيراً وجاهدَ مُسْلِمَا
وآسى الرجالَ الصالحينَ بنفسهِ
وخالفَ مثبوراً وفارَقَ مجرِمَا
فإن عِشْتُ لم أَنْدَمْ ، وإن متُّ لم أُلَم
كفَى بِكَ ذلاً أن تعيشَ وتُرْغَمَا

* * *

ثم سار الركبان ينظر بعضهما إلى بعض كلما مال الحسين نحو البادية أسرع الحر بن يزيد فرده نحو الكوفة . حتى نزلا بنينوى ، فإذا راكب مقبل عليه بالسلاح ، يحيي الحر ولا يحيي الحسين ، ثم أسلم الحر كتاباً من عبيد الله يقول فيه : « أما بعد فجعجع بالحسين حتى يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي ، فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء .. وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك أمري والسلام » .

فلما بدا من الحر بن يزيد أنه يريد أن ينفذ أمر عبيد الله بن زياد ويخشى

رقيبه الذي أمر ألا يفارقه حتى ينفذ أمره ، قال أحد أصحاب الحسين ـ زهير بن القين :

ـ إنه لا يكون والله بعد ما ترون إلا ما هو أشد منه . يا ابن رسول الله ! .. إن قتال هؤلاء أهون علينا من قتال من يأتينا بعدهم فلعمري ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به . فهلم نناجز هؤلاء .

فأعرض الحسين عن مشورته وقال :

ـ اني أكره أن أبدأهم بقتال .

عمر بن سعد

وكان الديلم قد ثاروا على يزيد بن معاوية واستولوا على دستبي بأرض همذان ، فجمع لهم عبيد الله بن زياد جيشاً عدته أربعة آلاف فارس بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي يذكر الديلم إسم أبيه ـ سعد ـ فاتح بلادهم ، وقد وعد بولاية الري بعد قمع الثورة الديلمية ، فلما قدم الحسين إلى العراق قال عبيد الله لعمر :

ـ نفرغ من الحسين ثم تسير إلى عملك.

فاستعفاه ، وعلم عبيدالله موطن هواه فقال له :

ـ نعم نعفيك على أن ترد إلينا عهدنا ..

فاستمهله حتى يراجع نصحاءه .. فنصح له ابن أخته ابن المغيرة بن شعبة ـ وهو من أكبر أعوان معاوية ـ ألا يقبل مقاتلة الحسين ، وقال له :

ـ والله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك ، خير من أن تلقى الله بدم الحسين .

* * *

وبات ليلته يقلب وجوه رأيه ، حتى إذا أصبح ذهب إلى ابن زياد ، فاقترح عليه أن يبعث إلى الحسين من أشراف الكوفة من ليس يغني في الحرب عنهم .. فأبى ابن زياد إلا أن يسير إلى الحسين أو ينزل عن ولاية الري .. فسار على مضض وجنوده متثاقلون متحرجون ، إلا زعانف المرتزقة الذين ليس لهم من خلاق .

وكان جنود الجيش يتسللون منه ويتخلفون بالكوفة .. فندب عبيد الله رجلاً من أعوانه — هو سعد بن عبد الرحمن المنقري — ليطوف بها ويأتيه بمن تخلف عن المسير لقتال الحسين ، وضرب عنق رجل جيء به وقيل إنه من المتخلفين ، فأسرع بقيتهم إلى المسير .

وقد أدرك الجيش الحسين وهو بكربلاء على نحو من خمسة وعشرين ميلاً إلى الشمال الغربي من الكوفة . نزل بها في الثاني من المحرم سنة إحدى وستين ..

وخلا الجو في الكوفة لرجلين اثنين يسابق كلاهما صاحبه في اللؤم وسوء الطوية ، وينفردان بتصريف الأمر في قضية الحسين دون مراجعة من ذي سلطان .. وهما عبيد الله بن زياد ، وشمر بن ذي الجوشن .

عبيد الله المغموز النسب الذي لا يشغله شيء ، كما يشغله التشفي لنسبه المغموز من رجل هو بلا مراء أعرق العرب نسباً في الجاهلية والإسلام .. فليس أشهى إليه من فرصة ينزل فيها ذلك الرجل على حكمه ، ويشعره فيها بذله ورغمه ..

شمر بن ذي الجوشن

وشمر بن ذي الجوشن الأبرص الكريه الذي يمضه من الحسين ما يمض كل لئيم مشنوء من كل كريم محبوب وسيم .

وكان كلاهما يفهم لؤم صاحبه ويعطيه فيه حقه وعذره ، فهما في هذه

الحلة متناصحان متفاهمان .. !

ولم يكن أيسر من حل قضية الحسين على وجه يرضي يزيد ويمهد له الولاء في قلوب المسلمين ولو إلى حين .. لولا ذلك الضغن الممتزج بالخليقة الذي هو كسكر المخمور لا موضع معه لرأي مصيب ، ولا لتفكير في عاقبة بعيدة أو قريبة ..

فالحسين في أيديهم ليس أيسر عليهم من اعتقاله وإبقائه بأعينهم في مكان ينال فيه الكرامة ولا يتحفز لثورة .

لكنهما لم يفكرا في أيسر شيء ولا أنفع شيء للدولة التي يخدمانها .. وإنما فكرا في النسب المغموز والصورة الممسوخة ، فلم يكن لهما من هم غير إرغام الحسين وإشهاد الدنيا كلها على إرغامه .

تلقى ابن زياد من عمر بن سعد كتاباً يقول فيه إن الحسين « أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي أقبل منه أو أن نسيره إلى أي ثغر من الثغور شئنا ، أو أن يأتي يزيد فيضع يده في يده » .

والذي نراه نحن من مراجعة الحوادث والأسانيد أن الحسين ربما اقترح الذهاب إلى يزيد ليرى رأيه ، ولكنه لم يعدهم أن يبايعه أو يضع يده في يده... لأنه لو قبل ذلك لبايع في مكانه واستطاع عمر بن سعد أن يذهب به إلى وجهته ، ولأن أصحاب الحسين في خروجه إلى العراق قد نفوا ما جاء في ذلك الكتاب ومنهم عقبة بن سمعان حيث كان يقول : « صحبت الحسين من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى العراق ، ولم أفارقه حتى قتل وسمعت جميع مخاطباته إلى يوم قتله .. فوالله ما أعطاهم ما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد ولا أن يسيروه إلى ثغر من الثغور ، ولكنه قال : « دعوني أرجع إلى المكان الذي أقبلت منه أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس » .

* * *

ولعل عمر بن سعد قد تجوز في نقل كلام الحسين عمداً ليأذنوا له في حمله إلى يزيد فيلقي عن كاهله مقاتلته وما تجر اليه من سوء القالة ووخز الضمير ، أو لعل الأعوان الأمويين قد أشاعوا عن الحسين اعتزامه للمبايعة ليلزموا بالبيعة أصحابه من بعده ، ويسقطوا حجتهم في مناهضة الدولة الأموية ..

وأيّاً كانت الحقيقة في هذه الدعوى فهي تكبر مأثمة عبيد الله وشمر ولا تنقص منها . ولقد كانا على العهد بمثليهما .. كلاهما كفيل أن يحول بين صاحبه وبين خالجة من الكرم تخامره أو تغالب اللؤم الذي فطر عليه ، فلا يصدر منهما إلا ما يوائم لئيمين لا يتفقان على خير ..

وكأنما جنح عبيد الله إلى شيء من الهوادة حين جاءه كتاب عمر بن سعد ، فابتدره شمر ينهاه ويجنح إلى الشدة والاعتساف ، فقال له :

ـ أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك ! والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز .. فلا تعطه هذه المنزلة ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فإن عاقبت كنت ولي العقوبة ، وإن عفوت كان ذلك لك .

ثم أراد أن يوقع بعمر ويتهمه عند عبيد الله ليخلفه في القيادة ثم يخلفه في الولاية ، فذكر لعبيد الله أن الحسين وعمر يتحدثان عامة الليل بين المعسكرين.

فعدل عبيد الله إلى رأي شمر وأنفذه بأمر منه أن يضرب عنق عمر إن هو تردد في إكراه الحسين على المسير إلى الكوفة أو مقاتلته حتى يقتل . وكتب إلى عمر يقول له :

« أما بعد .. فإني لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتطاوله ولا لتعتذر عنه ولا لتقعد له عندي شافعاً ... أنظر فإن نزل الحسين وأصحابه واستسلموا فابعث بهم إلي مسلما ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون فإن قتل الحسين فأوطىء

الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظاوم .. فإن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر ابن ذي الجوشن وبين العسكر والسلام » .

وختمت مأساة كربلاء كلها بعد أيام معدودات ...

ولكنها أيام بقيت لها جريرة لم يحمدها طالب منفعة ولا طالب مروءة ، ومضت مئات السنين وهي لا تمحو آثار تلك الأيام في تاريخ الشرق والإسلام ..

هل أصاب ؟

خطأ الشهداء

خروج الحسين من مكة إلى العراق حركة لا يسهل الحكم عليها بمقياس الحوادث اليومية ، لأنها حركة من أندر حركات التاريخ في باب الدعوة الدينية أو الدعوة السياسية ... لا تتكرر كل يوم ولا يقوم بها كل رجل ولا يأتي الصواب فيها — إن أصابت — من نحو واحد ينحصر القول فيه ، ولا يأتي الخطأ فيهـا — إن أخطأت — من سبب واحد يمتنع الإختلاف عليه . وقد يكون العرف فيها بين أصوب الصواب وأخطأ الخطأ فرقاً صغيراً من فعل المصادفة والتوفيق ، فهو خليق أن يذهب إلى النقيضين .

هي حركة لا يأتي بها إلا رجال خلقوا لأمثالها فلا تخطر لغيرهم على بال ، لأنها تعلو على حكم الواقع القريب الذي يتوخاه في مقاصده سالك الطريق اللاحب والدرب المطروق ..

هي حركة فذة يقدم عليها رجال أفذاذ ، من اللغو أن ندينهم بما يعمله رجال من غير هذا المعدن وعلى غير هذه الوتيرة ... لأنهم يحسون ويفهمون ويطلبون غير الذي يحسه ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال ...

هي ليست ضربة مغامر من مغامري السياسة ، ولا صفقة مساوم من مساومي التجارة ، ولا وسيلة متوسل ينزل على حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه ، ولكنها وسيلة من يدين نفسه ويدين الدنيا برأي من الآراء هو

مؤمن به ومؤمن بوجوب إيمان الناس به دون غيره.. فإن قبلته الدنيا قبلها وإن لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته بالحياة ، بل لعل فواته بالموت أشهى إليه ..

هي حركة لا تقاس إذن بمقياس المغامرات ولا الصفقات ولكنها تقاس بمقياسها الذي لا يتكرر ولا يستعاد على الطلب من كل رجل أو في كل أوان ...

ولا ننسى أن السنين الستين التي انقضت بعد حركة الحسين ، قد انقضت في ظل دولة تقوم على تخطئته في كل شيء وتصويب مقاتليه في كل شيء ...

* * *

إن القول بصواب الحسين معناه القول ببطلان تلك الدولة ، والتماس العذر له معناه إلقاء الذنب عليها . وليس يخاف على أحد كيف يُنسى الحياء وتبتذل القرائح أحياناً في تنزيه الساطان القائم وتأثيم الساطان الذاهب . فايس الحكم على صواب الحسين أو على خطئه إذن بالأمر الذي يرجع فيه إلى أولئك الصنائع المتزلفين الذين يرهبون سيف الدولة القائمة ويغنمون من عطائها ، ولا لصنائع مثلهم يرهبون بعد ذلك سيفاً غير ذلك السيف ويغنمون من عطاء غير ذلك العطاء ..

إنما الحكم في صواب الحسين وخطئه لأمرين لا يختلفان باختلاف الزمان وأصحاب السلطان ، وهما البواعث النفسية التي تدور على طبيعة الإنسان الباقية ، والنتائج المقررة التي مثلت للعيان باتفاق الأقوال .

وبكل من هذين المقياسين القويين نقيس حركة الحسين في خروجه على يزيد بن معاوية ، فنقول إنه قد أصاب ..

أصاب إذا نظرنا إلى بواعثه النفسية التي تهيمن عايه ولا يتخيل العقل أن تهيمن عليه بواعث غيرها ...

وأصاب إذا نظرنا إلى نتائج الحركة كلها نظرة واسعة ، لا يستطيع أن يجادل فيها من يأخذ الأمور بسنة الواقع والمصلحة أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروءة ....

فما هي البواعث النفسية التي قامت بنفس الحسين يوم دعي في المدينة بعد موت معاوية لمبايعة ابنه يزيد ؟

هي بواعث تدعوه كلها أن يفعل ما فعل ولا تدعو مثله إلى صنيع غير ذلك الصنيع . وخير لبني الإنسان ألف مرة أن يكون فيهم خلق كخلق الحسين الذي أغضب يزيد بن معاوية ، من أن يكون جميع بني الإنسان على ذلك الخلق الذي يرضى به يزيد ..

فأول ما ينبغي أن نذكره لفهم البواعث النفسية التي خامرت نفس الحسين في تلك المحنة الأليمة ، أن بيعة يزيد لم تكن بالبيعة المستقرة ولا بالبيعة التي يضمن لها الدوام في تقدير صحيح ...

فهي بيعة نشأت في مهد الدس والتمليق ، ولم يجسر معاوية عليها حتى شجعه عليها من له مصلحة ملحة في ذلك التشجيع ..

* * *

كان المغيرة بن شعبة والياً لمعاوية على الكوفة ، ثم همّ بعزله وإسناد ولايته إلى سعيد بن العاص جرياً على عادته في إضعاف الولاة قبل تمكنهم ، وضرب فريق منهم بفريق حتى يعينه بعضهم على بعض ولا يتفقوا عليه . فلما أحس المغيرة نية معاوية ، قدم الشام ودخل على يزيد وقال له كالمستفهم المتعجب :

ـ لا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟

ولم يكن يزيد نفسه يصدق أنه أهل لها أو أن بيعته مما يتم بين المسلمين على هينة . فقال للمغيرة :

— أوَ ترى ذلك يتم ؟

فأراه المغيرة أنه ليس بالعسير ، إذا أراده أبوه ..

وأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة ، فعلم هذا أن فرصته سانحة وأنه سيبادل معاوية رشوة آجلة برشوة عاجلة .. يرشوه بإعانته على بيعة يزيد ، ويأخذ منه الرشوة ببقائه على ولاية الكوفة إلى أن يقضى في أمر هذه البيعة ، وله في التمهيد لها نصيب ..

فلما لقي معاوية سأله هذا عما أخبره به يزيد ، فأعاده عليه وهو يزخرفه له بما يرضيه . قال :

— قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفي يزيد منك خلف فاعقد له ، فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة .

فسأله معاوية وهو يتهيب ويتأنى :

— ومن لي بذلك ؟ ..

قال :

— أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك .

فرده معاوية إلى عمله كما كان يتمنى ، وأوصاه ومن معه ألا يتعجلوا بإظهار هذه النية ... ثم استشار زياد بن أبي سفيان ، فأطلع هذا بعض خاصته على الأمر وهو يقول :

— إن أمير المؤمنين ، يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم .. ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد .. فالق أمير المؤمنين وأد إليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالأمر ، فأحرى أن يتم لك ولا تعجل فإن

دركاً في تأخير خير من فوت في عجلة ..

فأشار عليه صاحبه « ألا يفسد على معاوية رأيه ولا يبغضه في ابنه » . وعرض عليه أن يلقى يزيد فيخبره أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في البيعة له وانك تتخوف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه ، وأنك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس .

* * *

وقالوا إن يزيد كفّ عن كثير مما كان يصنع بعد هذه النصيحة ، وأن معاوية أخذ برأي زياد في التؤدة فلم يجهر بعقد البيعة حتى مات زياد ..

وقد أحس معاوية الامتعاض من بيته قبل أن يحسه من الغرباء عنه . فكانت امرأته « فاختة » بنت قرطة بن حبيب بن عبد شمس تكره بيعة يزيد وتود لو أثر بالبيعة ابنها عبد الله ، فقالت له :

ـ ما أشار به عليك المغيرة ؟ .. أراد أن يجعل لك عدواً من نفسك يتمنى هلاكك كل يوم .

واشتدت نقمة مروان بن الحكم ـ وهو أقرب الأقرباء إلى معاوية ـ حين بلغته دعوة العهد ليزيد فأبى أن يأخذ العهد له من أهل المدينة ، وكتب إلى معاوية : « إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك » . فعزله معاوية من ولاية المدينة وولاها سعيد بن العاص . فأوشك مروان أن يثور ويعلن الخروج وذهب إلى أخواله من بني كنانة فنصروه وقالوا له :

ـ نحن نبلك في يديك وسيفك في قرابك . فمن رميته بنا أصبناه ومن ضربته قطعناه .. الرأي رأيك ، ونحن طوع يمينك ..

ثم أقبل مروان في وفد منهم كثير إلى دمشق ، فذهب إلى قصر معاوية وقد أذن للناس ، فمنعه الحاجب لكثرة من رأى معه فضربوه واقتحموا الباب . ودخل مروان وهم معه حتى سلم على معاوية وأغلظ له القول . فخاف

معاوية هذا الجمع من وجوه قومه وترضى مروان ما استطاع ،وجعل له ألف دينار كل شهر ومائة لمن كان معه من أهل بيته .

* * *

ولم يكن مروان وحده بالغاضب بين بني أمية من بيعة يزيد ، بل كان سعيد بن عثمان بن عفان يرى أنه أحق منه بالخلافة لأنه ابن عثمان الذي تذرع معاوية إلى الخلافة باسمه فقال لمعاوية :

— يا أمير المؤمنين ... علام تبايع ليزيد وتتركني ! ... فوالله لتعلم أن أبي خير من أبيه وأمي خير من أمّه ، وأنك إنما نلت ما نلت بأبي ..

فسرّى معاوية عنه ... وقال له ضاحكاً هاشا :

— يا ابن أخي ! .. أما قولك أن أباك خير من أبيه ، فيوم من عثمان خير من معاوية .. وأما قولك ان أمك خير من أمّه ، ففضل قرشية على كلبية فضل بيّن ، وأما أن أكون نلت ما أنا فيه بأبيك فإنما الملك يؤتيه الله من يشاء ... قتل أبوك رحمه الله فتواكلته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب ، فنحن أعظم بذلك منة عليك ، وأما أن تكون خيراً من يزيد فوالله ما أحب أن داري مملوءة رجالاً مثلك بيزيد . ولكن دعني من هذا القول وسلني أعطاك ، وولاه خراسان ..

فكان أكبر بني أمية أعظمهم أملاً في الخلافة بعد معاوية ، وكان بغضهم لبيعة يزيد على قدر أملهم فيها ، وهؤلاء — وان جمعتهم مصلحة الأسرة فترة من الزمن — لم تكن منافستهم هذه ليزيد بالعلامة التي تؤذن بالبقاء وتبشره بالضمان والقرار ...

وعلى هذا النحو ولدت بيعة يزيد بين التوجس والمساومة والإكراه ... وبهذه الجفوة قوبلت بين أخلص الأعوان وأقرب القرباء ....

وظهر من اللحظات الأولى ، ان المغيرة بن شعبة كان سمساراً يصافق

على ما لا يملك ... فقد ضمن الكوفة والبصرة ومنع الخلاف في غيرهما ، فإذا الكوفة أول من كره بيعة يزيد ، وإذا البصرة تتلكأ في الجواب وواليها يرجىء الأمر ويوصي بالتمهل فيه فلا يقدم عليه معاوية في حياته ، وإذا أطراف الدولة من ناحية همذان تثور ، وإذا بالحجاز يستعصي على بني أمية سنوات ، وإذا باليمن ليس فيها نصير للأمويين ، ولو وجدت خارجاً يعلن الثورة عليهم لكانت ثورتها كثورة الحجاز ..

بل يجوز أن يقال – مما ظهر في حركة الحسين كل الظهور – أن الشام نفسها لم تنطو على رجل يؤمن بحق يزيد وبطلان دعوى الحسين . فقد كانوا يتحرجون من حرب الحسين ويتسلل من استطاع منهم التسلل قبل لقائه ، إلا أن يهدد بقطع الأرزاق وقطع الرقاب .

والحوادث التي تلت حركة الحسين إلى ختام عهد يزيد أدل مما تقدم على اضطراب عهده وقلة ضمانه ، لأن الأحداث والنذر لم تزل تتوالى بقية حياته وبعد موته بسنين .

ونحن اليوم نعلم من التاريخ كيف انتهت هذه الحوادث والنذر في عهد يزيد أو بعد عهده ، فيخيل إلينا أن عواقبها لم تكن تحتمل الشك ولم يكن بها من خفاء . ولكن الذين استقبلوها كانوا خلقاء ألا يروا فيها طوالع ملك تعنو له الرؤوس ويرجى له طول البقاء .

بواعث الخروج

نعم كانت هناك ندحة عن الخروج لو كان يزيد في الخلافة رضى المسلمين من العقل والخلق وسلامة التدبير وعزة الموئل والدولة ، وكان المسلمون قد توافوا على اختياره لحبهم إياه ، وتعظيمهم لعقله وخلقه واطمئنانهم إلى سياسته واعتمادهم على صلاحه وإصلاحه ...

ولكنه على نقيض ذلك ، كان كما علمنا رجلاً هازلاً في أحوج الدول

إلى الحد ، لا يرجى له صلاح ولا يرجى منه اصلاح . وكان اختياره لولاية العهد مساومة مكشوفة قبض كل مساهم فيها ثمن رضاه ومعونته جهرة وعلانية من المال أو الولاية أو المصانعة ، ولو قبضوا مثل هذا الثمن ليبايعوا ولياً للعهد شراً من يزيد لما همَّهم أن يبايعوه وإن تعطلت حدود الدين وتقوضت معالم الأخلاق ..

وأعجب شيء أن يطلب إلى حسين بن علي أن يبايع مثل هذا الرجل ويزكيه أمام المسلمين ، ويشهد له عندهم أنه نعم الخليفة المأمول صاحب الحق في الخلافة وصاحب القدرة عليها .. ولا مناص للحسين من خصلتين : هذه ، أو الخروج ! .. لأنهم لن يتركوه بمعزل عن الأمر لا له ولا عليه ..

* * *

إن بعض المؤرخين من المستشرقين وضعاف الفهم من الشرقيين ينسون هذه الحقيقة ولا يولونها نصيبها من الرجحان في كف الميزان .

وكان خليقاً بهؤلاء أن يذكروا أن مسألة العقيدة الدينية في نفس الحسين لم تكن مسألة مزاج أو مساومة ، وأنه كان رجلاً يؤمن أقوى الإيمان بأحكام الإسلام ويعتقد أشد الاعتقاد أن تعطيل حدود الدين هو أكبر بلاء يحيق به وبأهله وبالأمة العربية قاطبة في حاضرها ومصيرها . لأنه مسلم ولأنه سبط محمد ... فمن كان إسلامه هداية نفس فالإسلام عند الحسين هداية نفس وشرف بيت ..

وقد لبث بنو أمية بعد مصرعه ستين سنة يسبونه ويسبون أباه على المنابر ، ولم يجسر أحد منهم قط على المساس بورعه وتقواه ورعايته لأحكام الدين في أصغر صغيرة يباشرها المرء سراً أو علانية ، وحاولوا أن يعيبوه بشيء غير خروجه على دولتهم فقصرت ألسنتهم وألسنة الصنائع والأجراء دون ذلك . فكيف يواجه مثل هذا الرجل خطراً على الدين في رأس الدولة وعرش الخلافة مواجهة الهوادة والمشايعة والتأمين ؟ وكيف يسام أن يرشح للامامة من لا

شفاعة له ولا كفاية فيه الا أنه ابن أبيه ؟ ..

لقد كان أبوه معاوية على كفاءة ووقار وحنكة ودراية بشؤون الملك والرئاسة ، وكان له مع هذا نصحاء ومشيرون أولو براعة وأحلام تكبح من السلطان ما جمح وتقيِّم ما انحرف وتملي له فيما عجز عنه . وهذا ابنه القائم في مقامه لا كفاءة ولا وقار ولا نصحاء ولا مشيرون ، الا من كان عوناً على شر أو موافقاً على ضلالة . فما عسى أن تكون الشهادة له بالصلاح للإمامة إلا تغريراً بالناس وقناعة بالسلامة أو الأجر المبذول على هذا التغرير ؟..

ثم هي خطوة لا رجعة بعدها اذا أقدم عليها الحسين بما أثر عنه من الوفاء وصدق السريرة . فإذا بايع يزيد فقد وفى له بقية حياته كما وفى لمعاوية بما عاهده عليه ، ولا سيما حين يبايع يزيد على علم بكل نقيصة فيه قد يتعلل بها المتعلل لنقض البيعة وانتحال أسباب الخروج .

فملك يزيد لم يقم على شيء واحد يرضاه الحسين لدينه أو لشرفه أو للأمة الاسلامية . ومن طلب منه أن ينصر هذا الملك فإنما يطلب منه أن ينصر ملكاً ينكر كل دعواه ولا يحمد له حالة من الأحوال ، ولا تنس بعد هذا كله أن هذا الملك كان يقرر دعائمه في أذهان الناس بالغض من الحسين في سمعة أبيه وكرامة شيعته ومريديه . فكانوا يسبون علياً على المنابر وينعتونه بالكذب والمروق والعصيان ، وكانوا يتحرون أنصاره حيث كانوا فيقهرونهم على سبه والنيل منه بمشهد من الناس ، وإلا أصابهم العنت والعذاب وشهروا في الأسواق بالصلب والهوان . فمجاراة هذه الأمور كلها في مفتتح ملك جديد معناه أنها سنة قد وجبت واستقرت الجيل بعد الجيل بغير أمل في التغيير والتبديل . فمن أقر هذه السنة في مفتتح هذا الملك الجديد فقد ضعف أمله وضعف أمل أنصاره فيه يوماً بعد يوم ، وازداد مع الزمن ضعفاً كما ازدادت حجة خصومه قوة عليه .

هذه هي البواعث النفسية التي كانت تجيش في صدر الحسين يوم دعاه

أولياء بني أمية إلى مبايعة يزيد والنزول عن كل حق له ولأبنائه ولأسرته في إمامة المسلمين ، كائناً من كان القائم بالأمر وبالغاً ما بلغ من قلة الصلاح وبطلان الحجة . وهي بواعث لا تثنيه عن الخروج ولا تزال تلح عليه في اتخاذ طريق واحد من طريقين لا معدل عنهما ، وهما الخروج إن كان لا بد خارجاً في وقت من الأوقات ، أو التسليم بما ليست ترضاه له مروءة ولا يرضاه له إيمان ..

مصرع وانتصار

أما نتائج الحركة كلها — إذا نظرنا إليها نظرة واسعة — فهي أنجح للقضية التي كان ينصرها من مبايعة يزيد .

فقد صرع الحسين عام خروجه ، ولحق به يزيد بعد ذلك بأقل من أربع سنوات ...

ولم تنقض ست سنوات على مصرع الحسين حتى حاق الجزاء بكل رجل أصابه في كربلاء ، فلم يكد يسلم منهم أحد من القتل والتنكيل مع سوء السمعة ووسواس الضمير .

ولم تعمر دولة بني أمية بعدها عمر رجل واحد مديد الأجل ، فلم يتم لها بعد مصرع الحسين نيف وستون سنة ! .. وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذي سكن في جثمانها حتى قضى عليها ، وأصبحت ثارات الحسين نداء كل دولة تفتح لها طريقاً إلى الأسماع والقلوب ..

ولاصابة هذه الحركة في نتائجها الواسعة دخل في روع بعض المؤرخين أنها تدبير من الحسين رضي الله عنه ، توخاه منذ اللحظة الأولى وعلم موعد النصر فيه . فلم يخامره الشك في مقتله ذلك العام ، ولا في عاقبة هذه الفعلة التي ستحيق لا محالة بقاتليه بعد أعوام .

فقال ماربين الألماني في كتابه (السياسة الاسلامية) : « ان حركة

الحسين في خروجه على يزيد انما كانت عزمة قلب كبير عز عليه الاذعان وعز عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته ، ويحيي به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة » .

فإن لم يكن رأي الكاتب حقاً كله ، فبعضه على الأقل حق لا شك فيه ويصدق ذلك — في رأينا — على حركة الحسين بعد أن حيل بينه وبين الذهاب لوجهه الذي يرتضيه ، فآثر الموت كيفما كان ولم يجهل ما يحيق ببني أمية من جراء قتله .. فهو بالغ منهم بانتصارهم عليه ما لم يكن ليبلغه بالنجاة من وقعة كربلاء .

* * *

وقد جرى ذكر الموت على لسان الحسين من خطوته الأولى وهو يتهيأ للرحيل ويودع أصحابه في الحجاز ، فقال لهم : « إن الموت حق على ولد آدم » ولم يخف عليه أنه يركب الخطة التي لا يبالي راكبها ما يصيبه من ذلك القضاء .

لكنه لم يكن ييأس من اقناع الناس والتفافهم به منذ خطوته الأولى . ولم يعقد عزمه على ملاقاة الموت حتى ساموه الرغم ، وأبوا عليه أن ينصرف إلى أي منصرف قبل التسليم المبين ، مسوقاً على الكره منه إلى عبيد الله بن زياد ..

وتتباين آراء المتأخرين خاصة في خروج الحسين بنسائه وأبنائه ، أكان هو الأحزم والأكرم أم كان الأحزم والأكرم أن يخرج بمفرده حتى يرى ما يكون من استجابة الناس له أو إعراضهم عنه وضعفهم في تأييده .

وليس للمتأخرين أن يقضوا في مسألة كهذه بعقولهم وعاداتهم ، لأنها مسألة يقضى فيها بحكم العقل العربي وعاداته في أشباه هذه المواقف . وقد كان اصطحاب النساء والأبناء عادة عربية في البعوث التي يتصدى لها المرء

متعمداً القتال دون غيره فضلاً عن البعوث التي قد تشتبك في القتال وقد تنتهي بسلام كبعثة الحسين .

فكان المقاتلون في وقعة ذي قار يصطحبون حلائلهم وذراريهم ويقطعون وضن الرواحل – أي أحزمتها – قبل خوض المعركة ، وكان المسلمون والمشركون معاً يصطحبون الحلائل والذراري في غزوات النبي عليه السلام ، وكان مع المسلمين في حرب الروم صفوة نساء قريش وعقائل بيوتاتها ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يصطحب زوجة أو أكثر من زوجة في غزواته وحروبه ، وحكم الواحدة هنا حكم الكثيرات ، وهي عادة عربية عريقة يقصدون بها الاشهاد على غاية العزم وصدق النية فيما هم مقبلون عليه ، وفي معلقة ابن كلثوم اشارة مجملة إلى معنى هذه العادة العربية من قديم عصورها حيث يقول :

عَلَى آثارِنَا بِيضٌ حِسَانٌ
نُحَاذِرُ أَنْ تُقَسَّمَ أَوْ تَهُونا
يَقُتْنَ جِيَادَنا ويَقُلْنَ لَسْتُم
بُعُولَتَنَا إذَا لَمْ تَمْنَعُونا

وقد كان الحسين رضي الله عنه يندب الناس لجهاد يخوضونه إن قضي عليهم أن يخوضوه فلا يبالون ما يصيبهم في أنفسهم وفي أبنائهم وأموالهم، لأنهم يطلبون به ما هو أعز على المؤمن من النفس والولد والمال ، فليس من المروءة أن يندبهم لأمر ولا يكون قدوة لهم فيه .

وكان على الحسين وقد أزمع الخروج أن يجمع له أقوى حجة في يديه ويجمع على خصومه أقوى حجة تنقلب عليهم ، إذا غلبوه وأخفق في مسعاته .. فيكون أقوى ما يكون وهو منتصر ، ويكونون أبغض ما يكونون وهو مخذول ..

والمسلم الذي ينصر الحسين لنسبه الشريف أولى أن ينصره غاية نصره وهو

بين أهله وعشيرته ، وإلا فما هو بناصره على الاطلاق ، وتنقلب الآية في حالة الخذلان ، فينال المنتصر من البغضاء والنقمة على قدر انتصاره الذي يوشك أن ينقلب عليه .

صواب الشهداء

وجملة ما يقال ان خروج الحسين من الحجاز إلى العراق ، كان حركة قوية لها بواعثها النفسية التي تنهض بمثله ولا يسهل عليه أن يكبتها أو يحيد بها عن مجراها ..

وانها قد وصلت إلى نتائجها الفعالة من حيث هي قضية عامة تتجاوز الأفراد إلى الأعقاب والأجيال ، سواء أكانت هذه القضية نصرة لآل الحسين أم حرباً لبني أمية ..

إنما يبدو الخطأ في هذه الحركة حين ننظر إليها من زاوية واحدة ضيقة المجال قريبة المرمى ،وهي زاوية العمل الفردي الذي يراض بأساليب المعيشة اليومية ويدور على النفع العاجل للقائمين به والداعين إليه ..

فحركة الحسين لم تكن مسددة الأسباب لمنفعة الحسين بكل ثمن وحيثما كانت الوسيلة ..

وعلة ذلك ظاهرة قريبة ..

وهي أن الحسين رضي الله عنه طلب الخلافة بشروطها التي يرضاها ولم يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من ثمن ومهما تتطلب من وسيلة ..

وهنا غلطة الشهداء ..

بل قل : هنا صواب الشهداء ..

ومن هو الشهيد إن لم يكن هو الرجل الذي يصاب ويعلم أنه يصاب لأن

الواقع يخذله ولا يجري معه إلى مرماه ؟

منذ القدم ، أخطأ الشهداء هذا الخطأ ، ولو أصابوا فيه لما كانوا شهداء ولا شرفت الدنيا بفضيلة الشهادة ..

فالحسين رضي الله عنه قد طلب خلافة الراشدين حيث لا تتسنى خلافة الراشدين ، أو حيث تتسنى الدولة الدنيوية التي يضن بها أصحابها ويتكالبون عليها ويتوسلون إليها بوسائلها ...

فكانت عنايته بالدعوة والاقناع أعظم جداً من عنايته بالتنظيم والإلزام ..

نزل رسوله الأول مسلم بن عقيل بالكوفة صفر اليدين من المال حتى احتاج فيها أن يقترض سبعمائة درهم هي التي أوصى بردها إلى أصحابها قبل قتله ..

وتلك عقبة من العقبات التي تعوق الدعوات الكبار ، ولكنها على هذا لم تكن بالعقبة العصية التذليل ..

فلو أنه قد طلب من وسائله الدنيوية أو السياسية ، لما استعصى عليه أن يأخذ منه ما يكفيه . فلعله كان ميسوراً له بعد أن تجمع حوله الأنصار وبايع الحسين على يديه ثلاثون ألفاً كما جاء في بعض الروايات . ففي تلك اللحظة لعله كان يستطيع أن يحيط بقصر الوالي الأموي ويستولي عليه وينشىء الحكومة الحسينية فيه . ثم لعله كان يستطيع بعد ذلك أن يوجه الدعاة إلى أطراف الدولة الشرقية ليتلقى البيعة ويقيم الولاة ويحشد الأجناد ..

فإذا كان هذا فاته حتى خف الأمويون لدرء الخطر عنهم وبعثوا إلى الكوفة بعبيد الله بن زياد ، فقد سيق عبيد الله هذا في يوم من الأيام إلى يديه وكان في وسعه أن يبطش به ويستوي على كرسيه ويحرم يزيد بن معاوية نصيراً من أعنف أنصاره ..

وقد فاته هذا لأن شريعة الخلافة لا تبيحه في رأيه ، أو لأنه اعتقد أن

الحق بيِّن وأن الباطل بيِّن ... فلا حاجة به بعد التمييز بينهما إلى فتكة الغدر كما سماها ، ولا محل عنده لاهدار الدماء وهو ينعى على الدولة القائمة أنها تهدر الدماء بالشبهات ...

ولقد رأى مسلم أن حق صاحبه في الخلافة قائم على شيء واحد وهو إقبال الناس إليه طائعين ومبايعتهم إياه مختارين . فأما وقد تفرقوا عنه رهبة من السلطان أو ضعفاً في اليقين ، فالرأي عنده أن يكتب إلى صاحبه يعلمه بانفضاض الناس عنه ويثنيه عن القدوم ، ولا حق له عليهم بعد ذلك حتى يثوبوا إليه...

وقيام الخلافة على هذا الاختيار عقيدة لا نفهمها نحن الآن ، ولكن قد يفهمها يومئذ من كان على مقربة من عهد النبوة وعهد الصدِّيق والفاروق .

فقد كان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من قبيلها بعد عهد النبوة وعهد الخلفاء الأولين ..

لم يكن الصراع بين علي ومعاوية على هذا الوضوح الذي لا شبهة فيه بين الحق والباطل وبين الفضيلة والنقيصة . .

لكنه في بيعة الحسين كان قد وضح وضوح الصبح لذي عينين ..

وكان ذلك كما قلنا أول تجربة من قبيلها بعد عهد الفداء في سبيل العقيدة والايمان .. بعد العهد الذي كان الرجل فيه يخرج من ماله وينفصل من ذويه ويتجرد لحرب أبيه وأخيه وبنيه إن خالفوه في أمر الاسلام ... بعد العهد الذي كان القليل فيه من المسلمين يصدون الكثير من المشركين وفي أيديهم السلاح والعتاد ومن ورائهم المعاقل والأزواد ... بعد العهد الذي تغير فيه الناس ، وخيل إلى من كان يعهدهم على غير تلك الحال أنهم متغيرون ..

الناس عبيد الدنيا

فكيف ينخذل الحسين وينتصر يزيد في عالم شهد النبوة وشهد الخلافة على سنة الراشدين ؟ ان كلمة واحدة قالها الحسين في ساعة يأسه تشف عن مبلغ

يقينه بوجوب الحق وعجبه من أن يكون الأمر غير ما وجب ، وذلك حيث قال : « الناس عبيد الدنيا ، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت به معائشهم ، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون » .

ان الطبائع الأرضية لا تنخدع في صلاح الناس ولا تعجب هذا العجب لأنها لا تخرج من نطاقها المحدود ولا تصدق ما وراءه من الآمال والوعود .

إنها لا تضل عن طريق المنفعة لأنها لا تعرف غيرها من طريق ، انها تؤثر القنديل الخافت في يدها على الكوكب اللامع في السماء ، لا لأنها لا ترى الكوكب اللامع في السماء ، بل لأنها ترى القنديل والكوكب فتعلم أن هذا قريب وأن ذاك جد بعيد ..

إنها لا تنخدع بالسراب لأنها لا تخرج من عقر دارها ولا تشعر بظمأ الفؤاد ولا تنظر إلى السراب ..

ولكن طبيعة الشهداء غير طبيعة المساومة على البيع والشراء ...

طبيعة المساومة موكلة بالحرص على الهنات..

وطبيعة الشهادة موكلة ببذل الحياة لما هو أدوم من الحياة ...

وشتان طبيعة وطبيعة ، وشتان خطأ الشهداء وخطأ المساومين .

وليست موازين المساومة بالموازين الفذة التي يصلح عليها أمر بني الانسان ، فإن بني الانسان ما بهم غنى قط عن الذين يخطئون لأنهم أرفع من المصيبين ، وانهم لهم الشهداء .

وإنهم لعلى صواب في المدى البعيد ، وإن كانوا على خطأ في المدى القريب .. مدى الأجواف والمعدات والجلود لا مدى الأرواح والأخلاد ..

من هؤلاء كان الحسين رضي الله عنه ، بل هو أبو الشهداء وينبوع شهادة متعاقبة لا يقرن بها ينبوع في تاريخ البشر أجمعين ..

فلا جرم يصيب في المدى البعيد ويخطىء في المدى القريب ... مدى المنفعة التي تناله هو في معيشة يومه ، وهو المدى الذي لا يأسف عليه ولا ينص الركاب اليه ..

* * *

الحرم المقدّس

عرفت قديماً باسم « كور بابل » ثم صحفت إلى كربلاء ، فجعلها هذا التصحيف عرضة لتصحيف آخر يجمع بين الكرب والبلاء ، كما رسمها بعض الشعراء ..

ولم يكن لها ما تذكر به في أقرب جيرة لها فضلاً عن أرجاء الدنيا البعيدة منها .. فليس لها من موقعها ، ولا تربتها ، ولا من حوادثها ، ما يغري أحداً برؤيتها ثم يثبت في ذاكرة من يراها ساعة يرحل عنها .

فلعل الزمن كان خليقاً أن يعبر بها سنة بعد سنة وعصراً بعد عصر ، دون أن يسمع لها اسم أو يحس لها بوجود .. إلا أن تذكر « نينوى » وجيرتها فتدخل في زمرة تلك الجيرة بغير حساب .

وشاءت مصادفة من المصادفات أن يساق إليها ركب الحسين بعد أن حيل بينه وبين كل وجهة أخرى ، فاقترن تاريخها منذ ذلك اليوم بتاريخ الاسلام كله . ومن حقه أن يقترن بتاريخ بني الانسان حيثما عرفت لهذا الانسان فضيلة يستحق بها التنويه والتخليد ..

فهي اليوم حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى ، ويزوره غير المسلمين للنظر والمشاهدة ، ولكنها لو أعطيت حقها من التنويه والتخليد ، لحق لها أن تصبح مزاراً لكل آدمي يعرف لبني نوعه نصيباً من القداسة وحظا من الفضيلة ،

لأننا لا نذكر بقعة من بقاع هذه الأرض يقترن اسمها بجملة من الفضائل والمناقب أسمى وألزم لنوع الانسان من تلك التي اقترنت باسم كربلاء ، بعد مصرع الحسين فيها .

فكل صفة من تلك الصفات العلوية التي بها الانسان إنسان وبغيرها لا يحسب غير ضرب من الحيوان السائم .. فهي مقرونة في الذاكرة بأيام الحسين رضي الله عنه في تلك البقعة الجرداء .

وليس في نوع الانسان صفات علويات أنبل ولا ألزم له من الإيمان والفداء والإيثار ويقظة الضمير وتعظيم الحق ورعاية الواجب والجلد في المحنة والأنفة من الضيم والشجاعة في وجه الموت المحتوم .. وهي – ومثيلات لها من طرازها – هي التي تجلت في حوادث كربلاء منذ نزل بها ركب الحسين ، ولم تجتمع كلها ولا تجلت قط في موطن من المواطن تجليها في تلك الحوادث ، وقد شاء القدر أن تكون في جانب منها أشرف ما يشرف به أبناء آدم ، لأنها في الجانب الآخر منها أخزى ما يخزى به مخلوق من المخلوقات ..

وحسبك من تقويم الأخلاق في تلك النفوس ، أنه ما من أحد قتل في كربلاء إلا كان في وسعه أن يتجنب القتل بكلمة أو بخطوة ، ولكنهم جميعاً آثروا الموت عطاشاً جياعاً مناضلين على أن يقولوا تلك الكلمة أو يخطوا تلك الخطوة ، لأنهم آثروا جمال الأخلاق على متاع الحياة ..

وحسبك من تقويم الأخلاق في نفس قائدها وقدوتها أنهم رأوه بينهم فافتدوه بأنفسهم ، ولن يبتعث المرء روح الاستشهاد فيمن يلازمه إلا أن يكون هو أهلاً للاستشهاد في سبيله وسبيل دعوته ، وأن يكون في سليقة الشهيد الذي يأتم به الشهداء .

نموت معك

أقبل الفتى الصغير عليّ بن الحسين على أبيه ... وقد علم أنهم مخيرون بين الموت والتسليم فسأله :

ـ ألسنا على الحق ؟ ..

قال الوالد المنجب النجيب :

ـ بلى والذي يرجع اليه العباد ..

فقال الفتى :

ـ يا أبه ! .. فإذن لا تبالي ! ..

وهكذا كانوا جميعاً لا يبالون ما يلقون ، ما علموا أنهم قائمون بالحق وعليه يموتون ..

وأراد الحسين ـ وقد علم أن التسليم لا يكون ـ أن يبقى للموت وحده وألا يعرض له أحداً من صحبه . فجمعهم مرة بعد مرة وهو يقول لهم في كل مرة : « لقد بررتم وعاونتم والقوم لا يريدون غيري . ولو قتلوني لم يبتغوا غيري أحداً .. فإذا جنّكم الليل فتفرقوا في سواده وانجوا بأنفسكم » ..

فكأنما كان قد أراد لهم الهلاك ولم يرد النجاة ، وفزعوا من رجائهم إياه كما يفزع غيرهم من مطالبتهم بالثبات والبقاء . وقالوا له كأنهم يتكلمون بلسان واحد : « معاذ الله والشهر الحرام .. ماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم ؟ أنقول لهم إنا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا ، تركناه غرضاً للنبل ودريئة للرماح وجزراً للسباع ، وفررنا عنه رغبة في الحياة ؟ معاذ الله .. بل نحيا بحياتك ونموت معك .. »

قالوا له نموت معك ولك رأيك : ولم يخطر لأحد منهم أن يزين له العدول عن رأيه إيثاراً لنجاتهم ونجاته . ولو خادعوا أنفسهم قليلاً لزينوا له التسليم وسموه نصيحة مخلصين يريدون له الحياة ، ولكنهم لم يخادعوا أنفسهم ولم يخادعوه ، ورأوا أصدق النصيحة له أن يجنبوه التسليم ولا يجنبوه الموت ، وهم جميعاً على ذلك .

ولم يكونوا جميعاً من ذوي عمومته وقرباه ، بل كان منهم غرباء نصحوا

له ولأنفسهم هذه النصيحة التي ترهب العار ولا ترهب الموت . فقال له زهير ابن القين : « والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل هكذا ألف مرة ، ويدفع الله بذلك الفشل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك » .

وقال مسلم بن عوسجة كأنه يعتب لما اختار له من السلامة : « أنحن نخلي عنك ؟ وبم نعتذر إلى الله في أداء حقك ؟ لا والله حتى أطعن في صدورهم برمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة . والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك . وأما والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق ثم أحيا ثم أحرق ثم أذرى ويفعل بي ذلك سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك .. »

وجيء إلى رجل من أصحابه الغرباء بنبأ عن ابنه في فتنة الديلم ، فعلم أن الديلم أسروه ولا يفكون إساره بغير فداء ، فأذن له الحسين أن ينصرف وهو في حل من بيعته ويعطيه فداء ابنه . فأبى الرجل إباء شديداً ، وقال : « عند الله أحتسبه ونفسي » ثم قال للحسين : « هيهات أن أفارقك ثم أسأل الركبان عن خبرك . لا يكن والله هذا أبداً » .

* * *

وقد تناهت هذه المناقب إلى مداها الأعلى في نفس قائدهم الكريم ... يخيل إلى الناظر في أعماله بكربلاء أن خلائقه الشريفة كانت في سباق بينها أيها يظفر بفخار اليوم ، فلا يدري أكان في شجاعته أشجع ، أم في صبره أصبر ، أم في كرمه أكرم ، أم في ايمانه وأنفته وغيرته على الحق بالغاً من تلك المناقب المثلى أقصى مداه ... إلا انه كان يوم الشجاعة لامراء ، وكانت الشجاعة فضيلة الفضائل التي تمدها سائرها بروافد من كل خلق نبيل يعينها على شأنها . فكان الحسين — شبل علي — في شجاعته الروحية والبدنية معاً غاية الغايات ، وكان مضرب المثل بين الرعيل الأول من أشجع الشجعان في

أبناء آدم وحواء ..

ملك جأشه .. وكل شيء من حوله يوهن الجأش ، ويحل عقدة العزم ، ويغري بالدعة والمجاراة ..

ملك جأشه ومن حوله نساؤه وابناؤه في نضارة العمر ، يجوعون ويظمأون ، ويتشبثون به ويبكون ، وملك جأشه روية وأناة ولم يملكه وثبة واثب إلى الغضب أو هيجة مهتاج إلى الوغى ، فكان قبل القتال وفي حومة القتال قوياً بصيراً ينفض الضعف عن عزائمه ، كما ينفض الأسد غبرات الحصباء عن لبده ، ولم يخامره الأسف قــط في ذلك الموقف المرهوب إلا من أجل أحبائه وأعزائه الذين يراهم ويرونه ويسمع صيحتهم ويسمعونه. فقال وهو ينظر إلى الأخبية ومن فيها : « لله در ابن عباس فيما أشار به عليَّ ! » .

وجلس ليلة القتال في خيمته يعالج سهاماً له بين يديه ويرتجز وأمامه ابنه العليل :

يا دهر أفٍّ لك مِنْ خَليلِ	كم لك بالاشراقِ والأصيلِ
من صاحبٍ وماجــدٍ قتيــلِ	والدهرُ لا يقنــع بالبديـــلِ
والأمرُ في ذاكَ إلى الجليـــلِ	وكــلُّ حــيٍّ سالكٍ سبيلي

فرد ابنه عبرته لكيلا يزيده ألماً على ألمه . وسمعته أخته زينب ، فلم تقو على حنانها ووجلها ، وخرجت إليه من خبائها حاسرة تنادي : « واثكلاه ! اليوم مات جدي رسول الله وأمي فاطمة الزهراء وأبي علي وأخي الحسين فليت الموت أعدمني الحياة يا حسيناه ! يا بقية الماضين وثمالة الباقين ! » .

فبكى لبكائها ولم ينثن ذرة عن عزمه الذي بات عليه ، وقال لها :

ـ يا أخت ! لو ترك القطا لنام .. ولم يزل يناشدها .. ويعزيها وهو في قرارة نفسه مستقر كالطود على مواجهة الموت وإباء التسليم أو النزول على « حكم ابن مرجانة » كما قال .. ثم احتملها مغشياً عليها حتى أدخلها الخباء..

* * *

تزول الممالك وتدول الدول وتنجح المطامع أو تخيب وتحضر المطالب أو تغيب . وهذه الخلائق العلوية في صدر الانسان أحق بالبقاء من الممالك وما حوته ، ومن الدول وما حفظته أو ضيعته ، بل أحق بالبقاء من رواسي الأرض وكواكب السماء ..

حرب النور والظلام

وكانت فئة الحسين صغيرة كما علمنا قد رصدت لها هنالك تلك الفئة الكبيرة التي تناقضها أتم ما يكون التناقض بين طرفين ، وتباعدها أبعد ما تكون المسافة بين قطبين ، فكل ما فيها أرضي مظلم مسف بالغ في الاسفاف ، وليس فيها من النفحة العلوية نصيب ..

أللمصادفات نظام وتدبير .. ؟!

نحن لا نعلم إلا أنها مصادفات يخفى علينا ما بينها من الوشائج والصلات .. ولكنها – لذلك – هي الاعاجيب التي تستوقف النظر لعجبها العاجب ، وإن لم تستوقفه لما يفهمه فيها من نظام وتدبير .

فجيرة كربلاء كانت قديماً من معاهد الايمان بحرب النور والظلام ، وكان حولها أناس يؤمنون بالنضال الدائم بين أورمزد وأهرمان . ولكنه كان في حقيقته ضرباً من المجاز وفنا من الخيال .

وتشاء مصادفات التاريخ إلا أن ترى هذه البقاع التي آمنت بأورمزد وأهرمان حرباً هي أولى أن تسمى حرب النور والظلام من حرب الحسين ومقاتليه ..

* * *

وهي عندنا أولى بهذه التسمية من حروب الاسلام والمجوسية في تلك البقاع وما وراءها من الأرض الفارسية لأن المجوسي كان يدافع شيئاً ينكره .. ففي دفاعه معنى من الإيمان بالواجب كما تخيله ورآه ، ولكن الجيش الذي

أرسله عبيد الله بن زياد لحرب الحسين كان جيشاً يحارب قلبه لأجل بطنه أو يحارب ربه لأجل واليه . إذ لم يكن فيهم رجل واحد يؤمن ببطلان دعوى الحسين أو رجحان حق يزيد ، ولم يكن فيهم كافر ينفح عن عقيدة غير عقيدة الاسلام ، إلا من طوى قلبه على كفر كمين هو مخفيه ، ولا نخالهم كثيرين . .

ولو كانوا يحاربون عقيدة بعقيدة ، لما لصقت بهم وصمة النفاق ومسبة الأخلاق .. فعداوتهم ما علموا أنه الحق وشعروا أنه الواجب أقبح بهم من عداوة المرء ما هو جاهله بعقله ومعرض عنه بشعوره ، لأنهم يحاربون الحق وهم يعلمون ..

ومن ثم كانوا في موقفهم ذاك ظلاماً مطبقاً . ليس فيه من شعور الواجب بصيص واحد من عالم النور والفداء .. فكانوا حقاً في يوم كربلاء قوة من عالم الظلام تكافح قوة من عالم النور .

أقربهم إلى العذر يومئذ من اعتذر بالفرق والرهبة لأنهم أكرهوه بالسيف على غير ما يريد .. فكان الجبن أشرف ما فيهم من خصال السوء .

وكان منهم أناس كتبوا إلى الحسين يستدعونه إلى الكوفة ليبايعوه على حرب يزيد ، فلما ندبهم عمر بن سعد للقائه وسؤاله أحجموا عما ندبهم له واستعفوه ، لأن جوابهم إن سألوه في شأن مجيئه إليهم : انني جئتكم ملبياً ما دعوتهم إليه ! ..

وركب أناساً منهم الفزع الدائم بقية حياتهم لأنهم عرفوا الاثم فيما اقترفوه عرفانا لا تسعهم المغالطة فيه ، ومن هؤلاء رجل من بني أبان بن دارم كان يقول :

ـ قتلت شاباً أمرد مع الحسين بين عينيه أثر السجود .. فما نمت ليلة منذ قتلته إلا أتأني فيأخذ بتلابيبي حتى يأتي جهنم فيدفعني فيها ، فأصبح فما يبقى أحد في الحي إلا سمع صياحي .

* * *

ورأى هذا الرجل صاحب له بعد حين وقد تغير وجهه واسود لونه ، فقال له : « ما كدت أعرفك » ، وكان يعرفه جميلاً شديد البياض ..

ومنهم من كان يتزاور عن الحسين في المعمعة ، ويخشى أن يصيبه أو يصاب على يديه ، ولو أنهم حاربوه لأنهم علموا أنه أهل للمحاربة فلم يتزاوروا عنه ولم يتحاشوه لكانت الحرب هنالك حرباً بين رأيين ومذهبين وشجاعتين ، ولكنهم كشفوا أنفسهم بتحاشيهم إياه . فاذا هم يحاربون رأيهم الذي يدينون به ، ووليهم الذي يضمرون له الحرمة والكرامة ، وفي ذلك خزيهم الأثيم .

على أن الجبن والجشع لا يفسران كل ما اقترفه جيش عبيد الله من شر ولؤم في أيام كربلاء .

فلا حاجة بالجبان ولا بالجشع إلى التمثيل والتنكيل أو التبرع بالايذاء حيث لا تلجئه الضرورة إليه ، وليس قتل الطفل الصغير الذي يموت من العطش وهو على مورد الماء بالأمر الذي يلجىء إليه الجبن أو يلجىء إليه طلب المال ، وقد حدث في أيام كربلاء من أمثال هذا البغي اللئيم شيء كثير رواه الأمويون ، ولم تقتصر روايته على الهاشميين والطالبيين أو أعداء بني أمية !

* * *

وينبغي أن نفهم ذلك على وجه واحد لا سبيل إلى فهمه بغيره ، وهو نكسة الشر في النفس البشرية ، حين تلج بها مغالطة الشعور وحين تغالب عنانها حتى تعييها المغالبة فينطلق بها العنان .

فالرجل الخبيث المغرق في الخيانة قد يتصرف في خلوته تصرف الأنذال ثم لا يبالي أن يعرف نذالته وهو بنجوة من أعين الرقباء . ولكن أربعة الآلاف لا يتصارحون بالنذالة بينهم ولا يقول بعضهم لبعض إنهم يعملون ما يستحقون به التحقير والمهانة ولا تقبل لهم فيه معذرة ولا علالة . وإنما شأنهم في هذه الحالة أن يصطنعوا الحماسة ويجاهدوا التردد ما استطاعوا ليظهروا في ثوب الغلاة

المصدقين الذين لا يشكون لحظة في صدق ما يعلمون ، فيغمض الرجل منهم عينيه ويستتر بغشاء من النفاق حتى ليوشك أن يخدع نفسه عن طوية فؤاده ..

وتلك لحاجة المغالطة في الشعور ..

أما مجاذبة النفس عنانها وانطلاقها بعد هذه المجاذبة المخفقة ، فالشواهد عليها كثيرة فيما نراه كل يوم .. يحاول الرجل أن يتجنب الخمر فلا يستطيع ، فاذا هو قد خلع العذار وغرق فيها لياه ونهاره غير مبال بما يقال كأنما هو القائل : « دع عنك لومي فان اللوم اغراء » .

وتحب المرأة أن تستحي وتتوارى من المسبة في هواها ، ثم يغلبها هواها فاذا هي قد ألقت حياءها للريح ، وصنعت ما تحجم عنه التي لم تنازع نفسها قط في هوى ، ولم تشعر قط بوطأة الخجل والاستتار .

واندفاع المتهجمين على الشر في حرب كربلاء بغير داع من الحفيظة ولا ضرورة ملزمة تقضي بها شريعة القتال ، لهو الاندفاع الذي يسبر لنا عمق الشعور بالاثم في نفوس أصحاب يزيد . وقد رأينا من قبل عمق الشعور بالحق في أصحاب الحسين ، وما بنا من حاجة إلى البحث عن علة مثل هذه العلة لمن خلقوا مجرمين وخلقت معهم ضراوة الحقد والايذاء لهذا الميدان وغير هذا الميدان ، كشمر بن ذي الجوشن ، ومن جرى مجراه .. فهؤلاء لا يصنعون غير صنيعهم الأثيم كلما وجدوا السبيل اليه .

على أنها – بعد كل هذا – حرب بين الكرم واللؤم ، وبين الضمير والمعدة ، وبين النور والظلام .. فشأنها على أية حال أن تصبح مجالاً من الطرفين لقصارى ما يبلغه الكرم وقصارى ما يبلغه اللؤم ، وقد بلغت في ذلك أقصى مدى الطرفين .

* * *

ومن المتعذر بعد وقوف هاتين القوتين موقف المراقبة والمناجزة ، أن

نتقصى أوائل القتال ونتبع ترتيب الحوادث واحدة بعد واحدة على حسب وقوعها .. فإن الأقوال في سرد حوادث كربلاء لا تتفق على ترتيب واحد ، سواء كان هذا الترتيب في رواية أنصار الحسين أو رواية أنصار يزيد .

إلا أن الترتيب الطبيعي يستبين للعقل من سبب الوقوف في ذلك المكان ، وهو منع الحسين أن ينصرف إلى سبيله وأن يرد الماء حتى يكرهه العطش إلى التسليم ، وكان الموقف كما وصفه أبو العلاء بعد ذلك بأربعة قرون :

منعَ الفتَى هينا فَجَرّ عَطَائِمَا وحُمِي نَميرُ المَاءِ فانبعثَ الدَّمُ

ولم يمتنع طريق الماء في بادىء الأمر دفعة واحدة لأن حراس المورد من جماعة عمر بن سعد ، لم يكونوا على جزم بما يصنعون في مواجهة الحسين وصحبه .. فلما اندفع بعض أصحاب الحسين إلى الماء بالقرب والأداوي ، مانعهم القوم هنيهة ثم أخلوا لهم سبيل النهر خوفاً وحيرة ، فشربوا وملأوا قربهم وأداواهم بما يغنيهم عن الاستقاء إلى حين .

والظاهر أن الشر كله كان في حضور شمر بن ذي الجوشن على تلك الساحة؛ متربصاً كل التربص بمن يتوانى في حصار الحسين ومضايقته فيعزله ويعرضه لسوء الجزاء ، ثم يطمع من وراء ذلك أن يتولى قيادة الجيش وامارة الري بعد عزل عمر بن سعد بن أبي وقاص .. فبطل التردد شيئاً فشيئاً ، وتعذر على الحسين وأصحابه بعد الهجمة الأولى أن يصلوا إلى الماء . ولبثوا أياماً وليس في معسكرهم ذو حياة من رجل أو امرأة أو طفل أو حيوان إلا وهو يتلظى على قطرة ماء فلا ينالها ، ومنهم الطفل العليل والشيخ المكدود والحيوان الأعجم ، وصياح هؤلاء الظماء من حرقة الظمأ يتوالى على مسمع الحسين ليل نهار وهو لا يملك لهم غير الوصاية بالصبر وحسن المؤاساة .

وفي ذلك المأزق الفاجع ، نضحت طبائع اللؤم في معسكر ابن زياد بشر ما تنضح به طبيعة لئيمة في البنية الآدمية ... فاقترفوا من خسة الأذى ما تنزه عنه الوحوش الضاريات ، وجعلوا يتلهون ويتفكهون بما تقشعر منه

الجلود وتندى له الوجوه ، ونكاد نمسك عن تسطيره أسفاً وامتعاضاً لولا أن القليل منه جزء لا ينفصل من هذه الفاجعة ، وبيان لما يلي من وقعها في النفوس وتسلسل تراثها إلى أمد بعيد ..

مآثم مخزية

فمن هذه المآثم المخزية أن الحسين برح به العطش فلم يباله .. ولكنه رأى ولده عبد الله يتلوّى من ألمه وعطشه ، وقد بحّ صوته من البكاء ، فحمله على يديه يهم أن يسقيه ويقول للقوم : « أتقوا الله في الطفل إن لم تتقوا الله فينا » فأوتر رجل من نبالة الكوفة قوسه ، ورمى الطفل بسهم وهو يصيح ليسمعه العسكران « خذ اسقه هذا » .. فنفذ السهم إلى أحشائه ! ! ..

وكانوا يصيحون بالحسين متهافتين : « ألا ترى إلى الفرات كأنه بطون الحيات ؟! .. والله لا تذوقه حتى تموت ومن معك عطشاً » .

ولما اشتد عطش الحسين دنا من الفرات ليشرب ، فرماه حصين بن نمير بسهم وقع في فمه .. فانتزعه الحسين وجعل يتلقى الدم بيديه فامتلأت راحتاه بالدم ، فرمى به إلى السماء وقد شخص ببصره اليها وهو يقول : « إن تكن حبست عنا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير منه ، وانتقم لنا من القوم الظالمين ! » .

وقد كان منع الماء — قبل الترامي بالسهام — نذيراً كافياً بالحرب ، يبيح الحسين أن يصيب منهم من يتعرض للاصابة .. ولكنه رأى شمر بن ذي الجوشن — أبغض مبغضيه المؤلبين عليه — يدنو من بيوته ويجول حولها ليعرف منفذ الهجوم عليها ، فأبى على صاحبه السلم بن عوسجة أن يرميه بسهم وقد أمكنه أن يصميه وهو من أسد الرماة .. لأنه كره أن يبدأهم بعداء ..

* * *

وكأنه لمح منهم ضعف النية وسوء الدخلة في الدفاع عن مولاهم ، وعلم أنهم لا يخلصون في حبه ، ولا يؤمنون بحقه ، وأنهم يخدمونه للرغبة أو الرهبة ولا يخدمونه للحق والذمة .. فطمع أن يقرع ضمائرهم وينبه غفلة قلوبهم ، ورمى بآخر سهم من سهام الدعوة قبل أن يرمي بسهم واحد من سهام القتال . فخرج لهم يوماً بزي جده عليه السلام متقلداً سيفه لابساً عمامته ورداءه ، وأراهم أنه سيخطبهم ، فكان أول ما صنعوه دليلاً على صدق فراسته فيهم ، لأن رؤساءهم ومؤلبيهم أشفقوا أن يتركوا له آذان القوم فينفذ إلى قلوبهم ويلمس مواقع الاقناع من ألبابهم . فضجوا بالصياح والجلبة وأكثروا من العجيج والحركة ليحجبوا كلامه عن أسماعهم ويتقوا أثر موعظته فيهم ، وهو بتلك الهيئة التي تغضي عنها الأبصار وتعنو لها الجباه ..

ولكنه صابرهم حتى ملّوا ، ومل اخوانهم ضجيجهم هذا الذي يكشفون به عن عجزهم وخوفهم ، ولا يوجب الثقة بدعواهم عند إخوانهم .. فهدأوا بعد لحظات وسمعوه بعد الحمد والصلاة : « أنسبوني من أنا ... هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي ؟ ألست ابن بنت نبيكم ؟ .. أو لم يبلغكم ما قاله رسول الله لي ولأخي : هذان سيدا شباب أهل الجنة ؟ ويحكم ! .. أتطلبوني بقتيل لكم قتلته أو مال لكم استهلكته ؟ »

ثم نادى بأسماء أنصاره الذين استدعوه إلى الكوفة ثم خرجوا لحربه في جيش ابن زياد . فقال : « يا شيث بن الربعي ! يا حجار بن أبجر ! يا قيس ابن الأشعث ! يا يزيد بن الحارث ! يا عمر بن الحجاج ! .. ألم تكتبوا إلي أن قد أينعت الثمار واخضرت الجنبات ، وانما تُقدم على جند لك مجنّد ؟» ..

فزلزلت الأرض تحت أقدامهم بهذه الكلمات وبلغ بها المقنع ممن فيه مطمع لاقناع ، وتحولت إلى صفه فئة تعلم أنها تتحول إلى صف لن تجد فيه غير الموت العاجل ، واستطابت هذا الموت ولم تستطب البقاء مع ابن زياد لاغتنام الغنيمة وانتظار الجزاء من المناصب والاموال .

* * *

ولم تكن كلمة الحسين كل ما شهره عسكره من سلاح الدعوة قبل الاحتكام إلى السيف ... فقد كانت للبطل المجيد زهير بن القين كلمات في أهل الكوفة أمضى من السيوف والرماح حيث تصيب ، فركب فرسه وتعرض لهم قائلاً : « يا أهل الكوفة ! نذار لكم من عذاب الله نذار ، ان حقاً على المسلم نصيحة المسلم ، ونحن حتى الآن إخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ،فاذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنا نحن أمة وأنتم أمة .. ان الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عايه وسلم لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، وإنا ندعوكم إلى نصر حسين وخذلان الطاغية ابن الطاغية عبيد الله بن زياد ، فانكم لا تدركون منهما إلا سوءاً : يسملان أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ، ويرفعانكم على جذوع النحل ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عديّ وأصحابه وهانىء بن عروة وأشباهه » .

فوجم منهم من وجم ، وتوقح منهم من توقح ، على ديدن المريب المكابر إذا خلع العذار ولم يأنف من العار ، وتوعدوه وتوعدوا الحسين معه أن يقتلوهم أو يسلموهم صاغرين إلى عبيد الله بن زياد .

تخاذل وضعف

ولا يظهر من عدد الفريقين ساعة القتال أن المتحولين إلى معسكر الحسين كانوا كثيرين أو متلاحقين . ولكن بداءة التحول كانت مما يخيف ويزعج ، لأنها اشتملت على قائد كبير من قواد ابن زياد هو الحر بن يزيد الذي أرسلوه في أول الأمر ليحلىء الحسين عن دخول الكوفة ، وقد كان يحسب أن عمله ينتهي إلى هذه المراقبة ولا يعدوها إلى القتال وسفك الدم .. فلما تبين نيّة القتال ، أقبل يدنو نحو عسكر الحسين قليلاً قليلا ، وتأخذه رعدة وينتابه ألم شديد .. حتى راب أمره صاحبه المهاجر بن أوس فقال له :

ـــ والله ان أمرك لمريب .. ما رأيت منك قط مثل ما أراه الآن ،ولو

قيل من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك ..

فباح له الرجل بما في نفسه وقال له :

– اني أخيِّر نفسي بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئاً ولو قطعت أو حرقت ..

ثم ضرب فرسه ، ولحق بالحسين وهو يعتذر قائلاً :

– لو علمت أنهم ينتهون إلى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبت ، وإني قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربي ، مؤاسياً لك بنفسي حتى أموت بين يديك ! ..

ولن يخلو معسكر ابن زياد من مئات كالحر بن يزيد يؤمنون إيمانه ويودون لو يلحقون به إلى معسكر الحسين ، ويزعجهم أن يتحول أمامهم إلى المعسكر وهم ناظرون إليه ، لأنه يبكتهم ويكشف مغالطتهم بينهم وبين أنفسهم ويحضهم على الاقتداء به والتدبر في أسباب ندمه ، لا لأنه ينتقص عددهم أو ينذر بالهزيمة في ميدان القتال .. فكلهم ولا ريب يشعر بشعوره ويعتقد في فضل الحسين على يزيد مثل اعتقاده ، وبعيد على العقل أن يصدق في هؤلاء الشراذم أنهم قد أطاعوا يزيد لأنه صاحب بيعة حاصلة وأنهم قد « تأدبوا بأدب الدولة » أدباً يغلب شعور الجماعة وإيمان المرء بحق الشريعة وحرمة البيت النبوي ، ويهون عليه قتل سبط النبي في هذا السبيل ، وكيف وان منهم لمن بايع الحسين على البعد ودعاه إليه ليقود « الجند المجند » إلى قتال يزيد ؟ فكلامهم في البيعة الحاصلة لغط يلوكونه بألسنتهم ولا يستر ما في طويتهم ، وليس أثقل على أمثال هؤلاء من عبء المغالطة كلما تلجلج في مكانه وحركته القدوة التي يريدونها ولا يقوون عليها ، كتلك القدوة الماثلة بصاحبهم الحر بن يزيد .

لا جرم كان أعظم الجيشين قلقاً وأشدهما حيرة وأعجلهما إلى طلب الخلاص من هذا المأزق الثقيل هو أكبر الفئتين وأقوى العسكرين ..

شجاعة جند الحسين

كان هناك عسكران احدهما صغير يلح عليه العطش والضيق ، ولكنه كان مطمئناً إلى حقه يلقى الموت في سبيله ويزيده العطش والضيق طمأنينة إلى هذا المصير ..

والعسكر الآخر أكبر العسكرين ولكنه كان « يخون » نفسه في ضمير كل فرد من أفراده ، وتملكه الحيرة بين ندم وخوف وتبكيت ومغالطة واضطراب ، يحز في الأعصاب ويقذف المرء إلى الخلاص كيفما كان الخلاص ..

وطال القلق على دخيلة عمر بن سعد فأطلقه سهماً في الفضاء كأنه كان متشبثاً بصدره فاستراح منه بانطلاقه ..

فزحف إلى مقربة من معسكر الحسين ، وتناول سهماً فرماه عن قوسه إلى المعسكر وهو يصيح :

ـ أشهدوا لي عند الامير اني أول من رمى الحسين ..

ثم تتابعت السهام فبطلت حجة السلم وذهب كل تأويل في نية القوم ، وقال الحسين وهو ينظر إلى السهام وينظر إلى أصحابه :

ـ قوموا يا كرام فهذه رسل القوم اليكم .

وبذلك بدأ القتال ..

وقد تأهب الحسين لهذه المنازلة المنتظرة ، وإن كان على انتظاره إياها قد تريث حتى يبدأوه بالعدوان من جانبهم ، وحتى يجب عليه الدفاع وجوباً لا خلاف فيه ..

فاختار له رابية يحتمي بها من ورائه ، ووسع وهدتها حتى أصبحت خندقاً لا يسهل عبوره .. فأوقد فيه النار ليمنع عليهم الالتفاف به من خلفه ، وهم في

كثرتهم التي ترجح عدة صحبه ستين ضعفاً قادرون على مهاجمته من جميع نواحيه .

وكان معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً .. وهم نيف وأربعة آلاف يكثر فيهم الفرسان وراكبوا الابل ويحملون صنوفاً مختلفة من السلاح ..

ومع هذا التفاوت البعيد في عدة الفريقين ، كان العسكر القليل كفؤا للعسكر الكثير لو جرى القتال على سنة المبارزة التي كانت دعوة مجابة في ذلك العصر ، إذا اختارها أحد الفريقين ..

فإن آل علي جميعاً كانوا من أشهر العرب – بل من أشهر العرب والعجم – بالقوة البدنية والصبر على الجراح والاضطلاع بعناء الحرب ساعات بعد ساعات ، ومنهم من كان يلوي الحديد فلا يقيمه غيره ، ومنهم محمد بن الحنفية الذي صرع جبابرة القوة البدنية بين العرب والعجم في زمانه ، ومن أشهر هؤلاء الجبابرة رجل كان في أرض الروم يفخر به أهلها . . فأرسله ملكهم إلى معاوية يعجز به العرب عن مصارعته واتقاء بأسه . فجلس محمد ابن الحنفية وطلب من ذلك الجبار الرومي أن يقيمه ، فكان كأنما يحرك جبلاً لصلابة أعضائه وشدة أسره . فلما أقر الرجل بعجزه رفعه محمد فوق رأسه ثم جلد به الأرض مرات .

والحسين رضي الله عنه قد كان هو ومن معه من شباب آل عليّ ممن ورث هذه القوة البدنية كما ورثوا ثبات الجأش وحمية الفؤاد ، وكانوا كفؤاً لمبارزة الأنداد واحداً بعد واحد حتى يفرغ جيش عبيد الله من فرسانه القادرين على المبارزة ، ولا يبقى منهم غير الهمل يتبددون في منازلة الشجعان ، كما تتبدد السائمة المذعورة بالعراء ..

وكان مع الحسين نخبة من فرسان العرب كلهم لهم شهرة بالشجاعة والبأس وسداد الرمي بالسهم ومضاء الضرب بالسيف ، ولن تكون صحبة الحسين غير ذلك بداهة وتقديراً لا يتوقفان على الشهرة الذائعة والوصف

المتواتر ، لأن مزاملة الحسين في مثل تلك الرحلة هي وحدها آية على الشجاعة في ملاقاة الموت وكرم النحيزة في ملاقاة الفتنة والاغراء .. فاذا جرى القتال كله مبارزة بين أمثال هؤلاء ومن يبرزون لهم من جيش عبيد الله ، فهم كفء للمنازلة وليس أملهم في الغلب بضعيف .

وقد بدأ القتال بهجوم الخيل من قبل جيش ابن زياد ، فأشرع أصحاب الحسين لها رماحهم وجثوا على الركب ينتظرونها فلم تقم الخيل للرماح وأوشكت أن تجفل مولية بفرسانها ..

فعدل الفريقان إلى المبارزة ، فلم يتعرض لها أحد من جيش ابن زياد إلا فشل أو نكص على عقبيه ، فخشي رؤوس الجيش عقبى هذه المبارزة التي لا أمل لهم في الغلبة بها ، وصاح عمر بن الحجاج برفاقه :

— أتدرون من تقاتلون ؟ .. تقاتلون فرسان المصر وقوماً مستميتين . لا يبرز اليهم منكم أحد فانهم قليل .. لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم ..

فاستصوب عمر بن سعد مقاله ، ونهى الناس عن المبارزة ..

فلما برز عابس بن أبي شبيب الشاكري بعد ذلك وتحداهم للمبارزة ، تحاموه لشجاعته ووقفوا بعيداً منه . فقال لهم عمر :

— أرموه بالحجارة ..

فرموه من كل جانب .. فاستمات وألقى بدرعه ومغفره وحمل على من يليه ، فهزمهم وثبت لجموعهم حتى مات .

وعجزت خيل القوم مع كثرتها عن مقاومة خيل الحسين ، وهي تنكشف كل ساعة عن فارس قتيل .. فبعث عروة بن قيس مقدم الفرسان في جيش ابن زياد يقول لعمر بن سعد : « ألا ترى ما تلقى خيلي هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة ؟.. ابعث إليهم الرجال والرماة » فبعث إليه بخمسمائة من الرماة وعلى رأسهم الحسين بن نمير ، فرشقوا أصحاب الحسين بالنبل حتى عقروا

الخيل وجرحوا الفرسان والرجال .

وكان أبو الشعثاء يزيد بن زياد الكندي ممن عدل إلى جيش الحسين وهو من أشهر رماة زمانه . فلما تكاثر عليهم رمي النبال والسهام ، جثا بين يدي الحسين وأرسل مائة سهم لم يكد يخيب منها خمسة أسهم .. وقاتل حتى مات ..

وكان الذين عدلوا إلى عسكر الحسين أشد أنصاره عزمة في القتال وهجمة على الموت ، ومنهم الحر بن يزيد الذي تقدم ذكره . فجاهد ما استطاع ليقنع أصحابه الاولين بالكف عن حرب الحسين أو بالعدول إلى صفه ... وقام على فرسه يخطب أهل الكوفة ويزجرهم ، فسكتوا هنيهة ثم رشقوه بالنبل فعقروا فرسه وجرحوه .. فما زال يطلب الموت ويتحرى من صفوفهم أكثفها جمعاً وأقتلها نبلاً حتى سقط مثخناً بالجراح وهو ينادي الحسين : « السلام عليكم يا أبا عبد الله » .

ولم يكن من أصحاب الحسين إلا من يطلب الموت ويتحرى مواقعه وأهدافه .. فكان نافع بن هلال البجلي يكتب اسمه على أفواق نبله ويرسلها فيقتل بها ويجرح ، وقلما يخطىء مرماه . فأحاطوا به وضربوه على ذراعيه حتى كسرتا ، ثم أسروه والدم يسيل من وجهه ويديه ، فحسبوه يابن للوعيد ويجزع من التمثيل به ، فأسمعهم ما يكرهون وراح يستزيد غيظهم ويقول لهم : « لقد قتلت منكم اثني عشر رجلاً سوى من جرحت ، ولو بقيت لي عضد وساعد لزدت » .

مصرع الحسين

واستهدف الحسين رضي الله عنه لأقواس القوم وسيوفهم ، فجعل أنصاره يحمونه بأنفسهم ولا يقاتلون إلا بين يديه . وكلما سقط منهم صريع ، أسرع إلى مكانه من يخلفه ليلقى حتفه على أثره .

فضاقت الفئة الكثيرة بالفئة القليلة ، وسوّل لهم الضيق بما يعانون من ثباتها أن يقوضوا الاخبية التي أوى إليها النساء والأطفال ليحيطوا بالعسكر القليل من جميع جهاته . ثم أخذوا في احراقها ، وأصحاب الحسين يصدونهم ويدافعونهم ، فرأى رضي الله عنه أن اشتغال أصحابه بمنعهم يصرفهم عن الاشتغال بقتالهم ، فقال لهم :

– دعوهم يحرقونها .. فإنهم إذا أحرقوها لا يستطيعون أن يجوزوا اليكم منها ..

وظل على حضور ذهنه وثبات جأشه في تلك المحنة المتراكبة التي تعصف بالصبر وتطيش بالألباب .. وهو جهد عظيم لا تحتويه طاقة اللحم والدم ، ولا ينهض به إلا أولو العزم من أندر من يلد آدم وحواء . فانه رضي الله عنه كان يقاسي جهد العطش والجوع والسهر ونزف الجراح ومتابعة القتال ، ويلقي باله إلى حركات القوم ومكائدهم ، ويدبر لرهطه ما يحبطون به تلك الحركات ويتقون به تلك المكائد ، ثم هو يحمل بلاءه وبلاءهم .. ويتكاثر عليه وقر الأسى لحظة بعد لحظة كلما فجع بشهيد من شهدائهم . ولا يزال كلما أصيب عزيز من أولئك الأعزاء حمله إلى جانب اخوانه وفيهم رمق ينازعهم وينازعونه وينسون في حشرجة الصدور ما هم فيه .. فيطلبون الماء ويحز طلبهم في قلبه كلما أعياه الجواب ، ويرجع إلى ذخيرة بأسه فيستمد من هذه الآلام الكاوية عزماً يناهض به الموت ويعرض به عن الحياة .. ويقول في أثر كل صريع : « لا خير في العيش من بعدك » ويهدف صدره لكل ما يلقاه ..

وإنه لفي هذا كله ، وبعضه يهد الكواهل ويقصم الأصلاب .. إذا بالرماح والسيوف تنوشه من كل جانب ، وإذا بالقتل يتعدى الرجال المقاتلين إلى الأطفال والصبيان من عترته وآل بيته ، وسقط كل من معه واحداً بعد واحد فلم يبق حوله غير ثلاثة يناضلون دونه ويتلقون الضرب عنه ، وهو

يسبقهم ويأذن لمن شاء منهم أن ينجو بنفسه وقد دنت الخاتمة ووضح المصير ..

وكان غلام من آل الحسين — هو عبد الله بن الحسن أخيه — ينظر من الأخبية ، فرأى رجلاً يضرب عمه بالسيف ليصيبه حين أخطأ زميله ، فهرول الغلام إلى عمه وصاح في براءة بالرجل :

— يا ابن الخبيثة .. أتقتل عمي ؟

فتعمده الرجل بالسيف يريد قتله ، فتلقى الغلام ضربته بيده فانقطعت وتعلقت بجلدها .. فاعتنقه عمه وجعل يواسيه وهو مشغول بدفاع من يايه ..

ثم سقط الثلاثة الذين بقوا معه ، فانفرد وحده بقتال تلك الزحوف المطبقة عليه . وكان يحمل على الذين عن يمينه فيتفرقون ، ويشد على الخيل راجلاً ويشق الصفوف وحيداً ، ويهابه القريبون فيبتعدون ، ويهم المتقدمون بالاجهاز عليه ثم ينكصون .. لأنهم تحرجوا من قتله ، وأحب كل منهم أن يكفيه غيره مغبة وزره ، فغضب شمر بن ذي الجوشن وأمر الرماة أن يرشقوه بالنبل من بعيد ، وصاح بمن حوله :

— ويحكم ! .. ماذا تنتظرون بالرجل ؟ .. اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم ..

فاندفعوا إليه تحت عيني شمر مخافة من وشايته وعقابه .. وضربه زرعة ابن شريك التميمي على يده اليسرى فقطعها ، وضربه غيره على عاتقه فخرَّ على وجهه ، ثم جعل يقوم ويكبو وهم يطعنونه بالرماح ويضربونه بالسيف حتى سكن حراكه ، ووجدت بعد موته رضوان الله عليه ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير اصابة النبل والسهام ، وأحصاها بعضهم في ثيابه فاذا هي مائة وعشرين .

ونزل خولي بن يزيد الأصبحي ليحتز رأسه ، فملكته رعدة في يديه وجسده ، فنحاه شمر وهو يقول له :

— فتَّ الله في عضدك ! ..

واحتز الرأس وأبى إلا أن يسلمه إليه في رعدته ، سخرية به وتمادياً في الشر ، وتحدياً به لمن عسى أن ينعاه عليه ! وقضى الله على هذا الخبيث الوضر أن يصف نفسه بفعله وصفاً لا يطرقه الشك والاتهام ، فكان ضغنه هذا كله ضغناً لا معنى له ولا باعث إليه إلا أنه من أولئك الذين يخزيهم اللؤم فيسليهم بعض السلوى أن يؤلموا به الكرام ، ويجعلوه تحدياً مكشوفاً كأنه معرض للزهو والفخار ، وهم يعلمون أنه لا يفخر به ولا يزهى ! ولكنهم يبلغون به مأربهم إذا آلموا به من يحس فيهم الضعة والعار ...

وبقيت ذروة من الحمية يرتفع اليها مرتفع ..

وبقيت وهدة من الخسة ينحدر إليها منحدرون كثيرون ..

فلم يكن في عسكر الحسين كله إلا رمق واحد من الحياة باق في رجل طعين مثخن بالجراح ، تركوه ولم يجهزوا عليه لظنهم أنه قد مات ..

ذلك الرجل الكريم هو سويد بن أبي المطاع أصدق الأنصار وأنبل الأبطال ..

فأبى الله لهذا الرمق الضعيف أن يفارق الدنيا بغير مكرمة يتم بها مكرمات يومه ، وتشتمل عليها النفوس الكثيرات فاذا هي حسبها من شرف مجد وثناء ..

* * *

تنادى القوم بمصرع الحسين فبلغت صيحتهم مسمعه الذي أثقله النزع وأوشك أن يجهل ما يسمع . فلم يخطر له أن يسكن لينجو وقد ذهب الأمل وحمّ الختام ، ولم يخطر له انه ضعيف منزوف يعجل به القوم قبل أن ينال من القوم أهون منال ، ولم يحسب حساب شيء في تلك اللحظة العصيبة إلا أن يجاهد في القوم بما استطاع ، بالغاً ما بلغ من ضعف هذا المستطاع ...

فالتمس سيفه فاذا هم قد سلبوه ، ونظر إلى شيء يجاهد به فلم تقع يده إلا على مدية صغيرة لا غناء بها مع السيوف والرماح ... ولكنه قنع بها

وغالب الوهن والموت ، ثم وثب على قدميه من بين الموتى وثبة المستيئس الذي لا يفر من شيء ولا يبالي من يصيب وما يصاب . فتولاهم الذعر وشلت أيديهم التي كانت خليقة أن تمتد إليه ، وانطلق هو يثخن فيهم قتلاً وجرحاً حتى أفاقوا له من ذعرهم ومن شغلهم بضجتهم وغنيمتهم . فلم يقووا عليه حتى تعاون على قتله رجلان .. فكان هذا حقاً هو الكرم والمجد في عسكر الحسين إلى الرمق الاخير .

خسة ووحشية

وكان حقاً لا مجازاً ما توخيناه حين قلنا انها طرفان متناقضان ، وإنها حرب بين أشرف ما في الانسان وأوضع ما في الانسان .

فبينما كان الرجل في عسكر الحسين ينهض من بين الموتى ولا يضن بالرمق الاخير في سبيل إيمانه ، إذا بالآخرين يقترفون أسوأ المآثم في رأيهم – قبل رأي غيرهم – من أجل غنيمة هينة لا تسمن ولا تغني من جوع . فلو كان كل ما في عسكر الحسين ذهباً ودراً لما أغنى عنهم شيئاً وهم قرابة أربعة آلاف .. ولكنهم ، ما استيقنوا بالعاقبة – قبل أن يسلم الحسين نفسه الأخير – حتى كان همهم إلى الاسلاب التي يطلبونها حيث وجدوها ، فأهرعوا إلى النساء من بيت رسول الله ينازعونهن الحلي والثياب التي على أجسادهن ، لا يزعهم عن حرمات رسول الله وازع من دين أو مروءة . وانقلبوا إلى جثة الحسين يتخطفون ما عليها من كساء تخللته الطعون حتى أوشكوا أن يتركوها على الأرض عارية ، لولا سراويل لبسها رحمه الله ممزقة وتعمد تمزيقها ليتركوها على جسده ولا يسلبوها . ثم ندبوا عشرة من الفرسان يوطئون جثته الخيل كما أمرهم ابن زياد ، فوطئوها مقبلين ومدبرين حتى رضوا صدره وظهره .

وقد يساق الغنم هنا معذرة للإثم بالغاً ما بلغ هذا من العظم ، وبالغاً ما بلغ ذلك من التفاهة . لكنهم في الحقيقة قد ولعوا بالشر للشر من غير ما طمع

في مغنم كبير أو صغير . فحرموا الريّ على الطفل الظامىء العليل وأرسلوا إلى أحشائه السهام بديلاً من الماء ، وقتلوا من لا غرض في قتله وروعوا من لا مكرمة في ترويعه .. فربما خرج الطفل من الأخبية ناظراً وجلاً لا يفقه ما يجري حوله ، فينقض الفارس الرامح فوق فرسه ويطعنه الطعنة القاضية بمرأى من الأم والأخت والعمة والقريبة ، ولم تكن في الذي حدث من هذا القبيل مبالغة يزعمونها كما زعم أجراء الذمم بعد ذلك عن حوادث كربلاء وجرائر كربلاء . فقد قتل فعلاً في كربلاء كلّ كبير وصغير من سلالة علي رضي الله عنه ، ولم ينج من ذكورهم غير الصبي علي زين العابدين .. وفي ذلك يقول سراقة الباهلي :

عَيْنُ جُودِي بِعَبْرةٍ وعَوِيلِ
وانْدُبِي ما نَدَبْتِ آلَ الرَّسُولِ

سَبْعَةٌ مِنهُم لِصُلْبِ عَلِي
قد أُبِيدُوا وسَبْعةٍ لِعَقِيلِ

وما نجا علي زين العابدين إلا بأعجوبة من أعاجيب المقادير ، لأنه كان مريضاً على حجور النساء يتوقعون له الموت هامة اليوم أو غد ، فلما هم شمر بن ذي الجوشن بقتله ، نهاه عمر بن سعد عنه إما حياء من قرابة الرحم أمام النساء — وقد كان له نسب يجتمع به في عبد مناف — وإما توقعاً لموته من السقم المضني الذي كان يعانيه .. فنجا بهذه الأعجوبة في لحظة عابرة ، وحفظ به نسل الحسين من بعده ، ولولا ذلك لباد .

ثم قطعوا الرؤوس ورفعوها أمامهم على الحراب ، وتركوا الجثث ملقاة على الأرض لا يدفنونها ولا يصلون عليها كما صلوا على جثث قتلاهم .. ومروا بالنساء حواسر من طريقها فولولن باكيات وصاحت زينب رضي الله عنها :

— يا محمداه ! .. هذا الحسين بالعراء وبناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفي عليها الصبا ..

فوجم القوم مبهوتين وغلبت دموعهم قلوبهم .. فبكى العدو كما بكى الصديق ! ..

* * *

لم تنقض في ذلك اليوم خمسون سنة على انتقال النبي محمد عليه السلام من هذه الدنيا إلى حظيرة الخلود : محمد الذي بر بدينهم ودنياهم فلم ينقل من الدنيا حتى نقلهم من الظلمة إلى النور ، ومن حياة التيه في الصحراء إلى حياة عامرة يسودون بها أمم العالمين ثم هذه خمسون سنة لم تنقض بعد ، وإذا هم في موكب جهير يجوب الصحراء إلى مدينة بعد مدينة : سباياه بنات محمد حواسر على المطايا وأعلامه رؤوس أبنائه على الحراب ، وهم داخلون به دخول الظافرين !

وبقيت الجثث حيث نبذوها بالعراء « تسفي عليها الصبا » .

فخرج لها مع الليل جماعة من بني أسد كانوا ينزلون بتلك الأنحاء .. فلما أمنوا العيون بعد يوم أو يومين سروا مع القمراء إلى حيث طلعت بهم على منظر لا يطلع القمر على مثله — شرفاً ولا وحشة — في الآباد بعد الآباد ..

وكان يوم المقتل في العاشر من المحرم .. فكان القمر في تلك الليلة على وشك التمام .. فحفروا القبور على ضوئه ، وصلوا على الجثث ودفنوها ، ثم غادروها هناك في ذمة التاريخ . فهي اليوم مزار يطيف به المسلمون متفقين ومختلفين ، ومن حقه أن يطيف به كل انسان ، لأنه عنوان قائم لأقدس ما يشرف به هذا الحي الآدمي بين سائر الأحياء .

فما أظلت قبة السماء مكاناً لشهيد قط هو أشرف من تلك القباب بما حوته من معنى الشهادة وذكرى الشهداء ..

موطن الرأس

اتفقت الأقوال في مدفن جسد الحسين عليه السلام ، وتعددت أيما تعدد في موطن الرأس الشريف ..

فمنها أن الرأس قد أعيد بعد فترة إلى كربلاء فدفن مع الجسد فيها ..

ومنها أنه أرسل إلى عمرو بن سعيد بن العاص والي يزيد على المدينة ، فدفنه بالبقيع عند قبر أمه فاطمة الزهراء ..

ومنها أنه وجد بخزانة ليزيد بن معاوية بعد موته ، فدفن بدمشق عند باب الفراديس ..

ومنها أنه كان قد طيف به في البلاد حتى وصل إلى عسقلان ، فدفنه أميرها هناك وبقي بها حتى استولى عليها الافرنج في الحروب الصليبية .. فبذل لهم الصالح طلائع وزير الفاطميين بمصر ثلاثين ألف درهم على أن ينقله إلى القاهرة حيث دفن بمشهده المشهور . قال الشعراني في طبقات الأولياء : « ان الوزير صالح طلائع بن رزيك خرج هو وعسكره حفاة إلى الصالحية ، فتلقى الرأس الشريف ووضعه في كيس من الحرير الأخضر على كرسي من الأبنوس وفرش تحته المسك والعنبر والطيب ، ودفن في المشهد الحسيني قريباً من خان الخليلي في القبر المعروف » .

وقال السائح الهروي في الاشارات إلى أماكن الزيارات : « وبها —

أي عسقلان — مشهد الحسين رضي الله عنه : كان رأسه بها ، فلما أخذتها الفرنج نقله المسلمون إلى مدينة القاهرة سنة تسع وأربعين وخمسمائة » .

وفي رحلة ابن بطوطة أنه سافر إلى عسقلان « وبه المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن علي عليه السلام ، قبل أن ينقل إلى القاهرة » .

وذكر سبط بن الجوزي فيما ذكر من الأقوال المتعددة أن الرأس بمسجد الرقة على الفرات ، وأنه لما جيء به بين يدي يزيد بن معاوية قال : « لأبعثنه إلى آل أبي معيط عن رأس عثمان » وكانوا بالرقة ، فدفنوه في بعض دورهم ثم دخلت تلك الدار بالمسجد الجامع ، وهو إلى جانب سوره هناك .

فالأماكن التي ذكرت بهذا الصدد ستة في ست مدن هي : المدينة ، وكربلاء ، والرقة ، ودمشق ، وعسقلان ، والقاهرة ، وهي تدخل في بلاد الحجاز والعراق والشام وبيت المقدس والديار المصرية . وتكاد تشتمل على مداخل العالم الاسلامي كله من وراء تلك الأقطار ، فان لم تكن هي الأماكن التي دفن فيها رأس الحسين فهي الأماكن التي تحيا بها ذكراه لا مراء ..

وللتاريخ اختلافات كثيرة ، نسميها بالاختلافات اللفظية أو العرضية ، لأن نتيجتها الجوهرية سواء بين جميع الأقوال ، ومنها الاختلاف على مدفن رأس الحسين عليه السلام . فأياً كان الموضع الذي دفن به ذلك الرأس الشريف ، فهو في كل موضع أهل للتعظيم والتشريف . وانما أصبح الحسين — بكرامة الشهادة وكرامة البطولة وكرامة الأسرة النبوية — معنى يحضره الرجل في صدره وهو قريب أو بعيد من قبره . وإن هذا المعنى لفي القاهرة ، وفي عسقلان ، وفي دمشق ، وفي الرقة ، وفي كربلاء ، وفي المدينة ، وفي غير تلك الأماكن سواء .

وقاحة ابن زياد

ويقل الاختلاف أو يسهل التجاوز عنه كذلك فيما حدث بين فاجعة

كربلاء ولقاء يزيد ..

فالمتواتر الموافق لسير الأمور أنهم حملوا الرؤوس والنساء إلى الكوفة ، فأمر ابن زياد أن يطاف بها في أحياء الكوفة ثم ترسل إلى يزيد ..

وكانت فعلة يدارونها بالتوقح فيها على سنَّة المأخوذ الذي لا يملك مداراة ما فعل . فبات خولي بن يزيد ليلته بالرأس في بيته ، وهو يمني نفسه بغنى الدهر كما قال . فأقسمت امرأة له حضرمية : « لا يجمع رأسها ورأسه بيت وفيه رأس ابن رسول الله » .

ثم غدا إلى قصر ابن زياد وكان عنده زيد بن أرقم من أصحاب رسول الله ... فرآه ينكث ثنايا الرأس حين وضع أمامه في أجانة ، فصاح به مغضباً :

ــ ارفع قضيبك عن هاتين الثنيتين .. فوالذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله على هاتين الشفتين يقبّلهما ..

وبكى ..

فهزىء به ابن زياد وقال له :

ــ لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك ، لضربت عنقك !

فخرج زيد وهو ينادي في الناس غير حافل بشيء :

ــ أنتم معشر العرب العبيد بعد اليوم .. قتلتم ابن فاطمة وآثرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل شراركم ويستعبد خياركم .

وأدخلت السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها ، وعليها أرذل ثيابها ومعها عيال الحسين واماؤها .. فجلست ناحية لا تتكلم ولاتنظر إلى ما أمامها . فسأل ابن زياد :

ــ من هذه التي انحازت ناحية ومعها نساؤها ؟

فلم تجبه .. فأعاد سؤاله ثلاثاً وهي لا تجيبه ، ثم أجابت عنها إحدى الاماء :

– هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فاجترأ ابن زياد قائلاً :

– الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأبطل أحدوثتكم ..

وقد كانت زينب رضي الله عنها حقاً جديرة بنسبها الشريف في تلك الرحلة الفاجعة التي تهد عزائم الرجال .. كانت كأشجع وأرفع ما تكون حفيدة محمد وبنت علي وأخت الحسين . وكتب لها أن تحفظ بشجاعتها وتضحيتها بقية العقب الحسيني من الذكور .. ولولاها لانقرض من يوم كربلاء ..

فلم تمهل ابن زياد أن ثارت به قائلة :

– الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه وطهرنا من الرجس تطهيراً .. إنما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله ..

فقال ابن زياد :

– قد شفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة .

فغلبها الحزن والغيظ من هذا التشفي الذي لا ناصر لها منه ، وقالت :

– لقد قتلت كهلي ، وأبدت أهلي ، وقطعت فرعي واجتثثت أصلي ، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت ..

فتهافت ابن زياد ساخراً وقال :

– هذه سجاعة .. لعمري لقد كان أبوها سجاعاً شاعراً .

فقالت زينب :

– إن لي عن السجاعة لشغلا .. ما للمرأة والسجاعة ؟

علي زين العابدين

ثم نظر ابن زياد إلى غلام عليل هزيل مع السيدة زينب فسأله :

ـ من أنت ؟

قال : علي بن الحسين .

قال : أو لم يقتل الله علي بن الحسين ؟

قال : كان لي أخ يسمى علياً قتله الناس .

فأعاد ابن زياد قوله : الله قتله .

فقال علي : الله يتوفى الأنفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ..

فأخذت زياداً عزة الاثم وانتهره قائلا :

ـ وبك جرأة لجوابي !

وصاح الخبيث الأثيم بجنده :

ـ أذهبوا به فاضربوا عنقه ..

فجاشت بعمة الغلام قوة لا يردها سلطان ، ولا يرهبها سلاح .. لأنها قوة من هان لديه الموت وهانت عليه الحياة ، فاعتنقت الغلام اعتناق من اعتزم ألا يفارقه إلا وهو جثة هامدة ، وأقسمت لئن قتلته لتقتلني معه . فارتد ابن زياد مشدوها وهو يقول متعجباً :

ـ يا للرحم .. إني لأظنها ودت أني قتلتها معه ..

ثم قال : « دعوه لما به » .. كأنه حسب أن العلة قاضية عليه .

وعليٌّ هذا هو زين العابدين جد كل منتسب إلى الحسين عليهما السلام ،

وكان كما قال ابن سعد في الطبقات : « ثقة كثير الحديث عالياً رفيعاً ورعاً » ، وكما قال يحيي بن سعيد : « أفضل هاشمي رأيته في المدينة » ..

ولولا استماتة عمته كما ترى ، لقد كادت تذهب بهذه البقية الباقية كلمة على شفتي ابن زياد !

الرأس عند يزيد

ولما قضى الخبيث نهمة كيده من الطواف برأس الحسين في الكوفة وأرباضها ، أنفذه ورؤوس أصحابه إلى دمشق مرفوعة على الرماح ، ثم أرسل النساء والصبيان على الاقتاب ، وفي الركب علي زين العابدين مغاول إلى عنقه يقوده شمر بن ذي الجوشن ومحضر بن ثعلبة .. فتلاحق الركبان في الطريق ودخلا الشام معاً إلى يزيد .

وتكرر منظر القصر بالكوفة في قصر دمشق عند يزيد ... ولا نستغرب أن يتكرر بعضه حتى يظن انه قد وقع في التاريخ خلط بين المنظرين ، لأن المناسبة في هذا المقام تستوحي ضرباً واحداً من التعقيب وضرباً واحداً من الحوار ..

فارتاع من بمجلس يزيد من نبأ المقتلة في كربلاء حين بلغتهم ، وقال يحيي بن الحكم وهو من الأمويين :

لهام بجنبِ الطَفِّ أدْنَى قَرابَـــةً
من ابنِ زيادِ العبدِ ذي الحَسَبِ الوَغلِ
سُمَيَّةَ أمْسى نَسْلُهَا عَدَدَ الحَصَى
وبِنْتُ رَسولِ اللهِ لَيْست بِذي نَسْلِ

فأسكته يزيد .. وقال وهو يشير إلى الرأس وينكث ثناياه بقضيب في يده : (أتدرون من أين أتي هذا ؟ .. إنه قال : « أبي علي خير من أبيه وأمي فاطمة خير من أمه ، وجدي رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق

بهذا الأمر » .. فأما أبوه فقد تحاج أبي وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما أمه فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي ، وأما جده فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا نداً ، ولكنه أتي من قبل فقهه ولم يقرأ : قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) ..

وهو كلام ينسب مثله إلى معاوية في رده على حجج علي في الخلافة .. ولعل يزيد قد استعاره من كلام أبيه وزاد عليه .

ونظر بعض أهل الشام إلى السيدة فاطمة بنت الحسين — وكانت جارية وضيئة — فقال ليزيد : « هب لي هذه » ، فأرعدت وأخذت بثياب عمتها .. فكان لعمتها في الذود عنها موقف كموقفها بقصر الكوفة ، ذياداً عن أخيها زين العابدين ، وصاحت بالرجل :

— كذبت ولؤمت .. ما ذلك لك ولا له .

فتغيظ يزيد وقال : « كذبت ، إن ذلك لي ... ولو شئت لفعلت » .

قالت : « كلا والله ... ما جعل الله لك ذلك ، إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا » .

فاشتد غيظ يزيد وصاح بها : « إياي تستقبلين بهذا ؟ .. إنما خرج من الدين أبوك وأخوك » .

قالت : « بدين الله ودين أبي وأخي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدك » .

فلم يجد جواباً غير أن يقول : « بل كذبت يا عدوة الله » .

فقالت : « أنت أمير تشتم ظالماً ، وتقهر بسلطانك » .

فأطرق وسكت ..

وأدخل علي بن الحسين مغلولاً ، فأمر يزيد بفك غله وقال له :

– إيه يا ابن الحسين .. أبوك قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني ، فصنع الله به ما رأيت ..

قال علي :

– ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها . ان ذلك على الله ليسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا يحب كل مختال فخور . فتلا يزيد الآية : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » ثم زوى وجهه وترك خطابه ..

وكان لقاء نساء يزيد خيراً من لقائه .. فواسين السيدة زينب والسيدة فاطمة ومن معهما ، وجعلن يسألنهن عما سلبنه بكربلاء فيرددن اليهن مثله وزيادة عليه ..

وأحب يزيد أن يستدرك بعض ما فاته ، فلجأ إلى النعمان بن بشير واليه الذي عزله من الكوفة لرفقه بدعاة الحسين .. وأمره أن يسير آل الحسين إلى المدينة ويجهزهم بما يصلحهم . وقيل انه ودع زين العابدين ، وقال له : « لعن الله ابن مرجانة .. أما والله لو أني صاحب أبيك ما سألني خصلة أبداً إلا أعطيته إياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي . ولكن الله قضى ما رأيت يا بني ! .. كاتبني من المدينة ، وأنهِ اليَّ كل حاجة تكون لك » .

تبعة يزيد

والناس في تقدير التبعة التي تصيب يزيد من عمل ولاته مشارب وأهواء ، يرجع كل منهم إلى مصدر من مصادر الرواية فيبني عليه حكمه .

فمنهم من يرى انه بريء من التبعة كل البراءة .. ومنهم من يرى أنه أقر فعلة ابن زياد ثم ندم عليها .. ومنهم من يقول إنه قد أمر بكل ما اقترفه ابن زياد وتوقع حدوثه ولم يمنعه وهو مستطيع أن يمنعه لو شاء .

والثابت الذي لا جدال فيه ، ان يزيد لم يعاقب أحداً من ولاته كبر أو صغر على شيء مما اقترفوه في فاجعة كربلاء ، وان سياسته في دولته بعد ذلك كانت هي سياسة أولئك الولاة على وتيرة واحدة مما حدث في كربلاء ، فاستباحة المدينة — دار النبي عليه السلام — وتحكيم مسلم بن عقبة في رجالها ونسائها ، ليست بعمل رجل ينكر سياسة كربلاء بفكره وقلبه ، أو سياسة رجل تجري هذه الحوادث على نقيض تدبيره وشعوره وما زال يزيد وأخلافه يأمرون الناس بلعن علي والحسين وآلهما على المنابر في أرجاء الدولة الاسلامية ، ويستفتون من يفتيهم باهدار دمهم وصواب عقابهم بما أصابهم . ومن تجب لعنته على المنابر بعد موته بسنين ، فقتله جائز أو واجب في رأي لاعنيه .

ومن أفرط في سوء الظن ، رجح عنده أن عبيد الله بن زياد كان على إذن مستور بكل ما صنع ، ويملي لهم في هذا الظن أن استئصال ذرية الحسين من الذكور خطة تهم يزيد لوراثة الملك في بيته وعقبه ، ويفيده أن يقدم عليها مستتراً من وراء ولاته ثم ينصل منها ويلقي بتبعتها عليهم . ولو لم يكن ذلك لكان عجيباً أن توكل حياة الحسين وأبنائه وآله إلى والي الكوفة بغير توجيه من سيده ومولاه .. فقد كان الزمن الذي انقضى منذ خروج الحسين من مكة إلى نزوله بالطف على الفرات كافياً لبلوغ الخبر إلى يزيد ورجوع الرسل بالتوجيه الضروري في هذا الموقف لوالي الكوفة وغيره من الولاة ، فان لم يكن الأمر تدبيراً متفقاً عليه فهو المساءة التي تلي ذلك التدبير في السوء والشناعة ، وهي مساءة التهاون الذي لا تستقيم على مثله شئون دولة . وقد روى ابن شريح اليشكري أن عبيد الله صارحه بعد موت يزيد فقال : « أما قتلي الحسين فإنه أشار إليّ يزيد بقتله أو قتلي فاخترت قتله » وهو كلام متهم لا تقوم به حجة على غائب قضى نحبه ..

ويبدو لنا أن الظن بتهاون يزيد هنا أقرب إلى الظن بايعازه وتدبيره .. لأنه جرى عليه طوال حكمه وألقى حبل ولاته على غاربهم وهو لاهٍ بصيده وعبثه ، وأنه ربما ارتاح في سريرته باديء الأمر إلى فعلة ابن زياد وأعوانه ..

ولكنه ما عتم ان رأى بوادر العواقب توشك أن تطبق عليه بالوبال من كل جانب ، حتى تيقظ من غفلته بعد فوات الوقت فعمد إلى المحاسنة والاستدراك جهد ما استطاع ، ولم يكن في يقظته على هذا معتصماً بالحكمة والسداد ..

ولقد رأى البوادر منه غير بعيد ، ولما تنقض ساعات على ذيوع الخبر في بيته قبل عاصمة ملكه .. فنعى ابن الحكم فعلة ابن زياد ، وناح نساؤه مشفقات من هول ما سمعن ورأين ، وبكى ابنه الورع الصالح معاوية فكان يقول إذا سئل : « نبكي على بني أمية لا على الماضين من بني هاشم » ..

ومهما تكن غفلة يزيد ، فما أحد قط يلمح تلك البوادر ثم يجهل أنها ضربة هوجاء لن تذهب بغير جريرة ، ولن تهون جريرتها في الحاضر القريب ولا في الآتي البعيد ..

والواقع انها قد استتبعت بعدها جرائر شتى لا جريرة واحدة ، وما تنقضي جرائرها إلى اليوم ..

فلم تنقض سنتان حتى كانت المدينة في ثورة حنق جارف يقتلع السدود ويخترق الحدود .. لأنهم حملوا اليها خبر الحسين محمل التشهير والشماتة . وضحك واليهم عمرو بن سعيد حين سمع أصوات البكاء والصراخ من بيوت آل النبي ، فكان يتمثل قول عمرو بن معد يكرب :

عجت نساء بَني زيادٍ عجّـــة
كَعَجيجِ نِسْوتِنا غَدَاة الأرْنبِ

وكانت بنت عقيل بن أبي طالب تخرج في نسائها حاسرة وتنشد :

ماذا تقولون إن قال النبيّ لكم :
ماذا فعلتم ... وأنتم آخر الأمـمِ ؟
بِعِتْرَتي ، وبأهْلي ، بَعْدَ مُفْتَقَدي.
منهم أسارَى ، ومنهم ضرجوا بـدمِ

ما كانَ هذا جزائي إذ نَصَحْتُ لكم
أن تخلفوني بِسوءٍ في ذوي رحمي

فكان الأمويون يجيبون بمثل تلك الشماتة ، ويقولون كما قال عمرو بن سعيد : « ناعية كناعية عثمان » .

ولا موضع للشماتة هنا بالحسين ، لأنه قد أصيب على باب عثمان وهو يذود عنه ويجتهد في سقيه وسقي آل بيته .. ولكنها شماتة هوجاء لا تعقل ما تصنع ولا ما تقول .

ثورة المدينة

وللقدر المتاح لجت بالولاة الأمويين رغبتهم في تلفيق « المظاهرات الحجازية » ، فلم يرعوا ما بأهل المدينة من الحزن اللاعج والأسى الدفين . وجعلوا همهم كله أن يكرهوا القوم على نسيان خطب الحسين واصطناع الولاء المغتصب ليزيد . فحملوا إلى دمشق وفداً من أشراف المدينة لم يلبثوا أن عادوا اليها منكرين لحكم يزيد مجمعين على خلع بيعته ، وراحوا يقولون لأهل المدينة : « إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويضرب بالطنابير ، ويعزف عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسمر عنده الخراب » .

وقال رئيسهم عبد الله بن حنظلة الانصاري وهو ثقة عند القوم لصلاحه وزهده : « لو لم أجد إلا بنيّ هؤلاء — وكان له ثمانية بنين — لجاهدت بهم . وقد أعطاني وما قبلت عطاءه إلا لأتقوى به » .

والتهبت نار الثورة بالألم المكظوم والدعوة الموصولة فأخرج المدنيون والي يزيد وجميع من بالمدينة من الأمويين ومواليهم وأعلنوا خلعهم للبيعة ..

وصدق ابن حنظلة النية ، فكان يقدم بنيه واحداً بعد واحد حتى قتلوا جميعاً ، وقتل بعدهم أنفة من حياة يسام فيها الطاعة ليزيد وولاته ..

وبدا في ثورة المدينة أن يزيد لم يستفد كثيراً ولا قليلاً من عبرة كربلاء ، لأنه سلط على أهلها رجلاً لا يقل في لؤمه وغاه وسوء دخلته ، وولعه بالشر والتعذيب ، وعبثه بالتقتيل والتمثيل ، عن عبيد الله بن زياد ، وهو مسلم بن عقبة المري . فأمره أن يسوم الثائرين البيعة بشرطه ، وأن يستبيح مدينتهم ثلاثة أيام إن لم يبادروا إلى طاعته ، وكان شرطه الذي سامهم إياه بعد اقتحام المدينة وانقضاء الأيام الثلاثة التي انتظر فيها طاعتهم « انهم يبايعون أمير المؤمنين على انهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم ما شاء » .

وإذا كان شيء أثقل على النفوس من هذا الشرط ، وأقبح في الظلم من استباحة الأرواح والأعراض في جوار قبر النبي عليه السلام .. فذلك هو ولاية هذا النكال بيد مجرم مفطور على الغل والضغينة مثل مسلم بن عقبة ، كأنه يلقي على الناس وزر مرض النفس ومرض الجسد ومرض الدم الذي أبلاه ، ولم يبل ما في طويته من رجس ومكيدة . « فاستعرض أهل المدينة بالسيف جزراً كما يجزر القصاب الغنم ، حتى ساخت الاقدام في الدم وقتل ابناء المهاجرين والأنصار » .

وأوقع كما قال ابن كثير « من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف » .. ولم يكفه أن يسفك الدماء ويهتك الاعراض حتى يلتذ باثارة الآمال والمخاوف في نفوس صرعاه قبل عرضهم على السيف ، فلما جاءوه بمعقل بن سنان صاحب رسول الله هش له وتلقاه بما يطمعه ، ثم سأله « أعطشت يا معقل ؟ .. حوصوا له شربة من سويق اللوز الذي زودنا به أمير المؤمنين » .. فلما شربها قال له : « أما والله لا تبولها من مثانتك أبداً .. وأمر بضرب عنقه .. »

ويروي ابن قتيبة أن عدد من قتل من الانصار والمهاجرين والوجوه ألف وسبعمائة ، وسائرهم من الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان ..

وحادث واحد من حوادث التمثيل والاستباحة يدل على سائر الحوادث

من أمثاله .. دخل رجل من جند مسلم بن عقبة على امرأة نفساء من نساء الأنصار ومعها صبي لها . فقال : « هل من مال ؟ »

قالت : « لا .. والله ما تركوا لنا شيئاً » .

قال : « والله لتخرجن إليّ شيئاً أو لأقتلنك وصبيك هذا » .

فقالت له: « ويحك .. انه ولد ابن أبي كبشة الانصاري صاحب رسول الله » . فأخذ برجل الصبي والثدي في فمه ، فجذبه من حجرها فضرب به الحائط فانتثر دماغه على الارض .

وهو مثل من أمثال قد تكررت بعدد تلك البيوت التي قتل فيها أولئك الألوف من النسوة والأطفال والآباء والأمهات ...

وقد مات هذا السفاح وهو في طريقه الى مكة يهم بأن يعيد بها ما بدأ بالمدينة .. فدفن في الطريق وتعقبه بعض الموتورين من أهل المدينة فنبشوا قبره وأحرقوه .

جريرة العدل

ولم تنقض سنوات أربع على يوم كربلاء حتى كان يزيد قد قضى نحبه ، ونجمت بالكوفة جريرة العدل التي حاقت بكل من مد يداً الى الحسين وذويه..

فسلط الله على قاتلي الحسين كفؤا لهم في النقمة والنكال يفل حديدهم بحديده ويكيل لهم بالكيل الذي يعرفونه . وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي داعية التوابين من طلاب ثأر الحسين . فأهاب بأهل الكوفة أن يكفروا عن تقصيرهم في نصرته ، وأن يتعاهدوا على الأخذ بثأره فلا يبقين من قاتليه أحد ينعم بالحياة ، وهو دفين مذال القبر في العراء ..

فلم ينج عبيد الله بن زياد ، ولا عمرو بن سعد ، ولا شمر بن ذي الجوشن ، ولا الحصين بن نمير ، ولا خولي بن يزيد ، ولا أحد ممن أحصيت

عليهم ضربة أو كلمة أو مدوا أيديهم بالسلب والمهانة الى الموتى أو الأحياء ..

وبالغ في النقمة فقتل وأحرق ومزق وهدم الدور وتعقب الهاربين ، وجوزي كل قاتل أو ضارب أو ناهب بكفاء عمله .. فقتل عبيد الله وأحرق ، وقتل شمر بن ذي الجوشن وألقيت أشلاؤه للكلاب ، ومات مئات من رؤسائهم بهذه المثلات وألوف من جندهم وأتباعهم مغرقين في النهر أو مطاردين إلى حيث لا وزر لهم ولا شفاعة .. فكان بلاؤهم بالمختار عدلاً لا رحمة فيه ، وما نحسب قسوة بالآثمين سلمت من اللوم أو بلغت من العذر ما بلغته قسوة المختار .

ولحقت الجريرة الثالثة بأعقاب الجريرة الثانية في مدى سنوات معدودات ..

فصمد الحجاز في ثورته أو في تنكره لبني أمية الى أيام عبد الملك بن مروان ، وكان أحرج الفريقين من سبق إلى أحرج العملين . وأحرج العملين ذاك الذي دفع إليه — أو اندفع إليه — الحجاج عامل عبد الملك .. فنصب المنجنيق على جبال مكة ، ورمى الكعبة بالحجارة والنيران فهدمها وعفى على ما تركه منها جنود يزيد بن معاوية . فقد كان قائده الذي خلف مسلم بن عقبة وذهب لحصار مكة أول من نصب لها المنجنيق وتصدى لها بالهدم والاحراق ..

وما زالت الجرائر تتلاحق حتى تقوض من وطأتها ملك بني أمية ، وخرج لهم السفاح الأكبر وأعوانه في دولة بني العباس .. فعموا بنقمتهم الأحياء والموتى ، وهدموا الدور ، ونبشوا القبور ، وذكر المنكوبون بالرحمة فتكات المختار بن أبي عبيد ، وتجاوز الثأر كل مدى خطر على بال هاشم وأمية يوم مصرع الحسين .

لقد كانت ضربة كربلاء ، وضربة المدينة ، وضربة البيت الحرام ، أقوى ضربات أمية لتمكين سلطانهم وتثبيت بنيانهم وتغليب ملكهم على المنكرين والمنازعين .. فلم ينتصر عليهم المنكرون والمنازعون بشيء كما

انتصروا عليهم بضربات أيديهم ولم يذهبوا بها ضاربين حقبة ، حتّى ذهبوا بها مضروبين الى آخر الزمان .

تلك جريرة يوم واحد هو يوم كربلاء .. فإذا بالدولة العريضة تذهب في عمر رجل واحد مديد الأيام ، وإذا بالغالب في يوم كربلاء أخسر من المغلوب اذا وضعت الأعمار المنزوعة في الكفتين ..

من الطرائف

غبن أن يفوت الانسان جزاؤه الحق على عمله وخلقه ..

وأثقل منه في الغبن أن ينقلب الأمر فيجزى المحسن بالاساءة ، ويجزى المسيء بالاحسان ..

وقد تواضع الناس منذ كانوا على معنى للتاريخ والأخلاق ، ووجهة للشريعة والدين ..

والجزاء الحق هو الوجهة الواحدة التي تلتقي فيها كل هذه المقاصد الرفيعة .. فاذا بطل الجزاء الحق ففي بطلانه الاخلال كل الاخلال بمعنى التاريخ والأخلاق ، ولباب الشرائع والأديان . وفيه حكم على الحياة بالعبث وعلى العقل الانساني بالتشويه والخسار .

والجزاء الحق غرض مقصود لذاته يحرص عليه العقل الانساني كرامة لنفسه ويقيناً من صحته وحسن أدائه ، كالنظر الصحيح نحسبه هو غرضاً للبصر يرتاح إلى تحقيقه ويحزن لفواته وإن لم يكن وراء ذلك ثواب أو عقاب ، لأن النظر الصحيح سلامة محبوبة والاخلال به داء كريه .

ولا يستهدف هذا القسطاس المستقيم لمحنة من محنه التي تزري بكرامة العقل الإنساني ، كاستهدافه لها وهو في مصطدم التضحية والمنافع ، أو في الصراع بين الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ..

ففي هذا المصطدم يبدو للنظرة الأولى أن الرجل قد أضاع كل شيء وانهزم ، وهو في الحقيقة غانم ظافر .

ويبدو لنا أنه قد ربح كل شيء وانتصر وهو في الحقيقة خاسر مهزوم ..

ومن هنا يدخل التاريخ ألزم مداخله وأبينها عن قيمة البحث فيه ، لأنه المدخل الذي يفضي إلى الجزاء الحق والنتيجة الحقة ، وينتهي بكل عامل أفلح أو أخفق في ظاهر الأمر إلى نهاية مطافه وغاية مسماه في الأمد الطويل .

وقد ظفر التاريخ في الصراع بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية بميزان من أصدق الموازين التي تتاح لتمحيص الجزاء الحق في أعمال الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ، فقلما تتاح في أخبار الأمم شرقاً أو غرباً عبرة كهذه العبرة بوضوح معالمها أو أشواطها ، وفي تقابل النصر والهزيمة فيها بين الطوالع والخواتم ، على اختلاف معارض النصر والهزيمة ..

فيزيد في يوم كربلاء هو صاحب النصر المؤزر الذي لا يشوبه خذلان ..

وحسين في ذلك اليوم هو المخذول الذي لم يطمح خاذله من وراء الظفر به إلى مزيد ..

ثم تنقلب الآية أيما انقلاب ..

ويقوم الميزان ، فلا يختلف عارفان بين كفة الرجحان وكفة الخسران ..

وهذا الذي قصدنا إلى تبيينه وجلائه بتسطير هذه الفصول .

* * *

وما من عبرة أولى من هذه بالتبيين والجلاء لدارس التاريخ ودارس الحياة وطالب المعنى البعيد في أطوار هذا الوجود .

ولسنا نقول إن الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع

بين الشهادة والمنفعة أو بين الإيمان والمآرب الأرضية ، فإن لهذا الصراع لألواناً تتعدد ولا تتكرر على هذا المثال، وان له لعناصر لم تجتمع كلها في طرفي الخصومة بين الرجلين ، وأشواطاً لم تتخذ الطريق الذي اتخذته هذه الخصومة في البداية أو النهاية .

ولسنا نقول إن الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع وتفردها بارزة ماثلة للتأمل والتعقيب ، وهي ان مسألة الحسين ويزيد قد كانت صراعاً بين خلقين خالدين ، وقد كانت جولة من جولات هذين الخلقين اللذين تجاولا أحقاباً غابرات ولا يزالان يتجاولان فيما يلي من الأحقاب ، وقد أسفرا عن نتيجة فاصلة ينفرد لها مكان معروف بين سائر الجولات ، وليست جولة أخرى منهن بأحق منها بالتعليق والتصديق ..

ووجهتنا من هذه العبرة أن يعطى كل خلق من أخلاق العاملين حقه بمعيار لا غبن فيه ..

فإذا سعى أحد بالحيلة فخدع الناس وبلغ مأربه فليكن ذلك مغنمه وكفى ، ولا ينفعه ذلك في استلاب السمعة المحبوبة والعطف الخالص والثناء الرفيع ..

وإذا خسر أحد حياته في سبيل ايمانه فلتكن تلك خسارته وكفى ، ولا ينكب فوق ذلك بخسارة في السمعة والعطف والثناء .

فلو جاز هذا لكان العطف الانساني أزيف ما عرفناه في هذه الدنيا من الزيوف ، لأن خديعة واحدة تشتريه وتستبقيه . وما من زيف في العروض الأخرى إلا وهو ينطلي يوماً وينكشف بقية الأيام ..

* *

وإذا كان احتيال الانسان لنفسه معطيه كل ما تهبه الدنيا من غنم النفع والمحبة والثناء ، فقد ربح المحتالون وخسر نوع الانسان .

وإذا كانت خسارة المرء في سبيل إيمانه تجمع عليه كل خسارة ، فالأحمق

الفاشل من يطلب الخير للناس ويغفل عن نفسه في طلابه ،

فكفى الواصل ما وصل إليه ..

وكثير عليه أن يطمع عند الخلف والسلف فيما ادخرته الانسانية من الثناء والعطف لمن يَرمونها بفضيلة الشهادة والتضحية ، ويخسرون .

وهذا الفيصل العادل أعدل ما يكون فيما بين الحسين ويزيد ..

فإذا قيل ان معاوية قد عمل وقد أفلح بالحيلة والدهاء ، فيزيد لم يعمل ولم يفلح بحيلة ولا دهاء .. ولكنه ورث المنافع التي يشتري بها الأيدي والسيوف فجال بها جولة رابحة في كفاح الضمائر والقلوب .

فينبغي ألا يربح بهذه الوسيلة ، فأما وقد ربح .. فينبغي أن يقف الربح عند ذاك ، وينبغي للعذر الكاذب والثناء المأجور ألا يحسبا على الناس بحساب العذر الصادق والثناء الجميل .

وقد تزلف إلى يزيد من يتزلفون إلى أصحاب المال والسلطان ثم أخذوا أجورهم ، فينبغي أن يقوّم ذلك الثناء بقيمة تلك الأجور وأن يكون ما قبضوه من أجر غاية ما استحقوه ، ان كانوا مستحقيه .

أما أن يضاف ثناء الخلود إلى صفقة أولئك المأجورين ، فقد أصبح ثناء الخلود إذن صفقة بغير ثمن ، أو هو علاوة مضمونة على صفقة كل مأجور ..

ان صاحب الثناء المبذول لا يسأل عن شيء غير العطاء المبذول ، ولكن التاريخ خليق أن يسأل عن أعمال وأقوال قبل أن يبذل ما لديه من ثناء .

وليس في تاريخ يزيد عمل واحد صحيح أو مدعى ولا كلمة واحدة صحيحة أو مدعاة ، تقيمه بحيث أراده المأجورون من العذر الممهد والمدح المعقول ، أو تخوله مكان الترجيح في الموازنة بينه وبين الحسين ..

كل أخطائه ثابتة عليه — ومنها بل كلها — خطؤه في حق نفسه ودولته

ورعاياه . وليس له فضل واحد ثابت ولا كلمة واحدة مأثورة تنقض ما وصفه به ناقدوه وعائبوه .

فقد كانت له ندحة عن قتل الحسين ، وكان يخدم نفسه ودولته لو أنه استبقاه حيث يتقيه ويرعاه ..

وكانت له ندحة عن ضرب الكعبة واستباحة المدينة وتسليط أمثال مسلم ابن عقبة وعبيد الله بن زياد على خلائق الله .

وكانت له ندحة عن السمعة التي لصقت به ولم تلصق به افتراء ولا ادعاء كما يزعم صنائعه ومأجوروه ، لأن واصفيه بتلك السمعة لم يلصقوا مثلها بأبيه ..

ومن كان حقه في النعمة التي نعم بها مغتصباً ينتزعه عنوة ، لا يكن حقه في الفضل والكرامة جزافاً لا حسيب عليه .

* * *

وتسديد العطف الانساني هنا فرض من أقدس الفروض على الناظرين في سير الغابرين ، لأن العطف الانساني هو كل ما يملك التاريخ جزاء ، وهو الثروة الوحيدة التي يحتفظ بها الخاود ..

واننا لندع الخطأ في سياسة النفعيين ، وننظر إليهم كأنهم مصيبون في السياسة بصراء بمواقع التدبير .

فعلى هذه الصفة — لو تمت لهم — لا يحق لخادم زمانه أن ينازع الشهداء في ذخيرة العطف الخالد ، وهم خدام العقائد التي تتخطى حياة الأجيال كما تتخطى حياة الأفراد .

فإن حرمان الشهداء حقهم في عطف الأسلاف خطأ في الشعور ، وخطأ كذلك في التفكير ..

والناس خاسرون إذا بطل عطفهم على الشهداء ، وليس قصارى أمرهم أنهم قساة أو جاحدون .. لأن الشهادة فضيلة تروح وتأتي وتكثر حيناً وتندر في غير ذلك من الأحيان . أما حب المنفعة فإن سميته فضيلة فهو من الفضائل التي لن تفارق الأحياء أجمعين ، من ناطقة وعجماء .

* * *

على أن الطبائع الآدمية قد أشربت حب الشهداء والعطف عليهم وتقديس ذكرهم بغير تلقين ولا نصيحة ، وإنما تنحرف عن سواء هذه السنة لعوارض طارئة أو باقية تمنعها أن تستقيم معها . وأكثر ما تأتي هذه العوارض من تضليل المنفعة والهوى القريب ، أو من نكسة في الطبع تغريه بالضغن على كل خلق سوي وسجية سمحة محببة إلى الناس عامة ، أو من الافراط في حب الدعة حتى يجفل المرء من الشهادات استهوالاً لتكاليفها واستعظاماً للقدوة بها ، فيتهم الشهداء بالهوج ويتعقب أعمالهم بالنقد لكيلا يتهم نفسه بالجبن والضعة ويستحق المذمة واللوم في رأي ضميره . وان لم يتهمهم بالهوج ولم يتعقبهم بالنقد ، وقف من فضائلهم موقف ازورار وفتور .. وجنح إلى معذرة الآخرين والتفاهم بينه وبين من لا يستشهدون ، ثم يعارضون الشهداء فيما يطمحون إليه .

ومعظم المؤرخين الذين يعارضون الشهداء ودعاتهم لغير منفعة أو نكسة هم من أصحاب الدعة المفرطة وأنصار السلامة الناجية ، ويغلب على هذه الحلة أن تسلبهم ملكة التأريخ الصحيح لأنها تعرضهم للخطأ في الحكم والتفكير ، كما تعرضهم للخطأ في العطف والشعور .

ومن المعقبين على تاريخ هذه الفترة عندنا — في العربية — مؤرخ يتخذ منه المثل لكل من العذر والعطف حين يصل الأمر إلى الاستشهاد كراهة للظلم ودرءاً للمنكرات ، وهو الأستاذ محمد الخضري صاحب تاريخ الأمم الاسلامية رحمه الله ..

ففي تعقيبه على ثورة المدينة التي قدمنا الإشارة إليها يقول : إن الانسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذي ظهر به أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في امكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا في وجهه . ولا ندري ما الذي كانوا يريدونه بعد خلع يزيد ؟ .. أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الاسلامية ، لهم خليفة منهم يلي أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول في أمرهم ؟ وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم في هذا الأمر أحد من الجنود الاسلامية ؟ .. انهم فتقوا فتقاً وارتكبوا جرماً فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة ، وكان اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف في معاملتهم بهذه المعاملة .. فإنه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار .. » .

* * *

ويخيل اليك وأنت تقرأ كلام الأستاذ عن هذه الفترة كلها أن لديه أعذاراً ليزيد وليس لديه عذر لأهل المدينة . لأنه يفهم كيف يغضب المرء لما في حوزته ، ولا يفهم كيف تضيق به كراهة الظلم وغيرة العقيدة عن الاحتمال ..

وشعوره هذا يحول بينه وبين الحكم الصحيح على حوادث التاريخ ، لأنه يحول بينه وبين انتظار هذه الحوادث حيث تنتظر لا محالة ، واستبعادها حيث هي بعيدة عن التقدير .

فلم يحدث قط في مواجهة الظلم وانتزاع الدول المكروهة أن شعر الناس كما أرادهم الأستاذ أن يشعروا أو فكروا في الأمر كما أرادهم أن يفكروا ..

ومستحيل حدوث هذا أشد الاستحالة ، وليس قصاراه أنه لم يحدث من قبل في حركات التاريخ ..

فهذه الحركات التي تواجه الدول المكروهة لا تنتظر — ولا يمكن أن

تنتظر — حتى تربى قوتها وعدتها على ما في أيدي الدولة التي تكرهها من قوة وعدة ..

ولكنها حركة أو دعوة تبدأ بفرد واحد يجترىء على ما يهابه الآخرون ، ثم يلحق به ثان وثالث ورابع ما شاء له الاقناع وضيق الذرع بالأمور ، ثم ما ينالهم من نقمة فيشيع الغضب وينكشف الظلم عمن كان في غفلة عنه ، ثم يشتد الحرج بالظالم فيدفعه الحرج الى التخبط على غير هدى ، ويخرج من تخبط غليظ أحمق إلى تخبط أغلظ منه وأحمق .. فلا هم يقفون في امتعاضهم وتذمرهم ولا هو يقف في بطشه وجبروته ، حتى يغلو به البطش والجبروت فيكون فيه وهنه والقضاء عليه .

على هذا النحو يعرف المؤرخ الذي يعالج النفوس الآدمية ما هو من طبعها وما هو خليق ان ينتظر منها ، فلا يعالجها حق العلاج على أنها مسألة جمع وطرح في دفتر الحساب بين هذا الفريق وذاك الفريق .

وعلى هذا النحو تكون حركة الحسين قد سلكت طريقها الذي لا بد لها أن تسلكه ، وما كان لها قط من مسلك سواه .

* * *

وصل الأمر في عهد يزيد الى حد لا يعالج بغير الاستشهاد وما نحا منحاه ..

وهذا هو الاستشهاد ومنحاه . وهو — بالبداية التي لا تحتاج إلى مقابلة طويلة — منحى غير الحساب والجمع والطرح في دفاتر التجار .

ومع هذا يدع المؤرخ طريق الشهادة تمضي إلى نهاية مطافها ثم يتناول دفتر التجار كما يشاء ... فانه لواجد في نهاية المطاف أن دفتر التجار لن يكتب الربح آخراً إلا في صفحة الشهداء .

فالدعاة المستشهدون يخسرون حياتهم وحياة ذويهم ، ولكنهم يرسلون

دعوتهم من بعدهم ناجحة متفاقمة فتظفر في نهاية مطافها بكل شيء حتى المظاهر العرضية والمنافع الأرضية ...

وأصحاب المظاهر العرضية والمنافع الأرضية يكسبون في أول الشوط ثم ينهزمون في وجه الدعوة المستشهدة حتى يخسروا حياتهم أو حياة ذويهم ، وتوزن حظوظهم بكل ميزان ، فاذا هم بكل ميزان خاسرون ...

وهكذا أخفق الحسين ونجح يزيد ...

ولكن يزيد ذهب الى سبيله وعوقب أنصاره في الحياة والحطام والسمعة بعده بشهور ، ثم تقوضت دولته ودولة خلفائه في عمر رجل واحد لم يجاوز الستين ..

وانهزم الحسين في كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده ولكنه ترك الدعوة التي قام بها ملك العباسيين والفاطميين وتعلل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين ، واستظل بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود ، ومثل للناس في حلة من النور تخشع لها الأبصار ..

وباء بالفخر الذي لا فخر مثله في تواريخ بني الانسان غير مستثنى منهم عربي ولا أعجمي ولا قديم ولا حديث .

ابو الشهداء

فليس في العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدرة وذكرة .. وحسبه أنه وحده في تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء في مئات السنين ..

وأيسر شيء على الضعفاء الهازلين أن يذكروا هنا طلب الملك ليغمروا به شهادة الحسين وذويه ..

فهؤلاء واهمون ضالون مغرقون في الوهم والضلال ..

لأن طلب الملك لا يمنع الشهادة ، وقد يطلب الرجل الملك شهيداً قديساً ويطلبه وهو مجرم بريء من القداسة ..

وإنما هو طلب وطلب ، وإنما هي غاية وغاية ، وإنما المعول في هذا الأمر على الطلب لا على المطلوب .

فمن طلب الملك بكل ثمن ، وتوسل له بكل وسيلة ، وسوى فيه بين الغصب والحق وبين الخداع والصدق وبين مصلحة الرعية ومفسدتها ، ففي سبيل الدنيا يعمل لا في سبيل الشهادة .

ومن طلب الملك وأباه بالثمن المعيب ، وطلب الملك حقاً ولم يطلبه لأنه شهوة وكفى ، وطلب الملك وهو يعلم أنه سيموت دونه لا محالة ، وطلب الملك وهو يعتز بنصر الإيمان ولا يعتز بنصر الجند والسلاح ، وطلب الملك دفعاً للمظلمة وجلباً للمصلحة كما وضحت له بنور إيمانه وتقواه ، فليس ذلك بالعامل الذي يخدم نفسه بعمله ، ولكنه الشهيد الذي يابي داعي المروءة والأريحية ويطيع وحي الإيمان والعقيدة ويضرب للناس مثلاً يتجاوز حياة الفرد الواحد وحياة الأجيال الكثيرة ..

ومن ثم يقيم الآية على حقيقة الحقائق في أمثال هذا الصراع بين الخلقين أو بين المزاجين والتاريخين ..

وهي ان الشهادة خصم ضعيف مغلوب في اليوم والأسبوع والعام ..

ولكنها أقوى الخصوم الغالبين في الجيل والأجيال ومدى الأيام .

وهي حقيقة تؤيدها كل نتيجة نظرت إليها بعين الأرض أو بعين السماء على أن تنظر إليها في نهاية المطاف .

ونهاية المطاف هي التي يدخلها « نوع الانسان » في حسابه ويوشج عليها وشائج عطفه وإعجابه . لأنه لا يعمل لوجبات ثلاث في اليوم ، ولا ينظر إلى عمر واحد بين مهد ولحد ، ولكنه يعمل للدوام وينظر إلى الخلود ..

عاشق الجمال

إذا لحقت السيرة بعالم المثال الذي يتطلع إليه خيال الشعراء وتتغنى به قرائح أهل الفن ، فقد تنزهت عن ربقة الجسد وأصبحت صورة من الصور المثلى في عالم الجمال ..

ومن آيات الجمال انه يتحدى المنفعة ويؤثر البطولة على السلامة ..

فاذا تعلقت القريحة بالجمال ، فلا جرم تزن الأمور بغير ميزان الحساب والصفقات .. فتعرض عن النعمة وهي بين يديها وتقبل على الألم وهي ناظرة إليه ، وتلزمها سجية العشق الآخذ بالأعنة ، فتنقاد له ولا تنقاد لنصيحة ناصح أو عذل عاذل .. لأن المشغوف بالجمال ينشده ولا يبالي ما يلقاه في سبيله ..

وقد تمثلت سجية عاشق الجمال في كل شعر نظمه شعراء الحسين وذويه تعظيماً لهم وثناء عليهم ... فلم يتجهوا إليهم ممدوحين وإنما اتجهوا اليهم صوراً مثلى يهيمون بها كما يهيم المحب بصورة حبيبه ، ويستعذبون من أجلها ما يصيبهم من ملام وإيلام .

وفي معنى كهذا المعنى يقول الكميت شاعر أهل البيت :

طَرِبْتُ وما شَوْقاً إلى البيضِ أطْـرَبُ
ولا لَعِباً مِنّي ، وذو الشّيبِ يَلْعَبُ

ولم يُلْهِني دارٌ ولا رسْمُ منْزِلِ
ولم يتَطربْني بنانٌ مُخَضَّبُ

ولا أنا مِمّنْ يزْجُرُ الطَيْرَ همّهُ
أصاحَ غُرابٌ أم تعرَّضَ ثعْلَبُ

ولا السانحاتِ البارِحاتِ عَشيّةً
أمرُ سليمِ القرْنِ أم أمرُ أعْضَبُ (١)

ولكن الى أهلِ الفضائلِ والنُّهى
وخَيرِ بني حَواءَ ، والخيرُ يُطْلَبُ

إلى النفرِ البيضِ الذين بِحُبِّهم
إلى الله فيما نالَني أتقرَّبُ

بني هاشم ، رهط النبيِّ ، فإنّني
بهم ولهم أرْضَى مراراً وأغْضَبُ

خَفَضْتُ لَهُم مِنّي جَناحي مَودّةً
إلى كنفٍ عطفاه أهلٌ ومَرْحَبُ

يُشيرُونَ بالأيدي إليَّ وقولهم
ألا خابَ هذا ، والمشيرُون أخْيَبُ

فطائِفةٌ قد كفّرَتْني بحُبِّكم
وطائفةٌ قالوا : مُسيءٌ ومُذْنِبُ

فما ساءَني تكْفيرُ هاتيكَ مِنْهُمُ
ولا عَيْبُ هاتيكَ التي هي أعْيَبُ

يعيبُونَني مِنْ خبِّهِم وضَلالِهم
عَلى حُبِّكُم ، بَلْ يَسخَرُونَ وأعْجبُ

---

(١) السانح : الطير الذي يمر من اليسار الى اليمين وعكسه البارح ، والاعضب : المكسور .

وقالوا : ترابيّ [1] هَــواهُ وَرأيُــه
بذلك أُدعَــى فِيهــمُ وأُلَقّــبُ

عَلَى ذَاكَ اجْريَاي ، فيكم ضَرِيبتي
ولو جَمَعُوا طراً عليّ وأجْلَبُـــوا

وأحْمِلُ أحْقَــادَ الأقارب فِيكُــم
ويُنْصَبُ لي في الأبْعَدين فَأنصَــبُ

وقد مر بنا حديث زين العابدين رضي الله عنه ، وهو غلام عايل أوشك أن يتخطفه الموت بكلمة من عبيد الله بن زياد لأنه استكبر « أن تكون به جرأة على جوابه » .

فهذا الغلام العليل قد عاش حتى انعقد له ملك القلوب حيث انعقد ملك الأجسام لهشام بن عبد الملك سيد ابن زياد وآله ..

وذهب هشام بين جنده وحشمه يحج البيت ويترضى الناس ، فلم يخلص إلى الحجر الأسود لتزاحم الحجيج عليه . وانه لجالس على كرسيه ينتظر انفضاض الناس إذا بزين العابدين يقبل إلى الحجر الأسود في وقاره وهيبته ، فيتنحى له الحجيج ويحفوا به وهو يستلم الحجر مطمئناً غير معجل .. ثم يعود من حيث أتى والناس مشيعوه بالتجلة والدعاء .

وتهول رجلاً من حاشية هشام هذه المهابة التي لم يرها لمولاه فيسأل : « من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة ! » .

ويخشى هشام أن يطلع جنده على مكانة رجل لم يتطاول إلى مثل مكانته بسلطانه وعتاده فيقول : « لا أعرفه » .. ويقتضب الجواب .

وهذا الذي تصدى له شاعر آخر قد غامر بحياته ونواله ليقول بالقصيد المحفوظ ما ثقل على لسان هشام أن يقوله في كلمتين عابرتين ..

---

(1) من كني علي بن أبي طالب « أبو تراب » وترابي نسبة اليه .

وذلك هو الفرزدق حيث قال :

هذا الذي تَعرِفُ البطحاءُ وطْأتَه
والبيتُ يَعْرفُه والحِلُّ والحَرَمُ

هذا ابن خيرِ عبّادِ الله كلهم
هذا التقيّ النقيّ الطاهرُ العَلَمُ

هذا ابنُ فاطمة ان كُنْتَ جاهلَهُ
بجدّه أنبياءُ اللهِ قد خُتِمُوا

وليسَ قولُك من هذا بضائرِه
العربُ تَعْرِفُ مَنْ أنْكَرْتَ ، والعَجَمُ

إذا رَأتْه قريشٌ قال قائلُها :
إلى مَكارِمِ هذا يَنْتهي الكَرَمُ

من معشر حُبهم دينٌ ، وبُغْضهم
كفرٌ ، وقُرْبُهم مَنْجىً ومُعْتَصَمُ

* * *

وتصدى عبيد الله بن كثير لأمير مكة ــ خالد بن عبيد الله ــ فلعنه وهو قادر على قتله لأنه يلعن علياً وحسيناً في خطبه ، وأنشد :

لَعَنَ اللهُ من يَسُبّ علياً
وحُسَيْناً مِنْ سُوقَةٍ وإمَامِ

أيسبُّ المطهّرُون جُدوداً
والكرام الآباء والأعمامِ

يأمَنُ الطيرُ والحمامُ ولايأ
من آل الرّسُول عند المقامِ

طِبْتَ بَيْتاً وطابَ أهلُكَ أهلاً
أهلُ بيتِ النّبيِّ والإسلامِ

رَحْمَـــةُ اللهِ والسلامُ عليــــه
كُلَّمــا قــامَ قائِــمٌ بســلامِ

* * *

وتنقضي السنون وتتسامع العربية بشاعر فحل لم يسلم من لسانه أحد ، ولم ينزه أحداً من المجزلين أو المقترين عليه عن استحقاق الهجاء.. فكان ينشد الأبيات المقذعة ، ويسأل عن صاحبها فيقول : « لم يستحقها أحد بعينه بعد ، ولسوف يستحقها كثيرون » .

هذا الشاعر العجيب هو دعبل الخزاعي الذي يهز أوتار النفوس بأمثال هذه الأبيات في آل البيت :

مدارس آيــاتٍ خلَــتْ مــن تلاوة
ومنزل وحيٍ مُقْفِــرُ العرصــاتِ ! ..
لآل رسول الله بالخيفِ من مــنى
وبالركــن والتعريــف والجمــراتِ
ديــارُ عــليٍّ ، والحســين وجعفــر
وحمزة ، والسجّــاد ذي الثفناتِ [1]
ديار عفاهــا كــل جــون مبــادر
ولم تعــف للأيــام والسنــــوات

إلى أن يقول :

ملامك في أهــل النــبيِّ فإنّهــم
أَحِبّايَ مــا عــاشوا وأَهْلُ ثِقَاتِي
فيا ربّ زدني مــن يقيــني بصــيرةً
وزد حبهم يــا رب في حسناتــي

(١) كان علي بن الحسين يلقب بذي الثفنات لأن جبهتــه أصبحت كثفنة البعير ـ أي ركبته ـ من كثرة السجود ٠

أُحِبُّ قُصَيِّ الرحم من أجل حبهم
وأهجر فيهم أُسرتي وبناتي
لقد حفت الأيام حولي بشرِّها
وإني لأرجو الأمن بعد وفاتي
ألَمْ تَرَ أني من ثلاثين حجة
أروح وأغدو دائم الحسراتِ
أرى فَيْئَهُم في غيرهم مُتَقَسَّماً
وأيديهم من فيئهم صفراتِ
فآلُ رسول الله نحف جسومهم
وآل زياد حفل القصراتِ [1]
بناتُ زيادٍ في القصور مصونة
وآل رسول الله في الفلوات ! ...
إذا وتروا مدّوا إلى أهل وِتْرِهم
أكُفّاً عن الأوتار مُنقبضاتِ !..

* * *

ووهب علي بن موسى الرضا للشاعر جائزة من دراهمه المضروبة باسمه وخلع عليه من ثيابه ، فبذل له أهل الشام « قم » ثلاثين ألف درهم ليبيعهم الخلعة فضن بها . ثم ترصدوا له في الطريق ليأخذوها منه عنوة تبركاً وذكرى فسمح بالمال ولم يسمح بالخلعة .. واسترضوه فلم يرض إلا أن يعطوه كما من أكمامها ليدفن معه في كفنه ، وتقسموا الخلعة بينهم فخورين بها غير مبالين ما بذلوه في ثمنها .

وانقضت فترة لم تطل .. وتسامعت العربية بشاعر آخر أفحل من دعبل وأقدر منه على التصرف بالهجاء والمديح .

(١) القصرة الرقبة ، وحفل القصرات أي غلاظ الرقاب من السمن .

ذلك هو أبو العباس علي بن الرومي الذي نسي ممدوحيه من آل طاهر وبني العباس ليذكر حق حفيده الحسين يحي بن عمر الشهيد . ولو كلفه ذكره القتل والحرمان .

وفي بعض ما ساقه من النذر لأمراء زمانه مهلكة له قلما يفات منها قائل بحياته ، وذاك حيث يقول من قصيدته الجيمية :

غررتم لَئِنْ صَدقتُم أن حَالَــــةً
تدومُ لكم ، والدهرُ لونانِ ، أَخــرجُ

لعلّ لهم في مُنْطَوَى الغَيْبِ ثائــراً
سيسمو لكم والصبحُ في الليل مُولــجُ

بمجر تضيق الأرض مــن زفراتـــه
له زجل ينفي الوحوش وهزمجُ (١)

يــودّ الــذي لاقــوه أن سلاحـــه
هنالك خلخـــال عليــه ودملـــجُ

فيدرك ثأر الله أنصــــارُ دينـــــه
ولله أَوسٌ آخـــرون وخــــــزرجُ

ويقضي إمــام الحــق فيكــم قضــاءَه
مبيناً ، ومــا كلّ الحوامــل تخــدجُ

وكل أولئك شاعر ينسى التقوى في مواطن شتى من عمله وقوله ولا ينساها في حق الشهداء من آل الحسين وصحبه .. لأنه يحس الجمال إحساس الشعراء ويهتز « للصورة المثلى » اهتزاز الأريحية التي يحلم بها رواد الخيال . فهم هنا بمربأة من قيود العيش ووساوس الحاجة وأعباء النوازع الأرضية ، يستوحون سليقة القول فيما ينبغي أن يقال .. فيجري على لسانهم كأنهم مسوقون إليه ..

---

(١) الهزمجة اختلاط الصوت ، والمجر الجيش الكبير .

بل كل أولئك شاعر لا يسخو بالمدح وهو موصول بالعطاء الجزيل ، ثم هو يسخو به للشهداء وآلهم على غير أمل في نوال ، وعلى خوف شديد من الحرمان والوبال ..

* * *

وشاعر آخر لم يكن يهجو من الناس هذا أو ذاك ، ولكنه كان سيىء الظن بالناس أجمعين .. وكان يقول ما بدا له في الدنيا والدين ، ولكنه يجامل مع المجاملين فلا يقصر عن شأوهم في السابقين أو اللاحقين .

ذلك هو أبو العلاء المعري حيث قال في الفجر والشفق :

وَعلى الدَّهْـرِ من دِماءِ الشّهيدَ
بنِ علِيٍّ ونَجْلِهِ شاهِدانِ

فهُما في أَوَاخِرِ الليلِ فَجْرا
نِ ، وفي أَولياتِهِ شَفَقانِ

ثبتا في قميصه ليَجِيء الحشْ
رِ مُسْتَعْدِياً إلى الرحْمنِ

وان وحي الشعر من سرائر النفوس لأصدق حكماً من لسان التاريخ إذا اختلف الحكمان ..

ولكنهما قد توافيا معاً على مقال واحد .. فجلوا لنا من سيرة الحسين رضي الله عنه صورة الجمال في عالم المثال ، وكذلك يعيش ما عاش في أخلاد الناس .

* * *

عباس محمود العقاد

عائشة
الصديقة بنت الصديق



المرأة العربية

كانت نظرة العرب إلى المرأة نظرة طبيعية مرتجلة .

ونعني بالنظرة الطبيعية المرتجلة أنها النظرة التي لا يشوبها إحساس دخيل من وهم العقائد أو حكم التشريع ، ولكنها تمضي على الفطرة التي توحيها ضرورة الساعة أو ضرورة البيئة ، وتختلف على حسب اختلاف هـذه الضرورات .

فالعرب لم يضربوا اللعنة قط على المرأة في جاهليتهم الأولى ، لأن اللعنة التي ضربت على المرأة في القرون الأولى وامتدت إلى القرون الوسطى إنما جاءت من الإيمان بالخطيئة التي انحدرت بآدم وحواء من نعيم الفردوس ، وأصبحت المرأة ملعونة موصومة بالنجاسة والشر عند بعض الناس لأنهم ألقوا عليها تبعة الشهوات التي تثيرها فيهم وجعلوها حبالة للشيطان، مذ كانوا يحسون بغوايته الخفية كلما أحسوا بغواية الشهوة الحيوانية ،ومناطها المرأة قبل غيرها من هذه الأحياء .

فالعرب لم ينظروا قط إلى المرأة هذه النظرة ، ولم يحكموا عليها قط بالنجاسة والأصالة في الشر والخباثة ، لأنهم لم يعرفوا الخطيئة بهذا المعنى في عهد الجاهلية .

كذلك لم يعرفوا التشريع الموضوع الذي يحكم عليها بالاستعباد والخطة

المتفق عليها في المنزلة الاجتماعية ، وإنما عُرف هذا وأشباهه عند الرومان قبل الإيمان بالخطيئة وقبل الإيمان بالدين، لأنهم كانوا أصحاب ملك عريض لا غنى لهم فيه عن ترتيب الحقوق والمعاملات بين أبناء المجتمع وبناته كافة ، فلما رتبوا هذه الحقوق نظروا إلى المرأة في زمانهم نظرتهم إلى كل ضعيف تابع لغيره . ولم يلاحظوا في ذلك عنتاً خاصّاً بها ولا ضغينة «جنسية » موجهة إليها دون غيرها . لأنهم نظروا هذه النظرة بعينها إلى أبنائهم الصغار وإلى القاصرين منهم على الإجمال ، فعاملوهم معاملة الضعفاء وأعطوهم من الحقوق ما يعطاه الضعفاء ، وهم مع ذلك في عزة الأقارب والأبناء .

هذه النظرة أيضاً لم يعرفها العرب في جاهليتهم الأولى ، لأنهم لم يضطروا إلى وضع تشريع كامل لدولة كاملة . ولكنهم تركوا أنفسهم على سجيتها كما تختلف بها عاداتها ومأثوراتها . وارتجلوا معاملة المرأة ارتجالاً كما تدعوهم إلى ذلك ضرورة البيئة أو ضرورة اللمحة الحاضرة . فربما عاملوها معاملة الرقيق المستضعف في بعض الأحيان ، وربما نسبوا إليها الأبناء دون الآباء من الرجال في أحيان أخرى .

والمرجع في كل أولئك إلى أحوال المعيشة العامة في الجزيرة العربية .

وخلاصتها السريعة أنها أحوال نزاع شديد على المرعى وموارد الماء ، لقلة المرعى وكثْرة طلاب هذا وذاك .

وهذا النزاع الشديد يجعل القدرة على « حماية الذمار » مقدمة على كل قدرة ، لأنها مسألة تتعلق بها الحياة والفناء .

وهو كذلك خليق أن يجعل المرأة في بعض الأحوال كَلاًّ ثقيلاً على عواتق ذويها ، لأنها تستنفد القوت ولا تشترك في حمايته والذود عنه .

وهذا الذي يفسر لنا كثيراً من النقائض العجيبة في الآداب العربية ، لأنها — عند الرجوع بها إلى أسبابها — لا تحسب من النقائض ولا تزال متشابهة متقاربة في الأصول .

فمن ذلك مثلاً أن الحرب نشبت بين بني بكر وبني تغلب أربعين سنة لأن البسوس ابنة منقذ أضافت رجلاً فضرب كليب ناقة ذلك الرجل وهو في ضيافة البسوس، فأقسم ابن اختها جساس لها « ليُقتلن غداً جمل هو أعظم عقراً من ناقة جارك » ، وقتل كليباً سيد بني تغلب في ثأر تلك الناقة ، أو من أجل كرامة امرأة في ناقة جارها .

وإلى جانب ذلك يعلم القارىء أن قبائل من العرب كانت تدفن بناتها في طفولتها فراراً من عارها أو إشفاقاً من نفقتها .

ويلوح أنهما نقيضان لا يلتقيان .

والواقع أنهما غير نقيضين ، وأن البيئة التي تدعو إلى إحدى الخصلتين حقيقة أن تدعو إلى الأخرى .

فإن آداب الحماية تجعل المرأة أحق شيء بأن يحمى وأن يغار عليه الحماة ، لأنها أمس بالرجل من ارض المرعى ومن ماء البئر ومن الجمل والناقة، فمن فرط فيها فما هو بقادر على حماية شيء من هذه الأشياء .

ومن هنا فرط الغيرة على العرض وإيثار الموت للبنت على العار .

وإذا رجعنا إلى الأصل في « آداب الحماية » وهو النزاع الشديد الذي أوجبه شح الأرض بالري والطعام ، فالحاجة إلى القوت خليقة أن تغري بالقسوة المهينة وأن توسوس للمعوزين في سنوات الضيق بالتخلص ممن يستنفد القوت ولا يعين على تحصيله أو الذود عن موارده ، ونعني بهن البنات الزائدات عن حاجة القبيلة في تلك السنوات .

وربما ظن بعضهم أن الوأد كله من مخافة العار كما قال البحتري وهو يعزي بني حميد ذلك العزاء العجيب عن فقد فتاة :

أتبكي من لا ينازل بالسيـ　　ـف مشيحاً ولا يهز اللواء

ويختم عزاءه بقوله :

ولعمري ما العجز عندي إلا أن تبيت الرجال تبكي النســاء

فقد قال في تلك القصيدة :

لم يئد كثرهن قيس تمــــيم عيلةً ، بل حمية وإبــاء

يشير إلى قيس بن عاصم سيد بني تميم الذي أقسم ليئدن كل بنت ولدت له لأن ابنته اختارت صاحبها الذي سباها على العودة إلى أهلها ، فكلام البحتري إن صدق فإنما يصدق على قيس وأمثاله . ولكنه لا ينفي أن العرب وجد فيهم من يئد البنات عَيلة — أي إشفاقاً من النفقة — كما وجد فيهم من يئد البنات أنفة من العار . وآية ذلك أن صعصعة بن ناجية كان يشتري البنات من آبائهن ليستحييهن فيقبلون ذلك ويبيعونهن راضين عن بيعهن ، حتى قيل إنه افتدى ثمانين ومائتي وليدة بالشراء . ولو كان آباؤهن يئدونهن خشية العار وحده لما أغنى عنهم إقصاؤهن وهن في قيد الحياة ، ولحق بهم في بيعهن عار لا يقبله من يأنف من العار .

والقرآن الكريم يقول : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » .

ونخرج من هذا جميعه بأن هذه النقائض الظاهرة مصدرها واحد ، وهو النزاع على الرزق وما أوجبه من تقديس فضائل الحماية والدفاع عن الحرمات . فهذا المصدر يفسر لنا وأد البنات خشية الإملاق كما يفسر لنا وأدهن خشية العار ، ويفسر لنا احتقار البكاء على المرأة كما يفسر لنا إعزاز جارها حتى لتنشب الحرب أربعين سنة غضباً من إصابة ناقة في جوار خالة رئيس ، ويرجع كله إلى نظرة طبيعية تجري مع الحوادث في مجراها ، فلا يشوبها وهم من عقيدة دينية ولا يخالطها قيد من أحكام التشريع .

* * *

ومن لوازم هذا النزاع الشديد في مظهر آخر من مظاهر البادية العربية

أنه جعل المرأة عاملة نافعة في حياة الأسرة وحياة القبيلة ، لأن المعيشة الضنك التي كان يعيشها البدوي في صحرائه المجدبة تأبي عليه الترف والبذخ ولا تتسع لإسراف المدني الذي ينفق على المرأة ولا أرب له عندها غير المتعة والمسرة، ولا عمل لها عنده غير الراحة والزينة . فكانت المرأة العربية — في البادية خاصة — تعمل كل ما تستطيع أن تعمله لخدمة أسرتها وقبيلتها ، وتعلم كل ما تستطيع أن تعلمه لإتقان عملها وتجويد خدمتها . فكانت ترعى الإبل والشاء وتمخض اللبن وتغزل الصوف وتصنع الخيام وتضمد الجراح وتطب لنفسها في شؤون الحمل والولادة وتحذق من هذه الشؤون ما تجهله المرأة الحضرية في كثير من أمم العصر الحديث ، وتعينها على ذلك حاجتها إلى تطبيب نفسها وقيامها على رعي الأحياء التي تلازمها في غدوها ورواحها وفي صحتها ومرضها وفي حملها وولادتها وفي اختيار الأصلح والأجدى لنسلها ونتاجها .

وقد رويت عن نساء العرب صفات أخرى للحمل والرضاعة تشبه هذه الصفة في جملة معناها ، وهي صفات لا يشترط أن تطابق العلم الحديث في جميع تحليلاته وتفصيلاته ، بل حسبها على سذاجتها أن تدل على طب معروف في علاج الحمل والولادة والرضاع ، وأن الأمر في هذه الشؤون لم يكن عند المرأة العربية هملاً متروكاً للمصادفات ، كما يشاهد ذلك في بيئة الكثير من الحضريات المعاصرات .

* * *

إلا أن الشظف الذي كان يعم الجزيرة العربية ويذكي فيها ذلك النزاع الشديد على الرزق لم يكن خاوياً من الجوانب التي يرق فيها ويلطف وتسري منها الرقة واللطف إلى العلاقة بين الرجال والنساء ، فتنعم المرأة بالرفق الذي يرفع من مكانتها ويهذب من معاملتها في سائر البيئات الإنسانية لا في الجزيرة العربية وحدها .

وأهم هذه الجوانب جانب النشأة في بيئة الحضارة ، وجانب النشأة في بيئة السيادة .

فالحضارة تصقل الطباع وتهذب حواشي النفوس وتغني القبائل عن القتال وعن ثورة الغضب للذمار المهدد بالليل والنهار ، وأول ما يظهر هذا الصقل والتهذيب في العلاقة بين الرجل والمرأة لأنها العلاقة التي تمتحن بها الكياسة وآداب الخطاب .

والسيادة تعلم السادة أن يعنوا بمكان بناتهم من العزة والرخاء ، فلا يسلمونهن لمن ينزل بهن عن منزلة العقائل المبجلات اللواتي يغنين في بيوتهن عن الخدمة المسفة والعيش الذليل .

ولهذا كان سادة العرب يختارون الأزواج لبناتهم ثم لا يكتفون باختيارهم حتى يشركوهن في الرأي ويدخلوهن في المشورة ، ومن أنباء ذلك التي استفاضت في الأدب العربي أن الحارث بن عوف المري قدم على أوس بن حارثة الطائي خاطباً فدخل أوس على زوجته ودعا بينته الكبرى فقال لها : يا بنية ! هذا الحارث ابن عوف سيد من سادات العرب قد جاءني طالباً خاطباً وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل . قال : ولم ؟ قالت : لأني امرأة في وجهي ردة وفي خلقي بعض العهدة ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمي ، وليس بجارك في البلد فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليّ وعليك من ذلك ما فيه .

فصرفها ودعا بابنته الوسطى وعرض عليها ما عرضه على الكبرى . فقالت : إني خرقاء وليست بيدي صناعة ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني !

فلما دعا باختهما الصغرى قالت : « ... ولكنني والله الجميلة وجهاً الصناع يداً الرفيعة خلقاً الحسيبة أباً ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير ! » .
وهذه الفتاة الصغرى — واسمها بُهيسة — هي التي تزوجها الحارث

وزفت إليه ، فأنكرت منه أن يدخل عليها في ثياب العرس والحرب قائمة بين عبس وذبيان فلا يشغله عن الطيب والزفاف أن يصلح بينهما ... فأكبر منها زوجها هذه الحكمة ، وسعى في الصلح بين الحيين حتى استجيب إليه .

وممن جاءت الأنباء على اختلاف الروايات باستشارتهن في الزواج هند بنت عقبة أم معاوية بن أبي سفيان . وقد خطبها سيدان من قومها فاستخبرت أباها عنهما فقال يصفهما : « أما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ، إن تابعته تابعك ، وإن ملت عنه حط إليك ، تحكمين عليه في أهله وماله . وأما الآخر فموسع عليه منظور إليه في الحسب الحسيب والرأي الأريب ، مدْره أرومته وعز عشيرته ، شديد الغيرة لا ينام على ضعة ولا يرفع عصاه عن أهله » .

فقالت : « يا أبت ! الأول سيد مضياع للحرة ، فما عست أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت وخافها أهلها فأمنت؟ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها . فإن جاءت بولد أحمقت ، وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه علي بعد ! وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العقلية . وإني لأخلاق مثل هذا لموافقة . فزوجنيه » .

ويلوح من تكرار هذه الأنباء أن استشارة البنات في أمر زواجهن كان سنة من السنن المرعية بين سادات العرب لا يشذ عنها إلا القليل .

* * *

ومن البديه أن هذه العادات والآداب التي تنشأ من بيئة الوطن ومناخه تعم الأمة برمتها ولا يقع فيها التفاوت إلا ما لا بد منه بين فرد وفرد ، أو بين طبقة وطبقة ، على المثال الذي قدمناه .

بيد أنك قد ترى في الأمة طائفة من عليتها أو بيتاً من بيوتها يخيل إليك أنهم خصوا من دونها بصفوة هذه الآداب ونقاوة هذه العادات .

أو يخيل إليك أن آداب الأمة كلها إنما كانت تحضيراً مقصوداً لهذه الطائفة أو لهذا البيت ، يأخذون منه بالخلاصة المصفاة واللباب المختار .

فإذا صح هذا الوصف في قبيلة من قبائل العرب فهو أصح ما يكون في قبيلة بني تَيْم ، ثم في بيت أبي بكر الصديق الذي كان في موضع الذؤابة من هذه القبيلة .

فقد اجتمعت لبني تيم خلاصة الآداب التي نجمت من فرائض الحماية والذود عن الذمار ، ثم تناولتها بالصقل والتهذيب بيئة السيادة وبيئة الحضارة .

وكان بيت الصديق على التخصيص مثلا في هذه الآداب جميعها يحتذى به بين الحواضر العربية .

لأن سيادة هذا البيت لم تكن سيادة طغيان وقتال ، ولكنها كانت سيادة شرف وأمانة ، وكانت حصته في الجاهلية من مقاوم الشرف حصة الوفاء بالمغارم وضمان الديون ، وعمله الأكبر في الجاهلية يدور على التجارة ومعاملة الناس ولا يدور على البأس والإكراه .

فنشأ البيت كله على الرفق والدماثة ورقة الحاشية ، واشتهر بتدليل نسائه وبناته حتى قيل – كما جاء في الأغاني – إنهن كن أحظى خلق الله عند أزواجهن . وكانت عند الحسين بن علي رضوان الله عليهما أم إسحاق بنت طلحة ، فكان يقول : « والله لربما حملت ووضعت وهي مصارمة لي لا تكلمني » .

وندر من أبناء الصديق رضي الله عنه من لم يكن له مع امرأته شأن يذكر في باب المحبة بين الأزواج .

فعبد الله أكبر أولاده بنى بعاتكة بنت زيد العدوية فهام بها وشغل عن خاصة أمره وعامته ، حتى نصح له أبوه بطلاقها فطلقها وهو كاره ، ثم أدركه الندم فنظم فيها القصائد ومنها :

أعاتك لا أنســاك ما ذرّ شــارق وما لاح نجم في السماء محلق
أعاتك قلبي كــل يوم وليلـــة لديك بما تخفي النفوس معلق
ولم أر مثلي طلق اليوم مثلهـــا ولا مثلهــا في غير شيء تطلق

وأخوه عبد الرحمن نفله عمر بن الخطاب ليلى ابنة الجودي من حسان غسان الموصوفات بالقسامة والجمال فلازمها ولم يفارقها فترة إلا نظم الشعر في الحنين إليها ، ومن قوله فيها :

تذكرت ليلى والسماوة بيننــا فما لابنة الجودي ليلى وماليا
وأنى نلاقيها ! بلى . ولعلهــا إذا الناس حجوا قابــلا أن توافيا

وأفرط في التعلق بها حتى لامته شقيقته السيدة عائشة رضي الله عنها وما زالت به حتى جفاها ، فعادت تلومه في جفائها وتقول له : « أفرطت في الأمرين . فإما أن تنصفها ، وإما أن تجهزها إلى أهلها ». فجهزها إلى أهلها.

ومن ذرية الصديق « ابن أبي عتيق » صاحب عمر بن أبي ربيعة شاعر الغزل المشهور ، وكان يسمع بالجفاء بينه وبين الثريا فيركب من مدينة إلى مدينة ليصلح بينهما ، ولا يترجل عن مطيته حتى يتم الصلح على ما يرومه .

وهو مع هذا كان يتحرج من نزوات عمر ويسأله : ألم تخبرني أنك ما أتيت حراماً قط ؟ فيقول : بلى ! فيستخبره عن قوله :

وما نلت منها محرماً غير أننا كلانا من الثوب المورد لابس

ثم لا يتركه حتى يجيبه بما يدفع شكه ويرده إلى حسن ظنه .

* * *

فآداب الرجال والنساء في بني تيم كانت مثالاً للرعاية التي تظفر بها المرأة العربية في بيئة السيادة وبيئة الحضارة .

ولكنها لم تزل عربية في قرارها ، ولم تنقطع عن آداب الأمة التي جعلت

عرضها أحق شيء بالحماية ، وأقمن حصن أن تمنعه وتغار عليه .

فكان أبو بكر نفسه مثلاً من أمثلة الغيرة بين أهله وقومه ، وقد قال ابن سيرين : كان أغير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر . وروى عن عبد الله ابن عمرو بن العاص أن نفراً من بني هاشم دخلوا على زوجته أسماء بنت عميس فكره دخولهم عليها وشكاهم إلى النبي عليه السلام فقام على المنبر فقال : لا يدخلن رجل بعد يومي هذا على مغيّبة إلا أن يكون معه رجل أو أثنان .

ولما شبّب عمر بن أبي ربيعة بعائشة بنت طلحة التيمية تجمع فتيان تَيم فأنذروه لئن تعرض لها بعد ذلك ليقتلنه شر قتلة ، فأقسم لا عاد .

وعائشة هي التي كانت تعاتب في كشف وجهها فتقول : « إن الله وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره . ووالله ما فيّ وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد » .

فهو دلال لا ينسى الصيانة ، ورفق لا ينسى الغيرة ، وآداب سيادة وحضارة لا تنسى الأصول المعروفة في آداب البداوة .

وفي هذه البيئة التي تحوطها الحمية والرعاية نشأت ربّة هذه الدراسة وموضوع هذا الكتاب : عائشة بنت الصديق رضي الله عنها .

ولكنها تفردت برعاية لم تشركها فيها ولائد هذه البيئة . فقد تربت على النعمة والخير ، وتدربت على العزة والكرامة ، وتعلمت القراءة التي لم يكن يتعلمها من نجباء الأبناء في بيوت السادة إلا القلة المعدودة .

فصح أن يقال إن الرعاية التي ظفرت بها ربة هذه الدراسة كانت هي خلاصة الكرامة التي هيأتها لبناتها حمية البداوة، وصقلتها مع الزمن شمائل الحضر ومآثر الشرف والسيادة .

المـرأة المسلمة

جاء الإسلام فبدأ من النهاية التي انتهت إليها آداب الحضارة والسيادة وهي خلاصة العرف الذي تعارف عليه سادة الحضر في معاملة المرأة العربية.

إلا أنه جعل هذا العرف حقاً مكتوباً على الرجال لكل امرأة من كل طبقة ، ولم يقصره على عقائل البيوتات كما كان مقصوراً عليهن في آداب الجاهلية بحكم الاصطلاح والعادة ، يتبعه من يرضاه ويهمله من يأباه .

ثم زاد على هذا العرف منزلة من الرعاية لم تصل إليها أرفع النساء في أرفع البيوتات قبل الدعوة المحمدية ، لأنه جعلها مناط التكليف ووجه إليها الخطاب في كل شيء كما وجهه إلى الرجال . إلا ما هو من خصائص عمل الرجال في العرف المستقيم .

فالمرأة في شريعة الإسلام إنسان مرعيّ الحقوق والواجبات... « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف . وللرجال عليهن درجة » .

وكل امرأة أو فتاة — من العلية أو السوقة — لا يصح زواجها حتى يرجع إليها فيه « فلا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن » وعلامة إذنها السكوت كما جاء في بعض الأحاديث .

ولها أن تملك ما تشاء وأن تبيع وتشتري ما تشاء ، وأن تشترك في الإرث وكان حراماً عليها ، لأنها لا تحمل الدرع ولا تضرب بالسيف . بل

كان من حق الرجل أن يتخذها هي ميراثاً ينتقل إليه كرهاً كما يرث الخيل والإبل والحطام . فأبطل الإسلام ذلك حيث جاء في القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً » .

وقضى بأن تبايع النساء كما بايع الرجال ، فلا تغني عن مبايعتهن مبايعة آبائهن وأزواجهن وأوليائهن . ونص القرآن الكريم على ذلك حيث جاء في سورة الممتحنة : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » .

وأبى الإسلام إلا أن يكفل لها حسن المودة كما كفل لها حسن المعاملة وأن يوسع لها من حقوق البر والعطف كما وسع لها من حكم الشريعة . فأوصى المسلمين أن يستقبلوا ولادتها بالرضى ، وزجر الذين يستقبلونها على غيظ وحرد : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب. ألا ساء ما يحكمون » .

ومن الآداب القرآنية أن يغالب الرجل كراهتها إذا تغير قلبه من نحوها عسى أن يثوب إلى حبها أو يكون في احتمالها خيرٌ له ولها : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

وكانت وصايا النبي (ص) على منهاج أوامر القرآن في إنصاف المرأة ورعايتها ، فكان عليه السلام يقول : « خيركم خيركم للنساء » ... و « ... ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم » .

وأسند الوصاة بها في بعض الأحاديث إلى وحي جبريل حيث قال :

« ما زال جبريل يوصيني بالنساء حتى ظننت أنه يحرم طلاقهن » .

والتعليم الذي كان في بيوت السادة فلتة لا يقاس عليها بين الرجال فضلاً عن النساء جاء الإسلام فجعل « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » واستحبه عليه السلام حتى للإماء حيث قال : « أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » .

* * *

هذه هي المنزلة التي تبوأتها المرأة في الشريعة الإسلامية .

وهذه هي المعاملة التي أوجبتها آداب الإسلام على المسلمين كافة ، وهي أرفع من كل أدب ترقت إليه الجاهلية في الجوانب التي تهذبت فيها معاملة المرأة بين ذوي السيادة والحضارة من أهلها ، وأضيفت إليها على عهد الإسلام جوانب شتى لم يكن للمرأة فيها أيسر نصيب من رعاية أو إنصاف .

ومهما يكن من الرأي في موقف العصور الحديثة من المرأة — وهو ما نعرض له في ختام هذا الكتاب — فالذي لا ريب فيه أن الإسلام قد رفعها درجات فوق أرفع منزلة بلغتها بين العرب أو بين الأمم الأخرى ، وأن المسلم الذي يعمل بدينه يوليها من البر فوق ما طلبته لنفسها ، لو أنها كانت في زمان يطلب فيه النساء لأنفسهن حقاً من الحقوق .

* * *

ولم تكن تلك غاية المرتقى

فإن الفرائض الدينية تطاع ولا تطاع ، وهي على هذه موكلة بالتعميم الذي يستوي فيه جميع المسلمين المخاطبين بالتكليف . وإنما طاعة التكليف فضيلة تعلوها فضائل الاختيار والرغبة والاشتياق إلى الإنجاز ، كأن الإنجاز هو المثوبة التي تغني عن المثوبة الموعودة . وها هنا تتفاوت المراتب وتترقى الفضائل من التعميم الشائع إلى الامتياز والرجحان ، وتستبق النفوس حتى

يكون العمل المفروض أمنية محبوبة يؤلم النفس أن تعاق دونها ولا تبلغ الغاية منها .

وتلك عليا مراتب الأنبياء .

وهي المرتبة التي سما إليها صاحب الدعوة الإسلامية بما تهيأ له من تمام الأريحية الإنسانية وملاك الفطرة النبوية .

فالحق أن محمداً عليه السلام لم يفرض على نفسه الشريفة محاسنة المرأة كما تفرض الأوامر السماوية على من يطيعها ولا مسرة له في طاعتها ، ولكنه حاسنها فطرة كما حاسن كل مخلوق حي ولا سيما الضعفاء . وجعل البر بها مقياس المفاضلة بين أخلاق الرجال وعنوان المنافسة في طلب الخير والكمال . فقال غير مرة : « خيركم خيركم للنساء » .

وبلغ من ذلك أنه يأوي إلى البيت « فيكون في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة » وأنه استحب خدمة الزوجة في منزلها فقال : « خدمتك زوجتك صدقة » وكان أكيس رجل في معاملة أهل بيته ، يشفق أن يرينه غير باسم في وجوههن ، ويزورهن جميعاً في الصباح والمساء ، وإذا خلا بهن « كان ألين الناس ،ضحاكاً بساماً » كما قالت عائشة رضي الله عنها .

ومن المبالغات المألوفة في تناهي الرحمة أن يقال « إنه أرحم به من أمه وأبيه » .

لكنه عليه السلام كان حقاً أرحم بأهله من آبائهن وأمهاتهن حتى الذين اشتهروا بالحدب الشديد على ذوي الرحم كأبي بكر الصديق رضوان الله عليه .

ففي الأحاديث عن عائشة أنها قالت : « كان بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كلام . فقال : من ترضين أن يكون بيني وبينك ؟ أترضين بأبي عبيدة بن الجراح ؟ قلت . لا . ذلك رجل هين لين يقضي

لك . قال : أترضين بأبيك ؟ قلت : نعم . فأرسل إلى أبي بكر فجاء ، فقال : اقصصي ! فقلت : بل اقصص أنت ... فقال : هي كذا وكذا ... فقلت : اقصد ! فرفع أبو بكر يده فلطمني وقال : تقولين يا بنت أم رومان : اقصد ؟ من يقصد إذا لم يقصد رسول الله ؟ فجعل الدم يسيل من أنفي ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نرد هذا ... وجعل يغسل الدم بيده من ثيابي ، ويقول : رأيت كيف أبعدك الله منه ... »

وكان بره بمن مات من أزواجه أكرم من بره بمن يعشن معه ويراهن كل يوم . فلما ماتت زوجته الأولى خديجة رضي الله عنها حزن عليها وسمى العام الذي قبضت فيه « عام الحزن » ووفى لذكراها طوال حياته ، حتى لقد كانت عائشة تغار منها وهي في قبرها أشد من غيرتها من زوجاته اللواتي يعشن معها في كنفه ، وقالت له يوماً : هل كانت إلا عجوزاً بدلك الله خيراً منها ؟ فقال لها مغضباً : « لا والله ! ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

وإن هذا الوفاء لذكرى الزوجة الغابرة لخليق أن يرضي المرأة – حين تنسى غيرتها – أشد من رضاها عن مكاشفتها بالتفضيل في حياتها لجمالها وشبابها ونعيم عشرتها وصفائها .

* * *

ونحن لا نعتسف التوفيق والترتيب حين نقول عن ربة هذا الكتاب – عائشة بنت الصديق – إنها لوحظت في آداب العرب والإسلام كأنها الوجهة التي اتجهت إليها هذه الآداب في طريق الارتقاء والتهذيب .

فمن قسمتها في آداب العرب النسائية أنها نشأت في خلاصة تيم الذين اشتهروا بظرف الرجال وتدليل النساء .

من قسمتها في الإسلام أنها ملكت حقوق المرأة المسلمة ، وتجاوزتها

فملكت الحظوة التي يضفيها على نسائه نبي كريم ، يتجاوز الحقوق المفروضة صعداً في معارج الكمال ، وكانت هي بعد هذا صاحبة الحظوة الأولى بين هؤلاء النساء .

إنها لمجدودة من بنات حواء .

ولهذا الجد السعيد شأن أي شأن في تاريخها الذي اتصل بتاريخ الإسلام .

* * *

المرأة الخالدة

إن المرأة التي اجتمعت لها خلاصة الرعاية في آداب أمة من الأمم لذات شأن في تاريخ قومها لا يسهو عنه باحث موكل بدراسة التاريخ أو دراسة الآداب .

وأعظم من ذلك شأن المرأة التي كتبت لها خلاصة الرعاية في دين من الأديان ، والتي اشتركت في سيرة النبي المرسل بذلك الدين ، ونقلت أحاديثه في أحكام شريعته وخطرات ضميره ، ولقيت عنده الحظوة التي لم تلقها واحدة من النساء .

والسيدة عائشة رضي الله عنها هي هذه ، وهي تلك .

هي المرأة التي لوحظت في آداب الأمة العربية كأنما استخلصت لها هذه الآداب لتظفر منها بالرعاية الأولى .

وهي المرأة التي قال عنها النبي عليه السلام إنها أحب الناس إليه ، وتلقى الأعقاب عنها مئات الأحاديث التي عرفوه بها في دينه ودنياه .

وكلاهما شأن عظيم يبوىء الإنسان بين قومه مكاناً ملحوظاً من جوانب التاريخ ...

ولكن السيدة عائشة مع هذا وذاك تهم الباحثين والمؤرخين لسبب آخر غير هذين السببين ، أو للسبب الآخر المتمم لهذين السببين ، لأنها المرأة في

تكوينها الأصيل الذي خلقه الله منذ خلق حواء ، أو هي المرأة التي تتمثل فيها الأنثى الخالدة التي لا تحتويها أمة واحدة ولا يستأثر بها زمان واحد ، لأنها استمدت من طبائع الإنسانية كل ما قدر لها من دوام .

وهذا هو جانب الاهتمام الصميم بكل عظيمة وكل عظيم .

فمهما يقل القائلون في غرض المؤرخ من سير العظماء فالحقيقة التي لا ريب فيها عندنا هي أن الغرض الأول أو الغرض الذي تنتهي إليه جميع الأغراض – هو توثيق الصلة بين الإنسانية وبين عظمائها وعظيماتها والنفاذ إلى الجانب الإنساني من كل نفس تستحق التنويه والدراسة .

وما من علامة هي أصدق دلالة على السيرة الناجحة من هذه العلامة .

فنحن نعلم أننا سائرون على الجادة في التعريف بصاحب السيرة أو صاحبتها إذا نظرنا فرأينا أننا قد وصلنا من تلك السيرة إلى صميم الإنسان .

ونحن نعلم أننا تائهون في الطريق إذا نظرنا فلم نجد بين أيدينا إلا سرابيل العظمة وأقواس النصر ومواكب الرهبة والخشوع .

نحن إذا فهمنا النبي نبياً وكفى فإنما وصلنا بين ضميره وضمائرنا وبين محراب العبادة عنده ومحراب العبادة عندنا .

ونحن إذا فهمنا البطل بطلاً وكفى فإنما وصلنا بين قدرته وقدرتنا وبين ضخامته بالقياس إلينا وضآلتنا بالقياس إليه .

ونحن إذا فهمنا الرئيس رئيساً وكفى فإنما وصلنا بين مركزه في الأمة ومركزنا ، وبين الحقوق التي له والواجبات التي عليه ، والحقوق التي لنا والواجبات التي علينا .

ولكننا إذا فهمنا النبي إنساناً فقد فهمناه كله وفهمناه على حقيقته التي تعنينا وتعقد له أواصر القرابة فيما بينه وبيننا ، لأننا وصلنا بين الإنسان فيه والإنسان فينا .

وكذلك البطل ، وكذلك الرئيس ، وكذلك كل ذي شأن يستحق البحث فيه .

هم غرباء حتى يقال : هذا هو الإنسان ! فإذا هم الأقربون الذين ترضينا عظمتهم لأنهم منا ونحن منهم ، ولأنهم خالدون خلود الإنسان من وراء الأقوام والأزمان .

والسيدة عائشة رضي الله عنها مثل من أمثلة الأنوثة الخالدة في جميع أقوامها وجميع عصورها .

فضلها في الكتابة عنها أنها كتابة عن تلك الأنوثة التي نلمحها حولنا ونلمحها من قبلنا في كل أنثى .

وانها ترينا النبي في بيته فترينا الرجل الذي ارتفع بالنبوة إلى عليا مراتب الإنسانية ، ولكنه مع هذا هو الرجل في بيته كما يكون الرجال بين النساء على سنة الفطرة المعهودة من آدم وحواء .

وفضلها على الجملة أنك تقرأ من أخبارها ما تقرأ فلا تزال تقول بعد كل خبر ترويه أو يرويه غيرها : أجل هذه هي الأنثى الخالدة في كل سمة من سماتها .

هذه هي الأنثى الخالدة في غيرتها ، وهذه هي الأنثى الخالدة في دلالها ، وهذه هي الأنثى الخالدة في كل ما عرفت به الأنثى من حب الزينة وحب التدليل والتصغير وحب التطلع وحب المكايدة والمناوشة ، ومكاتمة الشعور والتعريض بالقول وهي قادرة على التصريح .

وكل لون من ألوان الغيرة التي تتراءى في طبيعة المرأة فهو باد في خبر من أخبار السيدة عائشة ، كأوضح ما يبدو وأصدق ما يكون في طبائع النساء .

والغيرة في طبائع النساء ألوان :

تغار المرأة على قلب الرجل الذي تحبه ولو شغلته الذكرى ولم تشغله

المودة الحاضرة ، لأنها تعلم من هذا أنها لم تشغل قلبه كله ، وهي تأسى على كل ما يفوتها من شواغل ذلك القلب ، ولو لم تكن ثمة منافسة محذورة .

وتغار المرأة من المرأة الجميلة وإن لم تنافسها على رجل تحبه ، وتغار من شريكتها في رجلها كائناً ما كان حظها من الجمال ، وتغار من كل مزية غير الجمال ما كان فيها سبيل إلى الحظوة في القلب الذي تريده لها ولا تطيق المزاحمة عليه .

و « الأنثى الغيرى » في جميع هذه الألوان من الغيرة النسائية ماثلة هنالك في سيرة عائشة كما روتها هي وكما رواها غيرها ، ما من فارق بينها وبين سائر النساء إلا الأدب الذي ينبغي لها والحق النبوي الذي هي جاهدة جهدها أن توفره وترعاه .

كانت السيدة خديجة متوفاة منذ سنوات يوم بنى النبي بالسيدة عائشة .

لكن السيدة عائشة كانت تغار منها غيرة لم تنطو على مثلها لشريكاتها اللواتي يعشن معها ، لأنها شغلت قلب النبي بعد وفاتها فلم يزل يذكرها ويحب لحبها من كان يزورها أو يراها .

وكان عليه السلام يبر بعض العجائز فسألته السيدة عائشة في ذلك فقال : إن خديجة أوصتني بها ... فقالت مغضبة : خديجة . خديجة ... لكأنما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة !

وعلى حلم رسول الله ربما غضب أحياناً من ثورتها على ذكرى خديجة ، فغضب في هذه المرة وتركها فترة ثم عاد وأمها – أم رومان – عندها فقالت له أمها : يا رسول الله ! مالك ولعائشة ؟ إنها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها . فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتباً وهو يقول لها : ألست القائلة : كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة !

وسألته مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيراً

منها ؟ فأسكتها قائلاً : « والله ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت بي حين كذبني الناس ، وواستني بمالها حين حرمني الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها » .

أما شريكاتها اللواتي كن يعايشنها في بيت النبي فربما كانت تغار من إحداهن لطعام يستطيبه النبي عندها فضلا عن الغيرة من الجمال أو الملاحة :

تعوّد عليه السلام أن يستطيب العسل الذي تهيّئه له زينب بنت جحش من أجمل أمهات المؤمنين وأحظاهن عنده . فأجمعت رأيها مع صديقتها حفصة بنت عمر أن يبغضاه في عسلها وقالت فيما روته عن نفسها : « ... فتواطأت أنا وحفصة أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ؟ وهي طعام من صمغ حلو ولكنه كريه الرائحة ، ولم يكن أبغض إلى النبي عليه السلام من رائحة كريهة ... فلما دخل عندها رسول الله قالت : إني أجد منك ريح مغافير . قال : لا ، ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود إليه ! » .

وقد عرفت زميلتها السيدة صفية بجودة الطهي ، وهي في الأصل إسرائيلية من أهل خيبر . فنفست عليها السيدة عائشة هذه الإجادة ولم تكتم منها بل هي التي روتها ومن حديثها عنها عرفناها . قالت : « ما رأيت صانعة طعام مثل صفية . صنعت لرسول الله طعاماً وهو في بيتي فأخذني أفكل — أي قشعريرة — فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الإناء ثم ندمت فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ؟ قال : إناء مثل إناء وطعام مثل طعام » .

وهذه غيرتها من زميلات لم يجهرن بالمنافسة والمغايظة . وهي بالبداهة دون غيرتها من الزميلات اللواتي كن ينافسنها جهرة ويكاشفن النبي عليه السلام بالشكوى عن تفضيلها عليهن في المودة والحظوة ، وعلى رأسهن أم سلمة التي شهدت على نفسها والنبي يخطبها أنها غيور لا تطيق المنافسة ، فكان عليه السلام يجاملها ليذهب غيرتها ، وتغضب عائشة من هذه المجاملة

على عامها بمكانتها عنده ، قالت :

دخل عليَّ يوماً رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت :

– أين كنت منذ اليوم ؟

قال : يا حميراء كنت عند أم سلمة .

قلت : ما تشبع من أم سلمة ؟

فتبسم . ثم قلت : يا رسول الله ، ألا تخبرني عنك لو أنك نزلت بعدوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رُعيت أيهما كنت ترعى ؟

قال : التي لم ترع !

قلت : فأنا ليس كأحد من نسائك . كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل ، غيري ...

فتبسم عليه السلام .

وإذا كانت أكلة أو شربة عسل تستطاب عند إحدى الزميلات ، أو مجاملة لإحداهن جبراً لخاطر ومداراة لغيرة – تثير هذه المنافسة وتغري بهذه المؤامرة فليس من العسير أن نفهم كيف تكون الغيرة التي تثيرها الذرية المحبوبة المرقوبة حين يرزقها النبي من إحدى زوجاته وقد حرمها من سائرهن سنوات ، وهو شديد الكلف بها والتطلع إليها .

تلك إذن غيرة لا تمسكها الحدود ولا تكبحها المجاملات .

وقد ثارت ثائرتها يوم ولد له عليه السلام ابنه إبراهيم من مارية القبطية ، وكانت على هذه المزية التي امتازت بها جميلة بيضاء ، تغار منها الزميلة لجمالها وصباحتها فوق غيرتها منها لهذه الأمومة التي تفردت بها بين تسع نظيرات .

قالت كتب السير : وغارت زوجات النبي ولا كعائشة .

لأن عائشة رضي الله عنها كانت صاحبة المكانة الأولى التي ترفعت إليها « مارية » بأمومتها ، فهي أحق بالغيرة على تلك المكانة من سواها .

ولا ريب في حب عائشة للنبي ولا في سرورها ورضاها بما يسره ويرضيه . ولكننا نطالب الطبيعة الإنسانية — والطبيعة النسوية — بما يرهقها إذا نحن ترقبنا منها أن تسر بما يثير غيرتها ، وأن تحب الرجل ثم تسر بما عسى أن يصرف حبها عنه ، أو ينقص سهمها فيه .

فمن الطبيعي أن تسر المرأة بسرور الرجل لأنها تحبه .

ومن الطبيعي كذلك أن تغار من السرور الذي يحببه إلى غيرها ، لأنها تحبه .

وقد يفترق القلبان في لحظة من اللحظات لأنهما مقتربان أشد اقتراب .

وهذا الذي حدث عند مولد إبراهيم من مارية القبطية ، وهي فتية جميلة رضية ، يدنيها من قلب النبي شتى المزايا ، وأولاها هذه المزية التي تربى على كل مزية .

فلما رأت عائشة فرح النبي بالوليد المموموق وأحست شغف النبي به جاهدت نفسها أن تغالب غيرتها فلم تقو على هذه المغالبة ، وقال لها يوماً : انظري إلى شبهه ! فلم تملك لسانها أن تقول : ما أرى شيئاً ... وربما أعجبه نمو الوليد ولفتها إلى بياضه ولحمه وترعرع جسمه ، فيعز عليها أن تعجب مثل عجبه ، لأنه هكذا كل طفل يشرب من اللبن ما يشرب إبراهيم !

وكان غضب النبي من غيرتها غضب تأديب وتهذيب ، لا غضب سخط وتأنيب . فكان يعذرها فيما يمسه ولا يعذرها فيما ينبغي لها أن تتوخاه أو تتحراه ، أو فيما يحسن بالمرأة التي أحبها هذا الحب أن تقلع عنه وتعرف موضع الملامة فيه .

فقلما لامها في شيء يمسه من غيرتها .

ولكنه كان لا يسكت مرة عن مؤاخذتها على فلتات هذه الغيرة التي تمس بها أناساً آخرين . فيؤاخذ مؤاخذة المؤدب الرفيق ولا يدع لها أن تعيد ما آخذها عليه .

عابت أمامه زوجته السيدة صفية فذكرت من عيوبها أنها قصيرة . فكره أن تمضي في حديثها وقال : « يا عائشة ! لقد قالت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » .

وحكت أمامه إنساناً فلم يعجبه ما يعجب الزوج المحب من هذه الفكاهة التي تسوغ وتستملح في ذوق كثيرين ، ونهاها أن تحكي الناس حكاية استهزاء.

* * *

ومن « الأنثويات » الخالدة في طبيعة المرأة دلالها ومغاضبتها وهي أشوق ما تكون إلى المصالحة وتقصير أمد المغاضبة .

وللسيدة عائشة نوادر شتى في هذا الدلال الذي شابهت به كرائم قومها وزادت عليهن بما بلغته من المنزلة التي لم يبلغنها .

غضب النبي من نسائه لكثرة منازعاتهن وإلحافهن عليه بطلب المزيد من النفقة والزينة ، فأقسم ليهجرهن شهراً ؛ وشاع بين المسلمين أنه طلقهن جميعاً !

وكان لهذه الإشاعة بين المسلمين رجة أي رجة ، لأن تطليق النبي زوجاته جميعاً هو أكبر طارق يتعرض له عليه السلام في بيته ويمتد أثره إلى القبائل والبيوت التي كانت تجمعه بها صلة المصاهرة . وفي وسعنا أن نتخيل تلك الرجة بين الصحابة إذا علمنا أن صاحباً لعمر بن الخطاب سمع بالنبأ ليلاً فأسرع إلى بابه يدقه دقاً شديداً ويسأل عنه في فزع : أثَمّ هو ؟ فلما خرج إليه قال صاحبه : حدث أمر عظيم . قال عمر : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا . بل أعظم منه وأطول . طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه .

ثم تحرى عمر الخبر من رسول الله فعلم أن الأمر دون ذلك وأن رسول الله إنما أقسم ليهجرهن شهراً . فما لبث أن استأذنه عليه السلام ليبادر إلى المسلمين المجتمعين بالمسجد فينقل إليهم حقيقة النبأ ويذهب عنهم ما خامرهم من الأسى لما بلغهم من طلاق نسائه .

ولا ريب أن نساء النبي أنفسهن كانت بينهن للنبأ رجة أشد عليهن من هذه الرجة ، وكان لهذه العقوبة التي لم يعاقبهن بمثلها من قبل أثرٌ في قلوبهن أبلغ من هذا الأثر .

فلما انقضت الأيام التي أوعدن بها بدأ بالسيدة عائشة فدخل عليها وهي أشوق ما تكون إلى لقائه . فماذا سمع منها أول ما سمع ؟

قالت : يا رسول الله أقسمت أن لن تدخل علينا شهراً . وقد دخلت وقد مضى تسعة وعشرون يوماً !

فقال عليه السلام : إن الشهر تسعة وعشرون .

أتراها كانت تنتظر استيفاء الثلاثين ولا تقنع بالهجر تسعة وعشرين يوماً ؟

كلا . فقد عدتهن يوماً يوماً وعلمت ساعة دخول النبي كم مضى وكم بقي على ظنها من أيام العقوبة . ولكنها الأنثى الخالدة كما أسلفنا ، ولا بد للأنثى الخالدة في هذا الموقف من مكاتمة ، ولا بد لها من دلال .

* * *

وما من سمة الأنوثة الخالدة غير هذه السمات إلا وجدت السيدة عائشة وقد صدقت فطرتها فيه ، وإن كانت لتروض نفسها تلك الرياضة العالية التي تجمل بزوجة محمد وبنت الصديق وأم المؤمنين .

فإذا عرضت مناسبة للسن فليس أحب إليها من أن تقول : وكنت جارية

حديثة السن ، أو حدث ذلك لجهلي وصغر سني ، وربما راقها أن تختارَ من الروايات التي ذكروها لها عن سنها أقرب تلك الروايات إلى التصغير وأولاها أن تميزها بين زميلاتها بميزة الشباب .

وقد تكون وحدها في بيتها فتعجبها ثيابها وتحب أن تنظر إليها . قالت : « ولبست ثيابي فطفقت أنظر إلى ذيلي وأنا أمشي في البيت وألتفت إلى ثيابي وذيلي . فدخل عليَّ أبو بكر فقال : يا عائشة ! أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن ؟ قلت : ولم ذاك ؟ قال : أما علمت أن العبد اذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ فنزعته فتصدقت به ، قال أبو بكر : عسى ذلك أن يكفر عنك » .

وهي عائشة كاملة في هذه القصة الصغيرة : هي حواء التي تحب أن تنظر إلى زينتها ، وهي أم المؤمنين التي تحب أن ينظر الله إليها ، وهي هنا أيضاً حواء تطمح إلى زينة أعلى وأغلى .

* * *

ولن تعوزنا أسباب الاهتمام بحياة كهذه الحياة ، لأنها المرأة العربية والمرأة المسلمة ، والمرأة الخالدة في كل زمان .

عائِشَــــة

ولدت عائشة لأبي بكر الصديق من زوجته « أم رومان » واسمها زينب أو دعد مختلف فيه ، كما اختلفوا في نسبها واتفقوا على أنها من كنانة .

وكانت قبل بناء الصديق بها زوجاً لصاحبه في الجاهلية عبد الله بن الحارث ابن سخبرة ، وولدت له ابنه الطفيل ، ثم مات فخلفه عليها أبو بكر ليحفظ بيت صاحبه وحليفه .

ومن المتفق عليه أنها كانت امرأة ذكية ، أسلمت وهاجرت ولقيت عنتاً شديداً في سبيل دينها وزوجها ، ويروى عن النبي عليه السلام أنه قال : « من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان » .

وقد اختلفوا في سنة وفاتها ، من قائل : إنها توفيت في حياة النبي عليه السلام ، إلى قائل : إنها عاشت إلى أيام عثمان رضي الله عنه ، والأرجح في رواية البخاري أنها عاشت إلى أيام عثمان .

ولا يعرف على التحقيق في أي سنة ولدت السيدة عائشة رضي الله عنها : ولكن أقرب الأقوال إلى الصدق وأحراها بالقبول أنها ولدت في السنة الحادية عشرة أو الثانية عشرة قبل الهجرة ، فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها أو قاربتها يوم بنى بها الرسول عليه السلام .

وجملة ما يفهم من وصفها على التحقيق أنها كانت بيضاء ، فكان عليه

السلام يلقبها بالحميراء ، وكانت أقرب إلى الطول لأنها كانت تعيب القصر كما مر في كلامها عن السيدة صفية ، وكانت في صباها نحيلة أو أقرب إلى النحول ، حتى كان الذين يحملون هودجها خالياً يحسبونها فيه . قالت في حديث لها مشهور : « ... وأقبل إليّ رهط الذين كانوا يرحلون لي — أي يحملون الرحل على البعير — فحملوا هودجي وهم يحسبون أني فيه ، وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم . إنما يأكلن العلقة من الطعام .. فلم يستكثر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، إذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن » .

ثم مالت بعد سنوات إلى شيء من السمنة كما جاء في كلامها في حديث آخر : « ... خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم . فقال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا ! فتقدموا . ثم قال : تعالي حتى أسابقك . فسابقته فسكت . حتى إذا حملت اللحم وكنا في سفرة أخرى قال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا ! فتقدموا . ثم قال : تعالي حتى أسابقك فسابقته فسبقني فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك » .

وعلمنا من بعض أحاديثها أنها وعكت مرة فتمزق شعرها . فمن ثم وصيتها على ما يظهر بالشعر حيث تقول : « إذا كان لأحدكم شعر فليكرمه » .

وعلمنا من رواة وقعة الجمل أنها كانت جهورية الصوت ، تخطب العسكر من هودجها في ساحة الحرب فيسمع خطابها .

وعلمنا من جملة أوصافها وأخبارها أنها كانت حية الطبع موفورة النشاط كدأب العصبيين من النساء والرجال ، وكان أبوها رضي الله عنه من أصحاب هذا المزاج ولا مراء .

والظاهر أنها ورثت عنه كثيراً من خَلقه وخُلقه على السواء . فقد كان الصديق جميلاً حتى جاء في بعض الروايات أنه لقب بالعتيق لجماله ،وكان

نحيلاً دقيق التكوين كما هو مشهور ، وكانت فيه حدة طبع مع حدة ذكاء وكان كريماً سريعاً إلى نجدة المعوزين والضعفاء ، وكان صادق المقال لم يؤخذ عليه كذب في الجاهلية ولا في الإسلام ، وكان ماضي اللسان قديرا على إفحام من يجترىء عليه ، وتشبهه السيدة عائشة في هذه الخلائق شبهاً كان يوحي إلى النبي عليه السلام كلما سمعها تجيب من يساجلها أن يقول : إنها ابنة أبي بكر ! إنها ابنة أبي بكر !

وقد راضت حدتها زمناً كما كان أبوها يروض حدته طوال حياته ، ولكنها لم تبلغ من ذلك ما بلغه أبوها لمكان الرجل من القدرة والحاجة إلى سياسة الدنيا ، ومكان الفتاة من الضعف ومن الحظوة التي تغنيها عن الصرامة في مغالبة النفس ومراس الخطوب في كفاح الحياة .

والمعهود في أخلاق الناس أن الحدة تلازمها سرعة الغضب كما تلازمها سرعة الصفح والنسيان في معظم الأحيان .

وليس في أخبار السيدة عائشة ما يناقض هذه المشاهدة التي تعم النساء كما تعم الرجال ، فليس مما ينقضها أنها رضي الله عنها بقيت على موجدة من مسألة الإفك طوال حياتها فلم تنس قط مقالة أحد من القائلين أو الساعين فيها . إذ ليس أهول على نفس الفتاة خاصة ولا أوجع لضميرها من مطعن يهدم سمعتها ويعصف بهنائها ويفقدها الرجل الذي تحبه والمكانة التي تبوأتها ، وأهول ما يكون ذلك على البريئة العزيزة التي يهولها الأمر على قدر ظلمها فيه وعلى قدر نكبتها بما تفقده من العزة والسمعة . فلا يقاس على موجدة السيدة عائشة في مسألة الإفك سائر خلائقها ودوافع ضميرها . فليس في غير هذه المسألة ما ينم على شيء يتجاوز الحدة العارضة إلى الضغينة الباقية .

حدث مسروق الهمداني قال : « دخلت على عائشة وعندها حسان وهو يرثي بنتاً له ويقول :

رزان حصان ما تــزن بريبــة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت عائشة : لكن أنت لست كذلك . فقلت لها : أيدخل عليك هذا وقد قال الله عز وجل (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) فقالت : « أما تراه في عذاب عظيم قد ذهب بصره » .

وهذا لأن حسان بن ثابت كان ممن نسب إليه شعر في مسألة الإفك لا يرضي السيدة عائشة .

على أنها قبلت عذره كما جاء في رواية أخرى ونهت عن شتمه ، وذلك فيما رواه يوسف بن ماهك عن أمه حيث تقول : « كنت أطوف مع عائشة بالبيت فذكرت حسان فسببته فقالت : بئس ما قلت ؛ أتسبينه وهو الذي يقول :

فـــإن أبـــي ووالـــده وعرضي لعرض محمد منكم وقـــاء

فقلت : أليس ممن لعن الله في الدنيا والآخرة بما قال فيك ؟ قالت : لم يقل شيئاً ولكنه الذي يقول :

حصان رزان ما تـــزن بريبـــة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل
فإن كان ما قد جاء عني قلتـــه فلا رفعت سوطي إليّ أناملي

وقال هشام بن عروة عن أبيه : « كنت قاعداً عند عائشة فمر بجنازة حسان بن ثابت فنلت منه فقالت : مهلا ! فذكرتها كلامه فقالت : فكيف بقوله :

فـــإن أبـــي ووالـــده وعرضي لعرض محمـــد منكـــم وقاء

ولا شك أن الذي ذكرته السيدة عائشة لحسان لا ينسى ، وأن الذي صفحت عنه بعد ذلك كثير ، وأن حمد الصفح هنا أولى من ملاحظة التذكير والتبكيت .

* * *

أما كرم السيدة عائشة فهي فيه إلى النجدة أقرب منها إلى السخاء ، وهي

فيه على آسال من أبيها العظيم رضي الله عنه ، تنقذ من الأسر وتغيث من البلاء وتعطي من هو في حاجة إلى العون العاجل ما تيسر لها العطاء ، وكانت في كرمها على حال سواء في أيام النبي عليه السلام حين لا مال لديها إلا القليل الذي هي أحوج إليه ، أو في أيام الفتوح التي تيسر لها فيها من المال ما لم يكن قبل بميسور .

كان لعتبة بن أبي المهلب جارية حبشية اسمها بريرة زوّجها على غير رضاها عبداً من عبيد المغيرة فكرهته وأعرضت عنه ، وهي أهل لمن هو أصلح وآدب منه . فرحمتها السيدة عائشة فاشترتها وأعتقتها ، وخاطبت فيها النبي عليه السلام فقال لها : ملكت نفسك فاختاري !

وكان زوجها يتعلق بها ويتبعها حيث سارت وهي معرضة عنه ، فتعجب النبي بين أصحابه يوماً من فرط حبه لها وزهدها فيه ، وقال لها : اتقي الله فإنه زوجك وأبو ولدك ! قالت : أتأمرني ؟ قال : لا . إنما أنا شافع . فقالت : إذن لا حاجة بي إليه .

وما زالت بعد ذلك في خدمة السيدة عائشة تخلص لها وتذكر لها عطفها عليها ولا تنسى لها جميلها .

وقد أعانها على هذا الخلق السمح أنها رزقت القدوة القريبة بسيد المواسين للضعفاء ومعلم الجابرين لكسر القلوب ، فما من شأو بلغته في هذا المعراج الرفيع إلا ارتفع بها رسول الله إلى أعلى منه وأجمل . كانت عندها فتاة يتيمة اسمها الفارعة بنت أسعد فزوجتها لنبيط بن جابر الأنصاري وسارت معها في زفافها إلى بيت زوجها . فلما عادت سألها عليه السلام : ما كان معكم لهو فإنه يعجب الأنصاري ؟ هلا بعثتم جارية تضرب بالدف وتغني ؟ فسألته : ماذا تقول يا رسول الله؟ !قال: تقول أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم . ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم ، ولولا الحنطة السمراء ما سمنت عذاريكم».

وحدثت مولاتها أم ذرة — وهي من الثقات — أن ابن الزبير بعث إلى

السيدة عائشة بغرارتين فيهما مال يبلغ مائة ألف درهم، وكانت صائمة فدعت بطبق فجعلت تقسم في الناس . ثم أمست فقالت : يا جارية هاتي فطري . قالت أم ذرة : أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تفطرين عليه ؟ فقالت: لا تعنفيني ! لو كنت أذكرتني لفعلت !

وقال ابن سعد عن عروة بن الزبير . رأيت عائشة تصدّق بسبعين ألفاً ، وإنها لترقع جانب درعها . وأيسر ما يستفاد من هذه الروايات على اختلاف مكان رواتها من الثقة أنها رضي الله عنها كانت مشهورة بالكرم والإحسان إلى مستحقيه .

وقد كانت بنت أبيها في أكثر من خصلة واحدة من هذه الخصال النادرة بين الرجال والنساء ، ولكنها كانت أشبه ما تكون به في خصلة الصدق التي بها اشتهر ومن أجلها نعت بالصديق وغلب هذا النعت عليه حتّى أوشك أن ينسى الناس اسمه الذي دعاه به أبواه . وقد امتحن صدقها في مآزق عسيرة البلاء للنفوس فتمحصت عن معدن كريم وعرق سليم ودلت على أصالة هذا الميراث النفيس من أبيها العظيم . ففي الغاشية التي أطبقت على العالم الإسلامي من جراء الخلاف على الخلافة تطايرت الأحاديث الموضوعة من هنا وهناك وتعمد أناس أن يصوغوا من عندهم حديثاً لكل حزب ينصره ويرضيه ويكبت خصمه ويخزيه . وافتنّ الوضاع في محاكاة الأحاديث النبوية ذلك الافتنان الذي شقي به المحققون للروايات بعد ذلك بسنين ، وكانت السيدة عائشة تشترك في خصومات المتخاصمين على الخلافة باختيارها أو تساق إلى المشاركة فيها على كره منها ، وكانت هي أول من يُسمع له إذا روت حديثاً يدمغ خصومها ويعزز أنصارها ، ولكنها لم تنقل قط في كل ما ثبتت نسبته إليها حديثاً واحداً تمسه الشبهات من قريب أو بعيد ولا تؤيده الأسانيد الأخرى ، ولم تحرف كلمة واحدة إلى غير موقعها طواعية لإغراء تلك النوازع النفسية التي تطيش بالألسنة أو تضلل العقول ، وهو امتحان ليس أعسر منه امتحان

في هذا الباب ، ولهذا كانوا يروون عنها الأحاديث فيقولون : حدثتنا الصديقة بنت الصديق !

ومن الصفات التي شابهت فيها أباها الذكاء المتوقد والبديهة الواعية ولم تقصر فيها عن شأوه .

بل لا نحسبها قصرت عن شأو واحد من معاصريها بين الرجال والنساء على السواء في سرعة الفهم وقدرة التحصيل والإحاطة بكل ما يقع في متناول ذهنها .

قال أبو الزناد : ما رأيت أحداً أروى لشعر من عروة بن الزبير. فقيل له : ما أرواك ! قال : وما روايتي في رواية عائشة ! ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً .

وقد كان عروة بن الزبير أشد الناس حبّاً لخالته السيدة عائشة وإعظاماً لها وتوقيراً لسيرتها ، ولكن الذي روي عنها من الشواهد الشعرية في أخبارها التي نقلت إلينا يدل على صدق ما وصفها به من غزارة الحفظ وحسن الاستشهاد.

دخل عليها النبي عليه السلام وهي تتمثل بالبيتين التاليين :

ارفع ضعيفك لا يحربنّك ضعفه ... يوماً فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثني عليك وإن من ... أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال عليه السلام : لقد أتاني جبريل برسالة من ربي : « أيما رجل صنع إلى أخيه صنيعة فلم يجد له جزاء إلا الثناء عليه والدعاء له فقد كافأه » .

ورأت أباها يجود بنفسه فقالت :

لعمري ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

وعادت تقول :

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ومما يروى أنها أنشدته في تلك الساعة وهي ولهى لفراق أبيها :

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

ويؤخذ من بعض ما نقل عنها أنها كانت تسمع شعر زهير وتعجب به ، فقالت لإحدى بناته فيما روى الهيثم بن عدي : « إن الحالل التي كساها أبوك هَرِماً لم يبلها الدهر » .

على أن الفهم والحفظ ملكتان معروفتان للسيدة عائشة كثرت أو قلت الشواهد الشعرية التي وصلت إلينا من أخبارها .

فحسبها أنها قد روت للنبي عليه السلام أكثر من ألفي حديث في مختلف المسائل التي تدخل فيها الأحكام الشرعية والعظات الخلقية والآداب النفسية والأصول التي يرجع إليها في الدين والعبادة .

بل حسبها أن يثبت لها عشر هذا العدد من الأحاديث النبوية ليثبت لها أنها كانت تفهم وتعي وتحسن الحفظ فيما تنقله بحروفه كما تحسن التعبير فيما تحكيه بكلامها ، وأنها تحيط في فهمها وحفظها بكل ما أحاطت به الأحاديث من المعارض والمناسبات .

ومع هذا يروي الثقات أنها كانت تحفظ وتفقه وتفسر ولا يقتصر علمها على وعي الكلمات والعبارات . قال أبو موسى الأشعري : ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها علماً فيه ، وقال عطاء بن أبي رباح : كانت أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأياً في العامة . وقال مسروق الهمداني : رأيت مشيخة أصحاب رسول الله الأكابر يسألونها عن الفرائض . وقال عروة بن الزبير : ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة .

ومن الأحاديث التي ترفع إلى النبي أنه قال : خذوا شطر دينكم عن

هذي الحميراء ، وهو حديث لم يثبت بالسند الصحيح ، ولكن الحق الذي لا مراء فيه أن المسلمين قد عرفوا الكثير من أمر نبيهم وأمر دينهم من أحاديث عائشة عن زوجها المحبوب عليه السلام .

ولا ريب أنها كانت تقتدي بأبيها في حفظ الأخبار والأنساب كما كانت تقبس من ميراث أخلاقه وطباعه وملكاته . ويستفاد من بعض المنقول عنها أنها كانت تواقة إلى معرفة كل ما نعرف من تواريخ الأمم غير قانعة بأخبار الأمة العربية ، ولا بالأخبار التي تعنيها خاصة كأخبار النبي والصحابة والعشيرة الإسلامية ، ومنها خبر النجاشي حين هاجر المسلمون إلى بلاده فأوفد إليه المشركون جماعة منهم يحملون إليه الغوالي والنفائس ليبطش بأولئك المهاجرين أو يردهم إلى قومهم ، فقال : « ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة منه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه » .

فخفي على السامعين معنى كلامه هذا حتى بلغ السيدة عائشة ففسرته بما انتهى إلى علمها ، وهو أن هذا النجاشي كان من الأمراء المغصوبين وأقصاه الملك الغاصب وباعه بيع الرقيق ، ثم أعيد إلى ملكه فاقتضى الرجل الذي اشتراه حقه وأبى هذا النجاشي إلا أن يعطوه الدراهم من أموالهم ليجزيهم بصنيعهم ، فذلك إذ يقول : ما أخذ الله مني رشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه .

وهو تفسير لا يعنينا هنا أن نستقصيه من الوجهة التاريخية ، ولكن الذي يعنينا منه شغف السيدة باستطلاع أحوال الأمم كافة حيثما تسنى لها سبيل الاطلاع .

* * *

وغزارة الاطلاع بينة — إلى جانب هذا — من لغة السيدة عائشة التي امتزجت بأسلوبها في كل ما نقل عنها ولا سيما الخطب والوصف خاصة . فقد كانت لها مادة من اللغة لا تتهيأ بغير محصول كبير من أبناء العربية التي تستقى من أعرق مصادرها .

قالت في خطبة بعد وقعة الجمل تذكر أباها : « ... وأبي ثاني اثنين الله ثالثهما ، وأول من سمي صديقاً ، مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض ، وقد طوقه وهق [1] الإمامة ثم اضطرب حبل الدين فأخذ بطرفيه وربق [2] لكم أثناءه فوقذ [3] النفاق وغاض نبع الردة وأطفأ ما حشت يهود ، وأنتم يومئذ جحظ العيون تنتظرون العدوة وتستمعون الصيحة فرأب الثأي [4] وأرزم [5] مسقاه وامتاح من المهواة واجتهر دفن الرواء [6] حتى أعطن الوارد وأورد الصادر ، وعل الناهل [7] فقبضه الله واطئاً على هام النفاق ، مذكياً نار الحرب للمشركين ، فانتظمت طاعتكم بحبله فولى أمركم رجلا مرعياً إذا ركن إليه ، بعيد ما بين اللابتين [8] عركة [9] للأذاة بجنبه صفوحاً عن أذاة الجاهلين ، يقظان الليل في نصرة الإسلام » .

ووصفت أباها في خطبة أخرى فقالت : « رحمك الله يا أبت ! فلئن أقاموا الدنيا لقد أقمت الدين حين وهى شعبه ، وتفاقم صدعه ، ورجفت جوانبه ، وانقبضت عما إليه أصغوا ، وشمرت فيما عنه ونوا ، واستصغرت من دنياك ما أعظموا ، ورغبت بدينك عما أغفلوا ، طالوا عنان الأمر واقتعدت مطي الحذر ، فلم تهتضم دينك ولم تنس غدك ، ففاز عند المساهمة قدحك وخف مما استوزروا ظهرك » .

---

(١) حبل يجعل في العنق .
(٢) ربقه : شده في الربق وهو حبل فيه عرى .
(٣) كسر .
(٤) أي رقع الفتق وأصلح الخلل .
(٥) أي شده .
(٦) امتاح من المهواة أي استقى من البئر الغميقة ، واجتهر دفن الرواء أي أخرج خبايا الماء الغزير .
(٧) النهل : أول الشرب . والعلل : السقي بعد السقي .
(٨) كناية عن سعة الصدر .
(٩) من المعاركة أي الاختيار .

ووقفت على قبره قائلة — وهو كلام يستغرب تنسيق فواصله وترجيع ضمائره ولكنه لا يستبعد على عصره :

« نضر الله وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا مذلاً بإعراضك عنها ، وللآخرة معزّاً بإقبالك عليها ، ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك وأعظم المصائب بعده فقدك ، إن كتاب الله ليعد بالعزاء عنك حسن العوض منك ، فأنا أتنجز من الله موعوده فيك بالصبر عليك ، وأستعيضه منك ، بالدعاء لك . فإنا لله وإنا إليه راجعون . وعليك السلام ورحمة الله توديع غير قالية لحياتك ولا زارية على القضاء فيك » .

وقد كان لها أسلوب فيما يرتجل يناسب موضوعه ، كما كان لها فيما يجوز تحضيره أسلوب يناسب ما يحتفل له بالتحضير . فلما حكت عن زواجها بالنبي قالت بأسلوب مرسل سهل ولكنه مع ذلك جزل فصيح : « ... تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابنة ست سنين ، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج فوعكت فتمزق شعري فوفى جميمه [1] فأتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي وصرخت بي فأتيتها لا أدري ما تريد بي ! فأخذتني بيدي حتى أوقفتني على باب الدار وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي ، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي ، ثم أدخلتني الدار فإذا نسوة من الأنصار في البيت ، فقلن : على الخير والبركة ، وعلى خير طائر . فأسلمتني إليهن يصلحن من شأني فلم يرعني إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين ... »

* * *

ومع هذه المادة اللغوية التي تنم عن استقصاء مادة العربية من أعرق

(١) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

مصادرها لا نستغرب ما تواترت به الروايات من علم السيدة عائشة بطب زمانها وما يصح في زماننا أن يسمى بعلم الفلك والظواهر الجوية لإلمامه بمسالك النجوم ومهاب الأنواء وغير ذلك من معارف البادية والحاضرة في عصر الدعوة الإسلامية .

وهكذا تنظر إلى عائشة لنفسها فلا ترى أنها تقصر عن عائشة في المكان الذي خصتها به الآداب العربية ، ورفعتها إليه الآداب الإسلامية والحظوة النبوية ، لأنه مكان قد استحقته لنشأتها في قبيلتها ودخولها في دينها ، واستحقته كذلك بما تميزت به بين أترابها من جمال وفهم ومعرفة وبيان .

زَوجُ النَّبيّ

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها أول زوجات النبي عليه السلام وأحبهن إليه ، عاش معها زهاء خمس وعشرين سنة ولم يتزوج عليها ولا فكر في الزواج بغيرها في حياتها . مع أنه بنى بها وهو في نحو الخامسة والعشرين وهي في نحو الأربعين ، وبقيت معه إلى أن أوفت على الخامسة والستين .

ثم توفيت حوالي السنة العاشرة بعد الدعوة ؛ فلم يعرف عنه أنه حزن على أحد قط أشد من حزنه عليها ، ولا أطال الذكرى لأحد قط بعد وفاته كما أطال ذكراها ، وسمى عام وفاتها « عام الحزن » لأن الحزن لم يفارقه طوال أيامه ، ولم يفارقه — في الواقع — بقية حياته كلها ، وإن سكنت سورته مع الأيام كما تسكن كل سورة لاعجة مع ذلك العزم الصادق والقلب الصبور .

وتزوج بالسيدة عائشة بعد وفاة السيدة خديجة بسنوات .

فكان التقابل بين الزوجين من أتمّ ما تأتي به المصادفة حين تكون المصادفة أحكم من التدبير والتقدير ، ولعل هذا التقابل لم يخل كل الخلو من القصد الخفي وإن لم تتجه إليه النية في وضوح .

ويبدو لنا أن النبي عليه السلام كان أحوج ما يكون إلى هذا التقابل العجيب في حياته الزوجية .

فالفتى اليتيم الذي فجع في حنان الأمومة منذ طفولته الباكرة لم يكن

أنفع له من زوجة كريمة رشيدة كالسيدة خديجة التي أغدقت عايه من حنان الأمومة ما فاته في بواكير الطفولة ، وأدركه عطفها وهو يعالج من نوازع الدعوة النبوية ثورة مقيمة مقعدة في سريرة النفس ، لا تزال بين الجـلاء والغموض وبين الإقدام والإحجام ، ولا تزال في هذه الحالة على حاجتها القصوى إلى التثبيت والكلاءة والتشجيع .

أما النبي في الخمسين من عمره فقد كان أنفع له وأبهج لفؤاده أن يغدق حنان الأبوة على زوجته التي تظفر منه بالحظوة والمودة ، وأن يستروح من شبابها وجمالها نعمة تسعده في جهاده وربيعاً يظاله في وحشة عمره .

كانت خديجة أماً ترعاه .

ثم كانت عائشة طفلة تنعم بتدليله .

وكانت خديجة تسعده بالعقل والحنكة .

ثم كانت عائشة تسعده بالطرافة والجمال .

وكانت خديجة تصاحبه قبل الدعوة وهو يطلب الأنصار في طوية النفس قبل أن يطلبهم في عالم النضال والبلاء .

ثم كانت عائشة تصاحبه بعد الدعوة وهو صاحب دين جهر وبهر ، فكانت هي أول سفرائه بالإصهار إلى رجالات العرب ورؤساء العشائر والبيوت .

كان تقابلا بين الزوجين الفضليين من أعجب ما تأتي به المصادفة بل من أعجب ما يأتي به التدبير ، وليس هناك تدبير معروف .

فالذي نعلمه من خطبة النبي عليه السلام للسيدة عائشة أنها كانت من المصادفات التي لم يتحدث بها قط قبل أن تقترح عليه .

نعم إنه عليه السلام قال لعائشة يوماً : « أريتك في المنام مرتين أرى أنك في سرقة من حرير ويقال : هذه امرأتك ! فاكشف عنها فإنما هي أنت .

فأقول : إن يك هذا من عند الله يُمضه » .

ولكن الحديث يدلنا على مبلغ ما كان في ضمير النبي عليه السلام من هذه النية ، وقد يفهم منه أنه كان عليه السلام يناجي نفسه الشريفة بأمنيته في الزواج فطابقت السيدة عائشة مثال هذه الأمنية ، وكان هذا من بواعث حبه إياها لمطابقة الرؤية ما تمثله في الرؤيا .

فأما الخطبة فالذي نعلمه من الروايات المتواترة أنها جاءت بعد اقتراح من سيدة بارة آلمها ما لحظته من حزن النبي على زوجه العزيزة عليه . فقالت له : أي رسول الله ! ألا تتزوج ؟ فسألها : من ؟ قالت : إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً . ثم سألها عن البكر فذكرت عائشة « بنت أحب خلق الله إليك » ... وسألها عن الثيب فذكرت سودة بنت زمعة . فأوفدها إلى بيت أبي بكر وجرت الخطبة بعد ذلك في مجراها الذي انتهى بالزواج بعد سنوات .

هذه السيدة هي خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون من أجلاء الصحابة الذين حرموا الخمر في الجاهلية وعاش بعد الإسلام عيشة النسك والحكمة . وبقية حديث الخطبة أنها ذهبت إلى أم رومان — أم عائشة — فبادأتها بالحديث قائلة : ما أدخل الله عليكم من الخير والبركة ! قالت : وما ذاك ؟ قالت : أرسلني رسول الله أخطب عليه عائشة . فاستمهلتها حتى ترى أبا بكر ، وقيل إن أبا بكر سأل حين بلغه الأمر : وهل تصلح له وهي بنت أخيه ؟ يظن أن المؤاخاة بينه و بين النبي قد بلغت مبلغ القرابة التي تمنع المصاهرة . فكان جواب النبي لها : « قولي له أنت أخي في الإسلام وابنتك تحل لي » كما جاء في هذه الرواية .

وإلى هذا الحين لم يكن في تقدير أحد أن صلة من أوثق الصلات ستنعقد بين النبي وصفيه الحميم . لأن عائشة كانت مخطوبة قبل ذلك لجبير بن مطعم ابن عدي من أصحاب أبيها في الجاهلية . فتحرج أبو بكر من نقض خطبته قبل مراجعته فيما ينويه ، وقال لأم رومان زوجته : والله ما أخلف أبو بكر

وعداً قط . ثم لقي أبا الفتى وأمه يسألهما فيما ينتويانه . فأقبل الأب على امرأته يسألها : ما تقولين ؟ فالتفتت الأم إلى أبي بكر وهي تقول متعللة : لعلنا إن أنكحنا هذا الصبي إليك تصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه؟ فلم يجبها ، وسأل زوجها : ما تقول أنت ؟ فلم يزده على أن أجاب : إنها تقول ما تسمع .

فعلم أبو بكر يومئذ أنه في حل من نقض وعده لمطعم بني عدي ، واستقبل النبي خاطباً فتمت الخطبة في شوال سنة عشر من الدعوة قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وأصدقها النبي عليه السلام أربعمائة درهم على أشهر الروايات.

وتختلف الأقوال في سن السيدة عائشة يوم زفت إلى النبي عليه السلام في السنة الثانية للهجرة ، فيحسبها بعضهم تسعاً ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات .

وهو اختلاف لا غرابة فيه بين قوم لم يتعودوا تسجيل المواليد . إذ قلما يسمع بإنسان — رجلا كان أو امرأة — في ذلك العصر إلا ذكر له تاريخان أو ثلاثة لميلاده أو زواجه أو وفاته . وقد يبلغ الاختلاف بين تاريخ وتاريخ في تراجم المشهورين فضلا عن الخاملين عشر سنين .

والأرجح عندنا أن السيدة عائشة كانت لا تقل عند زفافها إلى النبي عليه السلام عن الثانية عشرة ولا تتجاوز الخامسة عشرة بكثير .

فقد جاء في بعض المواضع من طبقات ابن سعد أنها خطبت وهي في التاسعة أو السابعة ، ولم يتم الزفاف كما هو معلوم إلا بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الأقوال .

ويؤيد هذا الترجيح أن السيدة خولة اقترحتها على النبي وهي في السن المناسبة للزواج على أقرب التقديرات إلى القبول إذ لا يعقل أنها تشفق من حالة الوحدة التي دعتها إلى اقتراح الزواج على النبي وهي تريد له أن يبقى في تلك الحالة أربع سنوات أو خمس سنوات أخرى .

ويؤيد هذا الترجيح ، من غير هذا الجانب ، أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل خطبتها إلى النبي ، وأن خطبة النبي كانت في نحو السنة العاشرة للدعوة .

فإما أن تكون قد خطبت لجبير بن مطعم لأنها بلغت سن الخطبة وهي قرابة التاسعة أو العاشرة ، وبعيد جداً أن تنعقد الخطبة على هذا التقدير مع افتراق الدين بين الأسرتين .

وإما أن تكون قد وعدت لخطيبها وهي وليدة صغيرة كما يتفق أحياناً بين الأسر المتآلفة ، وحينئذ يكون أبو بكر مسلماً عند ذلك ، ويستبعد جداً أن يعد بها فتى على دين الجاهلية قبل أن تتفق الأسرتان على الإسلام .

فإذا كان أبو بكر رضي الله عنه قد وعد بها ذلك الموعد قبل إسلامه ، فمعنى ذلك أنها ولدت قبيل الدعوة وكانت تناهز العاشرة يوم جرى حديث زواجها وخطبها النبي عليه السلام .

ولهذا نرجح أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زفت إليه ، وأنها هي رضي الله عنها كانت تسمع تقديرات سنها ممن كان حولها لأنها لم تقرأها بداهة في وثيقة مكتوبة ، فكان يعجبها على سنة الأنوثة الخالدة أن تأخذ بأصغرها ، وكانت هي كثيراً ما تدل بالصغر بين أترابها فلا تنسى إذا اقتضى الحديث ذلك أن تقول : وكنت يومئذ جارية حديثة السن ، أو كنت يومئذ صغـــيرة لا أحفظ شيئاً من القرآن ، إلى أشباه ذلك من أحاديثها في هذا المعنى .

ذلك هو التقدير الراجح الذي ينفي ما يقوله المستشرقون على النبي بصدد زواجه بعائشة في سن الطفولة الباكرة ، وكل تقدير غير ذلك فهو تقدير مرجوح .

* * *

وقد ملكت ربة البيت الصغيرة بيتها الجديد من اللحظة الأولى لأنها كانت تدل فيه بمكانة الزوجة المحبوبة عند زوجها العطوف ، وبمكانة البنوة الناشئة عند الأبوة الرحيمة ، ومكانة ابنة الصديق العزيز التي أضفى عليها المودة والإيثار ما كان بين النبي والصدّيق من مودة هي أوثق وأبقى من مودة الرحم ، لأنها مودة الوفاء والإعجاب والإيمان ، أو مودة الحياة وما بعد الحياة .

وقد سجلت لنا السيدة عائشة خطرات نفسها خطرة خطرة ، ووصفت لنا في بيتها الجديد كل صغيرة وكبيرة ظاهرة وخافية ، ولكنها لم تذكر لنا قط كلمة واحدة تنم عن وحشة الانتقال من بيت إلى بيت ، ومن معيشة إلى معيشة ، ومن ظل أبوين إلى ظل رجل غريب عنها لا تعرف عنه إلا ما تعرفه عن النبي كلّ صبية مسلمة في سنها الباكرة .لأن عطف محمد هو العطف الغامر الذي لا يلجىء إلى عطف سواه ، وقد أغنى زيداً عن أبيه وأمه فآثر حياة الأسر مع سيده على حياة الحرية مع أبيه وأمه ، فأحرى بمثل هذا العطف أن يغني الفتاة التي تأوي إليه فتلوذ منه بعطف زوج وعطف أب وعطف صديق .

وتركها على سجيتها تلعب بالعرائس في بيت زوجها كما كانت تلعب بهن في بيت أمها وأبيها . وربما جاءها صواحبها الصغار « فينقمعن — كما قالت — من رسول الله فكان عليه السلام يسير بهن إليها ليلعبن معها .

وقالت جاريتها بريرة تصفها وهي في السنوات الأولى من زواجها : « ما كنت أعيب عليها شيئاً إلا أنها كانت جارية صغيرة أعجن العجين وآمرها أن تحفظه فتنام فتأتي الشاة فتأكله » .

وكان عليه السلام يتعهدها بما يسرها وإن عجب الصحابة الذين لا يفهمون وقار الدين كما يفهمه ولا تتسع صدورهم لما يتسع له صدره . ودخل عليها أبوها وعندها قينتان تغنيان في يوم منى والنبي عليه السلام مضجع مُسجّىً في ثوبه ، فصاح بها : أعند رسول الله يصنع هذا ؟ ... فكشف النبي عن وجهه وقال : دعهن فإنها أيام عيد .

وكان السودان يلعبون في يوم من أيام العيد بالدق والحراب فسألها عليه السلام : تشتهين أن تنظري ؟ قالت : نعم . قالت : « فأقامني وراءه خدي على خده وهو يقول : دونكم يا بني أرفدة — كنية الحبشة — حتى إذا مللت قال : حسبك ؟ قلت : نعم ! قال : فاذهبي » .

وربما مر أبوها رضي الله عنه بالبيت فيسمع صوتها عالياً في حضرة النبي عليه السلام ، فيدخل غاضباً يتناولها ليلطمها وينهرها قائلا : لا أراك ترفعين صوتك على رسول الله . فينهض عليه السلام ليحجزه ويقول لها بعد خروجه : رأيت كيف أنقذتك من الرجل ؟

وفي مرة من هذه المرات خرج أبو بكر مغضباً ثم عاد فوجدهما قد اصطلحا . فقال لهما : أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما . فقال النبي : قد فعلنا .

ولم يخف هذا العطف الذي لا نظير له بين الأزواج على السيدة عائشة وهي ما هي في ذكائها وعلمها ببيوت الصحابة وغيرها . وازدادت به علماً يوم شاركها الزميلات في بيت النبي وقد شاعت الدواعي السياسية والدينية أن تتعدد زوجاته وتتعدد صلات المصاهرات بينه وبين قبائل الجزيرة العربية ، فقد عرفت مكانها وهي بين تسع من الزميلات كما عرفت مكانتها وهي موشكة أن تنفرد في بيت النبوة ، وكان عليه السلام يعدل بينها وبين زميلاتها فيما يملك العدل فيه . أما ميل قلبه فكان يستغفر الله فيه قائلا : « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » .

وشكرت له هذا الإيثار . وفخرت به في معارض حديثها كلما بدا لها معرض للشكر أو للتحدث بنعمة الله عليها . فقص عليها النبي يوماً قصة النسوة الإحدى عشرة اللواتي اجتمعن فتذاكرن أوصاف أزواجهن من خير وشر ، وكانت الحادية عشرة منهن — وهي أم زرع — محبة لزوجها ، فوصفته بأحسن ما يوصف به الأزواج في السر والعلانية . فقالت السيدة عائشة :

« بأبي وأمي لأنت يا رسول الله خير لي من أبي زرع لأم زرع » .

وهي القائلة بعد وفاة النبي في مزاياها التي اختصت بها دون أترابها :
« فضلت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعشر ! لم ينكح بكراً قط غيري ، ولا امرأة أبواها مهاجران غيري ، وأنزل الله براءتي من السماء ، وجاء جبريل بصورتي من السماء في حريرة ، وكنت أغتسل أنا وهو في إناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيري ، وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه دون غيري ، وكان ينزل عليه الوحي وهو معي ولم ينزل وهو مع غيري ، وقبض وهو بين سحري ونحري وفي الليلة التي كان يدور عليّ فيها ودفن في بيتي » .

وكان هذا التمييز سر البيت النبوي في مبدأ أمره ، ثم شاع في الجزيرة العربية حتى كان صاحب الهدية من المسلمين يؤخرها ليبعث بها إلى النبي وهو في بيت عائشة .

فوقع التغاير الذي لا محيص منه بين الزوجات ، وأرسلن إليه إحداهن أم سلمة فأعرض عن حديثها ثلاث مرات ، فلما أثقلت عليه قال لها : « لا تؤذيني في عائشة . فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة غير عائشة » .. يريد بالثوب البيت في بعض التفسيرات ، من قولهم ثاب إليه يثوب فهو في الثوب الذي لا يزال يرجع إليه .

وتوسلن بالسيدة فاطمة رضي الله عنها لما يعلمن من قبول أبيها لكل شفاعة تأتيه منها ، فقالت له : « إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت أبي بكر . قال لها : يا بنية ! ألا تحبين ما أحب ! قالت : بلى . قال : فأحبي هذه » ... يشير إلى عائشة .

ويسيرٌ على الزميلات المتنافسات أن يدركن حب النبيّ لعائشة ويلحظن أنها كانت أحبهن جميعاً إليه وأقربهن جميعاً إلى فؤاده .

ولكن الذي لم يكن يسيراً عليهن أن يدركنه أو يلحظنه أنها هي رضي الله عنها كانت أشدهن حباً له ونفاذاً إلى نفسه واتصالا بقلبه ولبه .

فكلهن كن يحببنه ويتنافسن على قربه ولو كان فيه التنافس على الموت وفراق الدنيا ومن فيها . وحدثهن يوماً عمن تلحق به بعد فراقه الدنيا فقال : « أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً »... فجعلن يقسن أيديهن وما منهن إلا من تتمنى أن تكون هي صاحبة اليد الطولى. ثم ظهر لهن أن المراد بالطول هنا طول اليد بالصدقة والعمل الصالح ... فغبطن زميلتهن زينب بنت جحش ! لأنها استحقت اللحاق به لعملها بيدها وإكثارها من الصدقات على مستحقيها .

إلا أن الحب الذي يبدو من فطنة عائشة لسرائر النبي أعمق وأقوى فما منهن من لصقت بنفسه كما لصقت بها ومن نفذت إلى معانيه كما نفذت إليها ومن عاشرته في روحه وطويته كما عاشرته بروحها وطويتها . وفي كلامها من الشواهد على ذلك ما ليس في كلامهن على تيسر الوسائل لهن أن يعرفن مثل ما عرفت وأن ينقلن عنه مثل ما نقلت. وليس أدل على اقتراب الحب من هذا الاقتراب الذي امتازت به عليهن . فكان إيثار النبي لها ضرباً من العدل على هذا الاعتبار .

لقد كانت تحبه حب المسلمة لنبيها .

وكانت تحبه حب الزوجة لزوجها والمرأة لرجلها ، وكانت تعجب بجماله كما تعجب بأدبه وعظمة قدره .

وكان يسرها أن تستمع إلى صوته وتصغي إلى ترتيل حديثه كما يسرها أن تستوضح معناه لأنه — كما كانت تقول لسائليها — لا يسرد كسردكم هذا ولكنه « يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه » .

وكانت تغار عليه أشد غيرة عرفتها امرأة على زوجها ، وربما خرج من عندها في ليلتها فإذا هي تتبعه إلى حيث ذهب مخافة أن يلم ببيت زميلة من زميلاتها ، ووجدته في ليلة من هذه الليالي قد ذهب إلى المقابر يصلي للشهداء،

ويستغفر لهم ، فعادت إلى بيتها تقول لنفسها : بأبي أنت وأمي . أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا! ولكنها لبثت مكروبة الصدر مما خاطرها من خاطرها الأول ومن خطأ ظنها . فلما قفل عليه السلام إليها لحظ ما بها فسألها : ما هذا النفس يا عائشة ! فقالت: بأبي أنت وأمي . أتيتني فوضعت ثوبيك ثم لم تستتم أن قمت فلبستهما، فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع ... وخرج مرة أخرى ثم عاد إليها فإذا هي في مثل تلك الحالة . فقال : أغرت ؟ قالت : وهل مثلي لا يغار على مثلك ؟ فقال : لقد جاءك شيطانك !

ولم تنس قط أن تتحلى بما يروقه من مرآها . فكانت تلبس المعصفر والمضرج وتتحرى ما يعجبه من الطيب والحلية، ودخلت عليها امرأة وهي معصفرة فسألتها عن الحناء فقالت : شجرة طيبة وماء طهور . وسألتها عن الحفا ف فقالت لها : « إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتصنعيهما أحسن ما هما فافعلي » .

* * *

ومن الجائز — أو ربما كان الواقع — أن زميلاتها أمهات المؤمنين كن يغرن على النبي مثل غيرتها ويجهدن في رضائه مثل جهدها . ولكنهن ولا ريب لم يبلغن شأوها في حبها إياه حين نفهم من الحب ذلك الاقتراب بين النفسين بالبداهة والشعور . وليس في أحاديثهن عنه مثل ما في أحاديثها عنه من ذلك الإحساس بالقرب وذلك النفاذ إلى الطوية . وليست المسألة هنا مسألة الكثرة أو القلة في الأحاديث فربما كان تعايل الكثرة في أحاديث عائشة عن النبي أنه كان عليه السلام أكثر تحدثاً إليها وارتياحاً إلى مجالستها ومسامرتها . ولكنها مسألة الرفق في الأداء والخبرة بالمعنى والقدرة على الاستيحاء والشعور الباطن بقلة الحواجز بين النفسين واتصال الحس بينهما والاقانة .

ومن البديه أنها لم تبلغ هذه المنزلة في حب النبي وفهمه طفرة واحدة

ولا في سنة واحدة أو سنتين . بل لبثت السنوات الأولى من عشرتها له وهي تقترب من الأنس به إلى المعرفة بنفسه وعقله والترقي إلى عظمته ونبله ... حتى أدركت ما يتاح لها أن تدرك من تلك العظمة التي تعلو على هامتها وهامات الرجال من حولها ، ولكنها هي — ببداهة المرأة وبداهة الحب الأنثوي — كانت تستقرب ما يبعد على غيرها ، وتستعيض ما يفوتها من الفهم الواضح بما يفوتهم من اللقانة الباطنية والوعي المستسر في الأخلاد .

ومضت السنوات الأولى في عشرة النبي وهي تفقه من أحاديثه ما تيسر لها أن تفقه ولا تقرأ كثيراً من القرآن ، أو كما قالت في حديث الإفك : كنت « جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ... والتمست اسم يعقوب فما أذكره فقلت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

وقد أمهلها النبي في هذه السنوات رفقاً بها وإعداداً لفهمها وعزمها ولكنه لم يفتأ رويداً رويداً يشركها في العبء الذي ينبغي أن تنهض به زوجة النبي وأم المؤمنين وسفيرته الأولى إلى عالم النساء في عصره وفيما يليه من العصور .

فكانت تحضره إذا بايع النساء أو صلى بهن أو جلسن إليه يسألنه في أمور الدين وآداب الزوجية ، ويتفق كثيراً أن يعرض عن الجواب حياء فيوكلها بالتفسير والإسهاب حيث يعز الفهم على سائلاته اللواتي يستقصين في السؤال.

سألته أسماء بنت شكل من نساء الأنصار : كيف تكون الطهارة من المحيض ؟ فقال لها : « خذي فرصة ممسكة فتوضئي ثلاثاً » أو قال تطهري ثلاثاً ... فقالت : وكيف أتطهر ؟ قال : سبحان الله ! تطهري بها ، وأعرض بوجهه حياء . فاجتذبتها السيدة عائشة وكفتها عن سؤاله .

وما زالت رضي الله عنها تعي من سنن النبي في المسائل النسائية وغير النسائية حتى احتاج الرجال أن يسألوها ويرجعوا إليها في كل ما تراجع

فيه السنن النبوية من شئون عامة وخاصة . ومن أعم المسائل التي روجعت فيها أن معاوية كتب إليها لتوصيه وترشده فأرسلت إليه تقول : سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس » .

فلم يكن أعجب من سؤال معاوية في تعميمه إلا حسن الاختيار في هذا الجواب . وهو ألزم ما يزود به الملوك من وصية وإرشاد .

وقد نهضت السيدة عائشة بأمانة التبليغ والتعليم أحسن نهوض وأوفاه . فتورعت عن كتمان شيء من الأشياء التي تسأل عنها ولها اتصال بقواعد الدين وأصول التطهير وشروط العبادات ونواقض الصلاة والصيام . فأسلوبها في تبليغ هذه الأحكام هو أسلوب التعليم وأسلوب أم المؤمنين في خطاب بناتها وبنيها من المسترشدات والمسترشدين . ولم يكن في مقدورها أن تتوخى أسلوباً غير هذا الأسلوب ولو عرضت لأخص الأمور التي تسكت عنها النساء ، لأنها المرجع الذي لا يغني عنه مرجع في سنن النبي ومأثوراته وأعماله . فمن الإخلال بالأمانة النبوية أن تسكت عن سنة مطلوبة يعرضها السكوت للضياع .

ولقد تكون هذه السيدة الفضلى التي أفصحت عن كل فتوى نسوية سئلت عنها وهي ما تأذن لعمها في الرضاع أن يراها إلا بعد مراجعة النبي عليه السلام . فأسلوبها في تفصيل السنن النبوية والقواعد الشرعية إنما كان فريضة الأمانة وضريبة الوفاء ، ولم يكن شيمة الطبع واللسان .

* * *

ودامت هذه الحياة الزوجية النادرة زهاء تسع سنين إلى أن توفي النبي عليه السلام .

ومن الحق أن توصف بأنها حياة زوجية سعيدة لأننا لا نعرف بين أزواج الهداة والعظماء من ظفرت بأسعد منها أو كانت أرضى من السيدة عائشة عن حياتها .

ففي طوال هذه السنين لم تمتزج هذه الحياة قط بكدر أو مساءة تعود فيها التبعة على أحد من الزوجين .

وأخطر ما ألمّ بهذه الحياة الزوجية في السنين التسع كلها حديث الإفك ، وغضب النبي من زوجاته جميعاً لتنازعهن في فترة من الزمن وإلحافهن عليه في طلب المزيد من النفقة والزينة .

فأما حديث الإفك فلا يد للزوجين فيه ، وقد امتحنت به أريحية النبي وعطفه على أهله فأسفر عن خير ما تطمح إليه الزوجة من حنو وسماحة وإعزاز .

وأما غضب النبي من زوجاته لتنازعهن وإلحافهن في طلب النفقة فعارض مضى مرة ومضى أمثاله عشرات المرات في كل حياة زوجية بين جميع طبقات الناس ، وكان خير درس لأمهات المؤمنين يعلمهن أن يصبرن على ضرورات العيش كما يصبر النبي عليها ، لأنهن قدوة في القناعة ومغالبة الهوى ولسن بقدوة في الترف ونعمة العيش ، وقد خيرن بعد هذا الدرس بين التسريح والصبر على نصيبهن فاخترن أجمل النصيبين بهن ، وهو الصبر على سنة الأنبياء وأمهات المؤمنين .

ومما لا شك فيه أن السيدة عائشة قد خامرها الأسى في هذه الحياة الزوجية لشيء لا حيلة لها ولا للنبي فيه ، وهو الحرمان من الذرية التي كانت تتوق إليها كما تتوق كل أنثى ، ولا سيما بعدمـــا علمت من حب النبي لزوجته الأولى ووفائه لعهدها وترديده لذكراها لأن له البنين والبنات منها .

وظهر ألمها هذا حين قالت للنبي وهي حزينة كاسفة : كل صواحبي

لهن كنى ! .. قال فاكتني بابنك عبد الله ! يشير إلى عبد الله بن الزبير ابن أختها أسماء . فجعلت تكتني به وتحبه ذلك الحب الأموي الذي يستمد القوة من الحنو والشوق والحرمان .

واتفقت الأقوال على أنها رضي الله عنها لم تحمل قط إلا رواية جاء فيها أنها أسقطت ولداً سماه النبي عبد الله فكانت لهذا تكنى بأم عبد الله .

وراقها أن تدعى أم المؤمنين وأن يناديها الناس يا أمه يا أمه ! فكان في هذا النداء تعزية كما كان فيه تشويق وتذكير .

والمرأة لا يهون عليها فقد الذرية ولا سيما إذا أحبت الزوج الذي تود أن ترزق منه الذرية ، ولكنها إذا التمست التهوين فلن تجد تهويناً أبر بها وأروح لقلبها من شعورها بعطف زوجها عليها ، وأنها بلغت من ذلك العطف ما لا تزيده الذرية التي تتمناها .

* * *

قلنا في كتابنا عبقرية محمد : « لسنا ندري لم طالت الفترة التي مضت على أزواج النبي جميعاً بغير عقب . ولكننا لا نستبعد تعايلها باجتماع المصادفات التي لا يندر أن تجتمع في أمثال هذه الأحوال . فعائشة البكر التي لم يتزوج النبي بكراً غيرها قد مات عنها عليه السلام وهي دون العشرين ، وهي سن قد تبلغها المرأة ولا تلد ، وإن كانت ولوداً فيما بعدها . أما أزواجه الأخريات اللاتي تزوجن قبله فلا نعلم من أخبارهن أنهن أعقبن لأزواجهن الأولين خلفاً غير رملة أم حبيبة وهند بنت أمية المخزومية ، وهذه كانت مسنة يوم بنى بها النبي عليه السلام ، وفي عمر لا يستغرب فيه امتناع الولادة . فكلهن ما عدا هاتين لم يلدن للنبي ولا لزوج قبله ، واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجيبة المعضلة التي يصعب تعليلها إذا تذكرنا أن النبي قد توخى في اختيارهن تلك الأغراض العامة التي أجملناها في الفصل السابق ولم يتحر منها النسل خاصة : وهي الإيواء الشريف والمصاهرة . وبعضهن — بل معظمهن —

قد لقين من الشدائد والمخاوف وعناء الهجرة البعيدة ما يعقم الولود . فإذا أضفنا إلى ذلك معيشة الكفاف وضريبة العظمة النبوية التي أشرنا إليها على سبيل الاحتمال ، واشتغال النبي فيما بين الخمسين والستين بتعزيز الدين وقمع الفتن ودرء الأخطار — لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر العصيّ على التعليل » .

وفي صدد الكلام عن عائشة في كتاب خاص بها يدعونا سياق التحليل والتعليل إلى مراجعة البحث والعلم في ظواهر حياتها البيتية ، إن كان للعام كلمة تقال في هذا الموضوع .

فليس من الغريب أن يتأخر حمل المرأة إلى ما بعد العشرين ثم تلد مرات ، وقد كان من المحتمل — بل الراجح — أن السيدة عائشة تجاوزت العشرين حين وفاة النبي عليه السلام .

وإذا كان تأخر الحمل إلى ما بعد العشرين لا يطرّد لزاماً في أحوال النساء فهو من العوارض التي تشاهد ولا تستغرب إذا اتفق لها سبب يرجع في تعليله إلى العلم والمشاهدة .

والعوارض التي نستطيع أن نهتدي إليها في تاريخ السيدة عائشة هي أنها قد أصيبت فيما دون العاشرة بحمى مزقت شعرها كما ذكرت هي في بعض أحاديثها ، وأنها كانت توعك من حين إلى حين كما يفهم من قولها في حديث الإفك : « واشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك ... ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي .... فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضي » ... وقد علمنا من حديث الإفك أنها إذا فوجئت بخبر محزن أو مغضب تصاب بحمى نافض كما يصاب الذين تعاودهم حمى البرداء في هذه الحالات .

والأطباء الذين سألتهم عن هذه الحمى التي تسقط الشعر وتتجدد لها

معاودة تنهك الجسم رجحوا أنها البرداء (الملاريا) أو التيفويد ، والأولى أرجح . لأنها كانت فاشية باعراضها المعروفة بين أهل المدينة في أيام الهجرة .

قالت السيدة عائشة : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهي أوبأ أرض الله أصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، وصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأصابت أبا بكر وبلالا وعامر بن فهيرة ، فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيادتهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب فأذن لي . فدخلت عليهم وهم في بيت واحد . فقلت : كيف تجدك يا أبت ؟ فقال :

كل امرىء مصبح في أهله   والموت أدنى من شراك نعلـــه

فقلت : والله ما يدري أبي ما يقول .

ثم دنوت من عامر فقلت : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدت الموت قبـــل ذوقه   إن الجبان حتفه مـــن فوقـــه
كل امرىء مجاهـــد بطوقـــه   كالثور يحمـــي أنفه بروقه

قلت : والله ما يدري عامر ما يقول .

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

إلا ليت شعري هل أبيتن ليلـــة   بواد وحولي إذخر وجايل [1]
وهل أردن يوماً ميـــاه مجنـــة   وهل يدنون لي شامة وطفيل [2]

قالت عائشة . فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقلت : إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى . فقال : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها وانقل حمّاها

---

(١) نباتان في وادي مكة أحدهما وهو الإذخر طيب الرائحة والآخر الثمام .
(٢) جبلان بمكة .

فاجعلها بالجحفة » وهي في الطريق من مكة إلى المدينة .

فإذا كانت حمى البرداء قد أصابت السيدة عائشة فيما دون العاشرة وظلت عقابيلها تعاودها فأيسر ما يقال هنا إننا حيال عارض ذي بال يلتفت إليه في تعليل ما أسلفناه .

وسألت أفاضل الأطباء في ذلك فقالوا : إن هذه الحمى لا تعطل الحمل ضرورة ولكنها قد تعطله من طريق إضعاف الجسم كله حتى يتغلب على عقابيلها .

قلت : وإذا أضيفت إليها معيشة الكفاف ؟

وإنما سألتهم هذا السؤال لأن المتواتر عن معيشة النبي عليه السلام في بيته أنه كان لا يشبع من خبز البر أو الشعير ثلاث ليال متواليات ، وأنه لم يشبع من خبز وزيت مرتين في يوم واحد ، وأنه هو وأهله كانوا لا يصيبون من المطاعم إلا بمقدار ما يدفع الجوع .

فكان من جواب الأطباء أن عقابيل الحمى وقلة الغذاء من الأسباب التي لا يعدوها النظر في بحث هذا الموضوع ، فإذا صحت مع هذا رواية السقط فهي دليل على أثر تركته الحمى يعترض وظيفة الحمل والولادة .

وأيّا كانت هذه العوارض فهي كل ما لدينا من أسباب المراجعة العلمية التي تعلل لنا حرمان السيدة عائشة رضي الله عنها من نعمة الذرية . نلمّ بها لأن الإلمام بها لا غنى عنه في هذا المقام .

* * *

وأية كانت علة هذا العارض فالأمر الذي لا شك فيه أنه لم يكدر صفو المودة والبر بين النبي وأهله ، وأنه لم يمنع هذه الحياة الزوجية أن تكون قدوة للمقتدين في العطف وأدب المعاشرة . وكانت هي العروة الوثقى كما وصفها النبي عليه السلام . فإذا سألته السيدة عائشة بين الفينة والفينة مدلة بمكانها عنده

وعطفه عليها : كيف حال العروة يا رسول الله ؟ قال : على عهدها لا تتغير .

أما العلاقات البيتية التي فرضتها هذه الحياة الزوجية على السيدة عائشة رضي الله عنها فقد كانت على أحسن ما تتسنى العلاقات بين أناس تجمعهم معيشة واحدة .

فهي وزميلاتها كن يتغايرن ويتنافسن لا محالة كما تتغاير النساء في كل مكان ، ولكنهن لم ينسين قط أنهن نساء نبي يتأدبن بأدبه ويتطلعن إلى رضاه ويفزعن من غضبه .

فقصارى ما سمعناه من فلتات الغيرة على لسان السيدة عائشة أنها كانت تقول عن السيدة خديجة : « إنها عجوز حمراء الشدقين » ثم يعاتبها النبي فتندم ولا تعود إلى مثل هذه المقالة .... أو أنها عابت السيدة صفية مرة فقالت إنها قصيرة .... فاستكبر النبي هذه الكلمة وقال لها إنها لتمزج البحر إذا مزجت به . فلم تعد إلى مثلها .

وعلى ما كان بين عائشة وزينب بنت جحش من التنافس الشديد في الجمال والزلفى سنحت لزينب سانحة تقول فيها ما تقوله الضرة المحنقة فلم ينبس فمها بكلمة باطل . وذلك إذ سألها عليه السلام في حديث الإفك فاستعاذت بالله وقالت : « أحمي سمعي وبصري والله ما علمت إلا خيراً » .

وأحست سودة احدى زميلاتها أمهات المؤمنين أنها أسنّت وضعفت فتركت ليلتها لعائشة راضية ، وقالت عائشة تشكرها :« ما رأيت امرأة أحب إلي أن أكون في مسلاخها من سودة » .

فكل ما روي لنا من تغاير زوجات النبي إن ذكرنا أنهن نساء من طينة الأنوثة الخالدة فلن ينسينا أنهن نساء نبي يتأدبن بأدبه ولا يجاوزن بالغيرة ما يجمل بهن في كنفه ورعايته ، وإن تسع أخوات شقيقات من أب واحد وأم

واحدة ليقع بينهن من شحناء الغيرة إذا اجتمعن في بيت أسرتهن أضعاف ما روي لنا من غيرة زوجات النبي في عشرتهن الطويلة .

* * *

أما قرابة النبي فأعزها قدراً عنده قرابة السيدة فاطمة وزوجها وبنيها .

وكانت الصلة بين السيدة عائشة وبينهم جميعاً على أكمل ما ترضاه السجية الإنسانية في كل صلة من قبيلها .

فالسيدة فاطمة كانت أحب الناس إليه عليه السلام كما هو العهد بأبوته الشريفة التي تشمل الناس جميعاً بالحنان والمودة فضلاً عن بناته وبنيه . وسئل – كما قالت عائشة مرة – : من أحب الناس إليك ؟ فقال : فاطمة ! ثم سئل : ومن الرجال ؟ فقال زوجها .

وفاطمة بعد أم السبطين اللذين كان عليه السلام يلاعبهما ويلاطفهما ويوصي بهما ويسميهما ولديه وهو مشوق إلى إنجاب الأبناء ، وهي كذلك بنت خديجة التي نفست عليها عائشة قديم مكانتها وطويل وفاء النبي لذكراها .

فالسيدة فاطمة والسيدة عائشة شريكتان في قلب واحد تتنافسان عليه . ولكنها شركة بين كريمتين .

ومن أثر هذه المنافسة أن أمهات المؤمنين أوفدن السيدة فاطمة إلى النبي ليعدل بينهن وبين عائشة فقبلت الوفادة .

وربما خطر للسيدة عائشة أن علياً رضي الله عنه قد تأثر بهذه المنافسة يوم سأل النبي في حديث الإفك فقال : « ... لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير » .

ومن الصدق للتاريخ وللطبع الإنساني أن نلاحظ هذه الأمور ، لأن الطبع الإنساني لن يدع حقوقه على أبنائه ولن يكون الإنسان من لحم ودم

إلا اذا كان فيه للحم والدم نوازعهما التي لا فكاك منها . وإن راضها أدب النبوة ونبل العشيرة فثابت إلى أكرومة تجمل بالكرام .

فالصلة بين عائشة وقرابة النبي قدكانت صلة الأدب والتجمل والمجاماة ، ولكنها كانت في مجال لا يغيب فيه التنافس على العطف والإعزاز .

والمثل هنا أيضاً قدوة المقتدين في الأسر العليا التي عرفها التاريخ،سواء منهم من أخذ بأدب الدين أو بأدب الدنيا .

وهي على الجملة « حياة زوجية » سعيدة نزلت منها السيدة عائشة منزلة الزوجة المدللة في طوال أيامها ، ثم منزلة الشريكة المعينة في عبء التبليغ والرسالة ، وبلغت من الثقة بها في المعونة حمادى ما تبلغه شريكة حياة ؛ فحفظت من تعليم النبي ما لم يحفظه أحد ، وحفظ عندها النبي أغلى الودائع من بعده : صحف الكتاب وسنته المشروعة لتابعيه .

بَعدَ النَّبيّ

عاشت السيدة عائشة بعد النبي ستاً وأربعين سنة، وتوفيت وهي في نحو السبعين من عمرها ، سنة ثمان وخمسين للهجرة .

وقد توفي النبي عليه السلام في بيتها وفي زيارتها ، ودفن بالمكان الذي كان ينام فيه .

وقد علم كثير من الناس عند اشتداد المرض به أنه مرض الوفاة ، ولكنه كان قد صحا بعض الصحو قبيل يوم وفاته حتى استأذنه أبو بكر في الخروج إلى بيته بالسنح ، وتفرق المسلمون متفائلين وهم يرجون الخير ويبعدون عن خواطرهم نذير الخوف . فلما قبض عليه السلام بعد ذلك روعت عائشة أيما روع وتعاظمها الخطب أن تملك صبرها وهو يموت بين سحرها ونحرها ، فنسيت لهول الساعة ما ينبغي لها أن تستقبل به هذا الوداع الذي لا يتكرر ولا تهونه سابقة وداع مثله : إنها أم المؤمنين التي لبثت السنين بعد السنين تلقنهم ما لقنها النبي من سداد التجمل ووقار الحزن في الملمات ... إذا هي تنسى كل ذلك ساعة فقده وإذا هي امرأة والهة بين النساء تلتدم وتضرب وجهها : قالت : « ... وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل في حجري ، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » قلت : خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق . وقبض بين سحري ونحري ودولتي ولم أظلم أحداً . فمن سفهي وحداثة

سنّي أنه صلى الله عليه وسلم قبض وهو في حجري ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي » .

ولم تشهد دفنه عليه السلام بعد وفاته بيومين ، لأن المسلمين كان قد بلغ في تنافسهم في حبه أن يتولى كل فريق منهم مراسم دفنه على ما تعود في بلده وبين أهله . وكان أهل مكة يسوّون قاع القبر وأهل المدينة يقوّسونه . فبعث العباس بن عبد المطلب رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة بن الجراح ويدعو الآخر أبا طلحة ، وأولهما يضرح كأهل مكة والآخر يضرح كأهل المدينة . فعاد صاحب أبي طلحة به ولم يعد صاحب أبي عبيدة . فحفر اللحد على طريقة أهل المدينة وتولى القائمون على الجثمان الكريم دفنه بعد انقطاع المودعين عند هزيع من الليل . قالت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما : « ما علمنا بدفنه صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل » .

وما برحت منذ تلك اللحظة تلازم البقعة الخالدة ولا تفارقها إلا للعمرة أو الحج أو لزيارة قريبة ، وقلما كانت تزور .

واتخذت سكنها في الحجرة المجاورة لقبره وهي لا تحسب أنها قد فارقت منه غير مشهد جثمانه . فقد كانت تزوره زيارة الأحياء . ودفن أبوها إلى جواره بعد سنوات فكانت تزورهما كذلك زيارة الأحياء . فلما دفن معهما عمر جعلت بعدها تنتقب وتلبس ملابس الحجاب وهي تزور أولئك الأصدقاء المتجاورين ، كأنهم بقيد الحياة .

وكانت في أوائل العقد الثالث على أكبر تقدير عند وفاته عليه السلام فعاشت في صحبته زهاء عشر سنين ، وعاشت في ذكراه خمسين سنة . وحسبنا من شعور الناس بجلال تلك الذكرى في نفسها أن أحداً لم يخطر له خاطرة عن السيدة عائشة تجيز التفكير في حياة زوجية أخرى كأنه خاطر حرمته قداسة تلك الذكرى وهيبة ذلك الوفاء ، فضلا عن الحكم بتحريمه في سورة الأحزاب على سبيل التشريع .

ولم تكن حياة السيدة عائشة فارغة في خلال السنين الطوال من لدن فارقها زوجها العظيم وهي تجاوز العشرين إلى أن فارقت الدنيا وهي تقارب السبعين ، لأنها في حدة نفسها ورفعة مكانها لا تقبل الفراغ . فما هو إلا أن هدأت ثائرة الفتنة بعد وفاة النبي عليه السلام وتوفر المسلمون على تحصيل مراجع الدين حتى كانت هي المرجع الأول فيما حفظ عندها من آي القرآن وما حفظته من السنن والأحاديث ، وحتى كان بيتها مثابة الزوّار من أبنائها وبناتها ، يدعونها يا أمه ! ومنهم من هي في سن بناته الصغريات ، ويا له من دعاء محبب إلى الأسماع .

وكانت إذا فرغت من تلقين الأحاديث وجواب السائلين تأوي إلى الصلاة والتسبيح في جوار الضريح . أو تعمل في مهنة البيت ذلك العمل الذي كان النبي عليه السلام يسرها بمساعدتها فيه .

ومن أهم الأشياء التي ينبغي أن تلاحظ في حياة السيدة عائشة بعد النبي عليه السلام أنها قضت خلافة أبي بكر وعمر وهي لا تشعر بأن مكانها في عهد النبي قد تغير أو بأن أمراً من أمور السياسة العامة يدعوها إلى التعرض له راضية أو ساخطة . حتى كانت خلافة عثمان فتغيرت هذه الحال ، وكان لتغييرها دلالة كبيرة وأثر كبير .

ففي عهد أبي بكر كانت أمور السياسة العامة تجري على أحكام الدين وتركن منه ومن أصحابه إلى سند ركين ، وكان الخليفة أباها وهو أول من يدعوها بأم المؤمنين .

وفي عهد عمر كانت أمور السياسة العامة تضطرب أو تسكن ولكنها في كلتا الحالتين لا تنشعب ولا تؤذن بانصداع ، وكان عمر أهيب خليفة عرفه الإسلام وأحب خليفة إلى عائشة رضي الله عنها . سرت صداقة الأبوين أبي بكر وعمر إلى بنيهما فكانت عائشة وحفصة أصدق صديقتين تتفقان وتتكاشفان كلما وقع الخصام في بيت النبي عليه السلام ، وحفظت له أجمل

الشكر لموقفه من حديث الإفك حين شاوره النبي فقال له : إن الله هو الذي زوجكها وإنه سبحانه وتعالى لم يدلس بها عليك . وتم هذا الشكر حين ولي الخلافة فرعى لها المكانة الأولى بين المسلمين ، وخص بيت النبي بالحصة العليا من الحفاوة والعطاء .

فمضى العهدان — عهد أبي بكر وعمر — وليس في الحياة الخاصة ولا في الحياة العامة ما يشعرها بتغيير أو ينزع بها إلى نوازع السياسة ، وما تعارض منها أو جنح إلى التحزيب والتأليب .

ثم تغيرت الأمور في عهد عثمان .

ولولا هذا التغيير لما عرف للسيدة عائشة نصيب من السياسة العامة بعد موت النبي ، وهو الموقف الذي تحولت بها الأحوال إليه بعد اجتناب السياسة العامة قرابة عشرين سنة ، على غير سابقة له في سيرتها الأولى .

في السياسة العامة

قلنا في الفصل السابق إن السيدة عائشة لم تقض حياتها فارغة خلال السنين الطوال التي انقضت بعد وفاة النبي عليه السلام ، « لأنها في حدة نفسها ورفعة مكانها لا تقبل الفراغ » .

فأما حدة نفسها فمن السهل بعد المامة يسيرة بمزاجها وتكوينها الذي يشبه تكوين أبيها أن نعرف كيف يتعذر الفراغ على هذه السليقة الحية التي نشط بها المزاج العصبي ولم يقعد بها الترهل والإعياء .

وأما رفعة مكانها فهي أحرى أن تشغلها عن الفراغ مريدة له أو غير مريدة ، لأنها تعودت أن يؤبه لها طوال حياتها ، ولم تتعود قط أن تكون غفلاً في بيئتها ، وهي أرفع بيئة بين قومها .

نشأت عزيزة في آلها وذويها ، عزيزة في بيت أبيها ، عزيزة في أعز البيوت العربية بعد زواجها . فمن الحق لها ولنشأتها ، ومن الواجب لها ولنشأتها أن يؤبه لها طوال حياتها ، وألا يكون فراغها بمثابة الإغضاء عنها .

هذه حقيقة لو التفت لها ولاة الأمر كما ينبغي في حينها لسلمت السياسة العامة في ذلك الحين من جرائر الخطأ الذي وقعت فيه .

ولا بدع في تقرير الحقيقة ولا في تعظيم خطرها والتنبيه إلى تبعاتها .

فما من دولة قط إلا قد اتخذت لها أصولاً مرعية في سياسة أقطابها

ومراسم كبرائها وكبيراتها توافق ما لهم أو لهن من الشأن في الدولة ، وما يكون لميولهم أو ميولهن من الآثار في السياسة العامة ، أو السياسة العليا على التخصيص ، وهي أصول لم تغفل مرة إلا كان لها أثر غير منظور ولا محسوب له حساب في توجيه الأمور .

وقد كانت « أصول » السياسة العليا في معاملة السيدة عائشة ، رعاية لمكانتها وسابقتها ، أن تظل بالمكان الذي يستفاد فيه من عملها وعلمها ، وأن تعرف لها مهمتها الكبرى في تقرير السنة النبوية ، أو تبويب الدستور الإسلامي كما يؤخذ من أحاديث النبي ومأثوراته وعاداته ، في معيشته وعباداته ، وكان هذا وحده عملاً خليقاً أن يشغل أيام السيدة عائشة على أحسن الوجوه الصالحة لها وللمسلمين وللدولة الإسلامية .

كان هذا واجباً لها وجوب الحق ، ووجوب المصلحة ، ووجوب السياسة .

وكان هذا الواجب « أصلاً مرعيّاً » من أصول السياسة العليا أيام أبي بكر وعمر سواء قصدا إليه أو ذهبا فيه مذهب البداهة ومقتضيات الأمور ....

ولكنه خولف أو عدل عنه بعد الخليفتين الأولين . خولف أو عدل عنه لأسباب يرجع بعضها إلى حكومة عثمان ، وبعضها إلى طوارىء الزمن ، وبعضها إلى السيدة عائشة على اختيار منها أو على ما تحولت بها إليه دوافع الأحوال .

* * *

جاء الخطأ الأول في هذه السياسة من القائمين بالأمر في حكومة عثمان ، وكان خطأ عجيباً حقّاً لأنه لا يفهم على وجه من وجوه المصلحة ولا تدعو إليه ضرورة من ضرورات الدولة ، ونعني به نقص العطاء الذي كان مقدوراً للسيدة عائشة في عهد الفاروق ، أعدل من لاحظ العدل في تقسيم الأعطية على حسب المراتب والحقوق .

إن نقص عطاء السيدة عائشة كان يكون سائغاً عندها وعند المسلمين والمسلمات إذا دعت إليه حاجة في خزانة الدولة ، ولكنه لا يسوغ ولا تستريح إليه النفس والأموال تتدفق على خزانة الدولة بالألوف التي يحار فيها الإحصاء ، وغنائم أفريقية وحدها تبلغ مليونين ونصف مليون من الدنانير ، فيعطى خمسها لبنت الخليفة وزوجها مروان بن الحكم ، وغير ذلك من القطائع والأعطية التي يخص بها القريبات والقريبون ولا يضبط لها حساب .

إن الغضب من هذا لن يكون غضب الحريص على مال . ولم تكن السيدة عائشة خاصة ممن يحرص على مال أو يبذله في ترف أو يخزنه للمكاثرة والادخار. فما سمع عنها قط أنها أنفقت المال في غير الكفاف من الرزق والإحسان إلى المعوزين ، وما تركت بعدها بقية تدل على حرص ولا ادخار .

ولقد كانت تنكر التزيد من الثراء على الصحابة الأجلاء وإن كان من التجارة والحسب الموروث . فكان عبد الرحمن بن عوف — وهو مثل من أمثلة عدة — وافر الثراء على عهد النبي عظيم السخاء في خدمة الدين . ودخلت له عير إلى المدينة فيها سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام ، فارتجت لها المدينة وسمعت رجتها في بيت عائشة ، فما نجا به من لومها إلا أنه ذهب إليها يشهدها أن العير بأحمالها وأحلاسها وأقتابها في سبيل الله .

فغضب السيدة عائشة من نقص العطاء لم يكن غضب الحريص على مال والطامع في ادخار ، ولكنه كان غضباً عادلاً من غضاضة لا حاجة إليها ولا حكمة فيها ، ولا تستريح إليها النفس بتعايل مقبول .

وشاع النقد والسخط من ولاة عثمان وحواشيه ، وكثر القيل والقال في مخالفتهم للدين وتوسعهم في اقتناء الدور والحطام .

ومثل من الأمثلة العدة في هذا الباب تولية الوليد بن عقبة أخي عثمان لأمه خلفاً لسعد بن أبي وقاص على الكوفة وهو من أعلام الصحابة المحبوبين بين جلة المسلمين .

وكان الوليد متهماً بالخمر ، وشاع في المدينة أنه أم الناس يوماً في صلاة الصبح وهو سكران . فلما فرغ التفت إليهم وقال : هل أزيدكم ؟ فإني أجد في نفسي نشاطاً ؟

ولم يكن عجيباً أن يلجأ الشاكون منه إلى بيت عائشة فيمن لجأوا إليه من كبار الصحابة وهم غير قليلين ، وإنما لجأوا إليها بعد أن قدموا على الخليفة فتبرمت بهم حاشيته وبرأوا الوليد عنده مما اتهمه به أهل مصره فقال لهم : أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل ؟ لئن أصبحت لكم لأنكلن بكم . فاستجاروا ببيت النبي وعائشة فيه .

ثم أصبح عثمان « فسمع من البيت صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة فقال مغضباً : أما يجد مرّاق أهل العراق وفسّاقهم ملجأ إلا بيت عائشة ؟ فسمعته ، فقيل إنها رفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : تركت سنة رسول الله صاحب هذه النعل ؟ ... وتسامع الناس فجاؤوا حتى ملأوا المسجد . فمن قائل : أحسنت ، ومن قائل : ما للنساء وهذا ؟ حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال ، ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان وناشدوه الله أن يعزل أخاه » .

ولم يكن من شأن هذه السياسة من حاشية عثمان أن تكف السيدة عائشة عن نقد الولاة وقبول الشكاة . بل قربت هذه السياسة بينها وبين اللاجئين إليها . فلما شكا الناس من والي عثمان — في مصر — عبد الله بن أبي سرح — واتهموه بقتل رجل ممن شكوه إلى الخليفة فزعت وفود المصريين إلى بيت عائشة فأرسلت إلى الخليفة تندد بواليه وتقول له : تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت ، فهذا قتل منهم رجلاً فأنصفهم من عاملك .

وجعل وفود المصريين يلقون المصلين بالمسجد في أوقات الصلاة ويبسطون لهم ظلامتهم وشكايتهم إلى أم المؤمنين وكبار الصحابة ، فألحف كبار الصحابة

على الخليفة في إنصافهم ، وأثمرت غلطات الحاشية ثمرتها في توجيه الشاكين إلى طلب المزيد من حماية أم المؤمنين ، فاختاروا محمد بن أبي بكر – أخاها – ليخلف عبدالله بن أبي سرح حين خيرهم الخليفة فيمن يؤثرونه للولاية بعده . ووقعت الطامة بعد ذلك بتدبير لا تُعلم جليته حتى الآن ، وإنما الرأي الراجح أنه من تدبير مروان بن الحكم على غير علم من عثمان ونصحائه المخلصين .

ذلك أن الوفود القافلة إلى أمصارها عثرت في طريقها بغلام يحمل كتاباً في أنبوبة من رصاص وفيه أنه « إذا أتاك محمد بن أبي بكر ومن معه فاحتل في قتلهم وأبطل كتابه وقر على عملك حتى يأتيك رأيي في ذلك إن شاء الله » .

فأعقب هذا الكتاب ما لا بد أن يعقبه من الأثر في نفوس الصحابة وفي نفس السيدة عائشة وفي نفوس الوفود المتجمعة من الأمصار ، وقذف بالفتنة القائمة يومئذ في طريق غير مأمون .

وظاهر من هذا العرض السريع أن اختلال الأحوال في عهدعثمانهو الذي تحول بالسيدة عائشة عن موقفها الأول من حكومة أبي بكر وعمر إلى موقف الاشتراك في السياسة العامة والمجاهرة بالنقد الشديد لحكومة عثمان وولاة عثمان وحاشية عثمان .

بل هو الذي جعل لها مهمة تطلبها وتسعى إليها ، وهي مهمة الوساطة بين الشعب والخليفة أو مهمة الحماية لمن يجهرون بالشكوى ويخافون عقباها .

فلولا الحمق الذي اشتهرت به حاشية عثمان لما تركت السيدة عائشة في مكانتها العليا من الأمة الإسلامية وهي تشعر أنهم قد أنزلوها من الرعاية والمبالاة دون منازل بناتهم وزوجاتهم وأصحاب القرابة والزلفى لديهم .

ثم تمادى الأمر فلم يقبلوا من المسلمين أن ياوذوا ببيتها ويفزعوا إلى جوارها ، ولو تناولوا الأمر بالرفق لاستفادوا من لياذهم بذلك البيت وفزعهم إلى ذلك الجوار .

وكانت الطامة الكبرى أن تأتمر الحاشية الحمقاء بحياة أخيها وتنفذ إلى مصر من يأمر واليها بقتله وهو قادم من قبل الخليفة لولاية الحكم فيها .

ومن المحقق عندنا أن الخليفة نفسه براء من هذه الدسيسة التي يتورع عنها مثله في بره وتقواه . فإن الرجل الذي تورع عن إهراق قطرة دم في سبيل الدفاع عن حياته والخطر محدق به من جميع جهاته لن يأمر بسفك دم ابن صديقه وزمياه ، ولا ذنب له إلا أن الشاكين ندبوه للولاية حين سألهم عمن يختارونه فأجابهم لما ندبوه إليه .

ولكن ما الذي أصاب الجاني المدبر للدسيسة ؟ ولمَ نجا من العقوبة ؟ ولمَ لم يكشف للملأ اولا أنه من رجال الحاشية ، وأن رجال الحاشية هم الذين ستروه وأنقذوه ؟ وماذا لو أن الغلام الذي كان يحمل الأمر بالقتل وصل إلى مصر ولم يعترضه الشاكون في الطريق ؟ ألم يكن القتل نافذا في محمد بن أبي بكر كأن الكتاب قد صدر من الخليفة بغير خلاف ؟

فهذه الحاشية الحمقاء قد بدأت بالغض من مكانة السيدة عائشة لغير ضرورة محتومة ولا مفهومة ، وانتهت بالتآمر على قتل أخيها لغير ذنب جناه ، وسلكت في خلال ذلك مسلكاً تأباه السيدة عائشة من الحاكمين وغير الحاكمين ، وهو مسلك الإسراف والتهالك على الحطام .

فغير عجيب أن يكون للسيدة عائشة موقف عداء من تلك الحاشية وأن تنادي على رأس المنادين بتبديل حكمها وتأليب الناس عليها ، وأن تضيق ذرعاً بعثمان لأنه يمضي حيث مضت تلك الحاشية في جنفها وغلوائها .

قيل أنها تربصت به حتى أقبل يخطب الناس فدلت قميص النبي ونادت : « يا معشر المسلمين ، هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته » .

ولم تذكر الحاشية الحمقاء مكانة السيدة عائشة وأمان جوارها وما يرجى من الخير في شفاعتها إلا بعد فوات كل فرصة وضياع كل أمل واستعصاء كل تدبير .

فلما حوصر عثمان وحيل بينه وبين الزاد والماء ذهبت أم حبيبة إلى داره وهي زميلة للسيدة عائشة من أمهات المؤمنين — فاعترض الثوار بغلتها وكانت معها إداوة ماء . قالوا : ما جاء بك ؟ قالت : إن وصايا بني أمية عند هذا الرجل ، فأحببت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال الأيتام والأرامل ، وكانت أم حبيبة أموية من آل أبي سفيان ، فاجترأ الثوار عليهاوقالوا : كاذبة ؟ وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فنفرت وكادت تسقط عنها ، فتلقاها كرام الناس فأخذوها وذهبوا بها إلى بيتها .

وكانت السيدة عائشة قد كرهت المقام بالمدينة وهي على هذه الحال من الفتنة الطاغية ، فتجهزت للحج واستصحبت أخاها محمداً فأبى وتخلف بالمدينة .

عند ذلك لجأ مروان بن الحكم — وهو رأس البلاء — إلى جوار السيدة عائشة التي كان يغري عثمان بها لاحتماء الناس ببيتها ، فقال لها : يا أم المؤمنين ؛ لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل ... فقالت : أتريد أن يصنعوا بي كما صنعوا بأم حبيبة ثم لا أجد من يمنعني ؟ لا والله ولا أعير ولا أدري إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

وفي رواية أخرى أن مروان هذا تذكر الجود بالمال في ذلك المأزق الميئوس منه فذهب إلى السيدة عائشة يستبقيها لتصلح الأمر فقالت : قد فرغت من جهازي وأنا خارجـــة للحج ... قال عندئذ : فيدفع لك بكل درهم أنفقته درهمين ؛ فلم تملك عائشة نفسها على ما جاء في هذه الرواية أن تقول : « لعـــلك ترى أنني في شك من صاحبك ؛ أمـــا والله لوددت أني أطيق حمله فأطرحه في البحر ! » .

وليس أكثر ولا أغرب من الأحاديث التي نسبت إلى عائشة في خلال هذه الفتنة قبل خروجها من المدينة وبعد خروجها منها . وأشد هذه الأحاديث وأقساها أن بعضهم سمعها تقول : « اقتلوا نعثلاً فقد كفر » ، وأنها كانت تسأل من تلقاه أن يخذل الناس عن عثمان وشيعة عثمان .

فأما الصحيح من هذا كله فهو أنها كانت تنقم من حكومة عثمان وتتمنى لها الزوال .

ويجوز الشك بعد ذلك في كثير من نصوص الأحاديث التي نسبت إليها بصدد هذه الفتنة . لأن بني أمية مثلوا بأخيها محمد بن أبي بكر عند دخولهم مصر أبشع تمثيل . فقتلوه ظمآن ووضعوه في جوف حمار ميت ثم شووه . وهذا بعد أن جروه من رجله في أسواق مصر وأشهدوا على مثلته السفلة والصبيان . ثم أرسلوا قميصه الذي قتل فيه وهو بدمه إلى المدينة . فلبسته نائلة زوجة عثمان ورقصت به ، وشوت أخت معاوية ابن حديج خروفاً وأهدته إلى السيدة عائشة — في ذلك العيد — وهي توصي الرسول أن يقول لها : هكذا كان شي أخيك ! فما أكلت السيدة عائشة بعدها شوياً قط وأقسمت لا تأكله حتى تلقى الله .

فلما تسامع المسلمون بأنباء هذه المثلة الشنعاء غضبوا للسيدة عائشة أن يشمت بها ولاة الدولة الجديدة هذه الشماتة وخاف الأمويون من جرائرها وندم عقلاؤهم على ما كان من سفهائهم ، واحتاجوا إلى المبالغة في تشويه نصيب عائشة من فتنة عثمان ، فأضافوا بألسنتهم وألسنة أتباعهم وصنائعهم أقاويل وأباطيل تمتزج بما نسب إلى السيدة عائشة ، فلا يعرف منها الخالص والمشوب ، ولا يسهل النفاذ من بينها إلى موقع المبالغة والتلفيق .

وخليق بنا أن نزداد حذراً من هذه المبالغات على قدر أصحاب المصلحة في قبولها . وقد اتفق على تكبير نصيب عائشة من التحريض على عثمان مصدران متناقضان ، وهما مصدر أصحاب معاوية ومصدر الشيعة أصحاب علي : يريد الأولون ما قدمناه من تخفيف وزرهم في المثلة بأخيها والحيف عليها ، ويريد الآخرون أن يبطلوا موقفها من مطالبة عليّ بدم عثمان ، وأن يثبتوا براءة عليّ من دم الخليفة القتيل ومشاركة عائشة في مجمة قاتليه . فضلاً عن مصلحة القاتلين أنفسهم في التعلل بهذا السند الذي يعفيهم من لوم كثير .

* * *

كذلك بدأت السيدة عائشة مشاركتها الأولى في السياسة العامة وهي إلى الاضطرار أقرب منها إلى الاختيار .

أما مشاركتها الثانية فقد كان اختيارها فيها أكثر من اضطرارها ، فإنها تلقت خلافة علي من مبدئها بالسخط والمقاومة ، وأذنت لبعض الطامحين إلى الخلافة أن يتوسلوا بجاهها ويشركوها معهم في خصوماتها ، وكان أكرم لهم ولها لو أنهم جنبوها هذه الخصومة وأنزلوها بحيث يعتصم بها الفريقان ويستوي في جيرتها العسكران ، فتركوا لها مندوحة للمراجعة يوم دعاها الدعاة بعد تفاقم الفتنة إلى السعي بينهم بالتوفيق .

وأصوب ما قيل في هذا المعنى مقال ذلك الفتى السعدي الذي تصدى للزبير وطلحة فقال لهما : أما أنت يا زبير فحواري رسول الله ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى أم المؤمنين معكما فهل جئتما بنسائكما .

نعم لقد أصاب ذلك الفتى من بني سعد حين أقام الحجة عليهما بهذا السؤال الذي يغني عن كل جواب ، فما من أحد يلومهما أن يوافقا السيدة عائشة في الرأي أو توافقهما فيه ، وإنما الملام الذي لا محيص عنه أن يتجاوزا النداء برأيها إلى الخروج بها في حومة قتال ، وهما لم يخرجا إليها بالمحارم والأزواج .

كانت في طريقها إلى مكة يوم لقيت ابن عباس موفداً من قبل عثمان ليتلو على الحجاج كتابه ويطلب النصفة بينه وبين الثائرين عليه ، فاقترحت عليه أن يخذل الناس عن عثمان وأن يشككهم فيه ، ورشحت للخلافة طلحة ابن عبيد الله لأنه « اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح فإنْ يل الخلافة يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر رضي الله عنه » .

قال لها ابن عباس : يا أمه ! لو حدث — أي اعتزال عثمان — ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا ... قالت : إيهاً عنك لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك .

وألفت نفسها في مكة بين العثمانية والأموية يوم نزلت بها قبيل مقتل عثمان ، فعنّ لها أن ترجع إلى المدينة لتدرك الأمر قبل فواته ، ولكنها سمعت في الطريق ببيعة عليّ فقالت فيما رواه عبيد بن أبي سلمة وهو من خؤولتها : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك . مشيرة إلى السماء والأرض ، ثم صاحت بركبها : ردوني ! ردوني ! وجعلت تتوعد في الطريق : أن تطالب بدم عثمان .. فقال لها عبيد بن أبي سلمة : ولم ؟ والله إن أول من أمال حرفه لأنت ! قالت : « إنهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا . وقولي الأخير خير من قولي الأول » .

وما لبثت في مكة قليلاً حتى تجمع فيها كل ناقم على عليّ بن أبي طالب من أعدائه ومنافسيه ، فقضت أيامها بمكة بين العثمانية والأموية والولاة الذين أحسوا بزوال الدولة والثروة والذين أوجسوا من حساب الخليفة الجديد، ولحق بهم طلحة والزبير وكلاهما طامح إلى الخلافة يائس من الأنصار في المدينة . فاتفقوا جميعاً على كلمة واحدة لا اتفاق بينهم فيما عداها . وهي المطالبة بدم عثمان ، لأن المطالبة به تغنيهم عن القدح في الخليفة الجديد ، وليس الاتفاق على القدح فيه بمستطاع .

كذلك لذلك ارتفعت الصيحة بدم عثمان .

وفي هذه البيئة غلبت على السيدة عائشة نية الخروج إلى البصرة بتلك الدعوة التي اتفقوا عليها ، وأكبر الظن أنها كانت وشيكة أن تحجم عن الخروج إليها لولا غلبة البيئة واجتماع الأصوات من حولها على نداء واحد . فإنها ما عتمت في الطريق أن صُدمت أول صدمة حتى همت بالرجوع ثم أصرت عليه لولا احتيالهم في إقناعها بمختلف الحيل .

عبروا بماء الحوأب فنبحتهم كلابه ، وسألوا : أي ماء هذا ؟ فقال الدليل : هذا ماء الحوأب . فصرخت بأعلى صوتها قائلة : إنا لله وإنا إليه راجعون . إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه:

ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب . ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وهي تقول : أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقاً . ردوني . ردوني . ردوني . وأقامت يوماً وليلة لا تريم مكانها ، حتى جاءوا لها بخمسين رجلا من الأعراب رشوهم فشهدوا أنهم جازوا الماء ، وقالوا لها : مهلاً يرحمك الله فقد جزناه . ثم صاح عبد الله بن الزبير : النجاء . النجاء . فقد أدرككم علي ابن أبي طالب . فأذنت لهم في المسير بعد امتناع شديد .

* * *

ونعتقد أن وقفتها عند ماء الحوأب لم تكن آخرة التردد من جانبها في أمر القتال . فإننا في الواقع لم نقرأ بين أخبار وقعة الجمل المتشعبة خبراً واحداً ينم على عزمة قتال مبيتة لغرض مرسوم . ويؤخذ من كلامها لأبي الأسود الدؤلي حين أشخصه إليها عامل عليّ بالبصرة ، أنها كانت تستبعد خروج أحد من المسلمين لقتالها . فقد سألته : أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالي ؟ وكان أبو الأسود رجلا صعب المراس في نصرة عليّ فأجابها : والله لتقاتلن قتالاً أهونه الشديد . وكان مما قاله لها قبل ذلك : ليس على النساء قتال ولا لهن الطلب بالدماء ، وإن علياً لأولى بعثمان منك وأمسّ رحماً فإنهما أبناء عبد مناف .

ولم تزل بالبصرة على هذا التردد كلما اشتبك أتباعها وأتباع عثمان ابن حنيف والي عليّ عليها . فتحاجزوا عن الحرب غير مرة في المربد وفي دار الرزق ، ونادى أصحاب عائشة بالكف عن القتال بعد أن تورط فيه الفريقان بدار الرزق نهاراً كاملا من الصباح إلى الغروب كثر فيه القتلى والجرحى من الجيشين .

ثم أنفذ علي بن أبي طالب رسوله القعقاع بن عمر إلى طلحة والزبير وعائشة فبدأ بعائشة وسألها : أي أمه ! ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بُنيّ ؛ الإصلاح بين الناس . قال : فابعثي إلى طلحة والزبير حتى

تسمعي كلامي وكلامهما. فبعثت إليهما . فجاءا . فقال لهما : إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح بين الناس . فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا : متابعان ! قال : فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح ؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا يصلح . فذكرا قتلة عثمان وحكم القرآن . قال : لقد قتل بالبصرة ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف . فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم أعظم مما تراكم تكرهون ، وإن أنتم منعتم مضر وربيعة من هذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء ... فسألته عائشة : فماذا تقول أنت ؟ قال : إن هذا الأمر دواؤه التسكين... فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا المآل . فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ، ولا تعرضونا للبلاء فتعرضوا له فيصرعنا وإياكم .

قالوا : قد أصبت وأحسنت ، فارجع . فإن قدم عليّ وهو على مثل رأيك صلح الأمر . ثم أقرّ علي وساطة رسوله وأشرف القوم على الصلح لولا أن حبط هذا المسعى بسفاهة السفهاء من العسكرين فترامى هؤلاء وهؤلاء وجمحت الفتنة جماحها الذي خرجت به من أعنة الرؤساء .

ولم ييأس الفريقان بعد هذا من وساطة الصلح ، ولم يكن التردد من شأن عائشة وحدها ، بل كان أنصارها جميعاً يترددون ولا يستقرون على صنيع . وقد قال لها الزبير يوماً : ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطني هذا . قالت : ما تريد أن تصنع ؟ قال : أريد أن أدعهم وأذهب .

وربما تقابل الخصمان وجهاً لوجه فتناصحا على مسمع من العسكرين

تناصح الإخوان ... نادى عليّ خصمه الزبير يوماً ؛ يا زبير ارجع . فقال : وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان [1] ؟ وهذا والله العار ... قال عليّ : يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار .

فرجع . وأهاب به ابنه عبد الله يستثيره : أحسست رايات ابن أبي طالب وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد ؟ قال : قد حلفت ألاّ أقاتله . قال : كفِّر عن يمينك وقاتله .

وبينما هم في تقديم وتأخير ومشاورة ومثاورة أقبل كعب بن سور إلى عائشة فقال لها : أدركي . فقد أبى القوم إلا القتال . لعل الله أن يصلح بك . فركبت وألبسوا هودجها الأدراع . وتعالت الضجة من هنا وهناك ، فسألت : ما هذا ؟ قالوا : ضجة العسكر . قالت : بخير أو بشر ؟ قالوا : بشر . إذ كان القتال قد نشب بين الفريقين من تصارع الغوغاء وتدافع الغلاة وإفلات الأعنة من الرؤساء .

ويبدو لنا من جملة الوقائع أن حملة الجمل كانت حملة اندفاع ولم تكن حملة تدبير وتقدير ، ولا كان أحد من دعاتها يملك زمامها ويتجه به إلى مصير معروف .

وإلا فما يكون ذلك المصير ، إن أصحابها لم يريدوا بها أن يفسدوا الأمر على عليّ بن أبي طالب ليصلحوه لمعاوية ، فليس منهم زعيم من حزبه والعاملين لدولته .

ولم يتفقوا على ولاية واحد منهم بعد هزيمة عليّ إن تمت هذه الهزيمة ، وليست هي بالمركب الذلول .

إنما هي حملة تهويل إلى المقاسمة في الأمر على وجه من الوجوه التي أشاروا إليها قبل مفارقتهم المدينة : فيتولى بعضهم العراق وبعضهم اليمن ،

---

(١) البطان : حزام الدابة والتقاء الحلقتين كناية عن التهيؤ للركوب والمسير.

ويصبح الأمر شركة أو « شورى » بينهم وبين الخليفة ، على قولهم الذي عبروا به عن طلب الولاية في بعض الأحاديث بينهم وبينه .

وفهم الحملة كلها على هذا الوجه أقرب ما نراه لفهم السيدة عائشة في موقفها من القتال ومن السياسة العامة على الإجمال .

نعم إن فهم مأساة الجمل هي وسيلتنا إلى فهم السيدة عائشة ، لأننا نعرف مصادرها ومواردها ومبلغ الأخطار المنظورة من ورائها عند الهجوم عليها فنعرف النية التي جنحت بالسيدة عائشة إلى الدخول فيها ، وهي كل ما يعنينا من تاريخ تلك المأساة في هذا السياق .

والذي يبدو لنا من تلك الحوادث التي لخصناها فيما تقدم أن مأساة الجمل لم تكن عند السيدة عائشة إلا دفعة من دفعات الحدة التي طبعت عليها ، قدحتها المفاجأة وأوقدتها كثرة المغريات بعداوة عليّ في بيئة لم يرتفع فيها صوت لغير أعدائه ، ومهدت لها حوادث الماضي تمهيدها الذي رسم لها الوجهة واندفع بها عن هذه الخطة دون غيرها .

فمن تمهيد الحوادث الماضية أن طلحة والزبير وعليّاً لم يكونوا غرباء عن السيدة عائشة ولم تكن هي غريبة عنهم بميولها وسوابق شعورها .

فطلحة من بني عمومتها ومن بني تيم قبيلتها وقبيلة الخليفة الأول أبيها .

والزبير زوج أختها أسماء ، وابنه عبد الله ابنها الذي اختارته لكنيتها في بعض الروايات ، فكانت تكنى من أجله بأم عبد الله .

وعليّ أقرب الناس إلى بيت النبي وزوج ابنته وأبو حفيديه وصاحب الرأي الذي لا ينسى في حديث الإفك وهو نصيحته للنبيّ بتطليقها .

ومن الحق أن نقول إن الشعور الذي تكنه السيدة عائشة لعليّ من جراء هذه النصيحة شعور طبيعي لا غرابة فيه .

فلا ريب أن علياً رضي الله عنه قد أخطأه التوفيق في تلك النصيحة . إذ لم يكن من الإنصاف أن تطلق عائشة لشبهة لغط بها المنافقون وطلاب الوقيعة بين النبيّ وأصحابه . ولن يفهم الناس من تطليقها إلا أن النبيّ قد أدانها وأنف من معاشرتها ، ولن يصيبها ذلك وحدها بل يلصق بها وبأبيها وآلها وصمة لا تمحى في زمانها ولا بعد زمانها ، وقد يتعدى الأمر عائشة وآلها إلى الإسلام كله فيتخذ المنافقون من صدق حديثهم الذي أفكوا به مطعناً في صدق الدين ونبيه ، وهذا كله إلى أن الإدانة بمثل تلك الشبهة لا توافق التحرز الشديد الذي قضى به الدين في هذه القضايا ولو مست من هن دون عائشة في القدر والثقة . فما نحسب علياً قد سها عن هذا كله وهو ينصح إلى النبيّ بتلك النصيحة إلا لفرط الغيرة على تنزيه سمعة النبي وبيته ، واستكباره في هذا الصدد أن يقال ما يقال ولو لم يكن ثم برهان على ما قيل .

وما من أحد يجهل الشعور الذي تقابل به النساء نصيحة كتلك النصيحة . فأقل ما يقال إنه شعور لا غرابة فيه .

ثم ها هي ذي مسألة الخلافة والترشيح لها من بين عظماء الصحابة الذين بقوا على قيد الحياة بعد موت أبي بكر وعمر وعثمان، ومن هؤلاء الصحابة عليّ وطلحة والزبير . وكلهم قد ندبوا للاجتماع في بيت عائشة لاختيار واحد منهم للخلافة ، وقال لهم عمر يومئذ : « إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، وإني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكنّ ما أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس . فانهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا واختاروا رجلاً منكم » .

وكان جائزاً أن يقع الاختيار في بيت عائشة على طلحة أو الزبير لأنهما وكيلان من وكلاء الشورى .

ثم انقضت خلافة عثمان وتجددت المسألة كرة أخرى على النحو الذي

شهدته عائشة قديماً في بيتها . فمع من يكون شعورها ؟

إن طلحة والزبير مرشحان للخلافة منذ اثنتي عشرة سنة ، وقد تكرر اختيار الخليفة من غير بني هاشم حتى أصبح في رأي بعضهم كالعرف الذي يجري عليه التقليد . وليس لعلي سند قاطع من القرآن أو السنة يبطل ذلك العرف ويسقط حجة طلحة والزبير . فإذا كانت السيدة عائشة أميل إلى فريق طلحة والزبير بشعورها وسابقة رجائها فليس ذلك كما أسلفنا بغريب ولا بمخالف للمعهود في طبائع الناس .

على أننا لا نريد بما تقدم أن نسوغ موقف السيدة عائشة من وقعة الجمل وخصومات الخلافة ، وإنما أردنا تفسير شعورها على الوجه الذي لا غرابة فيه ، ولم نرد تسويغه في نظر العقل ولا في نظر التاريخ .

فعليّ قد أخطأه التوفيق في نصيحته .

وعائشة قد أخطأها التوفيق في مكافحته من أجل هذه النصيحة ، وإن كانت لا تلام على أنها كانت تتمنى الخلافة لسواه .

ولكننا إذا ذكرنا هذا كان علينا أن نذكر معه أن السيدة عائشة ندمت على موقفها من يوم الجمل أشد ندامة ، فكانت تقول بقية حياتها : ليتني مت قبل يوم الجمل ، وقالت مرة : ليت كان لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنون عشرة وثكلتهم ولم يكن يوم الجمل . وكانت كلما خاض الناس في حديث ذلك اليوم تبكي حتى تبل خمارها .

وعلينا أن نذكر أنها صانت خصومتها عن كل كلمة نابية في حق علي رضي الله عنه ، فلم تتهمه بدم عثمان ولم تتجاوز بالتهمة بعض من بايعوه ، وقالت عنه غير مرة إنه الصوام القوام ، وإنه أحب الناس إلى رسول الله .

وعلينا أن نذكر أن المغريات بالاندفاع في هذه الغاشية كثيرة : حدة في الطبع ، ومفاجأة تبتدر الحدة ، وبيئة مطبقة بالعداء لعليّ ، وسعي حثيث من أقرب الناس إليها وأقربهم إلى إقناعها .

وإنها مع هذا أقدمت على مورد مبهم لا يتضح الشر فيه ، وترددت هنالك بين إقدام وإحجام ، واعتقدت أن الأمر لا يفضي إلى قتال . وأصغت إلى دعوة الإصلاح ودعت إليه .

وهو حادث لا بد له من عبرة .

وإن عبرته لأحق عبر التاريخ الإسلامي بالتسجيل .

* * *

حقوق المرأة

في حياة السيدة عائشة ميزان صادق لحقوق المرأة في عصرها ، وقد يقاس عليه الميزان الصادق لحقوق المرأة في جميع العصور .

فالحياة البيتية وما يتصل بها من حياة التربية والتعليم ومعونة الرجل في واجباته العامة هي خير ما تتولاه المرأة من الأعمال .

والسياسة — ولا سيما السياسة في عصور الاضطراب — هي المجال الذي يحسن بها اجتنابه ولا يرجى لها التوفيق فيه . وقد تؤدي فيه هنالك الخير إذا التزمت منه جانب المسالمة وكانت لها وسيلة إليها . أما جانب الرئاسة والإشراف فلا طاقة لها به ولا يتأتى لها أن تتولاه إلا إذا نقلت إليه شؤون البيت ومزجته بما يهمها من أواصر القرابة والمعيشة الزوجية .

فالسيدة عائشة كانت ربة بيتها وشريكة زوجها ، وكان زوجها العظيم يعينها في شئونه ويكون في مهنة البيت ما دام فيه .

وكانت هي تعينه على شؤون الهداية والإصلاح كلما وسعتها المعونة فيها ، وقد لقنت الناس ما تلقنته منه فأحسنت التلقين .

وهذا في جملته هو قوام الحقوق بين الجنسين .

ولكنها على ذكائها وعلمها ، وعلى أنها في بيت الرئاسة نشأت وفي

بيت الرئاسة عاشت ، وأنها تعودت أن يؤبه لها وتسمع كلمتها ، قد تحولت بها طوارىء العصر إلى السياسة العامة ، فكانت فيها طوعاً لأواصر البيت ودواعي المودة والنفور التي توحيها ، ولم تكن مثلا يقتدى به في توجيه الأمور العامة كما كانت مثلا للنساء كافة وهي ربة بيتها وشريكة زوجها .

بل هي قد كانت أول مثل يستشهد به المستشهد على صواب الحقوق التي عرفها الإسلام للنساء : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » .

فلم تأت العصور بعد ذلك بإنصاف للمرأة أصوب من هذا الإنصاف .

فليس المهم أن تساوي الرجل في كل شيء وأن يكون لها مثل حقوقه ومثل واجباته : لأن المماثلة مع الاختلاف ليست هي الصواب وليست هي الإنصاف .

ولكنّ المهم أن تكون حقوقها مساوية لواجباتها ، وأن يكون لها مثل ما عليها ، وألا تظلم في حياتها الخاصة والعامة شيئاً ، ولا يفوتها عمل تصلح له وتحسن أداءه وتغني فيه غناء الرجل ولا يغني فيه الرجل غناءها .

وقوام ذلك كله أنهن « لهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » .

وهي الدرجة التي ينفرد بها الرجال حيث تبطل المشاركة في الملكات والأعمال .

وإنما كان هذا قوام الإنصاف في حقوق الجنسين لأنه حكم قائم على الواقع الذي لا يتغير اليوم ولم يتغير قط ولن يتغير في الغد مهما تتغير أحكام الشرائع وأقاويل أصحاب الأقوال والآراء .

وكل حكم قائم على إنكار الواقع أو المغالطة فيه فهو جهالة تنكشف لا محالة في يوم من الأيام ، وإن لم تنكشف كانت كالداء المكتوم أو بل ما يكون وهو مجهول .

والواقع أن الرجل والمرأة مختلفان .

وأن اختلافهما حقيقة علمية وحقيقة تاريخية وحقيقة حسية ، وحقيقة تعرف بالعقل والبداهة .

فالمرأة تخالف الرجل في وظائف الغدد وفي تكوين الأعضاء وفي شواغل الذوق والإحساس .

والمرأة تخالف الرجل في أعمالها وتكاليفها منذ القدم في جميع الشعوب ، ومن قال إن هذه المخالفة من فعل الرجال وسيطرتهم وليست من فعل الطبيعة وسيطرتها فقد قال إنها من فعل الطبيعة وليست من فعل الرجال .

والمرأة تخالف الرجل في القدرة حتى حين تشاركه في العمل الذي تفردت به منذ زمن طويل . فهي منذ زمن طويل تزاول الطهي والحياطة والتجميل والولادة وتندب الموتى وتشيعهم بالبكاء والتعديد ، ولكنها لا تبلغ شأو الرجل في هذه الصناعات إذا وقعت المزاحمة بينهما في إحداها . فالطاهي يفوق الطاهية ، ومبدع الأزياء يفوق مبدعتها ، والطبيب المولد مقدم على الطبيبة المولدة ، وكل ما نظمته النساء من الرثاء لا يوازن قصيدة من الرثاء الجيد في شعر الرجال .

والمرأة تخالف الرجل ولا بد أن تخالفه على سنة الفطرة التي عمت الأحياء . فإن سنة الفطرة لا ترمي إلى توحيد العمل بل إلى توزيعه وتنويعه ، ولا تجعل جنسين ليشتركا في حقوق واحدة وواجبات واحدة ، بل تجعلهما جنسين ليختلفا في الحقوق كاختلافهما في الواجبات .

هذه هي الحقيقة الماثلة بين أعيننا ، وعلى أساسها ينبغي أن تنبني المذاهب والآراء .

أما الذين يضعون المذاهب والآراء ثم يقسرون الحقيقة على موافقتها فأولئك على باطل ، ولن تقوم للباطل قائمة في عالم الطبيعة .

ومن أمثلة المذاهب التي تقسر الحقيقة على موافقتها مذهب الشيوعيين في التسوية الكاملة بين الرجل والمرأة . فهم يريدون أن يهدموا الأسرة لأن الأسرة في زعمهم أصل الاستغلال وإن الاستغلال قائم على الاختلاف بين حقوق الرجل وحقوق المرأة ، ولهذا يجب أن يبطل هذا الاختلاف وأن تتقرر المساواة بين الرجال والنساء في جميع الأحوال وجميع الأعمال .

وهذا تسخير للحقيقة في سبيل الرأي ، وهو وحده كفيل بالقضاء على المذهب الشيوعي واقتساره عاجلا أو آجلا على موافقة الحقيقة التي يريد هو أن يقتسرها على هواه .

* * *

فليس الإنصاف إذن أن يتساوى الرجل والمرأة في جميع الحقوق والواجبات وهما مختلفان هذا الاختلاف الظاهر للعيان ، الماثل للعلم والحس منذ كان الإنسان ، بل قبل أن يكون الإنسان حيث يختلف الذكر والأنثى في عالم الحيوان .

ولكن الإنصاف الذي يجتمع فيه حكم الفطرة وحكم الآداب الإنسانية هو أن تأخذ من الحقوق كفاء ما عليها من الواجبات ، وأن تعطى حقوقها وتسأل عن واجباتها بالمعروف « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » ، لا بالإرهاق والإذلال . فهنالك تهذيب الإنسان إلى جانب حكم الفطرة. وهما خير مناط لإنصاف الشرائع والآداب .

* * *

وليس من الحيد عن سواء التفكير أن يستطرد الفكر هنا إلى سؤال لا بد أن يخطر على البال ، وهو السؤال عن تعدد الزوجات . أهو من الإنصاف ؟ أهو من الكرامة والمعروف ؟ أهو من سنة الفطرة وتهذيب الإنسان ؟

واعتقادنا نحن أن المثل الأعلى للزواج هو الزواج بين رجل وامرأة يتحابان ويمتزجان بالجسم والروح ولا يفترقان مدى الحياة .

ولكننا نعتقد مثل هذا الاعتقاد أن المثل الأعلى لم يخلق قط لتفرضه القوانين على جميع الناس .

إنما المثل الأعلى هو الحالة النادرة التي تتيسر كلما تيسر الكمال أو تيسرت مقاربة الكمال .

وليست هذه بالحالة التي تفرضها القوانين على كل رجل وكل امرأة من جميع مراتب التفكير والتهذيب .

فإنما تفرض القوانين ما يستطاع بين عامة الرجال وعامة النساء ، وما تسمح به أخلاق الزوجين وضرورات المعيشة التي لها عليهما سلطان مسموع كسلطان الأخلاق .

ولا حاجة إلى فرضها على الأمثلة النادرة بين صفوة الرجال وصفوة النساء ، لأن هذه الأمثلة النادرة في غنى عن تعليم القوانين .

والإسلام لم يقل إن تعدد الزوجات هو المثل الأعلى .

ولم يفرضه على كل مسلم ، ولم يحمده من كل مسلم ، ولم يخله من شرط عسير هو العدل في المعاملة وإن تعذر العدل في المحبة ، ولم يفعل إلا أنه وضع التشريع في موضعه الذي يحسب فيه حساب المثل النادر والمثل الشائع ، ولم تأت بعده شريعة حلت هذه المشكلة بغير الهرب منها أو المغالطة فيها ، كما هو الواقع الملموس في الأمم التي تحظر تعدد الزوجات ولا تحظر المعيشة مع الخليلات ، أو معاملة النساء كمعاملة العجماوات .

وفي المجتمع الإنساني حالة يكثر فيها عدد النساء ويقل عدد الرجال ، ولم تستطع الحضارة التي ينعون باسمها تعدد الزوجات أن تمنع تلك الحالة أو تبطل عواقبها . فلا نزال في كل جيل نشهد حرباً من الحروب العالمية التي تنجلي عن ثلاثين أو أربعين مليوناً من الفتيات أو الأرامل بغير قرناء .

وقل ما شئت في تعدد الزوجات فهو خير من التبذل الوبيل ، أو من

إعطاء المرأة محلاً في المصنع بديلاً من محلها في البيت والأسرة .

وقد ينطلق الهوس بالمساواة إلى أبعد من هذا المدى فيسأل سائل : وهل يجوز للمرأة تعديد الأزواج كما يجوز للرجل تعديد الزوجات ؟

وجواب ذلك أنه بحكم الفطرة لا يجوز .

لأن الرجل يستطيع أن يؤدي واجب الأبوة مع تعدد زوجاته ، ولا تستطيع المرأة أن تؤدي واجب الأمومة لأربعة أزواج أو لزوجين اثنين .

كذلك له هو من حق مراقبتها والسهر عليها أكثر من حقها هي في مراقبته والسهر عليه .

لأنها تستطيع أن تخدعه بولد ليس من لحمه ودمه ، أو تخدعه في أمس شعور به بعد شعوره بكيانه .

ولكنه هو لا يستطيع أن يخدعها بولد ليس من لحمها ودمها ، وأن يصيبها بمثل هذا المصاب الأليم الذي ليس آلم منه ولا افجع في نكبات النفوس .

وهنا محل عادل للدرجة التي للرجال على النساء ، كالعدل في محل تلك الدرجة عند التفرد بحق تعديد الزوجات وعند التفرد بحقوق تخالف حقوق النساء ، تبعاً للخلاف في التركيب والتكوين .

* * *

على أن البحث في حرية الزوجة والبحث في حرية المرأة مسألتان اثنتان لا مسألة واحدة .

لأن الآراء على تناقضها تلتقي في مسألة حرية الزوجة عند ملتقى واحد وهو تقييدها بحقوق الزوج كائناً ما كان الرأي في قداسة الزواج . فالذي لا ينكر الخيانة ينكر السرقة والاغتصاب ، والذي لا يؤمن بالعاطفة الخالصة يؤمن بشروط القسمة بين الشريكين . ومما لا جدال فيه أن الزواج شركة لها

شروطها ، وأهون ما يقال في تلك الشروط أنها كشروط الشركة في المال ، فلا يجوز للزوجة أن تختلس من حقوق شريكها ولا أن تسرق نصيبه المقسوم بينهما على السواء ، وهنا الملتقى بين القائلين بالوفاء والقائلين بالمحافظة على حصة الشريك .

وخلاصة ذلك كله أن حقوق المرأة لم تكن قط مسألة فرد ولا مسألة أمة أو مجتمع موقوت ، ولكنها كانت ولن تزال مسألة النوع الإنساني بأسره ، فلا مناص فيها من الضوابط التي تعبر عن مصلحة النوع وتتجاوز المصلحة العاجلة والغرض القريب .

ولهذا تصدق الأديان لأنها تنطق بلسان الفطرة السليمة ، وتكذب المذاهب التي تحسب أن ضوابط الجنس في المرأة والرجل من اعتساف الأديان ، لأن الإباحة التي تنادي بها هذه المذاهب تدل على جهل بالفطرة ، وهي تنادي نداءها باسم العلم والمعرفة الحديثة ، وهنا فلنحسب للقدم مزيته الأولى إذ هو قدم الفطرة الباقية ، وهي أسبق إلى المعرفة الصادقة من كل حديث .

بلال بن رباح

داعي السماء

ومؤذن الرسول



كلمة تصدير

« بين الحربين العالميتين شاعت الدعوة العنصرية فبلغت أقصى مداها ،
« وعملت فيها السياسة غاية عملها وأقحمها الدعاة في مباحث العلم والتاريخ
« في غير موضعها .

« وقد كانت للإسلام كلمة في انصاف العناصر والأجناس سابقة لكلمة
« الحضارة العصرية والعلم الحديث ، وكان في صحابة النبي عليه السلام رجل
« أسود هو بلال بن رباح مؤذنه الأول ، فكان أثيراً عنده وعند الخلفاء وجلة
« الصحابة والتابعين .

« فالكتابة عن بلال رضي الله عنه في هذا العصر تقع في سلسلة العبقريات
« والسير الإسلامية في موقعها وتصادف موعدها من الزمن في أعقاب الحرب
« العالمية القائمة .

« ولهذا كتبت هذه الصحائف في سيرة داعي السماء » .

عباس محمود العقاد

مسألة العنصر

مسألة العنصر — أو الجنس — مسألة اجتماعية كثيرة الورود على ألسنة المعاصرين وأقلامهم ، ولكنها على هذا من أقدم مسائل الاجتماع التي وجدت مع وجود القبائل الأولى .

وأكثر الباحثين في المسائل العنصرية من المختصين بها بين الغربيين يردون كلمة العنصر أو الجنس Race في لغتهم إلى أصل سامي يرجّحون أنه هو اللغة العربية ، ويعتقدون أنها مأخوذة من كلمة الرأس التي كانت تميز بين رؤوس السلالات الآدمية وغير الآدمية .

ولم يكن اختلاف القبائل وتفاخرها شراً كله في بداية أمره ، ولا كان مدعاة للنزاع دون غيره . فمن علماء الاجتماع من يرجع بالوشائج الاجتماعية كلها والآداب الإنسانية برمتها إلى الواشجة الأولى التي نشأت في مبدأ الأمر مع نشوء القبيلة الهمجية ، ثم كانت سبباً إلى التجاذب والتعارف بينها وبين القبائل الأخرى . ومصداق ذلك القرآن الكريم حيث جاء من سورة الحجرات : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ... »

فكانت الواجبات التي تفرضها القبيلة على أبنائها أساساً لجميع الواجبات التي تعلمها الإنسان بعد ذلك ، سواء فرضتها عليه القبيلة أو الأمة أو الجامعة العنصرية أو الإنسانية بأسرها .

وقد طبع الناس على التفاخر بما يخصهم ولا يعم غيرهم كائناً ما كان معدنه ومدار الفخر به . فشاعت بينهم المفاخرة بالأنساب والأصول كما شاعت بينهم المفاخرة بمعالم الأرض التي يسكنونها وصنوف المطاعم التي يأكلونها ، وتفاضلوا بالحقائق كما تفاضلوا بالأساطير والأوهام .

فمن قديم الزمن يفخر كل عنصر بعراقته وامتيازه على غيره ، ويزيده إمعاناً في عادة التفاخر والمباهاة أن تتاح له فرصة الغلبة والاستعلاء فترة من الزمن . فإن كانت الغلبة قائمة حاضرة فهي آية الفخر وحجة المباهاة ، وان كانت غابرة داثرة فهي عنده علامة على عراقة أصله وحداثة غيره ، وانه أحق من ذلك الغير بالفخر والمباهاة وان خدمته الحظوظ والمصادفات في حاضر أمره .

فلم تُعرف أمة قديمة قط خلت من مفاخرة بعنصرها واعتداد بنشأتها وبيئتها وبلادها ، والذي قال :

بلادي وان جارت عليّ عزيزة   وأهلي وان ضنُّوا عليّ كرام

قد جمع هذه الحقيقة من جميـــع وجوهها وهو يدري أو لا يدري . فليس من اللازم أن تكون البلاد أطيب البلاد ولا أن يكون الآلُ أكرم الناس ليفخر بهم الرجل الذي ينتمي إليهم وتحسب سمعتهم عليه وسمعته عليهم . فإنه ليعظّمهم ويبجّلهم فراراً من المهانة التي تصيبه إذا تقاصروا عن شأو العناصر الأخرى في التعظيم والتبجيل ... فهو فاخر بهم ان عظموا مساهمة منه في فخارهم ، وفاخر بهم إن هانوا دفعاً للهوان عنه إذا اعترف بهوانهم ، ولا حساب للبحث أو للرأي في الحالتين إلا بعد حساب العاطفة والشعور .

كان المصري القديم يؤمن بأنه هو الانسان الكامل ثم تتلاحق الشعوب بعده إلى أن يأتي أبناء اليونان في المرتبة السادسة .

وكان اليوناني القديم يؤمن بأنه هو الانسان المهذب ومن عداه برابرة لا يدركون مكانه من الفهم والحضارة .

وكان العربي القديم يؤمن بأنه هو الانسان المبين الكريم ومن عداه « أعاجم » لا يفقهون ما يقال ولا يدينون بدين المروءة والأحساب .

وكذلك كان أبناء فارس والهند والصين ، بل كذلك كانت كل قبيلة من تلك القبائل حين تنظر إلى نظائرها وان تلاقت جميعاً في أصل قريب من الأحساب والأنساب .

وبقيت هذه الشنشنة بين أمم الحضارة في العصر الحديث فاعتزّ بها الأوربيون على أبناء القارات الأخرى، ولكنهم لبثوا فيما بينهم يفاخر كل شعب منهم جاره بالعادات والأخلاق والمآثر وإن تقاربوا في السلالة واللغة والعقيدة . فليس أشد تفاخراً بين الأوربيين من الطليان والأسبان والفرنسيين وهم يرجعون بلغتهم إلى اللاتينية وبعقيدتهم إلى المسيحية الرومانية وبعناصرهم إلى مزيج متقارب من السلالات ، ولكنهم تعلموا — بوحي المصلحة المتفقة — أن يجمعوا فخرهم كله إلى فخر واحد يتقارب فيه الأوربيون كافة ، وهو « اللون الأبيض » أو الانتماء إلى القارة المجتباة بين القارات ، وجعلوا هذا اللون الأبيض رسالة يبشّر بها الأوربيون من عداهم من الشعوب الانسانية، وسموا تلك الرسالة « عبء الرجل الأبيض » أو أمانة الرجل الأبيض ، أو تبعته أمام الله لهداية خلقه الذين لم يبلغوا مبلغهم من العلم والارتقاء .

وصدق العالم الانجليزي الحديث جوليان هكسلي حين قال إن هؤلاء الدعاة مسبوقون إلى دعواهم قبل ميلاد السيد المسيح . فقد سبقهم « أشعيا » من أنبياء اسرائيل فقال في إصحاحه التاسع والأربعين : « اسمعي لي أيتها الجزائر واصغوا أيها الأمم من بعيد . الرب من البطن دعاني . من أحشاء أمي ذكر اسمي . وجعل فمي كسيف حاد . في ظل يده خبأني وجعلني سهماً مبرياً . في كنانته أخفاني . وقال لي أنت عبدي اسرائيل الذي أتمجّد . أما أنا فقلت عبثاً تعبت ، باطلاً وفارغاً أفنيت قدرتي . لكن حقي عند الرب وعملي عند إلهي .

« والآن قال الرب جابلي من البطن عبداً له لإرجاع يعقوب إليه فينضم اليه إسرائيل ، فأتمجد في عيني الرب وإلهي يصير قوتي . فقال : قليلٌ أن تكون لي عبداً لإقامة اسباط يعقوب ورد محفوظي اسرائيل . فقد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض . هكذا قال الرب فادي اسرائيل ... » .

فرسالة الرجل الأبيض التي تمخض عنها القرن التاسع عشر كله لم تذهب بأصحابها إلى أبعد من هذا المدى الذي سبقهم إليه بنو اسرائيل قبل ميلاد السيد المسيح بسبعة قرون .

* * *

وظلت المفاخر العنصرية كلها من قبيل هذه العادات الاجتماعية التي لا يرجع فيها إلى قياس منطقي ولا موازنة علمية ، فكانت أشبه شيء بمفاخرات الصبيان بعضهم لبعض بآبائهم وأمهاتهم وأخواتهم وجيرانهم وبيوتهم التي يسكنونها ومدنهم التي ينشأون فيها وكل شيء يتصل بهم وتنعقد فيه المقابلة بينهم وبين غيرهم . وفحوى مفاخر الأجناس من هذا القبيل أن كل جنس هو أفضل الأجناس لغير سبب . وليس هذا من القياس المنطقي ولا الموازنة العلمية في شيء .

ثم اتسع نطاق البحث العلمي في القرن التاسع عشر فأدخل الفوارق بين الشعوب في موضوعاته الكثيرة وجعل لها عِلماً خاصاً أو باباً خاصاً من أبواب المعرفة يسمى معرفة الأجناس البشرية .

وانتهى به البحث إلى وجود الفوارق الصحيحة بين خمسة من الأجناس التي ينتمي اليها شعوب البشر كافة ، وهي الجنس القفقاسي أو الأبيض ، والجنس الزنجي أو الأسود ، والجنس المغولي أو الأصفر ، والجنس الأسمر أو أهل الملايا ، والجنس الأحمر أو سكان القارة الأمريكية الأصلاء .

واختصر بعضهم هذا التقسيم إلى ثلاثة أقسام فجعل الأجناس الصفراء

والسمراء والحمراء فروعاً من أصل واحد ، وهو اختصار له سند معقول .

وقد عُني أصحاب هذه التقاسيم بالفروق التي تورث وتنتقل مع الأجيال ، أي بالفروق التي يسمونها فروقاً بيولوجية دون غيرها من الفروق الاجتماعية التي تكسب بالقدوة والمحاكاة .

وتناول العالم اللغوي الألماني ماكس موللر دراسة الأجناس من الناحية التي تعنيه وهي ناحية المقابلة بين اللغات ، فاستخدم كلمة اللغات الآرية وأحياها من جديد بعد أن سبقه إلى استخدامها السير وليام جونس في أواخر القرن الثامن عشر ، وقرر أن لهجات اللغة الهندية الفارسية نشأت من مهد واحد في أواسط آسيا التي كان الأقدمون يعرفونها باسم « أريانا » وأنها كانت في نشأتها الأولى لغة قبيل واحد من الأجناس البشرية ، وكلا القولين اليوم خطأ عند علماء هذه المباحث فيما أثبته جوليان هكسلي من كلامه عن الجنس في القارة الأوربية .

وأحس العالم الألماني الكبير أن دعوة الجنس الآري ستخرج من حيز التفكير العلمي إلى ميدان الصراع على الشهوات السياسية فحذر قراءه من الخطأ في تفسير كلامه وعاد إلى التحذير من ذلك في شيخوخته حيث قال : « لقد ناديت مرة بعد مرة أنني إذا ذكرت الآرية فلست أعني الدم ولا العظم ولا الشعر ولا الجمجمة ، وإنما أرمي إلى قصد واحد وهو أولئك الذين يتكلمون باللغة الآرية .. ومتى تكلمت عنهم فلست أتبع في ذلك الخصائص التشريحية ، ولا أعني أن أبناء السكنديناف ذوي العيون الزرق والشعر الأصفر قد كانوا قاهرين أو كانوا مقهورين ، ولا أنهم قد اتخذوا لغة السادة السمر الذين تغلبوا عليهم أو كان الأمر على نقيض ذلك . وعندي ان عالم الأجناس الذي يتكلم عن العنصر الآري والدم الآري والعيون الآرية والشعر الآري إنما هو في خطيئته العلمية كاللغوي الذي يتكلم عن معجم مستطيل الرأس أو أجرومية مستديرته على حد سواء » .

وكان القرن التاسع عشر قرن « مذهب النشوء » كما كان قرن المذاهب العلمية والفلسفية من شتى نواحيها ، فما زالت الأقوال في مذهب النشوء تتسع وتتشعب حتى عرض لبعض الباحثين فيه أن الأجناس البشرية تنتمي إلى أصول متفرقة لا إلى أصل واحد أو شجرة واحدة ، وان القردة العليا هي أجناس بشرية سفلى ، وأن المغولي والقرد المعروف بالاورانج نبتا من أصل واحد ، وان الزنجي والغوريلا والشمبانزي تنتمي إلى أصل آخر ، وكان رأس القائلين بهذا الرأي عالماً ألمانياً من علماء الأجناس هو الدكتور هرمان كلاتش Klaatsch أستاذ هـــذا العلم بجامعة برسلاو الالمانية . فأعلن في أوائل القرن العشرين رأيه هذا وأيده بما له من الشواهد والملاحظات التي كشفت عنها مقابلاته بين أنواع القردة وأنواع الانسان .

لكن القرن التاسع عشر لم يكن قرن المباحث العلمية ولا قرن النشوء والتطور دون غيرهما . بل كان كذلك قرن التوسع في الاستعمار وتسخير العلم لخدمة المطامع الاستعمارية والمنازعات السياسية .. فظهر من الكتّاب من يبشر بالجامعة اللونية أو العصبية الجنسية على أساس اللون والعنصر ، وقام في أوربا من يبشر بامتياز أجناس الشمال على سائر الاجناس البشرية ومن يرد الفضل في كل فتح من فتوح العلم والثقافة والحضارة إلى أصل الجنس الآري المزعوم في الشمال . وأشهر من اشتهر بهذه الدعوة « أرثر دي جوبينو » في فرنسا وهوستون شمبرلين الانجليزي المتجرمن في المانيا ، ولم تخل أمريكا من نصيبها من هؤلاء الدعاة وهي ميدان نزاع بين الاجناس البيضاء والحمراء والسوداء وميدان مفاخرة بين المهاجرين الاوربيين الذين يمتون بالنسب إلى أصول مختلفة . كالسكسون واللاتين وامم الشمال والجنوب . فكان لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard وماديسون جرانت Madison Grant على رأس المبشرين بهذه العقيدة في الولايات المتحـــدة . ولم تكن كراهة الاجناس الملونة هي الباعث الوحيد في نفوس هؤلاء إلى التبشير بمزايا الرجل الأبيض أو مزايا الجنس الآري خاصة من بين الشعوب البيضاء ،

وانما كانت كراهتهم للحكومة الحرة – أو حكومة المساواة بين الطبقات – باعثاً آخر إلى إنكار صفاء الشعوب التي سمحت بهذه الحكومة الحرة واتهامها بالنكسة والفساد من جراء امتزاجها بأجناس غير الجنس الآري أو الجنس الشمالي المجيد ، فكانت هذه النكسة مدرجة لها إلى النزول عن أوج السيادة والاذعان لشريعة المساواة .

ولا شك أن حروب نابليون بونابرت كانت لها يد قوية في تمكين هذه النزعة بين الامم الجرمانية خاصة ، لأنها كانت سلاحها الذي تدرأ العار به عن فخارها القومي في مجال الصراع بينها وبين اللاتين أو بين أمم الشمال وأمم الجنوب ، وقد كان نابليون قائد فرنسا اللاتينية في صراعها مع الجرمان منحدراً من جنوب الجنوب بالقياس إلى القارة الاوربية ، فكانت صيحة الفخار القومي التي تستثار بها الامم الجرمانية إلى الوحدة هي تعظيم مزايا الجنس الشمالي الذي ينتمون اليه ، واتفق ذلك في عصر البحث عن الاجناس وعصر النشوء والتطور وعصر السباق إلى الاستعمار وعصر الديمقراطية التي تخلف فيها الجرمان عن جيرانهم ، فكانت صيحة التفوق العنصري على أشدها بين الالمان ، وكادت عقيدة الجنس الآري أن تنحصر فيهم بعد مولدها في بلاد الانجليز على لسان واحد منهم وهو العلامة ماكس موللر الذي سبقت الاشارة اليه ، ومن ثم ندرت دعوة إلى التفوق العنصري لم تكن لها صلة بالثقافة الالمانية الحديثة من قريب أو بعيد .

* * *

وقد تعددت الأسباب التي ألهجت ساسة الالمان بعد الحرب العالمية الماضية (١٩١٤ – ١٩١٨) بمسألة العنصر ودعوى الآرية أو الأقوام الشمالية وما لها من الرجحان على خلائق الله كافة من اوربيين وغير اوربيين ، سواء في الزمن القديم أو في الزمن الحديث .

فقد احتاج الساسة الالمان إلى محاربة المذهب الشيوعي فوضعوا بأزائه

مذهب الاشتراكية « الوطنية » وهي تعتصم بالخصائص القومية في وجه الدعوة الدولية التي يبثها الشيوعيون، وفاقاً لعقيدتهم المعروفة ، وهي عقيدة الثورة على الاوطان والاديان .

ووافقتهم الخصائص القومية في حربهم للشيوعيين من وجه آخر غير المقابلة بين المذهبين ، وذاك هو المقابلة بين عنصر السلافيين وعنصر التيوتون الذي ينتمي اليه الألمان . فكانوا يقولون انهم هم حماة الحضارة الاوربية من زحوف البرابرة التي تهددها من قبل آسيا في الزمن الحديث .

واستغلوا دعوة العنصر الآري استغلالاً غير هذا وذاك في محاربة اليهود باسم الساميين .

واستغلوها مع هذا وذاك لاستنهاض نخوة الامم الجرمانية بعد هزيمتها المنكرة في ميادين القتال ، فنفخوا في أوداجها أنها أهل للظفر — وليست بأهل للهزيمة — لأنها خلقت للسيادة وتنزهت في سلالتها الآرية عن شوائب الاجناس ، وأدخلوا في روعها أنها كانت وشيكة أن تظفر بأعدائها لولا خيانة العمال من قبل الشيوعية ، وخيانة اليهود من قبل الشيوعية تارة ومن قبل أصحاب الأموال تارة أخرى .

فأصبحت دعوة العنصر هوساً جامحاً كهوس التعصب في كل عقيدة من العقائد الشعورية ، وبلغ من التهوس بالدم الآري المزعوم أنهم جعلوه فلسفة في الحكم وفلسفة في الاخلاق والفنون والآداب ، فكانوا يقولون إن الحكومة بنية حية تنبت من الدم القومي كما تنبت الجوارح في الأجسام ، وأن الزعيم تركيب داخل في تلك البنية بتقدير من طبيعة الكون أو طبيعة الخلاق العظيم ، وكان هتلر ينادي في كتابه « إننا معشر الآريين لا نعرف الحكومة إلا كبنية ذات حياة يتلبس بها الشعب من الشعوب ».. فهي شيء لا يدخل في الارادة ولا في التربية السياسية ولا في نظم التشريع والانتخاب .

وتطوح الغلو بدعاة هذه العنصرية حتى بلغوا بها — مع تلك البواعث

النفسية والسياسية – مبلغاً لم يسبقهم اليه سابق في عالم البحث ولا في عالم الخيال . فجعلوا أجناس البشر فصائل تتعاقب طبقة تحت طبقة حتى تلتقي بالقردة ولا يبعد ان تناسلها ، وجعلوا أنفسهم نخبة مختارة بين فصائل الآرية جمعاء ترتقي إلى الذروة العليا في ذلك الترتيب ، وعادوا إلى كل رجل من أصحاب القرائح الخلاقة بين عظماء الامم فألحقوه بالآريين على وجه من الوجوه ، وعادوا إلى كل اختراع من مبتكرات الصناعة وأدوات الحضارة فنسبوه إلى شعبة آرية مقيمة في موطنها أو مهاجرة إلى وطن من الاوطان ، فحصروا الخلق والسيادة في الآرية المزعومة دون غيرها وجعلوا العناصر الاخرى جميعاً عالة على الآريين ينتفعون بما يخلقون ويدينون لسيادتهم طائعين أو كارهين .

ولعل هذا الغلو من جانب دعاة العنصرية قد جنح بنقاد هذا المذهب إلى الغلو في إنكار خصائص الأقوام والاجناس ، وهم اذا غلوا في هذا الطرف كان لهم شفيع من الحجج والشكوك أدنى إلى الاقناع من شفيع العنصريين .

وإنما نعرض للبواعث التي امتزجت بالحقائق العلمية في مسألةالجنس والعنصر لأن الإلمام بهذه البواعث يعين على تجريد الحقائق العلمية من أخلاطها الغريبة ويرجع بها كرة أخرى إلى حيز الدراسة الفكرية والبحث المعقول .

ومن الواجب أن نصغي أولاً إلى دواعي التشكيك في تلك الدعوة الجازمة وهي كثيرة ، فإنها على التحقيق تدعو إلى الشك في دعوة العنصريين وتبطل اليقين بكل عقيدة من تلك العقائد التي خيل اليهم انهم يؤمنون بها ، لأنهم يشعرون بالحاجة إلى ذلك الإيمان .

فمن دواعي الشك في العنصرية الآرية أن العنصر الآري المزعوم لم يكن له وجود قط كأنه سلالة من السلالات الوراثية على النحو الذي تخيلوه ، وإنما كان جامعة لغوية يشترك فيها أقوام مختلفون لا يتأتى ردهم اليوم إلى سنخ واحد ، ولا يتشابهون في الخصائص العنصرية إلا كما يتشابه الأقوام الذين يتكلمون اليوم لغة واحدة على تباين المواطن والألوان .

قال العالم الانجليزي جوليان هكسلي في كلامه عن العنصر أو الجنس بالقارة الأوربية ، ان دعاة العنصرية يتكلمون عن الجرمان والآريين وأقوام الشمال « أو النورديين » كأنهم سلالة واحدة ، وهذا خلط لا مسوغ له من الحقائق . وإنما المقطوع به أن هناك نموذجاً بشرياً يعرف بالنموذج الشمالي موزعاً بين الأقطار الشمالية في أوربا من الجزر البريطانية إلى التخوم الروسية ، وان هذا النموذج وهو على أقرب ما يكون إلى النقاوة والصفاء في بعض الأقاليم السكندنافية لم ينسب إليه قط فتح من فتوح الحضارة أو كشف من كشوف العلم أو أداة من أدوات الاختراع التي اشتهرت في التاريخ ، وقد روجعت مخلفات العصر الحجري التي ترد إلى ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة في بريطانيا العظمى فاذا هي تمثل ثقافة من ثقافات البحر الأبيض المتوسط حملها ذووها إلى شبه الجزيرة الأيبيرية — التي نعرفها باسم الأندلس — ثم إلى فرنسا فالجزر البريطانية . ومن المحقق أن الخطوات الأولى التي خطاها الانسان إلى الحضارة حين تعلم الحرث والكتابة وبناء المنازل ونقل الأحمال على الدواليب قد تقدم بها في جوار البحر الأبيض حيث تقيم الأمم السمراء التي لم تنسب إلى السلالة النوردية ، ومن المحقق كذلك أن مشاهير الجرمان أمثال جيتي وبتهوفن وكانت كانوا مستديري الرؤوس ربعة في القوام ، وليس نابليون ولا شكسبير ولا آينشتين ولا غاليليو وعشرات من أمثالهم على الصفة التي يزعمونها للنورديين ، ومن طرائف المصادفات أن اللون الاشقر والقوام الطويل الرشيق لا يعرفان لزعيم من زعماء الدعوة النوردية أو الآرية المزعومة . فهتلر أسمر وجورنج سمين بادن وجوبلز قصير دميم وزعماء « الجنكر » من سكان المانيا الشرقية تختلط فيهم ملامح السلافيين والتيوتون، وهم أكبر الدعاة إلى السيادة الجرمانية على الامم قاطبة .

ويتفق علماء الاجناس ووصف الانسان على توزع السلالات في العنصر الواحد كما يتفقون على ندرة النقاوة المحض في عنصر أو سلالة . فالجنس الابيض في القارة الاوربية وما جاورها ينضوي إلى عنوان واحد ولكنه

ينقسم إلى السلالات النوردية والالبية وسلالة البحر الابيض المتوسط ، وهذه السلالة الأخيرة تنضوي إلى عنوان واحد ولكنها تنقسم إلى ليبيين وايبيريين وليجوريين نسبة إلى اسم جبال الالب ما بين البحر وسافونا السفلى ، وقد يضاف إليهم البيلاسجيون Belasgian الذين ينعزلون وحدهم في بحر «إيجه» على مقربة من اليونان .

والجنس الأسود ، على كونه من العناصر المتميزة بين أجناس البشر ، يختلف في بعض الصفات وان تماثل في اللون أو تقارب فيه . فقد عرفت القبائل السوداء في استراليا ولكنها تخالف القبائل الافريقية في الخصائص الوراثية ، بل يقع الخلاف في بعض الملامح والاخلاق بين السود المتجاورين من أبناء القارة الأفريقية ، أو أبناء الأقليم الواحد منها . فالبوشمان والهوتنتوت كلاهما من سود أفريقية ولكن الاولين قصار وثابون مولعون بالصيد والقتال والآخرين طوال يرعون الماشية ويميلون إلى الاستقرار . ويجاورهم السود من أبناء قبائل البانتو الذين يعمرون السودان الجنوبي وبعض أقاليم الصحراء إلى الشواطىء الغربية ، وهم جماعات شتى بين رعاة رحل مقاتلين وزراع مقيمين موادعين ، وليست فوارقهم في اللغات بأقل من فوارقهم الكثيرة في الملامح والسمات والعادات .

* * *

وبعض هذه الشواهد المتواترة يقرر لنا أن السلالات البشرية لا تبقى على وحدتها وانفرادها مع تعاقب الأجيال واختلاف مطارح الهجرة والانتقال ، ولكنها تتوزع وتتفرع وينتشر التوزيع والتفريع في خصائصها ومزاياها . وليس أدعى من ذلك إلى التشكيك في مزاعم العنصريين الذين يحصرون مزايا البشر العليا جميعاً في سلالة واحدة تنفرد بها وحدها بين سائر السلالات .

ومن دواعي الشك القوية في مزاعم العنصريين أن كثيراً من المزايا التي يصفون بها سلالة من السلالات يسهل الرجوع بها إلى عواملها المحلية أو

الاجتماعية التي لا تحسب من العوامل الوراثية الحيوية ، ونعني بها ما يعرف بالعوامل البيولوجية .

فقد زعموا – مثلاً – للسلالات الأوربية انها انفردت بحب المعرفة النظرية وملكة البحث عن حقائق الأشياء و « التفلسف » المجرد الذي لا يرمي إلى المنفعة القريبة سواء منها ما ينتفع به الأفراد أو ما تنتفع به الجماعات . وقالوا ان الشعوب الشرقية لا تحب المعرفة هذا الحب ولا تتجرد للمباحث الفلسفية هذا التجرد ، ولكنها تعنى بالعلم لتطبيقه في الصناعات ومرافق العيش ومطالب الحياة العملية ، ودليلهم على ما يزعمون ذلك الفارق الظاهر بين ثقافة اليونان وثقافة المصريين .

وحقيقة الأمر أن البحث عن أسرار الغيب وقوانين الوجود يدخل في سلطان الكهانات القوية وأن هذه الكهانات القوية ترسخ وتتوطد وتبسط يديها على العقول إلى جانب الدول العظيمة التي لا بد من قيامها في أودية الأنهار الكبيرة . فحيثما وجد نهر كبير في صقع من الاصقاع لم يكن هنالك بد من قيام دولة عظيمة على شطيه تسوس الري والزرع وتصون الامن وتضمن سلامة المعاملات ، ومتى قامت هذه الدولة العظيمة لم يكن لها بد من الاعتماد على دعائم الدين وسلطان الكهانة والتفرد بحق البحث في العقائد والسيطرة على عالم الروح والضمير ، وكثيراً ما تجتمع الوظيفتان في شخص واحد كما اتفق لبعض الملوك الأرباب أو « انصاف الارباب » في التاريخ القديم . فاذا أصبحت المباحث الغيبية والمعارف التي تتناول أصول الوجود حقاً للكهانة تحميه الدولة فليس من المعقول أن تتسع الحرية للناس يثبتون فيها وينكرون كما تتسع لهم في غيبة الكهانة القوية والدولة العريقة ، ولا مناص من اختلاف مقاصد التفكير جيلاً بعد جيل بين الأمتين حتى يلوح للنظر العاجل في النهاية أنه اختلاف بين طبيعتين أو معدنين من معادن الخليقة الانسانية .

وقد كانت أمم الشرق القديم دولاً لها كهانات قائمة قبل أن تظهر

الفلسفة اليونانية بألوف السنين . فامتد تفكير اليونان إلى محاريب الفلسفة التي كانت حرماً منيعاً في ظل الكهانات الشرقية لا يتخطاه عامة الناس ، وظهر الفارق من أجل ذلك بين ثقافة اليونان وثقافة الشرقيين ، ولو انعكس الامر بين أرض اليونان وأودية النيل ودجلة والفرات لانعكست الآية بلا مراء .

ومما يؤيد هذه الحقائق أن الكهانة القوية صنعت في أوربا حين توطدت فيها مثل ما صنعته الكهانات في الشرق القديم . فلما امتد سلطان الكنيسة البابوية على الامم الاوربية ضُرب الحجر على العقول فأحجم الناس دهراً طويلاً عن البحث المجرد والتفكير في حقائق الوجود ، وبلغت الكهانة الأوربية على حداثتها ما بلغته كهانات الشرق بعد أحقاب وأحقاب تتوالى من بداية عهد التاريخ .

كذلك زعم بعض النقاد العسكريين من أهل أوربا أن الاوربيين يمتازون على الاسيويين والافريقيين في معدن الشجاعة والبطولة الحربية ، واستدلوا على ذلك بانتصار اليونان مع قلتهم على الفرس مع كثرتهم في معركة ماراتون ومعركة سلاميس .

فالواقع الذي أسفرت عنه دراسات الثقات من النقاد العسكريين المحدثين أن الفخار الوطني قد لعب لعبته المعروفة بأخبار المعركتين فبالغ فيها جد المبالغة وأضفى عليها ثوباً من الحماسة الخيالية خرج بها من حيز التاريخ الصميم إلى حيز الملاحم الهومرية .

فلم يدر في خلد « دارا » يوماً من الأيام أن يستولي على أرض اليونان لأنها أرض جرداء لا تنفعه للزراعة ولا للتجارة ولا يخشى منها الخطر العسكري على دولته المترامية الأطراف . وإنما عناه أن يؤدب ارتريا وأثينا لأنهما تجرأتا على معاونة اليونان الثائرين عليه في آسيا الصغرى . واغتنم لذلك فرصة الشقاق بين المستبدين وأنصار الحرية في أثينا أو قيل إنه تلقى من زعماء الشعب المتمرد وعداً بالانضواء إليه وخذلان أولئك المستبدين . فأخمد الثورة في آسيا الصغرى

ثم زحف على « ارتريا » فعصف بها وأرسل أهلها أسارى وسبايا إلى شطوط الخليج الفارسي يسامون فيها سوم الأرقاء ثم تقدم إلى أثينا وفي حسابه أنها منقسمة على نفسها مسرعة إليه بالتسليم ولو من بعض طوائفها وزعمائها ، فلما وقع ما لم يكن في حسبان الفرس ولا اليونان واتفقت كلمة الأثينيين على الدفاع عن بلادهم لم يشأ أن يطيل الحصار لأنه لم يقصد إلى إسقاط المدينة ولم يجد في الأمر ما يستحق المطاولة والعناء .

أما معركة سلاميس فقد كانت المصادفة فيها أغلب من التدبير ، شغل الفرس بعد معركة ماراتون بالثورة المصرية ثم خرج زركسيس لقتال اليونان في جيش ضخم مختلط الأجناس لكنه دون الضخامة التي صورها اليونان بكثير ، وكانت ضخامته واختلاطه عائقاً له ولم تكن من مزاياه ومرجحاته ، لأن قيادة جيش كبير من قبيل واحد أيسر جداً من قيادة نصف هذا الجيش وهو مختلط الأجناس متعدد الأهواء ، ولأن الجيش كان مرتبطاً بمعونة الاسطول الذي يلازم الشاطىء ويحمل له المعونة والعتاد ويتكفل بنقله في المجازات البحرية ، فأصبح الجيش والاسطول معاً مقيدين بطريق واحد لا يعدوانه ولا يغيب علمه عن اليونان ، ولما التقى الأسطولان في سلاميس كانت كثرة السفن الفارسية عائقاً للأسطول أيضاً ولم تكن من مزاياه ومرجحاته . لأن المكان أضيق من أن يتسع لمناورات الاسطول كله ، ولان زركسيس لم يتقدم إليه إلا لعلمه باختلاف قواد اليونان في إدارة المعركة البحرية ، وكان الواقع أنهم مختلفون وأن بعضهم أعلن في مجلس الحرب نيّة التّراجع بمعظم السفن من سلاميس .

فلما نشبت المعركة قبل أن يتم هذا التراجع كانت الكفة الراجحة إلى جانب اليونان ، وأصبح تموين الجيش الفارسي ضرباً من المحال بعد ضياع السفن التي مني بخسارتها في المعركة ، فعدل زركسيس عن المطاولة في المعركة البحرية وان كان قد ظفر بالاثينيين في المواقع البرية .

ولا شك أن الذي أصاب الفرس في هذه المعارك قد كان يصيب اليونان

لا محالة لو أنهم كانوا في موضعهم وكانوا ينقلون الجيش مثل نقلهم وهو في اختلاطه وتعدد أهوائه .

فليست المسألة كلها مسألة اختلاف في معدن القوم أو مناقب السلالة، ولكنها اختلاف في الأحوال والملابسات ، وخليق بالذين ينسون آفة الاختلاط في الجيوش ويحسبون مغبتها على الفرس أو الشرقيين دون غيرهم ان يذكروا أن الصليبيين على وفرة جموعهم وانتمائهم جميعاً إلى العنصر الأوربي قد أصابتهم الهزيمة على أيدي الشرقيين وهم دولة واحدة تقل عنهم في العدد والعتاد ، ولم تعوز الصليبيين في تلك المواقع حرارة العقيدة وشدة المراس .

ومع هذا ألا يقول دعاة البدعة الآرية أن الفرس قديماً من سلالة الآريين وأنهم أقرب إلى أمم الشمال من يونان الجنوب ؟

إن العالم النمسوي فريدريك هرتز يذكر أن اختلاط الزنوج بأهل اوربا في الزمن القديم ، ومن المفيد في هذا الصدد أن ننقل هنا ما أوردناه في كلامنا على مفاخر الأجناس بالجزء الثاني من « ساعات بين الكتب » ... وهذا بعض ما جاء فيه :

« . . للزنوج أثر في أوربا تدل عليه الجماجم التي وجدت في ألمانيا وبلجيكا وفرنسا وكرواتيا ومورافيا ، ووجد ما يشابهها منذ ثمان سنوات في أفريقيا الجنوبية . وقد بقي أثر للاقزام السود في جبال الألب إلى عهد بليني الذي تكلم عن هؤلاء الأقزام وعززت كلامه القصص والاساطير .

ويزعم شمبرلين أن عرفان حقوق الحياة هو مزية الآريين التي لا يعرفها الساميون في الشرق لاستغراقهم في المادة وتقديمهم المال والحطام على الأذهان والأرواح . فيجيبه الأستاذ هرتز بجواب مفحم هو المقابلة البسيطة بين شريعة الرومان وشريعة حمورابي في محاسبة المدينين . فاللوح الثالث من ألواح القانون الروماني يبيح للدائنين أن يقطعوا لحم المدين ويقتسموه بينهم وأن يقتلوه قتلاً في مدى سبعة وعشرين يوماً من يوم القبض عليه وتكبيله في

الحديد والحبال ، وأما شريعة حمورابي فهي تقضي بأن يخدم المدين دائنه ثلاث سنوات ، والقانون يحميه في خلال هذه الخدمة من سوء المعاملة والإرهاق. زد على هذا ان الفرق واضح بين الشريعتين في أمور أخرى : منها ان السارق المضطر معذور في شريعة حمورابي ، وهو غير معذور بحال من الأحوال في شريعة الرومان ، وأن الأب الروماني يجوز له أن يبيع أولاده ، ولا يجوز ذلك للآباء عند البابليين ، وأن الزوج البابلي لا يجوز له أن يقتني السراري بغير اذن من زوجته وليس للزوجة مثل هذا الحق عند الرومان ، وأن المدين يحق له أن يطلب الحط من دينه إذا نقصت غلة أرضه وليس في الشريعة الرومانية شيء من هذا القبيل . وهكذا من شواهد الرحمة وتقديم الحياة على الحطام في شريعة حمورابي ثم من شواهد القسوة وتقديم الحطام على الحياة في شريعة الرومان .

ويرفع شمبرلين اليونان إلى السماء ويقول إن علومهم وفلسفتهم وفنونهم مرجعها إلى طبيعتهم الآرية التي يمتازون بها على الآسيويين والساميين . فيقول له هرتز إن أرسطو في زمانه كان يطري مواهب الأسيويين في الفنون ويحكم على أمم الشمال بالعقم الذي لا علاج له في المعارف الفنية والسياسية لعلة الجو التي لا تبديل لها على تعاقب الازمان ، ويقول هرتز أيضاً إن ثوسيديد المؤرخ اليوناني ، ذكر أن اليونان كلها كانت في قبضة البرابرة ، وذكر هيرودوت أنه كان يسمع في زمانه لغة البرابرة في بعض أنحاء وطنه ، وأن العلماء المحدثين — كرشمر وكيسلنج وفك — أقاموا الأدلة على أن سكان آسيا الصغرى وسكان اليونان كانوا جنساً واحداً من الآسيويين ، وأن أسماء بعض المواقع اليونانية لا ترد إلى مصادر من هذه اللغة لانها مشتقة من اللغة القديمة كما اشتقت منها أسماء الارباب فيما يقول هيرودوت . والاقوال متفقة على أن طاليس رأس الفلسفة اليونانية من أصل أسيوي سامي وأنه تعلم العلم في البلاد المصرية ، وكذلك تتفق الاقوال على أن زينون رأس الفلسفة الرواقية أسيوي الاصل والنشأة ، بل يقول فيرث : إن هومر نفسه

اسم سامي أسيوي محرف من « زومر » المغني أو الزامر ، وغير ذلك كثير من الأقوال عن الفلاسفة الآخرين .

ولا يريد هرتز أن يقف في الإنصاف عند شعب من الشعوب ولا جنس من الأجناس . لأنه يرى ان الفواصل بين أي شعبين في العالم ليست من البعد والحيلولة بحيث تستعصي على التقارب مع تشابه الأحوال ومؤاتاة الأيام . فهنيبال الزنجي الذي اقتناه بطرس الأكبر ارتقى بذكائه واجتهاده إلى رتبة مهندس في المدفعية وبنى بسيدة من الاشراف ، وكان حفيدهما بوشكين أكبر شعراء الروس وأحد كبار الشعراء في الدنيا ، وسليمان وهو زنجي آخر كان في البلاط النمسوي في القرن الثامن عشر بنى بسيدة شريفة واقترنت بنته بسيد من الأشراف ، وتزوج تاجر من هامبورج بنت سلطان زنجبار فبلغت بأدبها ورجاحة لبها مكانة تغبط عليها في البلاط الالماني وأصبحت صديقة حميمة للامبراطورة فردريك وكتبت لها ترجمة حياتها التي عنوانها « من قصة أميرة عربية » . وقد كان الدم الزنجي يجري في عروق دوماس الكبير ودوماس الصغير كما هو معروف .

يقول هرتز : « لا ترى احداً يزعم أن هناك فجوة لا تعبر بين الحمص الأحمر والحمص الأزرق أو بين الحصان الابيض والحصان الاسمر . أما في بني الانسان فالفرق اليسير — بالغاً ما بلغ من التفاهة — كاف لأن ينشيء من الاوهام الجنسية والعصبيات الشعبية أسخفها وأنآها عن الحقيقة . وما الفرق هنا مع هذا إلا اختلاف في الدرجة لا في الجوهر . فقد يرينا المجهر أن الفروق الكثيرة بين ألوان بني الانسان إنما هي فروق في درجات التجمع والتوزع في مادة صبغة واحدة متماثلة في الجميع » .

كلام إذا رجعنا به إلى الاسانيد والبينات فهو أقوى سنداً وأثبت بينة من كلام المغرقين في تمجيد الاوربيين وتفضيلهم على جميع الشعوب ، وإذا رجعنا به إلى الهوى فهو أقرب إلى هوانا وأولى باصغائنا من كلام أولئك المغرقين .

فلا وقائع التاريخ ولا مباحث العلم ولا مشاهدات العيان تؤيد دعوى العنصريين الذين يستخلصون من النوع البشري كله نخبةً واحدة ويفردونها بأفضل المزايا وأشرف الاخلاق بين السلالات الانسانية .

ولكننا نتجاوز الحد المأمون اذا تجاوزنا هذه الحقيقة الى ما وراءها ، فكل ما هو محقق في صدد المفاخر العنصرية أن العلم لا يؤيد الامتياز المطلق الذي يدعيه العنصريون لبعض السلالات ، ولكنه لا ينفي وجود الاختلاف بين العناصر ، ولا توارث الخصائص الجسدية وما يتعلق بها من الخصال النفسية . فهذه الفروق موجودة يزداد ظهورها في بعض الافراد وينقص في آخرين ولكنها لا تبطل ولا يتأتى لنا أن نتجاهلها ونتجاوز عنها إلا اذا تجاوزنا العيان وأغضينا عن المحسوس الماثل لجميع الاذهان .

وقد يوجد من العنصرين المختلفين شخصان يتشابهان وتصعب التفرقة بينهما على الباحث المحقق فضلاً عن الناظر في عرض الطريق . ولكن التشابه حيناً لا يمنع الاختلاف في جميع الاحيان ، ولو ذهبنا نبطل المخالفة بين الانواع كلما وُجدت المشابهة بينها لأمكن إنكار الفارق بين الانسان والحيوان على هذا القياس ، فاذا قيل ان الحيوان يمشي على أربع أمكن ان يقال كذلك ان بعض الانسان يمشي على أربع ، وإذا قيل إن الحيوان أعجم أمكن ان يقال كذلك إن بعض الانسان أبكم وإن بعض الطير ينطق كما ينطق الانسان ، وإذا قيل إن الحيوان مسلوب العقل والتفكير أمكن أن يشار إلى افراد من الناس لا يعقلون ولا يفكرون ، واذا قيل إن الانسان والحيوان لا يتناسلان أمكن ان يقال إن الكلب حيوان والهر حيوان وهما لا يتناسلان .

فوجود المشابهة في بعض الأفراد لا ينفي المخالفة في عامة الأفراد .. وقد يتعذر تعريف الفارق الحاسم بلغة العلم المقرر ولكنه مع ذلك يبقى فارقاً حاسماً إلى ان يوجد التعريف .

والحدُّ المأمون الذي لا نريد ان نتجاوزه في هذا الصدد هو ما أسلفناه

من أن الدعوى التي تفرد بعض العناصر بأفضل المزايا وأشرف الأخلاق هي دعوى يعوزها الدليل القاطع من وقائع التاريخ ومباحث العلم ومشاهدات العيان . أما الاختلاف بين خصائص الأجناس فهو موجود لا شك فيه وإن تفاوتت درجات ظهوره في بعض الافراد .

فمن المشاهدات – ومن البديهات معاً – أن العزلة في النسب وفي التعرض للمناخ والبيئة وأحوال المعيشة وعادات الاجتماع تعقب العزلة في الصفات الجسدية والخلائق النفسية على السواء .

ومن المشاهدات – ومن البديهات معاً – أن الشعب الذي يقضي عشرة آلاف سنة ولاءً في مكافحة العوارض الجوية والاحتيال على موانع الطبيعة والتأهب للمفاجآت من جيرانه ومن طوارق الأرض والماء والسماء لا يشبه شعباً قضى مثل تلك الدهور في الدعة أو في التعويل على المصادفات وهو معفى من الحيلة والجهد في صراع الحياة .

وقد أظهر العلم الحديث أن التوارث في الخلق والخلق منوط بالناسلات Genes التي توجد في خلايا الذكور والإناث ، وان هذه الناسلات تتقارب في أفراد القبيل الواحد كما تتقارب في أفراد الأسرة الواحدة.ولكننا لا نعرف اليوم على وجه التحقيق كم من الزمن يكفي لتحويل العوارض التي تنشأ من البيئة والمعيشة إلى موروثات تستقر في تكوين الناسلات وتنتقل من الآباء إلى الأبناء ، ولا نعرف على وجه التحقيق هل ما يوجد الآن من اختلاف الناسلات وليد الاستمرار الطويل في عوارض البيئة والمعيشة أو هو وليد أصل آخر من أصول الاختلاف في التكوين .

والذي يلوح لنا من المشاهدة المحسوسة ، ونعتقد أن العلم وشيك أن يمثله في تجربة من التجارب المقررة – أن فراسة الوجه الانساني تدل على كثير ، وأن هذه الدلالة مرتبطة أوثق الارتباط بالأعصاب ثم بالعظام .

فأنت لا تخطىء تاريخ الأمة كلها إذا نظرت إلى وجوه أبنائها ، ولا

يفوتك أن تعلم ان هذا الوجه السهل الذي تغلب فيه ملامح اللحم والدم على ملامح الأعصاب والعظام هو وجه أناس مارسوا في ماضيهم قليلاً من الكفاح وقليلاً من التجارب وقليلاً من حوافز النفوس ، وان ذلك الوجه الحازم الذي يلفتك إلى متانة الأعصاب والعظام قبل ان يلفتك إلى بضاضة اللحم والدم هو وجه أناس ثابروا على الاعتزام والجلد ولم يستسلموا لسهولة العيش منذ زمن بعيد ، وليس في وسعنا أن نعلم اليوم كيف تورث هذه الملامح الحازمة في الوجوه ، فان اللحم لا ينقلها والدم قد يخزن الناسلات ولكنه لا يخزن القوى التي هي من قبيل الطاقة الكهربائية في الأحياء وغير الأحياء ، فأغلب الظن إذن أنها تنقل في مخازن الأعصاب ثم في مخازن العظام ، ولعلها تنحصر في الأعصاب على نحو لا يصعب على العلم — فيما نقدره — أن يهتدي اليه ، وقد يكون للأعصاب فيها اتصال كبير بالدماغ وسرعة الاستجابة بينه وبين مواطن الانتباه والتنبيه .

ومهما يقل العلم غداً في هذه المسألة فالذي نجزم به منذ الساعة أن وجوه الأمم التي قضت ألوف السنين في الجلد والاعتزام تخالف وجوه الأمم التي تيسرت لها المعيشة طوال تلك السنين ،وان الاستدلال بملامح الوجوه طبيعة في جميع الأحياء ، لأن الحيوان ينظر أول ما ينظر إلى وجه الحيوان الذي يقابله ليعلم هل يسالمه او يناجزه ويتحداه ، وان كانت الوجوه لا تبدي كل ما في النفوس والعقول فهي كذلك لا تخفي كل ما في النفوس والعقول .

وحسبنا الآن ان العلم يثبت كما تثبت المشاهدة أن خصائص الأجناس تورث إلى زمن بعيد ولا سيما حين ينحصر التزاوج في أبناء القبيلة الواحدة أو الوطن الواحد ، وان بعض العادات الاجتماعية التي تنجم من تشابه المعيشة تثبت في الافراد بعد زوال أسبابها إلى حقبة طويلة ، وان الابناء ينقلونها عن الآباء بالقدوة والتلقين وان لم ينقلوها بالوراثة كما تنقل الخصائص التي تتمثل في الناسلات .

وليس بنا هنا أن نبسط القول في خصائص الاجناس جميعها ، لأن الجنس الأسود هو الذي يعنينا منها في هذا الكتاب ، وهو من الاجناس التي يسهل تمييزها بالخصائص الموروثة وعادات القدوة والمعيشة ، والاختلاف في وصفه أقل من الاختلاف في وصف غيره من الأجناس البشرية الخمسة أو الثلاثة على قول بعض المتأخرين .

ونحن ننقل هنا شذرات من أوصافه في كتب علم الأجناس وعلم الانسان ونصحح بعضها ونضيف إليه ما نعلمه من خصائص هذا الجنس بالمعاشرة والاختبار .

قال الدكتور سايس Sayce صاحب كتاب أجناس العهد القديم :

« إن الزنجي مستطيل الوجه شديد بروز الفكين مع ضمور في الذقن ، أنفه أفطس واسع المنخرين ، وشفتاه غليظتان ، وأسنانه كبيرة جيدة ، وضرس العقل منها يظهر سريعاً ويذهب أخيراً ، وهو بسيط الجمجمة طويل الذراعين ، وربلات ساقه معيبة ، وقصبة رجله منبسطة مع انقباض في الابهام ، ومادة الصبغة السوداء في الزنجي كما أسلفنا تسري إلى عضلاته وقد تسري إلى دماغه ، وهو بالقياس إلى الأدمغة الأخرى بسيط التلافيف . وميله إلى الفنون قليل ما عدا الموسيقى فهو مغرم بها أشد الغرام ، ومن عاداته أن يتأثر بالشعور دون التفكير . ويقال إن أبناء الزنوج قلما يتقدمون بعد الرابعة عشرة ، ويغلب عليه الكسل والايمان بالخرافة ومن طبعه العطف والوفاء . وهما خصلتان ترغبان من قديم الزمن في اقتنائه واستخدامه فمنذ عصور الفراعنة في الأسرة الأولى كانوا يبعثون الحملات إلى بلاد كوش لاستجلاب العبيد منها ، وكان عدد الزنوج المجلوبين كبيراً على الأغلب في جميع الازمان . ولعل عبد ملك الذي أنقذ حياة النبي أرميا كما جاء في الاصحاح الثاني والثلاثين كان من الزنوج وكذلك الكوشي جد اليهودي الذي جاء ذكره في الاصحاح السادس والثلاثين إذ يقول : (فأرسل كل الرؤساء

إلى باروخ يهودي ابن نثنيا بن شلميا بن كوشي قائلين : الدرج الذي قرأت فيه في آذان الشعب خذه بيدك وتعال) .

« ومع قدم الاتصال بالحضارة المصرية تلك القرون الطوال لم يتعلم الزنجي منها على الارجح غير صهر الحديد ، فجاء عصر الحديد معقباً لعصر الحجر توا في تاريخ بعض القبائل بغير توسط من عصر الشبه أو النحاس .

« والزنجي مقلد شديد الميل إلى التقليد . ولهذا يلفت النظر أنه لم يظهر قط رغبته في الرسم خلافاً للمصري المثقف ، بل خلافاً لابناء قبائل البوشمان المقيمين بأقصى الجنوب في القارة الافريقية ، فان رسوم الحيوان على الجدران التي تحتمي بها قبائل البوشمان حية ملهمة ومنها ما ليس يخجل الفنان الأوربي إذا نسب إليه ، وهي على الجملة تفضي بنا إلى سؤال عن قدم الجنس الزنجي في التاريخ .

« ففي جنوب مصر تشاهد الصخور الرملية التي تغطيها رسوم الحيوان والانسان ، ومنها الحديث الذي لا شك في حداثته والقديم الذي لا شك كذلك في قدمه ، ويرى على الصخر الواحد شيء من تلك الرسوم ونقوش ترجع إلى الأسرة الخامسة ، فأما النقوش الأخيرة فيبدو عليها تغيير قليل من أثر العوارض الجوية حتى ليخيل إلى الناظر اليها أنها عمل أمس القريب ،وأما الرسوم الأولى فيبدو مما أصابها من أثر العوارض الجوية أنها قد مضى عليها ردح طويل من الزمان ، ويرى — عدا هذا — بين الرسوم رسم الزرافة كثير التكرار ، فإذا لاحظنا أن ذلك الأقليم كان أرضاً قاحلة من بداية التاريخ المصري دل حضور الزرافة في رسومها على عهد بعيد القدم كانت فيه تلك الأرض بطاحاً مروية بالماء تغطيها أشجار الحسك التي يرعاها الزراف . وينتشر رسم النعامة في تلك الرسوم كما ينتشر رسم الزرافة مع اختفاء رسم النعامة من المقاطع الهيروغليفية التي تتمثل فيها الطيور المصرية على وفرة ملحوظة ، وخليق بهذا أن يدلنا على أن النعامة لم تكن معروفة عند مخترعي

الكتابة المصرية الأولى ، وأن سير فلا ندرس بتري على حق حين يستخلص من هذا ان الرسوم التي ذكرناها هي بقايا متخلفة مما قبل التاريخ لأسلاف المصريين في وادي النيل ، وتؤيد رأيه كشوف السائحين في جهات أخرى من افريقية الشمالية حيث تشاهد أمثال تلك الرسوم في جنوب تونس ومراكش ، وقد استطيع الاهتداء إلى تاريخها التقريبي من حالة واحدة أمكن العثور عليها ، فان الدكتور بونيه Bonnet وجد في وهران ان الأداة الحجرية التي كانت تنقش بها تلك الرسوم ملقاة تحت بعض الصخور التي عليها الرسوم ووجد على مسافة غير بعيدة منها المصنع النيولوتي الذي تصنع فيه تلك الآلات ، ومن ذلك يفهم أن الرسوم ترجع إلى العهد السابق لاستبدال الآلات المعدنيـــة بالآلات الحجرية ، وهو عهد في مصر جد بعيد .

« فمن المحتمل اذن على ما يظهر أنه في العهد الذي كانت فيه الصحراء الكبرى مخصبة وكانت دال مصر ذراعاً من البحر الملح كان جيل من الناس قريب إلى جيل البوشمان ينزل في أفريقية الشمالية بين السواحل الأطاسية وشواطىء نهر النيل ، ولعل قبائل الأكاسيين وغيرها من قبائل الأقزام المستديرة الرؤوس في أواسط أفريقية بقية ذلك الجيل القديم ، وقد أجلتهم عن مواطنهم غارات الزنج ولم تزل بهم غارات قبائل البانتو أو الكافرين حتى ألجأتهم إلى جنوب القارة الافريقية ، وقد كانوا جسدياً دون أعدائهم في القوة وإن لم يكونوا دونهم في المزايا الأدبية ، وكانوا على كل ذوي ملكة فنية تعوز الزنج والكافرين على السواء وهي ملكة الرسم ، إذ لم يكن في وسع الزنجي أن يرسم أو يتمم رسوم الصخور في بلاد البوشمان ولا رسوم الصخور في أفريقية الشمالية .

وقد كانت الجبال التي تحد الصحراء من الشمال مسكن قبائل من اللوبيين منذ عهد سحيق في القدم ، وقد وصفنا هذا الجيل آنفاً وبينا أنه ينتمي إلى سلالة مميزة بين سلالات الجنس الأبيض ، وربما شاهدنا اليوم في قرى انجلترة وايرلندة فروعاً من تلك القبائل على حسب الملامح الظاهرة ،

والنموذج العتيق الذي تبديه لنا تلك القبائل تؤكده لنا الآثار المصرية كما تجلوه الملامح البيضاء التي بقيت اه إلى الآن ... » .

*

وكلام الدكتور سايس هذا في أوصاف الجنس الزنجي وتاريخه العريق قليل الخطأ كثير الصواب ، أو هو من أصح ما كتب في هذا الموضوع ، ويزاد عليه من كتب الأجناس الحديثة أو كتب علم الانسان أوصاف أخرى يعد بعضها من قبيل التصحيح وبعضها من قبيل التكملة ، نأتي عليها بإيجاز .

فاللون الاسود في الاجناس السوداء لا يتعمق إلى ما وراء البشرة الظاهرة ثم تتساوى ألوان الجسم الانساني في جميع الاجناس، وانما يأتي السواد من صبغة في الغشاء الذي يلي البشرة الظاهرة ، ولا يسري على ما وراءه إلا عرضاً في قليل من الافراد .

وقد نفهم دلالة الضيق والسعة في تركيب الجمجمة اذا فهمنا أن جمجمة الجنس الابيض بين الاوربيين ليست أوسع الجماجم الانسانية ولا أوسع من جماجم غيرهم من الامم التي لا تجاريهم في الحضارة ، فاذا حسبنا قطر الدماغ من الامام إلى الخلف مائة فنسبة العرض إليه في الزنجي سبعون وفي الاوربي ثمانون وفي الساموي من أبناء الجزر المعروفة غرب المحيط الهادىء خمسة وثمانون .

والزنجي طويل الذراعين تصل ذراعه إلى الركبة في بعض الاحيان ، وشعره الصوفي المعروف هو أوضح العلامات المميزة له بين جميع الاجناس .

أما مزاياه الثقافية فيجب أن نتذكر حين نقابل بين تخلفه وتقدم الأجناس الأخرى أنه قد بلغ من الثقافة كل ما يحتاج إليه ، وان العبرة بالمجهود العقلي الذي يتطلبه فهم أمر من الأمور لا بالطبقة الثقافية التي تحسب لذلك الأمر في سلم الثقافة العامة . فالمعادلات الرياضية العليا أرقى في سلم المعرفة من الجمع

والطرح في الحساب ، ولكن المعادلة الرياضية العليا لا تتطلب من ذهن المهندس المتعلم جهداً أكبر من جهد الرجل الزنجي حين يفهم أن خمسة في خمسة تساوي خمسة وعشرين ، ولا سيما اذا كانت نهاية العدد عنده هي مجموع أصابع اليدين والرجلين ، أي عشرين .

وقد عرف أن الزنجي في قبائل « الوي » التي تقيم عند « سيراليون » قد اخترع نوعاً من الكتابة يوائم حاجاته ولا يرجع إلى أساليب الكتابة الأخرى التي عرفت في بلدان الحضارة .

أما حظه من الفنون فليس بالحظ التمليل إذا نظرنا إلى حاجاته الطبيعية ودواعيه الضرورية إلى المعيشة الاجتماعية ولعل « هافلوك إيليس » حين قال : « إنه قد سلك سبيله إلى الحضارة راقصاً » قد لخص ملكاته الفنية أجمل تلخيص .

فالرقص لا يكون بغير نغمات ، والمرح المطبوع في الزنجي هو مبعث وحيه الذي ألهمه الرقص والغناء ، فهو عظيم الولع بالأغاني سريع الأذن إلى التقاطها حين يسمعها مرة أو مرات قليلة ، وينبغي ان نفرق بعض التفرقة بين ملكة الموسيقى وملكة الغناء والإيقاع ؛لأن الأصوات الموسيقية تبلغ من التراكب والتنوع مبلغاً يبعدها من الإيقاع الذي يصاحب حركات الأجسام في الرقص الفطري أو الرقص الحديث .

والزنجي يحب الغناء الراقص ويبرع فيه ، وقد عرف به حيث نزل من بلاد العالم في عصور التاريخ ، ومن هذا رقص النوبة الذي علمنا — في سيرة النبي عليه السلام — أنه دعا السيدة عائشة رضي الله عنها إلى التفرج به والنظر إليه ، وكان يعرف بالزفيف لسرعته وتوالي الحركة فيه .

ولما اشتغل الزنجي بالفنون الأخرى كصنع التماثيل كان الإيقاع رائده الأول في هذه الصناعة التي قد يظهر للوهلة الأولى أنها بعيدة عن الغناء . لأن النسب التوقيعية كانت تغلب في التماثيل الزنجية على مشاهدات الحياة ،

وكانت منذ وجدت تنقل الشبه فتحسن نقله ولكن على نمط واحد يقل التصرف فيه ، وهي لا تزال اليوم بحيث وجدت منذ آلاف السنين .

وشيوع التماثيل وصوغ المعادن ونسج الثياب الموشاة بالخطوط والأشكال مع ندرة الرسم في قبائل الزنج أمر لا غرابة فيه ، لأن تقليد الجسم في أبعاده الثلاثة أسهل من تقليده في بعد واحد ، وهو التقليد الذي يوجب التصرف لتمثيل العرض والطول والقرب والبعد حيث لا عرض هناك ولا اقتراب ولا ابتعاد .

ولتماثيلهم — مع غلبة الإيقاع عليها — سمة أخرى تعرف بها بين سائر التماثيل القديمة ، وهي سمة الخوف والتخويف ، وهي كذلك سمة لا غرابة فيها إذا نظرنا الى الأخطار التي تحدق بالزنجي بين الوحوش والحيات وآفات الأرض وصواعق السماء ، ونظرنا إلى الغرض الذي يتوخاه من صنع كثير من تماثيله ، وهو لبس الوجوه والأقنعة التي تخيف أعداءه في ميدان القتال .

ولم تزل فنون القتال عند الزنجي ضرباً من الفن الجميل لأنها تمزج بين الحركة الرياضية وبين الرقص والإيقاع والغناء ، وليس أشبه بمناظر الرياضة البدنية من منظر الزنجي وهو يقذف بالرمح ويوازن بين وضع يديه وكتفيه وبين وضع صدره وكشحه حين يقذف به فيقع حيث أراد ، كأنه قد ركزه في الهدف بيمناه .

والزنجي شجاع مقدام لا يهاب الموت ولا ينكص عن الألم ، وقد تلهبه السياط ويسيل الدم من أهابه الممزق وهو صابر لا يتلوى ولا يتأوه ، لأنه يحسب الفرار من الألم كالفرار من الموت جبناً لا يجمل بالرجال ، وقد عودته مجالدة الوحوش والأفاعي والمحاذرة الدائمة من المتربصين به أن يقسو عليها وأن تقسو عليه ، وان يحتمل القسوة على نفسه كذلك .. وفيه إلى جانب الصبر والشجاعة عناد شديد حين يخشى أن يتهم بالجبن إذا صدع بالأمر فراراً من العذاب .

وهو مصدق وفيّ يؤمن بالعقائد التي توارثها عن أسلافه وأكثرها من قبيل السحر وعبادة الأرواح الخفية ، وتقديس الرُّقَى والتعاويذ التي تعصمه من فعل تلك الأرواح .

والوفاء فيه طبيعة لأنه نشأ على طاعة الرئيس في القبيلة وطاعة الساحر الذي يعلمه ويحميه ، وقلما يغدر أو يخون إذا وجد من يكسب ثقته ويشتمل على عطفه وولائه ، وإنما يغدر ويخون إذا توجس وسلبت منه الطمأنينة ، فإنه ليرجع إذن إلى حياة المخاوف والأخطار التي علمته الحذر الدائم بين الوحوش والآفات ، أو بين الأسرار الغوامض التي يتكفل الساحر بجلائها له على ما يعتقد ويروم ، فيعمل في حالة التوجس وسلب الطمأنينة عمل الطريد المطارد أو عمل الهاجم الذي يتوقع الهجوم من كل مكان . فلا يبالي ما يصنع وهو غاضب يائس محروم من العطف والحنان .

وينبغي — قبل مراقبة الزنجي وتسجيل غرائبه — أن ننسى أننا نراقب خلقة غريبة تخالف ما طبعنا عليه ، لأننا حريون ان نستغرب كل شيء إذا نحن توقعنا الغرابة والاستغراب ، فيمر بنا العمل الذي يعمله أبناء لغتنا وعنصرنا دون ان نلتفت إليه ، ثم يمر بنا هذا العمل بعينه حين يعمله الغريب فنسرع إلى التنبه له ونحسبه من البدوات التي لا تصدر إلا عن أمثال ذلك الغريب ، وكثير من غرائب الزنوج أو غرائب الأجناس عامة لا تحسب من قبيل الغرائب إلا على هذا الاعتبار .

ولو شاء الناس لالتفتوا إلى هذه الملاحظة في الحقائق الاجتماعية الكبيرة كما يلتفتون اليها كل يوم في الحقائق الاجتماعية الصغيرة . فإننا نسمع العامة في كل مكان يتحدثون عن بعض المشّهرين بالسوء فيقولون عنه « إن صوفته حمراء » ويعنون بذلك أنه يفعل الشيء الذي يفعله غيره فسرعان ما يتنبه اليه الناس ويتعقبونه بالذم والتشهير . ويمضي غيره بفعلته دون ان يتنبه أحد إليه فضلاً عن ذمه والتشهير بسمعته ، وهم يستعيرون هذا الوصف من لغة الرعاة الذين يفردون الخروف « الأحمر » بالزجر والعقاب وهو لا يصنع

شيئاً غير الذي يصنعه اخوته في القطيع من ذوات الفراء السود . ولكنه يظهر وهي لا تظهر ، فيعاقب وحده وتنجو هي من الملاحظة والعقاب .

والجنس الأسود له غرائبه الكثيرة في الأخلاق والعادات ، ولكننا إذا بدأنا بالاستغراب أو كان الاستغراب سابقاً للمراقبة كنا خلقاء أن نجد الغرابة حيث لا غرابة على الاطلاق ، وحسبنا أن يخالف الناس في أصول الطباع وهو لا يفعل إلا ما يفعله في مكانه سائر الخلق من أبناء آدم وحواء .

أما مداركه العقلية فمن الواجب قبل الحكم على طاقتها الأصيلة أن نذكر الضرورات المختلفة التي باعدت بينه وبين أجيال البشر الأخرى في مواطن الإدراك ، وهي مباحث العلوم والصناعات .

فليس من قصور العقل وحده أن نجد الزنجي مقصراً عن الاجناس البيضاء والسمراء في علوم الهندسة والفلك والطبيعة والكيمياء ، لأن حياته لم تلجئه قط إلى الملاحة في البحار الواسعة فيعرف ما عرفته الامم الاخرى من حركات الاجرام السماوية ومن علوم الفلك والظواهر الجوية والانواء ، ولم تلجئه قط إلى إقامة الصروح ومزاولة البناء بالاحجار فيعرف من قواعد الهندسة وصناعات النحت والعمارة ما عرفته الامم التي تهيأت لها الوسائل ودفعتها الضرورات إلى التشييد والتعمير ، ولم تلجئه قط إلى توقيت مواعيد الري ولا السيطرة على مجاري الماء فيتعلم الهندسة ويدرك خصائص الجوامد والسوائل ويراقب أسباب الخصب والقحط مراقبة المدير المسئول عن عواقب الاهمال في هذا التدبير ، ولم تلجئه قط إلى الافتنان في طهو الغذاء ونسج الكساء وصوغ الآنية والأدوات التي تستخدم في هذه الاغراض ، ولم تلجئه قط إلى تفتيق الحيلة في حفظ الطعام وادخاره وصيانته من العطب والفساد، ولا ألجأته إلى تفتيق الحيلة في ابتداع أفانين الحرب من مطاولة للحصار وتنويع للأسلحة واعتماد على أسلوب في الكر والفر غير أساليبً الاحياء المحدقة به في الجرأة تارة والاستخفاء تارة أخرى ، لأن أبناء القارة أجمعين

درجوا على نمط واحد في الهجوم والدفاع واستخدام السلاح وتشابهوا في مواقع واحدة يسكنها المغيرون والمدافعون ، فلا حاجة بهم إلى التفوق والاحتيال على مختلف المواقع والاسلحة والاساليب .

وكل ما احتاجوا إليه من ضرورات المعيشة وجدوه سهلاً ميسراً غنياً عن الجهد والحيلة في مواعيده التي تعودوها ، فاذا بقي من وراء ذلك سر يجهلونه أو محذور يتقونه فهنالك الساحر كفيل به يكفيهم مؤنته إذا صدقوه وأطاعوه ، ومن ثم عاشوا حياتهم كلها وقضوا عصور التاريخ وما قبل التاريخ وهم بين الدعة والطمأنينة إلى العيش ، وبين القتال والجلاد ، وبين التصديق والتعوذ بالرقى والطلاسم . ولزموا هذه الحالة أعواماً بعد أعوام ، أحقاباً بعد أحقاب ، بغير حاجة إلى التبديل أو التجديد .

فالامم التي عرفت الهندسة والفلك والعمارة والكيمياء وأدوات البذخ والرفاهة إنما عرفتها لانها لا تستطيع أن تعيش في بيئتها حقبة طويلة بغيرها ، ولو عاشت في القارة الافريقية كما عاش الزنوج لأهملتها ولم تفكر فيها ، ولا شك أن الزنوج لو بدأوا الحياة الاجتماعية حيث بدأها اولئك الاقوام لاخترعوا اختراعهم وفهموا فهمهم وعرفوا معرفتهم وأعادوا سيرتهم بغير فارق كبير في جوهر الامور .

أما الطب ومداواة الامراض فكل ما حذقه الانسان الفطري بمعزل عن العلوم الاخرى فقد حذقه السود وبرعوا فيه ، ولم تفتهم خاصة لازمة لهم من خواص العشب والنبات أو خواص الإيحاء والتأثير بالعقيدة والتنويم .

ونحن لا نعني بهذه المقابلة بين ضرورات السود وضرورات غيرهم من أجناس البشر أن الفرق بينهم وبين تلك الأجناس معدوم او قريب التحصيل والاستدراك ، ولكننا نعني انه يرجع إلى اسباب تجوز عليهم كما تجوز على غيرهم ، فهم وسائر البشر في أصولها سواء .

ولو نظرنا إلى النصيب الذي تيسر لهم من الثقافة الادبية فحصلوه وأجادوه

لعلمنا أنهم حريون أن يبلغوا بالعطف والمعاملة الحسنة شأواً محموداً في مجال الآداب والعلوم ، فقد نبغ منهم في العربية شعراء معدودون من طراز عنترة وسحيم عبد بني الحسحاس ونصيب والأغربة المشهورين الذين أجادوا الحماسة كما أجادوا الغزل والنسيب ، وبين غزلهم والاغاني المرقصة التي عكف عليها السود من آلاف السنين صلةٌ قريبة لا تصعب النقلة فيها ، ولكن الطبقة الفنية – والنفسية – التي ارتفعوا إليها في ذلك الغزل تدل على أن الآباد الطوال التي قضوها في المعيشة الآبدة لا تحجبهم عن الظرف الاجتماعي إذا وجدوا السبيل اليه ، وما احسب شاعراً من شعراء الحضارة يترفع عن توقيع هذه الابيات التي نظمها سحيم لمعشوقة مريضة فقال :

ماذا يريد السقام من قمر … كلُّ جمال لوجهه تبع

ما يرتجي ؟ خاب ! من محاسنها … أما له في القباح متسع ؟

غيَّر من لونها وصفَّرها … فارتد فيه الجمال ، والبدع

لو كان يبغي الفداء قلت له … ها أنا دون الحبيب يا وجع

ففي هذه الابيات من روح الفكاهة ودعابة الظرف والفطنة إلى محاسن الملاحة المريضة والخبرة بتدليل النساء غير قليل .

* * *

ويبدو لنا أن فوارق الإدراك لم تضالل العقول في أمر الجنس الأسود كما ضللها ذلك اللون الماثل للنظر قبل مثول الفوارق العقلية والخلقية للبصائر والأفكار ، فعاملتهم الأمم منذ أقدم العصور معاملة لا هوادة فيها ، وانطلق النخاسون في طريق البحر الأحمر وبحر الهند ونهر النيل يحملونهم إلى بلاد العرب وما بين النهرين كما يحملونهم إلى مصر واليونان والرومان ، ولم تكد الدنيا الجديدة تنكشف لأبناء الدنيا القديمة حتى شاطرتها في هذا السباء الذي بدأت فيه أقدم الأمم من ألوف السنين ، ولعل فضائل هذا الجنس – وفي مقدمتها الوفاء والصبر والقناعة – كانت أسرع من نقائصه في الجناية

عليه ، ولهذا تمادى النخاسون في نقـــل السود إلى امريكا وانقطعوا عن نقل الهنود الحمر إلى اوربا بعد سنوات قليلة ، لإخفاق التجربة وضياع الأمل في صلاح هؤلاء الهنود « للتطبيع » والعمل المفيد .

وخلاصة ما يقال في تاريخ الجنس الاسود إنه جنس قديم معرق في القدم يوغل في أصوله إلى ما قبل التاريخ بزمن بعيد .

وإنه جنس قد وقف به النماء عند حدود الفطرة الاولى لأن معيشتـــه في القارة الافريقية لم تلجئه إلى كشف العلوم وتعمير المدن واختراع الصناعات وتدبير وسائل الادخار والحيطة للمستقبل البعيد ، ولكنه عرف كثيراً من الفضائل والملكات التي توائمه في بيئته المستقرة ، لأنه عرف النضال والمرح والإيمان . فعرف الشجاعة والوفاء والصبر على الألم . واستنبط الفنون التي توافق مرحه وايمانه بالمجهول .

وكأنما اتفقت عليه منذ القدم عوادي الاجحاف جميعاً ولم يسعده حظه بباعث واحد من بواعث الانصاف والرعاية ، فاصطلحت عليه أسباب الجشع والاستغلال وغرابة المظهر وقلة الحيلة في الدفاع وسهولة التطبيع والتعويد ، وجعلته هدفاً يسيراً للقناصين والنخاسين الذين يحفزهم الطمع ولا يزعهم عنه وازع من وشائج العطف أو زواجر الأخلاق .

ومضى العهد به على ذلك عصوراً طوالاً بعد عصور طوال إلى عصرنا هذا الذي نحن فيه . فقامت الثورات بعد الثورات باسم الانسان وحقوقه ، واشتعلت في الكرة الارضية حربان عالميتان في النصف الاول من هذا القرن العشرين ولا تزال الكلمة الباقية التي تقال لإنصافه وحماية حوذته أكبر وألزم من الكلمة التي قالتها الحضارة الحديثة إلى الآن .

ففي هذه السنة التي نحن فيها (١٩٤٥) انعقد مؤتمر الجماعات التي تشتغل بالتبشير في الجزر البريطانية ووجه إلى العالم نداء شديداً أهاب فيه بأمم الحضارة إلى محو الفوارق القائمة بين البيض والسود في المستعمرات

وأعلنت لجنة الكنائس البريطانية موافقتها على قرار المؤتمر وهي ترجو معه « أن تنجز الامم المتحالفة وعودها المتكررة بالتسوية بين الالوان والعناصر في فرص التعليم والحياة » .

ولا تزال الفوارق الجنسية قائمة في الولايات المتحدة على تعدد الدعوات فيها إلى المساواة والإعراض عن المزاعم العنصرية التي روّجها خصوم الدولة الامريكية في الحرب العالمية الحاضرة ، ففي الولايات الجنوبية تقوم الفوارق بين البيض والسود بنصوص القوانين والاوامر الحكومية ولا يباح للسود الجلوس مع البيض في المركبات العامة ولا النزول معهم في الخانات والفنادق ، ولا تعليم أبنائهم في المدارس التي يتعلم فيها أبناء البيض، ولما صدر القانون الذي يخول الطفل الاسود حقاً في التعليم كحق الطفل الابيض مع انفصال المدارس والجامعات — تبين من التنفيذ أن المساواة صورة لا حقيقة ، وأن التلميذ الابيض يكلف الدولة في تسع ولايات من ولايات الجنوب نحو تسعة وخمسين ريالاً في السنة ولا تزيد كلفة التلميذ الاسود فيها على تسعة عشر ريالاً على الرغم من نص القانون ، وتبين أن الفارق في ولاية مسيسبي يتجاوز ذلك كثيراً لأن الدولة تنفق على الطفل الأبيض ريالين وخمسين ريالاً ولا تزيد نفقة الطفل الأسود على سبعة ريالات ونصف ريال .

وقد أُلغي في ولايات الشمال معظم القوانين التي تنص على التفرقة بين البيض والسود،ولكن هذه التفرقة ما تزال قائمة بحكم العرف والعادة على نحو لا يقل في صرامتهعن صرامة القانون،فلا يرى الاسود نازلاً بفندق من الفنادق الكبيرة أو جالساً في مطعم من المطاعم الفاخرة وإن كان من أصحاب الثراء .

* * *

وإبطاء الحضارة الغربية كل هذا الإبطاء في تقرير مبدأ الانصاف— فضلاً عن تنفيذه — هو المقياس الصادق لسبق الشريعة الاسلامية في هذا المضمار الانساني المتوعر المهجور من قديم الدهور ، فانها قد خلصت إلى أدب الانصاف

والمساواة بين بني الانسان منذ أربعة عشر قرناً بغير ما حافز من المصالح الاقتصادية أو من عادات العرف والأخلاق ، بل خلصت إليه على كره من تلك المصالح وعلى الرغم من تلك العادات ، واجترأت على سلطان المادة الطاغية بسلطان الروح الرفيع ، ولا يحسب الدين ديناً ما لم يكن له سلطان روحي يغلّبه على طغيان المصالح والشهوات .

* * *

وقد كان هذا السلطان الروحي هو السلطان الذي أذعن له السادة والعبيد عند ظهور الدعوة الاسلامية بين قبائل البادية العربية ، واشتمل على بلال ابن رباح صاحب هذه السيرة وهو مولى ضعيف غريب عن ارض الحجاز ، كما اشتمل على أبي بكر والفاروق وعثمان بن عفان وهم سادات مكة واقطاب قريش .

والذي يعنينا في هذه المقدمة عن تاريخ الأجناس والجنس الأسود خاصة أن نجمع الملتقى بينها وبين صاحب هذه السيرة بلال .

وليس الملتقى بينهما بعسير .

فمن مجمل الصفات المتواترة التي وُصف بها بلال يتراءى لنا أنه قريب الملتقى بخصائص الجنس الأسود التي أجملناها في هذه الصفحات .

ولا نحب ان نقول ان الذي يتصف بتلك الصفات لن يكون حتماً لزاماً إلا من الجنس الأسود بخصائصه المعلومة ، فلا يزال من الجائز جداً أن يكون بلال على تلك الصفة — فيما عدا اللون — ولا يكون من القبائل الأفريقية السوداء ، ولكن الذي يقال ولا يتجاوز حد الصحة في المقال إنه لو لم يكن كذلك لكان هذا من غرائب المصادفات ، ولا داعية عندنا الآن لتقدير تلك المصادفات .

فلو لم يكن بلال أسود الإهاب لكانت في صفاته النفسية علامات لا

تستغرب في الاجناس السوداء لأنها من خصائصها المميزة التي تبرز فيها عند مراقبتها على الإجمال ، ومنها حب الإيقاع الموسيقي وسليقة الإيمان والتضحية والعناد والصبر على عذاب الجسد والوفاء لمن يستولي منه على مكان الثقة والاعجاب .

ولكن الجنس الاسود لا يحتويه كله على ما يظهر من بعض صفاته الجسدية فيما عدا لون السواد ، فلم يوصف بالفطس ولا بغلظ الشفتين ولا بالشعر المنقبض المتصوف الذي خص به الزنوج ، والذين يُشاهَدون على هذا التكوين بين أمم أفريقية الشرقية كثيرون حتى هذه الأيام ، وتحقيق تاريخهم يدل على امتزاج قديم بالأجناس السامية أو بالعربية منها على التخصيص ، لأن رحلات العرب إلى سواحل افريقية الشرقية قديمة قبل الاسلام بزمن بعيد .

ومن علماء الأجناس من يربط بين جلة الاحباش وجلة العرب — ولا سيما اليمانية — برباط وثيق ، لان عبور أهل اليمن إلى الحبشة وعبور أهل الحبشة إلى اليمن ميسران معهودان من أقدم العصور .

وقد قيل في تاريخ بلال انه من الموالي المولدين بمكة أو بالسراة اليمانية ، فأصدق ما يقال فيه إنه من سلالة زنجية سامية ، وأنه على أقرب ما يكون الزنج من خلائق العرب أو المستعمرين .

* * *

العَرَبُ والأجناس

ألممنا في فصل سابق بأقوال بعض العلماء في مسألة العنصر وفوارق الأجناس ، فأياً كان قول العلم في هذه العصبية العنصرية — أو الجنسية — فالقول الذي لا ريب فيه إن هناك شيئين مختلفين يدوران حول هذه العصبية ، ويلتبسان في بعض الأحوال فتجب التفرقة بينهما : وهما المفاخرة الجنسية والعداوة الجنسية .

فقد تكون مفاخرة جنسية ولا عداوة .

وقد تكون عداوة جنسية ولا مفاخرة .

لأن المفاخرة طبيعة الجماعات حيث كانت من قديم أزمانها ، وقد توجد المفاخرة في الأمة الواحدة بين أهل الحضر وأهل القرى ، أو بين أبناء الشمال وأبناء الجنوب ، وقد تتفاخر البطون من القبيلة الواحدة ولا تتعادى ، وقد تتعادى ولا تتفاخر ، وقد تتفاخر وتتعادى في آن ، وهي من جنس واحد وقبيلة واحدة .

وعندنا في مصر مفاخرات كثيرة بين أبناء القاهرة وأبناء الاسكندرية ، وبين أبناء الصعيد وأبناء الريف ، ومفاخرات أخرى حول اللهجات والأذواق والأطعمة لا تتجاوز الفكاهة الى الجد في عامة أوقاتها .

ومثلها متكرر يشاهد بين أبناء الأقاليم الانجليزية أو الفرنسية أو الايطالية

أو الألمانية ، وحيثما تعددت الجماعات في صقع واحد ولو من أرومة واحدة.

وقد تتجاور العناصر ألوف السنين ولا تتجاوز المنافسة بينها حدود المفاخرة اللسانية والمنافرة الكلامية ، ولكنها تتجاوز المفاخرة العنصرية إلى العداء العنصري كلما اندفعت إلى التنازع بينها على مغنم واحد لا يتأتى لإحداها بغير القضاء على الأخرى أو إذلالها ، ويستحكم العداء بينها على الزمن إذا تداولت بينها الذحول والغارات فلا يهمها المغنم كما يهمها الثأر والانتقام .

والعرب قد عاشت في جزيرتها بمأمن من سطوة جيرانها إلا من أطراف الجزيرة ، حيث لا يبلغ النزاع بينهم وبين أولئك الجيران مبلغ الإبادة والاستئصال .

وعاشوا ثمة وهم يحسون مكان جيرانهم ويحس جيرانهُم مكانهم . فوُجدت بينهم أسباب المفاخرة ولم توجد بينهم أسباب العداء اللدود .

وأملى التاريخ على العرب وجه المفاخرة إملاء لا اختيار لهم فيه .

فقد كان جيرانهم الفرس والروم والأحباش أصحاب ثروة ودولة ومعاش ومتاع ، وكانوا يعيِّرون جيرانهم العرب شظف العيش وسوء الطعام والكساء ، وكان العرب لا يجهلون حظ هاتيك الدول من الجاه والترف وغزارة الأمواه والأزواد ، فإذا فاخروهم تركوا المفاخرة بطعام أمتع من طعامهم وكساء أنفس من كسائهم وحطام أوفر من حطامهم ، ورجعوا إلى فخرهم الذي يملكونه ولا يهابون المقالة فيه ، وهو فخر الفصاحة وعراقة الأحساب والأعراض .

فهؤلاء كلهم عند العرب أعاجم !

وهؤلاء كلهم عند العرب أخلاط لا حساب عندها للحسب العريق .

وقد رضوا عن أنفسهم بهذا الفخر واستطاعوا المقالة فيه ، ولم ينشب بينهم وبين مفاخريهم من العناصر الأخرى قتال طويل يبيدون فيه أو يبادون .

فوقفوا بالمفاخرة دون اللدد في الخصومة الدموية ، ونُقلت عنهم وعن مفاخريهم أحاديثُ مستطرفات في هذا الصدد هي أقرب إلى مساجلات الأدباء في موقف الدعابة منها إلى المنازعات التي تسفك فيها الدماء .

إن فخر الروم والفرس ببياض الالوان قال العرب : تلك وجوه مقشّرة !

وإن فخر الروم والفرس بالخوان الحافل فخر عليهم العرب بالجود وبذل الموجود .

وساجلوا وسوجلوا في هذا المجال فأثبتوا بحق أنهم أصحاب فصاحة وأصحاب أعراق .

لكنهم لم يعرفوا قط عداء العنصر أو عداء الجنس كما عرفه البيض والحمر في القارة الامريكية ، أو كما عرفه الاوربيون والأصلاء في القارة الأسترالية أو كما عرفه السلافيون والتيوتون في أوربا الشرقية ،أو كما عرفه الاسرائيليون والكنعانيون أو عرفه المغاربة والأسبان في زمن من الأزمان .

وإذا سمعت الزراية بالعبيد على لسان العربي فآخر شيء يتبادر إلى الذهن أنهم يقصدون عداء الألوان والأجناس ، أو يخصون اللون الأسود بذلك الازدراء أو ذلك العداء .

فقد غلبت على بعض العرب أنفسهم سمرةٌ تضرب شديداً إلى السواد ، وكان من سادتهم مَن وُصف بحلكة اللون وشابه الزنج بالأهاب الخشن والبشرة الفاحمة .

فإذا قالوا « العبد » فهم لا يقصدون الزنجي ولا يخصّون سواد اللون بالمهانة ، ولكنهم يقصدون كل أسير لم يفكّ إساره وكل جليب يباع ويشرى في الأسواق ، ومنهم صفر الوجوه وبيض الوجوه .

ويقصدون على الأخص كل إنسان مجهول النسب لا ينتمي إلى أصل من أصولهم المشهورة .. إذ لم يكن في وسعهم أن يجهلوا مفخرة النسب وقد

فرضتها عليهم معيشة البادية ومفاخرة الحاضرة مئات السنين .

فلا يُزدرى العبد عندهم لأنه حالك اللون ولا لأنه من جنس يعادونه ويعاديهم ، ولكنه يزدرى لعلة اجتماعية لا لعلة عنصرية ، وقد تزول هذه العلة من حيث لا تزول علل العناصر وعداوات الأجناس .

وجاء زمن على الدولة العربية بعد اتساعها وسطوتها كثر فيه جلب الزنوج السود من القارة الأفريقية إلى فرضات البحار المقاربة للعاصمة العربية ، وأكبرها البصرة في ذلك الحين . فشجر بين الزنج والعرب يومئذ عداء يشبه عداء الأجناس في عصوره الحديثة والقديمة ، ونشبت فتنة الزنج بالبصرة على مثال الفتن الجنسية التي نشهدها اليوم أو توصف لنا في التواريخ ، ولكنها كانت غاشية عابرة ، فذهب أثرها بعد ذهابها بسنوات .

أما في غير تلك الآونة فقد كان الزنج قلة في بوادي الجزيرة وحواضرها ، وكان الرجل العربي يولد الجارية السوداء ويتبنى وليدها اذا نجب وصلحت حاله وظهرت منه الفروسية والفصاحة ، وربما كان له عبد يحمد خصاله فيعتقه ويستلحقه ويزوجه بنته أو ذات محرم منه ، ولا يمنعه أن يصنع ذلك عداء الجنس أو بغضاء اللون ، بل يمنعه عرف اجتماعي توجد له النظائر في كل عرف يدور حول الزواج ، ولو بين الأقرباء .

وعلينا أن نحترس كثيراً من نسبة كل عبد أسود يذكر في أيام العرب إلى الزنج أو أبناء حام كما يعرفون في علم الأجناس .

فلعله أن يكون سامياً عبر إلى أفريقية كما عبر الأثيوبيون ، ولعله أن يكون خلاسياً من الساميين والحاميين . ويغلب على الظن أن بلالاً – صاحب السيرة في هذا الكتاب – كان حامياً حبشياً ولم يكن زنجياً خالصاً من السود ، لأن العرب يحسنون وصف الملامح التي تميز الأجناس والسلالات ، ولم يذكروا من أوصاف بلال الفطس ولا الشعر الصوفي « المفلفل » اللذين يميزان معاً سلالة حام .

وقد كان بلال من أضناك العبيد حالاً قبل الإسلام ، وكانت حال العبيد هي السوأى بين طبقات المجتمع العربي في الجاهلية ، ظلماً للضعيف لا عداوة للجنس أو كراهة للسواد . فقد كان شأن العبيد كشأن كل صعلوك وضيع النسب قليل العضد غير محسوب له حساب في شريعة الثأر والدية ، وكان العبيد أسوأ حالاً من وضعاء النسب لأنهم لا ينسبون إلى أحد معروف ، ولا يردع الظالم عن ظلمهم شرع ولا عرف ولا عقيدة ، فكانوا ضحايا الظلم والتفرقة في المنازل والأقدار ، وكان خلاصهم كله في عقيدة تنكر الظلم لأنه قسوة كما تنكره لأنه ينقض شريعة المساواة .

وقد تكفل الإسلام بهذا الخلاص من جانبيه ، لأنه ينكر ظلم القسوة ، وينكر ظلم الإجحاف والمحاباة .

فحق له أن يلبي دعوته ، وأن يدعو اليه .

* * *

الرق في الإسلام

كان الايمان بالروح أول خطوة صحيحة في طريق الانسانية أو طريق الحكومة الديمقراطية كما نسميها اليوم .

لأن الايمان بالروح يعلم الانسان التبعة « وإن كل نفس بما كسبت رهينة » وهذا هو أساس التكاليف والحقوق .

ولأنه يوحي إلى العقل عقيدة المساواة بين جميع الناس أمام الله وأمام شريعة الله .

ولو جاء الايمان بالروح سابقاً للرق لامتنع الاعتراف به في الأديان التي تأمر بهذه العقيدة ، لأن بيع الانسان بيع السلع الصماء لا يوافق الإيمان بروح يتساوى فيها السادة والعبيد ، فضلاً عن الايمان بتفضيل روح العبد الصالح على روح السيد الذي يعوزه الصلاح .

ولكن الأديان « الروحية » جاءت بعد ظهور الرق في المجتمع الانساني بالآف السنين ، وكان الرق في تلك الأحقاب الطوال قد امتزج بنظام الثروة ونظام المعاملات فأصبح اقتلاعه دفعة واحدة من أعسر الأمور ، ولم تكن أذواق الناس وأخلاقهم في العصور القديمة قد بلغت من اللطف والتهذيب مبلغ الترفع عن تسخير الآدميين كما يسخرّ الحيوان أو كما تسخر الآلة الصماء . فدارت الأديان « الروحية » حول المشكلة ولم تقابلها وجهاً لوجه في معظم

الأحوال ، ولم تكن للعبيد أنفة تعزف بهم عن هذه المنزلة التي فرضتها عليهم ضرورات الزمان ، ومن كانت لهم الأنفة لم تكن لهم القدرة على التمرد والعصيان وتبديل المصالح والآداب .

ومع هذا لم يكن للمصلحين الدينيين بدٌّ من التوفيق بين عقيدة الروح وإباحة بيع الانسان وشرائه كما تباع الآلات .

فكان من توفيقاتهم في هذا الباب أن العبد عبد بجسده حرٌّ بروحه أمام الله ، وأنه في هذه الدنيا عبد وفي الآخرة سيد يرتفع إلى مراتب القديسين .

وكتب القديس بولس إلى أهل (أفسس) رسالة أوصى فيها العبيد بالإخلاص في الولاء لساداتهم كما يخلصون في الولاء للسيد المسيح ، وكان الحواري بطرس يأمر العبيد بهذا الأمر ويلزمهم الخشية من سادتهم كأنها أدب من آداب الدين الصحيح ، وجاءت الكنيسة فأقرت نظام الرق واعتمده أحبار رومة في المناشير والعظات ، وأيده توماس الأكويني كبير فلاسفة النساك والقسيسين وتلميذ أرسطو الذي اشتهر بالعلم والتقوى في القرن الثالث عشر للمسيح . فاستند إلى أقوال رسل المسيحية كما استند إلى أقوال أرسطو في كتابه عن السياسة ، لأن أرسطو اعتبر الأرقاء في حكم الآلات التي تراد لعملٍ من الأعمال ولم ير في نظام الرق شيئاً يعاب ، فما دام في الناس من يعجز عن كفالة نفسه فعليه أن يعيش في كفالة سواه ، وتبعه تلميذه الناسك لأن الزهد في الحياة يجعل القناعة بأبخس المنازل أمراً سائغاً لا غضاضة فيه ، بل لعله من المأثور المحمود عند من يرفضون الحياة .. وقد واجه الرقَّ بهذا المزاج فحسبه من الحرمان الذي لا يناقض الخطة المثلى في آداب الديانة وفضائل السلوك ، وسهل عليه أن يجد للرق مصداقاً من أسرار الضرورات وتقييد بعض الحركات ببعضٍ في نواميس الطبيعة وخصائص التكوين .

ومن أعجب العجب أن البلاد التي شاع فيها تحريم قتل الحيوان حتى ما يؤذي منه ولا يفيد — قد بلغت عقائدها القسوة القصوى في معاملة الأرقاء ،

فإن أناساً من براهمة الهند كانوا يضربون الذلة على العبيد المعروفين باسم السودرا ، لأنهم خُلقوا من أسفل أعضاء الإله فلاتبرحهم وصمةالذل ما لبسوا ثوب الحياة ، فأيسر ما يعاقب به الرقيق على إغضاب سادته أن يُسَل لسانه أو يقتل بعد التمثيل به على مشهد من الناس .

وكانت الحضارة تلطف من هذه القسوة بعض التلطيف فتجري العادة أحياناً في الأمم المتحضرة بالشفقة على العبيد والجواري وتخويلهم بعض حقوق المساواة . فكان المصريون الأقدمون يجيزون معاملة الإماء كما تعامل الزوجات الحرائر ، ويحكمون بالقتل على من يقتل الرقيق في غير جريرة ، ويُلزمون الرجل في موقف الحساب بعد الموت أن يبرىء ذمته من إيذاء العبيد والاساءة اليهم ، ويجعلون هذا الابراء جوازاً لا مناص منه إلى حظيرة الأرباب .

ومن مصر أخذ العبرانيون تحريم القسوة على العبيد والأجراء لأنهم كثيراً ما كانوا يؤدون في مصر عمل الأجراء إن لم يكن عمل العبيد . فجنحت بهم الرغبة والقدوة إلى انصاف الأرقاء والأحلاس ، وأنكروا الإرهاق كما أنكروا الضرب والإيذاء في معاملة الأجراء .

وقال هيرودوت إن الفرس في زمانه كانوا يمنعون عقاب العبد على الهفوة الأولى ، ولكنهم يبيحون للسيّد ان يقتل عبده او يعذبه إذا أذنب مرة بعد أخرى . وكانت شريعة الفرس ارفق بالعبد على الجملة من شرائع اليونان والرومان ، لأنها كانت ترخص له في الراحة وتكره العدوان عايه ، وربما سرى اليهم أدب الشريعة هذا من عادة التسري واقتناء الزوجات من الاماء ، ووافق ذلك معيشة الحضارة في المدن الكبيرة وقلة الحاجة إلى إرهاق الأرقاء لتحصيل ضرورات المعيشة ، ولعلهم قد استفادوا ايضاً من سنن العبرانيين في معاملة الرقيق ، لطول العشرة بين اليهود وبين شعوب النهرين .

ولم تسلم أمة قط من اقرار نظام الرق وازدراء العبيد من اختلاف عناصر الأمم وأجناسها .

فما قيل عن فضل أمم الشمال الأوربية على أمم الجنوب كافةً في هذه المسألة خطأ ظاهر في البحث عن حقائق الأسباب ، لأن أمم الشمال لم تخل من نظام الرق سمُوّاً في الأخلاق أو تفرداً بالصفات الانسانية التي تُدَّعى للشماليين في الزمن الأخير ، ولكنها خلت من نظام الرق لأن اقتناء الأرقاء في تلك البلاد الباردة يكلفها أكثر مما يحَطّ عنها ، فهي فضيلة الضرورات لا فضيلة الأخلاق ، وهي مزية البقاع لا مزية عناصر الشمال . وما زال الرقيق محروماً من المساواة الانسانية إلى هذا اليوم في الأمم الاوربية والامريكية. وكانت القوانين إلى القرن الثامن عشر تجيز قتل العبيد في المستعمرات إذا هربوا من الاسر أو أغلظوا لمواليهم في الكلام ، ولم يكن على السيد الذي يقتل مولاه إرهاقاً أو تعذيباً عقابٌ منصوص عليه .

تلك كانت حالة الرقيق جملةً في القرون الاولى وفي القرون الحديثة ، وقبل ظهور الاديان « الروحية » وبعد ظهور تلك الاديان .

ومن الاسباب التي تذكر لتحسين أحوال الارقاء ومنع الاتجار بهم في العصر الحديث أن اقتناء العبيد كان ييسر لبعض البلاد أن تنافس البلاد التي تستخدم العمال الاحرار في الصناعة وتبذل لهم أجراً لا يطمع العبيد السود في مثله ، وكان اقتناء العبيد يضير أولئك العمال الاحرار في الوقت الذي عرفوا فيه حقوقهم ونهضوا للمطالبة بها ، وساعدهم على المطالبة بها أصحابُ الاموال الذين لا يستفيدون من تسخير الأرقاء .

ومهما يكن الرأي في حقيقة هذه الاسباب فهي مما يدخل في التقدير عند بيان فضل الاسلام وسبقه للحضارة الحديثة إلى أرفع الآداب وأكرمها في مسألة الرق ومعاملة الارقاء .

فلم تكن معاملة الارقاء على الوجه الذي أمر به الاسلام مصلحة اقتصادية على فرض من هذه الفروض ، بل ربما كان من المصلحة إبقاء الرق على نظامه الأول ليفرغ الارقاء لاعمال المعيشة والسخرة ويفرغ الاحرار لأعمال الجهاد والرئاسة .

كذلك لا يقال ان الإسلام تهيّب النظام القائم في المجتمعات القديمة كما تهيبتها الاديان الروحية فدارت حول المشكلة ولم تقابلها وجهاً لوجه في معظم الاحوال ، ولم تأخذ بأيدي العبيد الا بما كانت تفرضه عليهم من الطاعة وتزجيه اليهم من العزاء المنظور في الدار الآخرة .

فلا يقال ان الإسلام قد منع رق المسلم وقصر الرق على الاسرى وأوجب لهم حسن المعاملة لأنه كان ديناً يؤمن بالروح ، ولا توافق بين الايمان بالروح وبين بيع الآدميين كما يباع الحيوان . فان الواقع أن أدياناً « روحية » كثيرة قد وقفت بين الأمرين على نحو من التوفيق .

ولا يقال ان الاسلام قد جاء بآداب الرفق بالرقيق بعد ذهاب الحاجة إلى تسخير الارقاء وتبدّل الأحوال الاقتصادية في مجتمعات المشرق والمغرب .. فان الواقع أن هذه الحاجة ظلت قائمة في البلاد الشرقية والغربية إلى زمن يذكره الأحياء ، ولا تزال قائمة حتى اليوم في بعض الأنحاء .

فإنما هو اذن فضل خالص من علل المادة ودواعي الثروة الاجتماعية ، وانما هو نصر صريح في عالم الروح يحسب للدين الاسلامي وحده بين سائر الأديان .

* * *

كان في وسع الدولة الاسلامية أن تمر بنظام الرق في العالم العربي وفي العالم بأسره ثم تتركه حيث كان فلا يحسب عليها ذلك — في حينها — إغضاء معيباً تسأل عنه ، لأن مسألة الرق لم تبلغ يومئذ ان تكون من المسائل الناطقة التي يؤوّل السكوت عنها بالاغضاء أو المداراة .

ومن المحقق أن الدعوة الاسلامية لم تكن تخسر شيئاً لو أنها أهملت مسألة الرق في أول ظهورها ! لأن المسلمين على نقيض ذلك كانوا يتجشمون خسارة لا يطيقونها في إعتاق العبيد والإماء ، كلما ساءت حالهم عند سادتهم

بدخولهم في دين الاسلام . وكان أبو قحافة يمثّل الرأي الحصيف وهو يأخذ على ابنه الصدّيق بذل الكثير في سبيل رهط من الضعاف المهازيل يثقاون كاهله ولا يغنون عنه أقل غناء .

فلم يكن ثمة من باعث إلى النظر في إنصاف الأرقاء وهدم نظام الرق القديم غير باعث الفضيلة المثالية التي تعنى بطلب الكمال ولا تحفل بالمصلحة المادية أقل احتفال .

وقد تبدل نظام الرق على يد الاسلام في أوسع نطاقٍ للتبديل أو على أعمق أساس يبنى عليه كل تبديل في أمثال هذه الانظمة الاجتماعية ، لأنه عمد إلى أساس التفرقة بين الأجناس والأقوام فمحاه أو عفى عليه . وعلّم الناس أن المؤمنين إخوة وأنه لا فضل لمسلم على مسلم بغير التقوى ، وألقى اليهم في أحاديث النبي القدسية أن « الجنة لمن أطاعني ولو كان عبداً حبشياً والنار لمن عصاني ولو كان شريفاً قرشياً » أو كما قال .

وحصر الرق مع هذا في سبب واحد من اسباب الاسترقاق ، وهو الأسر في ميادين الحروب ، فلا يملَّك الرجل او المرأة بالنخاسة والاختطاف ، ولا يعد من العبيد إلا من وقع اسيراً في ميدان القتال إلى أن يفدي نفسه أو يفديه من يفديه .

وقد مضت مئات السنين بعد ظهور الدعوة الاسلامية فبطل نظام الاسترقاق أو بطلت الحاجة اليه ، ولا يزال الأسر مشروعاً والفداء واجباً ولو بتبادل الأسرى أو بشرط من الشروط التي تقوم مقام الفداء ، ولا يقع في العقل نظام غير هذا النظام ما بقيت الحروب وبقي الأسر والاستئسار مقبولين في شرعة المتحاربين .

ولم تنته عناية الاسلام بمسألة الرق بتضييق نطاقه وحصره في هذا السبب الوحيد من اسباب الاسترقاق ، بل أمر المسلمين بقبول الفداء أو الإعتاق بغير فداء : « فإما منّاً بعدُ وإما فداء حتى تضع الحرب اوزارها » .

واوجب على المسلم ان يقبل من الأسير تنجيم فديته حتى يستوفيها على سنة الرفق والسماحة : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم .. » .

وقد جعل الإعتاقَ حسنة تكفِّر عن كثير من السيئات ، وفرضها على الذين يخالفون بعض أحكام الدين كما فرض الصدقات واطعام المساكين ، وجعل وصية الرفق بهم مقرونة بوصية الرفق بالآباء والأقربين : « ... وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » .

وكانت وصية النبي للمسلمين قبيل وفاته « الصلاة وما ملكت ايمانكم » وتكررت منه عليه السلام أحاديثه في هذا المعنى حتى قال في بعض تلك الاحاديث « لقد اوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت ان الناس لا تستعبد ولا تستخدم » .

وتجاوز الاشفاق على الارقاء من سوء المعاملة إلى الاشفاق عليهم من الكلمة الجارحة فكان عليه السلام يقول: « لا يقل احدكم: عبدي، أمتي ، وليقل فتاي وفتاتي وغلامي » .

أما ضرب الرقيق بغير تأديب محتمل فهو ذنب كفارته العتق ، أو كما قال عليه السلام : « من لطم مملوكه فكفارته عتقه » . فاذا قتله فهو يقتل به في قول اشهر الفقهاء .

وقد فضل الإسلام الزواج بالأمة المؤمنة على الزواج بالحرّة المشركة ، وأوجب عتق الأمة متى ولدت للرجل واعترف بأبنائها .

وقد أعتق النبي عليه السلام مملوكه زيداً وزوّجه بعقيلة حرة من عقيلات بيته ، وتبناه وأقام ابنه أسامة من بعده والياً على جيش الشام وهو دون العشرين ، وفي الجيش نخبة من أجلاء الصحابة منهم عمر بن الخطاب .

وكانت معاملة النبي للأرقاء في ملك يده وفي ملك غيره تفوق سماحة هذه الوصايا على فرط ما فيها من السماحة بالقياس إلى آداب ذلك العصر ، وإلى آداب جميع العصور ، فكان يؤاكلهم ويلبي دعوتهم إلى الطعام ويقول للمسلمين : « هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وأكرم ما قال في هذا الباب — وكله كريم — « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » .

* * *

هذه الوصايا والمعاملات كانت كلها فيض الآداب العلوية الرفيعة ولم يكن شيء منها قط من إملاء الضرورات الاجتماعية أو المصالح الاقتصادية ، بل هي ولا شك تقررت على الرغم من ضرورات الاجتماع ومصالح الاقتصاد التي كانت غالبة في تلك الآونة على الجزيرة العربية وعلى غيرها من أرجاء العالم المعمور .

وهي لم تتقرر — بالبداهة — دفعة واحدة في مستهل الدعوة الاسلامية ولا تقررت كلها أو بعضها قبل إسلام بلال وزملائه من الموالي والإماء . فقد تتابعت الأحكام الاسلامية في معاملة الرقيق على أثر قيام الحرب بين المسلمين والمشركين ، وبعد ظهور حالة الأسرى والمستأسرين في معارك الفريقين .

فمن الخطأ أن يقال إن أحكام الرقيق هي التي جلبت إلى الاسلام من دخل فيه من الموالي والإماء أو إنهم سيقوا إلى الدخول فيه طلباً لراحة الجسد وهرباً من مظالم السادة ومتاعب التسخير .

ان يكن هناك أثر للمعاملة الحسنة في اقبال بلال وزملائه على الاسلام فهو على التحقيق أثر المثال الرفيع الذي تمثلوه في معاملة النبي عليه السلام

لصحبه ومواليه ولكل ضعيف منتمٍ اليه. ولم يكن سراً مجهولاً بينهم انالنبي عليه السلام أحسن إلى مولاه زيدٍ بن حارثة فأنساه أباه وذويه ، وجاءه هؤلاءيفتدونه ويعرضون عليه الحرية والعودة إلى احضان أهله فآثر صحبة النبي على نعمة الحرية بين معشره الأولين وفي ظلال وطنه الذي فارقـه مكرهاً منذ سنين .

فهذا المثال قد كان لهولا ريب أثره البالغ في تحبيب الاسلام ونبي الاسلام إلى الأرقاء وغير الأرقاء .

ولكنّ طلب الإسلام عند اولئك الأرقاء لم يكن طلباً لراحة الجسد ولا مفاضلة بين سيد وسيد أو معيشة ومعيشة .

فإننا لا نعرف في تواريخ العقائد الدينية أن أحداً يقبل على الدين مساومة على الراحة ورفاهة العيش ، ولم يكن طلاب الراحة ورفاهة العيش قط أعوان عقيدة ناشئة في عهدها الاول وهي مقدمة على المغامرة والجهاد تتطلب الضحايا وتفرض على الاتباع ألوان الفداء .

وفي حالة بلال وزملائه خاصة لم يكن الاسلام راحة لهم ولا انتقالاً من جانب الخطر إلى جانب السلامة والامان ، بل كان على نقيض ذلك انتقالاً من جانب السلامة والامان إلى جانب الخطر الذي لا يدفعه عنهم دافع . لأن العربي يحميه من الضيم آله وعشيرته ولا يبلغ الأمر مبلغ الخطر على حياته وماله إلا في قتال صريح بعد يأسٍ من الوفاق ، ولا حاجة إلى قتال صريح أو غير صريح لإهدار دم العبد المملوك المرهون بمشيئة مولاه ، وأهون من ذلك عند مولاه تعذيبه وإعناته وحرمانه الراحة وضرورات الحياة .

كذلك لم يكن طلب الاسلام عند هؤلاء الأرقاء طلباً للنقلة من رق ثقيل إلى رق خفيف ، أو من سيد قاسٍ إلى سيد رحيم لأن الاسلام في مبدأ أمره لم يكن ليخرجهم من ربقة الأسر عند سادتهم الأقوياء ، ولم يكن العتق جزءاً موعوداً لمنُ يغضب سيده المشرك ويُرضي النبيّ عليه السلام بالدخول في دينه .

فإنما جاء العتق مصادفة واتفاقاً بعد تشديد العذاب على أولئك الضعفاء المساكين ، وقد كان العذاب يقيناً لا شك فيه ، ولم تكن النجاة إلا وعداً مأمولاً لم تبد تباشيره للعيان .

فمن الخطأ كما أسلفنا أن يعلل ايمان العبيد والإماء بأحكام الاسلام في معاملة الأرقاء ، أو بالطمع في الراحة والمساومة على حسن المعاملة ، فإنما عرفت تلك الأحكام بعد ابتداء الدعوة الاسلامية بزمن طويل، وانما كان العناء والخطر أول ما يصيب العبد الذي يصبأ عن دين مولاه، وكانت الراحة آخر ما يرجوه من أمل بعيد ، ان سلمت له الحياة .

وما زالت العقائد أكرم على ضمير الانسان من هذه المساومات التي تلازم الأسواق وتعرض في صفقات البيع والشراء ، وما زال قلق النفس هو الباعث لها وطمأنينة النفس هي البغية منها ، وتهون في سبيلها بعد ذلك مطالب العيش وراحة الأجساد .

وآية ذلك أنه لم يؤمن انسان قط لغنيمة تخصه ولا تعم سواه .

انه ليساوم في سوق التجارة على الغنيمة التي تخصه دون غيره ، ولكنه اذا آمن بعقيدة من العقائد التي تتناول الحياة والموت فلا بد من غاية تعمه وتعم غيره على السواء ، ولا بد من الأمل العام الذي يتخطى مصالح الفرد ومساومات الآحاد .

وبلال حين آمن بالاسلام قد آمن حقاً بالدين الذي ينصف العبيد ، ولكنه قد آمن به على السنة التي ترضي الكرامة الانسانية لا على سنة المساومة والمصافقة ، أو هو قد آمن به انساناً كما آمن به السادة الاحرار القادرون على شراء العبيد والإماء .

وأقل ما يقال في تعليل اسلامه انه إعجاب نفس طيبة بنفس عظيمة ، وانه ايثار للخير الكبير على الخير الصغير ، وانه استقامة طبع تهتدي إلى الصراط المستقيم ، وانه شوق إلى الحق الذي يريح النفوس وليس بشوق إلى الرفاهة التي تريح الاجساد .

ومما لا شك فيه أن إرضاء الكرامة بالمساواة بين جميع المسلمين كان أحب إلى أولئك العبيد والاماء من كل راحة يرجونها بعد الدخول في الدين الجديد أ"ياً ما كانت الثقة بتحقيق ذلك الرجاء – في أجل قريب أو بعيد .

و قد غبرت القرون على وصايا الإسلام بالرقيق ، وعمل بها من المسلمين من عمل وخالفها من خالف ، واحتال عليها من احتال ، على عهد الناس بجميع الاوامر أو النواهي التي تشرعها العقائد والاديان .

ولكنها سواء روعيت أو خولفت ، قد كانت كسباً عملياً له أثر من النفع الواقع في تاريخ بني الانسان ، وقد بقي لها هذا الاثر إلى أن بطل الاسر وبطل الرق بشتى ذرائعه ودواعيه وارتفعت للحرية الفردية والحرية القومية صيحة لم ترتفع لها قط في زمن من الازمان .

فبعد وصايا الاسلام بألف ومائتي عام ، وفي العصر الذي راحت فيه اوربا تنكر الرق وراح فيه اليونان يطلبون الاستقلال ، نزل بمصر فوج من الاسرى اليونان يزيدون على خمسة آلاف وخمسمائة ووزعهم الولاة على بيوت السراة وذوي الثراء في القاهرة والاسكندرية ، ثم عقد الصلح وقضت شروطه برد الاسرى إلى بلادهم واعتاق من بيع منهم بمال الحكومة المصرية لا بمال الأسير أو بمال ذويه، فآثروا جميعاً البقاء في البيوت التي نزلوا بها نزول العبيد ، ولم يقبل منهم العتق غير اربعمائة أو دون ذاك ، كما جاء في بيان المندوب الانجليزي الذي نيط به تنفيذ تلك الشروط .

ومهما يقل القائلون في تعليل ذلك الإيثار ، فالأمر الذي لا ينكر في هذا المقام ولا ينسى هو : أن أولئك الجند الأوربيين الذين أسروا وهم يعلنون قضية الاستقلال ، ما كانوا ليحمدوا البقاء عند سادتهم المسلمين لو كانت وصايا الاسلام بالأرقاء قد ذهبت ذهاب الكلام في الهواء .

فالعقائد الكبرى قد تتكلم بلسان الفضائل المثالية في نشأتها الأولى . وقد ينشدها المؤمنون بها حباً للمثال الأعلى وطموحاً إلى الكمال ، ولكنها لا تلبث بعد ذلك ان توزن بالميزان وتشخص للعيان .

نَشأة بِلال

اتفقت الأقوال على أن بلالاً كان من الحبشة المولدين ، وجاء في وصفه أنه رضي الله عنه كان « آدم شديد الأدمة نحيفاً طُوالاً — أي فيه انحناء — كثير الشعر خفيف العارضين » .

وهي أوصاف تعهد في سلالة المولدين من السود والساميين ، وقد كانوا كثيرين بين الحبشة واليمن من قديم الزمن ، فليست أوصافه المتفق عليها أوصاف الزنج ولا أوصاف أبناء سام ، وسواده وكثرة شعر رأسه مع خلوصه من فطس الانف وتقبض الشعر تدل على أنه مولد من السلالتين . وقد زعم بعضهم أنه كان ينطق السين شيناً على السود ، فنفى الثقات هذا الزعم وأكد نفيهم أنه كان يقيم الاذان وفيه السين والصاد .

ويختلف في مولده فيقال إنه ولد في مكة ويقال إنه ولد في السراة ، وربما رجح القول الاخير لان السراة أقرب إلى اليمن والحبشة ، ولأن بلالاً رضي الله عنه رجع اليها حين فكر في الزواج .

وأرجح الاقوال في سنة مولده أنه ولد قبل الهجرة بنحو ثلاث واربعين سنة ، ثم تختلف الاقوال حتى يبلغ التفاوت بينها زهاء عشر سنين .

وأبوه وأمه معروفان : أبوه يدعى رباحاً وأمه تدعى حمامة ، وكان ينبز بابن السوداء إذا غضب منه غاضب ، ولعل أمه كانت من إماء السراة

أو إماء مكة ، إذا صح أنه لم يولد بالسراة .

ويحسب بعض الإفرنج الذين كتبوا عنه أنه تلقى من أمه كلمات التوحيد كما كان يفهمه المتدينون والمتدينات بالمسيحية من أبناء الحبشة ، وأنه من ثم أسرع إلى تلبية الدعوة المحمدية حين جهر النبي عليه السلام برسالة التوحيد ، وهو حسبان جائز ولكنه بعيد ، لأن الاحباش في ذلك الزمن إنما كانوا يفهمون المسيحية على نحو أقرب إلى الوثنية ، ولا يرحبون برسالة التوحيد المحمدية ذلك الترحيب .

ويذكر لبلال أخ يدعى خالداً ويكنى بأبي رويحة ، والأغلب في الروايات المختلفة أنه كان أخاه في الإسلام على سنة المؤاخاة بين الصحابة التي سنّها النبي عليه السلام . وقيل إن له أختاً تسمى غفرة هي مولاة عمر بن عبدالله مولى غفرة المحدث المصري ، ولا خبر عنها غير ذلك فيما رُوي من أخباره .

وكانت نشأة بلال بمكة في بني جمح من بطون قريش المشهورة .

وفي بني جمح هؤلاء نشأ أبو محذورة أحد الثلاثة المختارين من مؤذني النبي ﷺ ، وهم بلال وأبو محذورة وعمرو بن أم كلثوم .. ولا يُدرى أمن محض المصادفة أن كانت نشأة اثنين من الثلاثة في بني جمح أم كان لهؤلاء القوم بعض عناية بالصوت والغناء ، وإنما المعروف عن القوم أنهم كانوا أصحاب الأزلام والأيسار في الجاهلية وأنهم كانوا من حزب عبد الدار حين شجر الحلف بينه وبين عبد مناف ، فكان بينهم وبين بني عبد مناف خلاف قديم .

واذا كان لنشأة بلال بين هؤلاء القوم أثر مقدور في بغضه لعبادة الجاهلية واقباله على الإسلام فذلك هو اطلاعه بين القوم على أسرار الأزلام والايسار وما يلزمها أحياناً من الغش والتلبيس ، وأن القوم فيهم مجافاة عن الرحمة والنزعة الروحية باعدت بينهم وبين خلائق عبد مناف — جد النبي عليه السلام — منذ القطيعة الاولى بين الاحزاب القرشية ، وخليقٌ

بأمثال هؤلاء ألا يألفهم الضعفاء .

ولم يعلم على التحقيق من كانوا سادة بلال وأبيه من بني جمح هؤلاء . فقيل انه كان عند عقيلة من عقائلهم ، وقيل انه كان عند أيتام لأبي جهل ، وقيل انه كان عند أمية بن خلف وبعض ولده . واتفقت الأقوال على أن الصدّيق رضي الله عنه هو الذي استنقذه من أيديهم بعد ما عاينه من تعذيبهم اياه لدخوله في الإسلام . فاشتراه بخمس أواق من الذهب وقيل بسبع أواق وقيل بتسع أواق . وزعموا أن سيده أراد أن ينغص الصفقة على الصديق بعد شرائه فقال له : لو أبيت إلا أوقية لبعناك ! فقال له الصديق : لو أبيتم إلا مائة لاشتريته . ! ! ويزعم بعض الرواة أن الصديق استبدله بغلام له جلد من عبيده ، وهي رواية يشك فيها كثيراً . لأن الصديق لم يكن ليُسلم المشركين رجلاً من أتباعه ليستنقذ به رجلاً غيره ، وأدنى من ذلك وأشبه بخلائق الصديق رضي الله عنه أنه اشتراه بأمر النبي عليه السلام ، وأنه عليه السلام عرض عليه الشركة فيه ليخفف عنه عبء نفقته ونفقة المستضعفين من أمثاله ، فقال له : لقد أعتقته يا رسول الله . وعمل بعد ذلك خازناً له ثم خازناً للنبي ومؤذناً للمسلمين بعد إقامة الأذان .

واستراح بلال بعد عتقه من إيذاء السادة للعبيد ولكنه لم يسترح ولا استراح غيره من إيذاء الأحرار للأحرار ولا سيما المستضعفين الذين لا تحميهم العصبية ولا الخوف من الثأر . فقد كان المشركون يتعقبون المسلمين بكل ما استطاعوا من عنت ومساءة ، واشتدوا في ذلك حتى همّوا بقتل النبي عليه السلام وجمعوا كلمة القبائل على هذه النية ليفرقوا دمه الزكي بينها فلا تقوى هاشم وحدها على محاربتها أو تصمد لعداوتها . فأشفق النبي الكريم على صحبه وأذن لهم في الهجرة قبله ، وكان بلال ممن هاجر إلى المدينة على إيثار منه للبقاء في مكة . فلما وصل النبي عليه السلام وصاحبه الصديق إلى المدينة كانت « أوبأ أرض الله من الحمى » ولكنها أرحم بهم من جيرة المشركين في مكة . ونزل الصديق وعامر بن فهيرة وبلال في

بيت واحد فأصيبوا جميعاً بالحمى – ولعلها الملاريا كما رجحنا في غير هـذا الكتاب – فكان بلال اذا تركته الحمى اضطجع بفناءالبيت ثم رفع عقيرته يترنم بصوته الجهوري قائلاً :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلـة

بفخ وحولي إذخر وجليـل

وهل أردنْ يومـاً مياه مجنّة

وهل يبدوَنْ لي شامـة وطفيل

وهي مواضع ومنابت بمكة وجوارها تشوّقها بلال في العلة لما ابتعد عنها ، وليس أعجب في الوفاء لموطن الصبا من هذا الوفاء ، لأن بلالاً قد لقي عند تلك المواطن والمناسب قسوة في جاهليته وتعذيباً في اسلامه وخطراً على حياته ، ولكنه عاش فيها مع الصبا الأول وعاش فيها مع الإيمان الأول ، فهي حبيبة اليه أثيرة لديه ، وإن لقي الحفاوة والسلامة في الهجرة منها إلى غيرها .

وقد لزم بلال النبيّ والصدّيق بالمدينة ومكة وسائر المغازي والأسفار بعد ذلك . وكان لمسجد المدينة الذي اشترك النبي عليه السلام في بنائه حظٌ الأذان الأول فكان لبلال حظ السبق بهذا الأذان . ولم يزل له حظ التقدم على سائر المؤذنين في حضرة النبي حتى قُبض عليـه السلام ، ومُيِّز بالتقدم عليهم لتقدمه في الاسلام ولجهارة صوته وحسن أدائه ، وإن كان تقدمه في الاسلام هو أرجح المزيتين التي استحق بها التفضيل والتكريم .

كان إذا فرغ من الأذان وأراد أن يُعلم النبي عليه السلام أنه قد أذن وقف على الباب وقال : حي على الصلاة ! حي على الفلاح ! الصلاة يا رسول الله . فاذا خرج رسول الله فرآه بلال ابتدأ في الاقامة .

وقيل في خصائص أذانه إنه كان يؤذن حين يدحض الشمس ويؤخر الاقامة قليلاً . أو ربما أخرها قليلاً ، ولكن لا يخرج في الأذان عن الوقت .

وربما ترنم ببعض الشعر وهو صاعد للأذان رثاءً لحاله وطلباً للتوبة والرحمة من الله . ومن ذاك أنه سُمع وهو يقول :

ما لبلال ثكلته أمـــه وابتل من نضح دم جبينـــــه

وكان من عمل بلال في صحبة النبي عليه السلام قبل بناء المصلّى أنه كان يحمل العنزة بين يديه ويركزها حيث تقام الصلاة ، وكانت هذه العَنَزَة إحدى عنزات ثلاث أهداها نجاشي إلى النبي عليه السلام ، فأمسك واحدة لنفسه وأعطى كلاً من علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب واحدة ، واختص بلالاً بحمل العنزة بين يديه أيام حياته ، فكان يحملها في العيدين وفي أيام الاستسقاء ويركزها حيث تقام الصلاة ، وقيل انه كان يمشي بها بين يدي الصدّيق في خلافته ثم جعل سعد القرظ يمشي بها بين يدي عمر وعثمان بوصاة من بلال ، وهي العنزة التي احتفظ بها الولاة يُمشى بها بين أيديهم بعد عهد الخلفاء .

وقد آخى النبي في المدينة بين المهاجرين والأنصار ، فآخى بين بلال وخالد أبي رويحة الخثعمي ، وقيل بل بينه وبين أبي عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، أو وبين أبي عبيدة الجراح ، وهو على ما يظهر لبس في الاسماء ، والأول هو الارجح لبقاء الصلة بين بلال وأبي رويحة إلى أن فرقت بينهما الوفاة .

ويبدو من أحاديث النبي عليه السلام لبلال أنه كان يصطفيه لأنه أهل لاصطفاء التربية والتعهد بالنصيحة والتعليم ، فكان يقول له : يا بلال ! أفضل عمل المؤمن الجهاد في سبيل الله ، وكان يقول له : عش فقيراً يا بلال ومت مع الفقراء . وربما عهد إليه في تفريق ما يفضل من المال عنده وقال له : أنظر حتى تريحني منه . فيرى بلال القدوة في سيده ونبيه فإذا هو من خيرة المقتدين ، ويظل على هذه القدوة حتى فارق الحياة .

وقد أُري النبي عليه السلام أنه سمع دف نعلي بلال بين يديه في الجنة ،

فسأله بعد الصلاة : يا بلال ! حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الاسلام منفعة ، فإني سمعت ليلةً دفَّ نعليك بين يدي في الجنة .. فلم يذكر بلال زهده ولا جهاده ولا صبره على العذاب ولا أمانته وتسليمه ، بل قال : « ما عملت عملاً في الاسلام أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي » .

فكان اصطفاء النبي هذا الصديق المؤمن الأمين اصطفاء المربي الكبير للرجل تثمر فيه التربية والقدوة الحسنة كما يثمر فيه الصنيع الجميل ، ويُحَب للطف محضره كما يحب لخلوص طويته وفضائل نفسه . وقد كان كالحارس الملازم لشخص النبي عليه السلام في طويل صحبته بين الحرب والسلم والاقامة والسفر ، ولكنه عليه السلام لم يكن يتخذه حارساً يحميه كما يحمي الحراس الأمراء والسلاطين ، وإنما كان يستصحبه في إقامته وسفره استصحاب الحراس لأنه كان يستريح إلى رؤيته والشعور بصدق مودته ووفائه . وكانت مودة بلال لمولاه وهاديه تبدو منه حيث يريد وحيث لا يريد ، فاذا اشتد الهجير في رحلة من الرحلات أسرع إلى تظليله بثياب الوشي والنبي لا يسأله ذلك ، وإذا تهيأوا للقتال ضرب له قبة من أدم يرقب الموقعة منها وجعل يتردد بينها وبين الميدان ليطمئن عليه ويتلقى الأمر منه ، فلم يفرّقهما موقف ضنك ولا موقف خطر ، ولم ينقض يوم إلا جمعهما فيه الصلوات الخمس ومجالس العظة والحديث ، ما لم يكن في غيبة قصيرة لشأن من شؤون الدين الذي لم يكن له شأن سواه .

ولما فُتحت مكة أمره النبي عليه السلام أن يقيم الأذان على ظهر الكعبة فأقامه والمشركون وجوم يغبطون آباءهم لأنهم لم يشهدوا ذلك اليوم ولم يسمعوا ما سمعوه فيه ، ودخل النبي الكعبة فكان في صحبته ثلاثة هم : عثمان ابن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد ، ابن النبي بالتبني ، وبلال .

وما زال يصحب النبي مجاهداً حتى قبض عليه السلام ، فأقام الأذان بعد وفاته أياماً على أرجح الأقوال ثم أبى أن يؤذن وأصر على الإباء ، لأنه

كان إذا قال في الاذان « أشهد أن محمداً رسول الله » بكى وبكى معه سامعوه ، فلم يطب له المقام حيث كان يصحب النبي ويراه ثم هو بعدُ لا يصحبه ولا يراه ، وآثر الاغتراب على فرط حبه لمكة والمدينة ، وآثر الجهاد على فرط حاجته إلى الراحة في عشرة الستين . واتفقت أرجح الاقوال على أنه استعفى الصدّيق من الأذان معه واستأذنه في الخروج إلى الشام مع المجاهدين . فأذن له بعد إلحاح منه ، واشترك في معارك لا نعلمها على التفصيل ، ثم سكن إلى ضيعة صغيرة بجوار دمشق يزرعها ويعيش من غلتها ، ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك إلا يوم أذن للخليفة الفاروق بدعوة من كبار الصحابة والتابعين ، ويوم تصدّى لمحاسبة خالد في مجلس الحكم بين يدي أبي عبيدة .

وأدركته الوفاة في نحو السبعين — لأنه كان ترب الصدّيق على أرجح الاقوال — وقيل انه مات في طاعون عمواس ، وقيل سنة عشرين للهجرة أو إحدى وعشرين . واستعذب الموت لانه سيجمع بينه وبين النبي وصحبه كما كان يقول في ساعات الاحتضار ، فكانت زوجته تعول إلى جانبه وتصيح صيحة الوله ! واحزناه . فيجيبها في كل مرة وافرحاه . غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه .

وكانت وفاته بدمشق فدفن عند الباب الصغير ، وقبره رضي الله عنه معروف يزار .

وليس أدل على قدر بلال عند الصحابة والتابعين من ذلك الوجد الذي اختلجت به حناياهم وهو يؤذن لهم في دمشق بعد انقطاعه عن الأذان تلك السنين الطوال. بكى عمر وبكى معه الشيوخ الأجلاء حتى اخضلت اللحى البيض واضطربت الأنفاس التي لا تضطرب في مقام الروع . ولو بدا لهم أنهم يستمعون إلى صوت آدمي ينطلق من حنجرة من اللحم والدم لما اختلجوا تلك الخلجة ولا تولاهم ما تولاهم يومئذ من الوجد والرهبة ، ولكنهم أنصتوا لوحي الغيب حين أصغوا اليه ، وقام في أفئدتهم أنه صوت جديد بمحضر النبي عليه السلام يسمعه معهم كما سمعوه معه آونةً من الزمان . فهم إذن في علّيّين أو قريب من

عليين ، وهم إذن على مسمع ومشهد من ذات الله جل وعلا وذات النبي عليه السلام في جواره، وهم إذن أرواح علوية يضيق اللحم والدم بفيضها الإلهي فترجف من الوجد وتنكسر الأجساد بالبكاء مغلوبة في عالم الأرواح وآفاق السماء .

رحم الله بلالاً إنه كان داعي السماء ليرفع أبناء الأرض بدعوتها . وقد رفعهم في ذلك اليوم إلى الأفق الأعلى ، إلى الحضرة التي ترتجف فيها الأجساد لأنها غريبة في ذلك الجوار .

* * *

وحق للمسلمين في ذلك العهد أن يقرنوا بين محضر النبي وصوت بلال حيث كان ، فمن سيرة بلال الوجيزة نعلم أنه كان يأوي إلى كفالة النبي في حياته البيتية كما كان يأوي إليه في حياته الدينية . وأن احداً من الصحابة لم يكن يذكّرهم بالنبي عليه السلام كما كان يذكرهم به مؤذنه وصاحبه ووليه طوال حياته حيث يرونه أو حيث يستمعون إليه . وقد شغل النبي بمعيشته في بيته كما شغل بعتقه ورزقه وتقويم دينه ، ففي روايات مختلفة أنه تزوج بوصية منه عليه السلام، وفي إحدى هذه الروايات « إن بني أبي البكير جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : زوِّج أختنا فلاناً . فقال لهم : أين انتم عن بلال ؟ ثم جاءوا مرة أخرى فقالوا: يا رسول الله أنكح أختنا فلاناً، فقال لهم: أين انتم عن بلال ؟ ثم جاءوا الثالثة فقال لهم : اين انتم عن بلال ؟ اين انتم عن رجل من أهل الجنة . فأنكحوه » .

والظاهر أنه تزوج غير مرة وأنه مات بغير عقب ، فقد جاء في رواية قتادة أنه تزوج أعرابية من بني زهرة ، وجاء في رواية أخرى ان له زوجة تدعى هنداً الخولانية ، وهي من خولان اليمن لا من خولان الشام ، لأنها كانت معه قبل هجرته إلى الشام .

ذكره ابن اسحاق فيمن حضر بدراً فقال : وبلال مولى أبي بكر .

مولَّد من مولدي بني جمح اشتراه أبو بكر من أمية بن خلف، وهو بلال بن رباح ، لا عقب له .

نعم ولكنه أعقب الميراث الذي يتصل بالأذان في كل مكان .. فلا ينساه من يسمع الأذان ويرجع به إلى أول من نادى به قبل أجيال وأجيال .

إسلام بلال

كل إيمان فهو شيء يتجاوز الفرد الواحد ولا ينحصر في مصلحته العاجلة أو الآجلة .

فليس بإيمان ذلك الذي يخص فرداً واحداً ولا يتجاوزه إلى غيره في زمنه ، وليس بإيمان ذلك الذي يدور على المصلحة الفردية وإن تعدد فيه الأفراد ، لأن الإنسان قد يضحي بالمصلحة في سبيل الإيمان ولا يفعل ذلك وهو يحسب حساب المصالح ولا يتجاوزها .

وقد يضحي الانسان أحياناً بالإيمان في سبيل المصلحة العاجلة أو الآجلة ، ولكن ذلك لا ينفي أن الايمان شيء أكبر من المصلحة عاجلها وآجلها ، وإنما يدل في هذه الحالة على أن ذلك الانسان يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وأنه ضعيف اليقين ضعيف الاستعداد للإيمان .

فالإيمان لا يقوم على أساس المصلحة العاجلة أو الآجلة .

ويكفي أن يضحي الناس بمصالحهم في سبيل إيمانهم — ولو في بعض الأحيان — لتقرير هذه الحقيقة من وراء الجدل والخلاف .

لأننا نفهم أن ينسى الرجل إيمانه في سبيل مصلحته فنقول ان المصلحة عزيزة عليه وإن الايمان ضعيف في نفسه .

ولكننا لا نفهم أن ينسى الرجل مصلحته في سبيل إيمانه إلا على وجه

واحد ، وهو أن الايمان والمصلحة معدنان مختلفان ، وأن المصلحة عزّت أو هانت هي شيء غير الايمان .

ولا يقال إن مصلحة الآخرة تدخل في حساب الرجل فينسى من أجلها مصالحه الدنيوية . فإن تصديقه بمصلحة الآخرة هو نفسه إيمان بالغيب ، وهو سابق لحصول المصلحة على كل حال .

ومع هذا وجد في زماننا هذا أناس – كأتباع كارل ماركس – يؤمنون بالمادة وينكرون كل شيء غير هذه الدنيا المحسوسة ، ويقولون إن الأديان والمذاهب والآداب وكل ما يحيك بضمير الانسان إن هي إلا صورة من حياته المادية التي لا بعث بعدها ولا محل للروح فيها ، ومنهم مع ذلك من يدخل السجن ويتعرض للنفي ويجازف بالحياة ويفقدهـا في سبيل إيمانه بمعتقده وانكاره لمعتقد الآخرين .. وليس بالمعقول أن يفقد الانسان الحياة لأنه يطمح إلى الطعام الهنيء والعيش الرغيد ، وليس بالمعقول من باب أولى أن يفقد الحياة ليأتي بعده من ينعم بالطعام الهنيء والعيش الرغيد وهو تحت التراب . فاذا هو أقدم على فقد الحياة فالمسألة عنده ليست مسألة حساب وموازنة أو مسألة مصلحة كبيرة بازاء مصلحة صغيرة ولكنه إنما يفعل ذلك لأنه بازاء قوة تمضي به حيث شاءت ولا يمضي بها حيث شاء ، أو لأنه في حالة نفسية غير حالة الحساب والموازنة ووضع الأرقام بازاء الارقام .

وقد شوهدت في الدنيا عبادات كثيرة وعقائد لا تحصى ، ولكن لم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياة وهي خلو من إيمان بحق وثورة على باطل ، ولم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياة وهي قائمة على منفعة تخص صاحبها ولا تتجاوزه إلى الآخرين . ومتى تجاوزت المنفعة فرداً واحداً وأصبحت قابلة للتعميم بين الأفراد الآخرين – فهي إذن مسألة حق سابق لوجود المنافع وسابق لوجود الأفراد .

فالايمان ابداً هو شعور بالحق وليس شعوراً بالمصلحة على وجه من الوجوه .

وقد تقف المصلحة في سبيل العقيدة قبل الايمان بها ، لان المصلحة موجودة والايمان غير موجود ، ولكنهما متى وجدنا معاً فهما شيئان وليسا بشيء واحد . ويظلان أبداً شيئين من معدنين مختلفين وإن تلاقيا في الطريق إلى مدى بعيد .

وإن إسلام بلال رضي الله عنه لمن الشواهد الكثيرة التي تقرر هذه الحقيقة في الأذهان .

وقد عنينا بأن نبين مزايا الاسلام في معاملة الارقاء . ولكننا عنينا مع ذلك بأن نبين حقيقة أخرى لا بد من تبيينها في هذا المقام ، وهي ان المعاملة نفسها ليست هي سبب دخول الارقاء في الاسلام ، وإنما هو « الحق » والشعور بجمال هذا الحق أو وجوب تغليبه على الباطل ، ولو لقي الارقاء في سبيله ما هو أقسى عليهم من معاملة المشركين للعبيد والإماء .

كان أول من أسلم ثمانية هم أولئك النخبة الأبرار : خديجة وأبو بكر وعلي وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد .

قال رواة صدر الاسلام : أما أبو بكر فمنعه الله بقوته وكذلك من كان لهم قوم يحمونهم . وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وأصهروهم في الشمس فما منهم انسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا من الكفر وسب النبي عليه السلام . إلا بلالاً فانه هانت عليه نفسه في الله وهانت على قومه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : أحد . أحد . ولا يزيد .

وجاء في طبقات ابن سعد بأسناده ما فحواه : إنه كان من المستضعفين من المؤمنين ، وكان يعذب حين أسلم ليرجع عن دينه فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون ، وكان الذي يعذبه أمية بن خلف ..

وكانوا اذا اشتدوا عليه في العذاب قال: أحد . أحد . فيقولون له: قل كما نقول. فيقول: ان لساني لا يحسنه. وكانوا يأخذونه فيمطونه ويلقون عليه من

البطحاء وانطاع الأدم ويريدونه على أن يذكر اللات والعزى فلا يذكرهما ويقول : أحد . أحد . فأتى عليه أبو بكر فسألهم علام تعذبون هذا الانسان ! واشتّراه بسبع أواق وأعتقه .

ومما جاء في الطبقات «أن أبا جهل جاءهم بالعشي فجعل يشتّم سمية ويرفث ثم طعنها فقتلها فهي أول شهيد في الاسلام . وهانت على بلال نفسه في الله حتى ملوه فجعلوا في عنقه حبلاً ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبي مكة فلم يزدهم على كلمته التي كان يرددها ولا يمل من ترددها : أحد ، أحد .

وكانوا يضربونه ويلقونه على الرمال الكاوية في وقدة الهجير ثم يضعون الحجارة على صدره وهو لا يجيبهم الى كلمة مما يسألونه ، ولا يسكت ولا يكف عن الجهر بالتوحيد » .

* * *

هذه صورة بلال رضي الله عنه في مبدأ إسلامه وهو يتلقى العذاب ويتعرض للموت ولا يصل به الإسلام إلى الوعود — فضلاً عن تحقيق الوعود — في معاملة المستضعفين من العبيد والاماء ، لأن أحكام الاسلام في معاملة الأسرى والأرقاء على التعميم لم تكن معروفة مفصلة في ذلك الحين ..

وإن آخر ظن يخطر على بال المرء إذ يرى بلالاً على تلك الصورة المؤلمة أنه يرى أمامه رجلاً وازن بين سوء المعاملة في الجاهلية وحسن المعاملة في الاسلام فاختار المعاملة الحسنة ودخل في الدين الجديد من أجلها .

لأن إسلام بلال لم يكن مخرجه من رق سادته المشركين ، ولم يكن سوء معاملتهم إياه قبل الاسلام شيئاً إلى جانب ذلك العذاب الأليم الذي كان يسامه بعد اسلامه ، ولو كان حسن المعاملة همه من الدين الجديد لانتظر حتى يسلم سادته فيطمع عندهم في تلك المعاملة الحسنة ، أو لانتظر حتى يمتنع جانب المسلمين بالعدد الكثير فيجهر بالاسلام بين مئات وألوف ، ولا يعجل إلى

دخول الدين الجديد بين نفر من المغلوبين المطاردين ، سواء من الأحرار أو العبيد .

واعجب شيء أن يخطر للعقل أن الاسلام قد سوى بين العبيد والأحرار فآمن به العبيد ، ولا يخطر له أن هذه التسوية تغضب الأحرار فتحميهم الأنفة ان يدخلوه ، وقد دخله الاحرار كما دخله العبيد في مبدأ التبشير بالدين الجديد .

فإن كانت لبلال وصهيب وأمثالهما مصلحة في الايمان بذلك الدين لأنه يسوي بينهم وبين أبي بكر وحمزة وعثمان وعلي والفاروق فما مصلحة هؤلاء في النزول بأقدارهم إلى حيث يتساوون بعبيدهم المستضعفين وهم أولئك ذوو الحمية التي تشمخ برؤوسهم على رؤوس الأحرار من أبناء كل قبيل لا يضارعهم في العزة والجاه !

فعن الحق وسكينته في النفوس فلنبحث في تعليل الايمان بكل عقيدة جديدة وكل مصلحة انسانية فوق مصالح الأفراد ، وانما يوجد الايمان حين يوجد للنفس حقٌ محبوب وباطل مكروه ، ولو ضاعت في سبيل حب الحق وكراهة الباطل كل مصلحة عاجلة أو آجلة أو ضاعت الحياة بغير أمل في الجزاء .

فلا العبيد آمنوا لأن الاسلام يسوي بينهم وبين الاحرار ولا الاحرار آمنوا لان الاسلام يسوي بينهم وبين العبيد. لان قصارى هذه التسوية انها مصلحة لفريق من الناس ، وما زال الايمان والمصلحة شيئين مختلفين ومعدنين متباينين . فالمصلحة شيء تحتويه حياة الفرد وقد تحتويه حصةٌ قليلة من حياته ، أما الايمان فهو ابداً شيء يتجاوز الفرد الواحد وقد يبذل في سبيله المصلحة والحياة .

أو لم يوجد في الوثنية وفي بعض الأديان الكتابية أناسٌ يؤمنون بالأرباب وهم يؤمنون ان الأرباب تفرق بين اقدارهم وأقدار سادتهم في الحياة وبعد الممات ؟

أو لم يكن بلال يؤمن باللات والعزى وغيرهما من أرباب الجاهلية وكان لا يرجو نصفةً منها ولا تسوية بينه وبين ساداته المتجبرين عليه وعلى سائر الضعفاء ؟

فلما ساء ظنه بهذه الأشتات من الأرباب كان حسن ظنه بالإله « الأحد » هو الذي سوّأ ظنه بدين الجاهلية ، وكانت وحدانية الله العلي الأعلى التي تجري على لسانه وتعمر قلبه وتعينه على شدته وهو يتلظى من ألم العذاب بين يدي سادته القساة .

فكانت الوحدانية هي الكلمة الواحدة التي تخص بها فضل الدين الجديد على الدين المهجور . وقد ألهم هذا التلخيص الصادق الوجيز إلهام الايمان الذي يهدي العقل إلى موقع الهدى من أوجز طريق . فلو انه كان يقول « الرحيم » في موضع « الأحد » لجاز أن يقال ان في الآلهة الوثنية من يتصف بالرحمة ، أو لجاز أن يقال إن الرحمة بدرت إليه في تلك اللحظة لانه يشتكي القسوة والعذاب . ولكنه لما ردد كلمة الوحدانية ولم يردد غيرها كان قد هدي إلى الصفة الوحيدة التي لا يدعيها المدعون لارباب الجاهلية ، كما هدي الى الصفة الوحيدة التي تجعل الايمان إيماناً بالحق ولا تجعله انتظاراً لرحمة او غفران او جزاء .

ولا نريد أن نقول إن الايمان والمصلحة لا يجتمعان ، ولا أن نقول إن المؤمن لا تخطر له المصلحة بحال او إنها لا شأن لها البتة في تحول العقائد والعبادات . فإن المصلحة قد تعوق كثيراً من الناس عن قبول دين جديد ، وقد تنبه الاذهان الى الاصغاء الذي يتبعه الارتياح والتصديق ، وقد تكون مصلحة فرد ومصلحة الوف من الناس ، فيستطاع الجمع بينها وبين الايمان بالخير العميم .

ولكن الذي نقوله ان المصلحة غير الايمان وانهما قد يفترقان كما يتفقان ، ولو كانت المصلحة هي الايمان لوجدتْ المصلحة ولم تكن هنالك

حاجة الى وجود ايمان على الاطلاق .. كفى ان يسعى الانسان الى مصلحته دون ان يجعل الايمان سبيلا اليها ، وكفى ان يلتزم المصلحة ولا يتعداها الى الذي يحبب اليه الموت . فأما وقد وجد الايمان في كل زمن من الازمان ، ووجد مع انتظار الجزاء ومع اليأس من كل جزاء ، فلا معنى لان يقال ان فرداً من الافراد قد آمن لأن له مصلحة في ايمانه . فإنه يضم الى المصلحة شيئاً آخر اذن حين يدعمها بالايمان .

كلا . ليست صورة بلال على رمال البطحاء الموقدة في قيظ الصحراء صورة الرجل الذي طلب الخلاص من قسوة السادة ، لان الخلاص هو كل ما يعنيه .

وليست صورته وهو يكرر « الاحد . الاحد » بصورة الرجل الذي دخل الدين الجديد وهو يجهل الفارق الصحيح بين الدينين ، ولا يعرف للدين الجديد فضلا الا الرحمة بالعبيد في الارض او في السماء .

لقد كادوا يقتلونه وهو لا يجيبهم الى تعظيم آلهتهم ولا يؤثر السكوت ، ولعلهم لم يبقوا عليه الا لشحهم بثمنه ان يضيع عليهم ان قتلوه ، ولعل أبا جهل قد قتل سمية لأنها جارية عجوز لا تصلح للبيع ولا للمبادلة ، ولم يقتل بلالا ولا عماراً ولا صهيباً لأنهم رجال عاملون يباعون ويشترون .. ولكنهم لا شك كانوا قاتليه آخر الأمر إن يئسوا منه ولم يجدوا من المشركين من يشتريه وهو صابىء عن دين الجاهلية ، فلم يكن إسلامه سبيل رفق ولا تخفيف من عناء ، بل كان سبيل عذاب ومخاطرة بالراحة والحياة .

وأي عذاب ذلك العذاب ؟

حسبنا أن نعلم أن رفقاء بلال جميعاً قبلوا ما سامهم المشركون أن ينبسوا به — ومنهم عمار بن ياسر — لنعلم أنه كان عذاباً يفوق طاقة الانسان.

إن عماراً لم يكن يهاب الموت في هرمه ، ولكنه ضاق — في صباه — بذلك العذاب الأليم .

كان يجاهد مع علي رضي الله عنه وقد أناف على التسعين ، وقد شهد المغازي في عهد النبي وعهود الخلفاء ، وكان عليه السلام يقول : « إن عماراً مليء ايماناً الى مشاشه » ويجعله قدوة للمسلمين في الهداية فيوصيهم أن يقتدوا بأبي بكر وعمر وأن يهتدوا بهدي عمار . وهو ايضاً لم يجذبه الى الايمان طلب راحة وطمع في حسن معاملة ، لأنه كان يرى طريق الراحة والغنيمة مع معاوية وينضوي الى جانب علي ليموت تحت لوائه في صفين ، وما كان عليٌّ لو انتصر بمغدقٍ عليه مالا ولا بمطمعه في عيش أرغد من عيشه ، وهو عيش الكفاف .

وقد كان عمار رضي الله عنه ممن يصدق عليهم القول بأنه قد وهب عبقرية الايمان . لان ايمانه كان ذلك الايمان الخالص الذي يوصف بأنه الإيمان حباً بالإيمان لا حباً بما وراءه من رضى أو جزاء . وآية المؤمن الموهوب أنه لا يرضى العيش بغير العقيدة ولا يطيب له البقاء وهو مخالف لما يعتقد فيقبل على الموت كراهة للبقاء في دنيا لا تواتيه على اعتقاده . وليس يقبل على الموت طلباً للجنة كما يقال . فإن من المؤمنين بالعقائد المادية كما أسلفنا من يموت في سبيلها ولا أمل له في حياة بعد الحياة ، وان الجنة لحبيبة الى كل انسان يصدق بها . فليس الفرق بين رجل يجاهد ورجل لا يجاهد ان هذا يكره الجنة التي يحبها ذاك ، وانما الفرق بينهما هو قوة الإيمان أو هبة العقيدة . وهي قد كانت في عمار على أقوى ما تكون في انسان .

ومع هذا خف الموت على نفس عمار فسعى الى لقائه عشرات المرات منذ غزا مع النبي الى ان نيف على التسعين ومات تحت لواء علي بمعركة صفين ، ولكنه ثقل عليه ذلك العذاب الاليم الذي صبر عليه « بلال » وظل صابراً عليه بغير أمل في الخلاص القريب .

وكل طمع في حسن المعاملة يزول ويبطل في مثل ذلك العذاب الذي ضاقت به طاقة عمار .

نعم يزول ويبطل لولا ايمان يهون معه الموت ويهون معه العذاب ، ويهون معه سوء المعاملة وحسنها على السواء .

نعم إن العبيد كانوا أسرع من الأحرار الى دخول الدين الجديد ، ولكن الذي يفهم من ذلك – أو ينبغي ان يفهم منه – ان المصلحة لم تكن عقبة بين العبيد وبين الإصغاء الى الدعوة الجديدة ، وأن الاحرار كانت لهم مصالح تحجبهم عن جمال تلك الدعوة وعن التأمل في صدقها وبطلان ما هم عليه ، وفرقٌ عظيم بين القول بأن المصلحة لم تكن عائقاً عن فهم الدين والدخول فيه وبين القول بأن الدين هو المصلحة التي أرادها المؤمنون ، إذ لو كانت المصلحة هي المراد بالعقيدة لما وجدت العقيدة على الاطلاق ، ولوجدت المصالح كما هي موجودة في الدنيا بغير اعتقاد على الاطلاق في شيء من الأشياء .

لقد كانت في نفس بلال حاجة الى الولاء والاخلاص ، فصدق النبي الكريم لأنه كان أهلا لولائه وإخلاصه ، وكان خليقاً أن يطمئن اليه ويشعر بالسكينة في الاصغاء الى قوله والاقتداء بعمله .

وسمع رجلا ينادي بأن الناس أمة واحدة وأن المؤمنين إخوة وهو في الذؤابة العليا من بني هاشم أو في الذؤابة العليا من قبائل العرب جمعاء ، فكان هذا سبب التصديق والايمان ، وكانت دعوة الرجل الحسيب النسيب التي لا مصلحة له فيها هي البرهان الاول على صدق العقيدة ، ولولا انعدام المصلحة في دعوة ذلك الرجل الحسيب النسيب لما أسرع بلال الى تصديقه والجنوح اليه .

فأما وقد جنح اليه وآمن بدعوته فالمسألة بعد ذلك لن تكون مسألة موازنة بين المعاملات أو مساومة على الزيادة والنقصان ، ولكنها أصبحت مسألة راحة بالإيمان أو راحة بغير الإيمان ، ولم تكن لبلال راحة بغير ذلك الإيمان بعد ان جنح اليه ومزجه بقلبه وضميره . فصبر في أيام معدودات

على عذاب لم يكن ليلقاه من المشركين مدى العمر لو بقي على دينهم كما كان .. وقد صبر على بلاء الجسد لانه مستريح القلب والضمير .

على أن المعاملة الحسنة قد جاءت إلى بلال من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب كأحسن ما تصبو اليه الاحلام ويتعلق به الرجاء .

فبلغ من تعظيمه انه كان نداً لاعظم المسلمين في حياة النبي عليه السلام وحياة الصديق والفاروق . بل كان الفاروق رضي الله عنه يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » ويقصده بهذا اللقب الرفيع ، واتفق ان أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو بن الحارث ورهطاً من سادة العرب طلبوا لقاء الفاروق وطلبه معهم بلال وصهيب . فأذن لهما حتى يستمع لما يريدان ويفرغ بعدهما لعلية القوم . وغضب ابو سفيان وقال لأصحابه : لم أر كاليوم قط . يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ؟ وكان سهيل أحكم منه وأدنى إلى الانصاف فقال لهم : « أيها القوم ! اني والله أرى الذي في وجوهكم . إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم . دُعي القوم – إلى الاسلام – ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ! » .

* * *

جمال هذا الادب هو الذي يهون في سبيله الموت وسوء المعاملة والعذاب الاليم ، وهو الذي يوحي العقيدة إلى النفس فترتفع بها فوق المصالح والمساومات . ولقد كان هذا أدب النبي فأحبه الاحرار وأصغوا اليه وصدقوه.. ولقد تمت أداة العقيدة حين تم الحب والاصغاء والتصديق . فما يزال بنو الانسان على هذا الشأن إلى آخر الزمان : ليس بينهم وبين الفداء إلا قضية يحبونها وداع يصدقونه . وما يكونون يوماً أحوج إلى الايمان منهم يوم تعز عليهم القضية التي تحب والداعي الذي يصدق . فإذا بلغت بهم الحاجة مداها فليس أمامهم محيص من إحدى غايات ثلاث : فناء ، أو حياة كحياة الحيوان ، أو إيمان يوجد حيث كان .

صِفاتُ بِلال

كان بلال رجلا على سواء الفطرة .

وآية ذلك أنه كان كما ينبغي أن يكون كل رجل قوي الطبع من بني جلدته وفي مثل نشأته ، يمر بالحوادث التي مرّ بها ويمارس التجارب التي مارسها .

وقد تقدم في صفات الموالي الأفريقيين أنهم ينقمون الإساءة على المسيء ويحفظون الحسنة لمن يحسن اليهم ويملكهم بمهابته وطيب سجاياه .

وهكذا كان بلال رضي الله عنه في مجمل صفاته : كان متصفاً بأجمل صفات بني جلدته : وهي الأمانة والطاعة والولاء والصدق مع الولاء ، وكانت فيه مع ذلك قسوة وعناد في موضع القسوة والعناد ، ولكنه لم يكن بالمبتدىء في قسوته ولا بالمكابر في عناده . إنما كان لقسوته عذر أو سبب ، وكان لعناده فضل الإصرار على الإيمان بالصواب .

قال ابن الرومي :

إذا الأرض أدّت ريع ما أنت زارع
من البذر فيها فهي ناهيك من أرض

ولا عيب أن تُجزي القروض بمثلها
بل العيب أن تدّان دَيناً فلا تقضي

فالذين أساءوا إلى بلال كانوا لا يحمدون أثر الاساءة فيه ، وكانوا يطلبون منه الرضا حيث أسلفوا له المساءة فلا يجدون الرضا حيث طلبوه ، فإذا بهم ينحلونه صفاتهم ويعيبونه بمساءتهم ، وينكرون صحبته كما ينكر صحبتهم . ومن ذاك أن مشترياً أراد ان يساوم فيه سيدته « قبل أن يفوتها خيره وتحرم ثمرته » فقالت له متعجبة : وما تصنع به ؟ إنه خبيث .. وإنه . وإنه ! الى آخر ما وصفت به سخطه على سوء المعاملة وسوء العشرة .

ومع هذا قد أجمع الذين وصفوا بلالا على أنه كان طيب القلب صادق الإيمان ، وأنه أبعد ما يكون عن خبث أو كنود ، وإنما هو بشرة سوداء على طبع صاف يرى الناس وجوه أعمالهم فيه .

وقد كان اكرم صفاته الفطرية مما يوافق الطاعة وصدق الولاء ، فكان إيمانه القوي بالله ، واخلاصه المكين لرسول الله ، هما الذروة التي ترتقي إليها محاسن بني جلدته ، ومحاسن كل مولى مطيع ، سواء كان ولاؤه ولاء تابع لمتبوع أو ولاء معجب بمن يستحق الإعجاب .

كان حبه لرسول الله هو لب الحياة عنده ، وهو معنى الدنيا والآخرة في طوية قلبه ، وعاش ومات وهو لا يرجو في دنياه ولا بعد موته إلا أن يأوي إلى جواره وينعم برضاه .

وحضرته الوفاة فكانت امرأته تئن وتغلبها النكبة في قرين حياتها فتصيح : واحزناه .

وكان هو يجيبها في سكرات الموت : بل وافرحتاه ! غداً نلقى الأحبة ، غداً نلقى الأحبة ، محمداً وصحبه .

على هذا عاش وعلى هذا مات ، وما كان له من علاقة تربطه بهذا الكون العظيم إلا وهي في جانب منها علاقة بمحمد رسول الله ومحمد سيده ومولاه.

وتلك الزوجة الوفية البارة كانت ترضيه في معظم حالاتها وكانت لا

تخليه من مناكفة في بعض حالاتها كما يتفق أحياناً في كل عشرة بين زوجين وفي كل صلة بين إنسانين ، فكان يقبل منها كل ما يسر ويسوء إلا أن تمسه في لب اللباب وأصل الأصول ومناط الحياة والكرامة عنده : وهو إخلاصه لرسول الله وصدق الرواية عنه . فاستعظمت يوماً ما يحدثها به عن رسول الله فاذا به يثور ويغضب ويهم بالبطش بها ثم يدع المنزل محنقاً مقطباً حتى يلقاه الرسول ، فيلمح ما به من تغير حال ويعلم سره فيشفق أن يدعه على ما هو فيه وأن يدع لزوجه مظنتها في صدقه . ويذهب معه إلى بيته فيقول للمباركة : « ما حدثك عني بلال فقد صدق . بلال لا يكذب . فلا تغضبي بلالا » .

فاذا المولى الأمين هانىء قرير .

وقد أثر عنه هذا الصدق بين الصحابة فكانوا يشكون في أبصارهم ولا يشكون في روايته ونقله . ويروون عنه رواية اليقين في شؤون الصلاة والصيام.

ففي صحراء العرب حيث يضيء النهار إلى ما بعد غروب الشمس وتشيع لمحات النور قبل مطلعها كان بعض المسلمين يترددون في مواعيد السحور والإفطار فيقولون : إنا لنرى الفجر قد طلع ، أو يقولون : ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد ، فاذا سمعوا من بلال أن رسول الله أكل أو أنه ترك رسول الله يتسحر فالقول ما قال بلال ، وليس للشك في ضوء النهار مكان.

وقد لزمت بلالا عادة الصدق في كل كلام يبلّغه المسلمين عن النبي أو يبلغه إليهم في شأن من عامة الشؤون وخاصتها ، فلما رجاه أخوه في الاسلام — أبو رويحة — أن يسفر له في زواجه عند قوم من أهل اليمن لم يزد على أن قال : « أنا بلال بن رباح وهذا أخي أبو رويحة . وهو امرؤ سوء في الخلق والدين ، فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه ، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا .. »

فزوجوه وكان حسبهم عنده أن يقبل الوساطة ولا يرده أو يموه عليهم أوصافه !

وقد كان من ولائه لأبي رويحة هذا أن ضم ديوان عطائه إليه حين خرج إلى الشام . فلما دون الفاروق دواوين الصحابة سأله : إلى من تجعل ديوانك يا بلال ؟ قال : إلى أبي رويحة « لا أفارقه أبداً ، للأخوة التي كان رسول الله عقد بينه وبيني » .

وذاك أن رسول الله قد آخى بينهما قبل الهجرة إلى المدينة كما آخى بين غيرهما من صحابته الأوفياء . فكانت أخوّة العمر عنده من فضل الولاء لرسول الله : وكان أحب الناس إليه وأولاهم برعيه من أمره رسول الله أن يحبه ويرعاه .

* * *

وقد عرف له النبي عليه السلام هذه الخصال التي تتجمع كلها في صفة الأمانة — وهو قائد الرجال الخبير بمناقب النفوس — فأقامه في موضع الثقة منه وائتمنه على مال المسلمين وعلى طعامه ومؤونته وشخصه ، واستصحبه في غزوه وحجه وحله وترحاله ، وأسلمه العَنَزة يحملها بين يديه أيام العيد والاستسقاء ، ولم يعرف أحدٌ من الصحابة لازمه عليه السلام كما لازمه هذا المؤذن الذي يقيم معه الصلاة وهذا الأمين الذي يحفظ له المال والطعام ، وهذا الرفيق الذي كان يظله بالقبة والستار من لفحات الهجير في رحلات الصيف ، وربما تقدمه فركب ناقته « القصواء » التي قلما كان يركبها سواه عليه السلام .

ولم يدخل الكعبة معه بعد فتح مكة غير عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد مولاه ، وبلال .

ودامت هذه الصحبة حتى قبض عليه السلام وحتى دفن في ثراه . فكان بلال هو الذي ذكر واجب الحنان المكلوم في ذلك الموقف الأليم ، فحمل القربة ودار حول ذلك الثرى الشريف يبلله بالماء .

* * *

وعلى هذا الحنان في طويته لمولاه العظيم كان للرجل ضميرٌ يعرف الاصرار على الرأي كأشد ما عرف مؤمن بعقيدة ونافر من رذيلة .

وربما كان في هذا الإصرار شيء من عناد بني جلدته أبناء الحبشة المولّدين وأبناء السلالة السوداء . إلا أن العناد خصلة ذات لونين أحدهما يحمد ويفيد وثانيهما يذمّ ويضير .

فالعناد في أحد لونيه ثبات على الصواب والعقيدة ، وفي لونه الآخر ثبات على الخطأ والهوى ، ولم نعرف من العناد في تاريخ بلال إلا أجمل اللونين وأشبههما بقوة الأسر وخلائق الأمناء .

من ذلك عناده للمشركين حين ساموه العذاب ليفتنوه عن دينه ويكرهوه على سب أبيه كما تقدم في وصف إسلامه ، ومنه إصراره على ترك الأذان لغيره حين وقر في نفسه أن أذانه بعد رسول الله نقص في الوفاء ، وربما كان منه إصراره على الجهاد والسفر من المدينة إلى الشام حين سأله الخليفة البقاء . فقال له في رواية مشهورة : « إن كنت أعتقتني لنفسك فاحبسني ، وإن كنت أعتقتني لله عز وجل فذرني أذهب الى الله عزَّ وجل » وأبى إلا أن يمضي حيث أراد .

ولا شك أن الرحمة بالاعداء أمر لا ينتظر من رجل طال عهده وعهد قومه وآبائه وأجداده بقسوة الطغاة وعذاب اللؤماء ، فان رحمة رجل كهذا لمن أحسنوا إليه وسالموه خلق مفهوم لا غرابة فيه . أما الخلق الذي يستغربُ منه حقاً فهو رحمة في ميدان قتال أو رحمته خاصة لمن أفرط في الإساءة إليه.

ولهذا لا نستغرب ما روي عن بلال بعد وقعة خيبر وما روي عنه بعد وقعة بدر مع المشركين . ومنهم أظلم الناس له وأقساهم عليه .

فلما افتتح النبي حصن القموص بخيبر جيء له بصفية بنت صاحب الحصن وقريبة لها دون سنها . فأرسلهما عليه السلام مع بلال إلى رحله . فمر بهما بلال على القتلى من قومهما فصاحت البنت الصغيرة صياحاً شديداً

ولطمت وجهها . وعلم النبي بما صنع فقال له عاتباً: أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بجارية حديثة السن على القتلى؟ فكان عذر بلال الذي اعتذر به في جوابه : يا رسول الله، ما ظننت أنك تكره ذلك . وأحببت أن ترى مصارع قومها !

أما في وقعة بدر فقد كان عذره أوضح وأسلم من عذره في وقعة خيبر .

فقد رأى أمية بن خلف وابنه بعد الوقعة في صحبة عبد الرحمن بن عوف يقودهما كما يقاد الأسرى ، وقد كانا أشد الناس إيذاء للمستضعفين من المسلمين كما تقدم ، وكان بلال أوفر المسلمين نصيباً من ذلك الإيذاء اللئيم . فما وقعت عينه على أمية حتى صاح بالمسلمين من حوله : رأس الكفر أمية بن خلف . لا نجوت إن نجا . ولم يغن عنه دفاع عبد الرحمن بن عوف بل جعل بلال يهم بقتله ويصيح : لا نجوت إن نجا . لا نجوت إن نجا . حتى اجتمع حولهم خلق كثير ، وضرب أحدهم ابن أمية فوقع صريعاً فاذا بأمية يصيح من الفزع صيحة لم يسمع بمثلها . قال عبد الرحمن بن عوف : انج بنفسك ولا نجاء بك ! فوالله ما أغني عنك شيئاً . ولكن المقاتلين هبروهما بأسيافهم قبل أن يخلص له سبيل إلى الفرار .

وقد يزيد في وضوح العذر لبلال من هذه النقمة أن أمية هذا كان من أحق الناس بالبغض وقلة الرحمة . لأنه كان يعذب المستضعفين تعذيب الجبان اللئيم لا تعذيب الساخط الغيور على عقيدة ، وكان يرهب القتال ولا يعرض حياته لمغامرات الحرب التي أقدم عليها شجعان المشركين . فما هو إلا أن سمع بنذير النبي إياه بالقتل حتى ارتعدت فرائصه وراح يسأل عن المكان الذي توعده بالقتل فيه ، وصارح قومه بالقعود عن القتال وأنه لا يخرج لحرب المسلمين في غزوتهم تلك وهو مقصود بذلك الوعيد ، ولم يتحرك للخروج حتى جاءه أبو جهل بين الملأ بمجمرة يبخره بها ، وقال له : تجمر يا هذا فإنما أنت من النساء .

ولما نشبت المعركة ببدر كان هو وابنه في طليعة الناكصين عن القتال، ثم قتل ابنه فكانت صيحته عليه صيحةِ فزع لا تسمع في ميدان. فانما كان تعذيبه المسلمين من لؤم الجرأة على الضعيف وهو آمن في عقر داره، ولم يكن من لدد العقيدة التي يغار عليها الرجل الشجاع ويلقى الموت هو وأبناؤه من أجلها غير وَكِلٍ ولا هيّاب. وليس أحق من مثل هذا ببغضاء المنتقم في ساعة القصاص، وكفى لبلال عذراً في هيجة غضبه عليه أنه يعلم إنذار النبي إياه بالقتل وأن أبا بكر هنأه بعد قتله فقال:

هنيئاً زادك الرحمن خيراً   لقد أدركت ثأرك يا بلال

وفي غير هذه الهيجة التي تدرك أحلم الناس في موطن النقمة وحومة الحرب لم تكن شدة بلال غير حمية الرجل الفطري التي تبدر منه القسوة وهو لا يعنيها، وكان في جملة أحواله مثلا للخلق الوديع والطيبة الرضية وحلاوة النفس والاتضاع، فكان يخجله أن يسمع الناس يحمدون بلاءه في صدر الإسلام ويقدمونه على أجلاء الصحابة لثباته وصبره، فيطرق ويقول: إنما أنا رجل كنت بالأمس عبداً. وكانت قلة دعواه نفحة من نفحات تلك الطيبة الرضية، فلم يعرف عنه أنه تصدى لتعليم الناس ما يجهلون من أحاديثِ النبي عليه السلام بعد ملازمته الطويلة وكثرة سائليه والواثقين بصدق ما يرويه، ولم يزد في إخباره عن النبي على ما يعنيه من إقامة الصلاة والأذان أو مواعد الإفطار والصيام.

* * *

وكان بلال ابن قومه في خلقين آخرين يعرفان في بعضهم قدماء أو محدثين، وهما فراسة النظر وحب الراحة أو الضيق بالجهد الشديد.

أرسله النبي عليه السلام مع رعية السحيمي ليرد له ابنه الذي أسره المسلمون، فلم يفته وهو يقص نبأه على النبي أن يقول: والله ما رأيت واحداً منهما مستعبراً إلى صاحبه! فقال النبي: ذاك جفاء الأعراب.

ووكل إليه النبي وهو مقبل إلى وادي القرى بعد وقعة خيبر أن يوقظه لصلاة الصبح — وكان الحر شديداً ، فنام حتى طلعتِ الشمس . ثم صلى عليه السلام بمن معه وأن أحدهم ليسلت العرق من جبينه من حر ذلك اليوم ، فلما سلم قال : كانت أنفسنا بيد الله فلو شاء قبضها وكان أولى بها . ثم التفتَ الى بلال فهتف به : مه يا بلال . فبادر بلال معتذراً وهو يقول : بأبي وأمي . قبض نفسي الذي قبض نفسك ! فتبسم عليه السلام .

وإنما تدل هذه السهوة — وإن لم تتكرر — على إيثار الراحة لأنها غلبت كل حذر من تفويت صلاة الفجر حاضرة على النبي وصحبه، وهو حذر كان ولا شك في نفس بلال شديداً ، بل أشد من الشديد .

* * *

وآخر ما يروى من أعمال بلال وقفته مع خالد بن الوليد حين أمر الفاروق بسؤاله عن الهبات التي كان يهبها لبعض الشعراء . فقد سكت خالد وأبو عبيدة يسأله عن تلك الهبات أهي من ماله أم من مال المسلمين ؟ وهو معرض لا يجيب . فوثب إليه بلال ثم تناول عمامته ونقضها وعقله بها وخالد لا يمنعه . وسأله : ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ فعند ذلك أجاب خالد : بل من مالي . فأطلقه وعممه بيده ، وهو يقول : « نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا » .

ذلك آخر ما روي من أعمال بلال في خدمة الخلافة ، ولكنه يجمع أعماله كلها وخلائقه كلها في عمل واحد وخلق واحد ، وهو الطاعة الجريئة التي لا تنسى التفخيم والتعظيم إلا في سبيل طاعة أكبر منها وأوجب . فلم يكن أسرع منه بين شهود الموقف إلى محاسبة خالد بأمر الخليفة وأمر الله ، ولم يكن أسرع منه إلى السرور بتفخيمه وتعظيمه حين فرغ الحساب .

كانت طاعته للمرء الذي يطاع وللأمر الذي تجب له الطاعة ، وهي طاعة القوي الشريف ، وليست بطاعة المسخر الضعيف ، وقد عصى سادته

والموت جاثم على صدره ، وفرض الطاعة على من يهابه العصاة . فكان سيد المطيعين ، ولا يشرّف الانسان إن لم يكن سيد الآمرين إلا أن يكون سيد المطيعين .

* * *

الأذان

أشبه الأشياء بالدعوة إلى الصلاة دعوةٌ تكون من معدن الصلاة وتنم على صوت من أصوات الغيب المحجّب بالأسرار : دعوة حية كأنما تجد الإصغاء والتلبية من عالم الحياة بأسرها ، وكأنما يبدأ الإنسان في الصلاة من ساعة مسراها إلى سمعه ، ويتصل بعالم الغيب من ساعة إصغائه إليها .

دعوة تلتقي فيها الأرض والسماء ، ويمتزج فيها خشوع المخلوق بعظمة الخالق ، وتعيد الحقيقة الأبدية إلى الخواطر البشرية في كل موعد من مواعد الصلاة ، كأنها نبأ جديد .

الله أكبر . الله أكبر .

تلك هي دعوة الأذان التي يدعو بها المسلمون إلى الصلاة ، وتلك هي الدعوة الحية التي تنطق بالحقيقة الخالدة ولا تومىء إليها ، وتلك هي الحقيقة البسيطة غاية البساطة ، العجيبة غاية العجب ، لأنها أغنى الحقائق عن التكرار في الأبد الأبيد ، وأحوج الحقائق إلى التكرار بين شواغل الدنيا وعوارض الفناء .

المسلم في صلاة منذ يسمعها تدعوه إلى الصلاة ، لأنه يذكر بها عظمة الله وهي لب لباب الصلوات .

وتنفرج عنها هدأة الليل فكأنها ظاهرة من ظواهر الطبيعة الحية تلبيها

الأسماع والأرواح ، وينصت لها الطير والشجر ، ويخف لها الماء والهواء ، وتبرز الدنيا كلها بروز التأمين والاستجابة منذ تسمع هتفة الداعي الذي يهتف بها إن « الصلاة خير من النوم » .

فتخرج كلها إلى الحركة بعد لمحة أو لمحتين ، وتقول كلها إن الحركة صلاة خفية بيد محرك الأشياء ، وإن الصلاة خير من النوم .

وإذا ودع بها الهاتف ضياء النهار واستقبل بها خفايا الليل فهو وداع متجاوب الأصداء ، كأنه ترجمان تهتف به الأحياء أو تهمس به في جنح المساء ، وكأنه ينشر على الآفاق عظمة الله فتستكين إلى سلام الليل وظلال الأسر والأحلام .

وانها لتسمع بالليل ثم تسمع بالنهار .

تُسمع والنفوس هادئة كما تسمع والنفوس ساعية مضطربة : توقظ الأجسام بالليل وتوقظ الأرواح بالنهار ، فاذا هي أشبه صياح بسكينة ، وأقرب ضجيج إلى الخروج بالانسان من ضجيج الشواغل والشهوات .

حيّ على الصلاة !

حيّ على الفلاح !

نعم هذا هو الفلاح جد الفلاح ، لأن كل فلاح بغير الايمان هو الخسار كل الخسار .

* * *

وما يعرف وقع الأذان من شيء كما يعرف من وقعه بمعزل عن العقيدة ومعزل عن العادة والسنّة المتبعة ، او كما يعرف من وقعه في بداءه الأطفال وبداءه الغرباء عن البلاد ، وعن عقيدة الاسلام .

ففي الطفولة نسمع الأذان ولا نفهمه ولكننا نميزه حين يحيط بنا بين

دعوات هذه الأرض وبين صيحات اللعب وصيحات البيع والشراء ، ونؤخذ به ونحن لا ندري بم نؤخذ ، ونود لو نساجله ونصعد إليه ونستجيب دعاءه ، ويفسره المفسرون لنا « بأمر الله » فنكاد نفهم دلمة الأمر ونكاد نفهم كلمة الله ، ولكننا نحار في البقية ونحيلها إلى الزمن المقبل ... ثم نقضي السنوات بعد السنوات من ذلك الزمن المقبل ونحن نتعزى من حيرة الطفولة بأننا ما نزال حائرين ، وإن سميت الحيرة بأسماء بعد أسماء وأطلق عليها عنوان بعد عنوان .

وفي الذكريات أصداء تكمن في النفس من بعيد ويلتفت المرء لحظة من اللحظات فكأنما هو قد فرغ من سماع تلك الأصداء منذ هنيهة عابرة ، ثم التفت على حين غرة ليرقب مصدر ذلك الصدى الذي سرى إليه .

إن أبقى هذه الأصداء في كل ذاكرة لهو صيحة الأذان الأولى التي تنبهت إليها آذان الطفولة لأول مرة ، وما تزال تبتعد في وادي الذاكرة ثم تنثني اليه من بعض ثنياتها القريبة ، فاذا المرء من طفولته الباكرة على مدى وثبة مستطاعة ، لو تستطاع وثبة إلى ماض بعيد أو قريب .

أما الغرباء عن البلاد وعن عقيدة الاسلام فما يلفتهم من شيء من شعائر العبادة الاسلامية كما يلفتهم صوت الأذان على المنائر العالية ، كيفما اختلف الترتيل والتنغيم .

يقول إدوارد وليام لين صاحب كتاب « أحوال المحدثين وعاداتهم » إن أصوات الأذان أخاذة جداً ولا سيما في هدأة الليل .

يقول جيرار دي نرفال في كتابه سياحة بالمشرق : « إنني لأول مرة سمعت فيها صوت المؤذن الرخيم الناصع خامرني شعور من الشجو لا يوصف. وسألت الترجمان : ماذا يقول هذا الهاتف ؟ فقال : إنه ينادي أن لا إله إلا الله . قلت : فماذا يقول بعد هذا ؟ فقال : إنه يدعو النيام قائلا : يا من ينام توكل على الحي الذي لا ينام ... »

وأنشأ الكاتب المتصوف « لا فكاديو هيرن La Fcadio Hearn » رسالة وجيزة عن المؤذن الأول — أي بلال بن رباح ستأتي ترجمتها بعد هذا الفصل فقال : « إن السائح الذي يهجع لأول مرة بين جدران مدينة شرقية ، وعلى مقربة من إحدى المنائر ، قلما تفوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذي ينبعث به دعاء المسلمين إلى الصلاة ... وهو لا شك يستوعب في قلبه — إذا كان قد هيأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة — كلّ كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة ، ويتبين مقاطعها وأجزاءها في نغمات المؤذن الرنانة ، حيثما أرسل الفجر ضياءه المورد في سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم . وإنه ليسمع هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق ضياء الصباح . يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ، ويسمعه قبيل غياب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنضار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تنسرب هذه الألوان الزاهية في صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد ، ثم يسمعه آخر الأمر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التي ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذي لا يزول . ولعله يسمع في المرة الاخيرة عند نهاية التنغيم كلمات مقنّعة بالأسرار جديدة على أذنيه ، فإذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيرار دي نرفال أجابه ولا شك بتفسير كذلك التفسير : يا من تنام توكل على الحي الذي لا ينام .. عظات جليلة تعيد الى الذاكرة تلك الآيات التي ينقشونها في المشرق على بعض الحجارة الكريمة ومنهـا « لا تأخذه سِنة ولا نوم » .. فإن كان الترجمان ممن يعون طرفاً من تاريخ الإسلام فلعله ينبئه ان المؤذن الأول — أول من رتل الدعاء الى الصلاة — كان الخادم المقدس الذي اصطفاه نبي الإسلام لهذه الدعوة ، بلال بن رباح ، صاحب الضريح الذي يشار اليه للسائح في ناحية من دمشق حتى هذا اليوم » .

* * *

وقد لمسنا نحن أثر الأذان البالغ في روع كثير من السائحين والسائحات

الذين ينزلون ببلدتنـــا أسوان خلال الشتاء أو يمرون بهـــا في الطريق من السودان واليه .

فانهم كانوا يصلون الى أسوان وقد سمعوا الأذان مرات في القاهرة والاسكندرية وربما سمعوه في غيرهما من البلدان الاسلامية،ولكنه كان يفاجئهم بجدة لا تبلى كلما طرق أسماعهم بالليل أو النهار – ولا سيما في أيام الجمعة . وكان من المصادفات الطيبة أن مؤذن الجامع الأكبر بالمدينة كان حسن الصوت منطلق الدعاء يمزج الغيرة الدينية بالغيرة الفنية في أذانه ، فكان يخيل الينا وهم يصغون اليه أنهم يتسمعون هاتفاً من هواتف الغيب يطرق الاسماع في وقت رتيب، أو يترقبون طائراً من طوائر الهجرة التي تأتي في الأوان ولكن كما يأتي كل شيء غريب .

وكان من عادات المؤذنين التي لبثوا يعيدونها في شهر رمضان الى عهد قريب ان يدقوا طبول السحور على المنائر العالية في الهزيع الأخير من الليل . فشكا بعض النازلين بالفنادق القريبة من المنارة وترددوا في تبليغ شكواهم الى رجال الحكومة لأنهم حسبوا هذه الطبول شعيرة من شعائر الإسلام ، فلما سأل عنها بعضُ مثقفيهم وقيل لهم إنها عادة من عادات البلد وليست شعيرة من شعائر الدين تقدموا برجائهم وقالوا : إننا لا نشكو من الأذان لأنه لا يقلقنا ولا يزال يسري إلينا في ساعة الفجر كما يسري الحلم الجميل . ولكننا نقلق من هذه الطبول التي تدق فوق رؤوسنا ، وكنا نحتملها لو علمنا أنها شعيرة لا تبديل لها . ولكنا علمنا أنها تبدل في كل بلد إسلامي على حسب عاداته ، وان المدن الكبرى تستبدل بها طبولا صغيرة تدق على الأبواب : فاسمحوا لنا ان نهدي إلى البلد بعض هذه الطبول .

وكانت هذه الطبول مما يباع في كل موسم للسائحين على أحجام مختلفة. لأنها كانت تستخدم في عهد الدراويش بالسودان ، إما لجمع الجند او لتنبيه الغافلين أو للتوقيع والتنغيم ، وكانت ملابس الدراويش واسلحتهم وأدوات

معيشتهم مما يبحث عنه السائحون في أسواق البلدة، فتبرعوا بالطبول الصغيرة فرحين لأنها تنقذهم من قرع الطبول حين يختلط بأصوات المؤذنين ، فيقلقهم ويشوه عندهم جمال الأذان الخفيف على اسماع النيام .

* * *

وقد كانت هذه الطبول وشيكة في بداية الأمر أن تقوم مقام الأذان في دعوة المسلمين الى الصلاة .

إذ لم يكن الأذان كما نسمعه اليوم معروفاً قبل انتشار الاسلام في مكة والمدينة ، وإنما كان المسلمون طائفة قليلة يدعون الى الصلاة الجامعة بالنداء الذي يُسمع من قريب ، فلما صرفت القبلةُ إلى الكعبة فكر المسلمون في دعاء الى الصلاة يسمعه المنتشرون بالمدينة من بعيد .

ومن جملة الروايات التي جاءت في طبقات ابن سعد وغيرها يُفهم أنهم كانوا قبل أن يؤثر بالأذان ينادي منادي النبي عليه السلام : الصلاة جامعة ! فيجتمع الناس .. فلما صرفت القبلة الى الكعبة تذاكر المسلمون الأمر فذكر بعضهم البوق وذكر بعضهم الناقوس وذكر بعضهم ناراً توقد كنار القرى ، ثم تفرقوا على غير رأي ومنهم عبد الله بن زيد الخزرجي .. فلما دخل على أهله فقالوا : ألا نعشيك؟ قال: لا أذوق طعاماً. فاني قد رأيت رسول الله قد أهمه أمر الصلاة . ونام فرأى ان رجلا مر وعليه ثوبان اخضران وفي يده ناقوس . فسأله : أتبيع الناقوس ؟ فقال : ماذا تريد به ؟ قال : أريد ان أبتاعه لكي اضرب به للصلاة لجماعة الناس . فأجابه الرجل : بل احدثك بخير لكم من ذلك . تقول : الله أكبر . أشهد ان لا إله إلا الله . اشهد ان محمداً رسول الله . حي على الصلاة . حي على الفلاح . الله اكبر . الله اكبر . لا اله الا الله . ونادى الرجل بذلك النداء وهو قائم على سقف المسجد ثم قعد قعدة ثم نهض فأقام الصلاة .

فلما استيقظ عبد الله بن زيد من منامه ذهب الى النبي عليه السلام فقص

عليه ما رأى فقال له : قم مع بلال فألقِ عليه ما قيل لك . وجاء الفاروق بعد ذلك فقص على النبي مناماً يشبه ذلك المنام . وجرى الأمر في الدعوة إلى الصلاة منذ ذلك اليوم على الأذان كما نسمعه الآن ، وزاد بلال في أذان الصبح « الصلاة خير من النوم » فأقرها النبي عليه السلام ، وبقي النداء في الناس بالصلاة الجامعة للأمر يحدث فيحضرون له يخبرون به مثل فتح يقرأ أو دعوة يُدعون اليها ، وإن كان في غير وقت الصلاة .

ولا اختلاف في صيغة الأذان بين الطوائف الاسلامية جمعاء ... إلا ان الشيعة يضيفون اليه ، « حي على خير العمل » مع حي على الصلاة وحي على الفلاح . ويردد المالكية التكبير مرتين بدلاً من أربع مرات .

ولا اختلاف كذلك في جواز التلحين والترجيع في الأذان ما لم يخل بنطق الكلمات ومخارج الحروف . إلا ان الحنابلة يعلنون الأذان بغير تلحين ، ويتصرف الأحناف في بعض الترجيعات .

وقد ندب بلال بن رباح للأذان من لحظته الأولى فلم يسمع لأحد أذانٌ قبله ولم يسبقه الى ذلك سابق في تاريخ الاسلام . وهو شرف عظيم ، لأن محمداً بن عبدالله كان إمام المسجد الذي كان مؤذنه بلال بن رباح .

ومن المتفق عليه في أقوال الصحابة إن بلالاً كان محبّب الصوت الى اسماع المسلمين ، وانهم كانوا يقرنون دعوته بصلاة النبي فيزيدهم هذا خشوعاً لسماع صوته فوق خشوع .

على أننا نقرأ في أنباء فتح مكة ان رهطاً من المشركين كانوا ينكرون نداءه ويتساءلون : أما وجد محمد غير هذا العبد ينهق على ظهر الكعبة ؟ وكانوا يستكبرون من رجل كائناً من كان أن يعلو ظهر البيت الذي لم يصعد إليه أحد في الجاهلية . فهالهم ان يروا « عبداً » يصعد اليه ويجهر بذلك النداء .

قال بعضهم للحارث بن هشام : ألا ترى هذا العبد أين يصعد ؟ فلجأ

الرجل الى حكمة المضطر وقال : دعه ، فإن يكن الله يكرهه فسيغيره .

وكان الحارث بن هشام وابو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد جلوساً بفناء الكعبة يوم أمر النبي بلالاً ان يصعد الى ظهر الكعبة فيقيم الأذان . فقال عتّاب : لقد أكرم الله أسيداً ان لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه ، وقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم انه محق لاتبعته ، وانكر ابو سفيان ما سمع او قيل في بعض الروايات انه جمجم قائلا : لا أقول شيئاً ، ولو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصا .

وقبل ان نحيل هذا الإنكار الى شيء يؤخذ مأخذ النقد ينبغي إن نذكر ان ذلك الوصف من المشركين كانوا خلقاء ان ينكروا أول أذان يرتفع في سماء مكة ولو ترنمت به الملائكة وتجاوبت به سواجع الأطيار ، وانهم سمعوه زعيقاً و « نهيقاً » كما قالوا لأنهم سمعوا شيئاً لا يطيقونه ولا يستريحون اليه ، وكانت بهم عنجهية السادة في النظر الى العبيد ، وكان لبلال عندهم وتر معروف بمن قتل من سادات مكة في غزواته مع النبي عليه السلام .

فإذا رددنا إعجاب المسلمين بصوت المؤذن الأول الى الخشوع ثم إلى ذكرى النبي الحبيب،ورددنا كره المشركين إياه الى النفرة ثم الى العنجهية والعداء — فقد بقي شيء واحد يتفق عليه هؤلاء وهؤلاء وهو جهارة الصوت وابتعاد مداه في أجواز الفضاء ، ولا حاجة بنا إلى العناء في الموازنة بين خشوع المسلمين وعداء المشركين لنقول ان اختيار النبي اياه يدعوه ويدعو المسلمين دعوة عامة يسمعها كل يوم خمس مرات — هو الشهادة لصوت المؤذن الاول بالسلامة من النفرة والنشوز المعيب ، فما عهد محمد عليه السلام خاصة الا أنه كان يحمد المنظر الحسن ، وكان ينكر كل نكير ويستريح الى كل جميل.

المؤذنُ الأوّل

كتب عن الخلفاء الراشدين وكبار القادة والولاة من صحابة النبي عليه السلام كلام كثير باللغات الأوربية في أثناء الكتابة على تاريخ الاسلام. ولكن الذي كتب عن الصحابة ممن لم يتولوا الحكم ولا اشتركوا في السياسة العامة – كبلال بن رباح – جدّ قليل، وبين هذا القليل الذي كتب عن بلال خاصة فصلٌ في اللغة الانجليزية للأديب القصصي لفكاديو هيرن Lafcadio Hearn الذي عمل حيناً في الصحافة الأمريكية وقضى زماناً في جزر الهند الغربية التابعة لفرنسا ثم جال بين بلاد الشرق واستقر باليابان وبنى فيها بزوجة يابانية ومات هناك سنة ١٩٠٤ بعد ان قضى حياته الأدبية كلها هائماً بنفحاتِ الشرق الروحية سواء هبتِ عليه من بلاد العرب أو من الصين أو اليابان.

ولا شك أن ترجمة هذا الفصل الى العربية ترده الى اللغة التي هي أحق به وأولى. وتعد مناسبةُ نقله الى العربية سانحةً كل السنوح في صدد الترجمة لبلال رضي الله عنه برسالة مستقلة به مقصورة عليه. وهو عدا ذلك فصل قيم يفيض بالعطف الانساني والروح الشعرية والفكاهة الأدبية، ويضيف كثيراً الى علمنا بأثر الأذان الإسلامي في نفوس الأدباء الغربيين، ولا سيما الادباء من طراز هيرن الذين أظمأتهم الحضارة العصرية وتشوقت نفوسهم الى الري الروحاني من ينابيع أخرى غير ينابيع امريكا واوربا.

وقد مهد هيرن لفصله عن « المؤذن الاول » بأبيات الشاعر إدوين أرنولد Edwin Arnold التي يقول فيها مخاطباً العزة الإلهية :

« لو أن عابديك اليوم على الأرض طاف بهم طائف من الفناء فجأة وصمت كل مؤذن يرفع الصوت بالتكبير في سكينة السماء — لما خلت الدنيا بعد هذا من آيات تشهد بوجودك على الارض وفي أغوار الماء . نعم ... ولو ذهبت هذه وذهبت الارض معها لبقيت لك آيات في أعالي السماء أعظم وأسمى . اذ كل شارقة فوقنا من تلك الشموس التي تشتعل الى مطلع النهار وتلك الكواكب التي يعود بها الليل كل مساء — هي يا رب « دراويشك » التي تدور في حلقة الذكر حول عرشك الوضّاء » .

ثم قال هيرن : « ان السائح الذي يهجع لأول مرة بين جدران مدينة من مدن الشرق على مقربة من احدى المنائر على المساجد الجامعة — قلما تفوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذي ينبعث به دعاء المسلمين الى الصلاة ، وهو لا شك يستوعب في قلبه — اذا كان قد هيأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة — كل كلمة من كلمات الدعوة المقدسة ، ويتبين مقاطعها وأجزاءها في نغمات المؤذن الرنانة حيثما أرسل الفجر ضياءه المورّد في سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم . وانه ليسمع هذا الصوت أربع مرات اخرى قبل ان يعود الى المشرق ضياء الصباح : يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ويسمعه قبيل غياب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنضار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تنسرب هذه الالوان الزاهية في صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد ، ثم يسمعه آخر الامر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التي ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذي لا يزول . ولعله يسمع في المرة الاخيرة عند نهاية التنغيم كلمات مقنّعة بالاسرار جديدة على اذنيه . فاذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيرار دي نرفال أجابه ولا شك بتفسير كذلك التفسير : يا من تنام توكل على الحي الذي لا ينام ... عظات جليلة تعيد الى الذاكرة تلك الآيات التي ينقشونها في المشرق على بعض

الحجارة الكريمة ومنها « لا تأخذه سِنة ولا نوم » ... فان كان الترجمان ممن يعون طرفاً من تاريخ الإسلام فلعله ينبئه أن المؤذن الاول – أول من رتل الدعاء الى الصلاة – كان الخادم المقدس الذي اصطفاه نبي الاسلام لهذه الدعوة – بلال بن رباح – صاحب الضريح الذي يشار اليه للسائح في ناحية من دمشق حتى هذا اليوم .

أما بلال فكان أسود أفريقياً من ابناء الحبشة قد اشتهر بقوة يقينه وهو يتخذ دين الاسلام ، وبغيرته على الدعوة النبوية ، وجمال النغم في ترجيع صوته – ذلك الصوت الذي تناوله ومد فيه وكرره كل مؤذن في الإسلام منذ اكثر من ألف ومائتي عام .

وقد رجّح بلال أذانه قبل ان ترتسم في الذهن صورة المنارة الاولى ، وقبل ان يؤثر القوم اختيار المؤذنين من العميان مخافة ان يرمق المؤذن بعينه منظراً محرماً وهو يطل من علٍ على سقوف المدينة .

واليوم ترتفع الى السماء منائر لا عداد لها في كل موطن من مواطن الإسلام حتى واحات الصحراء ، وقد تقوم على بناء بعضها أيد جاهلة بميزان البناء فيخيل الى من يراها أنها تتلوى من الوجد ، كمئذنة « أوجلة » التي رآها فكتور لارجو Largau في سنة ١٨٧٧ .

أما الكلمات التي يرددها المسلمون في أنحاء عالم الإسلام من حيث تقوم بِنَى القرميد التي ترتفع على قبور الصحراء إلى تلك المنائر السحرية الحالمة التي ترتفع على مسجد « أجرا » عند ضريح «تاج محل» بالهند– فهي بنصها وفصها تلك الكلمات التي ترنم بها صوت بلال المكين .

ولا تزال للمؤذن شروط ترعى حتى اليوم ليسمح له بأداء الأذان . فعليه ان يحفظ القرآن وأن ينزه اسمه وسمعته عن كل سوء ، وان يكون له صوت واضح جهير ولهجة فصيحة ومخارج للحروف صحيحة ، ولكن شروط الصوت الحسن التي كانت تطلب من المؤذن في صدر الدعوة المحمدية

والمسلمون على ذكر من صوت بلال قد كانت أندر وأصعب مما اكتفي به بعد ذلك . وقد روى الشاعر الفارسي الأشهر مصلح الدين السعدي في كتابه بستان الورد غير نادرة واحدة تدل على آراء ابناء عصره فيما يرجع إلى اختيار المؤذنين وقراء آي الذكر الحكيم .

قال في بعض تلك النوادر إن مؤذناً في سنجار تعوّد أن يؤدي الأذان أداء صحيحاً ولكن بصوت كريه إلى من سمعوه ، وكان صاحب المسجد اميراً عادلاً لا يسيء في عملٍ من اعماله . فلم يشأ ان يجرح فؤاد المؤذن المسكين ، وخاطبه على نحو يرضيه فقال له : يا سيدي . إن لهذا المسجد مؤذنين أقدمين يعطى كل منهما خمسة دنانير . فهل لك في عشرة دنانير تأخذها انت على ان تترك لهم مهمة الأذان فيه ؟ .. فقبل الرجل عرض الامير وغادر المدينة إلى حيث شاءت له المقادير .

الا أنه لم يلبث غير قليل حتى قفل إلى الامير قائلاً : لقد ظلمتني يا مولاي اذ قد زينت لي ان اترك هذا المسجد من أجل عشرة دنانير . فإنهم قد عرضوا عليّ عشرين ديناراً حيث كنت على أن افارقهم فأبيتها .. فابتسم الامير وقال : لا يخدعوك اذن .. فإني لأحسبهم معطيك خمسين ديناراً او يزيد على ذلك اذا أصررت على البقاء هناك !

وفي الكتاب نادرة أخرى لا تقل عن هذه في طرافتها ، يزيدنا فهماً لها ان نذكر ان الاسلوب العربي المأثور في القرآن يكاد يعلو على كل أساوب معروف في التلاوات الدينية . وخلاصة النادرة ان قارئاً من حفاظ الكتاب كان يجوّد الآيات بصوت غير جيد . فمر به رجل فطن وسأله : كم أجرك على هذه القراءة ؟ فقال الحافظ : لا شيء ! قال الرجل : وفيم اذن عناؤك هذا ؟ قال : حباً بالله ! قال الرجل الفطن : حباً بالله اذن لا تقرأ يرحمك الله .

* * *

وبدأ بلال حياته عبداً لأنه كان وليد جارية حبشية ، ولم يعرف عن

نشأته في الطفولة غير النزر اليسير . ومن وصف سير وليـــام موير اياه يظهر انه كان فاحم السواد كثيف الشعر وكانت لوجهه ملامح الزنوج ، وانه كان طويلاً أجنأ كأنه الجمل ، لا يروق النظر ولكنه شديد الأسر مفتول الجسد متين الأعصاب .

وقد كان لدعوة محمد الأولى أثر عميق في قلوب عبيد مكة ، لأن هؤلاء القوم الغرباء في ربقة العبودية بين أناس غير اهلهم قد تلقوا ولا ريب دعوة النبي إلى الأبوة العليا التي تكلأ الناس جميعاً كما يتلقى الجريح بلسم الشفاء والحزين سلوة العزاء .

ولعل بلالاً كان اول من دان بالاسلام من بني جلدته، ولذلك قال النبي عنه انه اول ثمرة من ثمرات الحبشة ، ولعل العبد الصغير قد تلقن من والدته السوداء شيئاً من تلك الخواطر الفجة التي شاعت في الحبشة باسم الديانة المسيحية في القرن الرابع فهيأت ذهنه لقبول وحدانية الإسلام .

وما هو الا أن بدأت فترة الاضطهاد حتى انصب أشده وأقساه على هؤلاء العبيد . فقد كانت سنة العرب منذ عهد بعيد ان يحمي الرجل ذوي قرباه ولو كلفته حمايته بذل الحياة . فمن سفك دم عربي فهو غير آمن أن يرتد عليه أهلـــه بالثأر وان يستتبع ذلك حرباً سجالاً بين العشيرتين إلى زمن طويل . ومن ثم كان محمد وصحبه الأحرار يأمنون بعض الامان على أنفسهم من سطوة التنكيل العنيف . ولم يكن للعبيد مثل هذه الحماية ، فتعاورتهم الأيدي بالضرب وتلقوا نذر الموت وذاقوا أمر العذاب معرضين لنيران القيظ في شمس الجزيرة العربية السافعة . فكانت غواية الماء البارد والظل الوارف والطعام الشهي تحت هذا العذاب الذي يضاف اليه عذاب الجوع والظمأ أشد من أن تدفعها عزيمة اولئك المساكين ... فما زالوا واحداً بعد واحد يتفوهون بالعبارات التي كانت تملى عليهم سباً لنبيهم ولو خرجت من الشفاه دون القلوب ، وجعلوا يقسمون باللات والعزى على صدق ما

يقولون ، وطالما عاد بعضهم فبكى ندماً على ما فرط منهم في تلك المحنة النكراء .

ولكن النبي استنزل لأولئك المساكين عزاء وافياً بما ذكره القرآن عنهم ، جاء فيه : « انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون . من كفر بالله من بعد ايمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » .

وقد ظل بلال وحده ثابت القلب واللسان فلم يصبأ ولم ينل من عقيدته ألم الضرب ولا حر الظمأ ولا طول التعريض للشمس على بطاح مكة الملتهبة ، وعجزت كل هذه المحن أن تثني عزيمته الحديدية ، فلم يكن له من جواب على كل أمر يتلقاه من معذبيه الا ان يردد قوله : أحد ! أحد ! مشيراً إلى وحدانية الله الذي ليس له شريك .

هذه الفترة في حياة بلال أيام دخوله في الإسلام هي التي اختارها الشاعر الفارسي فريد الدين العطار للاشادة بها في كتابه منطق الطير ، فقال : « إن بلالاً قد تلقى على جسده الهزيل ضربات العصي من الخشب ، والسياط من الجلد ، فتمزق إهابه وسال الدم من جراحه ولم يمسك قط عن توحيد الله الذي لا إله غيره » .

واتفق ذات يوم – والحبشي المسكين يتلظى من ألم ذاك العذاب – أن عبر به رجل نحيف البدن صغير القد جميل الملامح واسع الجبين فشهد فيمن يشهدون ثبات بلال وشدة عذابه .

وكان ذاك الرجل النحيف هو التاجر عبدالله بن عثمان أبي قحافة ، ويعرف في التاريخ الاسلامي باسم أبي بكر صديق النبي الحميم وزميله في ذلك الكهف الذي تقول الرواية ان العناكب نسجت على مدخله خيوطها لتخفي اللاجئين اليه عمن يتعقبونهما ، ويدعى أبو بكر أيضاً بالصديق أي المخلص الوفي ، وكان أبا السيدة عائشة التي قُدر لها ان تقترن بالنبي وقدر

لأبيها ان يخلف النبي على رعاية شأن المسلمين بعد وفاته ، وكان إلى ذلك الحين قد أنفق كثيراً من ثروته التي تبلغ اربعين الف درهم في شراء العبيد الذين سيموا العذاب على أيدي سادتهم من أجل دخولهم في دين الإسلام ، ومعظمهم رجال مهازيل او نساء ، فكان ابو قحافة يؤاخذه لأنه ينفق ماله في إعتاق النساء والضعفاء ويقول له : هلا أنفقته في إعتاق الأقوياء الذين يشدون أزرك ويدرأون عنك عدوك ؟ وكان ابو بكر يجيبه : كلا يا أبت . إنما أريد بهم وجه الله .

ويقول الرواة ان هذا البذل السخي في سبيل التقوى قد أفقر الرجل حتى لبس الثياب الخشنة من شعر المعز الذي يلفق بالسلا .

فلما شهد بلالاً في ذلك العذاب لم يطل صبره على رؤيته بتلك الحال وأخذ لتوه يساوم أمية بن خلف وأبي بن خلف في ثمنه فباعاه بعباءة وعشرة دنانير .

وقليلاً ما كان يخطر على بال احد من شهود تلك الصفقة ، ان يوماً من الايام سيأتي على أمية وابنه يسألان فيه الرحمة من عبدهما الذي ضنّا عليه بكل رحمة فلا ينالانها . فما انقضت عشر سنين على ذلك اليوم حتى ظفر بلال بصاحبيه وسنحت له فرصته بعد وقعة بدر الحامية ، فوقعت عليهما عيناه بين أسرى قريش ، وشفى قلبه ان ينظر اليهما وهما يذبحان على مشهد منه ، لأن الاسلام لا يأمر الذين يدينون به أن يجزوا الشر بالخير .

وقد كان بلال في الحقيقة أول عبد قيم أطلقه أبو بكر ، فأرسله عتيقاً لوجه الله .

وكان بلال رجلاً قوياً ، فلا يفهم وصفه بالهزال في قصيدة الشاعر الفارسي إلا على معنى الهزال الذي توصف به الطبيعة البشرية بالقياس إلى قوة الروح .

ولم يلبث لسان الكذب والوشاية ان قال قولته في السبب الذي بعث

أبا بكر إلى شراء الحبشي المعذب ، فزعم من زعم أنه توخى الفائدة ولم يتوخ التقوى والصلاح ، وكانت هذه الأكذوبة خليقة أن تسري مسراها في البيئة التي عهدت ذلك التاجر الورع زماناً وهو الأريب الخبير بتصريف التجارة ، ولكن محمداً كان ينكر ما يلغطون به ويوسع القائلين به تأنيباً وملامة ، وفي ذلك يقول الكتاب من سورة الليل : « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغني عنه ماله إذا تردى ، إن علينا للهدى ، وان لنا للآخرة والأولى ، . فأنذرتكم ناراً تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى ، الذي كذب وتولى ، وسيُجنّبها الأتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى » .

ومن ثم أصبح بلال خادماً أميناً لمحمد « عليه السلام » وكتب له ان يساهم بنصيب في نشر دعوة الاسلام .

وتزعم بعض الروايات ان بلالاً عاد بعد هجرة النبي فوقع في أسر قريش فعذبوه وضاموه ، ولكنها رواية لا يوثق بها في رأي المراجع التي تعتبر حجة في تاريخ الدعوة الاسلامية ، وإنما نلتقي ببلال مرة أخرى بعد عتقه في المدينة حيث كان المؤذن الأول بعد الاتفاق على الأذان .

* * *

ولم يكن الأذان معروفاً في مستهل الدعوة الاسلامية حين كان المؤمنون فئة قليلة تقيم إلى جوار نبيها ، وانما كان الأذان صيحة مسموعة ينادي بها المنادي إلى الصلاة الجامعة .

ثم عرف الأذان بعد بناء مسجد المدينة وتحويل القبلة من بيت المقدس

إلى مكة وكعبتها . إلا ان بيت المقدس لم يزل له شأن في المأثورات الاسلامية ولم يزل عزيزاً في قلوب المسلمين .

ألا يذكر الذاكرون من علامات الساعة الكبرى ان عيسى بن مريم سيقبل عند حلول الساعة إلى مسجد بيت المقدس قبيل صلاة الفجر فيشرق المسجد بطلعته ويتقدم إلى محراب الإمام فيبهت اولئك الذين يزعمون أنهم من اتباعه حين يعلن بينهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ .

أما كيف خطرت فكرة الأذان فقد كان ذلك بتوفيق عجيب ، وفحواه ان النبي حين فرغ من بناء مسجده — الذي يعد على زهادة بنيانه مثالاً للأسلوب العربي في البناء — تبين على الأثر ان دعوة المسلمين إلى الصلاة على النحو الذي اتبعوا قبل ذلك ليست مما يوائم أحوال المسلمين في ذلك الحين ! لأنها خلو من ذلك الجلال الذي لا غنى عنه في إقامة الفرائض العامة والشعائر العلنية .

وخطر للنبي في بداءة الامر أن يتخذ بوقاً للدعوة إلى الصلاة ، ولكنه لم يشأ ان يحول القبلة عن بيت المقدس ثم يتخذ لدعوة الصلاة أداة كان يستخدمها اليهود في بعض الصلوات .

ثم خطر له ان يتخذ للدعوة ناقوساً يدق في ساعات معلومات ، ولكنهم لم يجدوا في المدينة من يصنع الناقوس المطلوب .

وإنه ليوشك أن يتخذ للدعوة ناقوراً من الخشب إذ سنحت فكرة الأذان لبعض الصالحين في رؤيا المنام .

فقد رأى ذلك الرجل الصالح فيما يرى النائم أنه لقي على مقربة من داره — وهو يسري في ضوء القمراء — رجلاً طوالاً في ثياب خضر بيده ناقوس جميل ، وبدا له أنه قارب الرجل الطوال يسأله أن يبيعه الناقوس . فتبسم الرجل الطوال وراح يسأله : ولأي شيء تريده ؟ فقال له : إنما أشتريه

للنبي عليه السلام ليدعو به المسلمين إلى الصلاة .

قال الرجل الطوال . وكأنه يزداد في مقاله طولاً : كلا . بل أخبرك بما هو أصلح واجدى . فخير من ذاك ان ينادي مناد بالدعاء إلى الصلاة من سقف المسجد كما أصنع . وانطلق في ندائه بصوت رنان عجيب سماوي الجلال يبعث الوجل الأقدس في فؤاد سامعه ، وهو يردد ذلك الأذان كما يردد اليوم من شاطىء إفريقية الغربي إلى تخوم هندستان .

الله أكبر ..

الله أكبر ..

أشهد أن لا إله إلا الله ..

أشهد أن محمداً رسول الله ..

حي على الصلاة ..

حي على الفلاح ..

لا إله إلا الله .

فهب من رقاده والنغم العجيب يتردد في أذنيه ، وبادر إلى النبي فقص عليه رؤياه ، فسمعها منه النبي كما يسمع الرؤيا الصادقة التي تأتي بالهداية من الله ، وتذكّر تلك الهبة الصوتية النادرة التي خص بها مولاه الوفي بلال ، فأمره أن ينادي إلى الصلاة بتلك الكلمات التي سمعها المسلم الصالح في منامه ، وكان الليل في هزيعه الاخير فوعى المؤذن الأول واجب صناعته الجديدة قبل مطلع الفجر ، وما هو إلا ان طلعت بشائر النور الأولى حتى نهض أهل المدينة من نومهم على صوت الحبشي الساحر يردد الأذان من مشرف عال بجوار المسجد . فكان ذلك فاتحة تاريخ المنارة الجميلة التي تتسم بها قبل غيرها ملامح العمارة في المدن الاسلامية ، وكان مصعد بلال في تلك الليلة إلى

الشرفة المضاءة بنور الكواكب على سقوف المدينة هو أول خطوة على سلم المنارة الباقية قبل الف ومائتي عام .

* * *

في خلال تلك القرون جميعاً لم يعرف الاسلام يوماً واحداً لم ترتفع فيه صيحة الأذان إلى الله .

ولا تزال نغمات الأذان تعلّم طريق الساعات لسكان مدائن شتى لا عداد لها : وفي المأثورات انها ستكون علامة للساعة التي تقوم فيها القيامة ويظهر فيها المهدي المنتظر – مسيح الديانة الاسلامية – فيعلن الأذان بصوت جهوري يدوّي في أنحاء العالم بأسره .

وما برحت دعوات الصلاة تستجاب في العالم الاسلامي بدقة يدهش لها السياح ويعجبون .

وقد اشتهرت هذه الدقة عن المسلمين في استجابة داعي الصلاة حتى استخدمت احياناً في الاضرار بهم والاغارة عليهم . فاتفق في نيسابور– تلك المدينة المحببة إلى عطار الروح الشاعر المعروف باسم العطار – أن الأذان أعلن لأول مرة غدراً وختلاً للإيقاع بمن يستجيبون اليه . إذ حدث في السنة الثامنة من القرن السابع أن أغارت على المدينة جموع جنكيز خان ، وكان من عادة هذه الجموع التي درجت على الاستئصال والتخريب عادة فريدة بين الأمر في قسوتها وغدرها ، وهي ان يعودوا إلى المدينة فجأة بعد تخريبها ليعملوا السيف فيمن رجع اليها من أهلها مطمئناً إلى جلاء العدو عنها أو فيمن يقبلون على الانقاض المحترقة ليستخرجوا نفائس الاعلاق منها . فلما عادوا إلى نيسابور على هذا النحو أمر الزعيم المغولي باقامة الأذان فأقبل إليه بهذه الحيلة كثيرون ممن كانوا يعتصمون بالمخابىء والزوايا المهجورة ، وصدق المؤرخ الفارسي حين قال في وصف هذه الجموع : « إنهم يقصدون إلى

إبادة نوع الانسان وفناء العالم ولا يقصدون إلى السيادة أو الغنيمة » .

* * *

إن جو المأثورات — بما يحفه من الأشعة والهالات — ليرن فيه صوت بلال أبداً كما رن في الحلم صوت ذلك الغريب في الأكسية الخضر منبعثاً من عالم فردوسي إلهي مسربل بالضياء .

وليس في مقدورنا بعد انقضاء تلك المئات من السنين أن نعرف حقيقة المؤذن الافريقي ولا ان نقوم مزاياه الموسيقية التي لا شك فيها ، ولكننا ، إذا صح لنا ان نستدل بما قيل في وصفه على طبقته الموسيقية فالأغلب الأقرب إلى الحقيقة أنه كان من طبقة « الباريتون » المعروفة لدينا بالامتداد والغزارة خلافاً للنغمة العربية التي تعرف بشيء من الحدة والنعومة .

ولا يعوزنا السبب لأن نشك في ان احداً من المشهورين بين أرباب صناعة الغناء في الجاهلية كان من ذلك العنصر — العربي — الذي وصفه سائح فرنسي فقال : إنه شعب صخاب ، وقد أنبأنا الدكتور بيرون Perron في كتابه الممتع عن النساء العربيات الذي نشر بالجزائر سنة ١٨٤٨ أن معظمهم كانوا عبيداً وان جميع العبيد قبل الدعوة المحمدية كانوا على وجه الاجمال من الحبش أو الزنوج ، ولا يبعد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتي عاد — ولا يزال لأغانيهما بقية مروية — فتاتين حبشيتين .

وتقول الاخبار إنهما كانتا لعبد الله بن جدعان من سلالة عاد ، وأن فترات التاريخ العربي لم تخل من عتقاء او خلاسيين نبغوا في الشعر أو في الفن أو الغناء ، ومن هؤلاء الأغربة السود ذلك الأسود الذي نظم إحدى المعلقات ورويت له أغان وأناشيد بين أحسن القصيد ، ونعني به عنترة بن شداد .

ومنهم خفاف الشاعر الفارسي ابن عم الخنساء ، والشنفرى الذي لم يكن حظه من الشعر بالقليل ، وقد شهر الحرب وحده على قبيلة كاملة

ثأراً لحميه الذي قتلوه لأنه ارتضى لبنته زوجاً من غير أكفائها وأقسم لا يهدأن أو يقتل منهم مائة بقتيله . فأصاب تسعة وتسعين منهم ثم أصابوه وقطعوا رأسه وجاء رجل منهم فركله بقدمه العارية فجرح في قدمه وفسد جرحه فمات . فقيل إن الشنفرى بر بقسمه وهو قتيل .

ويروى عن النبي أنه ود لو شهد عنترة بن شداد ، ولعله لم يكن يود ذلك إعجاباً بشعره كما وده لعلمه بجدوى ذلك الشاعر لدعوته ، إذ يجنح إليها ويقود لها عتقاء الصحراء جميعاً تحت لواء نبي يبشر بالمساواة .

وطوت روح الإسلام شيئاً فشيئاً قصيد الصحراء الجميل بألوانه الساخنة التي تشبه ألوانها ، وحرارته التي تشبه حرارة رمالها ووقدته التي تشبه وقدة سمائها ، ولكن الأغربة لم تزل تغني وان كفت عن نظم المعلقات ! ولم يكن بالقليل عدد المغنين السود أو الخلاسيين الذين نبغوا في القرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الاسلام ، فسعيد بن مذحج الذي صادر الخليفة عبد الملك ماله لأنه فتن أبناء الأشراف بسحر غنائه فأجزلوا له العطايا وضيعوا تراثهم عليه كان عبداً من عبيد مكة ، وأبو محجن نصيب بن الزنجي قد لقي الحظوة من أمراء كثيرين و حكام مختلفين منذ أيام عبد الملك إلى ايام هشام . وقد حشا يزيد الثاني فاه دراً في يوم من الأيام .

وأبو عباد معبد – أمير الغناء في عصره – أطرب ثلاثة من الخلفاء ، وغشي على يزيد من الطرب وهو يستمع لغنائه ، ومنحه خلفه إثني عشر الف دينار جائزة واحدة ، ومشى في جنازته الوليد الثاني هو وأخوه في ثياب السواد حداداً عليه وقد مات في قصره .

ويبدو أن سلامة الزرقاء – التي بلغ ثمن القبلة منها أربعين الف درهم – كانت من سلالة السود ، وكانت سلامة القس وحبّابة صاحبتها من جواري المدينة المولدات ، وتروى قصة من أشجى القصص العربية عن غرام يزيد بحبابة هذه وموته حزناً عليها .

والأدلة كثيرة على ان أصوات الجواري السود وأساليبهن في الغناء كان لها سحر ملحوظ في نفوس ساداتهن المسلمين ، كما يؤخذ من مطالعة أدباء العرب والفرس في بعض الاحيان . وقد قيل إن اسماعيل بن جامع أعظم المغنين في عصر الإسلام الذهبي أعطى جارية سوداء اربعة دراهم لينقل عنها نغماً غريباً سمعها تترنم به وهي تحمل الجرة على رأسها ، ثم وضع في ذلك النغم دوراً سمعه الخليفة هارون الرشيد فقال انه لم يسمع مثله قط في جماله وابتكاره وأجازه عليه بأربعة آلاف دينار ومنزل نفيس الأثاث والرياش .

ويقص علينا السعدي — الشاعر الفارسي — أنباء اخرى نعلم منها أن أرباب الغناء من السود قد بقيت لهم منزلتهم في هذا الفن إلى ما بعد صدر الإسلام ، ومن تلك الانباء قصة رواها في كتابه « بستان الورد » من أحوال الدراويش وكان لها شاهد عيان .

قال :

« خرجت إلى الحجاز في رفقة من الشبان الأذكياء ، وكانوا يترنمون في الطريق بين حين وحين ببعض الأشعار الصوفية ، وكان بيننا رجل من الأتقياء ينكر سلوك الدراويش لأنه يجهل حالهم ولا يعرف نجواهم ، فلما بلغنا نخل بني هلال برز لنا من خيام بعض العرب غلام أسود يتغنى بصوت يستنزل الطير من السماء ، ونظرت إلى جمل صاحبنا التقي قد أخذه الصوت الساحر فألقى براكبه إلى الارض وهام في الصحراء ، فصحت بالرجل : يا هذا ! إن صوت هذا الفتى قد عمل في الحيوان الأعجم ولم يعمل فيك » .

وذاك انه كان من عادات العرب القديمة أن يحفزوا الابل إلى المسير والصبر على السفر بألحان الحداء ، وقد روى جنتيوس Gentius معقباً على هذه الواقعة في ترجمته لبستان الورد (امستردام ١٦٥٤) قصة أخرى أعجب من الأولى فقال : « إن مؤلفاً من الثقات نزل بضيافة رجل في الصحراء

ضاعت منه جميع إبله ، فجاءه عبد زنجي وسأله ان يتشفع له عند مولاه في ذنبه ، فلما حضر الطعام أبى المؤلف الضيف أن يمد يده اليه أو يصفح صاحب الدار عن ذنب مولاه . فقال له صاحب الدار : إن هذا العبد خبيث ضيع عليه ماله ورده إلى اسوأ الحال ، وقد منحه الله صوتاً جميلاً فأقمته حادياً لإبلي فأجهدها بسحر حدائه حتى قطعت في يوم واحد مسيرة ثلاثة أيام . ولكنها لم تلبث أن نفقت جميعاً ساعة وضعت عنها أحمالها لفرط ما نالها من الإعياء ، وقد وجب لك حق الضيف فتقبلت شفاعتك وأعفيت هذا العبد الخبيث من الجزاء » .

ومن النوادر التي تروى في هذا المعنى وتدل على شأن الحداة في المشرق – نادرة حكاها جلال الدين في تاريخه حيث قال : إن المنصور أجاز سالماً الحادي بنصف درهم لأنه أطربه بحدائه حتى أوشك ان يسقط عن جمله ، فقال سالم : لقد حدوت لهشام فأجازني بعشرة آلاف ! » .

فمما لا شك فيه أن المغنين في الجاهلية وفي الصدر الأول من الإسلام كانوا على الأكثر من العبيد والمولدين ، وأن هؤلاء العبيد السود كانوا من ذوي الهبات الصوتية العجيبة وبلغوا الرفعة بمهارتهم في الصناعات الموسيقية ، فلا داعي للشك في ملكة الغناء عند بلال ولا في قيام المأثورات عن صوته الحسن على أساس صحيح .. ويبقى ان ننظر هل هو الذي أبدع لحن الأذان الذي مضى عليه المؤذنون من بعده أو أنه قد أدى الأذان كما أمر به وأوحي اليه .

وعلينا ان نذكر «اولاً» أن العرب الأقدمين مع حساسيتهم الموسيقية لم ترتفع الموسيقى بينهم فوق طبقة التجويد الصوفي إلا في الفرط النادر ، وغاية ما بلغوه في هذا الباب يشبه الصدحات الكورسيكية الحديثة بما فيها من الزركشة والترديد على هوى المغني أو على هوى السامعين . فتعاد الكلمة الواحدة مرة بعد مرة بتمويه وتجويد ومد وقصر يطول التكرار فيه حتى

ليستغرق إلقاء القطعة الواحدة من النظم بضع ساعات .

ولا تزال هذه النزعة في الغناء باقية على حالها بين العرب المحدثين ، فقد صدق بيرون Perron حين سأل : أي سائح في مصر لم يسمع كلمة يا ليل تعاد مرة بعد مرة نصف ساعة او تزيد ؟

والأغلب ان الانغام العربية لم تكن لتزيد في عهد الدعوة المحمدية على ثلاثة أنواع متميزات : وهي ما يسمى بالنغم البسيط ويغنّى به في مقام الوقار ومعارض البطولة أو السهولة كغناء الحرب والحداء .

وما يسمى بالنغم المركب وهو يتألف من حركات عدة وترجيعات صوتية كثيرة ، وما يسمى بالخفيف وهو الذي يستخف السامع إلى الطرب ويهزه ويحرك أشجانه ويخرجه عن الوقار .

ولما كان بلال عبداً وكان لا ريب في بعض أوقاته يسوق الإبل فقد كان على الارجح يتغنى بالحداء ويعالج النغم البسيط ، ولكنه — بسليقته الافريقية التي طبع عليها أبناء جلدته — ربما وجد من وقته متسعاً لترديد الاصوات المركبة واستطاع من ثم أن يلقي الأذان في ألحانه المعروفة .

فلا يخفى أن النغم الذي يسمع في المنام قلما يثبت في الذاكرة ، وأن النغم الذي سمعه المسلم الصالح من الطيف الغريب صاحب الثياب الخضر يصعب أن يعلق بذاكرته ويجري على لسانه وهو يقص رؤيته على النبي (صلوات الله عايه) .

فلا يبعد إذن أن يكون بلال قد سمع الأذان وصاغ منه اللحن الذي أوحته اليه سليقته الافريقية الآبدة فأقره النبي عليه كما أقره على ما أضافه بعد ذلك إلى أذان الصبح حيث زاد عليه « الصلاة خير من النوم » .

ولا جرم يقره محمد على أسلوب ترتيله وهو الذي كان يقربه اليه ويسأله الرأي في مهمات الامور . وقد كان يؤثره على غيره من المؤذنين ، فلم يكن

يؤذن لأحد الرجلين اللذين ندبا للأذان بعده أن يدعو إلى الصلاة وبلال قادر على الدعاء اليها .

ولزم بلال النبي عن كثب طوال حياته . فكان يوقظ النبي بعد الأذان أحياناً بآية من الآيات أو بكلمة من جوامع الحكمة والتقوى . فإذا اجتمع المصلون بالمسجد إتجهت الأنظار نحو الافريقي الواقف بالصف الأول ليتلوه في حركات الصلاة ، فإن من واجب المؤذن بعد إعلان الأذان أن يصحب الإمام بالتكبير والدعاء كما يصنع الشماس مع الأسقف في الصلاة المسيحية .

ولما تعاظمت قوة الاسلام تعاظمت معه مكانة بلال وعهدت اليه أمور أهم وأكبر من الأذان . فكان خازن بيت النبي وأمينه على المال الذي يصل إلى يديه ، وتلقى من النبي مفاتيح الكعبة يوم دخل مكة في موكبه الظافر وكان هو الذي أقام الأذان على أعلى مكان في تلك البنية التي اشتهرت الآن في انحاء الكرة الأرضية . وكان هو الداعي إلى الصلاة يوم حضر إلى المدينة ملوك حضر موت للدخول في الاسلام ، وكان هو الذي يدعو إلى الصلاة حين يحتشد فرسان الاسلام بالصحراء لقتال عابدي الأوثان .

وتروى عنه أخبار شتى بعد وقعة بدر وفتح خيبر تشف عن بغض شديد لأعداء وليه والمحسن اليه لا حاجة بنا في هذا المقام إلى تفصيلها ، وأجمل من هذا أن نذكر للأسود الأمين غيرته على شخص النبي يوم ذهب معه في حجة الوداع فظل يحرص على راحته طوال الطريق ويمشي إلى جانبه مظللاً إياه بستار في يده يحميه وهج الظهيرة ، ولعله في تلك الرحلة قد عبر في الوادي المقدس تلك الاماكن التي كان سادات قريش يعذبونه هو في حر شمسها .

ثم توفي محمد « عليه السلام » فسكت الصوت العجيب ودعي مؤذنون آخرون لدعاء المسلمين إلى الصلاة . لأن بلالاً عاهد نفسه ألا يؤذن لإمام بعد نبيه ووليه .

ولا نعلم كم من الوقت قضاه بلال في صحبة أبي بكر بالمدينة ، ولكنه

ولا ريب كان في موضع الرعاية والكرامة بين المسلمين ، وكان له من جلالة القدر في أنظارهم ما خوله ان يخطب امرأة عربية حرة لأخيه الأسود وهي رعاية عظمى بين قوم لا يزالون يفخرون بصحة النسب ويسمون أنفسهم بالأحرار أي الخلص من النسب الخليط .

ويؤخذ من بعض الأنباء أن بلالاً قد تولى بعض مهام الدولة بعد الخليفة الاول . فلما أراد الخليفة العادل الصارم في عدله – عمر بن الخطاب – أن يحاسب « سيف الله » خالد بن الوليد على بعض أعماله كان بلال هو الذي نزع عمامة خالد وأوثق يديه أمام جماعة المسلمين بالمسجد وهو يردد مشيئة أمير المؤمنين .

ولكننا لا نسمع بعد هذه القصة عن بلال إلا القليل ، حتى وصل عمر إلى الشام فنعلم انه كان يصحب الجيش وأنه كان قد منح بجوار دمشق قطعة من الأرض واعتزل الحياة العامة كل الاعتزال .

وكان معظم الصحابة قد فارقوا الدنيا ، ولحق أبو بكر وخالد بالنبي في رضوان ربه كما لحق به آخرون ممن جاهدوا معه في معارك الاسلام الأولى . ولم يكن الجيل الجديد على نمط الجيل الذي تقدمه في المعيشة ، فزالت أو كادت تزول من حياة العرب تلك البساطة البدوية التي درجت عليها ، وظهرت بينهم بدع من الترف الأسيوي لم تكن معهودة فيما مضى ، وتدفقت أموال فارس على المدينة كأنها سيل من الذهب حتى دمعت عينا الخليفة عمر وهو ينظر اليها ويخشى منها الفتنة والحسد على رعاياه .

وفي خلال ذلك كانت العقيدة التي تعذب بلال من أجلها ودان بها زمناً وهي لا تتجاوز حي أبي طالب – قد جاوزت البرور والبحار إلى سورية وفلسطين وفارس وشهدها قبل أن يسلم روحه إلى ذلك الذي لا ينام وهي تسلك سبيلها إلى القارة الافريقية فتضمها إلى فتوح الاسلام . وبهذا أصبحت دعوته الاولى – دعوة الأذان – مستجابة بين أقوام من المتعبدين من تخوم

الهند إلى شواطىء الأطلس ، وقرع فرسان الصحراء العربية أبواب كابل ...
ولعل ولداً من ذرية بلال قد عاش حتى رأى الدولة تمتد على بقاع الارض مسيرة مائتي يوم بين المشرق والمغرب . وإن ما بلغته الفتوح الاسلامية — حتى في الثانية عشرة للهجرة — لخليق أن يستجيش في صدر الشيخ الهرم حمية الدين التي عمر بها ما بين جانحيه .

* * *

سكت صوت بلال عن ترديد الأذان بعد نبيه ووليه ، لأنه رأى في حسبانه التقي أن الصوت الذي أسمع نبي الله ودعاه إلى بيت الصلاة لا ينبغي ان يسمع بعد فراق مولاه . ولنا ان نتخيله في مأواه بالشام وأنه ليدعى مراراً إلى ترديد ذلك الدعاء الذي أعلنه لأول مرة تحت قبة السماء المضاءة بمصابيح الكواكب ، وانه ليضطر مراراً إلى الإباء والاعتذار لأولئك الذين كانوا يجلّونه إجلال القديسين وبودهم لو بذلوا أموالهم كلها ليسمعوه .

إلا أنه لما ذهب عمر إلى دمشق توسل اليه رؤساء القوم ان يسأل بلالاً إقامة الأذان تكريماً لمحضر أمير المؤمنين ، فرضي بلال وكان أذانه الأخير .

* * *

لقد كانت غيرة فتيان الدين الجديد في تلك الأيام غيرةً يوشك الا تعرف الحدود ، ومن المحقق ان النبأ الذي سرى بينهم مبشراً باستماعهم الى أذان بلال قد أذكى في نفوس أهل المدينة الوردية الشذى حميةً مفرحة لا نظن ان العالم المسيحي قد شهد لها مثيلاً في غير أيام الصليبيين .

فلما شاعت البشرى بين أبناء المدينة بسماع صوت المؤذن النبوي لاح للأكثرين ولا شك ان الظفر بسماع هذا الصوت غنيمة مقدسة تكاد أن تضارع الظفر بسماع صوت النبي عليه السلام ... وأنها أفخر أحدوثة في الحياة تروى بعد السنين الطوال للأبناء والأحفاد . وقد يكون في

المدينة من تلقى النبأ بشعور لا يتجاوز التطلع والاستشراف ، ولكن الأكثرين الذين تزاحموا في صمت وخشوع واجفي القلوب مرهفي الآذان لسماع «التكبيرة » المعروفة قد خامرهم ولا ريب شعور أعمق وأقوى من ان يلم به النسيان . وتزكي روايات العيان هذا الاعتقاد ، لأننا نعلم من تلك الروايات أنهم بعد لهفة الانتظار في تلك اللحظة لم يلبثوا أن سمعوا رنــة الصوت الجهوري تشق حجاب الكونوتتعاقب من حنجرة الشيخ الافريقي بتلك الكلمات المحبوبة الباقية حتى بكى عمر ومن معه وتحدرت الدموع على وجوه أولئك الأبطال المجاهدين وارتفع لزفراتهم نشيج عــال غطى في المسجد على دعاء الأذان الاخير .

أي فنان موسيقي أو دارس لتاريخ الموسيقى لا يود لو يسمع كيف كان صدى بلال في ذلك الأذان ، وأن يسمع الكلمات الخالدات كما كانت تسمع من أول المؤذنين ؟!

ولا حاجة بنا الى أن نقول إنها أمنية مستحيلة ، لأن فن النوطة أو تدوين الأنغام لم يكن معروفاً يومئذ بين العرب ، ولم تكن لهم وسيلة لنقل الصوت من جيل الى جيل غير تعليق الذاكرة ، فليس في وسعنا أن نجزم كل الجزم بما بقي أو بما تبدل من تلحين بلال للأذان . ولكننا نرجع الى الظن وقد يغني في هذا الباب . ولدينا من الأسباب ما يكفي لترجيح بقاء الأصوات نيفاً والف سنة محفوظة في الذاكرة بغير تدوين ، ولعلنا نستطيع القول بأن بعضاً من العبرية بقيت بهذه الوسيلة من أيام سليمان ، وليست غيرة العرب على المأثورات الدينية بأقل من غيرة العبريين ، فلا جرم تسنح لأنغام الأذان فرصة للبقاء في الذاكرة كالفرصة التي سنحت لأناشيد إسرائيل .

فمن الجائز أن الأذان الحديث فيه على الأقل نغمات مشابهة للنغمات التي ابتدأ بها بلال إذ كانت الكلمات نفسها باقية بغير تبديل .

ولعل مصر التي فتحت وبلال بقيد الحياة — مصر بلد الخلود الذي لا

يقبل التبديل – قد حفظت دعوة الصلاة كما كانت ترتل في العشرة الثانية بعد الهجرة المحمدية . وقد سمعت الأذان من مؤذنين سمعوه من بلال .

ويرضينا ان نعتقد أن بلالاً نفسه قد أدي الأذان على نحو يشبه أداءه المسموع في مصر الحديثة كما سجله فيلوتو Villoteau وهو أنغام تذكر السامع برسوم العمارة العربية وتنقسم الى أجزاء واجزاء مما يقع موقع الغرابة في تأثيره على مسامع الغربيين .

وقد كان المؤذن الذي سمعه فيلوتو أقرب الى التفنن من المؤذن الذي سجل لين Lane نغماته في كتابه عن المصريين المحدثين فاذا بها تنتهي وفي السمع انتظار لبقية تالية ... ولعلنا نؤثر ان يكون تلحين بلال من قبيل ذاك الأذان لما فيه من تجزئة النغم التي يألفها العرب وتشبه تلك الخفايا المستغربة في الأصداء الإفريقية . إلا ان النغم الآخر مع هذا يعبر على بساطته عن جمال ووقار ويوحي إلى معنى العبادة الخالدة التي لا نهاية لها والتي هي أبداً في ابتداء بغير ختام ، كما يوحي إلى صلاة معلقة تتصل بما بعدها ولو كانت هي آخر صلاة .

تعقيب

من الصفحات التي مرت بنا ـــ مترجمة من الانجليزية عن الكاتب الألمعي لفكاديو هيرن ـــ يتبين للقارىء منزعه الأدبي في الكتابة والتصوير . وهو على الأغلب منزع الخيال والمجاز والعطف على الحياة الشرقية التي تمتزج بتواريخ الروحيات والدينيات على الإجمال ، وهو مع تحقيقه في مراجعة المصادر التي اعتمد عليها لم يخل من هفوة هنا أو هناك لا يعيبها سوء النية الذي تشف عنه أقوال الكثيرين من المستشرقين ، وإنما يوقعه في الخطأ حب المجاز أو الاسترسال في صقل موضوعه وتجميل صورته ، فلا يستغني هذا المقال الممتع الذي حيى به ذكرى المؤذن الأول عن تعقيب نصحح فيه من مقاله ما يحتاج الى التصحيح أو الاستدراك .

فمن هفواته العرضية إشارته إلى عقب بلال رضي الله عنه وليس له عقب كما ورد في ابن هشام نصاً ، وكما يفهم من السكوت عن ذكر بنين له أو بنات في كل ما قرأناه عنه .

ومن هذه الهفوات العرضية اعتقاده أن أبا رويحة كان أخاً لبلال من أبويه أو من احدهما وهو على ارجح الأقوال أخوه في الاسلام على سنة المؤاخاة التي كان النبي (صلوات الله عليه) يعقدها بين الصحابة من أنصار ومهاجرين .

إلا أن هفوته الظاهرة هي مذهبه في تعليل كثرة المغنين والمغنيات بين الموالي في بلاد العرب وقلتهم بين أبناء البلاد الأصلاء فإنه يجنح في كلامه إلى تعليل هذه الكثرة بنقص في الأداة الصوتية ، أو في القدرة الفنية عند العربي الاصيل ، وان الموالي والجواري من السود والاحباش سلموا من هذا النقص فكثر اشتغالهم بفن الغناء في الحجاز ثم في غيره من الاقطار الاسلامية .

وظاهر ان هذا التعليل بعيد من الصواب ، لأننا نسمع العرب اليوم في حديثهم ونداثهم كما سُمعوا قبل الاسلام فلا نجدهم قاصرين في الجملة عن أداء صوت من الأصوات أو الارتفاع في جهارة الصوت وقوته إلى طبقة من الطبقات ، ولكنهم كانوا يعرضون عن صناعة الغناء لاعتقادهم في بداوتهم أنها صناعة أنثوية لا تليق بالفارس المقدام ولا بالرجل الكريم ، وأن المنادمة والتسلية بجمال المسمع أو جمال المنظر أدنى إلى عمل النساء منها الى عمل الرجال ، وكانوا أهل حرب أو تجارة فلا يحمدون من الرجل الكريم ان يشتغل بعمل غير القتال أو تسيير القوافل بين رحلتي الصيف والشتاء ، وكثيراً ما كان تسيير القوافل بالتجارة ضرباً آخر من ضروب القتال .

وتوارثوا هذا الاعتقاد إلى ما بعد أيام الدولة الاسلامية ، فكان الغناء مقصوراً على الموالي والجواري أو على المخنثين الذين يتشبهون بالنساء في المظهر والكساء ، ولهذا كانوا يرسلون الشعر ويطلون الوجوه ، وعنهم أخذ الأوربيون هذه العادة وعمموها في أزياء أصحاب الفنون من موسيقيين ومصورين وممثلين ، وظل إرسال الشعر وطلاء الوجه شائعاً بينهم إلى زمن قريب ، بعد ان نقلوه من الاندلس ونقله الاندلسيون عن أهل الصناعة في مدن الحجاز .

فكثرة المغنين بين الموالي والجواري إنما ترجع الى هذه العلة لا إلى عجز الأداة الصوتية في العرب الأصلاء ، وقد كانت لهم صناعة غناء لا ينكرونها وهي الحداء والنصيب وما اليه ، فكانوا يبلغون بها أقصى مدى الصوت

الانساني في العلو والقوة والامتداد ، وقد سمعناهم في البادية مع القمراء فكانت اصواتهم الجهيرة تملأ الصحراء . وهي في الغناء أعسر مكانٍ على امتلاء.

وصوت بلال رضي الله عنه لم يطلب مع هذا للآذان لأنه عرف قبل هذا في أفانين الغناء ، ولعله رعى الإبل وحداها في بوادي الحجاز أو في الطريق بين الحجاز واليمن وبين الحجاز والشام ، ولم يذكر قط أنه اشتغل بغير هذا الضرب من الغناء قبل الاسلام أو بعد الاسلام ، فإنما عرفت جهارة صوته في الحرب والسلم وحداء الطريق فاختاره النبي عليه السلام للأذان ، وكانت تقواه وغيرته على الصلاة والعبادة ولزوم المسجد من أسباب ذلك الاختيار .

عباس محمود العقاد





تقدير وتسطير

التاريخ عرض الانسانية ...

والعرض مناط الحمد والذم في الانسان ...

وكذلك التاريخ بالقياس الى الانسانية في جملتها ، لا يكون شيئاً إن لم يكن تقديراً لما هو صادق أو كاذب ، أو ما هو صواب أو خطأ ، وما هو حميد أو ذميم ، من الحوادث والناس .

وقد نذكر الحوادث توسعاً في التعبير ، فإن الحوادث لا تعنينا لذاتها إن لم يكن معناها تقويماً لأعمال وقياماً بأعمال ، أو لم يكن معناها في صيغة أخرى تعريفاً بأقدار الناس مما عملوه واستطاعوه ...

وكل شيء في الحياة الانسانية هين إذا هان الخلل في موازين الانسانية، وإنها لأهون من ذلك إذا جاوز الأمر الخلل الى انعكاس الأحكام وانقلابها من النقيض الى النقيض .

يهون كل شيء إذا هانت موازين الانسانية ، لأن موازين الانسانية جماع ما عندها من الفكر والخلق والعقيدة والذوق والخيال .

ومن هوان الموازين الانسانية أن يختل كل هذا ، فلا يوثق بمحصول الانسانية كافة في تاريخها القديم والحديث .

وأهون من ذلك ألا تختل وكفى ... بل تختل وتنعكس ، فيوضع فيها الذم موضع الحمد ، والكذب موضع الصدق ، والخداع موضع الاخلاص والإيمان ...

وقد هان عرض انسان واحد يشتريه المال أو الغرض في حياته ، فماذا يقال في عرض الانسانية الذي يشترى في الحياة وبعد الممات ، ويزيف فيه الواقع للعيان ثم يلازمه الزيف بعد ذلك مدى الأجيال على صفحات التاريخ !..

ذلك أفدح مصاب تصاب به الانسانية : إنه مصاب في عرضها ، في صميم أفكارها وأخلاقها وعقائدها وأذواقها وأحلامها . في موازينها وحسب. وما من شيء يعتز به الانسان لا يدخل في هذه الموازين .

وأوجب واجب على الانسان لضميره أن يحمي نفسه من شر هذا المصاب الفادح ، وألا يتيح لأحد أن يختلس التاريخ في حاضره ومستقبله . فليس البلاء هنا بلاء منفعة تفوت أو مضرة تحدث ، ولكنه بلاء الزيغ في البصر والبصيرة ، وعلينا نحن أن نصحح البصر إذا زاغ لأنه نقص وعيب وإن لم يحدث منه ضرر عاجل أو آجل . وكذلك نصحح زيغ البصيرة لأنه نقص وعيب ، أو لأنه تشويه في سواء الخلقة ، وإن لم يعجل منه الضرر ولم تذهب به المنفعة ...

إن تاريخ الانسانية من أوائلها الى حواضرها لا يملك للعاملين جزاء غير حسن التقدير وصدق القياس لما عملوه .

وكثير على أحد أن يبتذل هذا الجزاء ، لأنه استطاع أن يحشو بعض البطون أو بعض الجيوب ، فيملك — بهذه الرشوة الرخيصة — خير ما تؤتيه الانسانية أحداً من أبنائها في الحياة وبعد الممات .

* * *

على أن الموازين الانسانية لا تزيفها الرشوة المقصودة دون غيرها ، ولا

يختل بها غرض المنتفعين المتواطئين على تبديل الحقيقة ، ذهاباً مع الأجر العاجل والعطاء المعروف .

بل تصاب هذه الموازين من النهازين أو « الوصوليين » المطبوعين كما تصاب من النهازين المصنوعين أو المصطنعين .

فمن الناس من يحب أن تتغلب المنفعة على الفضيلة أو على الحقيقة ، وإن لم يكن هو صاحب المنفعة ولا حاضراً لها عند انتفاع المنتفعين بها .

من الناس من يحب ذلك لأنه يرجع الى طبيعته فيشعر بحقارتها إذا غلبت مقاييس الفضائل المنزهة والحقائق الصريحة .

ومنهم من يحب الناجحين بالمنافع لأنه يتمنى أن ينجح على مثالهم ولا ينكر النجاح إذا جاءه بوسيلة كوسيلتهم .

ومنهم من يبلغ بهذه الخصلة حد التعصب والغيرة العمياء ، لأنه يكره أن يدان الناس أو تقاس الأعمال بمقاييس المثل العليا فيلوم نفسه ولا يقدر على التماس المعذرة لها في نقيصتها ، أو في طبيعتها التي لا فكاك منها .

وليس أبغض الى الانسان من احتقاره لنفسه .

وليس أحب إليه من اعتذاره لها عن حقارتها .

* * *

وإنك لو بحثت جهدك عن عصبية عمياء تغطي على بصر الانسان وتملك عليه هواه ، لم تجد لها علة أقوى من هذه العلة التي ينقاد لها ولا يبتغي الشفاء منها.

إنه يتعصب في كل شعور يدفع به النقص ويمهد به العذر وينفي عنه الاضطرار الى الاقرار بسبق السابقين له وارتفاع المرتفعين عليه .

وإنه ليعترف بالجهل إذا استطاع أن يدعي لنفسه تعلة يسمو بها على أهل المعرفة .

وإنه ليعترف بالعجز إذا استطاع أن ينزل بالقادرين الى « مستواه » بخديعة من خدائع النفوس .

وإنه ليعترف بالرذيلة إذا استطاع أن يلوث الفضيلة التي يمتاز بها عليه ذوو الفضائل البينة .

وإنه ليتشبث بهذه التعلات كما يتشبث الغريق بأوهام النجاة ، لأنه بغير هذه التعلات غريق في شعور ثقيل على جميع النفوس ، وهو الشعور بالهوان...

لهذا يتعصب النهازون المطبوعون على أصحاب المثل العليا ، لأنهم بين اثنتين : إما أن يدينوا أنفسهم بالمثل العليا ويعملوا في السر والعلانية عمل أصحابها ، وذلك مطلب عسير يصطدمون بعقباته كل يوم وكل ساعة ...

وإما أن ينكروا تلك المثل العليا على أصحابها ، ويتعصبوا لمن ينجح بأساليبهم أو يتمنون النجاح بأساليبه ، وذلك مطلب لا يكلفهم تغيير الطباع وإن لم يبلغوه بفعالهم كما بلغه ذوو القدرة أمامهم من الناجحين الفعالين ...

* * *

وقد عرفنا من هؤلاء أناساً في التاريخ كما عرفناهم في الحياة الحاضرة .

عرفناهم فعرفنا عجباً من العصبية العمياء التي تكيل بالكيلين وتزن بالميزانين في الحادث الواحد والحقبة الواحدة .

إذا وقفوا بين خصمين أحدهما من النفعيين والآخر من المثاليين رأيت العجب في المقياس الذي يلتمسون به المعاذير لهذا وينكرونها على الآخر في اللحظة الواحدة ...

إذا استسلم أحدهما مع الهوى لمحاباة ولده أو ذوي قرباه لم يعذلوه أو لم يعنفوه في عذله ، بل اتخذوا من ذلك شريعة يؤتم بها وتجري الوتيرة عليها ...

وماذا في هذا الصنيع عندهم مما يستغرب ؟ أكان على الرجل أن ينسى

ابنه ليفضل عليه الغرباء عنه؟ أليس هذا الصنيع صنيع كل إنسان في هذا المكان؟..

يعذرون هنا بل لا يلومون، ولا ينفرون ممن يلومونه إن جاملوا «الظواهر» فلاموه.

أما خصمه المثالي فمعدود عليه أن يحابي نفسه فضلا عن محاباة ولده، ومعدود عليه أن يهبط من السماوات العلا لحظة واحدة ليشبه سائر الناس في نقيصة من النقائص أو أمل من الآمال.

ولا حاجة إلى إمعان في البحث للكشف عن خبيئة الطبيعة النهازة في هذه التفرقة بين الحكم على النفعيين والحكم على المثاليين.

إن الطبيعة النهازة لا تريد هنا أن تحكم وأن تنصف بين خصمين.

إنها تريد أن تعذر نفسها لتقول إن ذلك المثالي ناقص وان هذا النفعي يجري على العرف الشائع بين جميع الناس، ولهذا يتناول النهاز الميزان وهو يتعمد أن يزيد في ناحية من السيئات ويحط من الحسنات، ويتعمد في الناحية الأخرى أن يقلب الكفة فيزيد على الحسنات ويحط من السيئات..

ويكفي أن ينسب الى العظيم المثالي عمل من الأعمال التي لا يقدر عليها النهاز ولا يسعى إليها ليشعر النهاز بالاختلاف والجفوة بينه وبين ذلك العظيم المثالي، ثم يشعر بنوع من القرابة والألفة بينه وبين خصمه، فيميل الى سماع الأحدوثة الحسنة عن هذا ولا يميل الى سماعها عن ذاك، ويضطره الى ذلك وقوفه بين طريقين: أحدهما غريب يصغره في نظر نفسه، والآخر مألوف يطرقه كل يوم أو يحب أن يطرقه غير ملوم بينه وبين دخيلته..

* * *

نعم.. يكفي أن ينسب الى العظيم المثالي عمل من الأعمال التي لا يقدر عليها النهاز ولا يسعى إليها لتنفرج الهوة بينهما فلا يستريح النهاز الى

العظيم المثالي كما يستريح الى النفعيين الناجحين .

ونقول « عمل من الأعمال لا يقدر عليه ولا يسعى إليه » لأن هناك أناساً لا يقدرون على العمل المثالي ولكنهم يسعون إليه أو يتمنونه أو يحبون أن يؤمنوا بسعيهم إليه وتمنيه وصبرهم على مشقة هذا السعي وهذه الأمنية ..

وليس هؤلاء بالنفعيين المطبوعين .

هؤلاء مثاليون تعوزهم القدرة ولا يعوزهم الأمل في بلوغها ولا الغبطة بوجودها ، وميولهم الى جانب العظماء المثاليين أقرب وأغلب من ميولهم الى جانب المنفعة الناجحة بالحيلة أو بكل وسيلة ، والأمثلة من هؤلاء وهؤلاء كثيرة بين سواد الناس الذين لا يدخلون الى ساحة التاريخ إلا شهوداً أو مستمعين .

فلو كانت محنة التاريخ كله من النهاز المأجور لما خفيت حقائقه هذا الخفاء ، ولا طال العهد على الزيف أو الغرض المموه بالأباطيل .

وإنما المحنة الشائعة من أولئك النهازين المتطوعين الذين يقبلون العملة الزائفة ويرفضون ما عداها ، ويجاهدون من يكشف هذا الزيف ويقوّمه بقيمته الصحيحة ، ثم تكثر العملة الزائفة في الأيدي حتى ليوشك أن تطرد العملة الصحيحة وتحيطها بالريبة والحذر ، ولا ينفع المحك الناقد في هذه الحالة لأن المحك الناقد لم يسلم قبلها من التزييف ..

* * *

وفي التاريخ الاسلامي مراحل كثيرة تصحح لنا موازين التاريخ التي يرتبط بها عرض الانسانية ، وربما كانت هذه المراحل أجدى على المؤرخ من غيرها في تواريخ الأمم ، لأنها حاضرة الأخبار والروايات ، حاضرة الاسباب والبواعث ، ولا يخفى من شأنها غير النيات والمزاعم . وليس بالمؤرخ من تضلله النيات والمزاعم حين تشخص أمامه الاخبار والروايات ولا تتوارى

خلفها الاسباب والبواعث بحجاب كثيف ..

وأسبق هذه المراحل وأضخمها مرحلة النزاع بين علي ومعاوية بعـــد مقتل عثمان ..

فقد اختلفت فيها الأحكام على الرجال والمناقب والأعمال ولم تنقطع عنا أخبارهم وحوادثهم التي اتفقت عليها جميع الأقوال .

وإذا لم يرجح من أخبار هذه الفترة إلا الخبر الراجح عن لعن « علي » على المنابر بأمر معاوية لكان فيه الكفاية لإثبات ما عداه مما يتم به الترجيح بين كفتي الميزان .

فإن الذي يعلن لعن خصمه على منابر المساجد لا يكف عن كسب الحمد لنفسه في كل مكان وبكل لسان ، ولو لم يرد من أخبار تلك الفترة أن معاوية كان يغدق الأموال على الأعوان ومن يرجى منهم العون لكان لعن خصمه على المنابر كافياً للإبانة عما صنعه لكسب الثناء عليه وإسكات القادحين فيه ، ولكن أخبار الأموال المبذولة لتغيير الحقائق في هذه الفترة تفيض بها كتب المادحين والقادحين ومن لا يمدحون ولا يقدحون ، ولم يعلم أحد مبلغها من الوفر والجسامة ، ولكنها معلومة بالتقدير وإن لم تعلم بالإحصاء وأرقام الحساب ، لأنها استنفدت خزانة الدولة وجرت الى مضاعفة المكوس والضرائب ومخالفة العهود لأهل الذمة وحسبان الزكاة من حصة الخزانة التي يستولي عليها ولاة الأمور .

ويبقى عمل النهازين المطبوعين بعد عمل النهازين المأجورين ، فإنهم قد تطوعوا في ذلك العصر ، وفي العصور التالية ، لترجيح كفة النجاح المنتفع على كفة المثالية العالية ، ولم يخف الأمر على أبناء ذلك العصر كما نشرحه الآن بأساليب علم النفس في الزمن الأخير . فإن الأقدمين لم تفتهم « النفس » بجوهرها وإن فاتتهم مصطلحات النفسانيين من أبناء القرن العشرين ، وقد

نفذوا الى بواطنها بالنظرة الثابتة لأنهم أصحاب نفوس تعلم ما تنطوي عليه النفوس .

جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي عن الامام ابن حنبل انه سأل أباه عن علي ومعاوية فقال : « اعلم ان علياً كان كثير الأعداء ، ففتش له أعداؤه عيباً فلم يجدوا ، فجاءوا الى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كياداً منهم له ».

وهذه دخيلة من دخائل النفس الصغيرة معهودة متكررة في كل جيل وفي كل خصومة ، فكثير من الثناء لا يصدر عن حب للمثنى عليه كما يصدر عن حقد على غيره ، وكثير من هذا الحقد تبعثه الفضائل ولا تبعثه العيوب ..

* * *

ـ إن تاريخ معاوية بن أبي سفيان لا يحتاج الى مزيد من تفصيل ، وإنما يحتاج تاريخه وتواريخ التابهين جميعاً الى تصحيح الموازين وبيان المداخل التي تؤتى من قبلها أحكام الناس على الحوادث والرجال ، فتصاب بالخلل أو تنقلب رأساً على عقب . ويصاب بالخلل معها تفكير المفكر ونظرة الناظر وإدراك المدرك لما يحيط به من حوادث زمنه وحوادث سائر الأزمنة .

ونحن نفهم تاريخ معاوية ونفهم معه تواريخ الكثيرين من بناة الدول إذا صححنا الموازين وعرفنا ما يعرض لها من الانحراف عن قصد أو عن شعور غير مقصود ..

ولكننا لا نعرف تاريخ معاوية ولا تواريخ غيره إذا أخذنا بظواهر الاقوال ولم ننقب وراءها عن بواطن الاهواء والبواعث الخفية ، ولا بد منها في هذه المرحلة بذاتها : مرحلة الدولة الاموية الأولى على التخصيص .

ـ لقد كان قيام الدولة الاموية بعد عصر الخلافة حادثاً جللا بالغ الخطر في تاريخ الاسلام ، وتاريخ العالم .

* * *

وما كان أحد ليطمع في بقاء عصر الخلافة على سنة الصديق والفاروق أبد الآبدين ودهر الداهرين ، لأن اطراد النسق من ولاة الأمر على هذه الطبقة العليا من الخلق والتقوى أمر تنوء به طاقة بني الانسان .

فما كان دوام الخلافة الصديقية أو الفاروقية بمستطاع على طول الزمن ؛ وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالأمر الذي يؤجل الى زمن بعيد .

ولكن الملك بعد الخلافة كان على مفترق طريقين : كان في الوسع أن يسير على مشابه الخلافة ملكاً باراً تقياً مصوناً من بذخ الهرقلية والكسروية وسائر ضروب الملك في عصوره الخالية .

وكان في الوسع أن يسير على مشابه الملك في العصور الخالية بذخاً ومتاعاً وزينة وخيلاء كخيلاء العواهل من القياصرة والشواهين .

كان في الوسع أن يبتدىء الملك في تاريخ العالم على النهج الصديقي أو الفاروقي وإن لم يبلغ هذا المدى من النزاهة والصلاح ، وكان هذا النهج خليقاً أن يظل إماماً للرعية يتوارثونه ويقتدون به ويحميهم نكسة الأخلاق والآداب قروناً وراء قرون من بقايا الوثنية وأوشاب المادية ، وما شابهها من آداب تدور على النفع العاجل وتقبل المعاذير منه في أخطر الأمور ...

كان في الوسع هذا ، وكان في الوسع ذاك .

ونشأة الدولة الأموية على مفترق هذين الطريقين هي الحادث الجلل في صدر الاسلام ، وهي الحادث الجلل الذي يقرر تبعتها في التاريخ الاسلامي بل في التاريخ العالمي كله .

* ورأس الدولة الأموية ، معاوية بن أبي سفيان ، هو صاحب هذه التبعية التي يجب أن تتقرر بأمانتها العظمى في ميزان لا تلعب به المنافع المقصودة أو المنافع التي هي أخطر منها على الحقيقة ، وهي منافع الطبائع المستسلمة لأيسر المعاذير ، يشق عليها الصعود الى المثل الأعلى ولو بالأمل وحسن المظنة ،

ويطيب لها أن تسترسل على هينة مع مألوفاتها في كل يوم ...

* * *

والصفحات التالية تتناول النظر في سيرة معاوية من هذه الوجهة ، فليست هي سرداً لتاريخه ولا سجلا لأعماله ولا معرضاً لحوادث عصره ، ولكنها تقدير له وانصاف للحقيقة التاريخية وللحقيقة الانسانية — كما يراها المجتهد في طلبها وتمحيصها ، ونكاد نقول كما يراها من لا يجتهد في البعد عنها وإخفاء معالمها والتوفيق بينها وبين دخيلة هواه من حيث يريد أو لا يريد ، وبعض المؤرخين بعد العصر الأموي الى زماننا هذا يفعلون ذلك حين ينظرون الى هذه الفترة فلا تخطئهم من أسلوبهم ولا من حرصهم على مطاوعة أهوائهم ، كأنهم صنائع الدولة في إبان سلطانها وبين عطاياها المغدقة ونكاياتها المرهوبة ورجالها الذين تنعقد بينهم وبين معاصريهم أواصر المودة والنسب وأواصر المشايعة في المطالب والمعاذير .

ولولا أننا نأبى أن نضرب الأمثلة بالأسماء لذكرنا من هؤلاء المؤرخين المعاصرين من يتكلم في هذا التاريخ كلاماً ينضح بالغرض ويشف عن المحاباة بغير حجة ، فمنهم من ينكر الخلاف بين هاشم وأمية في الجاهلية ، ومنهم من يحسب من همة معاوية أنه تصدى للخلافة مع علي ويحسب من المآخذ على غيره أنهم تصدوا للخلافة مع يزيد ، ومنهم من يشيد بفضل أبي سفيان على العرب لأنه كان تاجراً يعرف الكتابة والحساب ويعلمهما من يستخدمهم في تجارته ، ومنهم من يلوم أهل المدينة لأنهم نكبوا في أرواحهم وأعراضهم على أيدي المسلطين عليهم من جند يزيد ولا تكاد تسمع منه لوماً لأولئك المسلطين ، بل تكاد تسمعه يعذرهم ولا يدري ما يصنعون غير ما صنعوه .

ولو أننا ذكرنا أسماء هؤلاء المؤرخين المعاصرين لكان تمام البيان عن منهجهم أن نشفعه بأطراف من تراجمهم وألوان من مسالكهم في طلب المنفعة واللياذ بالقادرين عليها ، وألوان من معاذيرهم التي يرتضونها لأنفسهم

ويوجبون على الناس أن يرتضوها لهم أو يلتمسوها لهم ، وإن لم يعلنوها...

* * *

ولكننا ندع هذا التمثيل لأننا في غنى عنه بما ثبت من الأمثلة المحفوظة عن زمانها ، ونتخذ الشواهد من حوادثه وأقوال رجاله ، ونتحرى في ذلك كله أن نصون التاريخ — نصون ذمة الانسانية — أن يملكها من يملك الجاه والسلطان في زمن من الأزمان.

* * *

بين القدرة والعظمة

زبدة الصفحات التالية أن رأس الدولة الأموية كان رجلا قديراً ولكنه لم يكن بالرجل العظيم .

والفرق بين القدرة والعظمة يوضحه الاصطلاح ولا توضحه المعجمات اللغوية هذا التوضيح الذي نعنيه . فقد يقال عن العظيم إنه قدير ويقال عن القدير إنه عظيم ، ولا يخطىء القائل من الوجهة اللغوية في هذا الترادف المقبول ما لم يقيده الاصطلاح .

إنما الاصطلاح الذي نعنيه وننظر فيه الى أحوال الطباع أن القدرة غير العظمة في أشياء .

فربما وصف الرجل بالقدرة لأنه مقتدر على بلوغ مقاصده واحتجان منافعه والاضرار بغيره ، ولكنه إذا وصف بالعظمة فإنما يوصف بها لفضل يقاس بالمقاييس الانسانية العامة ، وخير تغلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه .

* * *

ولعلنا نقترب من توضيح الاصطلاح إذا نقلنا التفرقة من القدرة والعظمة الى التقدير والتعظيم .

فنحن نقدر الانسان بمقداره عظيماً كان أو غير عظيم ، بل نقدر الأشياء

بمقاديرها ولو لم يكن لها عمل ولم تكن من وراء العمل نية، ولكننا إذا عظمنا الانسان فإنما نوجب له التعظيم علينا لأنه يعنينا ويستحق إكبارنا ويرتفع الى المكانة التي تلحظها الانسانية بأسرها وتعود عليها في منافعها وخيراتها .

فكل عظيم قدير ..

ولكن ليس كل قدير بالعظيم ..

والعظمة قدرة وزيادة ..

أما القدرة فليس من اللازم أن تكون عظمة فضلاً عن أن تكون عظمة وزيادة ..

ومعاوية قدير ولا ريب ..

أما أنه عظيم فذلك الذي نعرض له في الصفحات التالية لنبين فيها الفارق بين القدرة والعظمة ، في ترجمة رجل من أنفع الرجال النابهين لتوضيح هذا الفارق بميزان الحوادث وميزان الأخلاق .

ومن سرف القول أن يقال إن معاوية لم يكن يعمل بباعث من الغيرة الدينية أو بباعث من أحكام المروءة والعرف المتبع في الأخلاق .

فليس في وسعه أن يتجرد من هذه البواعث لو أراد ، وليس في وسع رجل أسلم على يد النبي عليه السلام وصاحبه وعمل على أيدي الجلة من صحابته أن يغفل عن غيرة دينه وأحكام فرائضه وواجبات المروءة في عرف زمنه ..

* * *

إلا أننا ، مع العلم بغيرته الدينية في شعوره وفعاله ، نستطيع أن نعلل جميع أعماله بعلة المصلحة « الذاتية » أو مصلحة الأسرة والعشيرة .

ونستطيع أن نعمم القول بغير استثناء على كل مسعى من مساعيه وكل

حيلة من حيله وكل مأثرة من مآثره ، فنقول ان المصلحة الذاتية أو مصلحة الأسرة والعشيرة كافية لتعليلها والقيام بها ، وإنه لم يعارض المصلحة الذاتية بإرادته في حين واحد ، وعارض المصلحة العامة في أحيان .

كان رجلا قديراً ولكنه لم يكن بالرجل العظيم .

ومهمة المؤرخ في سيرته أن يقدر قدرته وأن يعرف ما اقتدر عليه بسعيه وتدبيره وما اقتدر عليه بمساعدة الزمن وممالأة الحوادث والمصادفات ..

وهذه المهمة تتقاضانا « أولا » أن نجمل القول في جميع التمهيدات التي مكنته من الاقتدار على مقاصده ، ومنها ما كان سابقاً للاسلام وسابقاً لمولده ، ومنها ما تم قبل ملكه وما تم في أثناء ملكه الى ما بعد موته ..

* * *

وتتقاضانا هذه المهمة « ثانياً » أن نزن المواهب العقلية والخلقية التي اشتهر بها وأسند إليها ما أسند من أسباب نجاحه .

فنبدأ الكلام في الفصول التالية بالتمهيدات التاريخية من قبل الاسلام الى قيام الدولة الأموية ، ثم نتلوها بتحليل الأخلاق والمواهب التي تعدّ من وسائل نجاحه ..

ونلاحظ في ذلك كله أن « نقدر القدرة » التي ثبتت لهذا الرجل القدير من وراء المدائح والأهاجي ووراء الدعاية له والدعاية عليه .

ونحسب أننا وفينا بهذه الأمانة إذا انتهينا من هذه الصفحات الى الوزن الصحيح الذي يوزن به رأس الدولة الأموية ويوزن به غيره من أعلام التاريخ.

* * *

تمهيدات الحوادث

بدأ التمهيد لبني أمية في الشام قبل الاسلام بجيلين متعاقبين ، وكانت الشام قبل ذلك سوقاً عامة لقريش ، تأتيها قوافل الصيف بتجارة الحجاز في حراسة الرؤساء من بيت مناف على الأكثر ، وأظهرهم في الجيل الذي سبق الدعوة النبوية هاشم بن عبد مناف .

ولم يكن رجحان هاشم بالرئاسة والثروة حائلا بين الأمويين وغشيان الشام للتجارة والإقامة بين المدن والبادية فيها ، بل كان هذا الرجحان — فيما اتفقت عليه الأخبار — سبباً لهجرة أمية من مكة وإقامته بالشام عشر سنين ، إذ تنافر هاشم وأمية وتنافسا على الرئاسة ، واحتكما الى الكهان كعادتهم على أن يكون للغالب إجلاء المغلوب عن مكة عشر سنين ، فقضى المحكمون لهاشم على أمية ، وخرج أمية الى الشام فاختارها مقاماً له خلال هذه السنين ، وربما كان ضيقه بالزعامة المعقودة لهاشم في مكة من دواعي الهجرة قبل الحكم عليه في قضية المنافرة المشهورة ، وهي قضية قد تصح بتفصيلاتها أو لا تصح إلا بجزء منها ، ولكن هجرة أمية الى الشام لم تكن مما اختلف عليه المختلفون .

ولما مات هاشم شغل أبناؤه بالرئاسة الدينية الى جوار الكعبة ، وآل اللواء الى بني أمية ، وهو عمل ينوط بصاحبه حراسة القوافل من الشام وإليها ، إذ لم يكن من حاجة قريش في الجيل السابق للإسلام عقد اللواء لجيش يغزو القبائل أو يدفع غزوتها لمكة ، وإنما كان العمل الأكبر لصاحب

اللواء حراسة طريق التجارة بين مكة والشام على الأكثر ، وبين مكة واليمن في قليل من الأوقات . وكان عملا يحتاج في الواقع الى جيش صغير وقائد يحمل لواءه ، لأن القافلة التي تخرج للتجارة تجمع أموال قريش وتسير بها المئات من الابل ، ولا ينتظم سيرها بغير قيادة تتولى تنظيم المخافر وتوزيع المؤونة والتعرف الى رؤساء القبائل التي تقيم على الطريق أو تقيم على مقربة من أسواق الشام في البادية ، فهي عمل متصل لا ينتهي بانتهاء رحلة القافلة ولا تزال له روابطه وعلاقاته بين صاحب اللواء وأعوانه وبين ذوي الشأن في مراحل الطريق وفي منازل المقام .

ومن المشهور المتواتر أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان معروف المكانة بين رؤساء الدولة البيزنطية على حدود بلاد العرب كما كان معروف المكانة بين الوجوه من قبائل البادية ، وخلعت عليه الدولة البيزنطية لقباً من ألقاب الرئاسة ليسفر بينها وبين قومه ويعينها في خلافها مع العرب الغساسنة بالشام ، وكانوا يجنحون أحياناً الى جانب فارس في حربها لبيزنطة ، ويرى البيزنطيون أنهم لا يستغنون عن قوة من العرب لمقاومة هذا الخطر من البادية ، ولو بتهديـد الغساسنة وتشكيكهم فيمن يجاورهم أو يعاملهم من العرب الحجازيين .

وقد كان بنو أمية على شبه محالفة بينهم وبين بني كلب أقوى القبائل ببادية الشام وأشدها خطراً على الغساسنة ، ومنها من تنصر منافسة للغساسنة في حظوة الدولة مع ارتقابهم للفرص بين الدولتين وبين القبائل العربية ، وقد عرفنا بعد الاسلام ثلاثة من كبار الأمويين أصهروا الى بني كلب في عصر واحد ، وهم سعيد بن العاص والي الكوفة والخليفة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان ، ولا تكون هذه المصاهرات أول العهد بالصلة بين الفريقين ، فهي بقية لما تقدمها من الصلات .

ومن المشهور أيضاً أن أبا سفيان كان على صلة بولاة الأمر من البيزنطيين ،

وكان يلقى هرقل وأمراء بيته في رحلاته ، ويعول عليه هؤلاء فيما يعنيهم من أحوال العرب وأخبارهم ، فقيل إنهم سألوه عن النبي عليه السلام عند مبعثه ، وإن السائل جعل يستنبئه عن صفاته عليه السلام على مسمع من قوم حجازيين في المجلس ، ويحذره أن يكذب فيكذبه من سمع كلامه من قومه. قال أبو سفيان : وعلمت أنهم لا يكذبونني إن كذبت ، ولكنني صدقت الصفة ضناً بمروءتي أن أقول ما يعلم السامعون أنه نبأ مكذوب ...

قال المقريزي « إنه ما فتحت بالشام كورة إلا وجد فيها رجل من بني سعيد بن العاص ميتاً » ...

وكان النبي صلوات الله عليه يتحرى في اختيار الولاة أن يندبهم للولاية حيث يتيسر لهم العمل بموافقة الرعية ، فاختار عمر بن سعيد بن العاص والياً لتيماء وخيبر وتبوك وفدك ، وكلها على طريق التجارة الاموية ، وسار أبو بكر على هذه السنة فاختار يزيد بن أبي سفيان قائداً لجيش من جيوش الحملة على الشام وولاه بعض أقاليمها بقية حياته ، وكانت وفاته في عهد الفاروق فجرى على هذه السنة وعهد بالولاية الى أخيه معاوية حيث بقي الى بعد خلافة الفاروق ، وكان يعمل برئاسة أخيه قبل موته ويحمل اللواء بين يديه.

ومن بني أمية من كاد يصرّح بالطمع في الملك بعد رسول الله على عهد الصديق . إذ كان من أبناء عمر بن سعيد بن العاص خلف على الولاية التي ولاها إياه النبي صلوات الله عليه ، فلما بويع أبو بكر بالخلافة أنفوا أن يعملوا له وقالوا : « نحن أبناء بني أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً » ...

ولا يقول هذا القول إلا من يطلب الرئاسة لنفسه ولا يقر بالرئاسة لغير ذي نبوة أو رسالة إلهية ، وينظر الى الخلافة نظرة دنيوية لا تفاضل فيها بصفة من صفات الدين وسابقة من سوابق الهداية .

وكان الفاروق قد ولى معاوية ولاية من الشام فضم إليه عثمان سائر الشام

وألحق به أقاليمها من الجزيرة الى شواطىء بحر الروم ، فلما قتل عثمان كان قد مضى لمعاوية في ولاية الشام عشرون سنة ، لم يبق فيها من ينازعه أو يعصيه ، ولم يكن من عمالها وحكامها المرؤوسين له أحد من غير صنائعه وأشياعه والمستقرين في كنفه ، لأنه حرص في ولايته على استبقاء من يواليه وإقصاء من يشغب عليه ، وجعل همه الأكبر أن يخرج أهل الفتنة من الشام ولا يبالي بعد ذلك ما صنعوا في سائر الولايات ، فتفرقوا كلهم بين الكوفة ومصر والحجاز .

كان عثمان يسمع الأقاويل عن ولاية الشام ويتلقى الشكايات ممن يطلبون منه عزل ولاته وأولهم معاوية ، فيعتذر لهؤلاء الشاكين بعذره المعهود ويقول لهم إنه إنما ولى على الشام من ارتضاه قبله عمر بن الخطاب . وقال ذلك مرة لعلي بن أبي طالب فقال له علي : نعم . ولكن معاوية كان أطوع لعمر من غلامه يرفأ ، وصدق الإمام فيما قال .

فقد كان معاوية يصطنع الأبهة في إمارته ويقتصد فيها جهده بعيداً عن أعين الفاروق ، فإذا لامه الفاروق على شيء منها رآه بعينه اعتذر له بمقامه بين أعداء ألفوا الأبهة واتخذوها آية من آيات القوة والمنعة ، وكان يؤدي حساب ولايته لعمر كلما سأله الحساب ويقنع منها برزقه من بيت المال ألف دينار في العام ، وأنفال مما يجمعه من تجارة أهله أو مما وراء الحساب ...

فلما بويع عثمان بالخلافة تركه في مكانه وضم إليه سائر الشام كما تقدم ، وطلب منه معاوية أن يرخص له في زرع الأرض التي تركها أصحابها وهاجروا الى بلاد الروم فأجابه الى طلبه ، ووضع معاوية يديه على موارد من المال تقوم بأعباء دولة ، ولم يكن يخشى عليها من الحساب ما كان يخشاه على عهد عمر بن الخطاب ، وأوشكت الشام أن تقوم وحدها مملكة مستقلة يتولاها ملك مستقل فيما عدا الأوامر التي كانت تأتيه من المدينة بتحصين الثغور وإمداد الغزاة وتسيير الجيوش الى الأطراف بقيادة الأعلام من الصحابة.

وقتل عثمان فانقسمت الرقعة الاسلامية قسمين ، أحدهما لا خلاف فيه وهو الشام حصة معاوية ، والآخر لا وفاق فيه وهو حصة علي من الحجاز والعراق ، وقد تدخل مصر فيها حيناً وتخرج منها أكثر الأحايين .

وتولى معاوية بلاداً لا ينازعه فيها منازع ولا يود أحد فيها أن تخرج من يديه وتؤول الى غيره .

وتولى علي بلاداً كلها نزاع من أمر الخلافة الى أصغر الأمور . فنازعه الخلافة طلحة والزبير ، وأحاط به رهط من المتزمتين المتفقهين يسألونه عن الكبيرة والصغيرة ويجتهدون اجتهادهم في كل شأن من شؤون السياسة .

وهذا الى الفارق بين وفرة المال من جانب وندرته من الجانب الآخر.

وهذا الى فارق آخر أكبر وأعسر وأعضل على الحل والمحاولة ، وهو الفارق بين الملك والخلافة ، وقد افترقت طريقاهما منذ سنين ، وتم افتراقهما بعد أيام عثمان .

فكانت أعباء الخلافة كلها على علي ، وكانت أحوال الملك كلها مع معاوية مواتية له محيطة به فيما يريد وفيما لا يريد .

كان الناس مع علي ينظرون الى سنة النبي وسنة الصديق والفاروق من بعده ، وكان الناس مع معاوية ينظرون الى هرقل وكسرى ، ولا يسومونه أن يحكم كما حكم النبي أو كما حكم من بعده الخليفتان الأولان .

وكان لا بد لعلي — كما قلنا في عبقرية الإمام — من ملك أو خلافة ... ولن يكون ملكاً بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريده . لأنه عصر ملك تهيأت له دواعيه الاجتماعية وتهيأ له الرجل بخلائقه ونياته ومعاونة أمثاله ، ولم يكن معاوية زاهداً في الخلافة على عهد أبي بكر أو عمر أو عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه . فلما جاء عصر الملك طاب الملك والملك يطلبه .

وهذه حالة لم تطرأ دفعة واحدة في أيام النزاع بين علي ومعاوية . بل ظهرت بوادرها في أيام الصديق وازدادت ظهوراً في أيام الفاروق ، وحدث كما أجملنا ذلك في كتاب ذي النورين ان الصديق « اتخذ الحيطة للفتنـة واستبقى عنده كبار الصحابة ليجمع بين معونتهم له في الرأي وبين تجنيبهم الفتنة ومآزق الولاية ، وكان يتذمر من ترخص بعض الصحابة في أمور تؤذن بما بعدها فقال لعبد الرحمن بن عوف وهو على سرير الموت : « ما لقيت منكم أيها المهاجرون .. رأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل ، وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الاذرني كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان » ..

وانقضى عهد الصديق ثم انقضى عهد الفاروق « والمجتمع الاسلامي مجتمعان : أحدهما ماض ولما يمض بأجمعه ، والآخر مقبل ولما يقبل بأجمعه ، وأوشك عمر على قوته أن يحار في تدبيره ، وقال الشعبي إنه قضى وأوشكت قريش أن تمله لشدته ووقوفه لها بحيث وقف لها حائلا بينها وبين نزعاتها ومطامحها في دنياها الجديدة » .

* * *

وتتابعت السنون على أيام عثمان وهذان المجتمعان يلجان في الافتراق حتى افترقا غاية افتراقهما في النزاع بين علي ومعاوية . فكان علي يكبح تياراً جارفاً لا حيلة له في السير معه ولا دفعه ، وكان معاوية يركب ذلك التيار رخاء سخاء بغير مدافعة وبغير حيرة ، ويركبه معه من لا يدافعه ولا يحار فيه ...

وكأنما بقيت بقية من التيسير هنا والتعسير هناك ، فجاءت حصة علي حيث جاء الموالي من كل جنس يطلبون الحق الذي يطلبه كل مسلم ممن لا ينكر على أحد حقاً من الحقوق ، وخلت الحصة الأخرى من هؤلاء الموالي

وخلصت للعرب يوم كان العرب وحدهم قوام الدولة في دمشق بين القرشيين واليمانيين .

أحاط الموالي بالامام حتّى قال له بعض أنصاره من العرب : « لقد غلبتنا هذه الحمراء عليك ». وسار الامام في العدل بينهم وبين العرب سيرة من يعلم أنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى .

أما في الشام فقد كان معاوية لا يباليهم لأنهم قلة هناك لا يحسب لها حساب ، ومرضاة العرب أولى من مرضاة الموالي في دمشق حيث قامت الدولة الأموية ، وحيث هان خطبهم بعد ذلك حتّى قيل إنه هم بقتلهم والبطش بهم على غير عادته ؛ وقال لهم غير مرة: إنكم عجم وعلوج !

وما كان من قبيل المصادفات أن الدولة الأموية قامت في دمشق وأن الدولة التي قوضتها — وهي دولة بني العباس — قامت في بغداد . فإن دمشق ما كانت لتصلح مقاماً للدولة بعد اتساعها للعرب والفرس والترك والديلم وموالي الأمم من كل قبيل .

وقد كانت العصبية العربية قوة للدولة الأموية في نشأتها ، وكان اختلاط الموالي ضعفاً للدولة القائمة في الجزيرة ، لأنهم أشتات متفرقون لم يكن منهم أحد يقبض على زمام من أزمتها .

ونجمت ناجمة الخوارج فلم تكن لهم جرثومة في الشام ينجمون منها ، ولكنهم أصبحوا شعبة جديدة من شعب الشقاق بين الموالي والشيعة من العرب وأصحاب التزمت والزهد من أدعياء الاجتهاد وأدعياء الحق في محاسبة ولي الأمر على ما شرعه الكتاب .

* * *

ثم قتل علي دون صاحبيه المقصودين بالقتل معه معاوية وابن العاص ، فانتفع معاوية بعمله في حياته كأنه أعفاه من جهاد منافسيه بالحجاز والعراق ،

وانتفع بعده بالشقاق بين الشيعة والخوارج والموالي والعرب في رقعة الجزيرة، فإذا هم يضرب بعضهم بعضاً ويغلبهم جميعاً بأيديهم كلما تفرقوا وتقاتلوا، وما كان في وسعهم أن يتفقوا أو يكفوا عن القتال.

وإن القدرة التي خلصت بها الخلافة لمعاوية بين هذه الحوادث لتوزن بميزانها الصادق إذا شاء المؤرخ أن يخالف بين الكفتين .. فماذا كان معاوية صانعاً لو أنه بويع بالخلافة في المدينة ولم تكن له سابقة ولاية على الشام؟ وماذا كان صانعاً لو كان على الشام يومئذ منافس يسوسها على سنة الملك ويرتكن فيها الى قواعد راسخة من عهد الفاروق وقواعد راسخة من قبل الاسلام؟

ثم انفرد معاوية بالخلافة ولزمته تبعة الدفاع عن الدولة في وجه أعدائها فوضع المؤرخون في كفته هذه المأثرة غير مقدورة ولا محدودة، ولا منظور فيها الى التمهيدات التي من قبيل ما قدمناه أو تربى عليها.

ولا شك أن رأس الدولة الأموية قد عمل على حمايتها ولا بد له من العمل على هذه الحماية. ولسنا نعني هنا انه حمى الدولة ليحمي ملكه ويحمي نفسه فهذا قد يدخل في بيان النيات ولا يدخل في بيان القدرة التي أعانته على عمله، ولكننا نعني أننا لا نزن هذه القدرة بميزانها الصحيح إلا إذا عرفنا ما اضطلعت به وكان لها يد فيه وعرفنا ما جرى في مجراه بحكم الحوادث وليست فيه لها يد عاملة أو تدبير مقصود.

فالفتح الاسلامي قد ضعضع دولة الروم الشرقية وفت في أعضادها وترك فيها رجال الدين والدنيا معاً يائسين من رجعة الشام الى حوزتها مؤمنين بتأييد الله للعرب الفاتحين عقاباً للرعاة والرعية على خطاياهم وخطاياها ..

* * *

وقد سمع هرقل صيحة الوعاظ بهذا النكير بأذنيه في مؤتمر أنطاكية،

وغادر سورية وهو يودّعها ذلك الوداع الذي كاد الرواة أن يحفظوه بكلماته اللاتينية كما يحفظون كلمات سليمان الحكيم عن باطل الأباطيل .

فقبل أن يفارق الأرض السورية صاح كأنه ينشج بالبكاء : « الوداع يا سورية . الوداع الأخير » Vale Syria et Ultimatum vale

ورسخت هذه العقيدة في قلوب خلفائه فلم تغن فيها وفرة العدة وكثرة الجند وأسلحة البر والبحر التي كانوا يجمعونها ولا تكاد تجتمع حتى تتفرق لأول صدمة أو تتفرق قبل اللقاء من أجل منام أو عيافة أوهام . وقد روى جيبون أن حفيد هرقل خنع للتسليم لأنه رأى في المنام أنه في سالونيكا وهي كلمة تجانسها كلمة باليونانية معناها « اعط النصر لغيرك ! » ..

وفي تاريخ ميخائيل السوري « ان المنتقم الجبار أتى بأبناء اسماعيل من الصحراء ليخرجوا الأمم من ربقة الروم » ..

وقد روى ابن الأثير من حوادث سنة خمس وعشرين هجرية « ان معاوية غزا الروم فبلغ عمورية فوجد الحصون التي بين أنطاكية وطرطوس خالية فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة » .

ولم ييأس العواهل الضعفاء من سورية وما جاورها من آسيا الصغرى بل يئسوا من القسطنطينية نفسها وهموا مرات بنقل العاصمة منها إلى صقلية ، وتركها العاهل قنستانز فعلاً (سنة ٦٦٨م) ليقيم له عاصمة في صقلية فأوشك أن يقيمها لولا أنه قتل في سر قسطة !

واقترنت بهزيمة الروم في سورية هزائم شتى وشواغل متفرقة أيأستهم من الغلبة على الدولة الاسلامية ، ومن هذه الشواغل حرب الشعوب السلافية ومحالفتهم للمسلمين في بعض الوقائع بآسيا الصغرى ، ومنها الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، ومنها انقسام الاسطول بين قيادتين إحداهما للعاصمة والأخرى للولايات المتفرقة .

وربما كان اسم الدولة الاسلامية في إبان الفتح حماية لها تقوم في ترويع خصومها مقام العدد والحصون ، ولا أدل على ذلك من سلامة هذه الدولة في عهد معاوية الثاني الذي اعتزل الحكومة ولزم داره كما جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي « أربعين يوماً وقيل شهرين وقيل ثلاثة أشهر » ..

قال السيوطي : « ولم يخرج إلى الباب ولا فعل شيئاً من الأمور ولا صلى بالناس » .

ولما خلع نفسه قال : « أيها الناس ضعفت عن أمركم فاختاروا من أحببتم ، ثم احتضر وهو في نحو العشرين فسألوه أن يستخلف أخاه خالداً فقال : ما أصبت من حلاوتها فلم أتحمل مرارتها ؟ » .

ولم يتفق المسلمون على خليفة بعد معاوية الثاني حتى قام عبد الملك بن مروان بالأمر سنة ثلاث وسبعين .. أي بعد تسع سنين .

ودولة تسلم من بيزنطة تسع سنين وهي بغير خليفة متفق عليه لا يبلغ من خطر عدوها أن يحتاج الدفاع عنها إلى قدرة خارقة من ولي الأمر فيها ، وقد سلمت من ذلك العدو سنين قبل ذلك بين مقتل عثمان ومقتل علي ، ولم يكن بين المقتلين يوم سلام واستقرار من الحجاز إلى الجزيرة إلى الشام إلى مصر وما يليها من افريقية الاسلامية .

والثابت المعروف أن الدفاع عن الشام إنما استحصد وتوطد قبل استقلال معاوية بولايتها في أيام عثمان ، وان الدفاع الأكبر عنها بعد ذلك إنما كان يتولاه من قبل الشرق ولاة الجزيرة ، ومن قبل الغرب ولاة مصر وافريقية ، وعندهم الجند والسفن ولهم الصلة الدائمة بالحجاز يسألون الخليفة المدد فيأمر من يشاء من الولاة أن يمدوهم به ، ومنهم معاوية في الشام .

وهذه الفترة في تاريخ الدولة الاسلامية هي التي جعلت لها تلك المهابة التي أيأست بيزنطة من جدوى الهجوم عليها وصرفتها إلى غير هذه الوجهة

من حدودها ، مع ادبار القوة وانقسام الأولياء والأعوان وضياع الثقة بالنصر ، بل باستحقاق النصر من الله .

* * *

وبعد ..

فالمحصل من هذه الحوادث والتمهيدات أن المؤرخ الأمين مسؤول أن يحضرها جميعاً في حسابه وإلا كان كلامه عن « قدرة » معاوية كلاماً جزافاً لا يؤخذ به في تمييز أقدار الرجال وخصائص الطباع ، ولا يفيدنا شيئاً في التعريف بالوسائل التي مهد بها معاوية لنجاحه والوسائل التي تمهدت له قبل مولده ، وقبل الاسلام .

وتتلخص قدرة معاوية في خلائق مشهورة مترادفة أشهرها الدهاء والحلم وعلو الهمة أو الطموح .

وهذه الخلائق هي موضوع البحث فيما يلي من الفصول قبل الكلام على نشأته وعمله وموجز تاريخه وصفوة الرأي فيه .

الدَّهـَاءُ

إذا تحدث الراوية العربي عن صفة من الصفات العامة بلغ بها حد الاستقصاء ، فأثبت في روايته كل ما يقع عليه الحس من أخبار تلك الصفة وذكر لنا الاعلام المشهورين بها والحوادث التي دلت عليها والأقوال التي قالوها أو قيلت عنهم بصددها ، والفوارق التي يختلفون بها فيما بينهم والألقاب التي أطلقت عليهم من جرائها ولم يتركوا مرجعاً من مراجع الدراسة التي يحتاج إليها الباحث العصري في استقصائه الحديث بعد استقصائهم القديم ، إلا تحليل الصفات على حسب عواملها النفسية ، فإنه باب لم يطرقوه ولم يطرقه أحد غيرهم من الأقدمين في الأمم ، وعذرهم في ذلك واضح لا تلزمهم بعده حجة : عذرهم أن التحليل النفسي كله دراسة حديثة تركبت على دراسات علمية أو فكرية أخرى لم يكن للأقدمين عهد بها الى ما قبل بضعة قرون .

كذلك تحدث لنا الراوية العربي عن شجعان العرب وفرسان العرب وأجواد العرب وصعاليك العرب ودهاة العرب في الاسلام ودهاة العرب في الجاهلية و كل ذوي الشهرة في صفة من الصفات العامة التي تتعلق بها الروايات وتتناقل بها الأخبار .

ويبدو لنا — ونحن نقرأ كلامهم عن دهاة العرب — أنهم كانوا «مولعين»

بتلك الصفة خاصة ، يتحدثون بها ويستطيبون حديثها ويتزيدون فيه كلما استطاعوا ، كأنهم يجاوزون بالدهاء حد الاعجاب الى حد التمني والعطف والمشاركة في الشعور ، وعذرهم في هذا أيضاً واضح من تاريخهم وتواريخ منازعاتهم ومصالحاتهم . فإنهم كانوا يتفقدون فيها الدهاء جميعاً فيجدونه حيناً ولا يجدونه حيناً آخر ، ولكنهم كانوا يجدون الشجاعة والفروسية في كل حين .

وسبب آخر من أسباب الولع بالحديث عن الدهاء أنه أصبح كفؤاً للشجاعة أو راجحاً عليها في موازين الصفات الاجتماعية ، فإذا عيب رجل من رجالهم بقلة الشجاعة وجد العزاء — وفوق العزاء — بشهرة الدهاء أو دعواه ان لم يكن قد بلغ بدهائه مبلغ الشهرة الذائعة الصيت .

فالدهاء عندهم كان مزية وضرورة وعزاء وغطاء للخوف والجبن ودعوى سهلة لمن يدّعيها بغير برهان .. أما الشجاعة فبرهانها حاضر لا سبيل للمغالطة فيه ..

ولهذا يتزيد الرواة كثيراً في أحاديث الدهاء ، ويوشك أن يجعلوه صفة من الصفات « السلبية » التي تقترن بنقص الشجاعة حيث نقصت في مجال الغضب أو مجال الصولة والقتال ، وكاد القارىء أن يفهم — بداهة — من وصف رجل بالدهاء أنه رجل لا صولة له ولا خوف من غضبه وبأسه ، وإنما الخوف مما يحتال به أو يكيد .

وكثير من أحاديثهم عن الدهاء يدخل في عداد هذه المعاذير أو هذه الخلال المتشابهات ، ولكنهم إذا اتفقوا على دهاء رجل في سيرة حياته بحذافيرها فالغالب أن يكون على شيء من الدهاء ، وإن لم يكن دهاتهم كلهم من نوع واحد عند تحليل الأعمال والصفات ، ولم يكن مصدر ذلك الدهاء ملكة واحدة في العقل أو في الطباع .

لقد كانوا يطلقون الدهاء على كل وسيلة « غير صريحة » يبلغ بها صاحبها

مأربه وينتهي بها الى منفعته .. فكل حيلة « غير صحيحة » فهي دهاء على سواء.

إلا أن الواقع أن الوسائل « غير الصريحة » لا تتفق في مصادرها العقلية..

فقد يعتمد الرجل في دهائه على قدرة عقلية فائقة يتسلط بها على الناس فيسخرهم في مطامعه ويقودهم كما يقاد المسخر « بالتنويم المغناطيسي » لخدمته فيما يستفيدون منه أو فيما لا فائدة لهم فيه على الاطلاق ... وقد يكون فيه الضرر لهم كل الضرر وهم لا يفقهون ، ويغشاهم السحر بغشاوته فلا يستمعون لما يقال لهم غير ما يقوله ذلك الداهية أو يوحيه الى شعورهم بغير مقال !

هذا هو الدهاء من الطراز الأول .

ويليه الدهاء الذي لا يعتمد على قدرة عقلية فائقة ولكنه يعتمد على قدرة « مادية » يستطيع بها صاحبها قضاء المصالح والتعامل مع غيره على أساس « التبادل » في المنفعة المعروفة التي يفهمها المتبادلون جميعاً بغير حاجة الى تغرير أو خداع أو إقناع .

رجل يملك السلطان أو المال ، وأناس يحتاجون الى سلطانه وماله ، ولا يقدرون على بلوغ تلك الحاجة من غيره ... فلا هو يخدعهم ولا هم يخدعونه، لأنهم كلهم يعرفون ما يطلبونه ويعرفون وسيلتهم إليه ، فلا خادع فيهم ولا مخدوع ، وإن لم يكونوا جميعاً صرحاء فيما يتوسلون به أو يتوسلون إليه .

من أي هذين الطرازين دهاء معاوية ؟

أمن طراز القدرة العقلية الفائقة التي تسخر الأعوان منقادين مستسلمين مغمضي الأبصار والبصائر ، أم من طراز القدرة المادية التي تعطي وتأخذ ويعاملها طلاب الحاجات لأنهم يعرفون ما يحتاجون إليه ولا يعرفون طريقاً الى حاجاتهم تلك غير هذه الطريق ؟

بأي الدهاءين تمكن معاوية من اجتذابَ عمرو بن العاص والمغيرة بن

شعبة وزياد بن أبيه وغيرهم من الدهاة الذين سارت بدهائهم الأمثال في صدر الاسلام ؟

لعلنا نستطيع أن نقول إن هؤلاء الدهاة ومن جرى مجراهم قد خدعوه وسخروه لقضاء مآربهم كما نستطيع أن نقول إنه هو قد خدعهم وسخرهم لقضاء مآربه .. فإنهم جميعاً قد أخذوا ناجزاً مضموناً حيث يأخذ منهم العوض مقدراً غير مضمون ، وأياً ما كان القول فليس دهاء معاوية هنا دهاء القدرة العقلية الفائقة التي أوقعت في روع أعوانه زعماً تخفى عليهم حقيقته وينقادون به إليه وهم لا يفقهون . وإنما أخذ منهم وأخذوا منه على حد سواء ، وإنما أعطاهم المصلحة التي يريدونها ولا ينتظرون قضاءها عند غيره ، ولم يتمكن من إعطائهم تلك المصاحة إلا لأنه سبقهم الى ولاية الشام عشرين سنة ووضع أيديه على المرافق التي لم يكن في وسع واحد منهم أن يضع عليها يداً من أيديه .

ان رواة التاريخ العربي يحدثوننا كعادتهم في التوصيف والتقسيم ، عن دهاتهم في صدر الاسلام فيقولون انهم أربعة : عمرو بن العاص والمغيرة ابن شعبة، وزياد بن أبيه ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ويقولون ان ابن العاص للبديهة ، والمغيرة للمعضلات ، وزياد لكل كبيرة وصغيرة ، ومعاوية للروية .

وهذا تقسيم صحيح في جملته على الإيجاز ، وقد يعرض له بعض التعديل عند الاسهاب والتفصيل ، ولكن الرأي الذي لا شك فيه انهم جميعاً من الدهاة على اختلاف نوع الدهاء ، وان دهاء الثلاثة الأولين هو الذي قادهم الى معاوية ولم يكن دهاء معاوية هو الذي قادهم إليه . فقد عرفوا مطالبهم وعرفوا أنهم يجدونها عند معاوية حيث لا يجدونها عند غيره ، ولو انهم استطاعوا أن ينازعوه الخلافة لما سلّموها له طوعاً ولما قنعوا منه بالنصيب الذي ارتضوه في خلافته ، ولكن الخلافة كانت مطلباً بعيداً عليهم فلم يضيعوا فيه جهودهم ونظروا الى غاية المطالب دونه فبلغوه بجهد يسير .

لم تكن لأحد منهم ولاية تمتد فتشمل سائر الولايات وتنتهي بذلك إلى الخلافة إلا زياد بن أبيه فإنه كان والياً على أقاليم من فارس يخشى بأسه لما عنده من المال والجند ، ولكنه مغمور النسب يدعونه بابن أبيه قبل أن ينسبه معاوية إلى أبي سفيان،ولن يسلس زمام الخلافة لرجل مثله إلى جانب طالب من طلابها كمعاوية أو من دون معاوية في النسب والمكانة ..

أما ابن العاص و المغيرة بن شعبة فقد كانا من آحاد الرعية يوم نشب النزاع على الخلافة بين عميد بني هاشم علي بن أبي طالب وعميد بني أمية معاوية ابن أبي سفيان ، ولم يكن لاحدهما جند ولا مال ولا عصبة تنافس العصبة الهاشمية أو العصبة الأموية ، فهما خليقان أن ينظرا إلى المطلب الميسور حيث تيسر ، وقد نظرا إليه فلم يعرفا له طريقاً أقرب من طريق معاوية وبخاصة بعد مقتل علي رضوان الله عليه .

وقصة كل رجل من هؤلاء الدهاة الثلاثة لا تدع محلاً للظن بأنهم سيقوا إلى نصرة معاوية مخدوعين أو منقادين بحيلة من حيل الدهاء ، بل هي حرَية أن تنبئنا بغلبتهم على معاوية في المبادلة ، وأنهم أخذوا منه فوق ما أعطوه ، وأنه هو قد أعطاهم شيئاً في اليد حين كان عطاؤهم كله شيئاً في التقدير ، إما من قبيل الأمل المنظور أو من قبيل الخوف المحذور ..

دعا عمرو بن العاص ولديه عبدالله ومحمداً فقال لهما : إني قد رأيت رأياً ولستما باللذين تردادني عن رأيي،ولكن تشيران عليّ ... إني رأيت العرب صاروا عنزين يضطربان وأنا طارح نفسي بين جزاري مكة ولست أرضى بهذه المنزلة ، فإلى أي الفريقين أعمد ؟

قال عبدالله — وهو من أهل التقوى — : إن كنت لا بد فاعلاً فإلى علي..

قال عمرو : إني إن أتيت علياً يقول لي : إنما أنت رجل من المسلمين ، وإن أتيت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني في أمره. وكان محمد ابنه الآخر على

هذا الرأي فقال لهما عمرو : أما أنت يا عبدالله فقد اخترت لآخرتي ، وأما أنت يا محمد فقد اخترت لدنياي .

ويروى أنه لما استشارهما قال له عبدالله: ان النبي عليه السلام قد توفي والشيخان بعده وهم راضون عنك ، فأرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس ، وقال له محمد : أنت ناب من أنياب العرب فكيف يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ؟ فأجابهما بما تقدم وأتى معاوية فوجدهم يطلبون دم عثمان فمضى معهم يقول : اطلبوا دم الخليفة المقتول .

والمشهور في رواية صاحب الامامة والسياسة ابن قتيبة أن معاوية كان غافلاً عن شأن عمرو وعن خطره في معونة أي الفريقين فأعرض عنه حتى نبهه عتبة بن أبي سفيان إلى شأنه وخطره فكتب إليه يقول: « أما بعد فقد كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك وقد سقط علينا مروان بن الحكم في رافضة من أهل البصرة وقدم عليّ جرير بن عبدالله في بيعة علي وقد حبست نفسي عليك فأقدم على بركة الله » .

وتردد عمرو قليلاً بين شد الرحال وحط الرحال فقال له غلامه وردان — وهو من الموصوفين معه بالدهاء : أما انك ان شئت بدأتك في نفسك : اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت مع علي الآخرة بلا دنيا ، ومع معاوية الدنيا بلا آخرة، فأنت واقف بينهما. فقال عمرو: ما أخطأت ما في نفسي ، فما ترى يا وردان ! فقال : أرى أن نقيم في منزلك فإن ظهر أهل الدين عشت في دينهم ، وإن ظهر اهل الدنيا لم يستغنوا عنك ، فقال عمرو : الآن حين شهرتني العرب بمسيري إلى معاوية ؟

وقدم عمرو على معاوية فساومه على رضاه ، فلم يقنع بما دون ولاية مصر مدى الحياة ، وهذه صفقة كأنها صفقة المنتصر الذي يملي شروطه في حومة الحرب ، لأن ابن العاص كان والياً على مصر فعزله عثمان ولم يزل واجداً على عثمان لذلك حتى قيل انه كان يحرض عليه ويخاذل بين أنصاره،

فإذا جاء الرجل قوماً يطلبون دم عثمان فأخذ منهم ما أباه عثمان عليه فإنما هو الرغم ولا مبالاة بما يقولون وبما يقال !

وشقّ على معاوية أن يجيبه إلى هذا المطلب الضخم « فتلكأ معاوية — كما جاء في الامامة والسياسة — وقال : ألم تعلم أن مصر كالشام ؟ قال : بلى ، ولكنها إنما تكون لي إذا كانت لك ، وإنما تكون لك إذا طلبت علياً على العراق .. فدخل عتبة بن أبي سفيان على معاوية فقال : أما ترضى أن تشتري عمرواً بمصر ؟ إن هي صفت لك ليتك لا تغلب على الشام . فلما سمع معاوية قول عتبة بعث إلى عمرو فأعطاه مصر وكتب في إسفل الكتاب : ولا ينقض شرط طاعة ، فكتب عمرو : ولا تنقض طاعة شرطاً » .

وعلى هذا خرج عمرو من الصفقة غالباً غير مغلوب ، وفهم ما يبتغيه فقصد إليه ولم يكن معاوية يفهم ما يبتغيه إلا بعد ممانعة واستعصاء .. وقد عقد معاوية لعمرو بعد ذلك أربعة ألوية : لواء له ولواء لكل من ولديه ولواء لغلامه وردان .

يقال في مصطلحات عصرنا عن الحيلة التي لا تخفى ولا حاجة بها إلى إخفاء أنها « لعب على المكشوف » .. كأنها هي لعبة تلعب نفسها بنفسها ولا محل فيها لتدبير اللاعبين لظهوره واتباعه في اللعب منهجاً لا محيد عنه .

وهكذا كانت الحيلة بين عمرو ومعاوية .

قال عمرو لمعاوية : « أترى أننا خالفنا علياً لفضل منا علينا ؟ ... لا والله . إن هي إلا الدنيا نتكالب عايها . وايم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك وإلا نابذتك » .

وعلى هذه الخطة « المكشوفة » بدأت المعاملة بين الرجاين ، وكان حظ عمرو فيها أكبر من حظ معاوية ، بالقياس إلى ما بذل فيه .

* * *

أما المغيرة بن شعبة فقد كان يبيع سمكاً في البحر ويشتري سمكاً مطبوخاً شهياً على المائدة .

عزله الفاروق عن ولاية الكوفة لأن قوماً شهدوا عليه أنهم وجدوه على ريبة مع امرأة غير امرأته،وقال هو انها امرأته وان الأمر التبس على الناظرين لشبه بين المرأتين ، ولم تثبت التهمة عليه ثبوتاً يوجب إقامة الحد ، ولم تسقط عنه سقوطاً يزيل الشبهة ، فعزله الفاروق وأبقاه زمناً بغير عمل كأنه يؤدبه ويستتيبه، ثم بدا له أن يعيده إلى ولايته فدعاه إليه وشدد عليه ليجتنبن الشبهات حتى الظنة ، وولاه الكوفة مرة أخرى ، فلما قام عثمان بالخلافة عزل فاعتزل السياسة حتى قتل عثمان وبويع علي بالخلافة في المدينة ، فذهب إليه يمهد في العهد الجديد للزلفى عند الامام وعند صاحب الأمر بالشام — معاوية — في وقت واحد ، وأشار على الامام باقرار معاوية في ولايته ليدين له بالولاء ثم يعزله متى شاء . فلما أبى الامام أن يقره عاد إليه في اليوم التالي فقال : « إني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت وخالفتني فيه،ثم علمت أن الصواب فيما رأيت ، فاعزلهم — أي ولاة عثمان — واستعن بمن تثق به ، فإنهم أهون شوكة مما كان » ..

وعاد المغيرة إلى عزلته يترقب ، ثم قصد إلى معاوية بعد رجحان كفته في أمر الحكمين غير مجازف بشيء بعد استقرار أمر الشام — على الأقل — لمعاوية وحزبه ، فولاه معاوية امرة الحج بعد انفراده بالدولة ، وكان المغيرة ينظر إلى ولايته الأولى على الكوفة كما نظر ابن العاص الى ولايته الأولى على مصر ، فلما أراد معاوية أن يعهد بهذه الولاية إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ذهب إليه يبذل النصيحة التي يأخذ منها أكثر مما يهب وقال له : أتستعمل عبد الله على الكوفة وأباه على مصر ؟ .. إنك بين نابي الأسد ! فاستمع له معاوية وعزل عبد الله وولاه في مكانه ، وسمع عمرو بخبر هذه المكيدة فردها بمثلها ، ولم يطلب إعادة عبد الله إلى ولايته بل قنع بحرمان المغيرة من ولاية الخراج واصطنع النصيحة للخليفة الجديد فجاءه يقول : إنك تستعمل

المغيرة على الخراج فيأخذه ولا تستطيع أن تنتزعه منه ، والرأي أن تولي على الخراج رجلاً يخافك ولا تبالي أن تعزله متى شئت ، وأن تستعمل المغيرة على الصلاة والإمارة ، فلا يقوى عليك بغير مال ، فاتبع معاوية مشورته غير كاره ، لأنها أكسبته المال والعداوة بين الداهيتين .

ثم استقر الأمر لمعاوية فهان عليه خطب المغيرة وهم بعزله ، فنمي الخبر إلى المغيرة من عيونه حول معاوية وأشفق من غضاضة العزل فآثر أن يذهب إليه معتزلاً وأن يحتال مع ذلك حيلته التي يرغم بها معاوية على استبقائه وهو عزيز الجانب مرغوب فيه .

شخص إلى دمشق فاختلى بيزيد كأنه يلقاه عرضاً ، ووسوس له أن يطلب إلى أبيه تسميته لولاية العهد ، وزين له الأمر قائلاً : « إن أصحاب النبي وكبراء قريش قد ذهبوا وبقي الأبناء وأنت من أفضلهم فلا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟ قال : أو ترى ذلك يتم ؟ قال : نعم .. فدخل يزيد على أبيه وأخبره بمقالة المغيرة ، فتعجل معاوية لقاءه واستدعاه ليطمئن الى حقيقة الخبر ، وابتدره سائلاً : ما هذا الذي يقوله يزيد ؟ ... قال : إني يا أمير المؤمنين قد رأيت ما رأيت من سفك الدماء بعد عثمان ، وفي يزيد منك خلف فاعقد له البيعة بعدك ، فإن حدث بك حدث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة ... قال معاوية : ومن لي بهذا ؟ .. قال : أكفيك أنا أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بين هذين المصرين أحد يخالف ... فأمره معاوية أن يرجع إلى الكوفة وأن يتحدث مع ثقاته في ذلك ، ثم يرى ما يرى .

قال المغيرة لبعض هؤلاء الثقات : لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً . ثم أجابه ناس من قبيله إلى بيعة يزيد فأرسل منهم عشرة إلى دمشق ولم يرسل سائرهم ليمد في حبل المساومة ، وكان من حكمة معاوية أنه استمهلهم وطلب إليهم ألا يعجلوا بإعلان

رأيهم ، ولم يكن إعلان هذا الرأي من أرب المغيرة لأنه باق في ولايته ما احتاج الأمر إلى بقائه قبل إعلان البيعة والاتفاق عليها ، وفي كل أولئك كان المغيرة كاسباً لا يفقد شيئاً يقدر على استبقائه ، فإن خرج مستعفياً فذلك خير من خروجه معزولاً ، وإن كانت المساومة على ولاية يزيد للعهد مجدية له فيما أراد فقد ربح ولم يخسر ، وباع السمك في البحر والشبكة من عند غيره ، وإن أعرض معاوية عن المساومة ولم يقبل عقد البيعة لابنه — وهو أبعد الفروض — فقد كسب الوالي المعزول ولاء يزيد ولم يفقد ولاء معاوية لأنه مفقود قبل ذلك .. ولعله يرمي من هذا التلويح بولاية العهد إلى استثارة الامير المحروم وإغرائه بأبيه وانتقامه منه بالكيد له في حجاب الحرم إن لم يقدر على الانتقام منه بالثورة والعصيان ، ويقال بحق في جميع هذه الأحوال إن المخدوع من الرجلين — معاوية والمغيرة — لم يكن هو المغيرة إن كان لا بد بينهما من مخدوع .

وكان زياد بن أبيه آخر المبايعين من الدهاة الثلاثة ، فلم يستطع معاوية أن يقنعه بترك فرصة من الفرص التي كان يترقبها ويؤثرها على مبايعة معاوية بالخلافة ، ولم يقبل على معاوية وله رجاء قط في الاعراض عنه ، مع أنه كان أول المنظور إلى بيعتهم في تقدير بني أمية ، لأنه كان — كما نقول في عرف هذه الأيام — ولداً شرعياً لأبي سفيان ، وأخاً لمعاوية من أبيه ..

ولاه علي بن أبي طالب فارس وكرمان ، فأرسل إليه معاوية يتوعده فقام زياد في الناس خطيباً يغلظ الجواب ويرد الوعيد بمثله ، وجعل يقول في خطبته على رؤوس أتباعه ومسمع من أعوان معاوية : « العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق ! يخوفني بقصده إياي وبيني وبينه ابن عم رسول الله في المهاجرين والأنصار . أما والله لو أذن لي في لقائه لوجدني أحمر مخشياً ضراباً بالسيف ». فكتب إليه معاوية يترضاه ويلين القول ودعاه بزياد بن أبي سفيان ، ثم قال : « كأنك لست أخي ، وليس صخر بن حرب أباك وأبي ، وشتان ما بيني وبينك ، أطلب بدم ابن أبي العاص وأنت تقاتلني ،

ولكن أدركك عرق الرخاوة من قبل النساء فكنت كتاركة بيضها بالعراء وملحفة بيض أخرى جناحها ، وقد رأيت ... ألا أؤاخذك بسوء سعياك وأن أصل رحمك وأبتغي الثواب من أمرك . فاعلم – أبا المغيرة – أنك لو خضت البحر في طاعة القوم فتضرب بالسيف حتى ينقطع متنه لما ازددت منهم إلا بعداً ، فإن بني عبد شمس أبغض إلى بني هاشم من الشفرة إلى الثور الصريع وقد أوثق للذبح . فارجع – رحمك الله – إلى أصلك واتصل بقومك ، ولا تكن كالموصول يطير بريش غيره . فقد أصبحت ضال النسب ، ولعمري ما فعل بك ذلك إلا اللجاج . فإن أحببت جانبي ووثقت بي فأمرة بأمرة ، وإن كرهت جانبي ولم تثق بقولي ففعل جميل ، ولا عليّ ولا لي . والسلام » .

على أن زياداً لم يستجب لدعوته حتى قتل الإمام وصالح ابنه الحسن معاوية على شروط تسلمه زمام الأمر كله في حياته ، ولبث معاوية قلقاً من جانبه لا يأمن مكره وجرأته ، يقول لخاصته : ما يؤمنني أن يبايع لرجل من أهل البيت فإذا هو قد أعاد على الحرب جذعة ؟ . فتقدم المغيرة يتوسط بينهما ليشد ساعده بزياد في كيده لابن العاص ، واستأذن معاوية في إتيانه فأذن له أن يلقاه ويتلطف في خطابه وجاءه المغيرة على يأس من خلافة بني هاشم وأمل مبسوط مع المواعيد وتصحيح النسب في خلافة بني أمية ، واستجاب زياد للمغيرة في أمر البيعة لمعاوية وتمنع بعد ذلك في أمر البيعة ليزيد بولاية العهد ، وأنفذ رجلاً من ثقاته إلى الخليفة ليوصيه بالأناة « فإن دركاً في تأخير خير من اناة في عجلة » ولولا أنه مات قبل البيعة بولاية العهد لما استقر الأمر على قرار .

هؤلاء هم الدهاة الثلاثة ، لم يغلب أحد منهم على رأيه بدهاء من معاوية وإنما أفادوا منه جميعاً فوق ما أفادوه .

وتذكر في هذا المعرض بيعة الحسن فلا يقول قائل من المطنبين في دهاء معاوية أو من المقتصدين في أمره إنه كان عملاً من أعمال الدهاء دخلت فيه

الحيلة على الحسن وصحابته . فإنما بايع الحسن بعد أن ثار به جنده واجترأوا على نهب معسكره حتى امتدت أيديهم إلى البساط الذي يجلس عليه وجرحوه في فخذه ... وقيل في أسباب تلك الفتنة ما قيل من مختلف الأسباب والاشاعات فزعم بعضهم أنها نشبت في المعسكر بعد أن شاع فيه مقتل القائد الأكبر قيس ابن سعد ، وزعم بعضهم أنها نشبت فيه بعد إشاعة التسليم وقبول المصالحة بين الحسن ومعاوية ... ولا أمان على كل حال لأنصار يجترئون على إمامهم بالنهب والسطو لسبب من الأسباب كائناً ما كان ، بعد ما تقدم من عنت هؤلاء الأنصار للإمام في حياته وشقاقهم فيما بينهم واستبداد كل منهم بفتواه في أمر الدين وأمر السياسة والولاية . فلو لم يكن معاوية على حظ من الدهاء – قل أو كثر – لما استعصى عليه أن يظفر من الحسن بالمصالحة على شروطه فضلاً عن المصالحة على الشروط التي أمليت عليه .

وما يذكر أحد غير هؤلاء من النابهين المعدودين الذين قصدوا إلى معاوية بالبيعة أو المؤازرة إلا كان على علم بما يقصده قبل لقاء معاوية ، فلا خداع في شأن واحد من هؤلاء المعدودين ولا انخداع .

جاءه عبيد الله بن عمر ففرح به فرحاً شديداً وقال لعمرو بن العاص: ما يمنع عبد الله أن يجيئنا كما جاءنا أخوه ؟ قال عمرو : إنما جاءك عبيد الله لأنه يخشى قصاص ابن أبي طالب منه لقتله الهرمزان بغير قضاء ، وكان عبيد الله قد قتل الهرمزان لأنه شوهد مع أبي لؤلؤة قبل مقتل أبيه وشوهد معه الخنجر الذي حمله أبو لؤلؤة ووجد معه بعد مقتل الفاروق ، فأشار الامام بالقصاص منه وأبى عثمان ذلك لكيلا يقال : قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم . فلما بويع الامام بالخلافة في الحجاز خرج عبيد الله إلى معاوية ونادى مع المنادين بثأر عثمان ، وقال للامام في بعض المواقف بين الجيشين : الحمد لله الذي جعلك تطلبني بدم الهرمزان وجعلني أطلبك بدم عثمان ..

* * *

وذهب عقيل بن أبي طالب إلى أخيه يطلب منه مالاً لسداد ديون عليه فأنظره موعد العطاء ولسائر أصحاب الأعطية ، فتركه وذهب إلى معاوية فقضى له جميع ديونه وقال له بعد أيام : أنا خير لك من أخيك .. قال عقيل : صدقت ! ان أخي آثر دينه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير لي من أخي وأخي خير لنفسك منك !

فكل دهاء يذكر لمعاوية فإنما يذكر إلى جانبه رفد أو عطاء وولاية يستفيد منها من ينصره ولا ينخدع عنها في مبادلة النفع بينه وبينه ، ولا جرم كان العطاء عماد هذا الدهاء ، وكان نقش الخاتم الذي تختم به بعد ولايته : « لكل عمل ثواب » .

ولهذا أعياه كل الإعياء أمر المخالفين الذين لا تعمل فيهم رقية المال والولاية .. فامتنع عليه عبد الله بن عمر لأنه لم ينخدع بالدرهم والدينار « وإنما ينخدع الرجال بهما » كما قال ، وامتنع عليه قيس بن سعد ذلك البطل القوي الأمين الذي حفظ عهده لعلي بن أبي طالب قبل عزله إياه وبعد عزله ، وظل حافظاً لهذا العهد بعد مقتله رضوان الله عليه ومصالحة الحسن لمعاوية وانفضاض الولايات واحدة بعد أخرى عن أعوان بني هاشم ، وقد دانت الدنيا للخليفة الجديد فأرسل إلى قيس صحيفة بيضاء موقعة بتوقيعه مختومة بخاتم الخليفة يكتب فيها ما يشاء فلم يكتب فيها إلا عهداً بالأمان لأصحابه الذين نصروا علياً والحسن بقيادته ، وجلس الخليفة بالكوفة يتلقى البيعة من مخالفيه القدماء فقال قيس : إن كنت لأكره مثل هذا اليوم يا معاوية ! فقال له : مه رحمك الله . عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . قال قيس : لقد حرصت أن أفرق بين روحك وجسدك قبل ذلك فأبى الله يا ابن أبي سفيان إلا ما أحب . قال معاوية : فلا يرد أمر الله ! فأقبل قيس على الناس بوجهه فقال : معشر الناس ! لقد اعتضتم الشر من الخير ، واستبدلتم الذل من العز والكفر من الإيمان فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين وسيد المسلمين وابن عم رسول رب العالمين وقد وليكم الطليق ابن الطليق ، يسومكم الخسف

ويسير فيكم بالعسف ، فكيف تجهل ذلك أنفسكم ، أم طبع الله على قلوبكم وأنتم لا تعقلون ؟! .. فجثا معاوية على ركبتيه ثم أخذ بيده وقال : أقسمت عليك .. ثم صفق على يده ونادى الناس : بايع قيس ! فقال : كذبتم والله ما بايعت ... وضاع صوته بين الصياح والضجيج .

ولم يزل أمثال عبد الله بن عمر وقيس بن سعد بمعزل عن حزب الدولة الجديدة إلا من آثر الجهاد في غزو الأعداء ولم يجد علماً للجهاد غير علم الخليفة القائم بتجنيد الجند وتجريد السرايا على أطراف الدولة من بلاد القياصرة والأكاسرة،وبطلت كل حيلة من حيل « الثواب » بالمال والولاية مع أمثال هؤلاء القروم الذين كانوا بحق عند المسلمين « بقية الناس » .

* * *

إلا أن معاوية كان يصطنع الحيلة التي تجديه في كفاح خصومه ، وإن لم تكن من قبيل الغلبة بقوة العقل وصولة « الشخصية » الطاغية على من دونها في البأس والمضاء ..

كانت له حيلته التي كررها وأتقنها وبرع فيها واستخدمها مع خصومه في الدولة من المسلمين وغير المسلمين . وكان قوام تلك الحيلة العمل الدائم على التفرقة والتخذيل بين خصومه بإلقاء الشبهات بينهم وإثارة الإحن فيهم ، ومنهم من كانوا من أهل بيته وذوي قرباه .

كان لا يطيق أن يرى رجلين ذويْ خطر على وفاق ، وكان التنافس « الفطري » بين ذوي الأخطار مما يعينه على الإيقاع بينهم كما كان يحدث بين المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص بغير تدبير منه أو بتدبير هين لا تخفى خبيئته على الرجلين ، فكان يسمع لكل منهما في الآخر ويطيع كليهما في دسه واغرائه ليعلما بعد ذلك بما صنعه كل منهما من الكيد لصاحبه ، فلا يتفقا عليه ، وما هما بمتفقين ولا مأرب لهما في الاتفاق ، بل المأرب الذي

يحرصان عليه معاً أن يقوم بينهما حجاز يعطيهما ما يسألان ويكيد بكيدهما كما يحبان .

ودأبه في الوقيعة بين أهل بيته كدأبه في الوقيعة بين النظراء من أعوانه . فلم يكن يطيق ان يتفق بنو أمية من غير بيت أبي سفيان ، ولم يكن ليهدأ ويستريح أو يوقع بين آل عمومته من بني العاص .. قال ابن الاثير في أخبار سنة أربع وخمسين : « وفيها عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة واستعمل مروان ، وكان سبب ذلك ان معاوية كتب إلى سعيد بن العاص ان يهدم دار مروان ويقبض أمواله كلها ليجعلها صافية ويقبض منه فدك وكان وهبها له ، فراجعه سعيد بن العاص في ذلك فأعاد معاوية الكتاب بذلك فلم يفعل سعيد ، ووضع الكتابين عنده فعزله معاوية وولى مروان وكتب إليه يأمره بقبض أموال سعيد بن العاص وهدم داره ، فأخذ الفعلة وسار الى دار سعيد ليهدمها فقال له سعيد : يا أبا عبد الملك أتهدم داري ؟ قال : نعم . كتب إلي أمير المؤمنين ولو كتب إليك في هدم داري لفعلت .. فقال : ما كنت لأفعل . قال : بلى والله .. ! قال : كلا .. وقال لغلامه : إئتني بكتاب معاوية ، فجاءه بالكتابين فلما رآهما مروان قال : كتب إليك فلم تفعل ولم تعلمني ؟ . قال سعيد : ما كنت لآمن عليك وإنما أراد معاوية ان يحرض بيننا ، فقال مروان : أنت والله خير مني . وعاد ولم يهدم دار سعيد . وكتب سعيد إلى معاوية : العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا أن يضغن بعضنا على بعض .. فوالله لو لم نكن أولاد أب واحد لما جمعنا الله عليه من نصرة أمير المؤمنين الخليفة المظلوم وباجتماع كلمتنا لكان حقاً على أمير المؤمنين أن يرعى ذلك .. فكتب إليه معاوية يعتذر ويتنصل وانه عائد إلى أحسن ما يعهده . وقدم سعيد على معاوية فأثنى عليه خيراً فقال له معاوية : ما باعد بينه وبينك ؟ قال : خافني على شرفه وخفته على شرفه . قال : فماذا له عندك ؟ قال : اسره شاهداً وغائباً » ..

ومضى معاوية على هذه الخطة التي لا تتطلب من صاحبها حظاً كبيراً

من الحيلة والروية ، ولعلها تناقض الدهاء فيما ينكشف من عللها التي لا تدق على فهم أحد ، فلو انه استطاع أن يجعل من كل رجل في دولته حزباً منابذاً لغيره من رجال الدولة كافة لفعل ، ولو حاسبه التاريخ حسابه الصحيح لما وصفه بغير مفرق الجماعات ، ولكن العبرة لقارىء التاريخ في زنة الأعمال والرجال أن تجد من المؤرخين من يسمى عامه حين انفرد بالدولة عام الجماعة ، لأنه فرّق الأمة شيعاً شيعاً فلا تعرف كيف تتفق إذا حاولت الاتفاق ، وما لبث أن تركها بعده تختلف في عهد كل خليفة شيعاً شيعاً بين ولاة العهود !

وكانت خطة التفرقة عامة عنده لا يقصرها على الخصوم ليضرب بعضهم ببعض ويتقي شر فريق منهم بشر فريق ، بل كان يتوخى هذه الخطة مقدماً ومؤخراً وبين كل فريقين وعلى كل حال وفي كل موقف كأنها غرض مقصود لذاته أو كأنها خير « مطلق » لا شرّ فيه ..

وبدأ بهذه الخطة في السياسة العامة على عهد عثمان فخص المهاجرين بدعوته قبل مرجعه إلى الشام وقام بينهم يقول بعد أن دعاه عثمان للمقال : « أما بعد يا معشر المهاجرين وبقية الشورى فإياكم أعني وإياكم أريد » ... ثم أتبع ذلك بكلام طويل في معناه يقول فيه . «يا معشر المهاجرين وولاة هذا الأمر ولاكم الله إياه فأنتم أهله ، وهذان البلدان مكة والمدينة مأوى الحق ومنتهاه وإنما ينظر التابعون إلى السابقين والبلدان إلى البلدين فان استقاموا وايم الله الذي لا إله إلا هو .. لئن صفقت إحدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين ولا البلدان للبلدين ، وليسلبن أمركم ولينقلن الملك من بين أظهركم ، وما أنتم في الناس إلا كالشامة السوداء في الثور الأبيض .. »

ويروي بعض المؤرخين انه لما استقر له الأمر وبويع له بالخلافة وجاءه وفد الأنصار أمر أن يدعى كل منهم باسمه إلى حضرته بمشورة عمرو بن العاص الذي كره ان يدعى الجمع كله باسم الأنصار ، ولكن عمرو بن العاص لم يكن معه يوحي إليه حين خص المهاجرين بتلك الدعوة قبل ان يتفقا على

شيء في أمر الدولة ، ولم يكن سلطان عمرو هو الذي احتمى به الأخطل حين اجترأ على هجاء الأنصار فقال :

ذهبت قريش بالمكارم كلها والللؤم تحت عمائم الأنصـــار

فإنما اجترأ الشاعر هذه الجرأة بما علم من رضى الخليفة وأمانه ان يصيبه مكروه من جراء ذلك الهجاء .

ولم تقف خطة التفرقة عند هذه التفرقة بين مكة والمدينة لأنه عمد إلى أهل مكة والطائف في بقعة واحدة ففرّق بينهما حين آثر الثقفيين — وهم أهل الطائف — بزلفاه وسنّ لمن بعده سنة هذا الإيثار ، فكان من رجال بني أمية المغيرة وزياد والحجاج ومحمد بن القاسم ورهط من الأقربين والصنائع ، وكانت الطائف على عهد معاوية وخلفائه كالحرس على أهل مكة ممن بقي فيها غير الأمويين السفيانيين ، وقد أوقع بين هؤلاء الأمويين كما تقدم فقسمهم بين بني حرب وبني العاص ، وقسم بني العاص بين بيت سعيد وبيت مروان .

* * *

ومن خطط التفرقة التي حسنت لديه في حينها ، وساءت عقباها بعد حين ، وبعد كل حين — ذلك النزاع المشئوم بين اليمانية والمضرية ، أو بين الكبيين والقيسيين على اختلاف النسب والعناوين ، وقد خبط الأكثرون من مؤرخي العصر في تعليله بمختلف العلل ، إلا العلة المقصودة التي دبرت في ذلك العصر أسوأ تدبير ، ولعل المدبرين كانوا يحسبونه يومئذ أحسن تدبير ::

فالعصبية في القبائل العربية خليقة لا تهمل في حساب المنازعات والمناظرات في زمن من الأزمان ، ولكنه من السخف ان يقال ان العصبية كانت علة انتصار اليمانية لبني أمية على بني هاشم ، وان اعتزاز الهاشميين بالنبوة هو الذي أحفظ عليهم صدور القبائل من غير المضريين الذين ينتمي إليهم بيت النبوة من بني هاشم .

فقد كان بنو هاشم وبنو أمية جميعاً من قريش ، وكان اعتزاز بني أمية بالنسبة القرشية أظهر وأجهر من اعتزاز الهاشميين عند قيام دولتهم — دولة الأمويين — إذ كانت هذه النسبة حجتها من جانب النسب في استحقاق الخلافة وقد كانت اليمن هي القطر الوحيد الذي رحب بوالي الامام علي في أول بيعته ، وكان الأنصار أهل المدينة من حزبه وهم — بين أوس وخزرج — ينتمون الى اليمانية ، وكانت كندة تنصره وظلت على نصرته ونصرة أبنائه زمناً طويلا بعـــد قيام الدولة الأموية والدولة العباسية ، وكان أشد أعوان الفاطميين بعد ذلك من اليمانية في المشرق وفي المغرب ولما تلاقى جيش علي وجيش معاوية في وقعة صفين كانت القبيلة العربية الواحدة تقاتل في كلا الجيشين .. قال ابن الاثير : « وسأل علي عن القبائل من أهل الشام فعرف مواقفهم فقال للأزد : أكفونا الازد ، وقال لخثعم : أكفونا خثعم ، وأمر كل قبيلة أن تكفيه أختها من الشام إلا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد فيصرفها الى قبيلة أخرى من الشام ليس بالعراق منهم أحد مثل بجيلة لم يكن بالشام منهم إلا القليل صرفهم الى لخم ... » .

فالنزاع بين اليمانية والمضرية لم يكن نزاعاً على فخر النبوة ولا على فخر الخلافة عند بداءة أمره ، وإنما كان نزاعاً بين سلاحين أو بين جيشين متنافسين في مكان واحد عدا ما هنالك من النزاع بين الفكرتين . ونحن نرى في عصرنا — وفي كل عصر — أمثال هذا التنافس بين الأسلحة كلما جنح ولاة الأمر الى فريق منهم دون فريق ، وقد رأينا هذا التنافس بين سلاح البر وسلاح البحر وسلاح الهواء في الجمهورية الفضية وكلهم من جنس واحد أو قومية واحدة لأن ولاة الأمر هناك يؤثرون سلاحاً على سلاح في التنازل بينهم على السند الذي يستندون إليه .

لقد كانت عصبية النسب عنواناً من عناوين الخلاف بين قبائل اليمن وقبائل مضر في دولة بني أمية بالشام ، ولكن هذه العصبية لم تكن لازمة كل اللزوم لإثارة الخلاف حينما أريد لغرض من أغراض السياسة ، وقد

حدث مثله بين قبائل اليمن وحدث مثله بين قبائل مضر على حسب الطوارىء والمناسبات ، ولو كان الجند كلهم من قبيلة واحدة وأراد و لي الأمر أن يثير المنافسة بينهم لما أعياه ذلك كما حدث في هــذا العصر بين الشعوب الامريكية في الجنوب على ما قدمناه .

ومعاوية كان يريد النزاع بين اليمانية والمضرية ولم تكن له من خطة ثابتة فيه غير التفرقة بينهم تارة الى هؤلاء وتارة الى هؤلاء ، وقد كان هو نفسه من المضريين ولكنه كان يبدو في بعض الأحايين كأنه من أبناء اليمن عدو لأبناء مضر ، وطابت له هذه السياسة فاستمرأ مرعاها الوخيم حتّى كانت عقباها ضياع الدولة الأموية كلها بعد جيلين .

* * *

وأبرع ما برع فيه من ألوان الدهاء إلقاء الشبهة بين خصومه في زمن كانت فيه هذه الشبهات من أيسر الأمور ، لكثرة التقلب والتحول في الدول والممالك بين أنصار اليوم وخصوم الأمس أو أنصار الأمس وخصوم اليوم.

كان إذا أراد أن يستميل أحد البطارقة من دولة الروم فاستعصى عليه كتب له رسالة مودة وثناء وأنفذها مع رسول يحمل إليه الهدايا والرشى كأنها جواب على طلب منه يساوم فيه على المصالحة والغدر برؤسائه من دولة الروم ، ويخرج الرسول العربي من طريق متباعد كأنه يتعمد الروغان من العيون والجواسيس ، فإذا اعتقله الروم — ولا بد أن يعتقلوه لأنه يتعرض للاعتقال ويسعى إليه — وقعت الشبهة على البطريق المقصود وتعذر الاطمئنان إليه من قومه بعد ذلك ، وعزلوه وأبعدوه إن لم ينكلوا به أشد النكال .

وقد احتال بمثل هذه الحيلة على قيس بن سعد حتّى أوقع الريبة منه في نفس الإمام وساعدته الحوادث على خلق هذه الريبة كما أجملنا ذلك في كتابنا عن عبقرية الإمام « فشبهاته لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة . فإن قيس بن سعد لم يدخل مصر إلا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية فأجازوه

ولم يحاربوه وهو في سبعة نفر لا يحمونه من بطشهم ، فحسبوه حين أجازوه من العثمانيين الهاربين الى مصر من دولة علي في الحجاز ، ولما بايع المصريون علياً بقي العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون وقالوا لسعد : أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر ، فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الاسكندرية... وأراد الإمام أن يستوثق من الخصومة بين قيس ومعاوية فأمر قيساً أن يحارب المتخلفين عن البيعة فلم يفعل وكتب إليه يقول : إننا متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك وهم الآن معتزلون ، والرأي تركهم .. » .

وتعاظمت بعد ذلك الظنون في زمن صدقت فيه أكثر هذه الظنون . فأما معاوية فلم يكن يكربه الظن ولا الشبه بالظن لأنه يعلم المنفعة التي يعطيها والمنفعة التي يريده أعوانه من أجلها ، وأما الإمام فلم تكن له عصمة من الظن غير الحيطة وغير التجربة ، ولم تكن للتجربة سابقة مقطوع بها بل كانت كلها مما سينجلي عنه مستقبل مجهول .

فهذه الحيلة — حيلة الشبهة — كانت من أنجح الحيل في سياسة معاوية مع خصومه ، لأنه زمن الشبهات وهي كثيرة فيما ابتلاه أولئك الخصوم ، وقد نجحت ونجعت بفضلين لا بفضل واحد : أحدهما فضل التدبير والآخر فضل الحوادث بغير تدبير ..

وحيلة أخرى لا نجزم بها ولكننا نشير إليها في مكانها مما رواه الرواة عن الوسائل « الخفية » التي توسل بها معاوية للغلبة على خصومه ومنافسيه ، وحسبت يومئذ من ضروب دهائه ، أو من ضروب كيده وهو مرادف عند عامة القوم لمعنى الدهاء .

مات الحسن ومات مالك بن الأشتر الذي ولاه الإمام مصر بعد عزل قيس ، ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وعوجلوا جميعاً بغير علة ظاهرة فسبق الى الناس ظن كاليقين أنها غيلة مدبرة ، وأن صاحب الغيلة من كان له نفع عاجل بتدبيرها ، وهو معاوية .

* * *

ونقل عن ابن العاص بعد موت الأشتر أنه قال : « إن لله جنوداً من عسل » ... وكان موت الأشتر بعد شربة من العسل لم تمهله غير ساعات .

ونقل الخبر عن دس السم للحسن رضوان الله عليه مؤرخ من الأمويين هو أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني المشهور .

قال في كتابه مقاتل الطالبين : « أرسل معاوية الى ابنة الأشعث إني مزوجك بيزيد ابني على أن تسمي الحسن بن علي ... وبعث إليها بمائة ألف درهم فقبلت وسمت الحسن فسوغها المال ولم يزوجها من يزيد – فخلف عليها رجل من أهل طلحة فأولدها ، فكان إذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام عيّروهم وقالوا : يا بني مسمّة الأزواج » ..

وقال ابن الكلبي عن أبيه في سبب موت الأشتر : « إنه لما سار الأشتر الى مصر أخذ في طريق الحجاز فقدم المدينة فجاءه مولى لعثمان بن عفان يقال له نافع وأظهر له الود وقال له : أنا مولى عمر بن الخطاب . فأدناه الاشتر وقربه ووثق به وولاه أمره ، فلم يزل معه الى عين شمس فلما وصل الى عين شمس تلقاه أهل مصر بالهدايا وأسقاه نافع المذكور العسل فمات منه ... وقال ابن سعد إنه سم بالعريش ، وقال الصوري صوابه القلزم ...».

وجاء في أخبار سنة ثمان وثلاثين لابن الاثير : « خرج الاشتر يتجهز الى مصر وأتت معاوية عيونه بذلك فعظم عليه وكان قد طمع في مصر فعلم ان الأشتر ان قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر فبعث معاوية الى المقدم على أهل الخراج بالقازم وقال له : ان الأشتر قد ولي مصر فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت وبقيت . فخرج الجايسات – وفي رواية الطبري الجايستار – حتى أتى القلزم وأقام به وخرج الأشتر من العراق الى مصر فلما انتهى الى القلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده فأتاه بطعام فكلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سماً فسقاه إياه فلما شربها مات ... وقام معاوية خطيباً ثم قال : « أما بعد فإنه كانت لعلي يمينان

فقطعت إحداهما بصفين – يعني عمار بن ياسر – وقطعت الأخرى اليوم – يعني الأشتر » .

* * *

واتفق ابن الأثير والطبري على رواية واحدة في الجملة عن موت عبد الرحمن بن خالد بن الوليد « وكان سبب موته – كما جاء في ابن الأثير – انه كان قد عظم شأنه عند أهل الشام ومالوا إليه لما عندهم من آثار أبيه ولغنائه في بلاد الروم ولشدة بأسه ، فخافه معاوية وخشي منه ، وأمر ابن أثال النصراني أن يحتال في قتله وضمن له ان يضع عنه خراجه ما عاش وان يوليه خراج حمص ، فلما قدم عبد الرحمن من الروم دس له ابن أثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بحمص فوفى له معاوية بما ضمن له ، وقدم خالد بن عبد الرحمن المدينة فجلس يوماً الى عروة بن الزبير فقال له عروة : ما فعل ابن أثال ؟ فقام من عنده وسار الى حمص فقتل ابن أثال فحمل الى معاوية فحبسه أياماً ثم غرمه ديته ، ورجع خالد الى المدينة فأتى عروة فقال عروة : ما فعل ابن أثال ؟ فقال : قد كفيتك ابن أثال ولكن ما فعل ابن جرموز ؟ يعني قاتل الزبير . فسكت عروة ! » ..

وسبق الطبري فقال : « ذكر ابن جرير وغيره ان رجلا يقال له ابن أثال – وكان رئيس الذمة – سقاه شربة فيها سم فمات ، وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له في ذلك ولا يصح ، ورثاه بعضهم فقال :

أبوك الذي قاد الجيوش مغربا الى الروم لما أعطت الخرج فارس
وكم من فتى نبهته بعد هجعة بقرع لجام وهو أكتع ناعس
وما يستوي الصفان صف لخالد وصف عليه من دمشق البرانس

وقد ذكروا ان خالد بن عبد الرحمن بن خالد قدم المدينة فقال عروة ابن الزبير : « ما فعل ابن أثال ؟ » فسكت . ثم رجع الى حمص فثار على

إبن أثال فقتله فقال : « قد كفيتك إياه . ولكن ما فعل ابن جرموز ؟ فسكت عروة . ومحمد بن مسلمة في قول » .

* * *

وشاعت الشوائع بمثل ذلك عن آخرين من أعداء معاوية ومنافسيه ؛ يملي للناس في تصديقها ان هؤلاء الأعداء ماتوا بغير علة موصوفة في الموعد الذي يبغيه معاوية وتترتب عليه سياسته التي كان يرجئها الى مواعدها ... فالحسن يموت قبل بيعة يزيد كي لا يخرج معاوية على شرطـه المكتوب للحسن ، ومالك بن الأشتر يموت على أبواب مصر ، وعبد الرحمن بن خالد يموت وهو في أوج سمعته بين قوم أعجبوا من قبله بأبيه ، ويوشك أن يتجمع حوله الناقمون من أهل الشام وأهل الكوفة والحجاز ... وكله مما يذكر ولا يعجل بنفيه ولكنه لا يقوم عليه دليل قاطع ، وأضعف ما في هذه الروايات تكرار المكافأة بإسقاط الخراج وهي مكافأة لا توافق جنايات الغدر والغيلة لأنها تتجدد في كل موعد خراج ولا يزال السؤال عن سبب إسقاطه متجدداً بين العمال وأصحاب الأمر حتى تنكشف المكيدة كلها مع الأيام ، وما كان معاوية بعاجز عن المكافأة على دس السم للأعداء ببذل المال المعجل والمؤجل في الخفاء ، فلا يسع المؤرخ أن يقبل هذه التهم جازماً ولا أن يرفضها جازماً ، ولكن الشبهات والأقاويل وحدها تحدثنا بالشيء الكثير عن ظنون الناس بمعاوية ووسائله الى قضاء ما يبتغيه .

* * *

ونحسب أننا في هذا الفصل قد ألممنا بأفانين الدهاء التي نسبت الى رأس الدولة الأموية ، ويتبين منها جميعاً أن دهاءه من قبيل الدهاء الذي يعول على قضاء المصالح وتبادل المنافع ويتساوى فيه دهاء الطرفين أو يكون الرجحان من قبل الطرف الآخر . فليس دهاء معاوية من قبيل ذلك الدهاء الذي يسوق الأعوان سوقاً الى خدمة مقاصده بسلطان القدرة العقلية الخارقة

وغلبة الاقناع الذي لا برهان فيه على الحقيقة ولكنه ضرب من « التنويم المغناطيسي » تعمل فيه المشيئتان بمشيئة واحدة .

وإنما استطاع معاوية أن يستهوي الناس إليه بقضاء المصالح لقيامه على ولاية الشام عشرين سنة واستئثاره بأقطارها جميعاً على أيام عثمان بن عفان ، واحتجازه لما شاء من أموالها وخيراتها وولاء أعوانها بغير رقابة عليه بعد أيام الفاروق ..

فالرجل على نصيب متوسط من العقل يملي له طبع مفطور على الاناة لم تتعجله الحوادث قط كما تعجلت منافسيه في الحجاز والعراق ، وكان ذلك النصيب حسبه من العدة في ذلك النزاع الذي لا سواء فيه بين المصاعب والعقبات من الجانبين .

* * *

ولو أنه قورن بينه وبين زملائه في سعة الدهاء لكان آخر الأربعة صفاً أو لم يكن على اليقين أول الأربعة قبل عمرو بن العاص على الخصوص فإن الفارق بينهما كالفارق بين العبقرية والدربة أو بين العقل المشبع بالقوة والحيوية والعقل الذي قصاراه من الرأي أن يحذر ويتربص ويتجنب حيثما كان.

كان دهاء عمرو سلاح هجوم ودفاع ، وكان دهاء معاوية سلاح دفاع دائم على أحسن الأحوال ، وكان هو يجهل موازين الرجحان بين الدهاءين ويحسب ان اتقاء العواقب هو كل ما يطلبه الداهية من دهائه ، كأنما الدهاء سلاح يعمل عمل الدرع ولا يعمل عمل السيف أو السهم في وقت من الأوقات ..

سأل معاوية عمرو بن العاص : ما بلغ من عقلك ؟ قال : ما دخلت في شيء قط إلا خرجت منه . قال معاوية : لكنني ما دخلت في شيء قط وأردت الخروج منه !

ولم يكن عمرو ليقتحم المخاطر على الرغم منه ثم يبحث عن مخارج النجاة منها ، ولكنه كان يقتحم الخطر ويقول غير مرة : « عليكم بكل مزلقة مهلكة » ... لأنه كان على ثقة بدهائه كلما ثاب إليه ، وعلى وفاء لطبيعة الاقدام والاقتحام التي تقترن بالعبقرية ودوافع القوة والحيوية، وليس من عزم الأمور دهاء لا يندفع بصاحبه في المضمار ولا يرجى من نفعه قط إلا أنه لجام .

* * *

ولا نكران – بعد – لدهاء معاوية على هذا التقدير ، وإنما قصاراه من هذا التقدير انه لم يضيع الفرصة التي سنحت له وانه صبر في انتظارها وأطال الصبر غير متعجل لها قبل أوانها . وقد كان ذلك حسبه فيما توخاه.

* * *

الحِلْمُ

اشتهر معاوية بعد الدهاء بالحلم ، وأجمع مؤرخوه من مادحيه على وصفه بهاتين الصفتين . وقد أفرد ابن أبي الدنيا وأبو بكر بن عاصم تصنيفاً في حلمه ، وقال قبيصة بن جابر : « صحبت معاوية فما رأيت رجلا أثقل منه حلماً ولا أبطأ جهلا ولا أبعد أناة منه » وردد المؤرخون كلمة قبيصة هذه وزادوا عليها كلمات بمعناه لغيره من عشرائه ورواة أخباره .

ولم يفخر معاوية بصفة كما كان يفخر بحلمه . كان يفاخر خاصته بالدهاء بينه وبينهم ، ولكنه لم يفخر قط بالدهاء علانية كما كان يفخر بالحلم والأناة ، ولا غرابة في ذلك من جميع الوجوه . فما من رجل على نصيب من الدهاء يعلن دهاءه ويفخر به وهو يستطيع أن يخفيه ويموهه بالنصيحة والصراحة . ومن صنع ذلك فهو كالصائد الذي يكشف حبالته للقنيصة وهي خليقة ألا تقع فيها إذا انكشفت لعينها .

ووجه آخر من وجوه الجهر بالحلم وتذكير الناس به عند معاوية أنه كان حريصاً على التحبب الى الناس لأنه ينتزع سلطانه ويعلم أن الناس لا ينطوون على الحب لمن ينتزع السلطان . إن لم يكن نخوة وأنفة فحسداً وغيرة ، أو إعراضاً عن الغاصب الى من هو أولى بالسلطان في رأي أصحاب هذا الرأي وإقبالاً على مستحقه عندهم بغير نزاع .

سئل : أي الناس أحب إليك؟ قال : « أشدهم تحبيباً لي الى الناس » . وغني عن القول إن الصفح عن المسيء مع القدرة على البطش به من أقرب الوسائل الى كسب ولائه وكسب ولاء غيره ممن يسمع بالخبر ويحمده ، ولم يكن معاوية ولا شيعته يقصرون في إذاعة كل خبر فيه مأثرة من مآثر العفو والأناة والبر بكل مسيء من أولئك الذين كانوا يتطاولون عليه بالمساءة في أول عهده بالملك على الخصوص ، ولم يكن عدد هؤلاء المسيئين بالقليل..

كان يقول : إني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، وجهل أكبر من حلمي ، وعورة لا أواريها بستري ، وإساءة أكثر من إحساني .

وكان يقول في مجالسه : « لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » ، وسأله بعضهم : كيف ذلك؟ فقال : « كنت إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها » ...

وخطب يوماً فقال : « والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي » ..

وحدّ الحلم عنده ألا يكون في العدوان والتطاول مساس بملكه وسلطانه : أغلظ له رجل فأكثر فقيل له : أتحلم عن هذا؟ فقال : إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا .

ووجه آخر غير هذه الوجوه كان من دواعي اللهج عند معاوية بفضيلة الحلم قبل غيرها من الفضائل التي كان في وسعه أن يلهج بها كالعطاء والتدبير وعلو الهمة وما إلى ذلك من المناقب التي يسامها له الانصار ولا يجحدها كثير من الخصوم .

كان الحلم دعاية سياسية في خصومته مع علي بن أبي طالب بما اشتهر به من فضائل الشجاعة والأمانة والتقوى .

كان الحلم صفة من أعز صفات الرئاسة عند الأمة العربية ، وما نحسبها غالت قط بمحمدة من محامد الرئاسة مغالاتها بالحلم وقرينه « الحكمة » ...

وربما مدحوا الكرم والشجاعة فأكثروا في مديحهما إكثارهم في القول المعاد من قبيل تحصيل الحاصل ...

فأما الحلم فقد كانوا يغالون في الثناء عليه لأنه محمدة يطلبونها في الرؤساء ولا تجري مجرى الصفات المبذولة لسائر المتصفين ، ولما اختلف علي ومعاوية لم يكن أحد ينكر على علي شجاعته وتقواه وسابقته الى الإسلام وقرابته من رسول الله ، فإذا شاء معاوية أن يوازيه بصفة من صفات الرئاسة فتلك هي الحلم دون غيره ، ودعواه فيها أنه هو صاحب الرأي والحلم والحزم ، وأن علياً صاحب الشجاعة والصلاح ، وقد شاعت الموازنة بينهما بهذا المعنى على ألسنة الدعاة من حزب معاوية وكاد أن يقبلها الناقدون لعلي من حزبه لاشتداده في الحق الذي لا مثنوية فيه ، وأمسك معاوية عن كل لجاجة في أمر التقوى والصلاح ليقول كلما نافس علياً وابنه الحسن : إن لم أكن خيركم فأنا خيركم لدنياكم .

فالحلم عند معاوية وسيلة من وسائل التحبب الى الناس ، ووسيلة من وسائل الدعاية السياسية يعزز بها حجته ولا يستطيع أن يفخر بصفة غيرها في مقام المفاضلة بينه وبين الرجل الذي سلم له المنصف والمكابر بفضيلة الشجاعة وفضيلة التقوى .

* * *

لا جرم كان في أخبار حلمه إفراط ومجاوزة للمألوف من أمثاله ، وكان من أهله من يثور لإفراطه هذا ويحس الهوان في عزته لما يحتمله صاحب الأمر كله في دولتهم من الجرأة عليه وعليهم ، وكان يزيد — ابنه وولي عهده — أشد هؤلاء الثائرين سخطاً على أبيه ، يقول له كلما راجعه : « أخاف

أن يعد ذلك منك ضعفاً وجبناً » ... فيقول له : « أي بني ! إنه لا يكون مع الحلم ندامة ولا مذمة . فامض لشأنك ودعني ورأيي » .

وقد يعزى غضب يزيد من ذلك الحلم « المفرط » الى سورة الشباب وحب الاستطالة بالعزة والسؤدد على عادة أترابه وأنداده ، ولكن الرأي بين آل بيته « المحنكين » أنه كان يبالغ في احتمـــال الأذى والصبر على المساءة ، وكان رجل في حنكة عبد الملك بن مروان يسمي ذلك منه دهاناً كما قال في بعض خطبه : « ما أنا بالخليفة المستضعف ،يعني عثمان ، وما أنا بالخليفة المداهن، يعني معاوية ، وما أنا بالخليفة المأفون — يعني يزيد » .

ومما يدل على أن الفخر بالحلم دخل في دعاية الخصومة بين معاوية وعلي خاصة أننا لا نسمع به بعد تأسيس الدولة ولا يفخر به أحد من الأمويين غير الفرع المؤسس لدولتهم في إبان النزاع الأول على الخلافة ...

فالمعلوم أن بني أمية فرعان : فرع حرب وفرع أبي العاص ، والى حرب ينتمي أبو سفيان وابنه معاوية ، والى أبي العاص ينتمي مروان بن الحكم ومن خلفه من ذريته ، وفي مقدمتهم ابنه عبد الملك وحفيده سليمان ابن عبد الملك ..

* * *

فالمفاخرة بالحلم إنما كانت تجري على لسان معاوية ولم تجر بعده على لسان المروانيين حين تأسست الدولة الأموية واستغنى القائمون بها عن مقابلة فضائل علي بن أبي طالب بفضائل « سياسية » يرجحون بها أنفسهم في ميزان الخصومة .

كان معاوية يقول : إذا لم يكن الأموي حليماً فقد فارق أصله وخالف آباءه ..

وكان يقول : « يا بني أمية ! فارقوا قريشاً بالحلم . فوالله لقد كنت

ألقى الرجل في الجاهلية فيوسعني شتماً وأوسعه حلماً فأرجع وهو لي صديق، إن استنجدته أنجدني وأثور به فيثور معي، وما وضع الحلم عن شريف شرفه ولا زاده إلا كرماً».

وكان المتقربون إليه يذكرونه حلم أبي سفيان إذا أنكروا منه سورة النقمة والغضب. وقيل له بعد مقتل حجر بن عدي: أين غاب عنكم حلم أبي سفيان؟ فكان يقول: حيث غاب عني حلماء قومي وحملني ابن سمية فاحتمات. وقال للسيدة عائشة حين سألته مثل هذا السؤال: لم يكن معي رشيد..

ولا شك أن معاوية قد أقام فخره بالحلم على سمعة قديمة في بيته بين بيوت بني أمية، لأن هذا الفخر لا يخلق بين يوم وليلة في البلاد العربية التي تذكر وراثاتها وتعيدها ولا تخاطب بها من يجهلها، ومن المشهور أن حرب بن أمية أصلح بين قريش وهوازن في حرب الفجار الثانية بعد اقتتال يسير، وان ابنه سفيــان كان يتأنى ولا يتهجم في خصومات الجاهلية وخصومات الاسلام، ولا يمتنع مع هذا كله أن يكون الفخر بالحلم من دعايته السياسية عند تأسيس الدولة والحاجة إليه في المفاضلة بين المتنازعين بمناقب الحكم والرئاسة، وقد سكت عنه الأمويون على عهد الفرع الآخر منهم – وهو فرع المروانية – لأنهم لم يحتاجوا إليه في منازعاتهم، بل كان منهم من يفخر بالفتاك ويسرع الى الغضب ويرهب المخالفين له بسرعة البادرة إليه.

* * *

والوقائع – بعد – أصدق من اطراء المادح وغمز القادح، فإنها قد تمتزج بالكذب عمداً أو على غير عمد، ولكنها في كثير من الأحوال تنقض كلام قائلها إذا عرضت على التمحيص والتحليل فيسوقها للمدح وهي منطوية

على دخيلة تبطل مديحه المقصود ، أو يسوقها للقدح وما تنطوي عليه آية من آيات الثناء والمديح .

والوقائع التي رويت عن حلم معاوية متواترة متكررة ، تتفق فيهـــا الكلمات أحياناً ويختلف فيها القائلون والرواة ، أو يتفق فيها هؤلاء جميعاً بغير اختلاف كبير ، وهكذا معظم الوقائع التي رويت عن أعلام ذلك الجيل وما بعده ، فلا بد فيها من حساب للمبالغة وحساب للترجيح والتصحيح بالمقارنة والمضاهاة .

وليست كل هذه الوقائع – مع ذلك – بصالحة للاستدلال بها على حلم معاوية ولو بعد ثبوتها باختلاف أو بغير اختلاف .

فمنها ما تعرض فيه للإساءة مستدعياً لها مستعداً لها في مجال التبسط والمزاح ، والعالم الاسلامي لم يتعود بعد طغيان الملك ولم يتعود ملوكه أن يسوموا الناس الصبر على ما يكرهون ولا يترقبوا منهم رد الكلام بمثله في كل مقام ..

قدم جارية بن قدامة السعدي عليه فقال : من أنت . قال : جارية بن قدامة . قال : وما عسيت أن تكون؟ هل أنت إلا نحلة؟ قال : لا قل . فإنما شبهتني بها حامية اللسعة حلوة البصاق . والله ما معاوية إلا كلبة تعاوي الكلاب وما أمية إلا تصغير أمة !

ورويت هذه القصة على رواية أخرى ، فقيل ان معاوية بادره قائلا : « أنت الساعي مع علي بن أبي طالب والموقد النار في شعلل – جمع شعلة – تجوس قرى عربية لتسفك دماءهم؟ فقال جارية : يا معاوية . دع عنك علياً فما أبغضنا علياً منذ أحببناه ولا غششناه منذ صحبناه . فقال له معاوية : ويحك يا جارية ! ما كان أهونك على أهلك إذ سموك جارية لا أم لك ! . قال جارية : أم ما ولدتني . ان قوائم السيوف التي لقيناك بها بصفين في أيدينا .. انك لم تملكنا قسرة ولم تفتتحنا عنوة ، ولكن أعطيتنا عهوداً ومواثيق

فإن وفيت لنا وفينا وان ترغب الى غير ذلك فقد تركنا وراءنا رجالا مداداً وأذرعاً شداداً وأسنة حداداً . فإن بسطت إلينا فتراً من غدر دلفنا إليك بباع من ختر ... قال معاوية : « لا أكثر الله في الناس من أمثالك » .

وما نظن معاوية كان مخاطباً بذلك الخطاب رجلا يوصف في عصرنا هذا بأنه من « آكلي النار » ثم لا يترقب منه جواباً كجوابه ، ولعله كان يرضيه أن يسمع منه تسليماً واستكانة فيطمئن الى غلبته ورسوخ سلطانه ولكنه — ولا ريب — لم يغب عن ذهنه أن جارية أهل لأن يسمعه ما سمع وأن يطرفه بتلك الطرافة اللاذعة التي لا يأباها كثير من الناس ، وهي طرافة الجواب السريع المتوقع ممن يحسن رد الكلام بمثله في هذا المقام ..

ومن الجواب المستدعى — أو المستثار — قول خريم بن فاتك وقد دخل على معاوية مشمراً مئزره فقال له : « لو كانت هاتان الساقان لامرأة ؟ » وكان معاوية عظيم الإليتين يهجى فيقال فيه انه « الجاحظ العين العظيم الحاوية » فما عتم خريم ان أجابه قائلا : « في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين » !...

وأشبه بهذا المقام حواره مع الزرقاء بنت عدي خطيبة صفين حين ذكرت في مجلسه بعد سنوات فأرسل إليها يستدعيها . فقالت للرسول : إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار لي فإني لا أذهب ، فلما شدوا عليها في الذهاب دخلت المجلس وفيه عتبة بن أبي سفيان ، والوليد ، وسعيد بن العاص وعمرو ابن العاص ، فهش لها ورحب بها ، ثم سألها : أتدرين فيم بعثت إليك ؟..

قالت : وأنّى لي بعلم ما لم أعلم .. لا يعلم الغيب إلا الله ..

فسكت هنيهة ثم قال : ألست أنت الراكبة الجمل الأحمر في صفين تحضين الناس بين الصفين على القتال ؟

قالت : نعم !..

قال : فما حملك على ذلك ؟

قالت : يا أمير المؤمنين . مات الرأس وبتر الذنب ولن يعود ما ذهب والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر .

قال : صدقت . أتحفظين كلامك يومئذ ؟

قالت : لا والله ، أنسيته .

قال : لكني أحفظه ، ولله أبوك حين تقولين : « ايها الناس ! ارعووا وارجعوا . انكم أصبحتم في فتنة ، غشيتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيا لها فتنة عمياء ، صماء ، بكماء ، لا تسمع لناعقها ، ولا تسلس لقائدها ، إن المصباح لا يضيء في الشمس والكواكب لا تنير مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد .

واسترسل في قول الرواة يعيد عليها كلامها إلى أن قال :

— والله يا زرقاء .. لقد شركت علياً في كل دم سفكه .

قالت : أحسن الله بشارتك وأدام سلامتك ، فمثلك بشر بخير وسر جليسه ..

قال : أويسرك ذلك ؟

قالت : نعم .

قال معاوية: والله لوفاؤكم بعد موته أعجب إليّ من حبكم في حياته. اذكري حاجتك ..

قالت : يا أمير المؤمنين آليت على نفسي لا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً.

ولكنه على هذا أجزل لها العطاء وأرضاها .

وجاءته بكارة الهلالية بالمدينة ، وقد أسنت وغشي بصرها ، فسلمت وجلست ، فرد عليها السلام وقال : كيف أنت يا خالة ؟

فقالت : بخير يا أمير المؤمنين . قال : غيّرك الدهر . قالت : كذلك هو ذو غير ، ومن عاش كبر ، ومن مات قبر .

قال عمرو بن العاص : هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يا زيد دونك فاحتضر من دارنا سيفاً حساماً في التّراب دفينا
قد كنت أذخره ليوم كريهة فاليوم أبرزه الزمـــان مصونا

وقال مروان : هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكا هيهات ! ذاك وإن أراد بعيد
منتك نفسك في الخلاء ضلالة أغراك عمرو — للشقا — وسعيد

وقال سعيد بن العاص : هي والله القائلة :

فالله أخر مـــدتي فتطاولت حتى رأيت من الزمان عجائبا
في كل يوم للزمـــان خطيبهم بين الجميع لآل أحمد عاتبا

فقالت بكارة : نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين .. وأنا والله قائلة ما قالوا ، لا أدفع ذلك بتكذيب ، وما خفي عليك مني أكثر ، فامض لشأنك، فلا خير في العيش بعد أمير المؤمنين ...

فضحك معاوية وقال : ليس يمنعنا ذلك من برك . اذكري حاجتك ، قالت : أما الآن فلا ...

ويتم الرواة روايتهم فيقولون انه قضى حوائجها وردّها الى بلدها ..

* * *

ولا مخالفة للمعهود في ازدلاف المزدلفين لصاحب الأمر بالوقوع في خصمه بمحضر ممن يكره ذلك من خاصة أهاه . فإن نجا المزدلف بزلفاه فقد رضي وأرضى ، وان أصيب كما أصاب فليست كل كلمة يزجيها الملقي في مجلس الأمير مستحقة من ذلك الأمير أن يشتريها بالثمن الذي يعنته ولا

تطيقه دولته في مطلعها . وقد ازدلف إليه الكثيرون فسلموا ، وازدلف إليه غيرهم فأصيبوا بحق لا يمتري فيه عربيان يؤمنان بحق الجواب كما يؤمن به سائر العرب ، ولا يمتري فيه مسلمان يؤمنان بالحق حيث كان ، وأظهره رد العدوان في غير داعية للعدوان .

كان عنده زيد بن عمر بن الخطاب ، وأمه بنت علي أم كلثوم . فنال بسر بن أرطأة من الامام ، فما أمهله زيد أن قام إليه فعلاه بالعصا وشج رأسه . فلم يزد معاوية على أن قال لزيد : عمدت الى شيخ قريش وسيد أهل الشام فضربته ؟ ثم التفت الى بسر فقال : تشتم عاياً على رؤوس الناس وهو جده وابن الفاروق ثم تراه يصبر على ذلك .

وكل أولئك شبيه أن يكون : بسر بن أرطأة قاتل طفلين باليمن لعبيد الله ابن عباس ينال من علي في حضرة معاوية ، وزيد بن الفاروق لا يشبه أباه ان صبر على ثلب جده في مكان حيث كان ، ومعاوية يرضى عن سفاهة بسر ان مضت في سبيلها ، ولكنه لا يبطش بزيد ان غضب لجده وأصاب السفيه بجريرة سفاهته ، ولا تساوي تلك السفاهة ان يشتريها بالنكال الذي تعود عليه اللائمة فيه ولا تعود عليه منه زيادة في ملكه ، وكل أولئك — كما أسلفنا — شبيه أن يكون ، فلا يحسبه أحد في ذلك العصر من حلم معاوية ، بل يحسبه من جبن زيد ان لم يصنع ما صنع بابن أرطأة .

وان الأشبه بالصدق في جملة تلك الروايات ان معاوية كان يحب هذا الملق ويحب هذه الاستثارة لأنها تمتعه بذكرى الشدائد التي تخطاها بعد فوات الغاشية ، وتريحه الى لقاء خصومه وهم في كنفه ينظرون إليه في مستقر نجاحه وظفره ، ولا يضيرونه بقولة يقولونها لا تحول بينه وبين ملكه كما قال ..

وغير بعيد انه كان يترك جلساءه يتحرشون بذوي اللسن من العلويين ليضحك مما ينالهم كما يفعل ذوو السلطان في كل زمن وكل أمة ، فربما كانت سخريتهم بالانصار أمتع لهم من صد الخصوم ، وقد يطلقون بعضهم

على بعض ليسخروا منهم جميعاً ان لم يكن لهم خصوم يعرضونهم للسخرية طائعين أو كارهين .

* * *

وقد اجتمع من سجال بني هاشم وخصومهم في مجالسه ما ينعقد به سجل خاص في مأثورات الحوار في كل مقام ، ويصحح وقوعه في رأينا انه لو حدث لما أمكن حدوثه على غير ذلك النمط الذي تناقله الرواة .

أناس من ذوي السلطان المحدث يعلمون هوان أقدارهم مع بني هاشم وآل النبي وصفوة قريش ، ويلذ لهم أن ينعموا بالسلطان وأن « يجتروا » تلك النعمة حيثما وسعهم اجترارها في حضرة وليهم وعلى مسمع من السادة الأعلين الذين غلبوا على ذلك السلطان ، وأن ولي الأمر نفسه ليحب ذلك ولكنه يعلم أنه مركب غير مأمون ، وأن الموتورين إذا سمعوا ما يكرهون فردوه بمثله فما في وسعه أن يواجه العالم الاسلامي كل يوم بشهيد من آل البيت .. فسبيله أن يصطنع المخالفة لجلسائه وان يحذرهم مغبة اللهو بهذه الملهاة ولا أمان فيها من لسن القوم وأنفتهم التي لم تخذلهم قط في مقام المناظرة والتحدي من زمن قديم . فإن أُصيب جلساؤه فعليهم وزر عملهم وليس لهم ان يطالبوه بالاقتصاص لهم من امر قد اختاروه على خلاف رأيه ، وإن سلم أولئك الجلساء فقد شفوا صدره من أولئك الموتورين .

وتكاد القصص مع بني هاشم في مجلس معاوية تجري كلها على وتيرة واحدة : رجل من آل البيت يدعى الى المجلس أو يأتي إليه في أمر من أموره فيغرى به جليس من الحاشية يتحرش به ويستثيره فيجاب بما هو أهله ، ويتغاضب معاوية على الجليس فيلومه إذا بلغ الجدال والمحال فصل المقال ، وما نرى أن الملهاة كلها كانت مدبرة لكي تنتهي الى خاتمة أخطر من هذه الخاتمة . وماذا عليهم إذا استطال الموتورون بالمقال وهم يستطيلون بالساطان؟

* * *

إلا أن حديثاً واحداً من أحاديث بني هاشم يخالف هذا النمط ولا يستقيم مع سائر هذه الأحاديث . فلم يكن البادئون به من جاساء معاوية ولا من آل البيت ، ولكن البادىء به معاوية نفسه على نحو لا يشبه طريقته المأثورة من التقية والمداراة، وليس فيه نفع له في شأن من شؤون الملك أو خاصة من خواص أمره تستوجب ذلك الحديث .

قيل إنه تحدث الى ابن عباس فقال له : إن في نفسي منكم لحزازات يا بني هاشم . وإني لخليق أن أدرك فيكم الثأر وأنفي العار . فإن دماءنا قبلكم وظلامتنا فيكم . فقال له ابن عباس : والله إن رمت ذلك يا معاوية لتثيرن عليك أسداً مخدرة وأفاعي مطرقة ، لا يفثأها كثرة السلاح ولا تعضها نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ويضربون قدماً قدماً من ناوأهم ...

الى أن قال في رواية الرواة : « فلتكونن منهم بحيث أعددت ليلة الهرير للهرب فرسك ، وكان أكبر همك سلامة حشاشة نفسك ، ولولا طغام من أهل الشام وقوك بأنفسهم وبذلوا دونك مهجهم ... ورفعوا المصـــاحف مستجيرين بها وعائذين بعصمتها لكنت شلواً مطروحاً بالعراء . وما أقول هذا لأصرفك عن عزيمتك ولا لأزيلك عن مقعود نيتك ، ولكنها الرحم تعطف عليك ، والأواصر توجب صرف النصيحة إليك » . فقال معاوية : لله درك يا ابن عباس ، ما تكشفت الأيام منك إلا عن سيف صقيل ورأي صيل . والله لو لم يلد بنو هاشم غيرك لما نقص عددهم ،ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثرهم .

وإن دواعي الشك في مثل هذا الحديث لكثير ، لولا أن التلفيق فيه أعسر من أن يتاح لكل راوية يضع الكلام على كل لسان ، ولا يبالي أين موضعه من القائل والمجيب .

فإن كان معاوية قائلا مثل ذلك المقال لأحد من بني هاشم فإنما يقوله لعبدالله بن عباس دون غيره ، فإنه حديث داهية يسبر به غور داهية يقارنه

من بيت خصومه ، وإنه مع ذلك قرين تجمعه آصرة القرابة بآل علي ولا تجمعه بهم آصرة المودة والموافقة جد الموافقة على الوجهة . وقد تخلى ابن عباس عن ولاية ابن أبي طالب ووقعت بينهما الجفوة التي لم تصلحها حوادث الأيام بعد ذلك . ولا منافسة بين علي وأبنائه في حياته ولا بعد مماته ، وإنما المنافسة بينه وبين أعمامه وبني عمومته : إنما المنافسة بين اثنين أحدهما ابن عم للنبي هو أبو طالب والآخر ابن عم للنبي هو العباس . فها هنا من كل حال طلع يستطلع بتلف الكلمة المفاجئة ، ولا بعد مماته ، وإنما المنافسة بينه وبين أعمامه وبني عمومته : إنما التحذير والتنبيه ...

* * *

وأي فائدة كبرى كان يفيدها معاوية لو سمع من ابن عباس كلمة تفتح الباب للتفرقة بينه وبين سائر الهاشميين العلويين ؟ أي فائدة كان يفيدها لو رأى من ابن عباس أنه يمهد لنفسه عند السلطان الجديد ولا يزيد على التشفع لغيره من سائر أهل البيت ؟

إن غرابة هذه القصة هي التي ترجحها وتضعف الشك فيها ، فإنها إن وقعت لن تقع إلا على غرابتها ..

إنها غريبة من معاوية إلا أن تكون مقصودة لغير ظاهرها مع رجل له ظاهر وباطن يستطلع بهذه المفاجئة ولا يستطلع بغيرها ، وقد يبدو منه ما تنكشف به جلية الموقف بينه وبين سائر بني هاشم ، وكل بني هاشم غير عبد الله بن عباس فظاهرهم وباطنهم لا يختلفان إذا سمعوا مثل ذلك النذير ..

هذا أو تكون نفثة من نفثات الكظم تنطاق منه حيث يقدر الأمان مع رجل يخفي باللسان ما لا يضمره الجنان .

وأمثال هذه الردود الخشنة جميعاً لم تكن في ذلك العصر مما يستكثر في مناسباتها ، وقد سمعها معاوية — أو سمعها جلساؤه معه — متوقعة مستثارة ،

ولم يتعود الناس يومئذ أبهة الملك وطاعة العبيد للسادة ، ولم يتعود الأمير كذلك أن يسوم الناس سكوتاً في موضع القول ، واغضاء في موضع الأنفة ، وإنما كان الأمير خليفة يتشبه بالخلفاء الراشدين في حق الطاعة ، ولم يعد أحد من هؤلاء الخلفاء أن يخاطب إنساناً بما يسوؤه ثم يستكثر عليه أن يجيبه بمثل خطابه ، فهذه « هرقلية » لم يتعودها الرعاة ولا الرعايا ، ولم يكن في طاقة معاوية أن يروض رعاياه عليها دفعة واحدة . فإذا تمهل فيها آونة بعد آونة فإنما يكون التمهيل بمثل ذلك الصبر على كره أو على اختيار .

* * *

ومن الوقائع التي رويت عنه وقائع يلتبس فيها الحلم ببطء الغضب وطول الروية والأناة ، ومنها ما يتلقى فيه الإساءة أو الوعيد على البعد ويتسع له الوقت قبل الإجابة عنها بما يروي فيه النظر ويرتضيه ..

عدا عبيد لمعاوية على أرض ابن الزبير فكتب إليه ابن الزبير : « أما بعد يا معاوية ، إن لم تمنع عبيدك من دخول أرضي وإلا كان لي ولك شأن »...

وقيل إن معاوية أطلع ابنه يزيد على كتاب ابن الزبير وسأله : ما ترى ؟ فقال له يزيد : لتنفذن إليه جيشاً أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه . فقال : بل عندي يا بني خير من ذلك ، وكتب الى ابن الزبير :

« وقفت على كتابك يا ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وساءني والله ما ساءك ، والدنيا هينة عندي في جنب رضاك ، وقد كتبت على نفسي رقيماً بالأرض والعبيد وأشهدت علي فيه ، ولتضف الأرض الى أرضك والعبيد الى عبيدك والسلام » .

فجاء الجواب من ابن الزبير يقول فيه : « وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فلا عدم الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل والسلام » ...

وأطلع معاوية ابنه على الكتاب الثاني كما أطلعه على الكتاب الأول فأسفر وجهه ، وأبوه يقول : إذا رميت بهذا الداء فداوه بهذا الدواء .

ومن الاساءات ما لا خطر له لأنه من غير ذي شأن كشأن ابن الزبير ، ولكنه يغضب العربي لأنه يمس الحرمات كتشبيب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية إذ قال :

رمل هل تذكرين يوم غزال إذا قطعنـــا مسيرنا بالتمني
إذ تقولين : عمرك الله هل شـ ـيء ،وإن جل، سوف يسليك عني ؟

فغضب يزيد وأغرى كعب بن جعيل بهجاء الأنصار فأبى ودله على الأخطل فنظم قصيدته التي يقول منها :

ذهبت قريش بالمكارم كلهـــا واللؤم تحت عمائم الأنصـــار

وأوشكت أن تكون فتنة ، إذ دخل النعمان بن بشير على معاوية محنقاً وحسر عن رأسه وهو يقول له : هل ترى يا معاوية لؤماً ؟ . فقال : بل كرماً وخيراً ، فما بالك ؟.. فأعاد عليه أبيات الأخطل وتوعده بأبيات يقول منها :

معاوى ألا تعطنا الحق تعترف لحى الأزد مشدوداً عليها العمائم
أيشتمنا عبـــد الأراقم ضلـــة وماذا الذي يجدي عليك الأراقم
فما لي ثأر دون قطع لسانه فدونك من يرضيه عنك الدراهم

وتم القصة بما قيل عن طلب معاوية للأخطل وتهديده إياه بقطع لسانه لولا شفاعة يزيد الذي أغراه بالهجاء .

وفي رواية من هذه الروايات الكثيرة ان التشبيب إنما كان بأخت معاوية وإن يزيد دخل على أبيه فذكر له قول عبد الرحمن بن حسان :

طال ليلي وبت كالمجنون ومللت الثواء في جيرون

فقال له : وما علينا يا بني من طول ليله وحزنه أبعده الله ...

قال يزيد : وإنه ليقول :

فلذاك اغتربت بالشام حتى ظن أهلي مرجمات الظنون

فقال أبوه : وما علينا من ظن أهله ؟

قال يزيد : وإنه ليقول :

أهي زهراء مثل لؤلؤة الغواص ميزت مـــن جوهر مكنون

قال معاوية : صدّق يا بني ، هي كذاك .

قال يزيد : وإنه ليقوّل :

ثم خاصرتها الى القبة الخضر اء تمشي في مرمر مسنون
عن يساري إذا دخلت إليها وإذا مـــا تركتها عن يميني

فضحك معاوية وقال : ولا كل ذاك .. ثم حذر ابنه قائلا : ليس يجب القتل في هذا ولكننا نكفه بالصلة ..

وزعموا في بعض روايات القصتين أن معاوية أرسل في طلب الشاعر وأبلغه أن هنداً أخت رملة تعتب عايه لأنه لا يسويها بأختها ، وأراد بذلك أن يشبب الشاعر بهند فيعلم الناس أنه كاذب في كل ما نظم ، وإنها أقاويل الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون .

والثابت من كل هذا الحديث بيت الأخطل في هجاء الأنصار ، وربما ثبت مثله هجاء الأراقم قوم الأخطل من تغلب ، فإذا كان قد دخل في الأمر تشبيب بأخت يزيد أو بعمته فربما هون خطره غضب الأنصار وغضب المسلمين جميعاً أن يهجو أنصار النبي شاعر من غير المسلمين ، ولو إن المسألة خلصت من هذا الحرج لما جاز قتل الشاعر من جراء لغوه كما قال معاوية ، فما كان سفك الدم لمثل هذا القول بالأمر المستباح في صدر الاسلام ،

وقد مضى بعد هذا الجيل أجيال على سنة الملك العضوض ولم يخطر للمهدي في دولة بني العباس أن يقتل بشاراً وهو القائل في ابي جعفر المنصور :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عمــا قليــل بسالم
كأنك لم تسمع بقتــل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم

* * *

بل هو الذي أفحش في هجاء المهدي وهجاء نساء بيته وذهب يخبط بالمهايجة والتحريض بين بني أُمية وبني العباس ، وما استباح المهدي عقابه إلا بتهمة الزندقة والإلحاد ، وما امر إلا بأن يضرب ضرب التلف ليقال في ذلك انه إنما أريد به الضرب فمات .

وهذا بشار وذاك عبد الرحمن بن حسان .

ففي وزن الرجال وتمحيص الأخلاق وفهم الطبيعة الانسانية — اي فهم الانسان — لا جدوى من التعويل على ألفاظ الصفات ولا بد من الرجوع الى الوقائع وما لها من الأثر الطبيعي في الضمير وما ينم عليه هذا الأثر من خليقة نفسية او ملكة عقلية .

وهذه الوقائع التي رويت عن معاوية تبدي لنا منه صفة لا شك فيها وهي طول الأناة وبطء الغضب ، وليست هي بالصفة التي ترادف الحلم كما يفهم لأول وهلة . إذ كثيراً ما يكون بطء الغضب شيئاً « سلبياً » يدل على امتناع الغضب طبعاً أو قلة الاستعداد له في الخلقة ، ولا تكون الفضيلة أبداً « شيئاً سلبياً » قوامه غياب أثر من الآثار النفسية وكفى .

فليس معنى الشجاعة — مثلا — تجرد الطبع من الشعور بالخوف ، لأن الانسان الذي يقدم على الخطر وهو لا يشعر به يندفع اندفاع الجماد ولا فضل له في اندفاع لا يكلفه الغلبة على خوف يساوره في ضميره ...

وليس معنى الكرم تجرد الطبع من الشعور بقيمة المال أو قيمة المنحة

المبذولة ، لأن من يتصرّف في شيء لا قيمة له عنده كمن يتصرّف في التراب والهواء وما إليهما من مبذول العطاء .

وليس معنى العفة تجرد الطبع من الشعور بالشهوات ، لأن من لا يشتهي لا يطلب ولا يقاوم الإغراء ولا تحسب له عفة .

وليس معنى الحلم تجرد الطبع من الشعور بالغضب ، لأن التجرد من هذا الشعور قد يأتي من بلادة في الطبع وركود في حركة النفس ومقابلة العوامل الطبيعية بما يناسبها من الانفعال .

وإنما الحلم أن يغضب الانسان وأن يحكم غضبه بإرادته إيثاراً لأمر يفوق الغضب في قيم الأخلاق ...

* * *

فمن الحلم أن يأنف الانسان من الاستسلام للغضب ، لأنه يرتفع بكرامته أن تصيبها إساءة المسيء .

ومن الحلم أن يصفح الانسان عن الإساءة إيثاراً للخير وعطفاً على المسيء كما يعطف الأب الرحيم على الولد الجاهل بما يصنع في حق أبيه .

ومن الحلم أن يقمع الانسان غضبه لأنه يملك زمام نفسه ويوازن بين العواقب فيختار أسلمها للناس عامة ، وإن لم يكن أسلمها له في ذات شأنه وشؤون ذويه ..

ولا بد من التفرقة هنا بين الحلم إيثاراً للنفع الانساني أو النفع القومي ، وبين الحلم إيثاراً للسلامة وعملا بطبيعة « الأنانية » وحب الذات .

فليس من الحلم ان يضرب الضعيف فلا يرد الضربة بمثلها لأنه يعلم انه سيتلقى اضعافها ممن هو أقدر منه وأقوى على إيذائه ، وإنما يقال عن هذا انه جبن أو رضى من المعتدى عليه بأهون الشرين .

ولا يكون الحلم أبداً عجزاً عن مجاراة الغضب أو امتناعاً للشعور به ، لأن الفضيلة لا تقوم على عجز أو امتناع ، ولكنها تقوم على إرادة تملك الاختيار بين الخطتين ..

وجملة القول في هذه الصفة ان الحليم هو الذي يملك الغضب ولا يملكه الغضب ، وكلما اشتد الغضب واشتدت القدرة عايه كان ذلك أبين عن الحلم وأدل عليه ، وكلما ارتفع السبب الذي من أجله يتغلب الحليم على غضبه كان ذلك أرفع لقدره وأرجح لوزنه في ميزان الفضيلة ، فمن يحسم الغضب حرصاً على منافع الناس أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب حرصاً على منافعه العاجلة أو الآجلة ، ومن يحسم الغضب لأنه يشمل الناس بحبه وعطفه أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب لأنه يحب نفسه ويقدم حبها على كل حب لغيره .

* * *

ومن كلام حكماء العرب وبلغائهم نستشف فطنتهم لحقيقة هذه الفضيلة ، فهي فضيلة المريد المختار المالك لزمام الأمرين كما قال ابن خليفة مولى قيس ابن ثعلبة يمدح قوماً من آل شيبان :

عليهم وقـار الحلم حتى كأنما وليدهم من أجل هيبته كهـل

ان استجهلوا لم يعزب الحلم عنهم وان آثروا أن يجهلوا عظم الجهل

أو كما قال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم متى ما أورد الأمر أصدرا

ومن كلام الأحنف بن قيس – أحد مشاهيرهم بالحلم – « رب غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه » ...

وكان من حلمه أنه يصفح عن المسيء وان ظن به الذل ويقول : « ما

أحب ان لي بنصيبي من الذل حمر النعم » .. فلما قيل له : كيف وأنت أعز العرب ؟.. قال : « ان الناس يرون الحلم ذلا » ...

وهو القائل : « لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الاحسان » ..

وسألوه : ما الحلم ؟.. فقال : « قول ان لم يكن فعل ، وصمت ان ضر قول » ..

* * *

وروى العقد الفريد ان هشام بن عبد الملك سأل خالد بن صفوان : بمَ بلغ فيكم الأحنف ما بلغ ؟.. فقال : إن شئت أخبرتك بخلة ، وإن شئت بخلتين ، وإن شئت بثلاث ..

قال : فما الخلة ؟

قال : كان أقوى الناس على نفسه .

ثم قال عن الخلتين إنه كان موقى الشر ملقى الخير ، وعن الثلاث انه كان لا يجهل ولا يبغي ولا يبخل .

وأستاذ الأحنف في الحلم قيس بن عاصم المنقري كان مشهوراً بالاقدام كشهرته بالحلم والاغضاء عن الذنب كبيره وصغيره ، وبلغ من حلمه انه صفح عن ابن أخيه الذي قتل ابنه ، وقد أوثقه من ود ان يبطش به لساعته فما زاد على أن قال له مؤنباً : « بئس ما فعلت . نقصت عددك وخنت عشيرتك وأسقطت مروءتك وأشمت عدوك وأسأت قومك ... وأنت الذي كنا نرجو لعظائم الأمور » ثم واسى زوجته أم القتيل وأجزل لها الدية من ماله ، وحسم بذلك شراً مستطيراً في القبيلة لا يجعله عنده أخطر من شر الثكل إلا الحلم الراجح والقلب الكبير والنظر البعيد .

* * *

ويمر بنا مثل من الأمثلة الصالحة لتقويم الروايات ورواتها بصدد الأخبار التي نقلها صاحب العقد الفريد عن الحلم والحلماء ، ومنهم الأحنف ومعاوية..

فابن عبد ربه ينقل لنا أن الأحنف سئل : من أحلم .. أنت أم معاوية ؟ فقال : تالله ما رأيت أجهل منكم . ان معاوية يقدر فيحلم وأنا أحلم ولا أقدر ، فكيف أقاس عليه أو أدانيه ؟

فإذا سمع السامع المتعجل هذا فحري أن يتقرر لديه رجحان معاوية في الحلم بشهادة الرجل الذي يضرب به المثل في حلمه ، وأي شهادة عسى أن تكون أصدق من هذه الشهادة ..!

وما هي إلا معاودة لحظة في السؤال والجواب حتى يتقرر على خلاف ما تقدم ان السؤال كان لا يحتمل جواباً غير ذلك الجواب ، لو انه سؤال ما كان ينبغي أن يتوجه للأحنف ويترقب سائله ان يقول له : بل أنا أحلم من معاوية !.. وقد كان الأحنف خاصة يرى من عرف الحلم أن يستصغره وأن يقول عن نفسه كما نقل صاحب العقد قبل ذلك بسطر واحد : لست حليماً ولكنني أتحالم .

* * *

ولو أن الأحنف قال برأيه ذاك اعتقاداً ولم يقل به تواضعاً أو تحالماً لكان على خطأ لا يخفى عند النظرة اليسيرة في أسباب تفضيله معاوية على نفسه ... فما هي القدرة التي كانت مطلوبة من الأحنف في مقامه ؟ لقد كان يكفيه ان يقدر على كلمة لا يعجز عنها أحد ، وكان يكفيه ان يمسك تلك الكلمة فيكون أقوى الناس على نفسه كما وصفه خالد بن صفوان ، وأما الملوك فالمطلوب منهم أعمال لا يقدرون عليها في كل وقت ولا مع كل أحد . إلا أن يكون المقصود بالقدرة طياشة جامحة تخبط ما تشاء بغير مبالاة ، وليس قصارى الحليم أنه غير الطياش وغير الخابط الذي لا ينظر الى عقباه.

ويوزن الراوي في روايته هذه فلا نجهل موقع الهوى فيما يشاع عن

حلم معاوية ويسر انتقال الاشاعة من قائل الى قائل ومن ناقل الى ناقل . فما في هوى الاندلسيين لبني أمية من خفاء ودولتهم الأولى أموية في أساسها ، وابن عبد ربه نفسه حفيد لسالم القرطبي مولى هشام بن عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وأقل ما يقال في نقل ابن عبد ربه لكلمة الأحنف انها تزكية لرأس الدولة الأموية رحب بها ووافقت هواه .

* * *

ونعود الى تاريخ معاوية فيما قاله وفيما سكت عن قوله منذ نشأته الأولى فلا نجد فيه أثراً واحداً لطبيعة الغضب التي تمتحن بها فضيلة الحلم كما امتحنت في نفس الرجل الحزين في صدمة الثكل وهو المقتحم المغوار في الجاهلية والاسلام .

ونخال ان التاريخ لم يحفظ لنا غير حادث واحد يفتح لنا مغاليق هذه الخليقة في طوية الرجل ، فإنها في الحق لغز لا يكفي لحله مجرد القول بالحلم أو بالغضب المكبوت أو بطول الأناة ، وإنما يحله علم النفس الحديث على النحو الوحيد الذي يعطينا منه معنى مفهوماً على وجه من الوجوه ..

ذلك الحادث هو مقتل حجر بن عدي وأصحابه لغير ضرورة عاجلة ولا مصلحة آجلة ، فما كان له من خطب غير انه واحد من أولئك الذين قال فيهم معاوية انه لا يحول بينهم وبين ألسنتهم لأنهم لا يحولون بين بني أمية وملكهم ، فإن كان لا بد من إسكاته فقد يسكته أن يحملوه إلى مكان لا يلقى فيه من يستمع إليه .

* * *

قال ابن الأثير بعد أقاويل شتى : « ان زياداً خطب يوم جمعة فأطال الخطبة وأخر الصلاة فقال له حجر بن عدي : الصلاة ! .. فمضى في خطبته .. فقال : الصلاة ! .. فمضى في خطبته .. فلما خشي حجر بن عدي

فوتِ الصلاة ضرب بيده إلى كف من حصى وقام الى الصلاة وقام الناس معه ، فلما رأى زياد ذلك نزل فصلى بالناس وكتب إلى معاوية وكثر عليه ، فكتب إليه معاوية ليشده بالحديد ويرسله إليه ، فلما أراد أخذه قام قومه ليمنعوه فقال حجر : لا ، ولكن سمعاً وطاعة . فشد في الحديد وحمل إلى معاوية فلما دخل عليه قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال معاوية : أأمير المؤمنين أنا ؟ .. والله لا أقيلك ولا استقيلك .. اخرجوه فاضربوا عنقه ، فقال حجر للذين يلون أمره : دعوني حتى أصلي ركعتين ، فقالوا : صل .. فصلى ركعتين خفف فيهما ثم قال : لولا أن تظنوا بي غير الذي أردت لأطلتهما ، وقال لمن حضر من قومه : والله لا تطلقوا عني حديداً ولا تغساوا عني دماً . فإني لاق معاوية غداً على الجادة وضربتِ عنقه » .

ودهش الناس لهذه المقتلة الجزاف واهتز لها العالم الاسلامي هزة عنيفة أورثته مبغضة لدولة بني أمية من تلك المبغضات التي كمنتِ وطالت حتى نسيت أسبابها وبقيت نوازعها ، وظل شبح الشهيد الوقور يساور معاوية إلى يوم وفاته ، فجاء في رواية ابن سيرين : « إن معاوية لما حضرته الوفاة جعل يقول : يومي منك يا حجر طويل » .

ولا يحاط بعوارض الفزع التي ألمت بالعالم الاسلامي من جراء هذه المقتلة الباغية ولكنها قد تتمثل في عارض واحد يدل على كثير . فإن الخبر الذي ذاع من تسيير حجر وأصحابه إلى دمشق لم يكد يصل إلى السيدة عائشة بالحجاز حتى أوفدت عبد الرحمن بن الحارث يتشفع فيه وفي صحبه ، وهي لا تنسى أن أعوان معاوية قتلوا أخاها محمداً شر قتلة ولا يخفى عليها غاو حجر وأصحابه في حب علي وشيعته وبينها وبين العلويين من الجفوة ما هو معلوم .

وقد فات معاوية كل عذر في هذه المقتلة حتى ما كان من عذر واه كعذر ابنه يزيد في مقتلة الحسين . فإن يزيد قد أحال الذنب على عبيد الله بن زياد ، وانعكستِ الآية في أمر معاوية وحجر فكان زياد هو الذي نفض يديه من وزر هؤلاء الشهداء وألقاه على مولاه ، وضاق مولاه بانتحال المعذرة بعد

حين فكان جوابه لسائليه مما يخجل الطفل بين الصغار فضلاً عن العاهل بين الساسة وفي ذمة التاريخ .. قال له عبد الرحمن بن الحارث : أين غاب عنك حلم أبي سفيان ؟ .. فقال : حين غاب عني مثلك من حلماء قومي .. وحملني ابن سمية فاحتملت .. وسألته السيدة عائشة مثل هذا السؤال فقال : لم يكن حولي رشيد ، وكانت السيدة عائشة تقول : لولا إنا لم نغير شيئاً إلا صارت بنا الأمور إلى ما هو أشد منه لغيرنا مقتل حجر .. أما والله إن كان لمسلماً حجاجاً معتمراً ، وكان الحسن البصري الزاهد المعروف يقول : أربع خصال كنّ في معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة ، ثم أحصاها وذكر منها مقتل حجر : « فيا ويلاً له من حجر . يا ويلاً له من حجر . يا ويلاً له من أصحاب حجر » .

وفي رثاء حجر تقول هند بنت زيد الانصارية :

تجبرت الجبابر بعـــد حجـــــر وطاب لها الخورنق والسدير
فإن يهلك فكل زعيم قـــــــوم من الدنيا إلى هلك يصير

* * *

ومعذرة معاوية هذه خليقة أن تدعونا إلى تصديق الوصية التي أوصاه بها أبوه حين سافر إلى الشام . فقد يستكثر على معاوية أن يؤمر بمراجعة أبيه في كل كبيرة وصغيرة قبل أن يحدث بينه وبين أحداً أمراً في خصومة أو قطيعة وقد يستكثر عليه أن يصفعه صافع فلا يقتص لنفسه حتى يسأل أباه ويترقب الجواب منه ، فإذا كان الرجل يرتضي من معاذيره أن يقوده ابن سمية فينقاد لأنه لم يجد حوله رجلاً رشيداً فليس بالكثير أن يؤمر بمراجعة أبيه في شتم شاتم وضرب ضارب ، وهو في مقتبل الشباب قبل الولاية وقبل الخلافة .

ولسنا نفهم من ذلك أن معاوية كان في حكم القاصر في شبابه وكهولته ، ولكننا نفهم أن أباه كان يعرفه وكان يعرف أنه لا يحتكم إلى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها .

حدث هذا العقد الفريد في الجزء الأول عن أبي حاتم عن العتبي قال : « قدم معاوية من الشام وعمر بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب ، فأقعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالهما إلى أن اعترض عمرو في حديث معاوية فقال له معاوية : أعملي تعيب وإليّ تقصد ؟ هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملي وأخبره عن عملك. قال عمرو : فعلمت أنه بعملي أبصر مني بعمله ، وأن عمر لا يدع أول هذا الحديث حتى يصير إلى آخره . فأردت أن أفعل شيئاً أشغل به عمر عن ذلك ، فرفعت يدي فلطمت معاوية . فقال عمر : تا لله ما رأيت رجلاً أسفه منك . قم يا معاوية فاقتص منه . قال معاوية : إن أبي أمرني ألا أقضي أمراً دونه . فأرسل عمر إلى أبي سفيان فلما أتاه ألقى له وسادة وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه . ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية فقال : لهذا بعثت إلي ؟ أخوه وابن عمه ، وقد أتى غير كبير . وقد وهبت ذلك له » .

وصاحب العقد – على هواه الأموي – يسوق هذه القصة في سياق الثناء ، ولسنا نفهم من ذلك أن معاوية كان في حكم القاصر في شبابه وكهولته، ولكننا نفهم أن أباه كان يعرفه وكان يعرف أنه لا يحتكم إلى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها وانه إذا غضب يتغاضب بالرأي والاختيار فيخطئه التقدير .

* * *

وموقفه مع حجر وأصحابه ظاهرة نفسية معهودة في الطبائع التي تصدم فتقبل الصدمة وتحذر من الاندفاع ، ولكنها إذا تركت بلا صدمة تردها لم تعرف حدود الارتداد ولا تأبى أن تستسلم للاندفاع .

تلك الظاهرة من موروثات طبيعة المطاردة في الانسان وفي الحيوان أو السبع من قبله . فقد علم المراقبون لطبائع الحيوان أن المطاردة عنده تقوم على حركات متتابعة ولا تقوم على حركة واحدة . فإذا لمح الحيوان من

خصمه أنه يجفل منه أخذ في الهجوم ، وإذا عدا خصمه أمامه أخذ في العدو وراءه ، وإذا أدركه ولم يجد منه مقاومة تمادى في صرعه وافتراسه ، ولعله لو وقف أمامه رابط الجأش من مبدأ الأمر لم تتنبه فيه حركة الهجوم فحركة المطاردة فحركة اللحاق والافتراس ، وعرف صادة الأسود – وهي أخطر السباع – أنها تتردد إذا واجهها الانسان ثابت النظر راسخ القدمين .

وقد دخل حجر على معاوية ، ومعاوية ينتظر منه صدمة يتبعها حذر فانتباه لواجب الحلم والأناة ، فلما دخل حجر محيياً له بالإمارة وزال الحاجز الأول زالت معه الحواجز الأخريات ، ولم يعلم الرجل أين يكون الوقوف ..

ونظن ان هذه الخليقة قد أوشكت أن تبرز في طوية معاوية من وعيه الباطن إلى وعيه الظاهر ، ومن ذاك قوله : « إذا شد الناس شعرة أرخيتها وإذا أرخوها شددتها » . او قوله : « إذا طرتم وقعنا ، وإذا وقعتم طرنا » . أو قوله لزياد : « كن أنت للشدة ولأكن انا للين » .. فهو يتلقى وحي طبيعته من الصدمة التي تلقاه ، فإن لم تكن صدمة فهناك الحيرة التي لا تخرجه منها طبيعة تلوذ بالغضب على قدره فلا تقف حيث ينبغي لها الوقوف ، ولو كان للغضب عنده أثره المطبوع لانتظر الناس حلمه حيث يغضبون وانتظروا غضبه حيث يحلمون وكثير من أمثال هذه الخليقة تلقاه بيننا كل يوم فيقول القائل عن الرجل من اصحابها : لو انك شددت عليه لأرضاك وحمدت اثر الشدة عليه !

* * *

ويستدعينا ختام هذا الفصل تفرقة اخرى كالتفرقة بين الحلم وامتناع الغضب ، وهي التفرقة بين الطموح إلى الزعامة والصولة والطموح إلى الشرف الاجتماعي والوجاهة السياسية .

فالطموح إلى الزعامة والصولة مزاج حيوي يدخل في تركيب البنية

ويدفع صاحبه كما تدفعه وظائف الجسد فلا يستريح أو يقود الأمم قيادة الزعامة ويصول بعظمة الرئاسة والعلو على الأقران والأتباع .

والطموح إلى الشرف الاجتماعي تقليد من تقاليد المجتمع يحرص عليه من توارثوه حرصهم على الحطام وبسطة العيش ووجاهة الأسرة والبيت ، ويغلب عليه ان يكون تراثاً متخلفاً من الآباء للأبناء يغض من الأبناء ان يتخلوا عنه ويروا غيرهم في مكانه .

ولا يلزم من الطموح إلى الشرف الاجتماعي ان يكون صاحبه مطبوعاً على الصولة والعلو وطلب الطاعة والخضوع ، وقد يلجأ صاحبه إلى المداورة واللين والخضوع لهذا والمصانعة لذاك ليحتفظ بالتراثِ الذي صار إليه أو يرجو ان يصير إليه .

ونحن في قرانا نشهد المثال على كل من النموذجين في كل قرية وكل اقليم . فبينا يستميت « بيت العمدة » في استبقاء وجاهته ويلين من أجل ذلك للحاكم وصاحب الأمر وأعوانه على المكانة الموروثة ينهض رجل آخر مطبوع على الأنفة والصولة فيستطيل على تلك المكانة وينازع في تلك الوجاهة ولا يستريح إلا إذا أمر وتحدى وملك زمام العزة بالمقال والفعال .

وبنو أمية عامة ، ومعاوية خاصة ، من أصحاب « المظهر الاجتماعي » وليس فيهم غير القليل النادر من أصحاب الطموح إلى الزعامة والصولة كما تكون في بنية المزاج وتركيب الخلق والجسد ، وقد صبر معاوية على ألوان من الخضوع في طلب وجاهته السياسية لا يصبر عليها كثير من عامة الناس ، لأنه يطلب تلك الوجاهة بتقليد وراثي ولا يطلبها بنزعة غلابة في الطبيعة والتكوين .

* *

واحتاج ان يقول مرة كما جاء في الطبري مسنداً إلى سعيد بن سويد :

« ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا . قد عرفت أنكم تفعلون ذلك ، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم » .

وهي قولة لم يقلها أحد غيره من المطبوعين على الصولة والزعامة لأنهم لا يحتاجون إليها ، ولكنه قالها لأنها جثمت على صدره لطول ما صبر على مجابهة هذا ومصانعة ذاك ، وتذكير المذكرين إياه أنه لم يملكهم عنوة ولا فتحاً ، بل ملكهم المشارطة والاتفاق .. فنفس عن صدره بتلك الكلمة ولم يحدث من غيره أنه شعر بالحاجة إلى تنفيس كذلك التنفيس .

لقد كان في الرجل مشابهة للجمل الصبور ولم تكن فيه مشابهة للاسد الهصور ..

كان يصفح لأنه لا يغضب ، وكان يحمل على كاهله وفي طوايا نفسه ما ينوء غيره بحمله ، وكان يصبر الصبر الطويل على بلوغ الجاه حيث لا يطاق هذا الصبر مع نزوع الطبيعة السوارة إلى الزعامة والصولة .

كان حلمه امتناع غضب ، وكانت همته تقليد وراثة وحلية وجاهة ...

وقد قال مرة أو مرات : « إن السلطان يغضب غضب الصبي ويأخذ أخذ الأسد » ..

ولكنه حين غضب غضبته الآبدة في مقتل حجر وصحبه لم يغضب غضب الصبي وحسب ، بل التمس العذر ، مجفلاً من غضبته ، فلم يفتح عليه بغير عذر الصبي بين يدي الفقيه .

خَليقَـةٌ أمَويَّـة

تميزت لبني أمية في الجاهلية وصدر الاسلام خلائق عامة يوشك أن تسمى – لعمومها بينهم – خلائق أموية ، وهي تقابل مـا نسميه في عصرنا بالخلائق الدنيوية أو النفعية ويراد بها ان المرء يؤثر لنفسه ولذويه ولا يؤثر عليها وعليهم في مواطن الإيثار .

وهذه الخلائق أعون لنا على التعريف بمعاوية من الخلائق التي ينسبها إليه المادحون والقادحون ، لأن المادحين والقادحين قد يصدرون عن غرض ، وقد ينوون الصدق ولكنهم يخطئون في أمر الرجل الواحد ، أما الأخلاق التي تعم قبيلاً بأسره في أجيال متتابعة فهي أصعب تلفيقاً على الملفقين وأصعب خطأ على المخطئين فإن الاجماع على الخطأ نادر في أخبار الناس كالاجماع على الصواب .

وهذه الخلائق الأموية دنيوية نفعية كما قدمنا ، تميل بالمتخلقين بها إلى مناعم الحياة وتحبب إليهم العيش الرغد والمنزل الوثير وتغريهم بالنعم واللذات يغدقونها على أنفسهم وعلى الأقربين ، فهي عندهم قسطاس البر بمن يحبون كما يحبون .

وقد عرف خيارهم ، ديناً وصلاحاً ، بهذه الخلائق الأموية كما عرف بها كثيرون منهم لم يشتهروا بدين ولا صلاح .

فما عرف من بني أمية أحد أصلح من عثمان بن عفان وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما ، وما تكلم متكلم عن هذين العلمين الرفيعين من بني أمية فاستطاع أن يسكت عما طبعا عليه من حب النعمة ووجاهة الدنيا على أحسن ما يروى عن الأمويين .

كان عثمان رضي الله عنه يقول عن نفسه كما جاء في كتاب الرياض النضرة : « كنت رجلاً مستهتراً بالنساء » وكان استهتاره بهن أن يكثر من الزواج ..

وحب عثمان لاتخاذ المباني والعمائر مشهور ، وحبه لاختصاص ذوي قرباه وإغداق النعمة عليهم مشهور كذلك ، وكله مما أحصاه عليه الثائرون وجدوا فيه متسعاً للتزيد والادعاء .

* * *

وعاش بعد الاسلام محباً للطعام الدسم والصحاف المنتقاة فحدث عمرو ابن أمية الضمري عنه قال : « إني كنت أتعشى مع عثمان خزيرة من طبخ من أجود ما رأيت ، فيها بطون الغنم وأدمها اللبن والسمن ، فقال عثمان : كيف ترى هذا الطعام ؟ فقلت : هذا أطيب ما أكلت قط . فقال : يرحم الله ابن الخطاب. أكلت معه هذه الخزيرة قط . قلت : نعم فكادت اللقمة تفرث من يدي حين أهوي بها إلى فمي وليس فيها لحم، وكان أدمها السمن ولا لبن فيها . فقال عثمان : صدقت ! ان عمر رضي الله عنه أتبع والله من اتبع أثره ، وانه كان يطلب بثنيه — أي منعه — عن هذه الأمور ظلفاً — أي غلظة — في المعيشة . ثم قال : اما والله ما آكله من مال المسلمين ولكني آكله من مالي . وأنت تعلم أني كنت أكثر قريش مالاً وأجدهم في التجارة ، و لم أزل آكل الطعام ما لان منه . وقد بلغت سناً ، فأحب الطعام إلي ألينه » .

وقد كان عثمان أسرع قومه إلى الاسلام لأسباب بيناها في كتابنا « ذي النورين » ... وإنما حسب له الاسراع إلى الاسلام حيث حسب الابطاء والتقاعد

عنه للأكثرين من بني أمية ، على ديدنهم في كل دعوة من دعوات المثل العليا أو دعوات الأريحية والايثار ، ولا موضع هنـــا للاطالة في نقل أخبار المنافرات والمفاخرات التي تلم بهذا المعنى ولكننا نجملها جميعاً في موقف القوم من حلف الفضول و هومشروح بتفصيلاته التي لا يشك فيها من يشكون في تلك المنافرات والمفاخرات ، فقد ظلم رجل في جوار الحرم وباع بضاعة لواه بحقها من اشتراها فاستغاث بذوي المروءة وقام على شرف من الأرض يعلن شكواه ، فاجتمع بنو هاشم وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم على انصافه وانصاف كل مظلوم مثله ، فلا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم ، وعمدوا إلى ماء من زمزم فجعلوه في جفنه وبعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه وشربوه ، ولم يدخل في هذا الحلف أحد من أمية وبني عبد شمس ، بل كان الرجل منهم يود أن يدخله فيخشى أن يحسب خارجاً على قومه ، وقال أحدهم عتبة ابن ربيعة : لو ان رجلاً وحده خرج على قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول .

* * *

وهذه الخلائق الأموية وضحت في الجاهلية وصدر الاسلام وضوحاً لا لبس فيه قبل أن تلتبس الانساب ويكثر الزواج من غير العشيرة ، والبناء بالجواري من الروم والفرس والترك والبربر ، ولكنها ظلت أموية حيث تغلب الأموية في الدم والنشأة والقدوة والجوار .

فعمر بن عبد العزيز – أشبه الملوك في دولة بني أمية بالخلفاء الراشدين – كان كما جاء في أسانيد ابن الجوزي : « رأيته في المدينة وهو أحسن الناس لباساً ومن أطيب الناس ريحاً ومن أخيل الناس في مشيته ، ثم رأيته بعد ذلك يمشي مشية الرهبان » .

واتفق الرواة ، كابن عبد الحكم والاصفهاني وابن الجوزي في أطراف

من أسانيده ، انه كان يتطيب في شبابه فينتظر الناس ثيابه عند الغسال ليغسلها لهم في موضعها ، وانه كان يرجل شعره ويتبختر في مشيته حتى عرفت له مشية عمرية يحكيها الفتيان والفتيات ، وكان يتختم بالجواهر ويلبس الأزار بمائة دينار ، ولا يرى مرتين في كساء واحد ، وربما تأخر في صباه عن موعد الصلاة لاشتغاله بترجيل شعره ، وسأله مؤدبه صالح بن كيسان مرة عن تأخره وهو ينتظره لإقامة الصلاة ، فاعتذر له بإبطاء مرجلته — أي الجارية التي تعنى بترجيل شعره — فغضب المؤدب الصارم ولامه أن يغفل عن موعد صلاته ليعنى بتسكين شعره .

وما برح الخليفة الصالح في نصب من أمر عاداته هذه حتى أقلع عنها بعد جهد ، وآب من ترف المسرفين إلى نسك المتزمتين ، وقيل انه ترف من بني أمية ، ونسك من الفاروق ، لأنه ينتمي من ناحية أمه إليه ..

وعلى هذا الجهد بقيت معه تلك المشية تعاوده ولا يأمن أن يسهو عن نفسه فيثوب إليها في طريقه ، فجعل له قريناً يلازمه ويصفقه بيده كلما هم أن يثوب إليها ..

* * *

ولا ننسى أن بني أمية عشيرة عربية كبيرة قد تتميز بخلائقها الأموية ولكنها لا تنفصل عن المجتمع العربي ولا تشذ عن عرفه التقليدي الذي ترعاه جميع العشائر الكبرى ولو من قبيل المحافظة على المراسم والأشكال ، ومن تقاليد هذا العرف أن تروض بيوت الرئاسة أبناءها على نظام كالنظام العسكري في صباهم وبعد بلوغهم مبلغ الشباب الذي ينتدب للقتال أو لتصريف الأمور ، وسواء اختاروا البادية لتدريب الأبناء على هذه الرياضة أو عهدوا بها إلى المربين في المدن والدور فلا ينشأ الناشيء منهم إلا على رياضة من هاتين الرياضتين ، وكذلك فعل عبد العزيز بن مروان في تربية ابنه عمر فاختار له المؤدب الذي يثقفه ويأخذه بفرائض دينه ودنياه ، ولما بلغه من هذا المؤدب — صالح بن

كيسان — أن الفتى الصغير يتأخر عن موعد الصلاة لاشتغاله بترجيل شعره أرسل إليه من قبله رسولاً خاصاً فأمره ألا يكلمه حتى يقص شعره ويبلغه غضب أبيه ، ولا نحسب ان أحداً من رؤساء البيت غفل عن مثل هذه الرياضة في تنشئة بنيه ، ولكنها رياضة تنتهي إلى القدوة البيتية فلا يبقى لها من أثر أو لا يبقى لها إلا الأثر الضعيف . وكان عبد العزيز يعاقب عمر ذلك العقاب وهو ينزع في الترف منزعاً لا يستطيع ابنه — وان أسرف — أن يذهب إلى مدى أبعد من مداه ، فاقتنى الدور في مصر وجملها بالأثاث الفاخر وجعل يهديها إلى أبنائه وذويه ، واشترى أرض حلوان بعشرة آلاف دينار ليقيم عليها قصره المنيف الذي موه جدرانه بالذهب وأنفق على فراشه وأثاثه عشرات الألوف ، وكان له كل يوم ألف جفنة للقرى بدار الضيفان وكانت أيامه كلها كأنها أيام أعياد كما جاء في معجم البلدان :

كل يوم كأنـــه عيـــد أضحى	عند عبد العزيز أو يوم فطـــر
وله ألـــف جفنـــة مترعـــاتٍ	كل يوم يمدهـــا ألف قـــدر

* * *

وشهد هذا البذخ كله عمر وتقلب بين أعطافه ، فلولا عرق من الفاروق أدركه لما تحول من هذا البذخ إلى النسك الذي ضارع به أزهد الخلفاء الراشدين..

وليس عبد العزيز — على هذا — بالمثل الذي يقال عنه انه « نموذج » للخليقة الأموية في الكلف بالنعمة الدنيوية والعجب بالزينة والشارة وبالقسامة والوسامة ، بل كانت هذه الخليقة على أتمها في سليمان بن عبد الملك أكلفهم بنعمة العيش حيث كانت في طعام أو كساء أو ترف أو سرف أو خيلاء ..

كان نهماً لا يشبع ولا يرجع الخوان من بين يديه وعليه بقية ، وكان يلبس الوشي على أفخر حلية وزينة ويحضر الطهاة بين يديه بالسفافيد عليها الدجاج والطير فلا يتمهل بها حتى تنضج بل يلف يده في كمه ويتناولها من النار ويأتي عليها قبل أن تنقل إلى الصحاف ، وربما صحبه عمر في السفر

وهو صائم فلا يجد على المائدة فضل طعام إذا حان موعد الافطار ، وقد مات بالتخمة مع اصابته بالحمى وهو في الأربعين وأبناؤه الصغار لا يصلحون اولاية العهد ، فجعل ينظر إليهم وينشد :

ان بـــني صبيـــة صغـــــار أفلـــح مـــن كـــان لـــه كبار

وأمر وزيره رجاء بن حياة أن يعرضهم عليه في الخوذات والدروع لعله يخدع نفسه بمنظر صبي منهم يصلح لولاية الملك فلم يجد منهم من يروعه أو يروقه في تلك الأزياء . وأوصى بولاية العهد على كره لعمر بن عبد العزيز ..

قال ابن الجوزي في سيرة عمر باسناده : « ان سليمان بن عبد الملك كان ربما نظر في المرآة فيقول : أنا الملك الشاب .. وكان جالساً فنظر في المرآة إلى وجهه فأعجبه ما رأى من جماله فقال : أنا الملك الشاب ، وكانت على رأسه وصيفة فقالت :

أنت نعم المتاع لو كنـــت تبقى غـــير ان لا بقـــاء لـــلانسان

ويروى هذا البيت في أسانيد أخرى ومعه البيت التالي :

ليس فيما بدا لنـــا منك عيـــب عابه الناس غـــير انـــك فان

ودخل عليه المفضل بن المهلب يوم جمعة فرآه يدعو بالثياب ويلبس منها حلة بعد حلة ويتخايل بها أمام المرآة ثم يخلعها ويأتي بغيرها حتى ارتضى حلة منها فالتفت إلى المفضل سائلاً : يا بن المهلب .. أعجبتك ؟ قال المفضل : نعم . فحسر عن ذراعيه وهو يقول : أنا الملك الفتى .

هذا هو الأموي من الأمويين ، وغيره منهم يشبهه في كل خصلة من هذه الخصال على درجات ، ومنهم معاوية رأس الدولة وأقربهم إلى أرومة الميراث .

* * *

كان في معاوية كل خصلة من خِصال سليمان بن عبد الملك ولكنه لم يسترسل فيها كما استرسل سليمان مع تطاول الزمن بعد قدوة النبوة والخلافة الأولى خلافة الراشدين .

جاء في الطبري انه كان يأكل في اليوم سبع مرات بلحم ويقول : « والله ما أشبع وإنما أعيا » .

ولم يروها الطبري وهو يشهر بها ، بل رواها وقال بعدها : « وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك » .

وسبق الطبري هذا الخبر بتعليل لهذه النهمة من دعوة رسول الله عليه في صباه ..

فمن أخبار الامام أحمد المسندة إلى ابن عباس انه قال : « كنت ألعب مع الغلمان فإذا رسول الله قد جاء فقلت : ما جاء إلا إلي . فاختبأت على باب فجاءني فخطاني خطاة أو خطاتين ثم قال : اذهب فادع لي معاوية ، وكان يكتب الوحي . فذهبت فدعوته له فقيل : انه يأكل ! فأتيت رسول الله فقلت : إنه يأكل . فقال : اذهب فادعه . فأتيته الثانية فقيل انه يأكل . فأخبرته . فقال في الثالثة : لا أشبع الله بطنه .. فما شبع بعدها » .

ولم يزل بعد الامارة يفرط في مأكله من اللحوم والحلوى والفاكهة حتى ترهل وعجز عن القيام طويلاً فكان يخطب على المنبر وهو جالس ، وكان أول من جلس في خطبة منبرية .

* * *

وشغف بالأكسية كما شغف بالأطعمة ، فلبس الحرير وتختم بالذهب والجوهر وولع بالثياب المزخرفة والموشاة وتزين بالزينة التي كرهها الاسلام لعامة الرجال فضلاً عن الخلفاء والأمراء ، وكان لا يملك أن يترك الزينة بالكساء في صدر الدعوة والخلافة وفي الزمن الذي كان يتحرج فيه من اغضاب ولي الأمر ، وهو عمر بن الخطاب .

قال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد كما رواه الطبري : « قدم علينا معاوية وهو أبيض بض وباص ، أبض الناس وأجملهم ، فخرج إلى الحج مع عمر ، فكان عمر ينظر إليه فيعجب منه ، ثم يضع أصبعه على متن معاوية ثم يرفعها عن مثل الشراك فيقول : « بخ بخ . نحن إذن خير الناس ان جمع لنا خير الدنيا والآخرة » . فقال معاوية : « يا أمير المؤمنين ! سأحدثك . أنا بأرض الحمامات والريف والشهوات » فقال عمر : « سأحدثك أنا .. ما بك إلا الطافك نفسك بألطف الطعام وتصبحك حتى تضرب الشمس متنيك وذوو الحاجات وراء الباب » ، فقال معاوية : يا أمير المؤمنين علمني أمتثل . قال راوي الخبر : فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حلة فلبسها ، فوجد عمر منها ريحاً كأنه ريح طيب ، فقال : يعمد أحدكم فيخرج حاجاً مقلا حتى إذا جاء أعظم بلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا في الطيب فلبسهما ؟ فقال معاوية : إنما لبستهما لأدخل بهما على عشيرتي وقومي. قال عمر : والله لقد بلغني أذاك هنا وفي الشام » .

وزاد راوي الخبر فقال : « والله يعلم اني لقد عرفت الحياء فيه ، ثم نزع معاوية ثوبيه ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما » .

وروى عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي عن جده قال : « دخل معاوية على عمر وعليه حلة خضراء . فنظر إليها الصحابة ، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدرة فجعل يضربه بها ، وجعل معاوية يقول : الله الله فيّ يا أمير المؤمنين. فرجع عمر إلى مجلسه فقال له القوم: لم ضربته يا أمير المؤمنين وما في قومك مثله ؟ فقال : والله ما رأيت إلا خيراً وما بلغني إلا خير ، ولو بلغني غير ذلك لكان مني إليه غير ما رأيتم . ولكن رأيته — وأشار بيده — فأحببت أن أضع منه ما شمخ » .

ولم يكن زهوه بسمته وسماته دون زهو سليمان ، فكان يصفر لحيته كأنها الذهب .. وقد أصابته لوقة في آخر عمره — وهي كأثر الضربة في

الجلد – فكان يستر وجهه ويقول : « رحم الله عبداً دعا لي بالعافية فقد رميت في أحسني ولولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي » .

* * *

وهواه في يزيد لون من ألوان هذه الحلة الأموية ، فكل الآباء يحبون الأبناء .. ولكن القوم لا يحسبون الأب باراً بابنه إلا إذا « نعمه » أو شغل بتنعيمه فيما ينظر فيه الآباء من رغد أبنائهم وفيما يتركونه لهم ويتغاضون عنه كأنهم يجهلونه . وقد أرسل معاوية ابنه يزيد إلى بادية بني كلب – أخواله – ليتربى بينهم على الفروسية والبلاغة العربية ، ولكنه فعل ذلك كأنما يفعله قياماً بما تقتضيه مراسم السلف ولم يتبعه بما هو ألزم ليزيد من ضروب التربية والرياضة على كبح الأهواء ولا سيما الهوى الذي ينظر إلى حرمات الناس وأعراض الرعية ، فقد علق يزيد بزوجة عبد الله بن سلام زينب بنت اسحاق ، ومرض بحبها مرضاً أدنفه فاحتال أبوه حتى عرف سر مرضه من خصيان القصر ، فأرسل في طلب أبي هريرة وأبي الدرداء فقال لهما : ان لي ابنة أريد زواجها ولا أرضى لها حليلاً غير ابن سلام لدينه وفضله وشرفه ، فانخدع ابن سلام وذهب إلى معاوية يخطب بنته وقيل إن معاوية وكل الأمر إلى أبي هريرة ليبلغها ويستمع جوابها ، فأجابته بما اتفقت عليه مع أبيها وقالت له انها لا تكره ما اختاروه ، ولكنها تخشى الضر وتشفق أن يسوقها إلى ما يغضب الله ، فطلق ابن سلام زوجته واستنجز معاوية وعده فلواه به ونقل إليه عن ابنته انها لا تأمن رجلاً يطلق ابنة عمه وأجمل نساء عصره ! ..

وكأنما كان معاوية مهموماً بشهوات ولده في زواج أو غير زواج ، فقد حدث ابن عساكر من ترجمة خديج الخصي ان معاوية اشترى جارية بيضاء جميلة فأدخلها الخصي عليه مجردة ، وبيده قضيب . فجعل يهوي به على جسدها ويقول : هذا المتاع لو كان لنا متاع . اذهب بها إلى يزيد ثم قال : ادع لي ربيعة بن عمر الجرشي – وكان فقيهاً – فلما دخل عليه قال : ان

هذه أتيت بها مجردة فرأيت منها ذاك وذاك ، واني أردت أن أبعث بها إلى يزيد ، فقال الجرشي : لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنها لا تصلح له ، فقال معاوية : نعم ما رأيت ! ثم وهبها لعبد الله بن مسعدة الفزاري مولى فاطمة بنت رسول الله ، وكان أسود ، فقال له : بيض بها ولدك ..

* * *

ونعود فنقول ان الطبري يسند هذه الأخبار إلى أصحابها ولا يسوقها مساق التشهير ، لأنه اتخذ من هذا الخبر دليلاً على فقه معاوية فقال : « وهذا من فقه معاوية وتحريه ، حيث كان نظر إليها بشهوة ولكنه استضعف نفسه عنها فتحرج أن يهبها لولده يزيد لقوله تعالى : ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء . وقد وافقه على ذلك الفقيه ربيعة بن عمر الجرشي الدمشقي .. »

وما من تربية ليزيد تصلحه للخلافة بعد هذا « التنعيم » الذي يملى له في شهواته وهو مقدم على رئاسة قريبة عهد بابن الخطاب بل بابن عفان ، فإن الخليفة الثالث رضي الله عنه قد أجاز لنفسه من المتعة الدنيوية ما لم يجزه الفاروق ولكنه لم يحدث نفسه قط باقتناء الخصيان والجواري على سنة القياصرة والشواهين ولولا تلك الخليقة الأموية التي تمادى بها اتساع الملك في أهوائها وغواياتها لما فات رجلاً — وسط الذكاء — أن هذه التربية لا تعد انساناً لحياطة الملك المنتزع بالحيلة والحول قبل استقرار الأمور بين مطامع الأقرباء من العشيرة فضلاً عن الغرباء .

وكان معاوية ينازع طبعه بين الخليقة الأموية وبين آداب الدين الذي يتولى خلافته ، فينزل بنفسه درجات دون منزلة الخلفاء الراشدين لافتتانه بالدنيا واستسلامه لغوايتها ، وله أكثر من كلمة في هذا المعنى يقول في بعضها : « إن أبا بكر سلم من الدنيا وسلمت منه ، وعمر عالجها وعالجته ، وعثمان نال منها ونالت منه . أما أنا فقد تضجعتها ظهراً لبطن وانقطعت إليها فانقطعت إلي » .. ويقول في بعضها من خطبة بالمدينة : « إن أبا بكر

رضي الله عنه لم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما عثمان فنال منها ونالت منه ، وأما أنا فمالت بي وملت بها ، وأنا ألبنها فهي أمي وأنا ابنها ، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم » .

وكأنما كان يشهد على نفسه هذه الشهادة تواضعاً من جهة وتزكية لقدرته على الملك الدنيوي من جهة أخرى . فإن كان الرعية لا يرتضونه قدوة للصلاح والتقوى ، فهم مرتضوه مدبراً لشؤونهم وقائماً على مصالح دنياهم ..

* * *

ويشعر معاوية بالمنازعة بين الخليقة الأموية وآداب المروءة العربية كما يشعر بالمنازعة بينها وبين آداب الدين . فإن طالب السيادة يكره أن ينزل في منزلة دون منازل الشرف والكرامة بين قومه ، فإن لم يكره ذلك حباً للخلق المأثور فلعله يكرهه حباً لنفسه وغيرة على سيادته وعلوه في نظر المكبرين لآداب المروءة سواء تحلوا بها أو تجردوا منها .

ومن نوادر معاوية في هذه المنازعة المتكررة بين خلائق عشيرته وآداب العرب عامة انه جلس يوماً مع خاصته يسألهم فيما بقي له ولهم من لذات الحياة بعد ذهاب الشباب ، فإذا هي عنده لذات لا تعدو مذاق الشراب السائغ وسروره بالنظر الى بنيه ، ثم نبهه منبه الى اسفافه هذا فانتبه ولم يكابر طبعه ، لأن الأمراء وراء المكابرة بإجماع العرف وإجماع الدين .

روى الواقدي أن عمرو بن العاص « دخل يوماً على معاوية بعدما كبر ودق ومعه مولاه وردان ، فأخذا في الحديث وليس معهما أحد غير وردان ، قال عمرو : يا أمير المؤمنين ! ما بقي مما تستلذه ؟ فقال : أما النساء فلا أرب لي فيهن ، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهى بها جلدي فما أدري أيها ألين ، وأما الطعام فقد أكلت من لذيذه وطيبه حتى ما أدري أيه ألذ وأطيب ، وذكر مثل ذلك عن الطيب وغيره من مناعم الحياة . ثم

قال : فما شيء ألذ عندي من شراب بارد في يوم صائف ، ومن أن أنظر الى بني وبني بني يدورون حولي » .

« وعطف معاوية سائلا : فما بقي منك يا عمرو ؟

« قال عمرو : مال أغرسه فأصيب من ثمرته ومن غلته .

« فالتفت معاوية الى وردان فقال : ما بقي منك يا وردان ؟

قال وردان : صنيعة كريمة سنية أعلقها في أعناق قوم ذوي فضل واصطبار لا يكافئونني بها حتى ألقى الله تعالى ، وتكون لعقبي في أعقابهم بعدي ..

« فقال معاوية : تباً لمجلسنا سائر اليوم .. ان هذا العبد غلبني وغلبك... ! »

خليقة أموية عربية . مضى الرجل على سجيته فلم يخطر له أن يستبقي من متاع الدنيا الذي عجز عنه إلا شيئاً يذاق وشيئاً يسره من النظر الى ذريته ، ثم نبه المنبه الى المكرمات المأثورة فلم يجحدها ولم يعزب عنه حميد أثرها ..

وإن شئت فقل خليقة أموية وكفى .. فإن من أثرة ما يوحي الى صاحبه ألا ينزل طواعية عن مأثرة يرتفع بها غيره ، ولا يسعه أن ينكرها .

وهكذا كانت الخليقة الأموية مع المروءة العربية في كل مأثرة محمودة بين عشائر العرب الكبرى وبين العرب خاصة وعامة ، وأولها مناقب الشجاعة والكرم والنخوة ، فما كان في وسع بني أمية ان يغمضوا أعينهم عن هذه المناقب ولا ان يصغروا من حقها ، ولكن التسليم للمنقبة شيء والجهد في تحصيلها شيء آخر .. ولهذا مضى تاريخ بني أمية في الجاهلية وليس بينهم واحد معدود حين يعد العرب فرسانهم المقدمين وأجوادهم المشهورين وذوي النجدة من صفوة عشائرهم ونخبة ساداتهم ، وظهر فيهم الشجعان في صدر الاسلام كيزيد بن أبي سفيان – وهو أخ غير شقيق لمعاوية ولكنه لا يحسب عندهم ولا عند غيرهم من فرسان هاشم في جيل واحد ، كعلي وحمزة .

وسئل معاوية نفسه — وسائله عمرو بن العاص — : والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان؟ فقال :

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة فإن لم تكن لي فرصة فجبان

ولم يؤثر لمعاوية موقف واحد يحسب من مواقف الشجاعة البينة ، بل حسب عليه انه كان يأوي الى قبة يحيط بها الحراس في معارك صفين ، وانه أسرع الى فرسه في ليلة الهرير لينجو بحياته ، ثم هدأ الخطر بعض الشيء فراجع نفسه وتراجع الى مكانه وهو آمن من عاقبة هذه الرجعة ، بعد ان خفت الهجمة على موضعه من ميدان القتال .

* * *

وليس من أخبار بني أمية في الجاهلية وصدر الاسلام خبر واحد ينفي عنهم هذه الخليقة الغالبة عليهم جميعاً من الأثرة والكلف بالمناعم الدنيوية وتقديمها على غيرها من مناقب الايثار والمثل العليا .

وبهذه الخليقة يفسر كل عمل من أعمال معاوية على انفراده بينهم بصفات من الحزم لم يشتهروا جميعاً بمثلها ، وهو مع حزمه « الدنيوي » هذا لم يصطدم بالخليقة الأموية إلا وهن منه الحزم في هذا المصطدم . فكان من الحزم ألا يتوسع في أبهة الملك أو أبهة « الهرقلية والكسروية » كما كان المسلمون يسمونها في صدر الاسلام ، ولكنه لم يكد يملك حتى صنع ما يصنع القياصرة والأكاسرة من اقتناء الخصيان والجواري والتوسع في بذخ القصور والقدور ، وكان من الحزم أن يروض يزيد على كبح الشهوات فلم يكد يسمع انه اشتهى امرأة في عصمة رجل حتى احتال حيلته لإمتاعه بما اشتهى ، وان النهازين من مؤرخي العصر القديم ليفسرون صلاته الجامعة في المقاصير بخوفه من الغيلة بعد مؤامرة الثلاثة التي قتل فيها علي رضوان الله عليه . ولئن صح هذا لما نفى عنه تلك الخليقة الأموية التي تلوذ بالحيطة حيث لا يلوذ بها المبرأون منها ، فقد قتل عمر وعلي ولم يلجأ الحسن أو الحسين الى المقاصير

أو الى الحرس الميسر لهما وهو غير قليل ، وقد كانت أبهة المواكب من دأب معاوية إذ كان – بعد – على ولاية الشام من قبل الفاروق . فلما رآه الفاروق في موكبه أعرض عنه ثم عنفه وسأله عن اتخاذ المواكب مع احتجابه عن ذوي الحاجات ، فاعتذر له بموقعه من بلاد العدو ، ودأب على اتخاذ المواكب وتسيير الجند بين يديه قبل أن يخشى غيلة من مغتال .

عند هذه الخليقة الأموية تفسير الكثير مما جهله المؤرخون الأقدمون أو تجاهلوه ، ولا سيما المؤرخين النهازين من المنتفعين أو المتطوعين .

* * *

موقف معاوية في قضية عثمان

كل خبر من أخبار العصر لازم مطلوب لفهم تاريخه وأعمال رجاله ، ولكن الأخبار المقدمة على غيرها في حوادث العالم الإسلامي التي أفضت الى قيام الخلافة الأموية إنما هي الأخبار التي لها مساس بموقف معاوية من عثمان قبل مقتله وبعد مقتله والمبايعة لعلي بالخلافة في الحجاز .

فبغير هذه الأخبار التي تكشف عن موقف معاوية لا يستطيع المؤرخ أن يتثبت من حقيقة البواعث التي كمنت وراء الحوادث والحروب والخصومات ، ولا يستطيع أن يعرف ما هو صحيح منها وما هو مصطنع من تدبير السواس والدعاة .

فما هي حقيقة المسائل التي أثارت معاوية على علي وجنحت به الى سلوك المسلك الذي اختاره هو ومعاونوه ؟ ماذا منها قد حدث فعلا وماذا منها لم يحدث وقيل إنه حدث للانتفاع به في الادعاء ورد الادعاء .. وفي الاتهام ورد الاتهام ؟ أو ماذا منها قد حدث فعلا وحرفه الدعاة الى غير وجهته وأولوه بغير معناه ؟ وماذا من تلك الحوادث جميعاً كان خليقاً أن يتغير لو تغير الموقف وتغيرت النيات والمساعي ؟

كل أولئك مرهون بالنفاذ الى حقيقة موقف معاوية من عثمان قبل مقتله وبعد مقتله ومبايعة علي بالحجاز .

وكل ما وصل إلينا من أخبار ذلك الموقف يدل على شيء واحد لا محل فيه للخلاف الطويل بين الناظرين إليه من الوجهة التاريخية الخالصة ، وهو عمل معاوية لنفسه في كل مطلب طلبه من عثمان وكل نصيحة أسداها إليه وكل مشورة أشار بها عايه ، فليس في هذه المطالب والنصائح أو المشورات شيء قط تجرد من منفعة ينظر إليها معاوية في حاضره أو مصيره ، وكل ما عدا ذلك فقد يكثر فيه الخلاف ويؤول فيه التأويل .

كان معاوية في عهد الفاروق قانعاً بعطائه السنوي وهو ألف دينار ، وكان الولاة والرعية لا يشكون إجحافاً ولا محاباة فيما يرجع الى أرزاق العمال الكبار والصغار ومنهم الولاة . فلما انقضى عهد الفاروق كثرت الشكوى من تقسيم هذه الأرزاق ومن إيثار بعض الولاة بالولايات لقرابتهم من الخليفة ، وكانت هذه الشكوى إحدى الدعايات التي تذرع بها المشاغبون للثورة التي تفاقمت حتى ذهبت بحياة عثمان .

* * *

ولم يكن معاوية يجهل هذه النقمة الفاشية في الولايات ، ولكنه على ذلك كتب الى عثمان يطلب زيادة عطائه ، ويطلب غير ذلك أن يقطعه الأرض التي قتل أصحابها من الروم أو تركوها وهاجروا الى بلاد غير البلاد المفتوحة من أرض الدولة البيزنطية ، وتعالل له بكثرة وفود الأمصار والرسل وأن هذه الضياع المتروكة لا يؤخذ عليها الخراج ولا تحسب من أموال أهل الذمة كما جاء في تاريخ ابن عساكر ، وكانت هذه الضياع وأمثالها تلحق ببيت المال وينفق منها على المصالح العامة ومعونة المعوزين وذوي الحاجات ، فلما أذن له عثمان بزرعها والانتفاع بثمراتها حبسها على نفسه وعلى آل بيته وخدامه وأعوانه في سياسته ، وعمد الى كل معترض عليه وعلى إنفاقه لهذه الأموال في غير وجوهها فأقصاه عن الشام وأرسله الى حيث يشاء من البلاد الإسلامية الأخرى لا يعنيه أن يصنع الشاغبون ما يصنعون في غير ولايته ، وهو يعلم

أنهم سيشغبون على عثمان حيث ذهبوا وأن عثمان يلقى من الفتنة ما هو حسبه في جواره .

وحديث أبي ذر في الشام معروف ننقل منه ما يدور حول موقف معاوية من عثمان كما جاء في ابن الأثير :

« كان أبو ذر يذهب الى أن المسلم لا ينبغي أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لكريم ويأخذ بظاهر القرآن .. « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ... فكان يقوم بالشام ويقول : يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء.. بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء ، وشكا الأغنياء ما يلقون منهم فأرسل اليه معاوية بألف دينار في جنح الليل فأنفقها . فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله الذي أرسله إليه فقال : إذهب الى أبي ذر فقل له : أنقذ جسدي من عذاب معاوية! فإنه أرسلني الى غيرك وإني أخطأت بك . ففعل ذلك ، فقال له أبو ذر : يا بني قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار ، ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها ، فلما رأى معاوية أن فعله يصدق قوله كتب الى عثمان ؛ إن أبا ذر قد ضيق علي ، وقد كان كذا وكذا للذي يقوله للفقراء . فكتب إليه عثمان : إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ولم يبق إلا أن تثب ، فلا تنكأ القرح وجهز أبا ذر إلي وابعث معه دليلا وزوده وأرفق به ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت » ..

* * *

ولما خرج الشاغبون بالفتنة من الكوفة الى الشام بأمر عثمان كتب عثمان الى معاوية كما جاء في ابن الأثير : « إن نفراً قد خلقوا للفتنة فأقم عليهم وانههم فإن آنست منهم رشداً فاقبل وإن أعيوك فارددهم علي » .

فلقيهم معاوية وزجرهم وأغلظ لهم ، ثم أتاهم بعد ذلك فقال لهم : إني قد أذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم لا ينفع الله بكم أحداً ولا يضره ، ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرة . فإن أردتكم النجاة فالزموا جماعتكم ولا يبطرنكم الإنعام فإن البطر لا يعتري الخيار ، إذهبوا الى حيث شئتم فسأكتب الى أمير المؤمنين فيكم » .

وكتب الى أمير المؤمنين يهون له من شأنهم ويقول عنهم إنهم « ليسوا لأكثر من شغب ونكير » .

ولم يكن أمرهم ليعييه ، فإنهم ذهبوا حين سرحهم يقصدون الجزيرة فعلم بهم عبد الرحمن بن خالد فما أعياه أمرهم ودعاهم إليه ولم يذهب اليهم كما فعل معاوية فتوعدهم عبد الرحمن وعيداً لا يشكون فيه وقال لهم : « يا آلة الشيطان ! لا مرحباً بكم ولا أهلا . قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم — بعد — نشاط . خسر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم .. يا معشر من لا أدري أعرب هم أم عجم . لا تقولوا لي ما بلغني أنكم قلتم لمعاوية . أنا ابن خالد بن الوليد . أنا ابن من قد عجمته العاجمات . أنـــا ابن فاقىء الردة . والله لئن بلغني يا صعصعة أن أحداً ممن معي دق أنفك ثم أمصكه — أي جعلك تمصه — لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى . فأقامهم شهراً كلما ركب مشاهم ، فإذا مر به صعصعة قال : يا ابن الحطيئة !.. أعلمت ان من لم يصلحه الخير أصلحه الشر . ما لك لا تقول كما بلغني أنك قلت لسعيد ومعاوية؟. فيقولون : نتوب الى الله . أقلنا أقالك الله . فما زالوا به حتى قال : تاب الله عليكم ، وسرح الأشتر الى عثمان . فقدم إليه ثانياً ، فقال له عثمان : أحلل حيث شئت . فقال : مع عبد الرحمن بن خالد . فقال : ذلك إليك ، فرجع إليه » .

* * *

وعلى اختلاف الروايات في تنقل هذه الفئة بين الكوفة والشام ، وفيما

قالوه وقيل لهم ، لم يتغير موقف معاوية في جميع هذه الروايات ، وهو موقف الرجل الذي لا يبالي بعد أمانه على ولايته أن تنجم الفتنة حيث نجمت وأن يبتلى بها الخليفة بنجوة منه .

وقد تفاقم الخطب ونظر الخليفة المحصور حوله يطلب الرأي من ذوي الرأي بين خاصته وخاصة المسلمين . واجتمع عنده رهط منهم يوماً أشاروا عليه بما بدا لهم ثم خرجوا فأمسك عثمان بابن عباس فقال له : يا ابن عمي ويا ابن خالتي . إنه لم يبلغني عنك في أمري شيء أحبه ولا أكرهه ، وقد علمت أنك رأيت بعض ما رأى الناس فمنعك عقلك وحلمك على ان تظهر ما أظهروا ، وقد أحببت ان تعلمني رأيك فيما بيني وبينك فاعتذر ... قال ابن عباس : يا أمير المؤمنين إنك قد ابتليتني بعد العافية وأدخلتني في الضيق بعد السعة . ووالله إن رأيي لك رأي من يجل سنك ويعرف قدرك وسابقتك. ووالله لوددت انك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك . فإن كان شيئاً تركاه لأنه ليس لهما علمت انه ليس لك كما لم يكن لهما ، وإن كان ذلك لهما فتركاه خيفة ان ينال منهما مثل الذي نيل منك تركته لما تركاه له ولم يكونا أحق بإكرام أنفسهما منك بإكرام نفسك ..

قال عثمان : فما منعك ان تشير علي بهذا قبل ان أفعل ما فعلت ؟ قال ابن عباس : وما علمي انك تفعل ذلك قبل ان تفعله ؟ قال : فهب لي صمتاً حتى ترى رأيي .

وخرج ابن عباس وبقي معاوية فسأله عثمان فأجاب كما جاء في الإمامة والسياسة : « الرأي ان تأذن لي بضرب أعناق هؤلاء القوم . قال : من ؟ قال : علي وطلحة والزبير .. قال عثمان : سبحان الله !.. أأقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه ولا ذنب ركبوه ؟ قال معاوية : فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلونك .. قال عثمان : لا أكون أول من خلف رسول الله في أمته بإهراق الدماء .

« قال معاوية : فاختر مني إحدى ثلاث خصال .

« قال عثمان : ما هي ؟

« قال معاوية : أرتب لك ها هنا أربعة آلاف من خيل أهل الشام يكونون لك ردءاً وبين يديك يداً .

« قال عثمان : أرزقهم من أين ؟

« قال : من بيت المال .

« قال عثمان : أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرز دمي ؟ لا فعلت هذا .

« قال : فثانية .

« قال : وما هي ؟

« قال : فرقهم عنك فلا يجتمع منهم اثنان في مصر واحد واضرب عليهم البعوث والندب حتى يكون دبر بعير منهم أهم عليه من صلاته .

« قال عثمان : سبحان الله ! شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهلهم وأبنائهم؟.. لا أفعل هذا ..

« قال معاوية : فثالثة !

« قال : وما هي ؟

« قال : إجعل لي الطلب بدمك إن قتلت .

« قال عثمان : نعم هذه لك . إن قتلت فلا يطل دمي » .

هذه رواية الامامة والسياسة ، وفي سائر الروايات إن معاوية قال له

غير ذلك : اخرج معي الى الشام قبل ان يهجم عليك ما لا تطيقه . قال : «لا أبتغي بجوار رسول الله بدلا » .

* * *

تلك جملة الآراء التي أشار بها معاوية على الخليفة ، وما من رأي منها إلا والنفع فيه ثابت لمعاوية غير ثابت لعثمان ، وربما كان في معظمها ما يضرُّه ولا يجديه ..

فليس قتل علي وطلحة والزبير بالأمر الهين الذي يدفع الشر عن الخليفة ، وليس هو بالخطة التي يختارها معاوية لنفسه لو كان في موضع عثمان . وقد أعفى معاوية نفسه من التضييق على صعصعة ورهطه كما ضيق عليهم عبد الرحمن ابن خالد فليس من خطته التي يختارها لنفسه ويحمل تبعتها على عاتقه ان يقتل ثلاثة من أقطاب الصحابة كعلي وطلحة والزبير كما أشار على عثمان ، وإنما يبوء عثمان بتبعتها ويترك الأمر من بعده لمعاوية بغير منافس ينافسه عليها ، بعد مقتل الثلاثة الذين كانوا مرشحين لها عند أهل الحجاز وأهل الكوفة وأهل مصر . أما أهل الشام فهم في ولايته لا يعرفون أحداً غيره ينافسه باسمهم عند اختلاف المختلفين ، وليس ثمة مختلفون إذا نفذ القضاء في الأقطاب المقتولين .

وأما الإشارة على عثمان بإقامة أربعة آلاف من خيل الشام يحرسونه فهو تسليم للحجاز الى يدي معاوية في حياة الخليفة وبعد حياته ، فلا يقدر احد على بيعة فيه غير البيعة التي يرضاها ، ولا تقع هذه البيعة أصلا لمن يستجيب لها او لا يستجيب .

والخروج من المدينة الى الشام مع معاوية ينقل العاصمة الى دمشق ويجعل القول الفصل بعد موت الخليفة لصاحب القول الفصل فيها ، وما من احد قط ينتفع من العمل بهذه النصائح غير معاوية في جميع الحالات .

وقد نقل الرواة والمؤرخون عن كل ناصح انه أشار على عثمان بترك خطة من خططه في السياسة العامة ، ولم ينقل مثل ذلك عن معاوية في جليل من الأمر ولا يسير ، ولم يقف مثل موقفه غير مروان بن الحكم الذي لا يملك ان ينهى عثمان عن شيء ، لأنه كان سبب الشكوى وصاحب التبعات جميعاً في كل مأخذ من مآخذ الثوار على العهد كله والسياسة بجملتها . فإذا كان سكوت مروان عن النصح بالتغيير مفهوماً متوقعاً فمثل هذا السكوت من معاوية لا يفهم إلا على وجه واحد . وهو انه يعفي نفسه من تبعة النصيحة ليملي للخليفة فيما يرضاه ، ويعلم ان التغيير النافع يصيبه في مقدمة الولاة المحسوبين على العهد كله ، وقد كان يتعهد للخليفة بكفايته أمر الشام ويسأله ان يفرض على الولاة الآخرين مثل ذلك اليوم .. فإن لم يقدروا مثل قدرته كان حقاً له ان يخلفهم او ينفض يديه من العمل والمشورة ..

* * *

وأثبت ما ثبت من منفعة معاوية بتلك المطالب التي عرضها على الخليفة في شدته — مطلبه ان تكون له ولاية الدم بعد مقتله ، فإنه بمثابة ولاية العهد بإذن صاحب الأمر . إذ كان القصاص إنما يتولاه القائم بالشريعة حيث تقام حدود لدين ، ولم يكن عثمان ليخشى عليه القتل من فرد يعتدي عليه غيلة فيكون عمل ولي الدم ان يقتاده الى الحاكم القائم بالشريعة ، ولكنه خشي عليه القتل من جماعات ثائرة لا يتولى إدانتها والقصاص منها غير صاحب سلطان أقوى من سلطانها وسلطان من تؤيده وتطيعه على شرطها . فإذا كان معاوية قد طلب ولاية الدم بعد مقتل عثمان فقد طلب ولاية العهد وفارقه وهو يعلم انه مقتول .

وأوشك الخليفة ان يقتل ، فإذا نظرنا في ارجاء العالم الإسلامي يومئذ لم نجد أحداً أقدر على نجدته من معاوية ، لأنه الوالي المستقر في ولايته منذ عشرين سنة يقصي عنها كل من يعاديه ويبقي فيها كل من يواليه ، وغيره

من الولاة في ذلك العهد بين معزول او معتزل او مهدد في سلطانه كما هدد الخليفة في عاصمته ، ومن كان حول الخليفة من سروات المدينة فليس في وسعه ان ينصره بقوة أقوى من الدولة وحراسها وأشياعها ، فإذا جمح السفهاء جماحهم الذي يغلب الدولة على قوتها وهيبتها فحري ان لا يصده زاجر ولا ناصح ممن لا يملكون غير الزجر والنصيحة .

* * *

وأياً كان القول في السروات الآخرين فواجب معاوية واضح لا لبس فيه ، وليس مما يقيله من هذا الواجب ان الخليفة أبى عليه إقامة جيش دائم الى جواره يرزقه من بيت المال ، فإن عمل الجيش الدائم غير عمل النجدة العاجلة ، ولا يلام والي الشام على نجدة عاجلة بعد ان طلب الخليفة النجدة من الولاة ، ولو انه كان يلام على ذلك لكان اللوم أهون عليه من ترك الخليفة لقاتليه يسفكون دمه وهو معتذر بأمر صدر إليه في حال غير هذه الحال.

لقد كان ذوو الجرأة من المعارضين لعثمان يلقون معاوية بهذا اللوم كلما أخذهم باللوم لأنهم لم ينصروه ، ومن هؤلاء ابو الطفيل عامر بن واثلة الصحابي كما جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي :

قال له معاوية : ألست من قتلة عثمان ؟ قال ابو الطفيل : لا . ولكنني ممن حضره فلم ينصره .

قال : وما منعك من نصره ؟

قال : لم تنصره المهاجرون والانصار .

فقال معاوية : أما لقد كان حقه واجباً عليهم ان ينصروه .

فقال ابو الطفيل : فما منعك يا أمير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشام ؟..

فقال معاوية : أما طلبي بدمه نصرة له ؟

فضحك ابو الطفيل ثم قال : أنت وعثمان كما قال الشاعر :

لا ألفينك بعد الموت تندبني   وفي حياتي ما زودتني زادي

ووقعت الواقعة ومات الخليفة قتيلا وذهب معاوية يطالب بدمه وينكر على علي بيعته لأنه لا يسلمه قتلة عثمان، ممن يذكرهم إجمالاً أو يسميهم بأسمائهم ، وآل الأمر كله بعد حين الى معاوية يصنع بهؤلاء ما يشاء ، فلم يأخذ واحداً منه بجريرة مشهودة ولم يحاسب أحداً على جريرة مستورة تتطلب الإشهاد ، وكان يلقى الرجل منهم فلا يزيد على ان يسأله كما سأل أبا الطفيل : ألست من قتلة عثمان ؟ ثم يصرفه في أمان ، وقد يسكت عن سؤاله ويصرفه مزوداً بالعطاء .

* * *

وظهر من مبدأ الخصومة ان الغيرة على عثمان لم تكن تلك الغيرة اللاعجة التي تثير الثائرة وتضرم الحروب ، فإن معاوية قد حالف عمرو بن العاص وكافأه بولاية مصر ، وهي ولاية عزله منها عثمان وبكته بذكرها يوم صاح به بين الجموع المتذمرة يسأله التوبة والاستغفار ، وكاد الرواة يجمعون على كلمة نقلت عن لسان ابن العاص فحواها انه كان يلقى الأعرابي في البادية فيحرضه على عثمان ، فإن لم يصح عن ابن العاص انه قائل تلك الكلمة فموقفه من فتنة عثمان كموقف ذوي الرأي جميعاً ممن كان معاوية يحاسبهم على تركهم عثمان بغير نصير ، وكان في وسعهم كما قال ان ينصروه .

ولم يخف هذا الموقف الذي لا خفاء به على أبناء عثمان وبناته ، فإنهم كانوا يرون معاوية فيلقونه بالبكاء ويذكرون أباهم ليذكروه بدمه المطلول ووعده بالثأر له ثم سكوته عن الثأر بعد ان أمكنه منه ما لم يكن في إمكان أحد من المطلوبين به في رأيه .

قال ابن عبد ربه في العقد الفريد ، وقال غيره مع اختلاف قليل في

السياق : « قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة فدخل دار عثمان بن عفان فصاحت عائشة ابنة عثمان وبكت ونادت أباها ، فقال معاوية : يا ابنة أخي . ان الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً . وأظهرنا لهم حلماً تحته غضب ، وأظهروا لنا ذلا تحته حقد . ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه ، فإن نكثناهم نكثوا بنا ، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا ، ولأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من ان تكوني امرأة من عرض الناس » .

فالمطالبة بدم عثمان إنما كانت قضية قائمة حين كانت لازمة للتحريض على علي وبث الدعوة والتمكين لمعاوية ، فلما تمكن واستطاع ما لم يكن في وسع علي ان يفعله سكت عن الثأر وحديثه إلا ما كان من قبيل الحوار العقيم في المجالس ، وقبل من نفسه العذر ضعيفاً هزيلا ولم يكن يقبله قوياً معززاً بالواقع والبينة ممن لا لوم عليه .

* * *

ذلك أيسر ما يقال عن حقيقة الموقف من قضية عثمان ومطالبة معاوية بدمه ، وكل ما فعله معاوية من نصرة عثمان قبل مقتله وبعده فهو ثابت النفع لمعاوية غير ثابت النفع لعثمان ، ولا نجري وراء النيات وإن كان للمؤرخ حق في النظر إليها قد يحمد منه حيث لا يحمد من القضاء . فإن المؤرخ مطالب بتقويم أقدار الرجال وتفسير أسرار الحوادث والتعريف بالأخلاق والضمائر ، ولا ضرر من استقصائه لما وراء الظواهر والدعوات بل الضرر كل الضرر ان يأخذ بالظواهر والدعوات دون استقصاء .

وقضاء التاريخ في موقف معاوية من عثمان انه موقف يسقط كثيراً من التهم التي كان يكيلها لخصومه ، ويسقط كثيراً من الأعذار التي كان ينتحلها لنفسه ، ويوجب على المؤرخ ان ينفذ من وراء التهم والمعاذير الى تفسير واحد لوقائع الثورة التي ثارها معاوية باسم عثمان ، فإن أصدق البواعث لها أنها ثورة في طلب الملك أعوزتها الحجة فالتمستها من مقتل الخليفة الشهيد .

* * *

النّشأة والتكوين

ولد معاوية لأبوين عريقين قويين ، أخبارهما عندنا قليلة متقطعة ، ولكنها من نوع الأخبار التي تدلُّ باللمحة العارضة ، ويغني القليل منها عن الكثير في وصف الطبائع والأخلاق ، فنعرف منها أي رجل وأي امرأة كان أبواه من الرجال والنساء .

من أنباء الجاهلية عن النساء ان هند بنت عتبة أم معاوية كانت من نساء الأسر التي تعودت أن تستشير بناتها في أمر زواجهن ، وقد خطبها اثنان فقال لها أبوها : « اما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ، إن تابعته تابعك ، وان ملت عنه حط إليك ، تحكمين عليه في أهله وماله . وأما الآخر فموسع عليه منظور إليه في الحسب والنسب والرأي الأريب ، مدره أرومته وعز عشيرته ، شديد الغيرة لا ينام على ضعة ولا يرفع عصاه عن أهله .

فقالت : « يا أبت : الأول سيد مضياع للحرة ، فما عست ان تلين بعد إبائها وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت وخافها أهلها فأمنت ؟ ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها . فإن جاءت بولد أحمقت ، وإن انجبت فمن خطأ ما أنجبت . فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه علي بعد . وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العقيلة ، وإني لأخلاق مثل هذا لموافقة ، فزوجنيه » .

ونعلم من كلام هند هنا انها امرأة قوية الأنوثة يرضيها أن تكون زوجة لرجل جدير بالمهابة والطاعة ولا يرضيها ان يكون زوجها لعبة في يديها مطواعاً لأمرها .

ولم يرد في أخبار هند خبر غير هذا إلا كان فيه إنابة عن جانب من جوانب هذه الأنوثة القوية ، ربما بلغ في بعض أحوالها مبلغ الوحشية ولكنه على هذا يظل وحشية انثوية تشاهد من ضراوة الانسان كما تشاهد من ضراوة الحيوان .

كانت تلقب بآكلة الأكباد لأنها أكلت كبد حمزة عم النبي عليه السلام بعد ان قتل رجالها في وقعة بدر . وحزن المرأة على رجالها شديد يشتد مع اشتداد أنوثتها ، فإذا كانت في هذه المثلة وحشية بغيضة فهي وحشية انثوية، تشتفي بها المرأة إذا جمح بها حزنها وأذهلها عن صوابها ، وليس يشتفي به أقوياء الرجال .

* * *

ولم تنس هند حزنها على رجالها في حضرة النبي عليه السلام إذ جاءته مع غيرها من النساء يأخذ عليهن عهد البيعة .

قال صلوات الله عليه : تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن الى ان قال : ولا تزنين .

قالت : يا رسول الله .. هل تزني الحرة ؟

ثم قال : ولا تقتلن اولادكن ..

فقالت : أما الأولاد فقد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً ، فأنت بهم أعلم ..

وان سؤالها : « هل تزني الحرة ؟ » لمن تلك الاخبار التي قلنا انها تدل باللمحة العارضة ويغني القليل منها عن الكثير .

إنه سؤال يدل على الأنفة من الزنى لأنها – كرامة جاه – ولأن الزنى خلة من خلال الاماء والسبايا لا تعهد في الحرائر الكريمات ، فالأنفة من الضعة هنا أكبر من الإعراض عن الرذيلة ، وقصتها مع زوجها الأول الفاكه بن المغيرة تنبىء عن هذه الأنفة وعن هذه العزة ، فكانت اهانتها بتهمة الزنى لا تقبل عندها الغفران ولا تقنعها البراءة منها ، وان شهد بها من تقبل شهادته في الجاهلية ولا يطلبون على البراءة حجة أقوى عندهم من تلك الشهادة .

« اخرج الخرائطي في الهواتف عن حميد بن وهب قال :

كانت هند بنت عتبة بن ربيعة عند الفاكه بن المغيرة ، وكان من فتيان قريش ، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن . فخلا البيت ذات يوم ، فقام الفاكه وهند فيه ، ثم خرج الفاكه لبعض حاجاته وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه ، فلما رأى المرأة ولى هارباً ، فأبصره الفاكه فانتهى إليها فضربها برجله وقال : من هذا الذي كان عندك؟ قالت : ما رأيت احداً ولا انتبهت حتى انبهتني . فقال لها : الحقي بأهلك .. وتكلم فيها الناس . فخلا بها أبوها فقال لها : يا بنية ، ان الناس قد أكثروا فيك فانبئيني بذاك ، فإن يكن الرجل صادقاً دسست إليه من يقتله فتنقطع عنا المقالة ، وان يكن كاذباً حاكمته الى بعض كهان اليمن ، فحلفت له بما كانوا يحلفون به في الجاهلية انه كاذب عليها . فقال عتبة للفاكه : انك قد رميت ابنتي بأمر عظيم فحاكمني الى بعض كهان اليمن . فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم ، وخرج عتبة في جماعة من بني عبد مناف ومعهم هند ونسوة معها تأنس بهن ، فلما شارفوا البلاد تنكرت حال هند وتغير وجهها ، فقال لها أبوها : يا بنيّة ، إني قد أرى ما بك من تغير الحال ، وما ذاك إلا لمكروه عندك . قالت : لا والله يا أبتاه .. ما ذاك لمكروه . ولكني أعرف انكم تأتون بشراً يخطىء ويصيب ، فلا آمنه ان يسمني بسيماء تكون عليّ سبة في العرب، فقال لها : اني سوف اختبره لك قبل ان ينظر في أمرك ، فصفر بفرسه حتى

أدلى . ثم أدخل في إحلياه حبة من الحنطة ، وأوكأ عليها بسير . وصبحوا الكاهن فنحر لهم وأكرمهم ، فلما تغدوا قال له عتبة . إنا قد جئناك في أمر ، وقد خبأت لك خبيئاً أختبرك به فانظر ما هو ؟ قال : برة في كمرة . قال : أريد أبين من هذا . قال : حبة من بر في إحليل مهر ، فقال عتبة : صدقت .. انظر في أمر هؤلاء النسوة . فجعل يدنو من احداهن ويضرب كتفها ويقول : انهضي . حتى دنا من هند فضرب كتفها وقال : انهضي غير رسحاء ولا زانية ، ولتلدين ملكاً يقال له معاوية . فنظر إليها الفاكه فأخذ بيدها فنثرت يدها من يده وقالت : إليك .. والله لأحرصن ان يكون ذلك من غيرك ، فتزوجها أبو سفيان فجاءت بمعاوية » .

وقصة الكاهن هنا تسقط بحذافيرها ويبقى من خبر هند مع زوجها انه اتهمها فأنفت ان تعود إليه بعد ان أراد هو ان يعيدها ، لأنها تغضب لكرامتها ان تعيش مع رجل ينزلها دون منزلتها من حرائر النساء .

وينقل عنها في أسانيد متعددة انها بشرت بسيادة معاوية على قومه فقالت : ثكلته ان لم يسد إلا قومه .

* * *

قال الشافعي فيما رواه الطبري : « قال ابو هريرة : رأيت هنداً بمكة كأن وجهها فلقة قمر وخلفها من عجيزتها مثل الرجل الجالس ، ومعها صبي يلعب ، فمر رجل فنظر إليه فقال : إني لأرى غلاماً إن عاش ليسودن قومه . فقالت هند : إن لم يسد إلا قومه فأماته الله ... وقال محمد بن سعد : أنبأنا علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف ، قال : نظر أبو سفيان يوماً إلى معاوية وهو غلام فقال لهند : ان ابني هذا لعظيم الرأس ، وانه لخليق ان يسود قومه . فقالت هند : قومه فقط ؟ ثكلته ان لم يسد العرب قاطبة .. فلما ولي عمر بن يزيد بن أبي سفيان ما ولاه من أمر الشام خرج إليه معاوية فقال ابو سفيان لهند : كيف رأيت ؟ صار ابنك تابعاً لابني .. فقالت : ان

اضطربت خيل العرب فستعلم أين يقع ابنك .. »

وربما تناثرت الاخبار في كتب الأدب والتاريخ بغير هذه الأحاديث عن هند بنت عتبة زوج ابي سفيان وأم معاوية ، ولا حاجة إلى نقلها أو تلخيصها جميعاً لأنها تتفق في صفة هند بالوسامة والجسامة والاعتداد بالنفس والحسب ، وإنما توافق ما نسميه اليوم « بالشخصية » الملحوظة بين ذويها وقومها وليست من عــداد الزوجات والأمهات المنسيات في الغمار كما كان سائر النساء في بيئتها .

والقصة التي بدأنا بها هذا الفصل تبدي لنا أبا سفيان في حياته البيتية على صورة لم تذكر في قصة أخرى ، فنعلم انه سيد بيته كما كان سيد عشيرته « وانه شديد الغيرة لا يرفع عصاه عن أهله » .

وبقية القصة الأخرى تبدي لنا أبا سفيان في صورة من صور الحياة البيتية ، يقول من شاء انها حياة تقدير ويقول من شاء انها حياة تقتير .

فقد وصفته هند بأنه رجل « مسيك » وانها « كانت تصيب من ماله الهنة والهنة ولا تدري أكان ذلك حلالاً لها أم حراماً » .

وكان ابو سفيان شاهداً فقال : أما ما أصبت منه فيما مضى فأنت منه في حل ..

أما كلام عتبة في غير ما تقدم من صفات أبي سفيان فهو من المشهور المتردد في أنباء الجاهلية والاسلام ، فقد كان سيداً « موسعاً عليه منظوراً إليه في الحسب الحسيب والرأي الأريب ، مدره أرومته وعز عشيرته .. » كما قال عتبة في تخييره لبنته بين الرجلين .

فمعاوية إذن ينتمي إلى أبوين قويين في عشيرة قوية ، ولعله ورث من جانب أمه أكثر مما ورث من جانب أبيه ، فهو أشبه بها في تكوين جسمه ، وأشبه بهـا في وسامة ملامحه ، وأشبه بأصولها المعروفة في خلق الأناة

وبطء الغضب وإيثار المطاولة والمراوغة على المعارك والحروب.

فأبوها عتبة كان قائد قريش في وقعة بدر ، وكان رأيه الذي أصر عليه ولم يثنه عنه غير إجماع مخالفيه أن تنصرف قريش من غير قتال ، وان يتركوا كل رجل منهم ومن المسلمين يرجع إلى عشيرته ، وينظروا ما عسى ان يكون من شأنهم جميعاً بعد ذلك .

وقد يرى بعض الناظرين في الوراثة ان المرأة التي اشتهرت باسم « آكلة الأكباد » لم ترث الأناة وبطء الغضب من أبيها ، ولم تورث ابنها هذه الخليقة فيما أورثته من خلائقها .

وانه لرأي فيه نظر ، أو هو جدير بالنظر ، فإن هذه الضراوة ليست من تلك الاناة ..

ولكننا حريون ان نذكر ان « الغيظ » غير الغضب في دخيلته وفي مدّته وأجله ...

فقد يشتهر الانسان بأنه من أهل « الغيظ » ولا يشتهر بأنه من أهل الغضب ، وقد يزول الغضب لساعته ويبقى الغيظ سنوات في طوية صاحبه ..

هذا فيما ينطوي عليه الشعوران ..

وغير هذا ان لوعة المرأة على رجالها تخالف لوعة الرجل على أقرانه ، وان شفاء الغل بأكل كبد القتيل جماح أنثوي لا يضارعه جماح مثله في الرجال ... فلعلها في طول الاناة كأبيها أو كابنها ، ولكنها في مثل هذه اللوعة لا تشبه هذا ولا ذاك ولا يشبهها هذا ولا ذاك .

* * *

ويجوز مع هذا كله ان يكون معاوية وارثاً بعض الخلق من جده لأمه وغير وارث هذا الخلق منها ، لأن الوراثة قد تنقطع بين الجنسين فتكون الخليقة الموروثة في الجدود ولا تكون في الأمهات ..

أما الوراثة التي لا شك فيها فهي وراثة تكوينه الجسدي من أمه ، وهي وراثة طالما أشار إليها معاصروه وذكروا فيها اسم أمه ، ولم يذكروا اسم أبيه ، وقد ترهل من فرط الجسامة في كهولته ولم يكن لأحد من السفيانيين مثل هذا الترهل في الكهوله أو الشباب .

وعلاقة هذا التكوين بأخلاقه وأعماله تتضح من سياسته كلها في أيام الخلافة وأيام الولاية من قبلها ، فإذا صدق عليها وصف غالب عليها فوصف السياسة « الجالسة » التي تدبر وتدير وتترك المساعي والزحوف للعاملين المأمورين ..

كان معاوية « أبيض جميلاً طويلاً أجلح .. وقد أصابته لوقة في آخر عمره فكان يستر وجهه » .

وروى الطبري باسناده عن ابن عمرو أنه قال : ما رأيت أحداً أسود من معاوية . وسئل : ولا عمر ؟.. فقال : كان عمر خيراً منه وكان معاوية أسود منه ..

ونقل عن العوام بن حوشب انه كان يقول : « ما رأيت أحداً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية . قيل : ولا أبو بكر ؟ فقال : كان ابو بكر وعمر وعثمان خيراً منه وهو أسود » .

وهذا السؤدد ليس بالغريب من سمات رجل ورث السيادة من أبويه، وناط بها حقه وحق عشيرته في الرئاسة ، ودارت مساعيهم وظواهرهم وبواطنهم كلها على هذا السؤدد وعلى الغيرة عليه جيلاً بعد جيل .

وقدمنا ان هنداً كانت تعاف الزنى أنفة ولا تعافه ورعاً ونزاهة ، ولا نخطيء إذا فهمنا من بعض كلام ابي سفيان انه كان يتورع عن الكذب بين من يعلم كذبه لأنه يأبى لمروءته ان يصغره أحد لكذبه وإن لم يعلن ذلك بلسانه . وهكذا قال حين سئل في بلاد الروم عن النبي عليه السلام . فإنه سمع سائله يحذره من الكذب فأنف ان يكذب على مسمع من شهود سكوت ! ..

ومدار الطموح كله في نفس معاوية على هذه الخصلة التي جعلت تراث القوم كله رهيناً بمزاياهم الاجتماعية وجعلت هذه المزايا كلها رهينة بمظاهر الرئاسة والسيادة ...

ونحن نعرف ما تعلمه في صغره مما كان يعلمه في كبره . إذ لم تجر عادة الرواة والمؤرخين في الجاهلية بالتحدث عن الأطفال الصغار إلا ما جاء عرضاً في أثناء الكلام عن آبائهم وكبارهم ، ولا استثناء في ذلك لأبناء الأسر والبيوتات ومن ترشحهم أحسابهم لمكان الرئاسة بعد بلوغهم مبلغ الرجال . ولعله لم يكن إهمالاً من الرواة والمؤرخين واستصغاراً لأمر أولئك الأطفال ، وإنما كان سكوتاً منهم عن أمر معلوم على وجه التعميم يشترك فيه الناشئة من أبناء البيوتات جميعاً ولا ينفرد فيه أحد منهم بتعليم خاص لوظيفة خاصة .

وقد تعلم معاوية القراءة والكتابة والحساب ، وتتفق الأخبار على كتابته للنبي عليه السلام ولا تتفق على كتابته للوحي ولا على حفظه لآيات من القرآن تلقاها من النبي كما كان كتّاب الوحي يتلقون الآيات لساعتها ، والأرجح انه لم يكن معروفاً بحفظ شيء من كتابة الوحي في أيام جمع القرآن الكريم ، ولو علم عثمان — وهو من ذوي قرابته — ان عنده مرجعاً من المراجع يثوب إليه لرجع إليه كما رجع الى غيره .

وتعليم معاوية فيما عدا ذلك من سماع أشعار العرب وأمثالهم والالمام بأخبار أيامهم كتعليم غيره من علية قومه . إلاانه كان على شغف خاص بالاستماع الى سير الملوك ووقائع الأمم وأطوار الدول الغابرة ، وربما قرئت له هذه السير من كتب يونانية أو فارسية يقرأها لهمن يعرف لغاتها ، وقد سمع بعبيد بن شرية الجرهمي وعلم انه يعي تواريخ التبابعة والأكاسرة فأرسل يستقدمه من صنعاء وأمره بكتابة ما وعاه من تلك التواريخ ، فألف له كتاب الملوك وأخبار الماضين ، وهو أول كتاب يحدث عن فحواه.

* * *

وبلاغة معاوية في كلامه بلاغة سوية لا تعاو ولا تسف عن بلاغة أمثاله ونظرائه : يبين عما يقصد ويحتفل بالقول فينقاد له طيعه الميسر للعربي الفصيح من أبناء عصره، ومن رسائله المحفوظة رسالة الى زياد بن أبيه يتوعده فيها، ويدعوه الى الطاعة وأخذ البيعة ممن يليه ، ويقول منها : « ... إنك عبد كفرت النعمة واستدعيت النقمة ، ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر ، وان الشجرة لتضرب بعرقها وتتفرع من أصلها، لا أم لك، بل لا أب لك، قد هلكت وأهلكت وظننت أنك تخرج من قبضتي ولا ينالك سلطاني، هيهات!..ما كل ذي لب يصيب رأيه،ولا كل ذي رأي ينصح في مشورته.أمس عبد واليوم أمير ... خطة ما ارتقاها مثلك يا بن سمية . وإذا أتاك كتابي هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة وأسرع الاجابة، فإنك إن تفعل فدمك حقنت ونفسك تداركت ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش ونالتك بأهون سعي . وأقسم قسماً مبرراً ألا أوتي بك إلا في زمارة تمشي حافياً من أرض فارس إلى الشام ، حتى أقيمك في السوق وأبيعك عبداً وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه والسلام .. »

ومن ردوده المحفوظة رده على الامام عليٍّ حين دعاه الى البيعة يقول فيه : « ... لعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين ، ولعمري ما حجتك علي كحجتك على طلحة والزبير لأنهما بايعاك ولم أبايعك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل العراق ، لأن أهل العراق أطاعوك ولم يطعك أهل الشام .. وأما شرفك في الاسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعك من قريش فلست أدفعه .. »

* * *

وكان يتكلم مرتجلاً فيحسن الجواب في مقامه ، ومنه جوابه لعدي بن حاتم حين أتاه يدعوه الى بيعة علي ، فسمع منه دعوته على ملأ من صحبه ، واجابه قائلاً :

« . . كأنما جئت مهدداً ولم تأت مصلحاً . هيهات يا عدي ! كلا والله . اني لابن حرب ما يقعقع لي بالشنان . وانك والله لمن المجلبين على ابن عفان رضي الله عنه وإنك لمن قتلته وأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل به . هيهات يا عدي بن حاتم . لقد حلبت بالساعد الأشد . . »

وكان يحتفل بتحضير الكلام فيقول كما قال في صفين : « الحمد لله الذي دنا في علوه وعلا في دنوه ، وظهر وبطن ، وارتفع فوق كل ذي منظر . هو الأول والآخر . والظاهر والباطن . يقضي فيفصل ويقدر فيغفر ويفعل ما يشاء إذا أراد أمضاه وإذا عزم على شيء قضاه ، لا يؤامر أحداً فيما يملك ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون . والحمد لله رب العالمين على ما احببنا وكرهنا. وقد كان فيما قضاه الله ان ساقتنا المقادير الى هذه البقعة من الأرض ولفت بيننا وبين اهل العراق فنحن من الله بمنظر . وقد قال الله سبحانه وتعالى: ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد .. أنظروا يا أهل الشام ! انكم غداً تلقون أهل العراق فكونوا على إحدى خصال ثلاث : إما أن تكونوا طالبتم ما عند الله في قتال قوم بغوا عليكم فأقبلوا من بلادكم حتى نزلوا بيضتكم ، وإما أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيكم، وإما أن تكونوا قوماً تذبون عن نسائكم وأبنائكم . فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل ، واسألوا الله لنا ولكم النصر وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق، وهو خير الفاتحين » ..

* * *

وهذه خطبة ربما أضيف إليها بعض العبارات المستحدثة بعد عصرها ، كالمقابلة بين العلو والدنو وبين القضاء والقدر ، ولكنها فيما عدا ذلك لا

تستغرب من زمانها ولا موضعها ، وقد خطب معاوية لا شك في ذلك ، وما بقي من خطبه غير مستغرب من زمانه وموضعه فهو في طبقة هذه الخطبة وعلى نهجها . ومنه آخر كلامه قبل موته حيث قال :

« أيها الناس . ان من زرع قد استحصد . وقد طالت عليكم إمرتي حتى مللتكم ومللتموني ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقي ، وانه لا يأتيكم بعدي إلا من هو شر مني ، كما لم يأتكم قبلي إلا من كان خيراً مني ، وإن مَن أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه .. اللهم اني أحببت لقاءك فأحبب لقائي » ..

وتحفظ له الكلمات من جوامع الكلم ومن التعبير المونق الجميل ، ولكنها غير كثير . فمنها قوله : « ان السلطان يغضب غضب الصبي ويبطش بطش الأسد » . وقوله : « لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . أرخيها إذا شدوها وأشدها إذا أرخوها » .

ودخل عليه عمرو بن العاص فرآه يرقص إحدى بناته ، وكأنه لمح منه تعجباً لفعله فنظر إليه وهو يقول : هذه تفاحة القلب .

فلم يكن من المفحمين ولا من ذوي السجية في القول ، وقد سمع غير مرة يقول ما معناه : إنما شيبني حذر الخطأ في الجواب .

وندر بين معاصريه من النابهين من لم تنسب إليه أبيات من الشعر تصح أو لا تصح في النقل والرواية .

وقد نسب إلى الحسن بن علي رضي الله عنه انه عيره أبياتاً كتب بها الى أبيه يحذره من الاسلام ، وهي :

يا صخر لا تسلمن يوماً فتفضحنا ... بعد الذين ببدر أصبحوا مزقاً
خالي وعمي وعم الأم ثالثهم ... وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا
لا تركنن إلى أمر تكلفنا ... والراقصات به في أمرنا الخرقا
فالموت أهون من قول العداة لقد ... حاد ابن حرب عن العزى إذا فرقا

والحسن أحق أن يتحرى ما يحفظه وما ينسبه ، وما كان معاوية على مبعدة من أبيه فيكتب إليه ، ولا كان من دأب معاوية أن ينصح أباه وقد عاش إلى آخر أيامه يشاوره ولا يبرم أمراً دونه ، وهي – بعد – أبيات ليست من نفس الشعر في صدر الاسلام ولكنها تشبه المقطوعات التي فاضت بها الكتب الموضوعة في حرب صفين وتكاد تلقي في روع القارىء انهم في ذلك العهد لم يفوهوا بسطر من النثر إلا ومعه سطر منظوم .

* * *

ومن قبيل هذه الأبيات أبياته التي قيل إنه بعث بها إلى ابن الزبير مع رسالة يدعوه فيها إلى مبايعة يزيد بولاية العهد ، وهي :

رأيت كرام الناس ان كف عنهمو ... بحلم رأوا فضلاً لمن قد تحلما
ولا سيما ان كان عفواً بقـــدرة ... فذلك أحرى أن يجل ويعظما
ولست بذي لؤم فتعـــذر بالـــذي ... أتاه من الأخلاق ما كان ألأما
ولكن غشا لست تعرف غيـــره ... وقد غش قبل اليوم ابليس آدما
فمـــا غش إلا نفســـه في فعالـــه ... فأصبح ملعوناً وقد كان مكرماً
وإني لأخشى أن أنالـــك بالـــذي ... أردت فيخزي الله من كان أظلما

فليس هذا الشعر من نسق عصره ولا من عادات رجاله في مقام كهذا المقام ، ولكن الأمر الذي يعهد فيهم مع روايتهم للشعر والمثل انهم يستشهدون بالأبيات في موضعها ويتأسون بها في موقعها ، وكذلك قيل ان معاوية ذكر أبيات ابن الأطنابة ساعة فراره من المعركة ليلة الهرير فعاوده الثبات وجعل يترنم بها ويسمعه من حوله يعيد منها :

وقولي كلما جشأت وجـــــاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي

وقيل انه تمثل شعراً وهو يجود بنفسه ، فقال :

وتجلدي للشامتين أريهمـــــو ... اني لريب الدهر لا أتضعضع

ثم قال :

وإذا المنية أنشبت أظفارهـــــا ألفيت كل تميمة لا تنفع

وقيل غير ذلك مما لا داعي للشك فيه إذا كان محصوله كله انه كان يحفظ الأشعار والأمثال ويستشهد بها في مواطنها على سنة نظرائه من العرب أجمعين ..

ولنا – بعد – ان نفهم انه نشأ في الجاهلية نشأة أبناء الأسر وأصحاب الرئاسة الموروثة ، وتعلم ما يتعلمونه وتدرب على دربتهم التي ألفوها . إلا انه كان إلى تربية التجارة والتدبير أدنى منه إلى تربية الفروسية والنضال ، فلم يؤثر عنه من فعال الفروسية بعد بلوغه مبلغ الرجال فعل يميزه بدربة خاصة على فنونها المعهودة في زمنه كالمسايفة وإصابة الهدف والسبق على متون الخيل والصمود للأقران في المبارزة ، ولعل تربيته للفروسية لم تزد على القدر الضروري الذي يعاب الجهل به ولا يبرز إلى مكان التنويه والتمييز .

* * *

وهذا القسط من التربية كاف لسروات الجاهلية من العاملين في مثل عمله وعمل أبيه ، وهو تدبير التجارة القرشية وحمل اللواء لحمايتها والاستعانة بمن يصلحون لحراستها ويذبون عنها بالسلاح إذا وجب الذب عنها ..

أما بعد اسلام فهذه التربية ، أو هذه النشأة تقترن بسؤال آخر عن نصيبه من فقه الدين والثقافة الاسلامية ، ويكاد يدعو الأمر هنا إلى سؤال غير هذا السؤال في أمر الدين من أساسه ، فإن أناساً من الغلاة قد شككوا في إسلامه ، بل جزموا بإسلامه على دخلة ومداهنة ، فهل كان لهذا الشك من مسوغ في عمله أو كلامه بعد إسلامه مع أبيه في عام الفتح كما هو معلوم ؟ ..

لقد تأخر إسلامه كما تأخر إسلام أبيه ، فأسلما معاً في عام الفتح وهو في نحو الثالثة والعشرين ، وليس هذا التأخر بموجب للشك في عقيدته ، لأنه يحدث في كل دين وفي كل دعوة ، وينقسم الناس في جميع الدعوات

الدينية والفكرية إلى مبادرين ومترددين ومتلبثين متلكئين لا يستجيبون لها إلا مع آخر مستجيب ، ولا يندر بعد ذلك ان يكون المتأخر أصدق إيماناً وأثبت عقيدة من المبادر المتقدم ، وليس من الجائز ان تتخذ العـــادة المطردة في الاستجابة للدعوات حجة على نقيضها . فما كانت الدعوات قط إلا هكذا أو لا تكون ..

* * *

ومعاوية بعد إسلامه لم تثبت عليه كلمة ولا فعلة تنقض تصديقه بدينه ورعايته لفروضه وشعائره : كان يصلي ويصوم ويزكي ويحج ويقرأ القرآن ويستمع إليه ، وكانت كل لفظة فاه بها وأحصيت عليه في مرض الوفاة تدل على الإيمان بلقاء الله وعلى الإيمان بالجزاء في العالم الآخر ، ومما تواتر من أحاديث الملازمين له في ساعاته الأخيرة انه كان يحتفظ بقلامة من ظفر رسول الله وشعرات من لحيته الشريفة أخذها من وضوئه وما زال محتفظاً بها حتى أوصى بأن تدفن في كفنه ، وكل أولئك قد يسري إليه الظن ممن تغالبه الظنون ، إلا المعيشة بين الأهل والبنين حيث ينطلق المرء على سجيته وتبدر الفلتات على الرغم من طول الحذر والمراوغة ممن لهم باطن غير ظاهرهم في العقيدة الدينية ، ولا نتصور أن رجلاً له باطن وظاهر في أمر العقيدة ينشأ من بيته مؤمنان تقيان كخالد ومعاوية الثاني حفيديه .. فإن إخفاء البواطن عشرات السنين حيث يعيش المرء على رسلته أمر يفوق طاقة الانسان ..

قلنا في عقيدة صاحبه عمرو بن العاص انه « مسلم لا شك في إسلامه ولا شك في طبعه ولا شك في اختلاف الطبائع بين المعتقدين جميعاً في كل دين من الأديان ورأي من الآراء ، فلما فتحت له الحيطة باب التفكير في الاسلام أقبل عليه وود لو يغنمه بريئاً من عقابيل الجاهلية ، لأنه نفض يديه منها وأيقن بضلالها :

« قال وقد اعتزم لقاء النبي عليه السلام ما فحواه : فلقيت خالداً فقلت :

ما رأيك ! قد استقام المنسم والرجل نبي . فقال خالد : وأنا أريده . قلت : وأنا معك .. وكنت أسن منهما فقدمتهما لأستدبر أمرهما . فبايعا على ان يغفر لهما ما تقدم من ذنوبهما ، فأضمرت ان أبايعه على ان يغفر لي ما تقدم وما تأخر . فلما بسط يده قبضت يدي ، فقال عليه السلام : مالك يا عمرو ! قلت : أبايعك يا رسول الله على ان يغفر لي ما تقدم من ذنبي . قال : ان الاسلام والهجرة يجبان ما كان قبلهما . فبايعته ، ووالله ما ملأت عيني منه ولا راجعته بما أريد حتى لحق ربه حياء مني » .

وقلنا قبل ذلك : « ومن سيرة عمرو بعد إسلامه نعلم انه كان يتعبد ويتصدق ويستغفر من ذنوب وقع فيها ويقيم الصلاة ويسرد الصوم ويعيش بين ذويه مسلماً وكلهم مسلمون » .

* * *

ويقال في معاوية كل ما يقال في عمرو مع اختلاف الطبائع وبقاء لوازمه أو ملازماته في أعمق أعماق الطوية على غير وعي من صاحبها حيث يستوحيها مع العقيدة في أعماله الظاهرة وسرائره الخفية .

ومن حيل الطبع في العلاقة بينه وبين ربه انها لا تخرج عن وحي سليقته في العلاقة بينه وبين الناس .

كان حريصاً على ان يبرىء ذمته ويلقي تبعته بما وسعه من حيلة وحول ، وهكذا كان اجتهاده في نفي التبعة عنه بين يدي الله .

أنظر مثلاً إلى حيلة طبعه حيث أراد ان يبرأ إلى الله من أخذ البيعة بعده لابنه يزيد . قال في إحدى خطبه « اللهم ان كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه وإن كنت إنما حملني حب الوالد لولده وانه ليس لما صنعت به أهلاً فاقبضه قبل ان يبلغ ذلك » .

وكأننا به يسائل نفسه بعد ذلك : « ماذا بقي من التبعة في عقابيل هذه

البيعة؟ غاية ما أرعى به حق الله في أمر ولدي الذي أحبه ان أسأل له الموت ان كان غير أهل لولاية العهد بعدي. فإن كان الله قد أبقاه ولم يقبضه فقد صنعت ما يستطيعه والد يظن بينه وبين نفسه أنه قدّم حب ولده على رعاية حق الله » .

* * *

ومن حيل الطبع في خطبته الأخيرة قوله : « ان من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . اللهم اني احببت لقاءك فأحبب لقائي » .

حجة مقبولة عند الله . مخلوق يحب ان يلقى خالقه فالله يحب ان يلقاه .

واختلاف طبائع الناس في الدين على غير وعي منهم لا معنى له إلا انهم يتدينون على حسب طبائعهم ، وليس معناه انهم يناقضون الدين ولا ينطوون في بواطنهم عليه .

ومن تحصيل الحاصل ان يقال ان معاوية من فقه دينه ما لا بد ان يعلمه رجل كتب للنبي وحضر مجالسه وحضر عهده كله وعهد خليفته من بعده ، ومرت به الأقضية التي فصل فيها ولاة الأمر على مسمع منه ، وراجع الفقهاء من الصحابة فيما أشكل عليه بعد ذلك من أشباه تلك الأقضية ، فهو على نشأته الجاهلية والاسلامية لم يقصر في معارف دينه ودنياه عن الطليعة بين نظرائه من السادة الأمويين والقرشيين .

* * *

الأعمال

منذ الفتح الإسلامي لم يعزل وال واحد من ولاة الشام لشكاية الرعية منه ، ولم يتول العراق وال واحد لم يعزل للشكايات الكثيرة التي كانت تتقاطر على دار الخلافة من رعيته .

ويزول العجب بعض الشيء إذا نحن قسمنا القطرين قسمين آخرين : قسم هو حصة الدولة البيزنطية ، وقسم هو حصة الدولة الفارسية .

فالشام التي كانت حصة البيزنطية كانت طويلة العهد بالنظم الإدارية والحكومية ، وكانت فيها مدن من عواصم الدولة الكبرى وعليها رؤساء من المميزين في الدولة بشارات السياسة والدين ، وقد فتحها المسلمون على شروطهم المحدودة للذميين المعاهدين ، لأن أهلها كانوا جميعاً من أهل الكتاب ، فلما استقر الأمر للدولة الاسلامية فيها بعد زوال الدولة البيزنطية لم تكن من جانب الرعية مقاومة إجماعية ، ولم يكن على شروط المعاهدة خلاف بين الحكام والمحكومين .

وكانت الشام كذلك أقرب إلى الاستقرار لأن حدودها جميعاً كانت في بلاد الدولة الاسلامية ، إلا الجانب الذي يلي تخوم الدولة البيزنطية ، ولم يكن منه خطر كبير بعد صدمة الهزيمة الكبرى التي مني بها هرقل وودع بعدها تلك البلاد وداع الأبد ، وكان كل خطر من هذا الجانب — عظم أو

صغر — تتلقاه الدولة الاسلامية بجيوشها البرية وأساطيلها البحرية في جماتها ، فلم تكن الشام منفردة بالدفاع إذا هجم الروم براً او بحراً ، بل كانت الولايات من أفريقية ومصر ومن الجزيرة في بعض الأحايين تتجمع لدفع الهجمات لاتقائها قبل وقوعها .

وكانت سياسة عمر في تمكين الفتوح وتحصينها أنفع السياسات للشام خاصة ، إذ كانت خطته كما جاء في فتوح البلدان للبلاذري أنهم « كلما فتحوا مدينة ظاهرة او عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها من المسلمين ، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الامداد » ..

فانتظمت معاقل الدفاع عن الشام على شواطئها وعند أطرافها ، وأحيطت من كل جانب بالمدافعين عنها من جند الدولة الاسلامية في الشرق والشمال والجنوب .

* * *

ولا نحذرن شيئاً كما ينبغي ان نحذر الاشاعات التي نسميها بالاشاعات التاريخية ، ومن قبيلها إشاعة الضعف عن عثمان بن عفان رضوان الله عليه ، فقد جنت هذه الاشاعة على النقد التاريخي حتى خيل إلى الناس أنه لم يعمل عملاً قط اتسم بالقوة او خلا من الضعف ، وهو إسراف في الرأي كإسراف جميع الاشاعات من قبيلها ، لأن سياسة عثمان البحرية كانت أقوى السياسات وكان فيها قدوة لمن بعده ولمن لم يكن مقتدياً بأحد قبله ، ونحسبه عرف خطر الشواطىء والموانىء من عمله في التجارة ، فأصلح ميناء جدة في الحجاز ولم يغفل لحظة عن الشواطىء المفتوحة في أفريقية ومصر والشام ، ولا يقال عن حملة واحدة من حملات البحر أنه كان مسوقاً إليها برأي غيره ، فإنه — على ما هو معلوم من سبق معاوية إلى الاستئذان في فتح قبرس أيام الفاروق — لم يأت العزم الأكبر في هذه الحملة إلا من جانب عثمان ، إذ كتب إلى معاوية يستوثق من جده في فتح هذه الجزيرة وتأمين الملاحة حولها فأمره كما جاء في

البلاذري بأن يركب البحر إليها ومعه امرأته « فإن ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذوناً لك وإلا فلا » .

كانت هذه حال الشام يوم تولى معاوية إقليماً منها على عهد الفاروق ثم تولاها جميعاً على عهد عثمان .

وبخلاف ذلك كانت حالة العراق من جميع الوجوه . فلم تكن فيها معاهدات ذمية تدين الرعية ، ولم تكن حدودها الشرقية والشمالية آمنة كل الأمان في زمن من الأزمان ، فكانت — من البصرة إلى أرمينية إلى خراسان — عرضه للحملات والفتن في كل آونة ، وكانت الدولة الاسلامية لا تفرغ لها كل قوتها كما أفرغتها للدفاع عن الشام أمام الدولة البيزنطية ، لأن دولة فارس ذهبت بذهاب ملكها فلم يحسب لها المسلمون حساب القوة المتجمعة ، وسلكوا فيها مسلك التأهب للمفاجآت الطارئة من هنا وهناك، وليس فيها ما يشغل بال دولة في مواجهة دولة أخرى .

* * *

وعلى هذا كان العراق ، أو كانت الجزيرة كلها ، أطرافاً مهملة في أيام الدولة الفارسية، فلم يكن لها نظام من نظم الادارة المتناسقة يسير عليه الحكم كما سارت الحكومة الادارية في الشام ، ولم تتضح علاقات الحاكمين بالمحكومين في أنحائها كما اتضحت مع المعاهدين الذميين .

وأعضل من ذلك كله بين مشكلاتها ان الفتح الاسلامي قد جاءها بمجتمع مختلف منقول إليها بحذافيره من سادته وقادته إلى سوقته ومواليه ..

فقد انتقل إليها رهط من القادة وذوي الرئاسة ليقيموا فيها ويزرعوا الأرض ويتجروا بين أنحائها ، وعاش إلى جانبهم ألوف من الجند المقيمين والجند العاملين ، وكلهم لهم أعطية من بيت المال يعطاها من عمل في الفتوح لأولى ومن يعمل في الغزوات التالية ، وكان تقسيم الأعطية مشكلة من

مشكلات هذا المجتمع المنقول . فمن بقي عاملاً في الغزوات يحسب له حقاً يستكثره على سابقيه من المجاهدين المقيمين ، وأعطية بيت المال تأتي كلها من المدينة او تصرف كلها بتقديرها ، ويلام الولاة في نظر الجند لأنهم لا يفرقون في الاحصاء والتقدير بين الفريقين ، ويلامون لأنهم يعيشون بين أقربائهم وعشيرتهم ويتعرضون لشبهات المحاباة بالحق او بالباطل ، ولا تنقطع الشكاية من الولاية إلا ريثما يعزل واحد منهم ويتلوه خلف له يأخذ في العمل فيأخذه القوم كرة أخرى بالتهم والشبهات .

وقد ثقلت أعباء هذه الشكايات على كاهل الفاروق وهو في هيبته وعزمه واقتداره على فض المنازعات فلم يكن يرى في جوانب المسجد مغموماً إلا علم أصحابه أنه مشغول بشكاية من شكايات الرعية او الجند في العراق ...

* * *

وبدأ معاوية أعماله العامة في الشام وهي بتلك الحالة من الاستقرار بالقياس إلى جميع الولايات الاسلامية الأخرى ، وجاء عمله فيها تدريجاً من معاونته لأخيه يزيد إلى قيامه على ناحية من الشام خلفاً له إلى قيامه على الشام كلها في أيام عثمان ، فكان كل عمل من هذه الأعمال بمثابة « فترة تمرين » للعمل الذي يليه ويزيد عليه في السعة والتكليف ، وكانت الأعمال « الحربية » او أعمال التحصين يتولاها من حوله رجال من صناديد الحرب كعبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن خالد ، فلم يقم قط بقيادة حربية مستقلة وصل بها إلى نتيجة حاسمة او ناجحة .

ثم نشبت الفتنة الوبيلة في خلافة عثمان وهو بمعزل عنها ، وقتل عثمان فاتخذ من مقتله ذريعة للخروج على الامام علي وإنكار بيعته ، وأسرف كل الاسراف في التذرع بهذه الذريعة قبل استقلاله بالخلافة فما كان له من مسوغ يتعلل به غير مقتل عثمان يردده في كل حديث وفي كل خطاب وفي كل جواب ، وينكر عليه بعض صحبه ان يمنع علياً وأصحابه الماء في وقعة صفين ،

فيجد المعذرة له في صنيعه أنه يمنعهم الماء لأنهم منعوا عثمان الماء وهـــو محصور .

واستند إلى آية من القرآن الكريم فسرها برأيه ليقنع أنصاره أنه على حق وأنه منصور ، وهي قوله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً » .

وعلى قدر اللهج بهذه الفاجعة قبل استقلاله بالخلافة سكت عنها وأغفلها بعد ذلك فلم يعد إليها قط إلا ليعتذر إلى قرابة الخليفة المقتول من سكوته وإغفاله ..

وينبغي هنا ان نذكر ان معاوية لم يكن بحاجة إلى قدرة خارقة لإثارة الشام باسم الخليفة المقتول . فإن عثمان كانت له مصاهرة في بني كلب أكبر قبائل البادية في الشام ، وكانت زوجه نائلة بنت القرافصة تصف مصرعه في رسائلها وتبعث بقميصه المخضب بالدم وأصابعه المبتورة فترفع على المنبر حيث يراها شهود المسجد في كل صلاة ، وكان جند الشام بعيدين عن معمعة الفتنة لم يسمعوا صوتاً من أصوات الثورة على الخليفة المقتول ولا حجة من حجج السخط على حكمه ، وكانوا بين معسكرين أقربهما إليهم وإلى عملهم معسكرهم في ولاية معاوية ، ومنهم طائفة كان يستبقيها لديه ولا يأذن لأحد منها ان يبتعد من جواره برهة إلى معمعة الفتنة مخافة عليه من الاستماع لحجج المخالفين فيداخله الشك في دعوته ودعواه ...

* * *

ولم ينته معاوية في نزاعه لعلي إلى موقف فصل بالحرب او بالسياسة .

ففي وقعة صفين حلت الهزيمة بجيشه ليلة الهرير وأيقن بسوء العاقبة إذا استمرت مدة القتال ، فأشار عليه عمرو بن العاص بحيلة المصاحف فرفعوها في اليوم التالي ونادوا بالتحكيم إلى كتاب الله ، فاختلف جند الامام واضطر

في جنده المختلف إلى قبول التحكيم .

ومن المؤرخين من يبالغ في خطر التحكيم ويجعل له شأناً في عواقب النزاع لم يكن له ولا كان من المعقول أن يكون له بحال .

فهذا التحكيم لم يكن ليبدل تلك العواقب على أية نتيجة من النتائج انتهى إليها ، سواء اتفق الحكمان على خلع علي ومعاوية معاً او اتفقا على خلع أحدهما دون الآخر ، او لم يتفقا على شيء .

ففي كل حالة من هذه الحالات كانت العواقب صائرة الى ما صارت إليه بلا اختلاف ، وكان المعسكران يمضيان في طريقهما الذي مضيا فيه فلا يسلم أحدهما لصاحبه برأي يمليه عليه الحكمان متفقين او غير متفقين .

إنما وقعت الواقعة الحاسمة بمقتل علي رضوان الله عليه دون صاحبيه ، ثم آلت خلافته الى ابنه الحسن في معسكر مضطرب بين الخوارج والشيعة والموالي والأتباع الذين لا يعملون عمل الأتباع طائعين ولا يعملون عمل الرؤساء مقتدرين مضطلعين ، وورث الحسن معسكراً لم يطل عليه عهد الولاء لأحد قط ليناضل به معسكراً لم يقع فيه خلاف قط منذ الفتح الأول ، إلا الخلاف الذي كان يريده معاوية ويعمل له حذراً من مغبة الاتفاق عليه ..

* * *

ولما امتنع طلب البيعة لغير معاوية بويع معاوية وحده او بقي معارضوه متفرقين لا يلوذ فريق منهم برئيس يرشح نفسه للخلافة او ينهض لها بحجة. فترك هؤلاء المتفرقين في العراق يضرب بعضهم بعضاً او في الحجاز لا يعملون شيئاً غير الترقب والانتظار .

ولا شك ان معاوية قد استفاد في إمارته منذ اللحظة الأولى من كل نظام مفيد في حكومة الشام ، فأبقى ما لا غنى عنه من نظم الادارة وتوسع فيه وزاد عليه ، وأبطل ما لا بد أن يبطل مع الدولة المتبدلة والدين الجديد ...

وقد وكل الادارة المالية الى القائمين بها في أيام الدولة البيزنطية وعلى رأسهم سرجون بن منصور ثم ابنه منصور بن سرجون ، ووكل الادارة الكتابية الى عبدالله بن أوس الغساني من وجوه الغساسنة أصحاب الملك القديم في الشام ، ونظم البريد وتوسع فيه للاطلاع على أخبار الأقاليم وإبلاغ الأخبار إليها على انتظام وترتيب ، وأنشأ ديوان الخاتم لمراجعة الحساب بين العاصمة والولايات ، وعزز بناء الاسطول بتجديد مصانع السفن في عكاء ، واستجلب من فارس كل عامل نافع في مسائل الخراج والاحصاء ، وعني بتسجيل المواليد والوفيات لتقسيم الأعطية والأرزاق ، وجعل للجند عملاً يصرفهم عن البطالة والشقاق فداول بينهم وبين مواعيد الصوائف والشواتي وهي مواعيد الحراسة والغزو في بلاد الروم من تخوم الشام الى أرباض القسطنطينية ، وكان يحرك الأساطيل من حين الى حين لتهديد القسطنطينية وسواحل الدولة البيزنطية ليشغلها بالدفاع عن التفكير في الهجوم .

وبرزت حزامة معاوية في تدبير شؤون ملكه مع ما اشتهر به ساسة العصر — في إقبال الدولة والدنيا — من الكلف بمناعم العيش والتهافت على المتع والملذات ، بل مع اشتهار معاوية نفسه بمثل هذا الكلف في بيته وفيما يشهده الناس من أبهته وزينته ، فكان عظيم العناية بأطايب الخوان كثير الزهو بالثياب الفاخرة والحلية الغالية ، وكان يأكل ويشرب في آنية الذهب والصحاف المرصعة بالجوهر ، ويأنس للسماع واللهو ولا يكتم طربه بين خاصة صحبه « لأن الكريم طروب » .

* * *

إلا أنه كان على هذا كله لا يضيع عملاً في سبيل لذة ولا ينكص عن مشقة تواجهه من أجل متعة تغريه ، وربما أمر بإيقاظه ساعات من الليل لمراجعة الرسائل والشكايات من أطراف الدولة القاصية ، وربما جلس للمظالم نهاراً فاستمع الى الجليل والدقيق منها ونظر في بعضها وأحال بعضها الى من يناط

بها ويحاسبه على النظر فيها ، وكانت له قدرة على ضبط هواه حين يريد ، وقدرة على تصريف وقته كما يشاء ..

ولما برزت منه هذه القدرة للشاهد والغائب أتيحت له حجة لطلب الخلافة أغنته عن اللجاجة بمظلمة عثمان ، فكان يخطب فيقول : « إنني إن لم أكن خيركم فأنا أنفعكم لأنفسكم » وكان يقول للحسن ولغيره إنه لو علم ان أحداً أضبط لشؤون الملك منه وأقدر على جمع الرعية حوله لما نازعه هذه الأمانة الثقيلة على عاتقه .

وإذا كان الأمر أمر قدرة وعجز فلا جدال في وصف معاوية بالقدرة ونفي العجز عنه لأنه من الصفات التي لا ترد على بال عارفيه او خصومه .

بيد إن القدرة — كما قلنا في الصفحات الأولى من هذه الرسالة — هي أحوج الصفات الى التقدير ، لأنها لا تعرف إلا بمقدارها ولا تدل على شيء إن لم تكن قدرة على هذا الشيء او ذاك .

وتقدير هذه القدرة التي امتاز بها رأس الدولة الأموية فيما نرى أنها كانت الحزم غاية الحزم في الشوط القصير ، ولكنها تخلو من الحزم او تنحرف الى نقيضه في الشوط الطويل والأمد البعيد .

إن معاوية لم يضيع عملا حاضراً في سبيل متعة حاضرة ، ولكنه أوشك أن يضيع الغد كله في سبيل اليوم الذي يشهده او في سبيل العمر الذي يحياه...

ألجأته الحاجة الى إنفاق المال في أبهة الملك والاغداق على الأعوان والخدام الى إرهاق الرعية بالضرائب ومخالفة العهود مع أصحاب الجزية فكان من الولاة من يطيعه ومنهم من يجيبه معترضاً كما فعل وردان في مصر حين أمره بذلك فأجابه سائلا : « كيف أزيد عليهم وفي عهدهم ألا يزاد عليهم ؟ ».

* * *

ومن الولاة الذين أنكروا أن تستصفى الأموال لبيت مال الخليفة والي

خراسان الذي كتب إليه زياد يأمره ألا يقسم في الناس ذهباً ولا فضة ، فكتب الوالي الى زياد : « بلغني ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين وإني وجدت كتاب الله تعالى كتاب أمير المؤمنين . وإنه والله لو ان السماء والأرض كانتا رتقاً على عبد ثم اتقى الله جعل له مخرجاً والسلام » .

إلا ان الولاة الذين أطاعوا وبالغوا في الطاعة أكثر من الذين ذكروا بالمخالفة ، وكلما اشتدت الحاجة الى المال اشتد الطلب على الرعية ، وعمد بيت المال الى احتجاز حصة الزكاة من الأعطية لحسبانها في الهبات والهدايا ، وفتح هذا الباب على مصراعيه فتوسع فيه كل خليفة بعد معاوية حتى جعلوا يحاسبون الناس على « التخمين » ويحصون عليهم ثمراتهم قبل أن تنبتها الأرض فيحسبوها عليهم بثمن دون ثمنها ويأخذوا منها ما يصل الى أيديهم بالثمن الذي اختاروه ، وتمادى هذا العسف الى عهد عمر بن عبد العزيز الذي استنكره وكتب الى بعض ولاته يقول . « إن عمالك يخرصون الثمار عن أهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذين يتبايعون به فيأخذونها قرفاً على قيمتهم التي قوموها » ... ولم ينته هذا العسف حتى كانت نهايته بداية الخراب وإفلاس الدولة في ختام عهدها فكان إفلاسها هذا — على حين حاجتها الى مضاعفة المورد — سبباً من أسباب التعجيل بزوالها .

وكأنما كان غرام معاوية بأبهة الملك زهواً في قرارة النفس لا يبالي أن يباهي به من صادفه ولو كان من الزهاد المنكرين للترف والسرف وخيلاء الثراء والفخر بالبناء والكساء ، فلما بنى قصر الخضراء بلغ من إعجابه بالبناء ان سأل أبا ذر داعية الزهد والكفاف من الرزق : كيف ترى هذا ؟ فسمع منه جواباً كان خليقاً أن يترقبه لو لم يكن لزهوه بما ابتناه لا يصدق ان أحداً يراه بغير ما رآه . قال أبو ذر إمام « الاشتراكيين » في ذلك الزمان : « إن كنت بنيته من مال الله فأنت من الخائنين ، وإن كنت بنيته من مالك فأنت من المسرفين » ..

* * *

وأشأم من هذه السياسة المالية سياسة الأمن او سياسة ضبط الأمور كما كان يسميها .

فليس أضل ضلالا ولا أجهل جهلا من المؤرخين الذين سموا سنة « إحدى وأربعين هجرية » بعام الجماعة لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها ، لأن صدر الاسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة ، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها .

إذا كانت خطة معاوية في الأمن والتأمين قائمة على فكرة واحدة وهي التفرقة بين الجميع ، وسيان بعد ذلك سكنوا عن رضى منهم بالحال أو سكنوا عجزاً منهم عن السخط والاعتراض ، وكان سكونهم سكون أيام او كان سكون الأعمار والأعوام .

ولم يقصر هذه الخطة على ضرب خصومه بعضهم ببعض كما فعل في العراق حيث كان يضرب الشيعة بالخوارج ويضرب الخوارج بالشيعة ويفرق بين العشائر العربية بمداولة التقريب والاقصاء لعشيرة منهم بعد عشيرة . بل كان يفعل ذلك في صميم البيت الأموي من غير السفيانيين ، فكان يأمر سعيد بن العاص بهدم بيت مروان كما تقدم ، ثم يأمر مروان بهدم بيت سعيد ، ويغري أبناء عثمان بالمروانيين كما يغري المروانيين بأبناء عثمان ..

وفرق بين اليمانية والقيسية ، او بين جنوب الجزيرة وشمالها ، فأعطى حسان بن مالك سيد القحطانيين حكمه في صدارة المجالس لليمانية ومضاعفة الأجر لهم او للألفين الذين اصطفاهم من حزبه ورهطه ، وجعل لكل هؤلاء الألفين حق التوريث من بعده لأقرب الناس إليه في رواتبه وأرزاقه ووجاهته وقيادته ، واشترط رؤساء اليمانية عليه ألا يعقد في أمر او يحله إلا بعد مشورة منهم يقدمهم فيها على ولاته ووزرائه .

* * *

وفرق كذلك بين العرب والموالي وأوشك ان ينكل بالموالي ليقصيهم عن مناصب الدولة وعن الاقامة في عواصمها ، لأنه كان يعلم ان العرب يلوذون برؤسائهم ولا رؤساء للموالي يلوذون بهم في نقمة او مظلمة . وانفتح للموالي بذلك باب اللياذ بأصحاب المذاهب والدعوات لأنهم رؤوسهم دون الرؤوس وقادتهم دون القادة ، فلم يكد داعية من الدعاة يجهر بمذهب معقول او غير معقول إلا ألفى الى جانبه جموعاً من الموالي تصغي إليه ، ووافق ذلك ان الخوارج من صميم العرب كانوا يدعون الى مذهب في الخلافة يوافق الموالي في كل أمة ، لأنه مذهب لا يحصر الخلافة في النسب ولا في قريش ولا يرى لها شرطاً غير التقوى والصلاح ، فتفرق الموالي بين الخوارج والشيعة ، ونصروا هؤلاء تارة وهؤلاء تارة أخرى لأنهم جميعاً يحاربون بني أمية .

واتبع هذه الخطة — خطة التفرقة — بين أهل الشام الذين تمهدت له ولايتهم من قبل الاسلام ، فاستخلص لنفسه فرقة منهم لا تخرج من الشام ولا تلتقي بأحد من دعاة العراق او الحجاز او مصر او أفريقية ، ثم نقل الى الشام طوائف شتى من غير أهلها ، فنقل إليها طوائف الزط والسيابجة من البصرة ، ونقل الى الأردن وصور طوائف من الفرس والموالي ، ونقل الى انطاكية اساورة الموانيء بالعراق ، وخلط العرب بالعجم وهؤلاء بسلالة الشاميين في كل بقعة من بقاع البلاد التي عرفت من قديم باسم البلاد السورية..

ولم يستطع ان يستخلص قبيلة بني كلب كلها لأن منهم أصهار عثمان وبيت مروان ، فاستخلص منهم أخوال يزيد وأصبحوا بعد ذلك فريقين : فريق يدعو الى خالد بن يزيد ، وفريق يدعو الى مروان .

* * *

وواضح من هذه التفرقة أنه كان يكف يده عن البطش والنكاية في معاملتهم جميعاً على اختلاف النسب والمقام ، لأنه كان يغري بعضهم ببعض

فيستغني بالوقيعة بينهم عن الايقاع بهم ، ولكنه على هذا كان يؤيد سياسة الايقاع مهما يكن من قسوتها وغلظتها كما أيدها أقسى الولاة وأغلظهم في زمانه وبعد زمانه ، وكان يختار لها من يعلم أنه يفرط فيها ولا يقتصد في شرورها وموبقاتها ، ولا يبالي أن يأخذ البريء بذنب الأثيم ولا أن ينكل بالقريب قصاصاً من البعيد ، وكذلك فعل واليه زياد في البصرة حيث أعلن « شريعة » حكمه فقال في خطبته التي افتتح بها حكمه : « .. إني لأقسم بالله لآخذن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : أنج سعيد فقد هلك سعد .. إياي ودلج الليل فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم ، وإياي ودعوى الجاهلية ، فإني لا أجد أحداً ادعى بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وأحدثنا لكل ذنب عقوبة . فمن غرق قوماً غرقناه ومن حرق على قوم حرقناه ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم لساني ويدي ، وإياي لا يظهر لأحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ..

« وقد كانت بيني وبين أقوام إحن فجعلت ذلك دبر اذني وتحت قدمي . فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته . إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل لم أناظره » .

الى ان قال واعداً بعد هذا الوعيد : « واعلموا إنني مهما قصرت عنه فلست بمقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً رزقاً ولا عطاء ، ولا مجمراً لكم بعثاً . فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذي إليه تأوون ، ومتى تصلحوا يصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم » .

ثم عاد الى النذير والوعيد فاختتم خطابه قائلا : « .. إن لي فيكم لصرعي كثيرة فليحذر كل امرىء منكم ان يكون من صرعاي » .

* * *

وقد أمر صاحب شرطته ان يخرج بعد صلاة العشاء وانقضاء هزيع من الليل ، ثم لا يرى إنساناً إلا قتله ، وجيء إليه يوماً بأعرابي لم يقتله صاحب الشرطة لاشتباه أمره عليه، فسأله زياد : أما سمعت النداء ؟.. قال الاعرابي : لا والله،قدمت بحاوبة لي وغشيني الليل وأقمت لأصبح ولا علم لي بما كان من الأمير ..

قال : أظنك والله صادقاً. ولكن في قتلك صلاح الأمة ، وأمر به فضربت عنقه ..

ومثل هذا الحكم لا يغتفر ولو كان من معاذيره « ضبط » الأمور وتأمين الناس ، لأنه يؤمنهم بخوف أشد عليهم من خوف العدوان ، ولكنه على هذا لم يصلح للضبط والتأمين إلا فترة لم تطل ولا يزال سواء منها على الأمة ان تنقضي في عدوان أهل البغي او في نكال السلطان بمثل هذا النكال، ثم انقضت هذه الفترة فنجمت نواجم الشر ولم تنشب في تلك الأنحاء ناشبة من الفتنة إلا كان لها جرثومة من تلك السياسة التي تفسد الامور في زمانها وفيما بعد زمانها .

وكان الناس من حين الى حين يهربون من هذه الشدة ويتحرمون بجوار العاصمة فيجيرهم معاوية ولا يكف يد واليه عن غيرهم ، وكتب إليه زياد مرة : إن هذا فساد لعملي كلما طلبت رجلا لجأ إليك وتحرم بك .

فكتب إليه معاوية : « إنه لا ينبغي أن نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون أنا للرأفة والرحمة فيستريح الناس بيننا .. » .

على أن زياداً تحرج أشد الحرج في قضية حجر بن عدي وأرسله الى معاوية فلم يتحرج معاوية من قتله ، ولم يذكر الناس لزياد من جرائر قسوته في حكمه ما ذكروه من جرائر هذه السقطة لمعاوية ..

وساءت العقبى في سياسة التفرقة كما ساءت العقبى من سياسة القسوة ، فلم تنجم في الدولة ناجمة فتنة إلا كانت جرثومتها في هـــذه السياسة ، وكان حزم معاوية وكانت قدرته في كل هذه الفتن حزماً لا بد له من تعقيب وكانت قدرته في أعماله جميعاً قدرة لا بد لها من تقدير.

وجماع الصدق في هذا التقدير إنها كانت قدرة على الشوط القصير والأمد القريب ، ولم تكن قط قدرة على الشوط الطويل والأمد البعيد .

واستقر الملك لمعاوية على قلق دخيل الى ان أدركته الوفاة سنة ستين للهجرة ، وبطل نصفه قبل وفاته كأنه ضرب من الشلل ، وأصابته لوقة وسقطت أسنانه جميعاً ، كأنها من أدواء التخمة التي تعجل الى الكبد والأسنان ، ويبدو أثرها في مرض الجلد واللثة ، وكان يخلط في وفاته أحياناً ولكنه كان يصحو ساعة بعد ساعة حاضر الذهن صحيح اللسان ، فدعا بصاحب شرطته الضحاك بن قيس الفهري وبمسلم بن عقبة صاحب الأفاعيل المشهورة في حرب أهل المدينة ، وقال لهما في أشهر الأسانيد : « بلغا يزيد وصيتي : انظر أهل الحجاز فإنهم أهلك فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب عنك ، وانظر أهل العراق فإن سألوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ، فإن عزل عامل أحب إلي من أن يشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا لسانك وعيبتك ، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم ، وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة : الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر » .

ويقال انه ألقى هذه الوصية الى يزيد فقال : « يا بني . إني قد كفيتك

الرحلة والترحال ووطأت لك الأشياء وذللت لك الأعداء وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، واني لا أتخوف ان ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن علي ، وعبدالله ابن عمر ، وعبدالله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر . فأما عبد الله ابن عمر فرجل قد وقذته العبادة فإذا لم يبق أحد غيره بايعك ، وأما الحسين ابن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه . فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً . وأما ابن أبي بكر فرجل ان رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم . ليس همه إلا في النساء واللهو ، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير » .

وشبيه ان تكون هذه الوصية في معناها آخر ما قاله وخلاصة ما خرج له من تجارب دنياه ، فإنها سياسته التي كان يعيدها كما بدأها لو أنه عاد ليبتدىء بها من جديد في أيام يزيد ، معرفة بالرجال وقدرة على التدبير في الشوط القصير ، وإحكام العقدة بآلتها في حينها ، وبغير نظر الى آلتها بعد ذلك الحين ، ومن ذلك اختياره لابلاغ الوصية أسوأ من يعين عليها مع الزمن : مسلم بن عقبة والضحاك بن قيس ... ومن ذاك مدافعته الفتن بالمجاراة والمداراة ، فيوصي خليفته بعزل وال في كل يوم ولا يوصيه بالنظر فيما وراء ذلك من سخط على الحاكم وعجز عن إرضاء المحكوم ... وصية رجل قدير ... قدير غاية القدرة في الشوط القصير .

* * *

في الميزان

حق الأمانة على المؤرخ في هذه المرحلة من التاريخ الاسلامي أن يراجع بينه وبين ضميره طائفة من الحقائق البديهية ، قبل أن يستقيم له الميزان الصادق لتقدير الرجال بأقدارهم وتقويم المناقب والمآثر بقيمتها .

ومن هذه الحقائق البديهية ان الأموال التي بذلها معاوية للمأجورين من حوله لم تبذل لتعريف الناس بحسناته وسيئاته كما يعرفها من لم يؤجر بمال ولم يتصل معه بسبب .

ومن هذه الحقائق البديهية ان سلطان معاوية يدخل في الحساب حيث يؤوب الباحث الى ذلك الزمن ليفرق بين ما يقال عن صاحب السلطان وما يقال عن رجل يحاربه السلطان في سمعته وذكراه .

ومن الحقائق البديهية تواطؤ الزمن على إقرار ما قيل وتكرر وطال وقوعه في الأسماع حتى لتكاد تنفر من تغييره لو عرض لها فيه شيء من التغيير ، وحتى لتكاد تعجز عن النفاذ الى الحقيقة لو رغبت في ذلك التغيير لسبب من الأسباب ، وقلما تعرض هذه الأسباب لمن لا يعنيهم تمحيص ما يقال في الساعة الراهنة فضلا عما يقال ويعاد منه مئات السنين .

ومن الحقائق البديهية ان المحاباة تأتي بتوافق الطبائع كما تأتي بالغرض والرشوة ، فهلا يسهل على الانسان نقد صفة يعلم انه متصف بمثلها ، واستنكار

وسيلة يعلم انه لا يستنكرها ولا يأبى النجاح إذا توسّل بها إليه .

ومن الحقائق البديهية ان المحاباة تأتي من جهات لم تخطر للمنتفع بمحاباتها على بال ..

فالدولة الأموية في الأندلس أنشأت للشرق الاسلامي تاريخاً لم يكتبه مؤرخوه ولا يكتبونه على هذا النحو لو أنهم كتبوه ، وجاءت تلك الدولة الأندلسية بمؤرخين من الأعلام ينصبون الميزان راجحاً لكل سيرة أموية لا يقصدونها بالمحاباة ولكنهم لا يستطيعون ان يقصدوها بالنقد والملامة لأنهم مصروفون بهواهم عن هذا الطريق .

من هؤلاء أناس في طبقة ابن خلدون ، يضع معاوية في ميزانه فيكاد يحسبه بقية الخلفاء الراشدين ويتحمل المعاذير له في إسناد ولاية العهد إليه مع فسوقه وخلل سياسته وكراهة الناس لحكمه حتى من أبناء قومه .

ولا يهولن قارىء التاريخ اسم ابن خلدون فيذكره وينسى الحقائق البديهية التي لا تكلفه أكثر من نظرة مستقيمة الى الواقع الميسر لكل ناظر في تواريخ الخلفاء الراشدين وتاريخ معاوية .

فما في وسع ابن خلدون ان يخرج من هذه التواريخ بمشابهة بعيدة تجمع بين معاوية والصديق والفاروق وعثمان وعلي في مسلك من مسالك الدين أو الدنيا وفي حالة من أحوال الحكم أو المعيشة ، وإنه لفي وسع كل قارىء ان يجد المشابهات الكثيرة التي تجمع بين معاوية ومروان وعبد الملك وسليمان وهشام ، فلا يفترقون فيها إلا بالدرجة والمقدار ، أو بالتقديم والتأخير . وإذا كان هذا شأن ابن خلدون ، فقل ما شئت في سائر المؤرخين وسائر المستمعين للتواريخ ، من مشارقة شهدوا زمان الدولة ومشارقة لم يشهدوه ، ومن مغاربة عاشوا في ظل تلك الدولة ، وتعلقت أقدارهم بأقدارها ، وأيقنوا انهم لا ينقصون منها شيئاً ثم يستطيعون تعويضه من الأندلس بما يغنيهم عنه ، وما زال العهد بالمنبت عن أرومته ان يلصق بها أشد من لصوق القائمين عليها.

إذا روجعت تلك الحقائق في ميزان التاريخ فقد ذهب من الكفة كل ما زيد عليها في إبان الدولة وكل ما عاق بها من تواطؤ الزمن وتكرار العادة وكسل السامع من مشقة المراجعة وانتزاع الفكر مما ألفه ولم يألف سواه .. لقد تمهدت لمعاوية أسباب لم تتمهد في عصره لأحد غيره من قبل الاسلام ، وفي صدر الاسلام الى أيام عثمان .

ولم يكن مفرطاً أو عاجزاً فلم يضيع ما تمهد له بعجلة لا تؤمن عاقبتها ، أو بتقصير عن الفرصة في أوانها ، وكان له دهاء وحلم ، وكان فيه طموح واعتداد بالنفس وسمة من سمات الرئاسة ..

وكان له من كل أولئك قدره الذي أعانه على مقصده كما أعين بغيره .

فكان في يديه من المال والجند وسلطان الولاية ما لم يكن في يدي أحد من نظرائه ومنازعيه ، ولولا ذلك لما أفاده دهاؤه مع أعوانه من الدهاة ، لأنه لم يغلبهم بعقل غالب ولم يصرفهم عن مقصدهم الى مقصده ، بل خدمهم وخدموه ، ولو لم يكن عنده ما يطلبونه لخدموا غيره أو نازعوه على سواء ، وربما نازعه بعضهم على رجحان .

وكان له حلم أوشك ان يحرمه عزة الرئاسة ، ولكنه حلم من لا يغضب وليس بحلم من يغضب ويملك عنان غضبه ، فسيان ان يركب غضبه بعنان أو بغير عنان ، فإنه في غنى عن قوة الساعد مع مطية لا تثور ثورة الجماح في كل حين .

وكان له طموح الى السيادة ، ولكنه طموح الإلفة والعادة ، ورثه مع جاه الأسرة ولم يخلق فيه بتلك الخليقة « الحيوية » التي يطبع عليها العصاميون ، فكأنما هي جزء من التركيب وليست وجاهة من وجاهات البيت العريق يطلبها كما يطلب الميراث .

وإذا وزنت قدرة معاوية بميزان النجاح حصل من نجاحه في كفـــة

الميزان حاصل قليل يهون شأنه مع أثقال الكفة الأخرى من الجهود والشواغل والهموم ..

فقد أراد الملك له ولبنيه ، ولم يرده لبني أمية أجمعين ، لأنه فرق بينهم ما اجتمع وأغرى أناساً منهم بأناس ولم يعمل عمله إلا ليتركه من بعــده لعشيرته من بني سفيان . فلم يخلفه من ذريته غير يزيد ، وذهب يزيد في عنفوانه بداء الجنب فلم يخلفه أحد من ولديه .

وتبعة معاوية في عاقبة ولي عهده الذي خرق الخوارق من أجله أعظم جداً من مسعاته في توريثه الملك وتوريث أبنائه من بعده . فقد جنت عليه تلك الخليقة الأموية فلم يعرف من البر بالأبناء غير الاملاء لهم في النعمة والمتاع ، وما كان يزيد ليقصد في مطامعه ومناعمه وهو ينظر الى قدوة سبقته الى تلك المطاعم والمناعم ، وسبقته الى تدبيرها له كلما استعصت عليه ، ولو لم تكن من الشهوات التي يقضيها الآباء للأبناء .

إن ذات الجنب مرض من أمراض الكبد ، وأمراض الكبد قضاء حتم على المنهوم بطعامه والمفرط في شهواته ، وقد صنع معاوية ليزيد هذا وصنع له ذاك : صنع له عدة النعمة والمتعة ووضع له عدة الملك والسلطان ، وما يحسب له من هذا دون ما يحسب من ذاك ..

وخرج معاوية من الملك بالأيام التي قضاها في نعمته وثرائه ، ولا نقول في صولته وعزه ، فقد كاد يذل لكل ذي بيعة منشودة ذلاً لم يصبر من بايعوه على مثله ، ولو وزن ما احتمله في سبيل بيعتهم وما احتملوه في سبيل طاعته لكان ما احتمله هو أثقل الكفتين . أما تبعته العامة في أمر الملك فأمر جسيم لا تعدله جسامة عمل في عصره ، لأنه نكص بالملك خطوات ، وكان في ميسوره أن يتقدم به خطوات تزيد عليها ، مع ما بين الخطوة الناكصة والخطوة المتقدمة من بون بعيد ..

لم يكن في ميسوره ان يديم على الدولة خلافة كخــلافة الصديق أو

الفاروق ، ولكن كان في ميسوره ان يجنبها الكسروية والهرقلية وان يجعل للخلافة أثراً باقياً في ولاية الأمر ، ان لم يصمد على سنة الراشدين لم يصمد على سنة الملك العقيم . ولو انه أنشأ هذا الملك في الدولة الاسلامية والناس لا يعرفون غيره لخف نصيبه من اللوم وهان حق التاريخ وحق العالم الاسلامي ، والعالم الانساني ، عليه ..

غير ان الناس عرفوا في زمانه فارقاً شاسعاً بين ولي الأمر الذي يتخذ الحكم خدمة للرعية وأمانة للخلق والخالق ، وشريعة لمرضاة الناس بالحق والانصاف ، وبين الحكم الذي يحاط بالأبهة ويجري على سنة المساومة ويملي لصاحبه في البذخ والمتعة ويجعله قدوة لمن يقتدون به في السرف والمغالاة بصغائر الحياة . كان الرجل من النصحاء يدخل عليه كأنما يبكته فيسلم عليه بالملك ولا يسلم عليه بالخلافة ..

وتتابع في أيامه الأولى من يقول له : السلام عليكم ايها الملك . فكان ينكر الاسم ولا ينكر السمة ، الى ان تنازعه الخيار بين ترك السمة أو التمادي فيها ، فتمادى فيها وقال جهرة لمن حوله : نعم أنا أول الملوك !

وتبعته فيما شجر بعده من خلاف توازن تبعته في هذا الخروج بولاية الأمر من ورع الخلافة الى أبهة الهرقلية والكسروية .

فما كان من المعقول ، ولا من طبائع الأمور ، ان تبذر في الأرض كل تلك البذور من جراثيم التفرقة ثم تسلم الدولة من عقابيلها أو تظل التفرقة سنداً لصاحب الأمر مئات السنين كما كانت لمعاوية سنوات معدودات .

تبعات يحسب حسابها العسير ان كان للتاريخ جدوى يحرص عليها ، وكان لشرف الذكر وزن يقام .

وليست جدوى التاريخ هنا كلمة مدح تنقص أو تزاد ، وإنما جدواه ان يصان الذكر عن الابتذال وهو أشرف ما تملكه الانسانية من تشريف

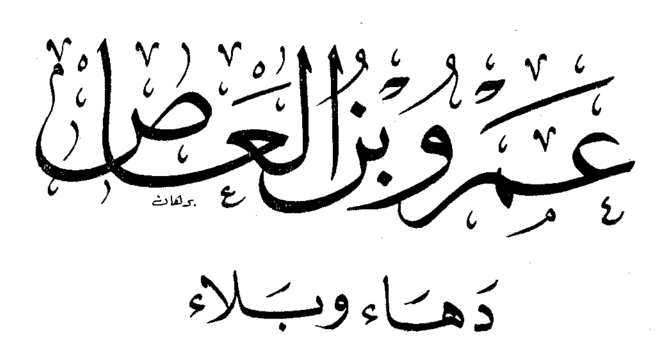
أبنائها في الحياة وبعد الممات ، فلا يباح عرض الانسانية لكل من يملك طعاماً يملأ به البطون أو مالا يملأ به الجيوب ، ولا يختلط الحق بالباطل ثم تذهب الحيلة فيه وتثوب العقول والضمائر الى التسليم ، ويتساوى الجوهر والطلاء في ميزان الخلود والبقاء . ومعاوية في هذا الميزان ، لا يخرج منه مغبوناً ولا غابناً للحقيقة من بعده ، وإنما تحسب له قدرته بتقدير ، ويعطى من أثر قدرته ، ومن أثر نيته ، ما هو به حقيق .

وقد عمل بتلك القدرة ما أفاده وأفاد قومه وأفاد الأمم التي تولاها فيما تستفيده من قرار الدولة و « ضبط » الأمور . وذلك حق القدرة الذي لا حاجة معه الى اللجاجة في أمر النية ، فلو ان أحداً أراد ان يمحو من سجله كل عمله لنفسه ولبنيه لما بقي في ذلك السجل عمل واحد تطول فيه اللجاجات حول النيات .. ونعود فنقول انها قدرة لا ترسل على اطلاقها بغير تقدير ، وان تقديرها الحق انها غاية القدرة الى الشوط القصير .

لقد كان قوياً لا مشاحة في وصفه بالقوة على مثالها ، ومثالها انك تصوغها في خيالك على صورة من الصور ، فتحضرك صورة الجمل الصبور ولا تحضرك صورة الأسد الهصور .

* * *

عباس محمود العقاد



دهاء وبلاء



نشأة عمرو بن العاص

نشأ عمرو بن العاص في بطن من البطون القرشية المشهورة، وهم بنو سَهْم .

والبطون القرشية كثيرة ، تتفاوت في الضعف والقوة، والقلة والكثرة . ولكن البطون التي انتهى إليها الشرف — كما قال النسّابة الكلْبي — عشرة، اتصل شرفها في الجاهلية والإسلام ، وهم : هاشم ، وأمية ، ونوفل، وعبد الدار ، وأسد ، وتَيْم ، ومخزوم ، وعديّ ، وجُمَح، وسهم .

والظاهر من بعض أنباء « سهم » أنهم كانوا على كثرة في العدد ، وإن لم يُحْسَبُوا من ذوي الصَّدارة في قريش ، إلى جانب بني هاشم أو بني أمية أو بني عبد الدار .

فلما انقسمت قريش إلى حزبين ، في أحدهما بنو عبد مناف ، وفي الآخر بنو عبد الدار عُبِّيء بنو سهم لبني عبد مناف ، وهم أكبر هؤلاء الأحلاف ، كأنهم ندٌّ لهم كثرةً وقوة في الصلح والخلاف .

وتفاخر بنو سهم وبنو عبد مناف مرة ، فقال كل حيٍّ منهما : « نحن أكثر سيّداً ، وأعظم رجالا ، وأكثر قائداً » ... فكَثَر بنو عبد مناف بني سهم بعدد الأحياء ، ثم تكاثروا بالأمــوات ، فجعلوا يشيرون إلى القبر فيقولون : أفيكم مثل هذا ؟ أفيكم مثل هذا ؟ . ويذكر كل منهم أنه أكثر

مالا وأعزّ نفراً ، كما جاء في القرآن الكريم ، ونزلت في ذلك الآيـــة : « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِر » على إحدى الروايات .

فعمرو بن العاص ينتمي – على هذا – إلى بطن يُعدّ من أكبر بطون قريش ، ويطمح إلى مساواة بني عبد مناف بوفرة الرجال والأموال وكثرة السادة والقادة ، ويوصّل شرفه في الجاهلية بشرفه في الإسلام .

أما حصتهم من شرف الجاهلية فقد كانت إليهم الحكومة ، والأموال المُحْجَرَة التي سَمّوْها لآلهتهم ، وهي أموال حبسوها على الأرباب والمعابد وخيراتها ، كأنها الأوقاف في العصور الإسلامية ، وكأن الرؤساء من بني سهم طائفة من نُظّار الأوقاف يُعرفون بحسناتهم أو سيئاتهم التي اتصف بها نظار الأوقاف في جميع الأزمان .

ولا نعلم على التحقيق ما هي تلك الحكومة التي وُكلت إلى بني سهم في الجاهلية ، كما وكلت الشورى والرِّفادة والسِّقاية وغيرها من مهام الحجاز إلى البطون القرشية الأخرى .

ولكننا نستطيع أن نقيسها إلى بعض ما نُدِب له ابن العاص في الإسلام ، على حكم العادة الموروثة التي قلما تتغير في مأثورات القبائل المحفوظة ويؤخذ من هذه المهامّ أن المرجع في حكومة بني سهم إلى اللباقة في تناول الأمور ، والتلطّف في حسم الشّقاق ، والتغلب على حرَج النفوس في الشئون الدقيقة التي تتصل بالمصاهرة ومعاذير الراغبين فيها أو الراغبين عنها من الرجال والنساء ، كما تتصل بالإقناع فيما يمسّ المروءة والعقيدة ، أو يرد الإقناع فيه على النفس من طريق التهوين والتسويغ على سنن الدهاة من الساسة بين سائر الأمم وفي سائر العصور .

وجماع ذلك أن الحَكَم على هذه الطريقة هو الرجل « الأريب » الذي يعرف « من أين تؤكل الكتف » ويترفّق بعلاج النفوس وتناول الأمور .

خطب سلمان الفارسي إلى عمر بن الخطاب ، فأجمع على تزويجه ، فشق

ذلك على عبدالله بن عمر ، وشكاه إلى عمرو بن العاص ... فها هنا مسألة دقيقة بين أب وابنه في تزويج رجل لا تحسن الإساءة إليه بعد وعده ، ولا بد للحَكَم فيها من رفق وإربة ، حتى يرضى الأب والابن والخطيب وما منهم من يسخط على زميليه . قال عمرو لعبدالله بن عمر : عليّ أن أرده عنك راضياً . وأتى سلمان فضرب بين كتفيه بيده ، ثم قال : هنيئاً لك أبا عبدالله! هذا أمير المؤمنين يتواضع بتزويجك ..! فالتفت سلمان مُغضَباً وقال: أبي يتواضع ؟.. والله لا تزوجتها أبداً .

وخطب عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت أبي بكر إلى أختها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فقالت له:الأمر إليك ! ثم سألت أختها فأبته وهي تقول : لا حاجة بي إليه . فزجرتها قائلة : أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت : نعم ، إنه خشن العيش ، شديد على النساء ..!

وهنا مسألة دقيقة من قبيل ما تقدم : أمير المؤمنين ترفضه أم المؤمنين ، ولا ينبغي أن يُواجَه بالرفض ، وإن كان لا سبيل إلى إكراه أم كلثوم على قبوله .

فلجأت السيدة عائشة إلى عمرو بن العاص ليحتال في الأمر برفقه ودهائه ، فجاء عمرَ وفاجأه قائلا : بلغني خبر أعيذك بالله منه ، قال : ما هو ؟ قال : خطبتَ أم كلثوم بنت أبي بكر ؟ قال : نعم ، أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عنّي ؟ قال : لا واحدة . ولكنها حَدَثَة نشأت تحت كَنَف أمير المؤمنين في لين ورفق ، وفيك غلاظة ، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها ؟ كنت قد خلفتِ أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك !

ولا شك أن عمر قد فطن إلى ما وراء هذه الوساطة . وفهم أن ابن العاص لا يقدم عليها من عند نفسه ، فسأله كأنه يستطلع ما وراءه : كيف بعائشة وقد كلمتُها ؟

قال : انا لك بها ، وأدلك على خير منها : أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب ، تعلّق منها بنسب رسول الله .

فهي إذن حكومة الإرضاء والتناول الرفيق لكل شائك محرج من العلاقات التي يصعب الحكم فيها بغير هوادة وحُنْكة ..!

وشبيه بهذا – وإن لم يكن من شؤون المصاهرة – إيفاد عمرو إلى نجاشي الحبشة لإقناعه بتسليم من قِبَله من المسلمين إلى مشركي قريش ، وهو أمر فيه من المساس بأصول الضيافة ما تصعب المفاتحة فيه فضلا عن الإقناع به ، إلا أن تكون لباقة ورفقُ مدخلٍ وقدرةٌ على التخلص السريع ..

وشبيه بهذا أيضاً إيفاد عمرو إلى أخوال أبيه في عهد الإسلام لإقناعهم بالخروج من دينهم والدخول في الدين الجديد .

ويتفق مع هذا وذاك أن تكون الوساطة على النحو المعهود بين طُلاب الوساطات في جميع قضايا الخلاف ، فيتخاصم الرجلان على ضيعة أو حق مغصوب ، ويرجعان إلى حكومة الحَكَم المختار لعلمهما بقدرته على فضّ الخصومات واستلال الأضغان .

ومن ذلك حكومة عمرو بين طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام حين اختلفا على وادٍ يدّعيان ملكه بالمدينة . فقال عمرو لهما :

« أنتما في فضلكما وقديم سوابقكما ونعمة الله عليكما تختلفان ! لقد سمعتما من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما سمعت ، وحضرتما من قوله مثل ما حضرت – فيمن اقتطع شبراً من أرض أخيه بغير حق أنه يطوقه من سبع أرضين ! والحَكَم أحوج إلى العدل من المحكوم عليه ، وذلك لأن الحكم إذا جار رُزِىء دينَه ، والمحكوم عليه إذا جير عليه رزىء عرَضَ الدنيا . إن شئتما فأدليا بحجتكما ، وإن شئتما فأصلحا ذات بينكما » .

فاصطلحا وأعطى كل واحد منهما صاحبه الرضا .

فهذه حكومة معهودة في قضية من القضايا الشائعة التي لا تمس المحرجات النفسية ولا تشوك اليدين في تناول الدعوى بين الطرفين ، وما هما بعدُ بخصمين . ولكننا نتأمل هذه الحكومة أيضاً فنلمح فيها حب الاستعانة باللباقة والكَيْس قبل الاستعانة بالعدل والإنصاف ، كأنما كان الخصمان يريدان الوفاق بغير غضاضة على أحد منهما ، فاختارا الحَكَم الذي يمنع هذه الغضاضة وييسر لهما سبيل الوفاق .

وقد جاء في الأثر أن النبي — عليه السلام — أمر عمراً بالفصل بين رجلين اختصما إليه ، فكأنه عُرف بهذه المقدرة وبقيت له شهرتها في حضرة النبي عليه السلام .

* * *

وليست حكومة القهر والإكراه على أية حال بالحكومة التي كان العرب يرتضونها ويسعون إليها . فهم اذا لجأوا إلى الحَكَم لم يلجأوا إليه لأنهم ينتظرون منه أن يقهرهم على سماع حكمه ، ويُلزمهم أن يتبعوه في قوله وفعله ، بل لعلهم يتعمدون أن يختاروا لحكومتهم رجلا لا يُخشى ولا يُهاب ، ولا يقع العار على من يخضع له بالخوف والإذعان . فإذا أطاعوه قيل إنهم يطيعون كلمتهم وينزلون باختيارهم على الحكم الذي ارتضوه ، ولم يقل قائل إنهم مطيعون عن ذلة ، ومستمعون لأمره مسوقون إلى استماعه .

فالحَكَم الذي يختارونه — على هذا — إنما يكون على خصلة من خصلتين : رجل يأنسون إلى عدله وإنصافه ، أو رجل يأنسون إلى لباقته وحيلته وحسن بصره بمواقع الأهواء وذرائع الإرضاء . والثاني ببني سهم أشبه وأمثل ، لأنهم لم يشتهروا بالعدل والإنصاف ، بل كان من زعمائهم من يمْطل أصحاب الحقوق ، ويلوي الضعيف بديونه ويلجّ في ذلك لحاجة حملت السادة من قريش على التّحالف فيما بينهم ليَردُّنّ المظالم ويأخذُنّ للضعيف حقه حيث كان ، وسموه حلف الفُضول المشهور ، وهو الحلف الذي قال

عنه النبي عليه السلام : « لقد شهدتُ في دار عبدالله بن جُدعانَ حِلفَ الفُضُول : ما أحبّ أن لي به حُمر النّعَم ، ولوادُعي إليه في الإسلام لأجبت » !

وسبب هذا الحلف غير بعيد عن عمرو بن العاص نفسه ، لأن الذي مطلَ الدينَ أبوه العاص بن وائل من أغنى السهميِّين وأشهرهم بالعــزة والعصبية . وكان رجل من بني زُبيد في اليمن قد وفد إلى مكة معتمراً ، ومعه بضاعة طيبة ، فاشتراها العاص ، ولواه بحقه ، ولم يجبه إلى رجائه حين سأله ماله أو متاعه . فقام الرجل في الحِجر ينشد :

يا آل فِهر لِمظلوم بضاعتـــه ببطنِ مكةَ نائِي الدّار والنفرِ
وأشعث مُحرمٍ لمْ يَقضِ عُمرتَه بين المقَام وبين الحِجْر والحَجَرَ
أقائمٌ في بني سَهمٍ بذمّتهـــم أو ذاهبٌ في ضلالٍ مالُ مُعْتَمِرِ

فخف لنجدته أقطاب قريش ، وكان ذلك من أسباب حلف الفضول .

تلك جملة المعروف من شأن بني سهم الذين نبت فيهم عمرو بن العاص من بطون قريش .

أما أسرته القريبة فأبوه هو العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم ابن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لُؤيّ بن غالب ، يرتفع بنسبه إلى الذّؤابة القرشية .

ويقال في متواتر الروايات إنه كان من ذوي اليسار ، وكان يتجر بين الشام واليمن ، ويحتشد لرحلة الصيف ورحلة الشتاء .

وقد كان عمرو بأبيه جِدّ فخور ، حتى لقد كان يفخر به على الخلفاء كعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان .

فلما أرسل إليه عمر بن الخطاب من يحاسبه ويشاطره ماله ، غضب وقال للرسول : « قبّح الله زماناً عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فيه

عامل . والله إني لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حزمة من الحطب وعلى ابنه مثلها ! وما منهما إلا في نَمِرَة لا تبلغ رسغيه ! والله ما كان العاص ابن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزرراً بالذهب » .. ثم خشي العاقبة ، فاستحلف الرسول ليَكتمنَّ عليه ما قال بأمانة الله .

ولما عزله عثمان من ولاية مصر دعاه فأنّبه وقال له : استعملتك على ظَلْعك وكثرة القالة فيك . فقال عمرو : قد كنت عاملاً لعمر بن الخطاب ففارقني وهو عني راض . واحتدم الجدل بينهما ، فهمّ عمرو بالخروج مغضَباً وهو يقول : قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك ... فوالله لَلْعاص كان أشرف من عفان . فما زاد عثمان على أن قال : ما لنا ولذكر الجاهلية !

وقد أدرك العاص الدعوة المحمدية ، ومات بعد الهجرة بقليل وهو في الخامسة والثمانين ، ولكنه — في أشهر الروايات — لم يُسلِم ، ولم يزل يناصب النبي وأصحابه العداء ، ويكيد لهم في الجهر والخفاء . وهو الذي قال عن النبي عليه السلام حين مات ابناه القاسم وعبدالله : إن صاحبكم هذا لأبتر . فنزلت فيه الآية : (إن شَانِئَكَ هُوَ الأبتَرُ) .. وكأنما كان التكاثر بالذرية والاعتزاز بالعصبية شنشنة غالبة على هؤلاء السهميين !

* * *

وعلى قدر ذلك الفخر بأبيه كان خجله من نسبه إلى أمه واجتراء الناس عليه بمسبتها كلما تعمدوا الغض منه والإساءة إليه .

فكان حساده والنافسون عليه يلاحقونه بذكرها وهو على دست الإمارة ومنبر الخطبة ، وخاطر بعضهم رجلا أن يقوم إليه وهو على المنبر فيسأله : من أمّ الأمير ؟ فأمسك من غضبه وقال : النابغة بنت عبدالله . أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ ، فاشتراها عبدالله بن جدعان ، ووهبها للعاص بن وائل ، فولدت فأنجبت ، فإن كانوا جعلوا لك شيئاً فخذه .. !

ويؤخذ من بعض هذه المعايرات أنها كانت تؤجر للغناء بمكة فإن عمراً شتم أروى بنت الحارث بن عبد المطلب بمجلس معاوية ، فانتهرته قائلة : « وأنت يا ابن النابغة تتكلم ، وأمك كانت أشهر امرأة تغني بمكة وآخذهن لأجرة ؟ اربع على ظَلْعك ، واعن بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش في اللباب من حسبها ولا كريم منصبها ولقد ادّعاك خمسة نفر من قريش كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم فقالت : كلهم أتاني ، فانظروا أشبههم به فألحقوه به » . . ! !

ومن كلامه عنها في بعض ما نقل عنه : « أنها سلمى بنت حرملة تلقب بالنابغة من بني عَنَزَة ، ثم أحد بني جِلاّن ، أصابتها رماح العرب ، فبيعت بعكاظ ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة . ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان . ثم صارت إلى العاص بن وائل » .

ويُروى أنها كانت على صلة بالعاص وأبي لهب وأمية بن خلف وأبي سفيان . فولدت عمراً فألحقته بالعاص . وسئلتِ في ذلك فقالت إنه كان ينفق على بناتي .

وأياً كان شأن المبالغة في لغة الثّلب والتعيير ، فالمتفق عليه أنها كانت سَبيّة مغلوبة على أمرها ، فلم تقارف البِغاء سقوطاً منها وابتذالا لعرضها ، ومثل هذه لا تُحسب عليها زلاّتها كما تحسب على المرأة التي تزلّ ولها مندوحة عن الزلل ، وتهوي وهي في موضع الصون والكرامة . وإنجاب هذه ومثيلاتها للنوابغ من البنين ليس مما يخالف المألوف من سنن النسب والوراثة .

* * *

ولا يظهر من أخبار عمرو أنه تلقى مالاً كثيراً من أبيه . فقد كان يحترف الجزارة ويعمل بمال غير وافر في تجارة الأدم والعطر بين اليمن والشام ومصر ، على ما جاء في إحدى الروايات .

إلا أن القصة التي روت لنا خبر سَفرته إلى مصر تروي لنا كذلك أنه خرج في تلك السفرة إلى بيت المقدس ، وقصارى ما يرجوه أن يصيب ما يشتري به بعيراً فتكون له ثلاثة أبعرة .

وقد حاسبه عمر رضي الله عنه فقال له في كتابه إليه : « ... فشت لك فاشية من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد ، وعهدي بك قبل ذلك أن لا مال لك » ! فلم ينكر عمرو أنه لم يكن له مال ، بل قال : « ... أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا لي ، وأنه يعرفني قبل ذلك لا مال لي وأني أُعْلِم أمير المؤمنين أني بأرض السعر فيه رخيص وأني أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله ، وفي رزق أمير المؤمنين سَعة » .

فاذا صدقتِ الرواية عن ثروة العاص بن وائل ، فمن العجيب ألا يبقى لعمرو من هذه الثروة نصيب موفور ، وهو أكبر ولديه ، وليس لأبيه ذرية كثيرة من الذكور فيقال إن الثروة الكبيرة تبددت بالتوزيع والتقسيم ، وقد أسلم عمرو بعد موت أبيه ، فلا يقال إنه حرمه الميراث لإسلامه غضباً عليه.

نعم ان هشاماً — أخاه الأصغر — كان أحب إلى أبيه ، وكانتِ أمه بنت هشام بن المغيرة من كرائم قريش وليست سَبِيّة مشتراة كأم عمرو ، وكانتِ إلى هذا محببة إلى زوجها ، وباسم أبيها سمى ولده على غير الشائع المألوف في تسمية الأبناء بين القبائل العربية . ولكننا لم نعرف من أخبار العاص ولا من أخبار ولديه أن هشاماً استأثر بالميراث دون أخيه . والأشبه إذا كان أحدهما قد حرم ميراثه أن يكون هو هشاماً لأنه أسلم في حياة أبيه .

ولا تفهم قلة المال عند عمرو — مع ما اشتهر به أبوه من الثراء — إلا على فروض كثيرة يصح الأخذ بها جميعاً ، لأن الاكتفاء بواحد منها غير معقول . وهي أن ثروة العاص كانت أقل من شهرتها ، وأنه كان ينفق ولا يمسك ، وأنه أصيب في تجارته قبل موته ، ولا سيما بعد قيام المسلمين على طريق الشام ، وأن عمراً كان كأبيه من المنفقين ، ولم يكن من المقترين ،

وقد يؤخذ هذا من ظهور شكواه بعد عزله من ولاية مصر بأقل من عام ، فقال له عثمان وقد سبه لما بلغه من تحريضه عليه : « ما أكثر ما قمل جُرُبّان جبتك – أي طوق جبتك – وإنما عهدك بالعمل عاماً أول » !

فلا يبعد أنه أصاب شيئاً من الميراث فأنفق منه ما أنفق بعد يأسه من تجارة الحبشة والشام ، ولم يبق له عند ولايته على مصر إلا اليسير .

* * *

والاهتمام بنسب المترجم لهم واجب لازم في كل سيرة من السِّيَر ، وهو في سيرة عمرو أوجب وألزم لأن أثر الوراثة فيه أقوى من المعهود الشائع في العظماء عامة .

وليس الأثر الذي استفاده من تلقين البيئة وفعل الرياضة النفسية بأقل من أثر الوراثة التي لا اختيار له فيها .

فمن أثر الوراثة مشابهة عمرو لأبيه في الخلقة والخليقة ، ولولا قوة الشبه في الخلقة لما عرفت نسبته إلى أبيه وهو وليد .

ومن المشابهة في الخليقة حبه للمال والسيادة ، واعتداده بالعصبية ونخوة القبيلة .

إلا أن المغمز الذي كان يؤلمه من نسبه إلى أمه قد كان له من قوة الأثر في تكوين فكره وتوجيه نفسه ما يعدل أثر الوراثة ، أو يزيد .

فاحتياجه إلى مداراة هذا المغمز ، والغلبة على من يفاخرونه بكرم الأمومة – هو الذي أغراه فبالغ في إغرائه بالمال والرئاسة .

وشعوره بهذا المغمز هو الذي أعز أباه عنده ، وعلقه بفخره ، وألهجه باسمه وسمعة ثرائه .

وكان لاعتداده بأبيه دخل في تعويق إسلامه وتأخير شهادته للدين الجديد

إلى ما بعد موته ، وقد كان يعلم ذلك من نفسه ويجهر به إذا فوتح فيه . فسأله رجل : « ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت في عقلك » ! فقال : « إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم . وكانوا ممن يوازي حلومهم الجبال ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنكروا عليه ، فلذنا بهم ، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا ، فإذا حَقٌ بَيِّن ، فوقع في قلبي الاسلام » !

بل أصبح اعتداده بأبيه اعتداداً بعصبية القبائل الأولى ، كمَن فيه من أيام جاهليته إلى ما بعد اسلامه ، وعالجه أحياناً فلم يستطـــع أن يجتثه من أصوله .

وقع بينه وبين المغيرة بن شعبة كلام ، فسبه المغيرة ، فقال : يا آل هُصَيص ! أيسبني ابن شعبة ؟ وكان ابنه عبدالله حاضراً ، وهو من أتقى المسلمين ، وقد أسلم قبل أبيه ، فقال : إنا لله ! دعوتَ بدعوى القبائل وقد نُهي عنها ! فأعتق عمرو ثلاثين رقبة .

وسمع معاوية مرة يأذن للأنصار ، فأحب أن يأذن للناس بأسماء قبائلهم ويردهم إلى أنسابهم .

وكان من إعزازه لأبيه وحضور العصبية في ذهنه أنه فكر في الانتقام من عمارة بن الوليد المخزومي لاجترائه على تقبيل زوجته أمامه فلم يقدم على الانتقام منه — وهما في طريق الحبشة — حتى بعث إلى أبيه أن يخلعه لكيلا تحيق به أو بأحد من أهله ترات العصبية التي تدين بها القبائل فيما بينها.

وعصبيته هذه هي التي أنسته أن الاسلام ينهى عن كراهة الذرية من البنات ، فأنف أنفة الجاهلية حين رأى معاوية يقبّل ابنته عائشة قال : من هذه ؟ قال معاوية : هذه تفاحة القلب ! فقال له : « انبذها عنك . فوالله إنهن ليلدن الأعداء ، ويُقرِّبن البُعَداء ، ويورِّثن الضغائن » ..!

ولا شك أن الألم من ذلك المغمز في نسبته إلى أمه كان من أشد الحوافز

النفسية تغلغلاً في سريرته ، وأصلحها لتفسير ميوله وبدواته ومنها الحسن والمفيد .

فقد كان خوفه من التعيير به يعقل لسانه عن فحش القول ، ويلزمه سمت الجد والتوقر في مخاطبة الناس .

ولم يبالغ حين اعتذر لمسلمة بن مخلد ، وقد ناله بلسانه في ساعة حدّة ، فقال له يسترضيه « ما أفحشت قط إلا ثلاث مرات ، مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة ، وما منهن مرة إلا ندمت ، وما استحييت من واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت ؛ ووالله إني لأرجو ألا أعود إلى الرابعة » ...

كذلك كان يتحرج من إسقاط هيبته ونسيانه سَمته ، حتى قال عمر بن الخطاب وقد نظر إليه وهو يمشي . « ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميراً ! » .

فهي بلوى في طيّها نعمة كما قال أبو تمام ؛

قد يُنعمُ اللهُ بالبلوى وإن عَظُمتْ

ويبتلي الله بعض القوم بِالنِّعَمِ

* * *

ولم يجزم المؤرخون بتاريخ مولد عمرو ولا قاربوا الجزم فيه ، فهو عند بعضهم عاش سبعين سنة ، وعند بعضهم بلغ المائة .

وإذا صح أنه كان يذكر الليلة التي ولد فيها عمر بن الخطاب ، وأنه كان له يومئذ من العمر سبع سنين فالأرجح أنه ولد قبل الهجرة بنحو أربع وأربعين سنة ، حوالي سنة ٥٨٠ للميلاد .

على أن المؤرخين مختلفون في سن عمر بن الخطاب يوم وفاته ، فبعضهم يؤكد أنه قتل وله من العمر خمس وخمسون سنة ، وبعضهم يؤكد أنه كان

يومئذ في الثالثة والستين . ونحن نميل إلى الاقتراب من التاريخ الثاني ، لأن عمر رضي الله عنه كان يشكو الكبر في سنة وفاته ، ويسأل الله أن يقبضه إليه لأنه شاخ وانتشرت رعيته ، والمرء في بنية عمر وقوّته لا يشكو الهرم في الرابعة والخمسين أو الخامسة والخمسين ، فذلك بعد الستين أوفق وأقرب إلى القبول .

وعلى هذا تكون السنة التي رجحنا ولادة عمرو فيها هي أقرب التواريخ إلى المعقول ، ويكون عمرو قد جاوز الثمانين بسنوات ولم يرتفع إلى المائة ، لأنه عاش بعد عمر عشرين سنة ، وولد قبله بسبع سنين . فإذا كانت سن عمر عند وفاته حوالي الستين ، فقد عاش عمرو بن العاص إلى قريب من السابعة والثمانين .

وإذا شككنا في سن عمرو يوم مولد عمر ، وحسبناها دون السابعة ، فهو إذن قد جاوز الثمانين بقليل .

ويدعونا إلى الشك في هذه السن أن اعتذار عمرو من تأخر إسلامه باتباع كبار قومه لا يقبل من رجل في نحو الخمسين ، وهي سنه عند إسلامه ، وإن كان مع ذلك لَيُستغرب حتى ممن بلغ الأربعين .

وليس في نشأة عمرو من تاريخ يستوقف المترجم له بعد سنة ميلاده غير سنة زواجه ، ويظهر أنه كان من المبكرين بالزواج ، لأن ابن قتيبة يقول : « إن الفارق في المولد بينه وبين ابنه عبدالله اثنتا عشرة سنة » وهو فارق غير معقول ، ولكنه يدل على صغر سنه حين بنى بأم عبد الله ، وهي فتاة من قبيلته اسمها ريطة بنت منبه بن الحجاج .

التعريف بعمرو بن العاص

التعريف بنشأة عمرو بن العاص ، تمهيد لازم للتعرف بصفاته وطباعه ، والتعريف بهذه الصفات والطباع تمهيد لازم للتعريف بأعماله ومساعيه ؛ لأن الأعمال والمساعي لن تفهم على حقيقتها إلا بفهم الطباع التي توحيها ، والنيات التي تسبقها ، والغايات التي ترمي اليها . وقد تتشابه الأعمال والمساعي في ظاهر الأمر وهي في الحقيقة مختلفة أشد اختلاف ، مفترقة كما يفترق الخير والشر أو تفترق الرفعة والضعة ، وإنما مناط ذلك كله بالفرق بين باعث وباعث ، والاختلاف بين نيّة ونية .

وأدنى إلى القصد في هذه السبيل أن نلم بالصفات والطباع ، ثم نتتبع الأعمال الصادرة عنها مفهومة واضحة البواعث والأغراض ، من أن نلم بالأعمال مبهمة متشابهة ، ثم نعود إلى تفسيرها بما نستخلصه من طباع صاحبها ونياته .

لهذا بدأنا قبل سرد الأعمال بهذا التعريف الذي يُسبغ الدلالة على تلك الأعمال .

* * *

والمحفوظ لنا من صفات عمرو الجسدية قليل ، ولكنه كاف إذا لم يكن بد من الاكتفاء منها بقسط له دلالة ..

فهو كما يؤخذ من جملة الأقوال التي وُصف بها : « أدعج ، أبلج وافر الهامة ، ربعة ، أقرب إلى قصر القامة ، يخضب بالسواد » عليه مهابة وشمائل نباهة وسيادة ، كما يدل عليه ما تقدم من قول عمر فيه « ما ينبغي أن يمشي أبو عبد الله إلا أميراً .. »

وإذا جاز أن يكون لهذا التكوين الجسدي أثر في أخلاقه ودخائل طبعه ، فذلك أثر آخر يعين أثر النسب المغموز من جانب أمه ، وهو التماس «التعويض» بكل ما في النفس من حول وحيلة ، وحفز الهمة إلى مكان يسطع فيه المرء سطوعاً يداري المغمز في النسب والنقص في المظهر ، فيروع القلب بالسطوة والشاردة إذا اجترأت عليه العيون أول نظرة ، أو اجترأت عليه الألسنة بالثلب والمهانة : رجل متهم النسب قصير ، ولكنه لا يضار بذلك في مقام الفخر بين ذوي الحسب والبسطة من عظماء الرجال .

وإذا اعتزم الرجل هذه العزمة ، وكان من أصحاب الهمة والشهامة ، أو ما نسميه اليوم بالقوة الحيوية ، فأخلِق أن يبلغ ما يصبو اليه، وأن يذهب بعيداً في مسعاه الذي توفر عليه .

أما أن عمراً كان من أصحاب « القوة الحيوية » فذلك ظاهر من احتفاظه بحضور ذهنه ومضاء عزمه ، إلى تلك السن العالية التي تجاوز بها قوم التسعين ، ولم يهبط بها أحد إلى ما دون السبعين ، فإنه ليجيش به هذا الطبع وقد أناف على الخامسة والأربعين إلى فتح البلاد ، وتقليب الدول ، وافتتاح المساعي إلى المجد والرئاسة ، كأنه ناشىء لمّا يزل في بادرة الشباب ومستهل المغامرات والمجازفات في سبيل الشهرة والسلطان !

وقد وُصِفت لنا شارة عمرو هنا وهناك ، فإذا هو في كل صفة من هذا القبيل عظيم العناية بما يروع الناس من هيبته وفخامة مرآه ، وليست مشيته التي أشار إليها الفاروق بأقل ما احتفل به لتلك الشارة والفخامة .

فقال أبو مخنف : « حج عمرو بن العاص فمر بعبد الله بن عباس ،

فحسده مكانه وما رأى من هيبة الناس له وموقعه من قلوبهم ، فقال له : يا بن عباس ! مالك إذ رأيتني وليّتني القَصَرة ، وكأن بين عينيك دَبَرة » ! (أي أعرضت وازوررت عني) .. فأجابه ابن عباس جواباً مقذعاً فيه من الجرأة مثل ما فيه من الدهاء ، وانتهى منه قائلاً : « حملك معاوية على رقاب الناس ، فأنت تسطع بحلمه ، وتسمو بكرمه » .

ولم يشأ عمرو – وقد ذهب دور المفاجأة – أن يبزّه ابن عباس في الدهاء ، فعاد يقول : « أما والله إني لمسرور باك . فهل ينفعني عندك » !

قال ابن عباس : « حيث مال الحق ملنا ، وحيث سلك قصدنا » !

ووصفه بَحير بن ذاخر المعافري وهو مقبل إلى المسجد يخطب الناس يوم الجمعة فقال : « ... فأطلنا الركوع ، إذ أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس ، فذعرت ... فقام عمرو بن العاص على المنبر ... وعليه ثياب موْشية ، كأن به العقيان يأتلق ، عليه حلة وعمامة وجبة .. » .

فهذه الأبهة المقصودة – ولا سيما قبل استقرار السلطان له – هي أثر من آثار ذلك النسب المغموز وتلك القامة المحدودة .

* * *

أما صفاته النفسية فنبدأها بما وصف به نفسه ، أو بقول الرواة الذين وصفوه هذا الوصف ، وهم يدّعون من المعرفة به ما يقوله الرجل حين يصف نفسه بلسانه .

روى هشام بن الكلبي أن أناساً لاموا معاوية على تقديمه عمراً ، فبلغته ملامتهم ، فقال بعد استشهاد : « .. قد علمتم أنني الكرّار في الحرب ، الصبور على غيَر الدهر ، لا أنام عن طالب ، كأنما أنا الأفعى عند أصل الشجرة .. ولعمري لست بالواني أو الضعيف ، بل أنا مثل الحية الصماء ، لا شفاء لمن عضته ، ولا يرقد من لسعته . وإني ما ضربت إلا فريت ، ولا

يخبو ما شببت . عرفني أصحاب يوم الهرير (بحرب صفين) أنني أشدهم قلباً ، وأثبتهم يداً ، أحمي اللواء وأذود عن الحمى ، فكأنني وشانئي عند قول القائل :

وهل عجبٌ إن كان فرعيَ عَسجَداً
إذا كنتُ لا أرضى مُفاخرة العشبِ »

وهذا وصف صادق ، اذا أغضينا عن جانب الفخر فيه ، طابق صفاته النفسية التي تشهد بها أقواله وأعماله ومساعيه . وهي مجموعة محكمة من الصفات القوية ، ولكنها على قوتها بسيطة متناسبة ، يأخذ بعضها ببعض على نحو مألوف غير مستغرب في أمثال هذه النفس الفطرية ، وأعمقها جداً هو أظهرها جداً .. ! أو هو الذي تعمق حتى بلغ من عمقه أن ينضح على قسمات وجهه وحركات جسده . وهو الطموح إلى الهيبة والثراء ، وطلب البسطة في الجاه والمال . ما نخاله وقف في الطموح عند حد ولا قعد عن الخلافة وهو مختار ، بل هو قد طمع اليها وأعد عدته لإقصاء بني أمية عنها ، فلما أيأسه مغمز النسب ورجحان بني أمية على بني سهم في العصبية القرشية ، طوى الصدر على كظم ، وقعد عنها وهو كاره يعزي نفسه بقوله المأثور عنه « ان ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة » .

وكان سعيه إلى الرئاسة والمال بادياً منه في الإسلام ، كما بدا منه في الجاهلية ، فلم يعرف له موقف قط نزل فيه عن الرئاسة باختياره .

فلما بعث به النبي عليه السلام إلى غزوة ذات السلاسل ، أرسل في طلب المدد ، فجاءه المدد من المهاجرين ، وفيهم أبو بكر وعمر وعليهم أبو عبيدة بن الجراح أمير ، فقال عمرو : أنا أميركم وأنا أرسلت إلى رسول الله أستمده بكم ، فأنف المهاجرون أن يؤمروه وفيهم من فيهم من جِلّة الصحابة ، وقالوا : بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أميرنا .. قال عمرو : أنتم مدد أمدِدت بكم ..

وأشفق أبو عبيدة أن يتخاذلوا وهم على أهبة الحرب ، فقال له : تعلّم يا عمرو أن آخر ما عهد إليّ رسول الله أن قال : « اذا قدمت على صاحبك فتطاوعا » وإنك إن عصيتني لأطيعنك . قال عمرو : إذن أنا أعصيك . قال ابو عبيدة : وأنا اطيعك .

وعاد إلى منازعة أبي عُبيدة الرئاسة والإمارة يوم أقدم أبو بكر – رضي الله عنه – على فتح الشام ، فسعى عند عمر ليقنع الخليفة بتأميره على الألوية جميعاً ، وكان يوشك ان يفلح في مسعاه لولا إكبار عمر لأبي عبيدة ، حتى لقد همّ بمبايعته بعد النبي عليه السلام ، وقال إنه ليستخلفنه بعده لو عاش .

وقد كان حب المال يملؤه ويتمكن منه ، حتى لم يبال ان يخفيه ، ولم يزل يتكلم – كلما دعاه داعي الكلام – بما يكشفه وينم عليه .

سأله معاوية وقد شاخا وبطلت لذات الشباب عندهما : ما بقي من لذة الدنيا تلذه ؟ قال : محادثة أهل العلم وخبر صالح يأتيني من ضيعتي .

وفي حديث آخر أنه دخل يوماً على معاوية ، وقد كبر ودق ، ومعه مولاه وردان ، فتذاكرا الأيام ، واستطرد عمرو سائلاً : يا أمير المؤمنين ما بقي مما تستلذه ؟ قال معاوية : « أما النساء فلا أرب لي فيهن ، وأما الثياب فقد لبست منها حتى وهي بها جلدي ، فما أدري أيها ألين ، وأما الطعام فقد أكلت من لينه وطيبه حتى ما أدري أية ألذ وأطيب ، وأما الطيب فقد دخل خياشيمي منه حتى ما أدري أيه اطيب .. فما شيء ألذ عندي من شراب بارد في يوم صائف ، ومن ان انظر إلى بنيّ وبني بنيّ يدورون حولي .. فما بقي منك يا عمرو ! » فقال : « مال اغرسه فأصيب من ثمرته وغلته ! » .

وقد اشتهر منه هذا الحب حتى عرضه لظنون الخلفاء واحداً بعد واحد . فقاسمه عمر ماله ، وعزله عثمان من ولاية مصر وهو يحسب انه قد استأثر بخراجها دون بيت المال . وقال له معاوية يوماً وهو يذكر له الحساب والعقاب والأوزار التي يثقل بها ميزان السيئات : هل رأيت بينها شيئاً من دنانير مصر ؟

ومن ثم تسابق الرواة في تقويم ثروته يوم وفاته ، فاعتدل صاحب « مروج الذهب» في وصفها بعض الاعتدال، وبالغ صاحب «حياة الحيوان» فقال : إنه خلف « سبعين بهاراً دنانير » والبهار من جلد الثيران ، قيل إنه يسع إردبين !

ولقد كان النبي عليه السلام أدرى الناس بهذه الصفة في عمرو بن العاص قبل أن يعرفه المسلمون او المشركون بطول المراس وتعاقب الأعمال والمساعي وتفتّق المطامع والآمال ، فولاه الإمارة في غزوة ذات السلاسل ، وقال له وهو يعرضها عليه: « إني أريد ان ابعثك على جيش فيسلّمك الله ويغنّمك ، وأزْعَب لك من المال زُعبَةً صالحة »[1] فأجابه عمرو ، وهو يشفق ان يظن النبي بإسلامه الظنون : « يا رسول الله ، ما اسلمت من اجل المال ، بل أسلمت رغبة في الاسلام » . فهوّن عليه النبي ما خامره من الظن ، ودفع عنه وهمه وهو يقول : « يا عمرو ! نِعمّا بالمال الصالح للمرء الصالح » .

ثم عهد إليه في ولاية الصدقة بعُمان ، فبقيت له إلى أن تولى أبو بكر الخلافة فرّغبه فيما هو خير منها .

وظل الرجل يسائل نفسه عن حفاوة النبي به إلى آخر حياته ، فروى الحسن البصري أن بعضهم قال له — أي لعمرو — : أرأيت رجلاً مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحبه، أليس رجلاً صالحاً ؟ قال : بلى . فقال محدثه : قد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحبك ، وقد استعملك . قال : « بلى .. فوالله ما أدري أحباً كان لي منه أو استعانة بي » .

* * *

ومن خصائص هذا الطموح الذي لزمه من صباه إلى ختام حياته ، أنه كان كما رأيناه طموحاً قائماً على مطالب الواقع في بواعثه ومراميه ، فكانت

---

١ — الزعبة من المال بالفتح والضم : الدفعة والقطعة .

نظرته إلى الدنيا نظرة عماية معروفة الموارد والمصادر ، ولم تكن تلك النظرة الخيالية التي يتسم بها أصحاب الحماسة والأحلام من ذوي الطموح .

ومناط الرجحان في تلك النظرة العملية إنما هو الأخذ بالأحوط والأنفع في كل أمر من الأمور ، ما كبر منها وما صغر ، حتى ليكاد الأحوط والأنفع أن يكون عنده مقياساً للحق أو لصحة الأشياء ، على نحو يشبه مقياس القائلين بفلسفة الذرائع Pragmatism في عصرنا الحديث .

فلم نعرف قط حكماً من أحكامه في أجل الأشياء فارقته تلك النظرة العماية ، أو ذلك المقياس الموكّل بالأحوط والأنفع في ترجيح جانب على جانب وطريقة على طريقة .

وحسبك من جلائل الأحكام في أعظم مطالب الحياة حكمه في مسألة العقيدة الإسلامية ، وحكمه في مسألة الخلافة ، وهما أعظم ما عرض له من المشكلات التي تتطلب الترجيح والتفضيل ، وكلاهما قد حكم فيه على سنّة الأحوط والأنفع بين مختلف الوجوه .

فلما استراب المشركون في ميله إلى الإسلام أوفدوا إليه من يسأله في ذلك ، فلم يكاشفه بالحقيقة لأول وهلة ، بل واعده إلى مكان منفرد وقال له : أنشدك الله الذي هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك ، أنحن أهدى أم فارس والروم ؟ قال صاحبه : اللهم بل نحن . فسأله : أفنحن أطيب معاشاً وأوسع ملكاً أم فارس والروم؟ قال صاحبه: بل فارس والروم. فقال عمرو : فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم أكثر فيها أمراً. ثم عاد فقال : قد وقع في نفسي أن ما يقول محمد من البعث حق ، ليجزى المحسن في الآخرة بإحسانه والمسيء بإساءته . هذا يا أخي الذي وقع في نفسي ولا خير في التمادي في الباطل .

وخلاصة هذا البرهان العملي أن الإسلام أنفع للعرب وأصلح للدنيا والآخرة ، فهو أحق بالتصديق واجدر بالاتّباع .

ولبث في مشتجر الخلافة لا يميل إلى طرف من أطرافها ، حتى انحسر الخلاف كله عن حزبين اثنين لا ثالث لهما ، فوجب عليه أن يخرج من عزلته لينصر أيهما ، وهما حزب عليّ وحزب معاوية .

فدعا بولديه عبدالله ومحمد فقال لهما : إني قد رأيت رأياً ولستما باللذين تردانني عن رأيي ، ولكن أشيرا عليّ . إني رأيت العرب صاروا عنزين يضطربان ، وأنا طارح نفسي بين جزّاري مكة ، ولست أرضى بهذه المنزلة ، فإلى أي الفريقين أعمد ؟ قال له عبد الله ، وقد علمنا تقواه : إن كنت لا بد فاعلاً فالى عليّ . قال : إني إن أتيت علياً يقول لي : إنما أنت رجل من المسلمين ، وإن أتيت معاوية يخلطني بنفسه ويُشركني في أمره .

وعلى هذا الأساس في التفضيل بين الطرق سلك أحبّ الطريقين إليه وأجدرهما عنده بالاتّباع .

* * *

وأعانه على هذه النظرة العملية أنه كان مالكاً لزمام شعوره ، آمنا أن تضله الحماسة من ناحيتها أو يضلّه الحنان من ناحيته ، قابضاً بعقله على جمحات العاطفة كما نسميها اليوم ، أو كما قال هو : « أبلغ الناس من كان رأيه ردّاً لهواه ، واشجع الناس من ردّ جهله بحلمه » .

فليس في جوامح الشعور ما هو أشد جماحاً ولا أقرب أن ينفلت من قبضة العقل — من غضبة الغيور على عرضه ، أو حنان الواقف على جثة أخيه ، أو نخوة المتصدي للقتال بين معسكرين ، فهي هي الجوامح التي قل أن تُراض وان تثوب على المشيئة إلى قوام .

ولكن عمراً قد راضها كلها على ما أراده في حينها وبعد حينها . وكانت رياضته لها في عنفوان الصِّبا كرياضته لها وهو في أوج الكهولة قد أناف على الأربعين :

خرج مع عمارة بن الوليد المخزومي إلى أرض الحبشة تاجرَين ، وكان عمارة مولعاً بالخمر والنساء ، فشرب وهما في السفينة فانتشى ، ونظر إلى امرأة عمرو نظرة اشتهاء ، ثم همّ بتقبيلها ، بل أومأ إليها ان تقبّله في قول صريح فقال لها عمرو ، متّقياً ما يكون من رجل سكران بين الماء والسماء : قبّلي ابن عمك ! فقبلته .. فلم يزد ذلك عمارة إلا إغراء بالمراودة ، وجرأة على القحة ، ولمح عمراً على حافة السفينة — وهو في سكرة من سكراته — فدفع به إلى الماء يظنه غير قادر على السباحة ، كما يغلب بين أبناء البادية ، فسبح عمرو حتى نجا ، وسمع عمارة وهو يقول له غير آبه بحقده عليه : أما والله لو علمت يا عمرو أنك تحسن السباحة ما فعلت! فإذاً هو قد جمع سوء النية بحياته الى سوء النية بعرضه . ومع هذا كله كظم عمرو ما بنفسه ، وظـــل يصانعه حتى تمكن من الكيد له عند النجاشي ، فأرسله في العراء مخبولاً يعيش في الغربة عيش الأوابد حتى مات .. !

واشترك عمرو وأخوه هشام في حرب الشام ، وأخوه هذا مَن عَلِم الناس في الصلاح وصدق البلاء . فإذا ثُلمة في الطريق يتخطف المدافعون من يهجم عليها بالسيوف ، فهابها العرب وأحجموا عنها ، وطال ترددهم لديها . فإذا هشام يقدم عليها وهو ينادي في الجيش : يا معشر المسلمين إليّ إليّ ! أنا هشام بن العاص ! أمن الجنة تفرّون ؟ وما زال يتقدم حتى خرّ قتيلاً متعرضاً في تلك الثلمة المرهوبة . فلما انتهى المسلمون إليها هابوا أن يدوسوه كرامة له ولأخيه . فكان عمرو أول من تقدم فداسه وهو يصيح بجنده : أيها الناس: إن الله قد استشهده ورفع روحه ، وإنما هي جثة . ثم أوطأه وتبعه الناس ، حتى تقطع وهو مشغول عنه بما هو أجدى وأعظم . فلما انتهت الهزيمة عاد إليه وجعل يجمع لحمه واعضاءه وعظامه بيديه، ثم حمله في نطع فواراه .. !

وبرز علي بن أبي طالب يوماً في حومة صفين ، وقد طال أمد القتال ، فقال : يا معاوية ! علام يقتتل الناس ؟ أبرز إلي أو أبرز إليك ، فيكون

الأمر لمن غلب . وجاء في روايات شائعة أن عمراً قال لمعاوية يومئذ: والله لقد أنصفك الرجل . ! فظن معاوية انه يغرر به ويدفع به إلى هلاكه طمعاً في دولته ، فأقسم عليه ليخرجن للمبارزة التي أغراه بها ، فلما غشيه عليّ بالسيف رمى بنفسه إلى الأرض وأبدى له سوءته ، فضرب عليّ وجه فرسه وانصرف عنه .

وكل هذه أخبار متوافقة يخيل إليك أنك ترى ابن العاص وهو يفعلها ويروض وقائعها رياضة الرجل الذي يعتز بقدرته على هواه ، وكأنه يأنف لدهائه أن يغتر بنزوات الساعة كما يغتر بها سائر الناس ، وكلها تعبر عن خليقة لا شك في صدقها عند ابن العاص ، وإن تمارى الناس في صدق الروايات ، ونعني بها خليقة النظرة العماية وغابة العقل على الشعور .

ولا شك أن استحضار هذا « الخلق العملي » لازم جداً للمؤرخ في كل خطوة يخطوها مع عمرو بن العاص في أحواله الفردية أو أحواله العامة ، لأنه سرى من مزاجه إلى سياسته وطريقة التفاهم بينه وبين الناس ، سواء كانوا من الزملاء أو الرعية او الأعداء . وقلما تظهر الطريقة التي يقتنع بها الرجل من شيء كما تظهر من الطريقة التي يُقْنِع بها الآخرين .

انظر مثلاً إلى الفرق بينه وبين عبادة بن الصامت في إقناع عظماء القبط ببقاء العرب في مصر ، وأنهم لن يتركوها وقد دخلوها ، ولن يرجعوا عن فتحها جميعاً لرغبة في رشوة ولا لرهبة من قوة .

فإن عبادة بن الصامت لم يزد على أن احتقر الدنيا حين خوّف المقوقس عاقبة الإيغال في بلده ، فكان توكيد حب الآخرة هو فحوى كلامه حين قال : إن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسدّ بها جوعه لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله واقتصر على هذا الذي بيده . إنما النعيم والرخاء في الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا ، وعهد إلينا الا تكون همة أحدنا

من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوه .

أما عمرو فانه وقف مثل هذا الموقف فلجأ إلى الطعام ليقنع عظماء القبط بأن العرب غير تاركي مصر وقد دخلوها :

« أمر — كما جاء الطبري — بجُزُر ، فذبحت ، فطبخت بالماء والملح ، وأمر أمراء الأجناد أن يحضروا ، وأعلموا أصحابهم ، وجلس وأذن لأهل مصر. وجيء باللحم والمرق فطافوا به على المسلمين ، فأكلوا أكلاً عربياً : انتشلوا وحسوْا وهم في العباء ولا سلاح . فافترق أهل مصر وقد ازدادوا طمعاً وجرأة ، ثم بعث في أمراء الجنود في الحضور بأصحابهم من الغد ، وأمرهم أن يجيئوا في ثياب أهل مصر وأحذيتهم ، وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك ، ففعلوا ، وأذن لأهل مصر ، فرأوا شيئاً غير ما رأوا بالأمس، وقام عليهم القُوّام بألوان مصر فأكلوا أكل أهل مصر ، ونحوا نحوهم ، فافترقوا وقد ارتابوا وقالوا : كدنا . وبعث إليهم — أي إلى أمراء الجنود — ان تسلحوا للعرض غداً — وغدا على العرض ، وأذن لهم فعرضهم عليهم ثم قال : إني قد علمت أنكم رأيتم في أنفسكم أنكم في شيء حين رأيتم افتقار العرب وهون تزجيتهم ، فخشيت أن تهلكوا ، فأحببت ان أريكم حالهم وكيف كانت في أرضهم ، ثم حالهم في أرضكم ، ثم حالهم في الحرب ، فظفروا بكم ، وذلك عيشهم ، وقد كَلِبُوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم في اليوم الثاني ، فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني وراجع إلى عيش اليوم الأول ... » .

وإن هذا الضرب من البراهين لقائم عنده أبداً ، لا يأتي عرضاً في حادث من الحوادث ثم ينقضي بانقضائه . وكثيراً ما ذكر الطعام وهو يلجأ إلى الإقناع ، فكان من كلامه : « أكثروا الطعام ، فوالله ما بطن قوم قط إلا فقدوا بعض عقولهم ، وما مضت عزمة رجل بات بطيناً » !

بل هو يقوّم الأخلاق والفضائل بقيمتها العملية وفائدتها الملموسة ، فالعدل مثلاً فضيلة جميلة محبوبة ، ولكنها عند عمرو محبوبة لأنها سياسة حسنة لتوفير المال كما قال : « لا رجال إلا بمال ، ولا مال إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل » .

وإن ذلك لشأنه في تقويم كل قيمة ، وتفضيل كل فضيلة .

* * *

وفي أخلاق عمرو « عقدة نفسية » لا تفتأ تصادفنا عند المقابلة بين نقائضه ، كما تصادفنا في جميع العظماء من أمثاله وأشباههم في الطبيعة والملكة ، ونعني بهم أولئك الذين يلتقي فيهم الطموح والحركة وضبط النفس في سبيل المطالب التي يطمحون إليها ، فما منهم أحد إلا وجدت له نقائض من الحذر الشديد والاندفاع الشديد ، أو من ضبط النفس كأنه لا يعرف جمحات الشعور ، ومن المجازفة كأنه لا يعرف الرويّة . وهي نقائض في الظاهر وليست بنقائض في الحقيقة ، لأن قوة الطموح تفسر لنا النقيضين ، فإذا هما مستمدان من ينبوع واحد وهو قوة الطموح . إذ أن هذه القوة الطامحة لا تزال مُحضِرة له الأمل شاخصاً باهراً نصب عينيه ، فيهون عليه ان يكبح شعوره الجامح في سبيل الوصول إلى أمله العظيم ، أو في سبيل المحافظة عليه بعد الوصول إليه .

ثم يثقل الكبح على هذا الطماح لقوته فيلتمس الرّوح منه والمنفس من قيده بالمجازفة ، كما يتوق الصائم إلى العيد ، والفرس الملجم إلى المراح .

فساعة المجازفة هي ساعة التسريح من القيد ، وهي ألزم له من حالة التوسط التي لا قيد فيها ولا انطلاق .

وقد كان الذين يعرفون عمراً بالدهاء وكبح الهوى ، يعرفونه كذلك بالاندفاع والهجوم على المهالك . فقال عثمان يحذر منه الفاروق رضي الله

عنهما : « إن عمراً لجريء الجنان ، وفيه إقدام وحب للإمارة ، فأخشى أن يخرج في غير ثقة فيعرض المسلمين للهلكة » !

وشاعت عنه روايات في المجازفة ، يخيل إليك أنها من اطوار الحماسيين اصحاب الخيال ، لولا ان العقال يغري بالانفلات من ربقته ، فيقدم الرجل الحذور على شطحات قد يحجم عندها صاحب الخيال المشبوب !

قيل إنه تعرض للموت مرات ، لاقتحامه الحصون على أعدائه في هيئة رسول او محارب من عامة الجند في جيش المسلمين . فاما طلب والي قيسارية رسولاً من العرب يكلمه ذهب عمرو إليه ، فأعجب الرجل بحديثه وعقله ، وخطر له أنه قد يكون أمير العرب فيستريح منهم جميعاً بقتاله ، فأمر له بجائزة وكسوة ، وبعث إلى البواب : إذا مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه . قالوا : وتنبه عمرو ، أو نبهه أحد إلى المكيدة ، فرجع إلى الوالي يقول : نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع بني عمي ، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد . فقال : صدقت ! عجّل بهم . وبعث إلى البواب أن خلِّ سبيله .

ورووا عنه في الإسكندرية قصة تماثل هذه القصة ، وهي أنه اقتحم بعض حصونها مع فريق من الجند ثم ارتدوا وبقي هو وثلاثة من صحبه ، فعرض عليهم الروم ان يخرجوا إليهم ليبارزوهم واحداً لواحد ، فتصدى هو للمبارزة ، لولا ان منعه صاحبه مسلمة بن مخلد ، ووقف دونه وهو يقول له « ما هذا ؟ تخطىء مرتين ، فتشذ عنك أصحابك وأنت أمير ، وإنما قوامهم بك ، وقلوبهم معلقة نحوك ، لا يدرون ما أمرك حتى تبارز وتتعرض للقتل ، فإن قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك . مكانَك وأنا أكفيك إن شاء الله » ..

قالوا : ومثل بين يدي البطريق فعجب هذا من أنفته وقوة جوابه ، فالتفت إلى من في مجلسه وقال لهم باليونانية : « يظهر من أنفة هذا الرجل وكبر نفسه أنه من وجوه العرب ، وربما كان من كبار قوادهم فلا ينبغي أن نتخلى

عن قتله » . وكان مولاه وردان يفهم اليونانية ، فأحب ان يريهم خطأهم ، ويبين لهم أن الذي يكلمهم إنما هو رجل من عامة الجند ، فأسرع إليه فلطمه صائحاً به : ما أنت ولهذا يا لُكع ! دع هذا المقال لمن هو أولى منك بالكلام عن قومه ! فكانت هذه اللطمة سبب نجاته .

ورويت عنه روايات أخرى من هذا القبيل ، إن صحت كلها ، او صح بعضها ، او كانت كلها اختراعاً من تلفيق الرواة ، فالدلالة التي لا شك فيها على كل حالة من هذه الحالات ان الرجل كانت له شهرة بالمجازفة تقبل فيها امثال هذه الروايات ، وتدعو إلى تلفيقها بما يشبه الواقع المعهود من اخلاقه .

وهو نفسه كان يقول ما يَنِمّ على هذا الخلق فيه ، فهو القائل : « عليكم بكل أمر مزلقة مهلكة » ...

ولعله لم يفصح بكلمة من كلماته عن ضيقه بقيود الحكمة والسمت وكبح الهوى ، كما أفصح عنه بقوله وقد سئل عن امتع اللذات ، إذ قال : « إسقاط المروءة » !

فهي كلمة الرجل الذي تقيد بالوقار ، حتى أصبح طرح الوقار عنده هو غاية ما يبتغيه من اللذة ويشتاق إليه ، وتقيد بكبح الهوى حتى أصبحت المجازفة في المزالق المهلكة هي فرجة نفسه من ذلك الحجر الذي ضربه عليها .

أفنقول إذن إنه شجاع مقدام ، ام نقول إنه جبان حذور ؟

بل نقول إنه شجاع كما قال معاصروه وقد شهدوه في مواقف الاستبسال ومآزق الحرب والفزع ، ولكننا نعود فنقول إن شجاعته وكل فضيلة فيه إنما كانت في خدمة طموحه إلى المجد الذي كان يسعى إليه ، فهو يضن بشجاعته ان يبذلها في غير طائل ، ويتخذها وسيلة إلى غاية ، ولا يجعلها هي الغاية التي

تنقطع دونها الوسائل .

وقد سأل هو صاحبَه معاوية يوماً : « والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان ؟ » فقال معاوية :

شجاعٌ إذا امكَنَتْني فرصـــــةٌ وإن لم تكنْ لي فرصةٌ فَجَبان

وبمثل هذا الجواب يستطيع عمرو أن يجيب من يسأله مثل ذلك السؤال ، إلا انه كان أحوج إلى الوثوب والمجازفة من معاوية ، فقد كان نسب معاوية ومكانته في بني أمية مع طول استعداده للملك مُغنياً له عن عجلة الوثوب والمجازفة ، من حيث لا يستغني عنه عمرو وهو مغموز النسب ، مخذول العصبية ، مضطر إلى إدراك مطلبه قبل ان يفوته ، فلا تسنح لإداركه سانحة أخرى .

ومن ثم اختلف دهاؤه ودهاء معاوية ، كما قال مرة وهما يتساءلان عن العقل ... قال معاوية : ما بلغ من عقلك ؟ قال : ما دخلت في شيء قط إلا خرجت منه . فقال معاوية : لكنني ما دخلت في شيء قط وأردت الخروج منه .

كل منهما بدهائه أشبه : عمرو في اقتحام الطّموح المغامر ، ومعاوية في تؤدة المستقر الواثق ؛ وعمرو في دفعة العبقرية ، ومعاوية في روّية التدبير الطويل.

ولعل هذه الحيلة الحاضرة التي كانت تجود بها عبقرية عمرو كخاطف البرق في المآزق المطبقة ، هي التي كانت تزين له الهجوم على المورد وهو واثق من قدرته على الصدور ، فكان في مجازفته شيء من الحيطة المجهولة ، تبقى مجهولة حتى تعلم في الوقت المقدور ، فإذا هي مُسعفة لا تخيب رجاءه فيها واعتماده عليها .

* * *

ولقد احصى العرب دهاتهم في الإسلام ، فعدّوا أربعة هو منهم ،

وجعلوا لكل منهم مزية يمتاز بها في دهائه فقالوا : إن معاوية للرَّوية ، وعمرو ابن العاص للبديهة ، والمغيرة للمعضلات ، وزياد لكل صغيرة وكبيرة .

ونظن أن لو تكلم العرب باصطلاح هذه الأيام لقالوا : إن حيلة عمرو هي حيلة العبقرية المطاعة التي تتفتّق له من حيث يعلم ولا يعلم ، وآيتها أنها عبقرية معبرة تُلهَم الخاطر السريع وتلهم التعبير عنه في كلم وجيز . وهذه هي العبقرية التي يختلط أمرها أحياناً على من يراقبونها فيتهمونها بالطياشة ، ويرمونها بدفعة التهور ، لأنهم يسلسلون أسبابهم في بطء وتثاقل ، وهي تسلسل أسبابها في سرعة وخفة ، فيبدو لها ما يظل خافياً عليهم متلبساً في أعينهم ، ولولا أنها واضحة عند صاحبها كل الوضوح لما تسنى له التعبير عنها بأسلوب يلائم ومضاتها في السرعة والنفاذ .

قيل لعمرو : ما العقل ؟ قال : الإصابة بالظن ، ومعرفة ما سيكون بما قد كان .

وذلك هو الظن الذي يقول فيه القائل :

الألمعيُّ الذي يَظنُّ بكَ الظنّ كأنْ قد رَأى وَقد سَمِعا

والأصح أن يقال إن التعريف بالعقل هنا هو التعريف بعقل عمرو نفسه ، لأنه كان يجمع بين الفطنة والخبرة ، وبين التخمين واليقين ، ويأخذ مَن أمامه بالنظرة الخاطفة فإذا هو قد وصل ، والذي أمامه لا يزال يتحرى سبيل الوصول .

قيل في غير الرواية التي قدمناها إنه هو الذي وصف نفسه ووصف الدهاة الثلاثة معه على تلك الصفة ، وانه اجتمع مع معاوية بن ابي سفيان مرة فقال له معاوية : مَن الناس ؟ فقال : انا وانت والمغيرة بن شعبة وزياد . قال : معاوية : كيف ذلك ؟ قال : أما أنت فللتأنيّ ، واما انا فللبديهة ، واما المغيرة فللمعضلات ، واما زياد فللصغير والكبير .. قال معاوية : اما

ذانك فقد غابا ، فهات بديهتك يا عمرو ! قال : أو تـريد ذلك ؟ فأجابه نعم ! فسأله أن يخرج من عنده ، فأخرجهم . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، أُسارُّك . فأدنى معاوية رأسه منه . فقال عمرو : هذا من ذاك ! من معنا في البيت حتى أسارك ؟

وتصح هذه الواقعة او لا تصح ، فهما يستويان . إذ الغرض الذي ترمي إلى إثباته صحيح ، وهو أن تفكير عمرو تفكير بديهة حاضرة ، وان تفكير معاوية تفكير رؤية بطيئة ، ومرجع ذلك كما قدمنا إلى سببين : أحدهما أصيل والآخر عارض ، فالسبب الأصيل أن عمراً يصدر عن وحي العبقرية ، وأن معاوية صاحب عقل من العقول الوسطى التي أفادتها المرانة وتمثلت أمامها قدوة الآباء ، كأنها السجل المحفوظ الذي ينقل عنه نقل المحاكاة . والسبب العارض ان عمراً مضطر إلى الوثوب والاقتحام ، لأنه لن يـُفتح له باب بغير اقتحام . أما معاوية ففي موضعه وانتظار ساعته على هينة ووثوق ، فإن وصل فذاك ، وإن لم يصل فالذي في يده يغنيه ، والعجلة لا تغني عنه ولا تنفعه كما تنفعه الأناة .

* * *

والبديهة الحاضرة في اعمال عمرو لا تحصى شواهدها ، فإنها تلازمه في جميع حالاته ، ولا تبدو منه في حالة دون حالة : تذكيها المآزق والخوف من الخطر ، ولا تخمدها الطمأنينة والأمان في سربه ، ويستخدمها لغيره كما يستخدمها لنفسه كما شاء .

خرج يعس بالليل وهو أمير على مصر ، فسمع أناساً يقعون فيه ويتوعدونه ، وعلم أنه إن تركهم إلى غده لم يعرفهم ولم يظفر بأجمعهم فأقبل عليهم إقبال الخائف الطريد ، وأوهمهم أنه يلوذ بهم ويضرع إليهم ألا يسلموه إلى الأمير لأنه يتعقبه ويمعن في طلبه ، فاستبقـُوا إلى تقييده وساقوه إلى باب قصره لا يتخلف أحد منهم طمعاً في المثوبة ، فأوصلهم إلى حيث أراد !

وقتل الروم رجلاً من المسلمين حول الإسكندرية واحتزوا رأسه وانطلقوا به إلى داخل الحصن ، فأقسم أبناء قبيلته لا يدفن إلا برأسه . قال عمرو : تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالي بغضبكم ! احملوا على القوم اذا خرجوا ، فاقتلوا منهم رجلاً ثم ارموا برأسه يرموكم برأس صاحبكم . فلما فعلوا : اذا برأس صاحبهم يسقط عليهم . فقال : دونكم الآن فادفنوه برأسه .

أما البديهة الحاضرة في تعبير عمرو ، فمسطورة الشواهد في مساجلاته وأجوبته ورسائله وأوصافه ، فهي جميعاً مثل من أمثلة الإيجاز والمضاء ، كأنها ضرب من الاختزال لولا أنها واضحة وضوح التفصيل . وقد رويت له مقطوعات من الشعر تسلكه بين طبقة من الشعراء ، لولا أن كلمات البديهة التي أثرت عنه قد غلبت على نظمه ونثره ، فكانت أولى بالدلالة على العارضة القوية فيه ، وهي أنبغ ملكاته . وحسبك من نبوغ هذه الملكة فيه أنها كانت عند الفاروق من آيات قدرة الله ، فكان اذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه قال : آمنت بالله ، خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد !

وإذا اجتمع للرجل ذكاء ماض ، وعزيمة ماضية ، ولسان ماض ، وهوى يمضي في زمامه ، وينثني بعد عرامه ، فذلك الرجل الذي يحسب له حساب في كل زمان وجد فيه .

ولكنه أحرى أن يحسب له كل حساب في أيام الفتن والقلاقل واختلاف الدعاوى والحقوق ، لأنه يستطيع التفريق والتوفيق ويستطيع التأليب والتغليب ، وعسير جداً أن يُهمل شأنه بين الشيع والأحزاب ، وإن لم يكن إهماله في غيبة الشيع والأحزابِ جدّ عسير .

لهذا لم يظهر لعمرو بن العاص شأن ذو بال في الترشيح للخلافة بعد الفاروق ، بل عُدّ دخوله في هذا الأمر من الفضول والتظاهر بما ليس من قدره.

فلما اجتمع رهط الشورى في بيت عائشة لانتخاب الخليفة أقبل هو والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب ، فحصبهما سعد بن أبي وقاص وأقامهما من مكانهما وهو يهزأ بهما قائلاً : تريدان أن تقولا حضرنا و كنا في الشورى ؟ !

فما زالت الأيام تدور دوراتها حتى أصبح هذا المحصوب الذي استُكثر عليه الجلوس بباب أهل الشورى ، فإذا هو قبلة القُصّاد في مشكلة الخلافة ، وكل من عداه لائذون بالأبواب .. !

* * *

ولا نختم الكلام في التعريف بعمرو حتى نومىء إلى تعريف له طريف من كلام مجالد عن الشّعبي عن قبيصة عن جابر في رواية النجوم الزاهرة ، حيث قال بعد كلام في وصف نفر من الصحابة : « ... وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أنصع ظرفاً منه ، ولا أكرم جليساً ، ولا أشبه سريرة بعلانية منه » .

والطريف في هذا الوصف مشابهة السريرة والعلانية في الرجل الذي لم يشتهر بشيء كما اشتهر بالدهاء .

فهل فرط الدهاء خيّل إلى الرجل الطيب الذي وصفه بتلك الصفة أنه أشبه الناس سراً بعلانية ؟

أو هو الصدق رآه الرجل الطيب فوصفه كما رآه غير مبال بمن يستغرب هذه الغريبة أو تخامره الشكوك فيها ؟

إننا في الحق لا نستبعد أن يكون عمرو بن العاص شبيه السر بالعلانية في جميع الأمور التي لا يعنيه أن يكتمها أو يلوذ فيها بحيطته ودهائه !

فقد عهد في كثير من الدهاة أنهم ينطلقون بالحديث ، ولا يتحرزون من الصراحة في أخطر الأمور . وقد أثر هذا عن بسمارك كما أثر عن بيكنسفيلد من دهاة الأوربيين في الزمن الأخير .

ومعظم هؤلاء الدهاة يحبون إرسال النفس على السجية ، ويشبهون المهرة من اللاعبين الذين يلعبون « على المكشوف » كما يقولون في عرفهم ، ثقة منهم بالقدرة على الإصابة والسداد ، أو يشبهون الفارس الذي يخلع شِكّته من حين إلى حين مباهاة ببأسه واقتداره ، ولا سيما اذا كان هؤلاء الدهاة ممن امتزجت بهم نزعة المغامرة والطموح البعيد .

ويلوح من جملة أخبار عمرو مع معاوية على التخصيص أنهما كانا في الصلة التي بينهما يؤثران اللعب المكشوف ولا يضيعان الوقت في مراء يعرفانه ولا يجهلانه . وقد كانت مساومة عمرو لمعاوية صريحة لا مداجاة فيها ، فقال له : « أترى أننا خالفنا علياً لفضل منا عليه ؟ لا والله ! إن هي الا الدنيا نتكالب عليها . وأيم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك أو لأنابذنك ... »

وعلى هذا النمط كانت المساومات بينهما في معظم الأحاديث المروية عنهما ، فاذا عمد أحدهما إلى المداورة لم يلبث أن يرتد إلى الصراحة وقد رأى عين صاحبه واقعة على أخفى خفاياه !

فغير بعيد إذن أن يكون عمرو من الظرفاء الصرحاء في أحاديث المجالس وعروض الكلام المشاع ، وليس في شيء من هذا ما يناقض صفته التي خرجنا بها من جملة أحواله ومساعيه ، وهي صفة الرجل العملي ، الطموح ، الذكي ، الذي يكبح هواه ، وينفلت منه بين الحين والحين في نوبات مجازفة ، تغريه بها وثبات العبقرية وضرورة الاقتحام ، ويهونها عليه اقتداره على رد الزمام إلى يديه ، وابتداع الحيلة المسعفة حيث شاء .

* * *

مِنَ التجارة إلى الإمارة

من الطمع الكثير ان نتطلع إلى تاريخ مفصّل لطفولة عمرو بن العاص ، أو لطفولة عظيم من عظماء عصره في البلاد العربية خاصة ، لأن أبناء العصور القديمة قلما حفلوا بالطفولة أو حفلوا بأخبار الرجال – كبارهم وصغارهم – إلا بمقدار اتصالها بالحوادث الجامعة . فهم حينئذ يدخلون في حوزة التاريخ ويُذكرون في سياق الحوادث التي لهم بها اتصال .

ولكننا نستطيع أن نقول على ثقة إن عمراً الطفل قد تعلم كل ما يتعلمه أطفال العرب المقيمين في الحاضرة ، لأنها السُّنة العامة التي لا موجب للشذوذ عنها ، ولأننا نعلم ذلك وزيادة عليه من أخباره وهو في طور الشباب والكهولة ، فنعلم أنه كان يحسن ركوب الخيل والسباحة ، ويحسن الضرب بالسيف ، وينظم الشعر ، ويعرف الكتابة كما كان يعرفها نفر من أبناء التجار النابهين الذين يرشحهم آباؤهم للعمل في التجارة .

وقد عصمه اعتزازه بالنسب أن ينظم الشعر للتكسب بالمدح والهجاء على عادة « المحترفين » من شعراء زمانه ، وإنما كان ينظمه للتنفيس عن نفسه ، ويجري به خاطره كما كانت تجري به خواطر الوجوه من رؤساء العشائر في معاريض العظة والاعتبار .

والظاهر من أخبار نشأته الأولى كما أسلفنا أنه بكر بالزواج لأن الفارق

بين سنه وسن ابنه عبد الله غير كبير . ومن ثم يجوز لنا أن نفهم أنه استقل بمعيشته وهو في مَيعة الشباب ، ولا سيما إذا ذكرنا أن أمه لم تكن سيدة الدار في كَنَف أبيه .

فربما تزوج الفتى الناشيء من أهل البادية ، ولم يستقل بالمعيشة بعد زواجه ، لأنه يعمل هو وزوجه في رعي الإبل له ولأبيه في محلة واحدة .

أما العربي الناشيء في الحاضرة فالأغلب الأعم أن يستقل ببيته وعمله بعد زواجه ، ويصدق هذا على عمرو خاصة ، لأننا لم نقرأ من أخباره وهو عامل في التجارة أنه كان يصحب أباه في رحلاته إلى الحبشة والشام . وربما دل على استقلاله بمعيشته البيتية أنه كان يصطحب زوجه في سفره ، كما جاء في النبأ المشهور عن إحدى رحلاته إلى الحبشة ، وإنه لكذلك دليل على شبيبة حازمة غير لاهية ، جديرة أن تضطلع بأدب الأسرة ، ولا تعيث في الغربة عيث الإباحية التي عاشت بين فتوة الجاهلية .

وقد داول في شبيبته بين الجزارة والتجارة ، وظل يداول بينهما إلى ما بعد إسلامه وانقضاء صدر من الإسلام ، إلى قيام الفتنة بين عليّ ومعاوية . ففي مشاورته لولديه بين اللحاق بهذا أو بذاك ، كان يشكو معيشته بين « جزاري مكة » ويطمح إلى مقام اكرم له من هذا المقام .

وللتجارة في سيرة عمرو شأن أعظم من شأن المرتزق أو الصناعة التي يكسب بها مؤونة عيشه ، لانها ولا ريب كانت مدرسته الكبرى التي تعلم فيها ما تعلم من احوال الحياة وخلائق الناس ، بل كانت مدرسته الكبرى في السياسة والفتوح : من سياحاتها تلقى علمه الأول عن الأمم والبلدان ، ومن سياحاتها نفذ إلى عيوب الحكم ومواقع الخلل في الدول التي كانت له يد في الاشارة بفتحها وسوق الجيوش إليها ، وتهوين الأمر على الخلفاء حين خامرهم التردد في القدرة عليها .

وكانت سياحاته التجارية خليقة أن تطلعه على أسرار دخيلة ليس يفطن

لها كل سائح ، لامتيازه بنفاذ البصر وبلوغه مرتبة الحظوة عند بعض الأمراء الذين كانت له تجارة في بلادهم ، ومن تلك الحظوة أن نجاشي الحبشة قد ألفه وعوّده أن يلقاه كلما عاد إليه لقاء المودة ، ويستمع له في خاصة أهله ويدعوه أحياناً بالصديق .

وسنجتزىء من أخبار سياحاته بطائفة قليلة فيها الغنى عن سائر تلك الأخبار ، وفيها كذلك غنى في الابانة عن كثير مما يستحق الجلاء من خلائقه ومساعيه .

خرج إلى الحبشة في شبابه مع فتى عربيد من بني مخزوم يدعى عمارة بن الوليد ، (وقد سبق ذكر هذه الحادثة على إيجاز) . فشربا في السفينة خمراً ، فسكر عمارة ونظر إلى امرأة صاحبه نظرة مريبة وسألها أن تقبّله ، فكظم عمرو غيظه وقال لامرأته وهو يسر في نفسه شيئاً : قبلي ابن عمك ! فقبلته .

وطمع عمارة فلج في غيّه ، وتمادى في مراودة المرأة خلسة وعلانية ، وهي تمتنع عليه ، فظن ان امتناعها لخشيتها من زوجها ، وأنه بالغ مأربه منها إذا قذف به إلى البحر على غرة منه ، فأمهل عمرا حتى دنا من حافة السفينة ودفع به الى الماء ، ثم أمعن في حماقته فصارح عمرا بسوء قصده ، وقد نجا هذا سابحاً من الغرق وعاد إلى السفينة ، فقال له قولة تنضح بالحمق والغفلة : أما والله لو علمت يا عمرو انك تحسن السباحة ما فعلت ! أي أنه كان ينوي له قتلة لا سلامة منها ، فنجا وهو كاره لنجاته !

وتمضي الرواية فتنبئنا أن عمارة كان وسيماً محبباً إلى النساء ، فدب إلى حرم النجاشي وخرج يفخر لعمرو بفعلته ويحدثه بنجواه مع خليلته ، وعمرو يظهر له التكذيب ليستخرج منه دليل اليقين الذي لا يشك النجاشي في صدقه إذا نمى إليه ، حتى ظفر منه بذلك الدليل ، فأورده موارد الهلكة في خبر طويل لا محل هنا لاستقصائه .. !

هذا خبر من أخبار رحلاته إلى الحبشة .

وخبر آخر من أخبار رحلاته إلى تلك البلاد رواه هو فقال ما فحواه :

« جمعت رجالاً من قريش بعد منصرف الأحزاب من الخندق فقلت لهم : اني لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، واني قد رأيت ان نلحق بالنجاشي فنكون عنده . فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي ، فلأن نكون تحت يديه أحب الينا من ان نكون تحت يدي محمد ، وان يظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلا يأتينا منهم إلا خير . قالوا : ان هذا لرأي . قلت : فاجمعوا له ما يهدى اليه . وكان أحب ما يهدى اليه من أرضنا الأدم، فجمعنا له أدما كثيراً ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه . وانا لعنده اذ جاء عمرو بن امية الضَّمْري من قبل رسول الله ، قد بعثه اليه في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه . فقلت لأصحابي : هذا عمرو بن أمية الضمري ، لو قد دخلت على النجاشي وسألته اياه فأعطانيه فضربت عنقه ، رأت قريش انني اجزأت عنها حين قتلت رسول محمد ..

فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال مرحباً بصديقي ! أهديت لي شيئاً من بلادك ؟ قلت : نعم أيها الملك . قد أهديت لك أدما كثيراً ، ثم قربته اليه فأعجبه واشتهاه ! !

« ثم قلت : أيها الملك إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا ، فأعطنيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا ..

« فغضب ، ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره . فقلت : والله ايها الملك لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه . قال : أتسألني ان أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله ؟ ! فراعني ما سمعت وسألته : ايها الملك أكذاك هو ؟ قال : ويحك يا عمرو ! أطعني واتبعه ، فإنه والله لعلى الحق ، وليظهرَنَّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . ثم بسط يده فبايعته على الاسلام » .

* * *

أما رحلاته إلى غير الحبشة فالذي لا شك فيه أنه قد رحل إلى الشام وبيت المقدس ، وحمل اليهما بضاعة من اليمن والحبشة والحجاز ، ولكن الذي تحيط به الشكوك رحلة له إلى مصر ، يوشك – لولا ما فيها من الخرافة – ان تكون أقرب الرحلات إلى التصديق ، لأن جهله بمصر أمر أدعى إلى الشك من بعض الخرافات ، فإن لم تكن رحلة اليها فعلمٌ بها على الأقل يساوي العلم بالمشاهدة والاختبار .

وخلاصة هذه الرحلة ، كما تناقلها مؤرخو العهد ، أن عمراً كان يرعى إبله وإبل أصحابه في جبال بيت المقدس ، نُوَباً بينه وبين أولئك الأصحاب . فبينا هو يرعى إذ أقبل إليه شماس يكاد يهلك من العطش ، فسقاه عمرو حتى روي ، وتركه ينام مستريحاً إلى جواره ، وإنه لنائم إذ خرجت عليه حية عظيمة ، فقتلها عمرو قبل ان تصل اليه . فاستيقظ الشماس وشكره وقبّل رأسه ، وقال لـه : لقد أحياني الله بك مرتين : مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية ، فكم ترجو أن تصيب من تجارتك ؟ قال : أرجو أن أشتري بعيراً فتكون لي ثلاثة أبعرة ، فسأله الشماس : كم دية أحدكم بينكم ؟ فأجابه عمرو : إنها مائة من الإبل .. فقال الشماس : لسنا أصحاب إبل ، نحن أصحاب دنانير . فكم تكون الدية بالدنانير ؟ قال : ألف دينار .

عند ذلك أنبأه الشماس أنه غريب في بيت المقدس ، قدم إليه وفاء بنذر قديم ، وسيعود إلى اسكندرية بلده ، وعليه عهد الله لئن صحبه إليها ليعطينه ديتين ، لأن الله تعالى قد أحياه به مرتين .

وسأله عمرو : كم يكون مكثه في هذه الرحلة ؟ فأخبره الشماس أنه شهر ، ينطلق في ذهابه عشراً ، ويقيم بالإسكندرية عشراً ، ويعود في عشر .

فانطلق عمرو وصاحب له حتى انتهوا إلى الاسكندرية . فرأى من عمارتها وثروتها ما أعجبه. ووافق دخوله اليها عيداً يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم يترامون بكرة من ذهب . ويحفظون فيما اختبروه منها أن من وقعت في كمه

لم يمت حتى يملك عليهم . فلما جلس عمرو والشماس على مقربة من ملعب الكرة . أقبلت تهوي حتى وقعت في كم عمرو . فتعجب القوم لأنها لم تكذبهم خبرها في مرة من المرات . وتساءلوا : أترى هذا الأعرابي يملكنا ؟

ثم حدّث الشماس قومه حديث إنقاذه على يدي عمرو . فجمعوا له المال الذي وعده به . وردّه محروساً مكرماً إلى أن بلغ أصحابه .

* * *

تلك خلاصة القصة التي تناقلها المؤرخون عن رحلة عمرو إلى مصر قبل إسلامه . وهي قصة مريحة في تلفيقها . لأن القارىء لا يتعب في الاهتداء إلى مواضع التلفيق منها . فلا يخفى على قارىء من قراء العصر الحاضر موضع التلفيق من حكاية الكرة . ولا موضع المبالغة من حكاية الدنانير . وشفاعة القصة الوحيدة أنها تروي لنا مدخل عمرو مصر على أقرب الوجوه أن يكون هو الوجه الصحيح . وهو النظر إلى شعبها وحكومتها وعمارتها ومجمل أحوالها في صحبة شماس يريه من أسرار ذلك جميعه ما لا يراه في صحبة رجل غيره . إذ كان الشماسون يومئذ أعرف الناس بحقائق الخلاف بين الحكومة والكنيسة وبين شُعب الكنيسة في داخلها ، وكان عمرو خليقاً أن يعرف منه مصر تلك المعرفة التي هونت عليه الهجوم على فتحها بذلك العدد القليل من الجند ، وتلك العدة القليلة من السلاح .

إلا أن هذه القصة على أية حال ليست مرجعنا الوحيد في العلم بزيارة عمرو للديار المصرية ، فقد روى الكندي انه كان يحمل التجارة اليها كما كان يحملها إلى بيت المقدس والشام .

والغريب حقاً الايكون عمرو قد زار مصر في جاهليته مرة او مرات ، ويتجاوز حد الغرابة ان يكون قد وصل إلى تخوم مصر تاجراً ومقاتلاً ولم يسمع من اخبارها الوافية ما فيه غنى عن الزيارة ! !

فلا شك انه قد علم من اخبارها في جاهليته وبعد اسلامه شيئاً غير قليل .

وفي وسعنا على الجملة ان نتخيل حياة عمرو في الجاهلية على النحو الذي وصفته لنا حكايات الرحلة إلى الحبشة والشام ومصر ، بما يتخللها من افانين الاختراع والتزويق ، فلن تكون على نحو غير النحو المعقول من تلك الحكايات بعد إخلائها من الاخلاط التي لم تخل منها قصة قديمة من قبيلها .

وقد ظهرت الدعوة المحمدية وعمرو بن العاص يعيش في الحجاز هذه المعيشة . أو يضرب فيما حوله على النحو الذي رأيناه .

فكيف كان لقاؤه الأول للإسلام ؟ وكيف جاوب هذا الرجل تلك الدعوة الطارئة عليه ؟ .

أوجز ما يقال إنه جاوبها كما يُنتظر أن يجاوبها رجل مثله في مثل طبيعته وعمله وخبرته بما حوله .

جاوبها على سُنة الحيطة العملية ، التي لا تقدم على الأمر إلا إذا زالت جميع الموانع من طريقه ، وتبينت دواعي الاقبال عليه ، فعارض الاسلام في حياة أبيه ، لأنه كان يعتز باسمه ويعتز بالعصبية التي تعاق بها جميع فخره ، أو جميع ساواه من حطة نسبه إلى أمه .

ومات أبوه ، فظل يعارض الإسلام لبقية أمل عنده في غلبة قريش وإخفاق هذه الدعوة الواغلة عليها .

وانهزمت قريش مرة بعد مرة ، فلم ييأس من رجعة النصر اليها ، ولم يستسلم لأمله في انتصاره ، بل فكر في الحبشة يلوذ بها وينتظر العاقبة فيها ، فيستبقي مودة قريش اذا انتصرت ، ولا يصاب بهزيمتها اذا هي أطبقت عليها الهزيمة ، ويأمن على نفسه في الحبشة وعند صاحبه النجاشي ما استقر به المقام فيها .

لكنه لقي النجاشي فإذا هو صديق للنبي العربي ، لا يُغضبه ولا يفرط في رسله ودعاته .. !

ويجوز ان النجاشي قد أحس صدق النبي وعلم ما بين الإسلام والمسيحية من المقاربة والمناسبة ، فاستنكر أن ينصر ديانة الأوثان على ديانة التوحيد ! .

ويجوز أنه نظر إلى الدعوة النامية نظرة حكمة وسداد ، فأبى أن يناهض صاحبها وهو موشك أن يسود الطريق بين الحبشة ودولتي الفرس والروم ، وأن يشرف على مسالك التجارة بين أقطار العالم المعمور .

وعلى كلتا الحالتين ليس هو بالعون لعمرو في تربصه بالاسلام وكيده لنبي الاسلام من قريب ومن بعيد !

وليس عمرو — في حيطته العملية — بالذي يحارب قضية تؤيدها هذه الطوالع في بلادها وغير بلادها ، ولا هو بالذي ينصر قضية لقريش قد خذلتها هذه الخواذل ، وحاق بها الفشل من نواحيها ، وذهبت مولِّية تمعن في توليها ولا تؤذن بإقبال ...

هنا تفتح الحيطة سبيل التأمل والتفكير .. !

ومن دأب اصحاب هذه العقول أنهم يستنفدون أسباب الحيطة أولاً ، ثم يتأملون ويفكرون ، فلا يمنعهم مانع أن ينفذوا إلى الألباب ، وأن يدركوا ما هم أقدر على إدراكه من الآخرين ، لولا ما كان يعوقهم من طبيعة التربص والانتظار . واذا ادركوا ، فهم كذلك انما يدركون على ديدن الحيطة والموازنة بين الأمور والمقابلة بين طريق وطريق ... فما باله لا يفكر في هذا الإسلام الذي لبث من قبل معرضاً عنه مصراً على إبائه ؟

ألا يجوز أن يكون خيراً وأبقى ؟ بل هو خير وأبقى . لأنه يكفل حياة الدنيا والآخرة . ويعوض العرب عن ضنك العيش . فلا تكون قسمتهم دون قسمة الفرس والروم . وهم أصحاب العيشة الرخية في هذه الحياة الدنيا .

ففيه مرضاة للعزة العربية . ومرضاة للحيطة . ومنفس للأمل فيما بعد الموت . وفيه المحيص حيث لا محيص .

أيفهم من هذا أن عمراً لم يسلم عن يقين وخلوص نية ؟

كلا ! بل يفهم منه أنه أسلم كما ينبغي لصاحب هذه الطبيعة ان يسلم أو يؤمن بعقيدة من عقائد الفكر والروح .

فالاسلام لا يمنع اختلاف الطبائع واساليب التفكير . ولا يستلزم أن يكون طريق الناس إلى فهم العقيدة واحداً لا تفاوت فيه .

ومن المستحيل ان يكون الرجل مطبوعاً على الحيطة دون أن يكون لذلك الطبع أثر في اسلامه ، أو يكون مطبوعاً على الشك والتردد ثم يخلو منها ساعة تفكيره في التدين والاعتقاد ، أو يكون شجاعاً ويسلم اسلام الجبان ، أو جباناً ويسلم إسلام الشجاع .. !!

فإذا أسلم رجل كما ينبغي لطبعه وخلقه ، فقد أسلم إسلامه الصحيح ، ولا عجب ان يخالفه آخرون في دواعيهم التي جذبتهم إلى الاسلام ، فإنما العجب ان يتفق الناس وهم مطبوعون على اختلاف !

ومن سيرة عمرو بعد إسلامه نعلم انه كان يتعبد ، ويتصدق ويستغفر من ذنوب وقع فيها ، ويقيم الصلاة ، ويسرد الصوم ، ويعيش بين ذويه مسلماً وكلهم مسلمون ، وأدركته الوفاة فبكى لما أضاع من أيامه في جمع الحطام ، وود لو يأخذه منه من يحمل وزره ، وهو هنا أيضاً يستقبل الموت استقبال المسلم الذي لا شك في إسلامه، وإلا لكان رضاه بترك المال لذويه أولى من أسفه لجمعه وحفظه . ولكنه كذلك لم يخرج عن طوية طبعه الذي لا حيلة له فيه ، فهو يأخذ بالأحوط في حفظ المال ما قدر على حفظه ، ولا يضيعه إلا وهو قادر على تضييعه ناجياً من وزره، آملاً أن ينجو من حسابه !

* * *

مسلم لا شك في إسلامه ، ولا شك في طبعه ، ولا شك في اختلاف الطبائع بين المعتقدين جميعاً في كل دين من الأديان ورأي من الآراء .

فلما فتحت له الحيطة باب التفكير في الإسلام أقبل عليه وود لو يغنمه بريئاً من عقابيل الجاهلية ، لأنه نفض يديه منها وأيقن بضلالها .

قال وقد اعتزم لقاء النبي عليه السلام ما فحواه : « فلقيت خالداً فقلت : ما رأيك ؟ قد استقام المَنْسِم ، والرجل نبي . فقال خالد : وأنا أريده. قلت : وأنا معك ... وقال عثمان بن طلحة : وأنا معك ... وكنتِ أسنّ منهما ، فقدمتهما لأستدبر أمرهما . فبايعا على أن يُغفر لهما ما تقدم من ذنوبهما . فأضمرت أن أبايعه على ما تقدم وما تأخر . فلما بسط يده قبضت يدي ، فقال عليه السلام : مالك يا عمرو ؟ قلتِ : أبايعك يا رسول الله على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي . قال : إن الإسلام والهجرة يَجُبّان ما كان قبلهما . فبايعته ، والله ما ملأت عيني منه وراجعته بما أريد حتى لحق ربه ، حياءً منه » .

وقد كان ذلك في السنة الثامنة للهجرة على أرجح الأقوال ، ويؤخره بعضهم إلى ما بعد فتح مكة بزمن وجيز .

* * *

ولقد كانت رحابة صدر النبي عليه السلام تَسَع الناس جميعاً ، ولا تضيق بأحد من مختلف الطوائف والطباع : سُنّةَ النبي الكريم الذي يدعو الناس جميعاً ، ولا يخص منهم فئة دون فئة ولا خليقة دون خليقة ، فكان يتقبّلهم مرحّباً بهم مشجعاً لهم راجياً لهم أحسن الرجاء فيهم ، كلاً وما فُطر عليه ، وكلاً وما تؤهله له فطرته وشأنه . وقلما ذهبت هذه السماحة سدًى في نفس مسلم أقبل على الاسلام ، سمحَ الاقبال أو مَشُوبَ السماحة بشيء من عقابيل الجاهلية . فكان أول أثر من آثار هذا الكرم النبوي أن يتسامى المسلم إلى المنزلة التي رفعه ذلك الكرم النبوي إليها ، ومنهم من كان

يستكثر الثقة الرفيعة التي ظفر بها فيعمل على استحقاقها والمحافظة عليها ، ويشفق أن يداخل النبيَّ طائف من الظن بصدق نيته وخلوص إيمانه .

وطالما أشفق عمرو بن العاص هذا الاشفاق ، وود لو تخلص له ثقة النبي على أحسن ما يتمناها ، لأنه ما زال يستكثر الثقة التي ظفر بها ، ويرى فيها من كرم النبوة أكثر مما يراه من حقه واستحقاقه ..

فلما رشحه عليه السلام لبعثة يسلم منها ويغنم ، أسرع قائلاً : ما أسلمت من أجل المال ، بل أسلمت رغبة في الاسلام !

وظل إلى ما بعد وفاته عليه السلام بسنين عدة يسائل نفسه عن تولية النبي له : والله ما أدري أكان ذلك حباً لي أم استعانة بي !

ونخال أنه لم يكن يملأ عينه من النبي كما قال ، حذراً من هذا الذي يساور نفسه أن يبدو من لحظه ، فتلتقي به نظرة من تلك النظرات النبوية النفّاذة على ما بها من الطيب والسماحة ... وإن طموحه إلى ثقة النبي لهو الذي جعله يقول كما قد قال في بعض أحاديثه : « ما عدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في حربه منذ أسلمت » !

إلا أن هذا القلق الذي كان يعتاده من حين إلى حين إنما كان مبعثه ما ركب في طبعه من ظنون الدهاء ودخيلة الحيطة ، أو المساءلة الباطنية التي لا تُريح أصحابها ممن جُبلوا على غراره .

أما مسلك النبي معه فقد كان قوامه ذلك الادب الإلهي ، الذي لا يكلف نفساً إلا وسعها ، لا ينتظر من نفس إلا ما هي خليقة أن تعطيَه .

ولقد عرفه عليه السلام كما عرف غيره من الصحابة جِدَّ عرفانه ...

عرفه وعلم « وسعه » الذي يكلّفه ، فعلم أنه وسع كبير فيما يحسن وفيما يسيء ، وأن في وسعه هذا خيراً للإسلام هو وشيك أن يستعين به عليه .

وقد ندبه لأمور لا يندبه لها إلا من كان على علم واف بالرجل وما غلب عليه من ظاهر خصاله واستسرّ في مكنون خلده.

ندبه لغزوة ذاتِ السلاسل، ولهدم الصنم «سُوَاع»، ولدعوة جَيْفَر وعَبّاد أميريْ عُمَان إلى الإسلام ... ثم أقامه على الصدقة في تلك الإمارة، فإذا هو عليه السلام قد وعى كل خاصة من خواصه التي ظهرت في تاريخه أجمع: لأنه اختار له المساعي التي توافق رجلاً معتداً بالنسب ولا سيما نسب أبيه، محباً للرئاسة وتدبير المال، لبقاً في الخطاب، قديراً على الإقناع، حذراً في موضع الحذر، جريئاً في موضع الاجتراء.

كان أخوال العاص بن وائل من قُضَاعة، ونمي إلى النبي عليه السلام أنهم يتأهبون للزحف على المدينة ويعيثون في الطريق فندب لهم عَمْراً يتألّفهم إن استطاع، فإن لم يستطع فهو بأن يزجرهم أولى من أن يجيء زجرهم على يد غيره، وأرسله في سَرِيّة من ثلاثمائة رجل سار بهم حتى بلغ ماء يسمى السلاسل، فاستطلع، فإذا القوم نافرون مصرُّون على جفاء، وإذا بهم أكبر عدداً من أن يتصدى لهم بجيشه الصغير. فاستمد النبي عليه السلام، فأمده بكتيبة على رأسها أبو عبيدة بن الجراح، وفيها أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وهم أجلّ الصحابة وأقربهم إلى خلافة النبي عليه السلام، وأمرهم أن يطيعوه إذا أبى عليهم الطاعة. فبلغه بذلك رضاه من الإمارة!!

وانهزمت قضاعة منذ الوقعة الأولى ...

فلم يغترّ عمرو بالنصر، ولم ينس ذمة القرابة واستيفاء الرحم على ما يبدو من مسلكه الذي جمع به بين المصلحة والمودة. فقد أراد جيشه أن يتعقب المنهزمين، فنهاهم عن ذلك، وذهب جماعة من الجيش يصطلون ليلاً، فتوعدهم لئن فعلوا ليقذفن بمن أضرم ناراً في النار التي أوقدها، ووسّطوا له أبا بكر فأصر على رأيه ووعيده!

ثم شكوه إلى النبيّ فكان في عذره بلاغ بيِّنٌ، قال: كرهت أن يتبعوهم

فيكون لهم مدد ، وكرهت أن يوقد المسلمون ناراً فيرى عدوهم قلتهم فيكرّ عليهم بعد فراره .

* * *

أما بعثته إلى سُوَاع فقد كانت لهدم الصنم الذي عبدته هُذَيْل في الجاهلية ، وكان على مقربة من مكة ، يقصدونه للحج والعبادة وقضاء النذور ، وكانت له خزانة يودع فيها ما يودع من النذور ومن المال المحجر الذي وكل به بنو سَهْمٍ قبل الاسلام، فكان اختيار زعيم من بني سَهْمٍ فيه حرص على تحصيل المال نعم الاختيار لتلك البعثة التي لا حرب فيها .

سأله سادن الصنم : ماذا تريد ؟

قال : أمرني رسول الله أن أهدمه .

قال السادن : إنك لا تقدر على ذلك ..

فتقدم عمرو إلى الصنم وكسره ، وأمر أصحابه بهدم الخزانة فإذا هي خاوية !

فأقبل على السادن يسأله : كيف رأيت ؟ قال: أسلمت لله رب العالمين .

* * *

وكانت رسالته إلى عُمان أشبه الرسائل به وأولاها بانتدابه ، لأنها كانت مجالاً مستجمِعاً لكل ما فطر عليه من اللباقة والدهاء والجرأة وحب الرئاسة والثراء .

كتب النبي عليه السّلام إلى جَيْفَر وعبَّاد ابني الجُلَنْدَى كتاباً يدعوهما فيه إلى الإسلام ، قال فيه بعد السلام على من اتّبع الهدى :

« أما بعد ، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام . أسلما تَسْلَما فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيّا ويحقّ القول على الكافرين، وإنكما إن

أقررتما بالإسلام ولّيتكما ، وإن أبيتما أن تُقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل، وخيلي تَحُل بساحتكما ، وتظهر نبوّتي على ملككما ... »

فحمل الكتاب عمرو بن العاص ، وكان عند ظن النبي به في مقدرته ودهائه ، فبدأ بأصغر الأخوين عبّاد ، لأنه لم يكن على ولاية الملك ، فهو أقرب إلى حسن الإصغاء ، فاحتفى به وأصغى إليه ، ووعده أن يوصله إلى أخيه ويمهد له عنده .

ثم لقي جَيْفَراً فإذا هو أصعب مراساً من عباد . فطفق يسأل عمراً عن نفسه وعن أبيه : هل أسلم من قبله أو مات على غير الإسلام ؟ وسأله عما صنعت قريش ، فلخص له موقفها أوقع تلخيص حيث قال : « إما راغب في الدين وإما مقهور بالسيف » .. ثم عقب بكلام وجيز فيه وعد ووعيد ، فقال له : « وأنت ، إن لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل . فأسلم تسلم ، فيوليك على قومك ، وتبقى على ملكك مع الإسلام، ولا تدخل عليك الخيل والرجال، وفي هذا، ومع سعادة الدارين راحة من القتال».

وأتبع هذا الوعيد بما يوائمه من قله الاكتراث لجيفر حين لجّ هذا في عناده ، وأعلنه بلقاء المسلمين دون أرضه وصدهم عن حوزة ملكه ، فانصرف وقد ألقى في روع عباد ما ألقى ، فإذا بعباد قد أتم له ما بدأه من النذير والنصيحة ، وإذا بالأخوين ومن تبعهما مستجيبون للاسلام ...

وكان جزاء عمرو على هذا التوفيق أن عقد له النبي ولاية الزكاة ، يأخذها من الأغنياء ويفرقها على الفقراء ، وهو عمل حبيب إلى طبعه لما فيه من تدبير المال ومشابهة للمهمة التي تولاها زعماء بني سهم في الجاهلية، وله منها نصيب يرضيه ، لأن الزكاة كما نص القرآن الكريم في الصدقات : (إنّما الصَّدَقَاتُ للفقراءِ والمساكين والعامِلِينَ عَلَيْهَا والمُؤَلَّفَةِ قُلُوبهُم وفي الرِّقَابِ والْغَارِمِين وفي سَبِيل الله وَابْن السَّبِيلِ ..) فله منها نصيب العاملين .

* * *

فإذا كان النبي عليه السلام قد اختاره لتلك المهام المرتبة، فإنما اختاره وهو يعرف من اختار ، ولم تكن مرضاته كل ما توخاه عليه السلام بل هي مرضاته من طريق الخير لجميع المسلمين .

وقد أبقاه عليه السلام على ولاية الصدقة حتى توفاه الله ، فلم يشأ أبو بكر رضي الله عنه أن يعزله عنها إلا برأيه ومرضاته ، إيثاراً للسنة التي التزمها من إقرار كل ما أقره النبي عليه السلام في حياته: وألا يحل عقالاً عقله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعقل عقالاً لم يعقله » كما أوصى عمراً نفسه يوم أبلغه نعي النبي الكريم .

ولم ير عمرو قط في حزن كالحزن الذي غمره يوم ورد إليه ذلك الكتاب ... فبكى طويلاً ، وجلس يتلقى العزاء كما يتلقاه في أقرب الناس إليه ...

ثم جاءت حروب الردة ، فكان موقفه منها الموقف المنتظر من مثله كيفما نظرنا إلى أسباب تلك الحروب ، فقد كانت ثورة على الإسلام وثورة من البادية على الحاضرة ، وثورة من القبائل على قريش ، وثورة على الزكاة من فرائض الدين خاصة ... وإن أحق الناس أن يبغض تلك الردة لهو عمرو المسلم القرشي العامل على الزكاة .

فلما كان في طريقه من عمان إلى المدينة ، نزل ببني عامر فإذا بزعيمها قرة بن هبيرة يهم بالردة ويقول له : « يا عمرو ! إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة ، فإن أعفيتموها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم » . فلم تأخذه في الأمر هوادة ، بل اشتد فيه كما اشتد أبو بكر ، وصاح بزعيم بني عامر : « ويحك ! أكفرت يا قرة ؟ . تخوّفنا بردّة العرب ! فوالله لأوطئن عليك الخيل في حَفْش أمك » أي في خبائها !

ثم أبى إلا أن ينبىء الخليفة بما سمع من قرة ، غير مُبْقٍ منه بقية يسترها مخافة عليه . فلما جيء بالرجل مأسوراً ، وانطلق عمرو يروي ما سمع منه ،

ووصل إلى ذكر الزكاة صاح به الرجل : مهلاً يا عمرو . فقال : كلا والله ! لأخبرنه بجميعه .

وكان هذا الموقف منه أول ما استحق به الثقة والرعاية في عهد الخلافة .

* * *

وواقع الأمر أن ثقة الخليفة الأول كانت مكفولة لكل من تولى عملاً للنبي عليه السلام ، ومات النبيُّ وهو راض عنه .

فلما وقف عمرو من حروب الردة ذلك الموقف الذي حمده أبو بكر خاصة ، لاشتداده في قمع هذه الحركة الخبيثة — أصبح عمرو أقرب من المقربين في العهد الجديد ، ونظر أبو بكر فيمن يوليه حرب قضاعة ، فلم ير أمامه خيراً من صاحبه عمرو ، وقد تولى حربها قبل ذلك في عهد النبي ، وكان الخليفة الأول يومئذ من جنوده .. فأبلى في تأديب قضاعة أحسن بلاء ولم يرجع عنها إلا وقد سلّمت بحق الزكاة وثابت إلى شرعة الإسلام .

والظاهر من بعض الروايات أن عمراً تولى لأبي بكر أعمالاً أخرى تدل على ثقة الخليفة به واعتماده عليه . ففي رواية الحافظ أبي عبد الله شمس الدين محمد الذهبي أنه « قدم دمشق رسولاً من أبي بكر إلى هرقل » ويغلب على الظن — إن صح نبأ هذه الرسالة — أنه أُوفد من قِبل الخليفة لاستطلاع حال العرب في طريق الشام ، مستنفراً إياهم إلى حرب الروم إذا وقع المتوقع من الحرب بينهم وبين المسلمين ، فذلك أشبه المهام بما يندب له عمرو بن العاص ، وليس في تواريخ الإفرنج أو العرب ما يعزز نبأ رسالة من الرسائل حملها إلى هرقل من أبي بكر الصديق .

ثم ترامت أخبار الأهبة الكبيرة التي تأهب بها هرقل للقضاء على الدولة الاسلامية في نشأتها ، ونمي إلى الخليفة أنه جمع مائة ألف أو يزيدون على مقربة من حدود فلسطين ، فجرد جيشاً من ثقات المسلمين الذين لم يختلط بهم

في بادىء الأمر أحد من أهل الردة ، وعقد لواءه لخالد بن سعيد بن العاص – أخي عمرو لأمه – وأمره أن يستعين بالعرب في طريقه ، وأن ينزل بتيماء مترقباً لا يبرح مكانه إلا بإذنه ، ولا يقاتل إلا من بدأ بقتاله ، ولعله أراد بتجريد هذا الجيش تأمين الطريق من انتقاض أهل البادية حينما سمعوا بتحفز الروم للهجوم على بلاد المسلمين ، ثم استطلاع الخبر وتعويق حركة الروم حتى يجمع لهم كفايتهم من الجند والقواد .

وقد كره عمر بن الخطاب ولاية خالد : « لأنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب » فسعى عند الخليفة في عزله ، فعزله وعقد لواءه ليزيد بن أبي سفيان .

هنالك جاشت مطامع عمرو ، فسمت به همته إلى قيادة الجيوش الاسلامية التي تصد الروم وتفتح الشام ، ورأى أن خالد بن الوليد صاحبه القديم تكفل بدولة الأكاسرة ، فليكن هو إذن كفيل المسلمين بدولة القياصرة ، ولم يشأ أن ينتظر حتى يبرم الرأي في مسألة القيادة العليا وهو غائب عنها ، فلما أخذ الخليفة في تجريد الجيوش وعقد الألوية لها ذهب إلى عمر بن الخطاب فقال له متلطفاً : « يا أبا حفص ! أنت تعلم شدتي على العدو ، وصبري على الحرب ، فلو كلمت الخليفة أن يجعلني أميراً على أبي عبيدة ، وقد رأيت منزلتي عند رسول الله ، وإني أرجو أن يفتح الله على يدي البلاد ويهلك الأعداء » .

فأجابه عمر بصراحته الصادعة :

«كلا ، ما كنت لأكذبك ! وما كنت بالذي أكلمه في ذلك ، فإنه ليس على أبي عبيدة أمير ! ولأبو عبيدة عندنا أفضل منزلة منك وأقدم سابقة ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال فيه : أبو عبيدة أمين الأمـــة » فلم ييأس عمرو من إقناعه بعدما سمع ، وراح يقول له : « ما ينقص من منزلته إذا كنت والياً عليه » . فانتهره عمر قائلاً : « ويلك يا عمرو ! انك ما تطلب

بقولك هذا الا الرئاسة والشرف ، فاتّق الله ولا تطلب إلا شــرف الآخرة ووجه الله تعالى » .

واستقرّ رأي الخليفة على البعوث وقوادها ، فأنفذ أبا عبيدة بن الجراح إلى حمص ، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق ، وشرحبيل بن حسنة إلى وادي الاردن ، وعمرو بن العاص إلى فلسطين ، وخشي أن يقع الخلاف مرة أخرى على الرئاسة ، فقال له وهو يودعه : « ... كاتِبْ أبا عبيدة ، وأنجده إذا أرادك ، ولا تقطع أمراً إلا بمشورته » وأوصاه أن يذهب في طريق العقبة إلى فلسطين .

ويقدر عدد الجيش الذي قاده عمرو بتسعة آلاف مقاتل ، معظمهم من أهل مكة والطائف وهوازن وبني كلاب ، وعدد الجيوش الإسلامية كافة بسبعة وعشرين ألفاً من الفرسان والمشاة .

وكان ذلك في أواخر السنة الثانية عشرة للهجرة ، على القول المشهور ، أو في أوائل السنة التي بعدها ، على قول آخرين .

* * *

إلا أن دهاء عمرو أنزله من هذه الجيوش منزلة المشورة والمراجعة ، وإن لم ينزله بينها منزلة الرئاسة العامة والقيادة العليا .

فلما اقترب جند المسلمين من مواقعهم التي قصدوا إليها ، سمعوا بأهبة العدو ، فاذا هو يزحف إليهم في جحافل جرارة تبلغ عدتها مائة وخمسين ألفاً ، من حاملي الشكة السابغة والعدة الكاملة ، فترددوا وتشاوروا وكتبوا إلى عمرو بن العاص وإلى الخليفة ، فوافاهم الجواب منهما معاً بالاجتماع للقاء الروم في موقع واحد ، وكان رأي عمر أن يتراجعوا إلى اليرموك ، وينتظروا جيوش الروم هناك .

وأقبل خالد بن الوليد يطوي الصحراء بأمر الخليفة لنجدة القواد من

اخوانه المبعوثين لحرب الشام ، فألفاهم متفرقين لا يجتمعون على قيادة ، واقترح عليهم ذلك الرأي الذي تواترت به الروايات ، وهو تداول الإمارة بينهم ، وأن تكون الإمارة إليه في اليوم الأول ، وقد وقع في تعيين تاريخه خلاف كبير .

قيل إن عدة المسلمين يومئذ لم تجاوز خمسين ألفاً ، وارتفع الطبري بعدة جيش الروم إلى مائتين واربعين ألفاً ، وهبط بها بعضهم إلى أقل من نصف هذا العدد ، وليس هو بقليل .

وكانت ملحمة الرجاء المستميت ، واليأس المستميت ، وتنادى أبطال المسلمين على عهد الموت لا يرجعون إلا منتصرين ، أو يقعوا مكانهم مستشهدين ، وتزمل اليائسون من الروم في أماكنهم ينتظرون القتل إيثاراً له على عار الفرار ، فانجلى النهار عن هزيمة اليأس وغلبة الرجاء، واشتهرت هذه المعركة باسم معركة أجنادين ، على اختلاف في الموقع والتاريخ لا يعنينا هنا أن نتقصاه .

ويؤخذ من المصادر المختلفة أن عمراً قد اشترك في أكثر حروب الشام بين دمشق وفلسطين ، وأن شجاعته فيها جميعاً كانت كِفاء دهائه وحزمه ، فلم يكن يرضى لنفسه مقاماً في الشجاعة دون مقام أحد من القواد أيّاً كان حظه من سمعة البأس والإقدام . وذكروا في وصف وقعة اليرموك أن الروم هجموا في بعض حملاتها بقضهم وقضيضهم على فريق من المسلمين ، فانكشف المسلمون وولى صاحب رايتهم ، فلحِق به خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص يتسابقان لأخذها من يده ، فأخذها عمرو واندفع بها يقاتل المتقدمين من الروم حتى كرَّ اليه المسلمون وتجمعوا حوله، فأدبر الروم منهزمين .

* * *

وكأنما شاءت الأقدار للخليفة الأول — أبي بكر الصديق — أن يفارق

الدنيا وقد اطمأن إلى غزوة الروم ، التي اضطلع بتبعاتها المرهوبة وهو عظيم الهم بها ، شديد القلق من عواقبها . فانتهت أيامه بهذا النصر المؤزر الذي أوشك أن يكون حاسماً كل الحسم في معارك الشام وفلسطين .

وأسلم الزمام إلى خير يد تُلقى إليها الأزمّة من بعده، فبويع لعمر بن الخطاب بالخلافة والنصر مقبل ، والحوادث مواتية لمن يتولاها بالحزم الذي هو أهله ، وبالروية التي كانت قرينة لحزمه .

وكان عمر بن الخطاب من أعظم الناس ثقة بأبي عبيدة بن الجراح ، لما سمع من تزكية النبي له ، واختبر من أمانته وإيمانه في طويل الصحبة بين الرجلين العظيمين . وكان يبلغ من هذه الثقة أنه هم أن يبايعه بالخلافة في عجلة الموقف بعد وفاة النبي عليه السلام ، وأنه كان يقول وهو يجود بنفسه : « لو كان أبو عبيدة حيّاً لعهدت إليه » .

فلم يلبث غير قليل أن وضع هذه الثقة في موضعها ، فأسند إليه القيادة العامة في حرب الروم ، واعتمد على رأيه فيما يأتيه من أخبار ذلك الميدان الفسيح .

والظاهر أن توحيد القيادة كان أعون على توزيع العمل بين القواد في أنحاء الميدان كله ، فاستقل عمرو بن العاص بغزوات فلسطين وما جاورها ، وتم على يديه فتح سواحلها وحصار بيت المقدس ومنازلة صاحبها « أريطيون » ، بالجرأة تارة ، وبالمكيدة تارة أخرى ، وكلتاهما من الصفات التي اشتهر بها عمرو بن العاص .

واتفقت المصادر على التنويه ببلاء عمرو في هذه الغزوات ، فوضح منها جميعاً أنه لم يكن يألو ذلك العمل الجُسام الذي وكل إليه جهداً من شجاعته ولا من تدبيره، وربما جشمته موارد التدبير مخاطر لم يتجشمها في موارد القتال !

من أمثلة ذلك ما رواه ابن الكلبي حيث قال: « لما فتح عمرو بن العاص

قيسارية سار حتى نزل غزّة » فبعث إليه عِلْجُها أن ابعث إليّ رجلاً من أصحابك أكلمه ، ففكر عمرو وقال : ما لهذا أحد غيري! وخرج حتى دخل على العلج فكلمه ، فسمع كلاماً لم يسمع قط مثله ! فقال العلج : حدثني ، هل في أصحابك أحد مثلك؟ قال : لا تسأل عن هذا ، إني هين عليهم إذ بعثوا بي إليك ، وعرضوني لما عرضوني له ولا يدرون ما تصنع بي . فأمر له بجائزة وكسوة وبعث إلى البواب : إذا مرّ بك فاضرب عنقه وخذ ما معه . فخرج من عنده ، فمر برجل من نصارى غسان فعرفه . فقال : يا عمرو ! قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج . ففطن عمرو لما أراده ، ورجع ، فقال له العلج : ما ردّك إلينا ؟ قال : نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع بني عمي ، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد ! فقال : صدقت ، أعجل بهم ! وبعث إلى البواب أن خلِّ سبيله . فخرج عمرو وهو يتلفت ، حتى إذا أمن قال : لا عدت لمثلها أبداً . فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلج قال له : أنت هو ؟ قال : نعم ، على ما كان من غدرك ... » اهـ .

وهذه القصة التي أشرنا إليها غير مرة — لا تؤخذ على علاتها في تفصيلاتها ، ولا يلزم أن تصح أصولها ولا فروعها ، ولكنها تدل — ولو كانت مؤلفة — على أشياء قريبة من الحقيقة ، بل لا بد أن تكون قريبة منها ، لأن صدق الأخبار عامة لا يستقيم ولا ينتظم بغيرها ، فمن تلك الأشياء شهرة عمرو بالدخول في أمثال هذه المداخل العويصة التي يجرب فيها حيلته كما يجرّب إقدامه ، ومنها أن عرب الشام كان فريق منهم على الأقل ينظر إلى الحرب بين الروم والمسلمين نظرة العصبية الجنسية ، على ما بينهم من الفارق في العقيدة ، فلم يعتذروا كذباً حين زعموا بعد هزيمة الروم أنهم أكرهوا على القتال في صفوفهم وهم يودون لهم الهزيمة ، ويتمنون الظفر لإخوانهم في الأصل واللغة . ومن تلك الأشياء أن عمراً كان معروفاً بين أهل غسان ، فلا يبعد أن يصدق ما خطر لنا عن رسالته إلى أنحاء دمشق من قبل الخليفة

الصديق ، وأنها كانت رسالة إلى عرب القبائل الشامية لتحريضها واستطلاع أحوالها قبل الشروع في قتال الروم .

وجماع تلك الأخبار التي لا خلاف في لبابها — وإن وقع الخلاف على قشورها — أن عمراً كان بطل الغزوة الشامية في ميدان فلسطين ، وأنه ربما كان بطل الغزوة من طلائعها الأولى ، يوم كانت بعدُ في طور التأهب والاستطلاع .

وليس رأي الخليفة الجديد في عمرو بمجهول ، فربما كانت ثقته باقتداره واستعداده لعظيمات الأمور أكبر من ثقة أبي بكر الذي تابع في استعماله سنة النبي عليه السلام ، فعمر بن الخطاب هو الذي قال فيه : « لا ينبغي أن يمشي أبو عبد الله على الأرض إلا أميراً » ، وهو الذي كان يقول كلما رأى رجلاً يلج في كلامه : « خالق هذا وخالق عمرو واحد » !! وهو الذي تبين صواب هذه الثقة في غزوات فلسطين نفسها ، فجعل يقول لإخوانه : « رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب » ، يعني أريطيون الذي كانت تصفحه قلة النقط والشكل في الحروف العربية يومئذ إلى أرطبون .

وما زالت ثقة الفاروق بكفاءة عمرو ودرايته تعظم وتتمكن كلما صحبه التوفيق في فتح مدينة بعد مدينة ، والغلبة على جيش بعد جيش . حتى فرغ من السواحل والمشارف ، واتجه بعزمه كله إلى حصار « إيلياء » أو بيت المقدس حاضرة البلاد .

وقد شدد الحصار عليها حتى يئس أريطيون من مقاومتها وفر منها إلى الديار المصرية ، وقيل إن بطريقها لم يؤجل تسليمها للقائد العربي إلا لأنه أراد أن يكون التسليم بمحضر من الخليفة ، فكتب عمرو يستدعيه ويعلمه برغبة البطريق ، وتم الصلح في السنة الخامسة عشرة للهجرة بحضور الفاروق .

وما هو إلا أن سكنت الشام إلى الحكم العربي ، وخف الطاعون الذي

فشا في أرجائها بين السنة السابعة عشرة والثامنة عشرة للهجرة ، حتى تطلعت نفس عمرو إلى فتح أكبر وأخطر ، ونازعته إلى منزلة أشبه به وأجدر : إلى فتح الديار المصرية التي يعلم المسلمون من القرآن الكريم أنها كرسي فرعون ذي الأوتاد ويعلمون من أخبار أيامهم أنها درة التاج في دولة هرقل ، وأن الروم لا يدعونها ولو غلبوا عليها ، لأنهم عادوا إليها فانتزعوها من الفرس بعد مقامهم بها اثنتي عشرة سنة ، وفاقاً لوعد القرآن أن الروم من بعد غَلَبِهم سيَغلبون .

وهنا تشترك المصادفة والتقدير اشتراكهما في كل عمل جُسام من أعمال التاريخ القديم والحديث !

تُرَى كيف كان يخطر هذا الخاطر على بال الفاروق لو لم يفاتحه فيه عمرو بن العاص ؟

وتُرَى كيف كان يخطر هذا الخاطر على بال عمرو بن العاص لو لم يكن فاتح فلسطين على طريق مصر ، وكان فاتح دمشق أو فاتح السواد ؟

وتُرَى كيف كان التردد منتهياً بالخليفة لو لم ينته وعمرٌو يُغذُّ السير في طريقه إلى التخوم المصرية ؟!

أفضى الفاتح الجسور بأمله وأمل الإسلام إلى الخليفة ، فاستمع إليه ، وتردد فيه بين ما عرف من كفاية عمرو ، وما عرف من إقدامه على **العظائم** في سبيل الشرف والرئاسة ..

بل تردد فيه بين دواعي السلم ودواعي الحرب ، وهو لا يرى داعية للحرب إلا درءاً لخطر أو قصاصاً من عدوان ..

وكان أقرب الناس إلى الفاروق يترددون مثله ، ويرون في طماحة عمرو ابن العاص مثل رأيه ، منهم من يخلص في حذره ، ومنهم من يغار من عمرو أن يكتب هذا الفتح الجليل على يديه !

وفي طليعة المخلصين حذراً من عواقب هذا الطموح الجموح ، عثمان ابن عفان ، فقد كان يذكر الفاروق بجرأة ابن العاص ، وأنه يرد المهالك في سبيل طمعه ، وما بالفاروق من حاجة إلى تذكير .

أما ابن العاص ، فقد كان أخبر بالخليفة وبمصر من أن تفوته وسيلة الإقناع في هذا المقام !

إنه ليعلم حرص الفاروق على جند المسلمين أن يسفك دم واحد منهم في غير خطر واقع أو عدوان محذور .

فلتكن غزوته لمصر إذن للخطر الواقع ، وضماناً لأرواح المسلمين ، ولقد كانت هي كذلك لا مراء .

ولم يكن عمرو مغرِّراً بالفاروق ، ولا كان الفاروق ممن يجوز عليهم التغرير ، فإنه ألقى إلى الخليفة أن « أريطيون » داهية الروم قد فر إلى مصر ليجمع فيها قوة الدولة الرومانية ويكرَّ بها على الشام ، فلا أمان للمسلمين في فلسطين أو الشام أو الحجاز نفسه وباب هذا الخطر مفتوح ! ! وإنما يوصَد الباب إذا ضربت الدولة الرومانية في مصر ، وامتنع منها مدد الجند والمال والطعام لتلك الدولة المتداعية .

فعلم الفاروق أنه يستمع إلى صواب ، واستجاب لرأي عمرو وهو بين الإقدام والإحجام ، فأذن له في المسير ، وأنظره كتاباً آخر يأتيه منه في الطريق ، وقال له : « سيأتيك كتابي سريعاً إن شاء الله تعالى ، فإن أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها ، فانصرف . وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي ، فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » .

ولا نعتقد أن الفاروق قد ترك الأمر للقرعة المجهولة، تبرم فيه وتنقض حسب اتفاقها ، ليسلم إليها العنان في هذا العمل العظيم ، ولكنه أراد أن

يستزيد من المشاورة والتفكير ، وأن يشرك معه ذوي الرأي في التبعة التي هو مقدم عليها . فإذا كف عمراً بعد ذلك قبل أن يطرق أرض مصر فلا ضير من كفه ، وإذا جاءه الكتاب وهو في أرضها فقد امتنع الرجوع ووجب المسير ، لأن الرجوع عن أرض بعد دخولها يكشف للروم ضعفاً من العرب ورهبة من العدو ، ويغريهم بالكرة على الشام ، ويعينهم على جمع الجموع لاستئناف القتال ولو لم يفكروا فيه قبل ذلك ، ويخيف أهل مصر أن يستسلموا للعرب إذا أقبلوا مرة أخرى ، لأن العرب أنفسهم يقدمون على بلدهم بين الشك واليقين .

قيل أن كتاب الفاروق أدرك عمراً في رفح ، فأغضى عن الرسول حتى بلغ إلى مكان من مصر غير مختلف فيه ، فقرأ الكتاب وقال لجنده : لم يلحقني كتاب أمير المؤمنين حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا وامضوا على بركة الله وعونه . وكذلك التقى التدبير والمصادفة مرة أخرى في الصفحة الأولى من هذا التاريخ الكبير .

* * *

فتحُ مِصر

كان الصدام بين العرب والدولة الرومانية قضاء موعوداً منذ اللحظة التي نشأت فيها الدعوة الإسلامية وكتب لها البقاء ، لأن الإسلام رسالة تتجه إلى أسماع الناس وقلوبهم ، ولأن الدولة الرومانية سلطان قائم يحول بين رسالته وبين الأسماع والقلوب .

فلا مناص من التقائهما يوماً من الأيام ، على سلام أو على خصام .

وهما إذا التقيا على خصام أو على سلام دخل الإسلام مصر مدافعاً أو غير مدافع .

ويفتح الإسلام مصر على كلتا الحالتين فتحَ رضوان أو فتح تسليم ..

وإنما هو كتاب مؤجل إلى أوانه المقدور .

* * *

لمح النبي عليه السلام هذا المصير بلحظ الغيب قبل أن يحين أجله المقدور ببضع عشرة سنة .

وكتب إلى المقوقس ، عظيم القبط ، يدعوه إلى الدين الجديد دعوة أهل الكتاب : « اسلم تَسْلَم يُؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط : يَا أهْلَ الْكِتَابِ تَعالَوْا إلىَ كلِمَةٍ سَوَاءٍ بيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

ألاّ نَعْبُدَ إلاّ اللهَ ولاَ نُشْرِكَ به شَيْئاً وَلاَ يَتّخِذَ بَعْضُنا بَعضاً أرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإنْ تَوَلّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأنّا مُسْلِمُون » .

وقد تلقى جوابَ المقوقس مؤذناً بالأمل ، غير قاطع بالإباء ، يقول فيه كما جاء في بعض نصوصه . « ... فهمت ما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيّا بقي ، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام » ... ثم يقول : « وقد أكرمت رسلك . وبعثت إليكِ بجاريتين لهما مقام في القبط عظيم ، وبكسوة ، وأهديت اليك بغلة لتركبها ، والسلام » .

وتعلقت الحوادث بأجلها الموعود .

وقال النبي جازماً لصحابته الأقربين : « ستفتحون مصر ، وهي أرض يسمى فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لهم ذِمّةً ورَحِماً .»

وعلم عليه السلام أنه فتح لا ينام عنه الغالب ولا المغلوب ، فقال لصحابته : « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جنداً كثيفاً ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : ولمَ يا رسول الله ؟ قال عليه السلام : « لأنهم وأزواجهم في رباطٍ إلى يوم القيامة » .

* * *

فما كان من مسلم في حياة النبي عليه السلام ، أو بعد وفاته ، إلا وهو يعلم أن مصر مفتوحة للمسلمين على يقين .

وإنما هو الأوانُ المحتوم ، في يوم غير معلوم .

وآية ذلك الأوان أن يجيء الخطر من قِبَل مصر ، أو يقوم الروم فيها عائقاً كؤوداً في سبيل الدعوة .

وعمرو بن العاص هو الذي قال إنه رأى الآية بعينيه ، وقال إن العائق كؤودٌ إذا أجِّل ، ميسور التذليل اذا عوجل قبل استقراره .

وقالها وهو صادق في مقاله !

غاية ما هنالك أنه رآها بعين العبقرية التي تلمحها وراء الحجب من بعيد ، وأنه فسر الحلم المحقق بوحي الإلهام فأحسن التفسير !

لم يكن هو الذي اخترع عزيمة الإقدام على فتح مصر ، فقد كان فتحها في حكم الواقع المفروغ منذ سنين .

ولكنه كان هو الذي أعلن الوقتِ المقدور ، وأصاب الاختيار ، واهتدى إلى الأوان .

ولم يخدع نفسه ، ولا خدع الخليفة ، ولا جازف بالفتح الخطير مجازفة الطيش والجهل بالعُقْبى ، ولكنه عند من يجهل الحقائق مجازف هجّام !! وعند من عرف الحقائق كما عرفناها اليوم حاسب دقيق الحساب ، وحالم مطمئن أصدق في حلمه من الخائف اليقظان !

أفكان عمرو إذن يعرف الحقائق كما جلاها لنا التاريخ بعد مئات السنين ؟

لا ولا جدال !

لم يكن يعرفها مفصَّلة محصَّلة كما عرفناها ، وذلك فضله الكبير .

ولكنه احسها جملة ، فملأته باليقين الذي يمتلىء به العارف بعد التفصيل والتحصيل .

ففي حياة عمرو بن العاص حدثت في مصر ، وحول مصر ، خطوب لن يجهلها مثله ، وإن لم يطلع على وصفها المسهب ، كما كتبه المؤرخون من أبناء العصور الحديثة .

كان في عنفوان الرجولة يوم أغار الفرس على الروم ، ففتحوا ما بين بيت المقدس والإسكندرية في أقل من سنتين .

وكان فتىً يعقل الدنيا يوم أغار القائد الروماني نقتاس على الديار المصرية

من المغرب ، بجيش لا تزيد عدته على ثلاثة آلاف ، منهم البدو والسودان ، ففتحت له الثغور والمدائن بمواطأة من أهل البلاد ، ومن بعض الرومان الناقمين على عاهل القسطنطينية .

وكان يزور بيت المقدس ، ويصغي إلى حُجّاجه ورهبانه المقيمين فيه ، فيسمع أخباراً تنم على ما في مصر من قلق الرعية ، وضعف الرعاة ، واستفحال الشقاق بين طوائف النصارى ، وغضب المصريين من الروم ، سواء منهم الموافقون لهم في المذهب والمخالفون .

وكان يلقى اليهود في وادي الأردن ، وكلهم مغيظ من الدولة الرومانية ، لما أصابهم على يديها من الذبح والنهب والتشريد ، وفيهم من هو أعلم بمصر ومداخلها ومخارجها ومواقع الخلل فيها من حكامها الرومان .

وحضر غزوات الشام ، وسمع بغزوات العراق ، فعلم أن جيوش الإسلام على قلتها قد غلبت الفرس وغلبت من غلبوهم في النضال الأخير : غلبت هرقل وهو في أوج مجده ، فما أحراها أن تغلبه وهو مَهيضٌ بعد هزائم الشام وفلسطين ، وقد شاخ وغامت على عقله الوساوس وحاقت به الدسائس ، وتلكّأ زمناً بين الحياة والموت !

فإن لم يكن عمرو قد علم هذا تفصيلاً ، فقد علمه جملة وافية ، علمه بالقدر الصحيح الذي يتيح له أن يقول للخليفة إنه يقدم على فتح بلد « ليس أقل منه قوة ، ولا أعظم منه ثروة » .

ولو أنه علم تفصيل الحوادث التاريخية كما علمناها اليوم ، لكان ذلك أحرى أن يزيده إقداماً ، وأن يلهب من شوقه إلى الفتح ما يرسله في سبيله قُدُماً ، قليل المبالاة بكل تحذير وتهويل ! !

لأنه كان أحرى أن يعلم أن أهل البلاد يرحبون به ، وإن لم يرحبوا بالفرس من قبله ، لأن الفرس قتلوا الرهبان والقسوس في طريقهم إلى مصر ،

ولم يكن من عادة جيوش المسلمين أن يقتلوا أحداً من الرهبان والقسوس .

ولأنه يسلك طريقاً بدوياً ، يستطيعه البدو ، واستطاعوه في قديم ، ولا يزال سكانه منذ عرفه التاريخ بَدْواً يشعرون بعصبية القرابة لهذا الفاتح الجديد .

ولأن الروم أنفسهم كانوا قد فقدوا عزيمة القتال ، بل فقدوا ما هو ألزم من ذلك للمقاتل ، وهو إيمانه بحقه في النصر وبرضوان الله عليه . فقد كان إيمان الروم الغالب عليهم في معارك الشام أنهم استحقوا غضب الله ، وأن العرب لهم سوط العذاب الذي يصبُّه الله على عباده الواقعين في الخطيئة . وصاح بينهم بهذا النذير صائح مسموع الكلمة في مؤتمر أنطاكية الذي اجتمع إليه كبارهم وأحبارهم ، فقال لهم – وهرقل يسمع : إن الروم ليلقون من الله جزاء العصاة ! . وربما كان هرقل نفسه يشعر بذلك الشعور ، لأنه كان في شيخوخته دائم الندم معذباً بوسواس الخطيئة ، لبنائه ببنت أخته « مرتينة » ، بعد علاقة بينه وبينها ، وهو إثم محرم في دينه ! !

ولا نخال عمراً قد غفل عن استطلاع البلاد المصرية برسل من عنده ، أو بالاستماع إلى أناس يغنونه عن الرسل ، فعلم أن الحصون مهملة ، وان الدساكر معطلة ، وأن الجنود المفرقين هنا وهناك يدفعون عن معاقلهم في وهن ويأس من المصير ، ويعيشون بين شعب يبغضهم ويتمنى لهم الهلاك والضياع ، ويجهر بعدائهم ومشايعة أعدائهم ، إذا أمن عاقبة الجهر بالعداء ، ورجح عنده الأمل في غلبة المغير عليهم ! وأي عدو هو أولى بالأمل في غلبته من غزاة العرب الذين صدوا الأكاسرة والقياصرة ، واقتحموا عليهم عقر دارهم وهم مجلبون إليهم من قرار سحيق ؟؟ فإذا أصبح لهؤلاء العرب مقام محمي في تخوم مصر وعلى مداخلها ، أيشق عليهم إذن أن ينتزعوا مصر من هرقل وليس فيها غير ظل له بعيد ؟

* * *

تقدم العرب إلى الديار المصرية ، وبينهم وبين عدوهم فروق كثيرة في العدد والعدة والحضارة والعقيدة ، من الفضول أن نعرض لحصرها في هذا المقام ، ومن الإسهاب في غير موضعه أن نتتبع أصولها ونتعقب فروعها في تاريخ الأمتين . فإنها لتجتمع كلها في فرق واحد يغني من وعاه عن كل تفرقة بعدها ، مسهبة كانت أو مقتضبة ، وهو الفرق بين قوم ضيعوا كل ثقة في النصر ، وقوم ضيَّعوا كل شك فيه وآمنوا بحقهم في النصر كل إيمان .

ضاعت ثقة هرقل في نفسه ، وضاعت ثقة الروم في صلاحهم للحكم ، وضاعت ثقة الأعوان في صلاح العاهل والدولة ، ولم تبق لهم إلا بقية من تمسُّك يقيمها الخوف من عقاب الرؤساء ، ويوشك أن يذهب بها خوف أعظم منه وهو الخوف من بأس المغيرين !

ومن الجانب الآخر ملك العرب كل ثقة بالنصر وكل إيمان بحقهم فيه ، واطمأنوا إلى خليفة قوي ، وقائد قوي ، وصبر قوي على كل بلاء ! وعلم عدوهم هذا منهم فوصفهم بعد رؤية وخبرة بأنهم « قومٌ الموت أحب إليهم من الحياة ! والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة ! ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نَهْمَة » !

ومع هذا الفارق الذي هو خلاصة جميع الفوارق « لم تكن الثقة وحدها هي العدة التي رجح بها العرب وانخذل بها الروم . بل ظهر من تقابل الفريقين في شتى المعارك أن العرب كانوا أخبر بفنون القتال — ولا سيما في المفاجأة — من قادة الروم الذين كلُّوا وكلّت عقولهم بالإهمال والاستنامة إلى الترف والغرور .

فقد كان عمرو يوجّه خطط القتال كما يشاء منذ تخطى الحدود وأوغل في جوف البلاد ، وكان يضطر أعداءه إلى تبديل خططهم وتحويل معسكراتهم كلما تحرك في الشمال أو الجنوب حركه مفاجئة لا يدرون ما يعقبها . فبينما

هم يتجمعون في الفيوم ، إذا هو يزحف إلى منف شمالاً ، ويوهمهم أنه موغل في الجنوب الى تخوم النوبة . وقد أعانه على المفاجأة خفة العدة ، وقلة الزاد ، وسرعة الخيل العربية في سهول الريف ورمال الصحراء . ومن هذه المفاجآت البارعة تلك المفاجأة التي دهم بها الروم عند الجبل الأحمر ، وفقدوا بها جيشاً يقارب عشرين ألفاً ، لم يبق منه إلا بضع مئات ، وكان قائدهم « ثيودور » قد خرج للقاء عمرو عند عين شمس ، فاستعد له عمرو بقلب جيشه ، وأقام من جناحيه كميناً عند الجبل الذي يلي المكان المعروف بالعباسية الآن ، وكميناً آخر عند « أم دنين » حيث قامت الأزبكية الحديثة . واستمر القتال بين الجيشين ، والروم يحسبون أنهم يواجهون الجيش العربي كله ، ويستنفدون الجهد أجمع في الغلبة عليه ، فما راعهم إلا الجيشان الكمينان ينقضّان على حين غرة ، فيبتعد الأمل القريب ويدبّ اليأس في مكانه إلى القلوب ، ويرجع القوم بثلاثمائة مشردين من ألوف ربما تجاوزت العشرين !

وكلما خطر للروم أن يأخذوا العرب بحياتهم ويرتدوا عليهم بمفاجأة من مفاجآتهم ، حبطت الحيلة في أيديهم ، ووجدوا العرب أيقاظاً لهم كأنهم كانوا على علم بنيّاتهم ومكائدهم . فما خرجوا من معاقلهم المحصورة في ليل ولا نهار ليدهموا العرب على غرة ، إلا تجمعت لهم أهبة الجيش كله في لحظات معدودات ، فإذا هم المأخوذون بما دبروه ، كأنهم سيقوا على كره منهم إلى شرَك منصوب .

فالعرب لم ينتصروا اتفاقاً ولا جزافاً ، ولكنهم انتصروا بخير ما يكفل النصر للمجاهدين : بالثقة والخبرة ، ثم بشيء آخر يعين الثقة والخبرة أيما عون في الميادين البعيدة عن ديار المعسكرين المتقاتلين ، وهو اطمئنان العرب إلى أهل البلاد من حيث خشيَهم الروم وتوقعوا منهم كل مكروه ، لأن العداء بين المذهب الملكي ، وهو مذهب الروم ، والمذهب اليعقوبي وهو مذهب القبط ، لم يدع مكاناً لتوفيق الكنيستين ، ولم يبق في النفوس بقية

للرحمة ولا للصلح والهوادة . وبلغ من لدد هذا العداء أن الروم أُمهِلوا ثلاثة أيام للخروج من حصن بابليون ، فقضوا يوماً منها في تعذيب القبط وتقطيع أيديهم وأرجلهم ليتركوهم في حالة لا يفرغون فيها لشماتة بعدوهم المهزوم .

نعم إن التضارب كثير فيما كان من موقف القبط بين حكامهم الروم ، وبين المسلمين المغيرين على أرضهم ، ولكنه تضارب لا غرابة فيه ، ولا موجب لاتخاذه دليلا على كذب الأخبار في جملتها ، ولا لتقييد المؤرخ بترجيح قول منها على قول . فإن التضارب حالة لا محيص عنها في الموقف كله ، وفي أقوال المؤرخين الذين كتبوا عنه بعد زمن طويل أو قصير .

فكراهة القبط للروم ثابتة لا جدال فيها ولا يتطرق الشك إليها ، فإذا جاء في بعض التواريخ أنهم أظهروا المودة للعرب ، وجاء في تواريخ أخرى أنهم لبثوا على موالاة الروم إلى ما بعد الهزيمة الحاسمة ، فليس سبب ذلك أنهم أحبوا أولئك وكرهوا هؤلاء ، ولكنما السبب أنهم ترقبوا جلاء الموقف بين الجيشين المتقاتلين ، وأنهم كانوا يعملون متفرقين ، لامتلاء البلاد بالمعسكرات التي تقطع الصلة بين أجزائها ، فيكون قوم منهم على مقربة من جند الروم تارة ومن جند العرب تارة أخرى ، ويكون الأقوام المتفرقون على نية متشابهة وأعمال متخالفة على حسب الحوائل والأحوال .

وعلينا أن نترقب تضارباً كهذا في أكثر الأخبار التي تصل إلينا عن فترة الفتح ، وعن حركات الجيوش ومفاوضات الصلح في خلالها .

فمن العبث أن نجزم باستحالة حركة من هذه الحركات ، قياساً على أعمال الجيوش التي جرى بها العرف في غير هذه الأحوال ، لأن الاستحالة والجواز إنما يحسبان هنا بحساب لا يتكرر كثيراً في جميع الحروب .

ففي غير هذا « الفتح » يجوز مثلاً أن يسأل السائل : وكيف استطاع عمرو بن العاص أن يترك حصن بابليون ويوغل في الصعيد ، ومن ورائه

جيش أعداء يقطع عليه الرجعة ويحصره حيث كان ؟ ويجوز تبعاً لذلك أن نستبعد الحركة كلها ونحسبها من تلفيق المؤرخين .

ولكننا إذا اصطنعنا هذا القياس هنا ، وجب أن نستبعد الفتح كله من ألفه إلى يائه ، لأن أربعة آلاف مقاتل يتفرقون من العريش إلى بابليون لا يفتحون قطراً يسكنه شعب كبير وتحميه دولة كبيرة ، فإن لم يتفرّقوا وساروا جميعاً إلى حصن بابليون ، فقطع الرجعة عليهم أيسر الأمور لو سارت الحركات العسكرية على المألوف في سائر الحروب .

وما أعجب حصر الإسكندرية مثلاً وهي مفتوحة من البحر إلى القسطنطينية ؟ وما أعجب التقصير في إمدادها خلال الفتح كله ، وهو أول ما يخطر على البال ؟

فالحساب في هذا الفتح غير الحساب في سائر الفتوح .

وأولى أن يقال إن جند الروم – لا جند العرب – هم الذين كانوا على حذر من الإيغال في جوف البلاد ومن إحداق الأعداء والرعية بهم في مأزق غير متوقع . فالتناقض في هذه الأخبار وما شابهها هو طبيعة الموقف التي لعلها توجب الميل إلى قبولها ، ولا توجب الشك فيها. وعلينا كما أسلفنا أن نترقبه في كل شي ، وفي كل مرحلة من مراحل هذا التاريخ العجيب ، وقد نستغني عن تعداد شواهده الكثيرة إذا أضفنا إلى ما أسلفنا تناقضاً آخر نختم به هذه الملاحظة التي لا بد منها وهو التناقض الذي أحاط باسم الوالي الروماني الذي تلقى العرب ثم صالحهم على تسليم البلاد . فمن هو «المقوقس» هذا ، وما حقيقة الأمر فيه ؟ أهو روماني أو مصري ؟ وهل هو من رجال الحرب أو من رجال الدين ؟ وهل كان محبوباً في شعبه أو كان مبغّضاً إليه ؟

قيلت جميع هذه الأقوال فيما كتبه العرب والرومان ، ولكنه في أرجح الأقوال – كما سيأتي تفصيله – رجل من غير الروم ومن غير المصريين الأصلاء الأقدمين ، تولى من قِبَل هرقل سلطاناً دينيّاً مقروناً بسلطان

الدنيا ، ومضى في سياسته على سُنّة النهّازين للفرص من خدام الدول المتداعية ، فأغلظ للشعب الضعيف مرضاة للسادة الأقوياء ، ثم بدا له أن سادته الأقوياء ذاهبون ، فأحب أن يستقل بكرسيّه ، وأن يأوي إلى جناح الفاتحين لعلهم يشكرون له صنيعه ، ويحمونه من أعدائه في مصر والقسطنطينية .

ذلك هو أقل الغرائب في وصف هذا الرجل الغريب ، ولكنه على ذلك ليس بالوصف القاطع الوثيق ، وأوثق ما يقال عنه إنه رجل كان يرهن مصيره بمصير البلد الذي أقام فيه .

* * *

تقدم عمرو من طريق الساحل إلى العريش ، فلم يجد بها أحداً يصدهُ من قِبَل الروم ، ثم تقدم إلى « الفرما » فحاصر حاميتها واستولى عليها في أقل من شهرين ، ثم مضى في طريقه حتى نزل ببلبيس ، فهزم بها جيشاً رومانياً يقدره بعض المؤرخين بثلاثة أضعاف الجيش العربي ، وانقضّ من ناحية الصحراء على « أم دنين » فاستولى عليها ، وجاوزها إلى حصن « بابليون » أو قصر الشمع كما سماه العرب ، على الضفة الشرقية من النيل .. واختلفوا فيمن كان يقود حاميته ، فقال أناس إنه « جورج » أو الأعيرج ، كما سماه العرب ، وقال أناس إنه هو « ثيودور » الذي نازل العرب غير مرة ، وقال غيرهم إنه هو « أريطيون » صاحب عمرو القديم .

* * *

وصل الجيش العربي إلى جوار « منف » عاصمة الفراعنة ، في شتاء سنة (٦٤٠) للميلاد ، (١٩) للهجرة ، وعرض على والي البلد شروطه التي هي شروط المسلمين قبل كل قتال ، وهي الإسلام أو الجزية أو السيف . وعمد إلى التأثير الأدبي في إقناع الحامية ومن يلوذ بها من أهل البلاد ، كما عمد إلى الخدعة والبسالة . فكان إذا جاءه الرسل من قبل الروم أبقاهم بين جنوده يوماً أو يومين ليروا بأعينهم زهد المسلمين في الدنيا ، واستخفافهم

بالموت ، وصبرهم على الشدة ، وإقدامهم على الكريهة في سبيل ما هم مؤمنون به وساعون إليه .

إلا أن أدوات الحصار في جيش عمرو لم تكن من القوة بحيث تعينه على اقتحام سريع للحصون التي كانت توصف بالمناعة في تلك الأيام فطال لبثه أمام حصن بابليون قياساً على حصار الفرما وبلبيس ، ولم يشأ أن يقضي الوقت كله في الإقامة على جوانب الحصن حتى تضيق الحامية ذرعاً بالحصار فتستسلم إليه ، ولم يكن ميسوراً له أن يُنفِذ السرايا إلى مصر السفلى نحو الإسكندرية وما جاورها ، لأن ابتداء الفيضان في النهر وجداوله الكثيرة حال دون ذلك ، فحوّل سراياه إلى الصعيد وأطراف الفيوم . ويبدو لنا أنه لم يقصد بها الفتح والاستيلاء على المدن في المرحلة الأولى من القتال ، وإنما قصد بها أن يشغل جنده مخافة عليهم من فساد الراحة وطول الانتظار ، وأن يعرف بالتجربة المحسوسة مدى التعويل على ولاء أهل البلاد ، وأن يضطر حاميات الروم القليلة في الصعيد إلى البقاء حيث هي ، والعدول عن إمداد الحامية في حصن بابليون ببعض رجالها إذا خطر لها هذا الخاطر ، لأن تهديد الصعيد من حين إلى حين ، يوجب عليها أن تحمي مواقعها قبل التفكير في إمداد غيرها ، فإنما كانت حركات السرايا في الصعيد مناورات للتعمية والاستطلاع ، ولم تكن حملات للفتح « والاحتلال » .

وفي هذه الفترة خيل إلى قائد الروم أنه قادر على أخذ العرب بالمباغتة كما يأخذونه ، فتأهب للهجوم على جيش عمرو في قاعدته الكبرى بعين شمس ، وكانت تلك المعركة التي أسلفنا الإشارة إليها ودارت فيها الدائرة على الروم ، فتجلت فيها مهارة عمرو في القيادة ، كما تجلت فيها يقظته لحركات أعدائه ، وثباته لقوتهم وهي أضعاف قوته في الرجال والسلاح ! !

وانقضت السنة ، ومضت أشهر في السنة التالية ، والحصن صامد لا يسلم ، ولا يزال الذين فيه يخرجون من حين إلى حين لمناوشة جند المسلمين

والعودة إليه ، وكان النيل قد هبط في أثناء ذلك ، فاستطاع عمرو أن يرسل فرقاً من جيشه إلى مصر السفلى لتعويق حركات الروم قبل التقدم إليه ، فكان يهزمهم تارة ويرتد عنهم تارة أخرى ، بغير كبير طائل لهذا الفريق أو لذاك .

وظل الفاروق في المدينة يرقب جيشه الزاحف بعين لا تغفل ، وقلب لا يَوجَل . ولم يزل يمدهم ويسأل عن أخبارهم ويتفقدهم ، فلا يرى شيئاً هو أحق عنده بالتفقد من سلاحهم الماضي قبل كل سلاح ، وعدتهم اللازمة قبل كل عدة ، وهي الإيمان أو قوة الروح . فلما أبطأ الفتح المبين لم يرجع بإبطائه إلى قلة العدد ، أو قوة العدو ، بل رجع به إلى نقص الإيمان ودَخل النيات ، وكتب إلى المسلمين يقول ، « عجبت لإبطائكم فتح مصر ، تقاتلونهم منذ سنتين ، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأصبتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وإن الله تعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم » .

ولهذا الاستبطاء معناه التاريخي الجليل في فهم خطط المسلمين صدرَ الإسلام ، وفهم التردد الذي بدا من الخليفة يوم أن عرض عليه عمرو مسيره إلى مصر لفتحها بعد فتح فاسطين . فإن هذا الاستبطاء دليل على أنه لم يتردد في تسيير الجيش إلى مصر استهوالاً لخطب الروم ، أو استعظاماً لفتحها على جيش المسلمين ، ولكنه تردد على سنته في اجتناب الغزو إلا لدفع خطر ، أو اتقاء عدوان منتظر ، ولولا ذلك لكان استبطاؤه الفتح بعد استهواله إياه من أعجب الأمور .

وحدث في أثناء ذلك أن مات العاهل هرقل ، وشاعت الدسائس في البلاط بعده ، وفشا المرض في حامية الحصن حتى هلك به خلق كثير ، وتغلب حزب الصلح بعد موت العاهل الذي كان يأباه ، واعتز جيش المسلمين بإمداد من الفرسان المغاوير يقدر الواحد منهم بألف مقاتل ولا مغالاة ، لأن تقديره بألف مقاتل لا يعني أنه يساويهم في العدة والكثرة ، بل يعني

أنه يبث الشجاعة في الجيش بقدرته ويقينه ، فيقاتل الجيش كأنه قد زيد ألف مقاتل ، ولم يكن قصاراه زيادة فارس واحد . وليس هذا بعجيب في جيش تقوم عدته الكبرى على الثقة واليقين .

من هؤلاء الزبير بن العوام الذي جاء في بعض الروايات أنه تَسَوَّرَ الحصن يتبعه جماعة من المستشهدين ، فأوقع الرعب في قلوب الحامية وهي تعاني من اليأس والخوف والسّقام ، فأسرع أنصار الصلح إلى التسليم بعد ممانعة قليلة من المعارضين . وكان ذلك يوم الجمعة السابق ليوم القيامة سنة (٦٤١ — م) .

وبادر عمرو بعد سقوط الحصن إلى إقامة المعابر على النيل لعبوره قبل فيضانه ، ثم مضى في طريقه إلى الإسكندرية يقاتل من لقيه من فاّلة الروم أو جموعهم المتربصة في حصون المدن الكبيرة بين بابليون وشاطىء بحر الروم ، وضرب الحصار على المدينة الكبيرة بينما كانت جنوده ، وهو على رأسها في بعض الأحيان ، يشنون الغارة على مدينة بعد أخرى من مدن مصر السفلى ، حتى كان أول المحرم سنة ٢١ للهجرة (١٠ ديسمبر سنة ٦٤١) ، فسلمت الإسكندرية يأساً وخوراً وهي قادرة على مواصلة القتال سنوات ، وانعقد الصلح على أن تؤدى الجزية دينارين عن كل رجل قادر على العمل ، وأن تستمر الهدنة أحد عشر شهراً تجلو الجيوش الرومانية في خلالها عن المدينة ، وتحمل معها من متاعها ما تشاء ، وأن تباح للمسيحيين عبادتهم ، وتصان لهم معابدهم ، وأن يؤذن لليهود بالبقاء في الإسكندرية وأن يضع الروم عند المسلمين رهائن لضمان نفاذ هذا الاتفاق مائة وخمسين من المقاتلين ، وخمسين من السراة غير المقاتلين .

وكان هذا الصلح على هوى المقوقس ، ولم يكن على هوى الكثيرين من غلاة الجند وأصحاب الأموال في العاصمة التجارية الكبرى فثاروا بالمقوقس ، وأحاطوا بقصره متوعدين منذرين ، وخرج لهم باكياً يعتذر

لهم بمشيئة الله من أزل الآزال ، ولا رادّ لقضاء الله . فاستمعوا إلى الرجل الذي يكلمهم بلسان الدين ولسان الدنيا ، وشاركوه في البكاء !

* * *

تقدمت الإشارة إلى بسالة عمرو في حصار الإسكندرية ، ومجازفته بنفسه في اقتحام حصونها مع طلائع المقتحمين ، فما هو صحيح من أنباء تلك البسالة فهو شاهد بخلق قد شهدت به معارك كثيرة ومآزق شتى ، وما ليس بصحيح فهو من مبالغة الخيال في تكبير الواقع ، وليس مما ينقض ذلك الخلُق المتفق عليه .

على أن العظمة التي ثبتت لعمرو بن العاص بعد فتح مصر لا تقل عن عظمة الفاتح الجريء ، ولا عظمة القائد الضليع بفنون الخدعة والإقدام .

فقد عرف مصر وهو مقبل على حكمها ، كما عرفها وهو مقبل على فتحها ، فإذا هو صالح للعمار والقرار صلاحه للهجوم والحصار .

انتهى دور الفاتح بتسليم الإسكندرية ، وبدأ دور الحاكم الذي يسوس رعاياه .

وكان رأي عمرو أن مصر أخِذت فتحاً ، ولم تؤخذ صلحاً كما يفهم من الصلح بغير قتال ، وفي ذلك يقول : « قعدت مقعدي هذا وما لأحد من قبط مصر عليّ عهد ولا عقد ، إن شئت قتلت ، وإن شئت خمست وإن شئت بعت » !

ولكنه مع هذا شاء غير القتل وغير التخميس وغير البيع ، فعامل الرعية في أمور دينها ودنياها معاملة رضيتها ، وأطلقت ثناءها ، وجعلت البطرق بنيامين يسمي عهد العرب بعهد السلامة والأمان ، وعهد الرومان بعهد الجور والطغيان .

وكان هذا البطرق مبعداً عن مكان الرئاسة الدينية لمخالفته مذهب الكنيسة

الملكية ، فاستقدمه عمرو واحتفى به وردّه إلى مكانه .

وأقبل على سياسة البلد وتدبير مصالحه وتوفير خيراته ، فعلم أن الرخص والغلاء مرهونان بفيضان النيل ، وأن سياسة مصر هي سياسة النهر في ارتفاعه وهبوطه ، فكتب إلى الخليفة أن أهل مصر يجهدهم الغلاء إذا وقف النيل عند حد مقياس لهم ، فضلاً عن تقاصره ، وشرح له علل الغلاء فقال : « إن فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار ، ويدعو الاحتكار إلى تصاعد الأسعار بغير قحط » ثم أتبع ذلك فقال : « إني وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعاً والحد الذي تروى منه إلى سائرها حتى يفضل منه عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعاً ، والنهايتان المخوفتان في الزيادة والنقصان وهما الظمأ والاستبحار اثنا عشر ذراعاً في النقصان وثمانية عشر ذراعاً في الزيادة » .

وقام بأمر الخليفة على بناء المقاييس ، فبنى مقياس حلوان ومقياس أسوان ، وأشرف على صيانة الجداول والجسور ، وكان سكان البلاد يعتمدون على وسائل خرافية لاستدرار ماء الفيضان ، منها إلقاء قربان في النيل يقال في بعض الروايات الضعيفة إنه عذراء بقيد الحياة ، ويقال على الأرجح إنه دمية من الطين على هيئة فتاة تمثل الأرض الزراعية التي « يتزوج » بها النيل أو يثمر منها ثمراته . فكتب عمرو إلى الخليفة في ذلك ، فجاءه منه الأمر بإبطاله بعد أن فكر هو في مثل ذلك ، فأبطل هذه العادة الخرافية ، واعتمد على الوسائل المعقولة من تنظيم الماء ومناوبة الري حسبما تهيأت له الأسباب العلمية في ذلك الزمان .

وترفق في جمع الأموال من جزية الرؤوس وخراج الأرض ، فوزعها على ثلاثة أقساط في العام . ولم يزد محصول السنة على اثنى عشر مليون دينار : ثلثاها من جزية الرؤوس على حساب أربعة ملايين عدد الذكور العاملين ، ومنها نحو ثلاثة ملايين دينار خراج الأرض على حساب مليون ونصف مليون

فدان ، وهو دون الخراج الذي كان يجبى في عهد الرومان والفراعنة ، غير ما كانوا يستصفونه غصباً من الخيرات والثمرات .

وقد كانت قلة الخراج عن القدر المنظور في أول الأمر مدعاة سؤال كثير من قِبَل الخلفاء ، فراجعه عمر في ذلك ، وانتهت مراجعة عثمان إياه إلى عزله . فزاد الخراج على عهد ابن أبي سرح ، وقال عثمان لعمرو : أشعرت أن اللقاح دَرّت بعدك ألبانُها ؟ قال عمرو : لأنكم أعْجَفْتُم أولادَها !

ومهما يكن من تصرف عمرو في مال الخراج — أو من طمعه المشهور — فما نظن أن طمعه في المال المحصل كان سبباً ظاهراً لذلك النقص الذي لحظه الخلفاء . لأنه كان يستطيع أن يجمع ما يكفيه ولا يُلحَظ نقصه لو آثر الجور على القصد في السياسة . وإنما عمل بالعهد الذي كتبه للمصريين ، ونظر إلى طول البقاء في هذه الولاية ، فمضى على السياسة التي تكفل له ولاء الرعية ، وتصلح شئون العمارة في البلاد على حد قوله : « إنه لا سلطان إلا برجال ، ولا رجال إلا بمال ، ولا مال إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل » .

* * *

وكان من أهم أعمال التعمير التي تمت على يديه بأمر الخليفة فتح الخليج الذي سماه بخليج أمير المؤمنين ، بين النيل والبحر الأحمر ، فكان ممراً صالحاً للسفن التي تحمل الميرة من مصر إلى الحجاز ، وطالما احتاج الحجاز إلى تلك الميرة في أعوام القحط والمجاعة .

وبنى مدينة الفسطاط حول مسجده المعروف باسمه إلى اليوم . وإذا صح ما قيل في سبب تسميتها بالفسطاط ، فقد بقي عمرو « الشاعر » يقظان الحس والخيال تحت آكام السياسة وأنقاض الحروب . قيل إنه أراد أن يقوِّض فسطاطه ، فرأى يمامة قد باضت في أعلاه فقال : لقد تَحرَّمت بجوارنا . وأمر الجند أن يُقِروا الفسطاط حتى تطير فراخها ، فبقي حتى

بُنيت المدينة في مكانه وسُميت بالفسطاط . أو لعل السياسي هنا كان أيقظ من الشاعر ، لأن حماية يمامة وديعة في جوار والٍ ، لهي أجدى له من البأس والرهبة في استمالة القلوب العصية إلى « الحماية » الغريبة التي فرضت عليها .

* * *

ومن تمام القول في سمعة الحكم الإسلامي بعد فتح مصر ، أن نعرض لمسألة طال فيها الأخذ والرد بين المؤرخين وناقدي الإسلام ، وهي مسألة المكتبة الكبرى بالإسكندرية !

وخلاصة هذه المسألة أن عمراً رفع إلى الفاروق خبر المكتبة ، فجاءه الجواب بما نصه : « أما الكتب التي ذكرتها ، فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه . فتقدم بإعدامها » فوزعت الكتب على أربعة آلاف حمّام بالمدينة ، ومضت ستة أشهر وهي تستخدمها في وقودها .

ولم تذكر هذه الرواية إلا بعد انقضاء ستة قرون على تاريخ الفتح ، فلم يعرض لها البطريق يوتيخوس الذي توسع في الكلام على فتح الإسكندرية . وكذبها ظاهر من المبالغة في عدد الكتب التي تغني أربعة آلاف حمام عن الوقود ستة أشهر !! مع العلم بان الرّق الذي كانت الكتب تُسطر عليه في تلك العصور لا يصلح للوقود ، وأن الوالي الذي يريد إعدامها لا يسلمها لمن يبيعها أو يحفظها ، ولا يفوته أن يعهد في نقلها إلى أصحابها وقد حملوا معهم متاعهم الذي طلبوا حمله وهم ذاهبون إلى أرض الروم . وقد حدث أن هذه المكتبة أحرقت مرات في عهد يوليوس قيصر ، وعهد العاهل ثيودسيوس الذي أباد آثار الوثنية ، سواء من الكتب أو الصور أو التماثيل .

وكفى لتكذيب هذه الأسطورة أنها لا تشبه عملاً من أعمال الفتح الإسلامي ، الذي اقترن بالتعمير ولم يقترن قط بالتنكيل والتدمير . ومهما

يكن من صدق القول المعزوّ إلى عمرو في وصف : « أن نيلها عجب ، وترابها ذهب ، وأمراءها جلب ، وهي لمن غلب » ، فإنه لم يأخذها قط بسلطان الغلبة والرهبة ، ولم يشرع فيها شرعة إلا كان رائده فيها الرفق والمودّة .

* * *

البلاد والسكان

قبل الاسترسال في بقية هذه السيرة إلى نهايتها من أعمال عمرو في مصر ، نرى أن هذه السيرة تستلزم بياناً مفصَّلا عن حالة البلاد المصرية كما صارت إليه في الآونة التي تمّ فيها الفتح وقضي فيها على سيادة الدولة الرومانية ، فهذه الحالة من الأسباب التي لا يُغفَل عنها عند تقدير عمل الفاتح العربي ، وتقدير العوامل التي يسرت له الغلبة على الرومان .

وقد راجعنا بعض المراجع التي لم نقف لها من قبل ، وانكشفت في السنوات الأخيرة نيات فئة من المؤرخين الغربيين الذين كتبوا عن تاريخ الرومان بمصر ، كأنهم أناس من الرومان يذكرون مُصاباً لحق بهم ، ويلتمسون العزاء عنه تارة ، ويلتمسون العلة التي تعفيهم من وصمته تارة أخرى . وقد نظرنا إلى تعليلاتهم وتحليلاتهم بالنظرة التي تنبغي لها ، فرددنا كثيراً منها ، وهتكنا الحجاب عن كثير مما كان يخفى على من يقرأون تاريخ هذه الفترة على غير التفات إلى هذه الأهواء التاريخية ، بل هذه التواريخ العصرية التي تمليها في هذا الزمن « بواعث حية » كما سيرى القراء ، ولعلهم يستوضحون ذلك من مواجهة الحقائق في أمر البلاد والسكان ، وأبطال التاريخ المشتركين في حوادث الفتح ، على ذكر من هذه النيات .

* * *

كانت مصر في الزمن القديم معروفة بين أهلها باسم « كيم » أو « خيم » ، بياء تنطق ممالة بين الياء والألف ، ويتوهم بعضهم أنها مأخوذة من كلمة خام أو حام بن نوح ، على اعتبار المصريين سلالة حاميّة قديمة ، وهو من الأوهام التي لا سند لها من التاريخ ولا من الآثار الباقية ، لأن معنى الكلمة قديم في اللغة المصرية بمعنى الأرض السوداء ، ومنها أخذ اليونان كلمة الكيمياء حين كان علم الكيمياء يسمى بالعلم الأسود أو السحر الأسود ، لأنه من العلوم الخفية التي يستعان عليها بالأرواح الشريرة في زعم الأقدمين !

ولم يبق من أسماء مصر القديمة في العصر الحاضر غير اسمين اثنين ، أحدهما اسم « إيجبت Egypt » الذي تلقاه الغربيون عن اليونان ، ولا يزال لديهم علَماً على البلاد المصرية ، وأصله مجهول تختلف فيه الأقوال ، ويرجح أن الكلمة منحوتة من كلمتين بمعنى « جي بتاه » أو « كي بتاه » ، أي بلاد فتاح الإله الذي كان معبوداً في « منف » ، العاصمة القديمة التي عرفها اليونان الأسبقون .

والذين يرجحون هذه التسمية يرون أن كلمة « قبطي » مشتقة من النسبة إلى « كي بتاه » ، خلافاً لمن يرجع بها إلى قفط أو كوبتوس في طريق البحر الأحمر . وقديماً قيل إنها بلدة على البحر الأحمر ، ثم نقلت إلى الطريق كله بين البحر الأحمر والبلدة التي اشتهرت باسم قفط في إقليم قنا ، ولا تزال معروفة به إلى اليوم ، ولا تزال طريق القُصير وقنا من الطرق الممهدة للقوافل في العصر الحاضر ! وليس من التعسف البعيد أن يقال إنها أصل التسمية القديمة للبلاد المصرية ، لأن عواصم مصر الكبرى كانت في الإقليم القنائي ، وظلت فيه قروناً طوالاً من العصر القديم . ويتوسع بعض المؤرخين في دلالة هذه التسمية ، فيردون إليها علاقة مصر العليا بالبلاد العربية القديمة ، ويحسبون أن المهاجرين الأوائل قدموا من طريق البحر الأحمر ثم طريق الصحراء في زمن مجهول . ولا يلزم من ذلك أن يكون أصل المصريين جميعاً من هؤلاء المهاجرين ، لأن ملامح المصريين الأوائل ولغاتهم لا تنحصر في

أصل واحد ، ولا تنحصر على الخصوص في السلالة السامية ، بل يوجد فيها مزيج قليل يسهل تعليله بالنسبة إلى طريق « قفط » من جانب البحر الأحمر أو الجانب الذي يقابله على النيل .

أما الاسم الآخر من الأسماء الباقية ، فهو اسمها المشهور في اللغة العربية أو اسم « مصر » الذي يحسبه بعضهم مأخوذاً من كلمة « المصر » التي تطلق في العربية على أرض الحواضر أو على الحاضرة الكبرى ، حيث تقام معالم الحكم وأحكام الشريعة .

والغالب أن كلمة « مصر » عربية الأصل ، ولكن في لغة العرب السابقة لهذا الاصطلاح الحديث ، وإنما نقول الحديث بالنسبة إلى الكلام العربي المتداول على الألسنة من عهد الإسلام وما قبله بأجيال قليلة ! وقبل هذا العهد ، عهد الإسلام ، عرف العرب مصر ، ثم عرفها منهم العبرانيون المنتقلون من أرض العراق. وقد كاد المؤرخون أن يتفقوا على أن العبرانيين قدموا إلى مصر في عهد القبائل العربية من الرعاة وأتباعهم المشهورين باسم الهكسوس ، فهم أول من أطلق على « مصر » هذا الاسم وسموها « مصرايم » ، فزعم بعضهم أن الكلمة من اسم قديم يدعى مصرايم يحسبونه جدّ المصريين أجمعين ، ولكن الواقع أن « مصرايم » تثنية مصر باللغة العبرية بمعنى المِصْرَين ، أي الوجه البحري والوجه القبلي ولا تزال الكلمة بعد ذلك محتاجة إلى تفسير من اللغات السامية الأولى إن لم يكن لها معنى قديم منقول عن الهيروغليفية .

والبحث في العبرية ، واللغات السامية عامة ، هو الذي قاد الباحثين إلى مادة « صر » في جميع هذه اللغات . فمادة « صر » تفيد في هذه اللغات جميعاً معنى الضيم والضيق ، والشيء المصرور هو الشيء المضغوط أو المشدود ، ومنه الصّرّة والصِرار والإصرار ، وقيل لهذا إن المصر يراد به الوادي الضيق المصرور بين الجبلين ، وبولغ في تتبع هذا المعنى ، فقيل إن العبرانيين سموا البلد باسم « مصر » ، بعدما أصابهم فيها من الضيق ، وبعدما

اعتزموه من الفرار بأنفسهم من هذا الضيق ، وهو اعتساف في التأويل لا تؤيده كلمة توجه اشتقاق الكلمة هذا الاتجاه .

أما المصر من « الصر » بمعنى حصر الوادي بين الجبلين ، فيلاحظ أن العبرانيين أطلقوا اسم المصرين على الوجهين ، ولم يكن الوجه البحري – حيث أقام الأكثرون منهم – وادياً محصوراً بين الجبال ، ولم يعرف قط أنهم أطلقوا على مصر اسماً آخر قبل وفودهم إليها ، إلا أن يكون اسم النهر أو بلاد حام .

ولهذا يذهب بعضهم إلى أن كلمة « مصر » هيروغليفية قديمة مركبة من كلمات ثلاث بمعنى « بلد أبناء الشمس » ، والكلمات الثلاث هي « ما » بمعنى موضع ، و « سي » بمعنى ابن ، و « ري » أو « را » بمعنى الشمس ، ومنها « راع » التي ينسب إليها بعض الفراعنة . فإذا صح ان « ما سيرى » هي أصل هذه التسمية فلا غرابة فيه ، وإنما يعوزه السند الذي يعزز الاستنتاج ، وليس له الآن وجود ، وكل ما هناك أن أناساً من الثقات يستندون إلى إطلاق اسم « مسرى » على شهر الفيضان أو شهر النيل المنتظر ، ويربطون كما فعل العلامة « مسبرو » بين اسم الشهر واسم البلاد .

ولا يخفى أن اللغة الهيروغليفية كانت لغة تصوير ، تغلب فيها المقاطع على الحروف ، وأن المصريين استخدموا الأبجدية اليونانية وزادوا عليها بعض الحروف التي لا وجود لها عند اليونان ، حين أرادوا الكتابة باللغة الوطنية ، والاستقلال بها عن كتابة الدول الرومانية ! وقد وجدت صور الأرض والشمس عليها دالة على البلاد المصرية في الآثار القديمة . أما نطقها بألفاظ تقارب مسر أو مصر ، فليس له سند معروف بل كان الكتاب المصريون المخضرمون بين عصر اللغة الهيروغليفية وعصر اللغة القبطية يذكرون مصر كما يذكرها اليونان باسم وسط بين « جبت » و « قبت » أو قبط . ويظهر أن كُتّاب العربية أنفسهم كانوا يطلقون كلمة « قبط » على البلاد

أحياناً ، ولا يقصدون بها السكان كما فعلوا بعد ذلك ، ولهذا كانوا يذكرون المصريين باسم « القبطيين » . وتكررت هذه النسبة بعد الفتح الإسلامي بزمن غير قصير ، ولم يلجئهم إلى التفرقة بين النسبة إلى مصر والنسبة إلى « قبط » إلا الرغبة في توضيح الفرق بين المصريين بعد الإسلام والمصريين قبل الإسلام . وقد كان المؤرخون المسلمون يذكرون « المصريين » إلى عهد « معاوية » ويعنون بهم العرب المسلمين المقيمين في الديار المصرية ، ولهذا كانوا يقولون إن « المصريين » أيدوا علياً في خلافه مع معاوية ، وأنهم لم يبايعوا معاوية إلا بعد ولاية عمرو بن العاص الثانية . على أن العرب كانوا يسكنون مدينة « قفط » قبل الإسلام . وقال سترابون إن نصف سكانها منهم ، وربما أخذوا كلمة قبط من النسبة إلى هذه المدينة القديمة في طريق الحجاز .

ومن المحقق بعد جميع التأويلات والاحتمالات أن اسم « مصر » كان معروفاً في أرض كنعان قبل وفود العبرانيين ، وأن اليونان عرفوا مصر باسم « إيجبت » قبل عصر الشاعر هوميروس ، وأن ألواح تل العمارنة ذكرت مصر باسم « هكبتاه » الذي يرجع إليه الاسم اليوناني ، وأرادت به أرض منف وعاصمة بتاه أو فتاح ، وأن « مصر » بغير التعريف لم تطلق على قطر غير وادي النيل ، وأن العرب هم أول من تسمى بالمصريين ، ولم يأنفوا من مساواة أبناء البلاد بالانتساب إليها كما أنف الرومان واليونان من قبلهم ! ! وقد كان المؤرخون قبل الميلاد وبعده يحصون سكان البلاد المصرية فلا يشملونهم بإحصاء واحد ، ويُفردون كل فريق من السكان بتعداد خاص ، كالروم واليهود وأبناء البلاد الأصلاء ، ومعظمهم كانوا يقيمون في الصعيد وفيما بين فرعي النيل المعروفين الآن باسم فرع دمياط وفرع رشيد . وكانت الأقاليم التي تقع إلى شرق فرع دمياط وإلى غرب فرع رشيد ، مُقاماً لقبائل متفرقة تعرف بالأنساب ، ولا تعرف بأسماء المدن والقرى في أسمائها الشائعة .

وقد أحصى ديودورس الصقلي ويوسفيوس اليهودي سكان مصر ،

فلم يجاوزوا بهم ثمانية ملايين ، وأولهم من مؤرخي القرن الأول قبل الميلاد ، والآخر ممن شهدوا عصر الميلاد في أوائله ، وكلاهما فرّق في التعداد بين المصريين واليهود والروم !

وكانت هذه الأجناس جميعاً في نزاع دائم بينها ، وفي نزاع دائم مع الدولة الرومانية . وربما تجرد بعض القساوسة لقتال اليهود بجنود يجمعها من الوطنيين ، ويُغير بها على الأحياء اليهودية في الإسكندرية . وقد كانت عدتهم فيها وفي عين شمس تزيد على مائتي ألف في بعض الأوقات .

ولما حان عصر الفتح الإسلامي – أي القرن السابع للميلاد – لم يكن في مصر كلها من يودّ بقاءها في حوزة الدولة الرومانية ، حتى الروم ، ولم يكن هؤلاء الروم يثقون بدوام ملك الدولة الرومانية بعد تكرار هزيمتها أمام الفرس وأمام العشائر الهمجية في أوروبة الشرقية وأوروبة الوسطى ، ومن كان من الروم يدافع الأجانب عن أرض مصر ، فإنما كان يدفعهم ليستبقي له ملك الأرض ، ويتحيّن الفرصة لاقتطاعها من الدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقية ، فلم يكن حكم الرومان حكم رضىً من المحكومين ، ولا حكم ثقة بالبقاء والدوام .

كان القبطيون ، أو أبناء البلاد من غير الروم واليهود ، على أشدّ السخط من الدولة الرومانية ، لأسباب دينية وأسباب سياسية ، إذ كانت كنيسة بيزنطة قد نازعت كنيسة الإسكندرية سلطانها وأرادت أن تفرض عليها مذهباً في المسيحية لا تقرّه ، وهو المذهب الذي اشتهر باسم المذهب الملكي ، واعتقد التابعون له أن المسيح ذو طبيعتين ، خلافاً للإسكندريين الذين كانوا يدينون بطبيعة واحدة ، ويطلق عليهم خطأً اسم اليعقوبيين . وقد كان المصريون يثورون على الدولة الرومانية قبل دخولها في المسيحية ويقابلون اضطهادها بالإضراب أو بالرهبانية والاعتكاف على الصوامع والأديرة في الصحراء . ثم دان عواهل الرومان منذ أيام قسطنطين بالمسيحية ،

فتغير سبب الاضطهاد ولم يتغير طغيانه وبغضاؤه التي شقي بها أبناء البلاد عدة قرون . كان الاضهاد لاختلاف الدين ، فتحول إلى اضطهاد لاختلاف المذهب والنّحلة . ولم يزل أتباع الكنيسة الوطنية يرمون أتباع الكنيسة الملكية بالكفر والمروق ، ويقولون عنهم إنهم يمزقون طبيعة السيد المسيح ، ويؤمنون بإلهين مختلفين . ومن قبل هذا كان النزاع السياسي الوطني قد بلغ غايته بين المحكومين والحاكمين ، ولكن المحكومين على الأقل كانوا يستقلون بالعقيدة في الأمور التي لا تصطدم فعلاً بسلطان الدولة ، فلمادان عواهل الروم بالدين المسيحي فرضوا لأنفسهم سلطاناً روحياً إلى جانب السلطان السياسي ، ولم يتركوا للمحكومين منفساً يشعرون فيه باستقلال الرأي والضمير . وقد تفاقم الخطب في عهد الإمبراطور فوقاس — قبل الفتح الإسلامي مباشرة — فصدر أمره إلى ولاته على مصر بطرد جميع الوطنيين من وظائف الحكومة وإلزامهم طاعة الكنيسة في القسطنطينية . ويكفي لبيان السخط على الدولة الحاكمة أن الخلاص منها أصبح حلماً من الأحلام التي تساور زعماء الكنيسة الوطنية في يقظتهم ومنامهم ، فرأى البطرق بنيامين في منامه أن مصر ستفتح لأناس مختونين ينقذونها من أعدائها المتسلطين عليها ، وروي هذا الحلم على روايات مختلفة منسوباً إلى أناس غير البطرق بنيامين .

ولم تكن عداوة المصريين للدولة القائمة خافية على سكان البلاد المصرية من الروم ، بل هم كانوا يعلمون أن كراهة المصريين للسكان « المحليين » من الروم أشد من كراهتهم لرؤسائهم في القسطنطينية ، لأن هؤلاء الروم المحليين يخالفون الوطنيين في العقيدة والجنس كما يخالفهم رؤساؤهم في العاصمة الكبرى ، ويزيدون على رؤسائهم بعداوة أخرى هي عداوة المنافسة الشخصية والغطرسة المحسوسة ، ويحيك في نفوسهم أن كل زيادة في سلطان الوطنيين نقص في سلطان الولاة والموظفين الرسميين ، وبخاصة بعد التجاء الدولة إلى استرضاء الوطنيين ببعض مناصب الرئاسة والقيادة ، وتوكيلهم في تحصيل الضرائب والإشراف على حقوق الالتزام في الجهات النائية .

فهذه العداوة المحلية ، تضاف إلى العداوة العامة التي تكون على الداوم بين الدولة الغاصبة والأمة المغصوبة . فلا جرم يتخوّف الروم المحليون من أبناء البلاد عند هجوم العرب على تخومها ، ويبلغ من تخوّفهم وسوء ظنهم أنهم يفضلون الانفراد بالدفاع عنها على الاستعانة بجيش من أبنائها ، ولم يكن هذا الجيش قائماً قبل ذلك للاستعانة به في ساعة الخطر المفاجىء . فلما وجد الروم المحليون أن الأمر يحتاج إلىتنظيم جيش جديدمستعدللدفاع في حالة الاطمئنان إليه ، عظمت عليهم مشقة التنظيم العاجل ، فانفردوا كذلك بشروط الصلح والاتفاق ، فكانت شروطهم غير الشروط التي اتفق عليها الوطنيون .

وينبغي أن نتنبه إلى خطأ يتعرض له المؤرخون في هذا السياق ، لأنهم يقيسون الأمور في ذلك العصر على أشباهها في العصر الحديث ، فيخطر لهم أن الروم سكان مصر كانوا يشعرون مع الدولة القائمة بوحدة الوطنية أو وحدة الجنس والقومية ، وليس لهذا الخاطر مسوّغ من تكوين الدولة ، ولا من وحدة العنصر ، ولا من شعور الولاء للنظام الحكومي الذي كان قائماً في دولة الرومان شرقاً وغرباً عند فتح العرب للديار المصرية .

لم تكن الدولة الرومانية دولة روم بمعزل عن اللاتين وسائر الأقوام التابعين لرومة القديمة ورومة الجديدة ، أي القسطنطينية ، بل كان الروم اليونانيون قلة في مناصب الدولة الشرقية ، وكان اللاتين من أهل الغرب يشعرون أن رومة الجديدة قد جارت على مكانة رومة القديمة وعرّضتها للهوان والإهمال . وكان الرعايا في الشرق والغرب خليطاً من الأجناس المتعادية المتنافرة ، لا تربطهم رابطة غير سلطان القوة والخوف من الغارات المشتركة والقبائل البربرية . ولم يكن نظام الجلوس على العرش قائماً على وراثة محترمة أو حقوق مرعية ، بل كان باب القصر المالك مفتوحاً لكل غالب وغاصب ، وكان فوقاس على عرش القسطنطينية وحوله أناس يتآمرون مع هرقل حاكم أفريقية الشمالية في ذلك الحين لإغرائه بالهجوم على العاصمة وانتزاع العرش من صاحبها ، فقتل فوقاس في هذا الصراع ، وخلفه هرقل

بتأييد المنشقّين على العاهل القتيل ، ثم انقلب هؤلاء على هرقل بعد تأييده ، فهمّ بترك العاصمة والانتقال إلى افريقية حيث كان . ولولا أن بطرق العاصمة خاف على مكانته من منافسة كنيسة الإسكندرية وكنيسة رومة القديمة ، لانتقل إلى أفريقية وترك الدولة الشرقية للمغيرين عليها ، ولكن بطرق العاصمة فتح له كنوز خزائنه ، وحشد له أعوانه ، واستخدم سلطانه الديني في تهدئة جأشه وتوهين الدعاوى التي ادعاها عليه أعداؤه ومنازعوه ، وهذا كله يجري بعلم الولاة الكبار والقادة البارزين ، فيضعف في نفوسهم ولاء الطاعة والإذعان كما يضعف فيها ولاء الإخلاص والوفاء . ولم يكن أحد في الدولة الرومانية يجهل أنها دولة منهارة تتصدع وتؤذن بالزوال ، ولم يكن قد غاب عن بالهم هزائم هرقل وأسلافه أمام الفرس وأمام القبائل البربرية ، ولا غاب عنهم أن أساطين الدولة يتربصون به الدوائر من الداخل لمنازعته السلطان ، أو لتحويل الدفة مع اتجاه الريح ، وقد كان لها اتجاه مختلف كل الاختلاف ما بين عام وعام .

فالمؤرخ الذي يقيس موقف الروم المحليين في ذلك العصر على مواقف العصر الحاضر يجهل الموقف ويخطىء القياس ، إذ لم يكن هنالك شعور قومية من سلالة اللحم والدم ، ولا شعور وطنية من تقاليد النظام السياسي وقواعد الحكومة ، وكل ما كان هنالك أن آحاداً من زعماء الروم المحليين في مصر كانوا يعتمدون على قوة القسطنطينية للمحافظة على مصالحهم « المحلية » والتغلب على الوطنيين ، وكانوا مع هذا الاعتماد على قوتها يشكّون في دوامها ونجاحها ، ولا يطمئنون إلى وعودها ، ولا يأمنون انقلابها ، وخطتهم هذه إنما هي خطة مداورة واغتنام فرصة ، قد تتحول من عاهل إلى عاهل ، كما تتحول من فريق إلى فريق .

وقد علموا أن العواهل أنفسهم مستيئسون في قتالهم ، يحارب بعضهم بعضاً محاربة القانط من الغد ، أو الذي لا يهمه أن يكون الغد كيف يكون ، وآخر ما عرفوه من ذلك قُبيل الفتح الإسلامي أن « فوقاس » قذف بكنوز

الدولة وجواهر القصر الملكي في البحر ، ضناً بها أن تؤول إلى منافسه هرقل بعد غلبته عليه ، فما كان أحد منهم يقاتل يومئذ قتال الرجاء أو الثقة بالعودة إلى النصر بعد الهزيمة .

أما اليهود فقد كان حسبهم من النقمة على الدولة الرومانية أنها هدمت هيكل سليمان ، وشردتهم من بيت المقدس ، وتعقبتهم في بلادها بالمطاردة والمصادرة ، والإكراه على عبادة الإمبراطور تارة والإكراه على العبادة المسيحية تارة أخرى ، ولكنها كانت تغنيهم في كل عصر عن الذكريات القديمة بما تجدده من صنوف الاضطهاد والتعذيب، وكانت لهم نكبة يذكرونها لكل من العاهلين اللذين تعاقبا على عرش القسطنطينية في عصر الفتح الإسلامي ، وهما فوقاس وهرقل . فأما فوقاس فقد أمر بطردهم من وظائف الدولة في الإسكندرية ، وتعميدهم كرهاً ، وقتل من يخالف أمره فيرفض الإذعان للتعميد . فلما ثار هرقل على فوقاس نصروه ، وانتظروا خيراً على يديه ، فإذا بهرقل ينكبهم نكبة تنسيهم مظالم سلفه المغضوب عليه . وروى ذلك بطرق هرقل في الإسكندرية « افتيخوس » حيث قال من تاريخه المشهور :

« في السنة التاسعة من مُلك هرقل خرج من القسطنطينية يريد بيت المقدس. فلما بلغ طبرية ، خرج إليه اليهود الساكنون بطبرية وجبل الجليل والناصرة وكل قرية في تلك الناحية ، فاستقبلوه بالهدايا ، ودعوا له ، وسألوه أن يعطيَهم الأمان ، فكتب لهم بذلك عهداً ، فلما بلغ بيت المقدس استقبله رهبان الصوامع وأهل بيت المقدس ، ومعهم مودستس بالمجامر والبخور ، فلما دخل المدينة ونظر إلى ما دمّر الفرس وأحرقوه اغتم غماً شديداً ، ثم نظر إلى ما بناه مودستس من كنيسة القيامة وكنيسة مار قسطنطين وغيرها ، فسرّه ذلك ، وشكر مودستس على ما فعل . وشكا الرهبان وأهل بيت المقدس له ما فعلته معهم اليهود الذين حول بيت المقدس مع جبل الجليل وقت قدوم الفرس ، وأنهم كانوا معهم يعينونهم ، وقتلوا من النصارى أكثر مما قتله الفرس ، وخربوا الكنائس ، وأحرقوها بالنار ، وأروه القتلى

الذين في ماميلا ، وأعلموه بما فعلوا في مدينة صور من قتل النصارى وخراب الكنائس . فسألهم هرقل : ماذا تريدون ؟ قالوا له : نقتل كل يهودي حول بيت المقدس وجبل الجليل ، لأننا لا نأمن أن يجيئنا عدو أو قوم مخالفون ، فيكونوا أعواناً لهم ، كما أعانوا الفرس علينا . قال هرقل : وكيف أستحلّ قتلهم وقد أعطيتهم الأمان ، وكتبت لهم بذلك عهداً كما تعلمون ؟ ومتى نقضت العهد والأمان ، كان ذلك عاراً عليّ وأحدوثة قبيحة ، ولم آمن إن كتبت لغيرهم عهداً أن يأباه . فقالوا له : إن سيدنا يسوع المسيح يعلم أن قتلك لهم غفران لذنوبك ، والناس يعذرونك ، لأنك في الوقت الذي أعطيتهم الأمان لم تدر ما فعلوا من قتل النصارى وخراب الكنائس ، وإنما خرجوا إليك واستقبلوك بالهدايا مكراً منهم ولعنة ، فقتلهم قربان إلى الله ! ونحن نحتمل لك وعنك هذا الذنب ونكفر عنك ، ونسأل سيدنا يسوع المسيح ألا يؤاخذك به ، أو نجعل لك جمعة كاملة في بدء الصوم الكبير ، نصومها لك ونترك فيها أكل الجبن والبيض ما دامت النصرانية ، ونجعل في هذا قانوناً وحرماً بألا يُغَيّر ، ويكتب به إلى جميع الآفاق غفراناً لجميع ما سألناك أن تفعل . فأجابهم هرقل إلى ذلك ، وقتل من اليهود حول بيت المقدس وجبل الجليل ما لا يحصى من قدر عليه ، ومنهم من اختفى ، ومنهم من هرب إلى الجبال وإلى مصر . »

وجاءت هذه القصة في تاريخ المقريزي حيث يقول :

« ثم سار هرقل من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ويجدد ما خربه الفرس منها ، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها ، وقدموا إليه الهدايا الجليلة ، وطلبوا منه أن يؤمّنهم ويحلف لهم على ذلك فأمّنهم وحلف لهم ، ثم دخل القدس وقد تلقاه النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة ، فوجد المدينة وكنائسها وقمامتها خراباً ، فساءه ذلك وتوجّع له ، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس ، وقاموا قياماً كبيراً

في قتلهم عن آخرهم ، وحثوا هرقل على الوقيعة بهم ، وحسّنوا له ذلك ، فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطاركهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم ، فإنهم عملوا عليه حتى أمّنهم من غير أن يعلم بما كان منهم ، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويُلزموا النصارى بصوم جمعة في كل سنة عنه ، على ممر الزمان والدهور ، فمال إلى قولهم ، وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعاً فيها ، حتى لم يبق في ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فر واختفى » .

وهذه قصة تدل على مكامن الخطر من نقمة اليهود ، وتدل على مكامن الخطر التي هي أبلغ من ذلك وأدهى ، فإذا كان هرقل يجهل ما حدث في بيت المقدس حتى يراه بعينه ، وكان رعاياه الكبار منقطعين عنه حتى يصل إليهم في عقر دارهم ، فتلك دولة ممزقة مهملة مفتوحة للأخطار من مكامنها ومما حولها على السواء .

وقد كانت لليهود ترات غير تراتهم عند العاهلين ، لأنهم كانوا قبل ذلك يهاجمون أبناء البلاد ، ويتعرضون لهجومهم في كل فترة من فترات الثورة والانتفاض . وكانوا اذا سلموا من ضربات الدولة واستهدف لها أبناء البلاد وحدهم ، خامر هؤلاء الظن أنهم يمالئون الدولة عليهم ، وأنها تحابيهم وتستعين بهم سرّاً وعلانية على اضطهادهم ، فإذا أمنوا طغيان الدولة لم يأمنوا الشبهات والتهم من رعاياها الموتورين !

وكان لليهود موقعان من أهم المواقع في البلاد المصرية من الوجهة العسكرية ، فكان لهم حيان بين أحياء الإسكندرية الخمسة ، وحي كبير في عين شمس بجوار منف عاصمة البلاد الداخلية ، وكل من هذه المواقع لـــه شأنه الخطير في أوقات الهجوم على البلاد من بحرها وبرها .

وكانت للبشموريين في شرق الدلتا مواقع استطلاع وعبور لا تقل خطراً عن مواقع اليهود في العاصمتين ، إذ كانوا يسكنون المراعي الواسعة

على تخوم الصحراء بين البحيرات الشمالية وأودية الجنوب ، وكانوا عرباً منحدرين ، على أرجح الأقوال ، من سلالة العمالقة الأقدمين ، وكانوا يعاونون العرب الفاتحين ، كما عاونهم عرب الصحراء في الشام على اختلاف العقيدة والمقام ، وإذا لاحظنا أن بادية الفيوم كان يسكنها أناس يتكلمون بلهجة بشمورية علمنا أن أقسام البادية العربية لم تتغير كثيراً من قديم الزمن ، وأن عمرو بن العاص قصد إلى الفيوم قبل فتح منف على علم بأصول هذه السلالة .

وانقضى عهد هرقل كله ومصر تسمع بأخبار الفتوح الاسلامية ، وتتوقع مصيراً كمصير جاراتها في المشرق القريب ، ولم يكد أعوان هرقل يستعيدون بعض الثقة بدولته بعد خروج الفرس من مصر حتى تبين لهم أن قوة أقوى من الفرس والروم معاً قد ظهرت في ميدان النضال العريق بين الدولتين ، وسمعوا بهزيمة الفرس كما سمعوا بهزيمة الروم في فلسطين . ومنهم من ذهب إلى فلسطين نجدةً لهرقل ، فلم يكد يدخل الأرض باحثاً عن العاهل الذي استنجده حتى سمع بفراره وتوديعه البلاد توديعَ البائس المفارق إلى غير رجعة ، كما تناقل عنه الذين قفلوا من ركابه عند تخوم آسيا الصغرى .

وأوشك العهد الذي كتبه الخليفة العربي لبطارقة بيت المقدس أن يصبح من محفوظات الساسة ورجال الدين في منف والإسكندرية بالرواية المتواترة ، وعلموا أن الخليفة حضرته الصلاة وهو في صحن الكنيسة الكبرى ببيت المقدس ، فخرج منها وصلى على درجها منفرداً لئلا يطلبها المسلمون ذكرى لصلاة الخليفة عليها ، وأنه كتب في عهده أنه أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم « لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يضارّ أحد منهم . ومن خرج من الروم فإنه آمنٌ على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيليا من

الجزية ، ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصُلُبهم حتى يبلغوا مأمنهم » .

وسيرى القارىء فيما يلي كيف خاض المؤرخون في حديث المقوقس كبير مصر ، وكيف تخيلوا أنه احتال للصلح بشروط الروم من جند هرقل في الإسكندرية ، وسيرون أن هؤلاء المؤرخين نسّاخون يتخبطون في صناعة النسخ فضلاً عن صناعة التأويل والتخريج ، لأن اتفاق المقوقس بشطريه لم يكن إلا نسخة من اتفاق بيت المقدس بين العرب وأبناء البلاد ، وكانت سياسة العرب أن يتفقوا مع أبناء البلاد ، ثم لا يعنيهم من أمر الدولة الحاكمة إلا أن تنجلي بجنودها حيث تشاء ، فإذا قبل أبناء البلاد شرطاً متفقاً عليه لم يَكْرُبهم أن يقبله الروم ، ولم يأبوا عليهم الخروج إلى ديارهم آمنين مع من يتبعهم من رعاياهم المتعلّقين بهم في موقف الرحيل .

* * *

المقوقس

نعرض الآن ببعض التفصيل لسيرة المقوقس وهو ، كما تقدم ، من أكبر الشخوص الخلافية في تاريخ مصر . ويندر أن توجد في تاريخ العالم كله سيرة خلافية من هذا القبيل .

وشطر من اللوم في ذلك على المؤرخين النساخين ، وشطر آخر من اللوم على المؤرخين الذين يُدخلون أهواءهم الحديثة في مسائل التاريخ الخالية ، ويكتبون بخصومات اليوم وأغراضه في شئون لم يكن فيها محل قط لتلك الخصومات والأغراض !

وقد كان تاريخ المقوقس مبهماً كتواريخ حكام الرومان في البلاد التي فتحها العرب من فلسطين إلى إفريقية الشمالية ، لأن أحوال الدولة الرومانية البيزنطية كانت في ذلك العصر مبهمة متقلبة . يتولاها الإمبراطور اليوم ، فيولي ويعزل ، ويقرب ويبعد ، ويغير المناصب وأصحابها . ولا يستقر على عرشه حتى يثور عليه طامع في الملك يهدم كل ما أقامه من أركان ملكه ، وقد يُبقي أناساً من أصحاب المناصب كانوا معه سراً أيام ثورته ، وقد ينكل بأناس كان يداريهم ويداورهم إلى أن يتمكن منهم ، وقد تنتظم الدولة وتجري حوادثها على وتيرة معقولة بضع سنوات ، ولكنها تصل إلى التاريخ في عصر قد اضطرب فيه التاريخ والمؤرخون ، وحالت فيه الأهواء والمنازعات دون ذكر الحقائق والتبعات ، فيقع اللوم على غير أهله ، ويبذل الثناء لمن لا

يستحقه ، وتمسخ الأخبار والحوادث مسخاً لمجاراة المآرب والشهوات ! !

وتاريخ المقوقس كان عرضة للمسخ والإبهام في جميع هذه الجوانب : كان عرضة للمسخ والإبهام من جانب المؤرخين النساخين ، وعرضة للمسخ والإبهام من مؤرخي العصور الحديثة الذين نظروا إلى أيام الفتح العربي كأنهم ينظرون إلى فتح يحدث في هذه الأيام ، ثم كان قبل ذلك جميعه عرضة للمسخ من تقلقل الأحداث وتغير الدول والحكومات والأحزاب الدينية والسياسية ، ويكفي منها اغتيال إمبراطور ، وجنون إمبراطور بعده ، ودخول مصر في حوزة الفرس وخروجها منها ، وتنازع الكنائس على العبادات تنازعاً قد استعصى على كل توفيق ، فمن دان بمذهب فخصوم ذلك المذهب عنده كفرة مشركون ، ولا توسط بين الطرفين ، لأن الخصومة تشمل عقيدة الدين وعصبية الجنس ومطامع السيادة والسياسة ، وتطرأ في إبانها غارات من الخارج وثورات من الداخل لا تؤذن في حينها باستقرار !

لهذا اختلف المؤرخون على كل شيء يتعلق بالمقوقس حتى كادوا أن ينكروه ! !

اختلفوا على اسمه ، واختلفوا على جنسه ، واختلفوا على منصبه ، فضلاً عن الاختلاف على مقاصده وأغراضه !

وظن بعضهم أن المقوقس اسم الرجل على أصله ، أو مشوباً ببعض التحريف.

وظن بعضهم أنه لقب وظيفة ، ثم اختلفوا في الرجل الذي كانت تطلق عليه . فمنهم من اعتقد أنه « الأجيرج » أو الأعيرج ، الذي جاء في كلام بعض المؤرخين العرب أنه كان يتحصن في قصر بابليون . ومنهم من اعتقد أنه البطرق بنيامين الذي كان على مذهب الكنيسة الوطنية . ومنهم من اعتقد أنه البطرق فيروش الذي كان على مذهب الكنيسة الملكية . ومنهم من قال إنه وطني تمذهب بمذهب الإمبراطور محافظة على منصبه . ومنهم

من قال إنه رومي تمذهب بمذهب أبناء البلاد واعتقد الكفر في رؤساء الدين بالقسطنطينية . فأضمر الكيد لهم ، وأحب أن يستأثر بالحكم دونهم . ولم يتفقوا بعض الاتفاق أخيراً إلا في لقبه باللغة اليونانية ، فليس بين المؤرخين اليوم من يحسب المقوقس اسماً للرجل ، بل ليس فيهم من يحسب أنه لقب سبقه إليه أحد من ولاة الروم على الديار المصرية .

وعندنا أن هذا « اللقب » مفتاح لبعض الألغاز التي أحاطت بتاريخه ، لأنه يرجح الدلالة على جنسه ، وعلى علاقته بالدولة التي كانت لها السيادة الاسمية على البلاد .

لم تجر عادة الدول الأجنبية أن تفخم ألقاب الولاة إلا إذا كان الغرض مرضاة البلد المحكوم بمظهر من مظاهر السيادة .

وكانت الدولة الرومانية على الخصوص تكتفي بأيسر الألقاب إذا أطلقتها على الولاة من الرومان ، فكانت تسمي الوالي حاكماً أو قنصلاً أو نائب قنصل أو نائباً أو وكيلاً ، من أشباه هذه الأسماء التي تؤدي المعنى الرسمي ولا تزيد . وتعمدت الدولة في أيام العواهل أن تضعف مَن في الولايات ، لأنهم كانوا يرشحون أنفسهم للعرش إذا برزوا بين القادة وملكوا زمام الجيش في إقليم كبير .

إنما كانت ألقاب التفخيم مقصورة على الوطنيين ومن هم في حكمهم من المنتسبين إلى البلد ، لأن هذا اللقب عوضٌ عن التاج حيث لا منازعة عليه ، فلا خطر على الإمبراطور في القسطنطينية من رئيس وطني مفخم في بلده بين أبناء وطنه ، بل في ذلك دفع لخطر الثورة ، ورضىً بالنصيب المقدور من الرئاسة ، وأما الخطر كل الخطر فهو من تعظيم قائد روماني ينازع الإمبراطور على عرشه ، ويتخذ من فخامة اللقب ذريعة إلى الاقتراب به من مقام الإمبراطور وجميع الأعوان الذين يحيطون به ، كما يحاط بكل حاكم مُناظر لصاحب العرش يطمح إلى مكانه .

وقد وجب تعويض مصر عن بعض ما فقدته من سلطان الملك وسلطان الدين بعد القرن الخامس للميلاد .

فقبل ذلك كانت الثورات في مصر لا تنقطع ، وكان بعض الثائرين من قادة الرومان أنفسهم ، فلما استقرت هذه الثورات بعض الشيء كانت الإسكندرية قد تعرضت لمنافسة شديدة أشد عليها من سلطان السيادة السياسية .

كان الإمبراطور قسطنطين قد دان بالمسيحية في أواخر أيامه ، فأصبحت عاصمة الدولة تابعة في العرف الديني لكنيسة الإسكندرية لأنها أقدم الكنائس وأكبرها في المشرق والمغرب .

ثم جاء جوليان المرتد بعد قسطنطين ، فبقيت للإسكندرية مكانتها الكبرى ، ولم تكن للقسطنطينية مكانة دينية كبيرة أو صغيرة : لأنها عاصمة دولة لم تعترف بالدين ، أو لم تثبت على الاعتراف به ، وانقلبت عليه تحاربه وتُقصي أتباعه من مراكزها العليا .

وظل مقام الإسكندرية مقامها إلى القرن السادس الذي استقرت فيه المسيحية في عاصمة الدولة وأصبحت كنيستها عاصمة الكنائس على هذا الاعتبار ، وأوشكت هذه الصفة أن تثبُت لها بعد تسمية القسطنطينية برومة الجديدة ، تعالياً بها على رومة القديمة . فلم يبق لبطرق العاصمة مُناظر يحسب حسابه غير بطرق الإسكندرية ، وإذا كان مذهب الملك هو المذهب السائد في بلاد الدولة الرومانية — فرئيس الكنيسة في الإسكندرية تابع ولا شك لرئيس الكنيسة التي يصلي فيها الإمبراطور ، ويتولى رئاستها الدينية في عاصمته الكبرى ، وبطرق الإسكندرية مرؤوس لبطرق القسطنطينية على هذا الاعتبار .

لقد كان البطرق الإسكندري رأس الدين المسيحي في العالم كله قبل رؤسائه في العاصمة الغربية والعاصمة الشرقية ، وكان من بطارقتها من يقول : « ماذا يعنيني من الإمبراطور ؟ إنني هنا الإمبراطور ! » وكان

صادقاً فيما قال ، لأن الناس كانوا يطيعونه ويؤمنون بأن طاعته من طاعة السماء . أما الإمبراطور فمهما يكن من أمر طاعته القسرية فهي طاعة أرضية على كل حال!

هنالك وجب تعويض مصر ، ووجب اجتماع اللقب السياسي واللقب الديني في كرسي واحد ، وكان هذا هو حكم البداهة الذي وافقه حكم الواقع ، فكان « المقوقس » جامعاً بين صفة الرئاسة الدينية وصفة الرئاسة الإدارية ، أو كان هو بمثابة « ولي الأمر » في مصر بالاصطلاح الحديث ، وقد تكون رئاسته عند الدولة رئاسة شرف يعززها مكانة « عملية » بين أبناء البلاد .

وإذا كان التاريخ لا يكرر نفسه كل التكرار في جميع الحوادث، فهو لا يخلو من التكرار المتجدد حيناً بعد حين . ولعل لقب « الخديو » أشبه الأشياء بلقب المقوقس في أواخر عهد الدولة الرومانية ، فهو والٍ وأكثر من والٍ في المنزلة السياسية ، وهو ولي الأمر بالنيابة عن الخليفة أمير المؤمنين ، وباسمه تقام الأحكام الشرعية والإدارية في ظل شاهنشاه ، وخليفة الإسلام .

كان لقب المقوقس أو المقوقز كلمة يونانية بمعنى المفخم أو الفاخر ، كالحضرة الخديوية « الفخيمة » أو المفخمة كما صححتها اللغة العربية .

وكان إطلاق هذا اللقب على رئيس من المصريين أو المتمصرين معقولاً مفهوماً في تلك الفترة على سبيل التعويض والترضية ، ودفع النزاع والتنافس بين سلطان العاصمة الكبرى وسلطان الإسكندرية ، أما الغريب الذي قلما يفهم فهو إطلاقه على قائد روماني لا يكبر — إذا كبُر — إلا لينتزع العرش من الإمبراطور .

وهذه ناحية من نواحي البحث المنتج في تاريخ المقوقس وتاريخ الفتح العربي على إجماله ، وهناك نواحٍ أخرى تضارعها في الإنتاج أو تزيد عليها ، ومنها خطاب النبي عليه السلام إلى المقوقس ، وتلك السمعة « الخارجية »

التي جعلت له هذه المكانة ، وجعلته أهلاً لأن يخاطبه النبي عليه السلام في أمر المصريين جميعاً ، مع خطابه لهرقل في الوقت نفسه ، كأنه لا يملك من أمر مصر ما يملكه المقوقس . ومن نواحي البحث المنتج صفة المقوقس التي رشحته للتعاهد باسم مصر ، والتزام الإنجاز والتنفيذ بعد ارتحال الجيش الروماني من البلاد ، ومنها البواعث النفسية التي تحبِّب إليه أن يبقى في مصر ويُخرجها من دولة الروم أبداً ، غير مبالٍ بانتقال سلطان الدولة إلى أيدي الفاتحين من أبناء دين غير دينه . فكل هذه النواحي المنتجة تؤدي إلى شيء من الترجيح القوي ، إن لم يكن من شأنها أن تؤدي إلى القطع والجزم في جانب الإثبات أو جانب النفي والإنكار ، ولكنها على ذلك أهملت أسوأ الإهمال ، ولم يُعرها « المؤرخون النساخون » بعض ما أعاروه كعادتهم للمقارنة بين النصوص ، والموازنة بين الأرقام ، وسرد أقوال الشهود على وقائع ليست من وقائع الشهادة والحكاية في التاريخ ، ولا في حوادث كل يوم .

وهذه نماذج من أقوال المؤرخين في هذه المسألة ، نحسبها نماذج لأكثر من باب واحد من أبواب التاريخ ، فهي مثال لتاريخ النساخين ، ومثال لتاريخ ذوي الأغراض ، ومثال للتاريخ الذي يكتبه المعاصرون وينظرون فيه إلى حوادث الزمن القديم ، فيحكمون عليها كأنها تقع اليوم ، وتنبعث من دواعي السياسة أو الشعور ، التي تدور عليها حوادث القرن التاسع عشر أو القرن العشرين .

* * *

من أكبر المؤرخين لعصر الفتح الإسلامي الدكتور ألفريد بتلر الذي أقام في مصر زمناً قبل الاحتلال البريطاني وبعده ، واجتهد اجتهاده العلمي في تمحيص الوثائق التي عثر بها في القصور الخديوية وفي المكتبات العامة والخاصة ، ولكنك تلمح من ثنايا كلامه كأنه يكتب عن خروج مصر من

الدولة الرومانية ، وهو يتصورها خارجة من الدولة البريطانية في العصر الحديث ، ويحسب أن تدبير هذا الخروج « عمل خائن » يحاط بالشبهات ، ويدان بأحكام العلاقات الدولية في هذه الأيام .

فبعد أن أورد الأقوال المتضاربة ليضعفها ويفنّدها، اختار منها قولاً واحداً لا فضل له على سائرها ، غير أنه القول الذي يدين المقوقس ويسفّه رأيه ! !

قال : « إلى هنا قد بيّنا ما هنالك من أدلة بينها اتفاق عجيب في بعض الأحايين ، واختلاف واسع في أحايين أخرى ، وقد استمددنا تلك الأدلة من وثائقها الأصلية، ومنا ما تخلف عن العصر الذي نصفه ، وهي من أصول متباينة: منها اليوناني والقبطي والسرياني والعربي، وكلها تدل على أن المقوقس إنما هو « فيرس » بطريق إسكندرية العامل على الخراج، والحاكم العام على مصر في وقت الفتح ، وليس ينقض هذا الرأي أن يقول قائل إن مؤرخي العرب قد يطلقون لقب المقوقس أحياناً على شخص يسمونه ليس هو فيرس ، ولسنا ننكر أن الأمر كذلك ، ولكننا ننكر كل الإنكار تلك النتيجة التي يذهب إليها أصحاب ذلك القول ، وهو أن لقب المقوقس لم يكن علماً على شخص معين واحد ، وحجتهم في ذلك أنه قد أطلق خطأ في بعض الأحوال على أشخاص متعددين ، ويلوح لنا أن العلاّمة كاتياني من بين من يذهبون هذا المذهب . وأما الحقيقة التي نراها فهي أن المؤرخين العرب إنما كتب أكثرهم وليس عنده من المقوقس أكثر من صورة ضئيلة مبهمة ، وأنه كان حاكماً على مصر ، فليس من العجيب أن نجدهم يصورونه أحياناً مشتركاً في أعمال أو حوادث لم يكن مشتركاً فيها بنفسه ، أو لم يحضر حدوثها ، ولا شك أنهم قد ضلوا في أمر اسمه وشخصه ، ولذلك فهم يخطئون فيها ، ولكن المسألة التي نحن بصددها باقية ، وهي أن نكشف خلافهم عن حقيقة شخصية المقوقس ، وأن نعرف من كان بين الناس ، ولم يذكر مؤرخ عربي ــ وما كان له أن يذكر ــ أن ذلك اللقب قد أطلق على ثلاثة

أشخاص كلهم حق له أن يلقب به ، وليس في طاقة المنطق أن يبيح لقائل أن يقول إن وجود الخلاف يجعل ذلك اللغز متعسراً على العقول لا تستطيع حله ، بل إن واجب النقد التاريخي أن يصفي ما هناك من خلاف ، وأن يزيح ما تراكم منه على الحقيقة فيكشفها ويجلوها، ولعلنا يحق لنا أن نعتقد أنه إذا عُرضت الأدلة عرضاً لا ميل فيه ولا تحيز أمكن أن نصل إلى نتيجة مؤكدة ليس فيها شك ، وهي أن المقوقس لم يكن سوى فيرس، وأنه لا ينبغي لذلك اللقب أن يطلق على سواه من الناس »[1] .

* * *

وأشد من بتلر « بريطانية » في تصوير التاريخ تلك السيدة الإنجليزية « ا.ل. بتشر » التي كتبت تاريخ الأمة القبطية لتأسف أولاً على أنها انفصلت من الكنائس الغربية ، وتثبت ثانياً أن خروج مصر من حكم الرومان كان خيانة مصرية لا تضارعها خيانة ، وتمثلت صاحبَ هذه الخيانة كأنه عائش في زمانها ، فهالت عليه من السباب المقذع ما يستحقه عندها الخارجون على سلطان بريطانيا العظمى ، وهي –أي السيدة بتشر– على خلاف رأي بتلر في تحقيق شخصية المقوقس ، لأنها تقول إنه هو جورج أو جرجس المصري ، وتتوجع لما حدث ، كأنه لو لم يحدث كانت سلِمت الدولة الرومانية مما أصابها ، وبقيت مصر في حوزتها !

قالت : « لما طرد هرقل الفرس سنة ٦٣٠ وأعاد حامياته في مصر كان أعلم باضطراب الموقف ، وتخلخُل قبضته على البلاد ، من أن يندفع متهجماً ، وجعل ينتظر ريثما تبلغ مقترحاته الدينية مبلغها عند الجانب المصري ، وكان حكام الأقاليم – ومنهم مصريون وطنيون – يعلمون أن وقت الحساب غير

---

١ – من ترجمة الاستاذ محمد فريد أبي حديد لكتاب « فتح العرب لمصر » الطبعة الثانية .

بعيد لا يقبل التسويف الطويل ، وكثير منهم كانت له أسبابه الخاصة وأسبابه السياسية التي تخيفه من عاقبة استقرار السيطرة البيزنطية .

« ولو أن مقترح التوفيق ، الذي عرف بالأوطاخي ، لقي القبول عند البطرق بنيامين لأصبح هؤلاء الحكام عُزْلاً من السلطان ، ولكن هرقل من طريق نائبه فيرس الذي اختاره بطرقاً للكنيسة البيزنطية أو كنيسة الدولة ، كان قد أخطأ فهوّن من شأن البطرق المصري ، فلما بدا لفيرس أن جمهرة الأمة المصرية رحبت بمقترحه لم يتردد في اضطهاد البطرق المصري ونفيه لرفضه وإبائه ، فما كان من أثر ذلك إلا أن الرفض والإباء كمنا في طوايا الأمة المصرية جمعاء ، وأصبح المقترح محتوم الزوال بعد حين ، ومهما يكن من أخطاء الأمة المصرية ، لقد كان من دأبها أنها لم تخذل قط بطرقها ، ولعل مقترح الإمبراطور كان يبدو كأنه غاية ما ترومه ، لولا أن البطرق لم يقرّه ، فليس من حق المصري الصادق أن يباليه ويلتفت إليه ، وشيئاً فشيئاً تحولت جمهرة الشعب من جانب الإمبراطور ، وأخذ فيرس يدرك أنه أخفق وخاب في مسعاه ، فتنفس الموظفون الخونة الصعداء ، ولاح لهم يوم الحساب غير قريب .

« من هؤلاء الموظفين والوكلاء واحد ينفرد بارزاً بالمكانة الشائنة ، وقد سمع أكثر الناس بالمقوقس الذي تمارى الكثيرون في اسمه ووظيفته ، بل تماروا في وجوده ، وتناقشوا طويلاً في أمره ، ولكن مجموعة الورق البردي ، التي في حوزة الارشيدوق « رينر » وترجمت أخيراً ، قد يسرت لنا ، ولو بعض التيسير ، أن نزيل بعض المصاعب التي تحف بهذه المسألة .

« ومعظم المؤرخين متفقون منذ زمن بعيد على أن المقوقس لم يكن اسم علم ، ولكنهم حاروا في الجزم بحقيقته بين أن يكون لقباً أو عنوان منصب من مناصب الدولة . أما الواقع فيظهر أنه لم يكن هذا ولا ذاك ، وإنما كان الرجل صاحب عنوان يمكن أن يسمى بالعمدة ، ويخطىء بعض المؤرخين

فيسمونه نائب الملك ، واسمه الأصيل جرجس بن مينا بركيوبس ، وقد كان اسم مينا في مصر عامّا شائعاً يحتاج إلى لقب يوناني لتمييزه ، وليس العمدة أو المدير في الأقاليم إلا الحاكم المصري الذي يشرف على جميع أعماله الإدارية ، كحفظ الأمن ، وجمع الضرائب وتسليمها ، وتدبير شئون الطرق والجداول والسدود والقناطر ، وكل ما يلحق بالنظام الإداري ، حتى سك العملة وتقدير المقاييس والأوزان . ولا يخرج من سلطانه غير الجيش ، وتمثله في كل إقليم حامية صغيرة ، والقساوسة ، وهم الاستثناء الأهم من استثناء الحامية . وقد كان عدد الموظفين الذين لا يعرفون أحداً أكبر من العمدة عظيماً جداً ، ومن الكشوف الحديثة نعرف أسماء الأقسام الثلاثة التي تولاها العمدة أو المديرون في عهد الغزوة العربية .

« لقد كانت اليونانية لغة البلاد الرسمية ، وكان لقب التمجيد الذي يمنحه المديرون كلمة تقابل عندنا في الإنجليزية كلمة الفخم أو المجيد كما تعودنا في تقديم سفرائنا بألقاب ذوي السعادة . ولكن العرب حسبوا هذه الكلمة اسماً شخصياً للعمدة الخائن الذي فاوض عمراً على تسليم البلاد ، وقد أصبح جرجس الخائن من ثم مشهوراً خلال القرون بوصفٍ ما أقلّ انطباقه عليه ، وهو وصف المقوقس أو الفخم المجيد .

« كان عمدة الوجه البحري أمون مينا رجلاً ، كما وصفه يوحنا النخوي ، مدّعياً غبيّاً ، يمقت المصريون أشد المقت ، بقي في منصبه بعد دخول مصر في حوزة العرب . وكان عمدة مصر الوسطى على أحد شواطىء النيل من ناحية المنيا يسمى فيرس ، ولا نعلم عنه شيئاً إلا أنه اشترك في تسليم البلاد للمسلمين ، وأما عمدة مصر العليا — أو بابلون — فاسمه في أوراق البردي جورج أو جرجس ، الذي نسميه المقوقس ، وهؤلاء كانوا المديرين على أهم الأقاليم مع الدوق العسكري والحامية التي تتبعه ، وإلى جانبهم قديماً — أو بعد دخول العرب — مديران آخران أقل شأناً منهم ، وهما فولكسينوس بالفيوم وشنوده بالريف .

« وثلاثة من هؤلاء العمد مصريون وطنيون ، بدليل أسمائهم التي لا تقبل الشك ، وإن لم يكونوا من أتباع الكنيسة الوطنية ، وإلا لما أمكن أن يشغلوا هذه المناصب . وإن المؤرخين الذين يذكرون المقوقس على أنه قبطي مصري لعلى صواب ، ولكنهم مخطئون في زعمهم أنه تابع للكنيسة الوطنية التي تعرف الآن باسم الكنيسة القبطية ، ولعله كان في قلبه يشايع كنيسة آبائه ولا يستطيع أن يصرح بالانتساب إليها فهو موظف بيزنطي من أبناء مصر ، وهو من ثم خائن لإمبراطوره ، وخائن لبلاده ، وخائن لكنيسته .

« وكان قد مضى عليه عهد بعيد في وظيفته على أيام الغزوة العربية ، فأصبح أقوى المديرين جميعاً لدخول بابليون في أقليمه على أقصى حده الشمالي ، وتعود المصريون نحو عشرين سنة أن ينظروا إليه كأنه وحده حاكم وادي النيل ، وقد علمتهم غارات الفرس أن البيزنطيين بغير حول ولا قوة ، ثم ذهب الفرس وعاد البيزنطيون ، واحتلت طائفة من جنودهم حصن بابليون وبعض الأمكنة في بني سويف والفيوم ، ولم يشعر أبناء البلاد إلى الجنوب بآثار هذا التغيير ، ولا فرقوا بين الجنود في ملابس الفرس أو الجنود في ملابس الرومان ، وإنما كانوا يؤدون الضرائب بحكم العادة للعمدة أو المدير ، ويكلون إليه أن يسلمها لمن يشاء ، وانقضى زمن طويل والمدير القوي يتصرف فيها على أيسر وسيلة ، فيستبقي له كل ما بقي من الأموال بعد توزيع المرتبات وتكاليف الحكومة في الإقاليم ، ولكنه ما عتم أن رأى هرقل يظن أن مقترحات التوفيق قد جمعت حوله أبناء البلاد ، ويريد الدليل المحسوس على سلطانه ، ويشدد في استقضاء الأموال ، حتى شهد الخطر فاغراً فمه أمام عينيه ، وكان من قبل قد نظر إلى بعيد ، وأرسل إلى الشمس الطالعة سفارة ودية تحمل الهدايا من العسل والعبيد إلى محمد زعيم القوم ، وها هوذا محمد قد مات ، وها هي ذي وقائع النصر التي أحرزها هرقل تغمه وتشغل باله ، فإذا نهضت الدولة القديمة وهزمت العرب أمامها كما هزمت الفرس ، فهو أول من يساق لتقديم الحساب ، وقد التقت جيوش

هرقل وعمر خليفة محمد في فلسطين ، وأيقن جرجس أن مصر ستكون لا محالة نصيب الظافر من الفريقين ، ولاح له من وقائع هرقل الأخيرة أنه قد يكون صاحب الكفة الراجحة ، فبادر إلى العمل على حسب هذا التقدير ، وكانت له فتاة حسناء تسمى أرمانوسة ، فخطر له خاطر بارع : أن يزوجها من قسطنطين بن هرقل ووارث عرشه الذي ماتت زوجته ، وأن يزودها بجهاز يغريه بإهمال موضوع الأموال المتأخرة ، وكان قسطنطين يومئذ في قيصرية ، ويظهر أنه استراح إلى هذه الفكرة ، وعلى هذا خرج من بابليون في أواخر سنة (٦٣٠) موكب فخم يزف العروس المصرية إلى قرينها الملكي ، وقيل إن حراس الموكب بلغوا ألفي فارس عدا الحشم والخدم وحملة الذخائر والتحف المهداة ، وما كاد الموكب يقترب من الحدود المصرية وينحو ناحية القنطرة فالعريش حتى نمي إلى أرمانوسة نبأ انتصار العرب ، ومحاصرتهم لقيصرية ، وتأهبهم للهجوم على البلاد المصرية ، فتصرفت المصرية الشابة بالشجاعة والفطنة الجديرتين بأسلافها العريقين ، وقفلت إلى بلبيس مستعدة هنالك للدفاع ، فأنفذت على الأثر حرّاسها إلى الفرما للمقاومة فيها إذا قدم العدو من جانبها كما كان مرّجحاً في تلك الأحوال ، وأرسلت إلى أبيها تنذره ، ولم تبرح بلبيس لتشجيع السكان على الثبات في وجه الكفار . على أن عمراً قائد المسلمين تجنب الفرما وتقدم رأساً إلى بلبيس ، فضرب حولها الحصار ، فلبثت الفتاة الباسلة شهراً تصد العرب بفرقتها الصغيرة التي لم تدرب على القتال ، وبعد خسارة عظيمة في الأرواح وقعت المدينة عنوة في قبضة عمرو ، ومعها أرمانوسة وكل ما لديها من ذخائرها وكنوزها ، فبعث بها إلى أبيها معزّزة مكرمة ، إما لإعجابه ببسالتها ومحاولتها الدفاع والمقاومة ، وإما لإدراكه جلالة العاقبة من ترك كل عمل يسيء إلى العمدة المقتدر في بابليون . فانحلت مشكلة المقوقس ، وبرح الخفاء في أمر الشمس الطالعة منذ ذلك الحين » .

* * *

وعلى هذا المنهج من تشويه الوقائع تمضي المؤرخة « المترومنة » وتتكلف من التحقيق والتمحيص ما يعينها على غرض واحد ، وهو الحسرة على خروج مصر من الدولة الرومانية ، وإلقاء التبعة في ذلك على المقوقس ، وتعليل خيانته بجمع الضرائب لنفسه في الآونة التي انقضت بين استيلاء الفرس على مصر وخروجهم منها ، وهي علة لا يعقلها جاهل بظواهر الأحوال ، فضلاً عن مؤرخ يتصدى لتفسير التواريخ واستخلاص الحقائق من وراء الشبهات ، فإن الفرس لم يفتحوا مصر ليتركوا ضرائبها وخيراتها غنيمة للمقوقس ، يعطي منها ما يعطيه ويستبقي منها ما يستبقيه . وإذا كانت علة الخيانة خوف المطالبة بالضرائب المتأخرة فأيسر شيء على المقوقس أن يقول إن الفرس نهبوها ولم يعطوه « إيصالاً » بما نهبوه بطبيعة الحال ، وإذا عز عليه في دهائه — أو في بلاهته — أن يعتذر بهذا العذر الواضح ، فقد كان خيراً له أن يبذل المال لهرقل أو لقسطنطين بدلاً من إرساله تحفاً وهدايا وجهازاً وصداقاً مع بنته المزعومة أرمانوسة ، وهو لا يأمن أن تخرج مصر من يد هرقل ، فيكون قد قذف بفتاته إلى النيران ، ووقع بين شقي الرحى من ناحية المهزومين وناحية المنتصرين ، ولم يستفد من كل ذلك إبقاء المال ولا إبقاء فتاته لديه .

وقد قبلت « المترومنة » قصة أرمانوسة من قصص الواقدي على علاتها ، ولم تبحث فيها أقل بحث يتطلب التعزيز والإسناد ، ولم يحملها على قبول القصة إلا أنها ذريعة لتهمة من التهم تكال للمقوقس المسكين . على أن «بتلر» لم يرفض قصة أرمانوسة إنصافاً للحقيقة ، أو ذهاباً مع التمحيص والتدقيق ، بل رفضها لأنه اختار أن يكون المقوقس هو فيرس ، واختار أن يكون فيرس راهباً لا يجوز له الزواج ، وهو في ذلك لم يبلغ بالتمحيص غايته ، لأن مسألة الزواج لم تكن يومئذ من الحرج والصرامة بحيث انتهت إليه بعد فصل الكنيسة القبطية من سلطان الرومان . وقد كان مستحباً للأسقف أن يكتفي بزوجة واحدة إذا خشي الفتنة على نفسه ولا يزيد عليها . قال ساويرس

ابن المقفع أسقف الأشمونين ، صاحب « سيرَ البطارقة » أثناء الكلام على ديمتريوس الثاني عشر : « وإذا قال قائل كيف يجوز أن يكون بطرك متزوجاً نقول له : قد قال التلاميذ في قوانينهم : إذا كان الأسقف متزوجاً امرأة واحدة فلا يمنع من ذلك ، لأن الزوجة المؤمنة طاهرة وفراشها طاهر ولا ذنب عليه . والبطرك هو أسقف مدينة الإسكندرية ، وله الرئاسة على أساقفة أعمالها ، لأنه خليفة مار مرقس الرسول على إقليم مصر جميعه ، والخمس مدن والنوبة والحبشة كل هذه خرجت من قسم الأب مرقس الرسول البشير ببشرى الإنجيل . ولهذا أوجب أن يكون حكم أسقف إسكندرية على جميعها » .

فليست هناك عالي حاسمة تصلح للاستناد إليها في التثبت من السيَر والأشخاص على هذه الطريقة التي توخاها بتلر ، أو على تلك الطريقة التي توخّتها السيدة فيما اختارته أو نبذته من تاريخ تلك الآونة .

وكان خليقاً بتاريخ هذه السيدة أن يُهمل كل الإهمال ، أو يترجم لتصحيحه وإبرائه من السخائف والأباطيل ، ولكنه ترجم فبلغ من غباء مترجمه أن يصرف همه في الترجمة إلى توكيد سخائفه ، وتمكين أباطيله ، واختراع القصص لتزييفه وتسويغه ، ونبذة واحدة من الترجمة السقيمة تكفي لتصوير الجرأة على الهزل في مقام الجد مما يساق للناس في مقام التاريخ المحفوظ ، وهذه النبذة هي هذه القصة التي اختُرعت أو أضيفت إلى التاريخ من أساطير الخيال ، وقد نقلها المترجم مما تقدم فقال :

« من مميزات المقوقس أنه كان ذا وجهين ، يتلوّن تلون الحرباء ويتقلب حيث شاء ، ولسان حاله يقول أنا مع الغالب . فإنه لما انتصر هرقل على العرب في موقعة عند فلسطين ، ظن جرجس أن النصر سيكون لهذا الإمبراطور ، ولذلك سعى في التقرب إليه والتملق له عساه يتناسى عدوانه وطعمه ، فدبر الطريقة الآتية ، وهي أنه كانت له ابنة بارعة في الجمال اسمها أرمانوسة ، فخطر على باله أن يزوجها بقسطنطين إبن هرقل الأكبر ووريثه ، وأمهرها

بصداق وفير جعل هذا الأمير الذي كان حاكماً في قيصرية أن يقبل طاب جرجس ويتنازل في المتأخرات الباقية عليه من ضرائب مصر التي لم يدفعها للخزينة الإمبراطورية . ففي سنة ٦٣٩ سارت هذه العروس المصرية من بابيلون ، بأبهة الملكات ، وفخفخة جداتها المصريات ، يحف بها جيش جرار ، ويمشي في ركابها أمراء وأقيال ، حتى بلغ مقدار الفرسان الذين كانوا في موكب زفافها ألفي فارس أو يزيدون ، عدا العبيد والهدايا النفيسة والعطايا الفاخرة التي تليق بعروس مصرية لعريس روماني . ولكن عندما وصلت هذه الحسناء لحدود مصر ، وكادت تعبر القنطرة عند الإسماعيلية إلى العريش بلغها أن الغلبة كانت حليفة للعرب الذين شددوا الحصار على قيصرية ، وهم يستعدون للهجوم على مصر ، فلما طرق هذا الخبر آذان سليلة رعمسيس، وابنة فرعون ، وكريمة أولئك الأجداد الكرام الذين دوخوا العالم واجتاحوه قبل أن يوجد العرب ، طرحت حلي العرس وزينة الفرح ، وتقلدت السيف بدل الوشاح ، ولبست الدروع بدل الدمالج ، وتمنطقت بمعدات الهلاك بدل أحزمة الذهب المرصعة باللآلىء ، ونزلت من مركبتها ، وامتطت متن جواد أشهب ، وقالت للذين يسيرون معها أن هيا نخضب أيدينا بدماء الأعداء بدل خضاب الأوانس ، ونشرب بجماجمهم عوضاً عن شربنا بكاسات الذهب وطاسات الإبريز . تعالوا نشنف آذاننا بصلصلة السيوف وصهيل الخيل ، بدل وقع الدف ورنة العود ! سيروا بنا نحو الأعادي ، وهناك إذا وقعت العين على العين ، وحمي وطيس الحرب ، وعلا سعير الطعن والضرب ، وتقابلت مع الفرسان تجدوني أردد ما قاله عنترتهم الأسود ، وأنا فتاة بيضاء بضّاء ، وغادة هيفاء :

إذا كشفَ الزمانُ لك القِناعــ ... وَمَدّ إليكَ صَرْفُ الدّهرِ باعا
فــلا تخشَ المنيّـــةَ والتَقِيها ... ودافعْ مَا استَطعتَ لهادِ فاعا
ولا تَخْتَرْ فِراشاً من حريرٍ ... ولاتَبْكِ المنازلَ والبِقَاعا

وحينئذ كرت أرمانوسة راجعة إلى بلبيس في نفر من رجالها وأخذت

تستعد للدفاع وصدِّ هجمات الأعداء المغيرين » .

إلى أن قال :

« وبعد أن دخل عمرو بلبيس ، وقعت أرمانوسة أسيرة في يده ، ولكنه أرسلها إلى أبيها بكل احترام وتبجيل ، إما لأنه أعجب بشجاعتها وبسالتها ، أو لأنه خاف أن يؤذيها فيسيء إلى والدها صديقه الحميم ، الذي ثبت لديه الآن أن العرب هم الذين سوف يأخذون مصر بلا مجادلة . ولما وصلت أرمانوسة إلى أبيها سألها عما فعلت ، فأجابته :

أقمنـــا بالذوابل سُوقَ حَرْبٍ ... وَصَيَّرْتُ النفوسَ لها مَتَاعَا
حِصاني كـــان دَلاَّلَ المَنَايا ... فخاضَ عُبابهـــا وَشَرَى وباعَا
وسَيْفي كان في الهيجا طَبيباً ... يُداوي رأسَ من يشكو الصُّداعا
إذا الأبطال فرَّت خَوْفَ بأسي ... ترى الأقطـــار باعاً أو ذراعا

فكظم أبوها غيظه منها ، لأنها قاومت الذين تعاهد معهم على أن يعطيهم وطنه لقمة باردة دون حرب أو عناء ، ولم يستطع توبيخها أو تعنيفها ، لأنه كان لا يزال تحت سلطة الرومانيين ، ولم تصر مصر بعد إلى أيدي هؤلاء العتاة المغيرين .. »

* * *

وعلى غير هذا الأسلوب أصلاً وترجمة ، يتعرض الدكتور جاك تاجر لتحقيق أمر المقوقس ، وتاريخ الفتح العربي ، وسرد الوقائع والمرويات على نسق يوهم القارىء أن النظر في الوثائق والمعاهدات يعاد من جديد ، فيقول في الصفحة الرابعة والأربعين من كتاب بعنوان « مسلمون وأقباط » :

« إن الشخص الذي يطلق عليه مؤرخو العرب اسم المقوقس لم يزل غامضاً . هل كان قبطياً ؟ هل كان من أصل يوناني ؟ هل المقوقس الذي سلم القاهرة هو نفسه الذي أبرم اتفاقية الإسكندرية ؟ لم يصل المستشرقون

بعد بحث وتنقيب خلال قرن أو أكثر إلى جواب دقيق عن هذه الأسئلة . نعم إننا اليوم أقرب إلى الحقيقة من أمثال شمبليون فيجاك شقيق شامبليون الذي صوَّر لنا فيرس على أنه قس قلق ومفسد — خلف البطريرك جورج عام ٦٣٠ — بينما حكم مصر أحد الأقباط كريم الأصل ومن أغنى أغنياء البلاد اسمه المقوقس . غير أن المستندات التي حصلنا عليها حتى الآن لا تسمح لنا بعد بتفسير هذا اللغز التاريخي تفسيراً تاماً .

« استعمل المؤرخون « كلمة مقوقس » باعتبارها اسم شخص معين . على أننا متأكدون تقريباً من أصل هذه الكلمة ، إن البطريرك فيرس الذي عينه الإمبراطور هرقل محافظاً على دوقية الإسكندرية كان قبل تعيينه أسقفاً لمدينة فاز من مدن القوقاس ، فلقب في مصر بلقب فوفيوس — القوقاسي — كما يشهد على ذلك أحد المستندات القبطية النادرة التي كشف عنها وأشار إليها إميلينو : Amlineau

...« أما الفوفيوس هذا الأسقف المزعوم ، فقد ترك الحقد يوغر في صدره إلى أن وصل إلى مدينة الفيوم ... ولما أدرك الأب صمويل أنه سيفارق الحياة ، قال له — أي للفوفيوس — : أنت أيضاً أيها الكلسيدوني المخادع .. »

إلى أن قال في الصفحة الخامسة والأربعين : « ونميل إلى الاعتقاد دون أن نجزم قطعياً بأن المقوقس الذي فاوض في تسليم بابليون ، هو شخص آخر غير البطريرك فيرس الذي أبرم صلح الإسكندرية ، بل أنه حاكم قبطي ، وأمسك المؤرخون العرب عن التثبت من شخصية هذا الحاكم .. على أن المؤرخ الكاثوليكي « ابن بطريق » يشير إلى المقوقس على أنه يعقوبي مبغض للروم ، ولم يكن يتهيأ له أن يظهر مقالة اليعقوبيين لئلا يقتلوه ، ويتهمه ابن بطريق إلى جانب ذلك بأنه قد اقتطع أموال مصر من وقت حصار كسرى للقسطنطينية ، فكان يخاف أن يقع في يد هرقل الملك فيقتله ... والذي يحملنا أيضاً على الاعتقاد بأن حاكم بابليون أيام الحملة كان قبطياً ، هو الفرق

الواضح بين اتفاقيتي القاهرة والإسكندرية : فبينما تعنى اتفاقية الإسكندرية صراحة بمصير اليونانيين ، لم تهتم اتفاقية بابليون إلا بمصير الأهلين . وأبى ابن الحكم أن يترك شكاً في هذا الموضوع ، فأضاف بعد أن ذكر الاتفاقية الموقع عليها في بابليون ما يأتي : (هذا كله على القبط خاصة) . ومن جهة أخرى أراد المقوقس أن يخطر عمراً قبل دخول الاتفاقية في دور التنفيذ فقال له : إنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني ، وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ، ولم يأت من قبلهم نقضٌ ، وأما الروم فإني بريء منهم وليس ديني دينهم ، ولا مقالتي مقالتهم ، إنما كنت أخاف منهم القتل ، فلذلك كنت أستر ديني ومقالتي .. وأكتم ذلك »

« أما الأوراق الأثرية التي استند إليها هؤلاء المؤرخون وغيرهم فليس فيها ترجيح لقول من أقوال ، وقد يكون فيها ترجيح لما يخالفها ، وهذه أمثلة منها ، أهمها الأوراق التي عثر عليها الشرقاوي مكتوبة بالقبطية الصعيدية ، وأهداها في شهر يونيو سنة ١٨٩٢ إلى « القمص فيلوتاؤوس » وفي أول إحداها حكاية عن زيارة المقوقس لبعض الأديرة وحواره مع رهبانه :

« .. فقال رئيس الدير ، لا أعرف لأي سبب بارحوا .. حينئذ أمر بضرب رئيس الدير حتى يخبره بكل ما حصل . فأجابه الرئيس بقوله : لا تضربني وأنا أخبرك الحقيقة .. هذا الرجل ، صمويل الناسك ، عمل للرهبان موعظة طويلة لامك فيها ، ودعاك مجدفاً ويهودياً خلقيدونياً ، وكافراً غير مستحق أن تقدس بطريركاً ، وغير مستحق لشركتك بأي نوع ، ولهذا السبب أصغى الرهبان لكلامه وذهبوا ... فلما سمع الكافر هذا الكلام غضب غضباً شديداً ، وصار يعضّ شفتيه من شدة غضبه ، ثم ابتدأ يلعن رئيس الدير والدير والرهبان ... وعقب ذلك رجع من سكة أخرى ، ولم يحضر للجبل لهذا اليوم . وبعد هذه الحادثة رجع الإخوة بسلام إلى الدير . أما من جهة المقوقس ، البطريرك الكاذب ، فإنه صار حاقداً لحين وصوله لمدينة

الفيوم ، ففي الحال حضر خدام ورجال — عارفين البلد — ، لكي يأتوا له بالقديس أنبا صمويل مغلول اليدين وراء ظهره ، وفي عنقه طوق حديد ، ويدفعوه أمامهم مثل لص ، فوصلوا إلى الدير وأخذوه . أما هو فكان يمشي متهللاً بالرب قائلاً : لعل الله سبحانه وتعالى يجعل دمي يسفك اليوم من أجل اسم المسيح ! ولهذا السبب ابتدأ يشتم المقوقس بحرية قائلاً : بدون شك أنه سيفعل ما وعد به منذ قليل . فلما أحضره العسكر أمام المقوقس ، ورأى الكافر رجل الله ، امتلأ غضباً ، وأمر العسكر أن يضربوه حتى يسيل دمه مثل الماء ، ثم بعد ذلك قال له : أنت يا صمويل الناسك الكافر ، قل لي : من رسمك إيغومانسا على هذا الدير ؟ ومن أمرك أن تغري الرهبان على لعني ولعن إيماني ؟ فأجابه القديس أنبا صموئيل قائلاً : تصلح الإطاعة لله ولقديسه البطريرك أنبا بنيامين ، أولى من الإطاعة لك ولتعاليمك الشيطاني يا ابن إبليس المسيخ الدجال . حينئذ أمر بضرب القديس أنبا صموئيل على فمه قائلاً : إن المجد الذي يعطيه لك الناس بصفة ناسك ينفخك . لكن أنا الذي سوف أعلمك وأرشدك للتكلم الباطل ، لأنك لم تكرمني بصفة كوني بطريركاً ، ولم تراعي أيضاً أنا وقدرتي بصفة كوني عاملاً على خراج بر مصر . فأجابه القديس أنبا صموئيل قائلاً : إن الشيطان كان أيضاً بوظيفة عامل وله سلطة على الملائكة ، لكن تكبره وعدم أمانته إنما هما اللذان جعلاه غريباً عن مجد الله وملائكته . وأنت أيضاً أيها الخلقيدوني الغاش ، إيمانك نجس ، وأنت ملعون أكثر من الشيطان وجنوده . فلما سمع المقوقس ذلك امتلأ رجزاً ضد القديس ، وأشار إلى العسكر أن يجلدوه لحد الموت ... »[1]

* * *

ويبدو لنا أن هذا الحوار مفهوم إذا كان المقوقس مصرياً يحتاج إلى التذكير بصفته الحكومية ، وكان منتمياً إلى مذهب غير المذهب الذي ينتمي

١ — من صفحة ٤٠٢ الى ٤٠٨ من السنة الثانية للمجلة القبطية .

إليه أكثر قومه ، ولكنه غريب في خطابٍ يدور بين ناسك مصري ورئيس روماني يدين بمذهب المجمع الخلقيدوني ، ولا ينتظر أن ينتمي إلى غيره بحكم مولده ومنصبه وانتمائه إلى النحلة الملكية . وكذلك المقابلة بين البطرق بنيامين والمقوقس مفهومة إذا كان كلاهما مصرياً ، وكان الاختلاف بينهما في المذهب . أما أن يكون أحدهما رومانياً ملكي المذهب ، وأن يكون الآخر مصرياً يعقوبي المذهب ، فلا وجه للموازنة بينهما في كفتين متعادلتين .

* * *

ومن المراجع التي جاء فيها ذكر المقوقس كتاب « سير البطاركة » ، لمؤلفه ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين ، الذي جمع تاريخه من أوراق الأديرة ، وقال عن البطرق بنيامين :

« خرج من الديارات بوادي هبيب — النطرون — ومضى إلى الصعيد ، وأقام مختفياً هناك في دير صغير في البرية إلى كمال العشر سنين ، كما قال له ملك الرب ، وهي السنين التي كان فيها هرقل والمقوقز متساطين على ديار مصر ... ثم إن هرقل أقام أساقفة في بلاد مصر كلها إلى أنصنا ... فلما تمت عشر سنين من مملكة هرقل والمقوقز ، وهو يطلب بنيامين البطريرك وهو هارب منه من مكان إلى آخر ، مختفياً في البِيَع الحصينة ، أنفذ ملك المسلمين الخليفة سرية مع أمير من أصحابه يسمى عمرو بن العاص ، في سنة ثلثمائة وسبع وخمسين لديقلاديانوس قاتل الشهداء ، فنزل عسكر الإسلام بقوة عظيمة في اليوم الثاني عشر من بؤونة ، وهو الرابع من دنكطس من شهور الروم . وكان الأمير عمرو قد هدم الحصن وأحرق المراكب بالنار ، وأذلّ الروم ، وملك بعض البلاد . وكان مجيئه من البرية ، فأخذ الجبل حتى وصلوا إلى قصر مبني بالحجارة بين الصعيد والريف يسمى باباون ، فضربوا جميعهم خيامهم هناك حتى ترتبوا لمقاتلة الروم ومحاربتهم ، ثم إنهم أسموا ذلك الموضع بلغتهم الفسطاط ، وهو اسمه إلى الآن . وبعد قتالهم ثلاث

دفعات غلب المسلمون ، فلما رأى رؤساء المدينة هذه الأمور ، مضوا إلى عمرو وأخذوا منه أماناً على المدينة لئلا تنهب . وأهاكوا جنس الروم وبطريركهم المسمى أريانوس ، ومن سـلم منهم هرب إلى الإسكندرية وأغلقوا أبوابها عليهم وتحصنوا فيها .. فلما ملك عمرو المدينة ورتب أمورها ، خاف الكافر والي الإسكندرية ، وهو كان واليها وبطركها من قبل الروم ، أن يقتله عمرو ، فمص خاتماً مسموماً فمات لوقته . فأما سانوتيوس التكس — أي الدوق المؤمن — فإنه عرّف عمراً بسبب اختفاء الأب بنيامين البطريرك ، وإنه هارب من الروم خوفاً منهم ، فكتب عمرو بن العاص إلى عمال مصر كتاباً يقول فيه هكذا : « إن الموضع الذي يكون فيه بنيامين البطريرك الذي للنصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله ، فليحضر آمناً مطمئناً ، ويدبر حال بيعه وسياسة طائفته » ، فلما سمع القديس بنيامين هذا ، عاد إلى مدينة الإسكندرية بفرح عظيم ، بعد غيبته ثلاث عشرة سنة ، منها عشر سنين لهرقل الرومي الكافر ، وثلاث سنين قبل أن يفتح المسلمون الإسكندرية ، لابساً إكليل الصبر وشدة الجهاد » .

وهذا التاريخ الذي كتبه المؤرخ القبطي في عصر الفاطميين ، يخرج لنا المقوقس في صورة تناقض جميع الصور التي يظهر فيها خائناً متواطئاً مع العرب ، فإنه بخع نفسه خوفاً منهم أن يدمروا عليه الإسكندرية ، وكان الفرح بهم من جانب الحزب المصري في الكنيسة برئاسة البطرق بنيامين الذي عاد إلى كرسيه آمناً بعد موت المقوقس وخروج الروم منها .

* * *

ونقلت المجلة القبطية في العدد السادس من السنة الثالثة تعليقات من حواش مخطوطة على جداول البطاركة ، جاء في إحداها :

« إنه كان في إيام الأب بنيامين أن ملكت العرب أرض مصر ، وكان دخولهم إليها في ثاني بؤونة سنة ٣٣٣ ، وكان المقوقز جريج بن مينا الهراطيقي

نائب هرطاقة هرقل بالديار المصرية ، يطلب ويضطهد على الموافقة له على أمانة لاوون الفاسدة ، وظفر بأخيه مينا ، وأنزل به عقوبات عظيمة وغرقه » .

وهذه الفقرة لا ترجح شيئاً كما ترجح انتماء المقوقس إلى مصر ، لأنه نشأ في بيت يسمى أبناءه باسم مينا ، ويتسمى هو وأخوه بهذا الاسم الواحد ، مع التفرقة بينهمـــا في اللقب أو الكنية ، وهذه التسمية تقليد وطني لم يؤثر مثله عن أحد من الرومان الشرقيين أو الغربيين .

* * *

وممن أرخوا هذه الفترة : أبو المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود من أبناء القرن الثاني عشر ، وهو يقول عن إقليم البحيرة : « إن بحيرة الإسكندرية كانت مزروعة كروماً جميعها لامرأة جريج بن مينا مقوقس الروم ، وكانت تستأدي خراجها خمراً ، فكثر عندها ، فطلبت دنانير ذهب ، فلم يحصل لها من الخمر ما طلبت ، لأنه كان موجوداً عند الناس وما يجدون من يشتريه ، فكرهت هذا ، فغرقت البحيرة بالماء ، ولم تزل كذلك حتى استنبطها بنو العباس ، وهم المسودة ، وإنهم سدوا جسورها ومنعوا الغرق » .

والمهم في هذه الفقرة هو تسمية المقوقس باسم جريج بن ميناء ، وهي التسمية المصرية التي لم تعهد في أسماء الرومان أو الروم .

وجاء في تاريخ ابن البطريق ، وهو من الملكيين المعارضين للكنيسة الوطنية : إنه في أول خلافة أبي بكر : « صير (صار) سرجيوس بطريركاً على الإسكندرية أربع سنين ، فلما سمع أن المسلمين غلبوا الروم وفتحوا فلسطين ، وأنهم سائرون إلى مصر ، ركب البحر وهرب إلى القسطنطينية ، فبقي كرسي الإسكندرية بعده بلا بطريرك ملكي سبعاً وتسعين سنة . ولما هرب صير (صار) بعد كورش – أي فيرس – بطريركاً على الإسكندرية ، وكان مارونياً على دين هرقل ، وكان بالإسكندرية رجل راهب يسمى صفرونيوس ، فأنكر صفرونيوس مقالة كورش ، لأنه كان يقول إن

لسيدنا المسيح طبيعتين ، بمشيئة واحدة ، وفعل واحد ، وأقنوم واحد ، وهي مقالة مارون ، فسار صفرونيوس إلى كورش فناظره ... فقال له كورش بوقاحة : إن أنوريوس بطريرك رومية وسرجيوس بطريرك القسطنطينية موافقان لي على هذه المقالة . فخرج صفرونيوس إلى القسطنطينية فقباه سرجيوس بطركها ، وقص صفرونيوس عليه ما كان بينه وبين كورش ، فعجب سرجيوس من ذلك . فلما كان بعد مدة قدمت هدايا من كورش إلى سرجيوس ، فانصرف عن رأيه ، وصار مخالفاً لصفرونيوس موافقاً لكورش .. ثم إن صفرونيوس صيروه بطريركاً على بيت المقدس ، فكتب صفرونيوس كتاباً في الإيمان وبعث به إلى جميع الآفاق ، فقبله أهل الدنيا في السنة الثالثة من خلافة عمر بن الخطاب .. »

إلى أن قال عن عمرو بن العاص :

« ... ثم سار إلى مصر وكان الروم قد تحصنوا في الحصن ، وخندقوا حول الحصن خندقاً ، وطرحوا فيه سككاً من الحديد ، فقاموا يقاتلونهم قتالاً شديداً ستة أشهر . فلما أبطأ الفتح عليه كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ، فأمده بأربعة آلاف ، منهم الزبير بن العوام ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، وكان مع عمرو أربعة آلاف ، فصار في ثمانية آلاف . وكان العامل على الخراج بمصر رجلاً يدعى المقوقس من قبل هرقل ، وكان يعقوبياً مبغضاً للروم ، إلا أنه لم يكن يتهيأ له أن يظهر مقالته لئلا يقتله الروم ، وكان أيضاً قد اقتطع أموال مصر في وقت حصار كسرى القسطنطينية ، وكان يحاذر من هرقل الملك أن يقع في يده فيقتله ، فاحتال على الروم ، وقال لهم : إن العرب قد جاءهم مدد وليس لنا بهم طاقة ، ولا نأمن أن يفتحوا القصر فيقتلونا ، ولكن نسد أبواب الحصن ونصير عليه مقاتلة ، ونخرج من القصر إلى الجزيرة فنقيم فيها ونتحصن بالبحر . فخرج الروم ومعهم المقوقس وجماعة من أكابر القبط من باب القصر القبلي ، ودونهم جماعة يقاتلون العرب ، فركبوا المراكب ولحقوا بالجزيرة موضع الصناعة

اليوم ، وقطعوا الجسر ، وكان ذلك في جري النيل ... ثم أرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص يقول له : إنكم قوم قد ولجتم بلادنا ، ولججتم على قتالنا ، وطال مقامكم بأرضنا ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى في أيدينا ... فابعثوا إلينا رجلاً منكم لنسمع كلامكم ، فلعل يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال .
فلما أتت رسل المقوقس عمرو بن العاص ، وجه معهم بعبادة بن الصامت ، وكان عبادة أسود ، فلما دخل على المقوقس أدنى مجلسه فقال المقوقس له : ما الذي تريده منا ؟ بيّنه لنا . فقال له عبادة : أن ليس بيننا وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال ، فاختر أيها شئت ، وبذلك أمرني بها الأمير وأمير المؤمنين : إما أن تدخلوا في الإسلام فكنتم إخوتنا ، وكان لكم ما لنا ، ورجعنا عن قتالكم ، ولم نستحل أذاكم ، فإن أبيتم فأدوا لنا الجزية نرضى بها ونحن وأنتم في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم وتعرض لكم في شيء من أراضيكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم إذا كنتم في ذمتنا وكان به عهد علينا ، فإن أبيتم فليس بيننا وبينكم غير المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم . فقال المقوقس : فأما الدخول في دينكم فهذا ما لا يمكن ، وأما الصلح فقد رضيت أنا ذلك لنفسي ولأصحابي القبط . وامتنع الروم أن يجيبوا إلى الصلح وقالوا : لا نفعل ذلك أبداً . وإنما فعل المقوقس هذا مكراً منه وخديعة حتى أخرج الروم من الحصن ، ثم رضي بالصلح ليسلم له ما أخذه من المال .. فرجع عبادة ابن الصامت فأخبر عمراً بجميع ما كان ، ثم إن المسلمين لما علموا أن ليس في الحصن من المقاتلة إلا نفر يسير ، ناهضوا القتال من ناحية سوق الحمام اليوم ، فرموا الحصن بالمنجنيقات والعرادات . ثم إن الزبير وضع سلماً إلى جانب الحصن من سوق الحمام ، ثم صعد ، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن ، فكبروا ، وتحامل الناس على السلم ، فخلا الروم عن القتال ، وركبوا المراكب ولحقوا بالجزيرة إلى أصحابهم ، وفتح المسلمون الحصن ،

فقتلوا وأسروا وغنموا . فلما نظر الروم ما فعل بهم المقوقس ، وكيف أنه خدعهم وأخرجهم من الحصن وسلمه إلى المسلمين ، خافوا ناحيته فتركوه وركبوا البحر وعسكروا بكوم شريك . واجتمع المقوقس مع عمرو بن العاص على عهد بينهما ، واصطلحا على جميع من بمصر أسفلها وأعلاها من القبط ، ديناران دينارا على كل نفس ، شريفهم ووضيعهم ، ممن بلغ الحلم منهم ، وليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء . وأحصي عدد القبط يومئذ ، خاصة من بلغ الحلم ، وأخذت منهم الجزية ، وفرض عليهم الديناران ، رفع ذلك بالأيمان المؤكدة . فكان من أحصي بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط الذين أحصوا وكتبوا ، فكانت فريضتهم في ذلك الوقت : اثني عشر ألف ألف دينار كل سنة .

« ثم أقبل المقوقس إلى عمرو فقال له : أما الروم فإني منهم بريء ، وليس دينهم ديني ، ولا مقالتي مقالتهم ، وإنما كنت أنا أخاف منهم القتل ، فكنت أستر مقالتي وأكتم ديني ، وأنا أطلب اليك أن تعطيني ثلاث خصال . فقال عمرو : وما هي ؟ قال : لا تنقصني عن القبط ، وأدخلني معهم ، وألزمني ما ألزمتهم ، فقد اجتمعت كلمتي وكلمتهم ، وأنا متمم لك على نفسي ، والقبط متممون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم . والثانية : إن سألك الروم بعد اليوم الصلح ، فلا تصالحهم حتى تجعلهم عبيداً وإماء ، فإنهم أهل لذلك . والثالثة إن أنا مت فأمر أن أدفن في كنيسة أبي حنس في الإسكندرية... فأنعم عليه عمرو بذلك، على أن ضمنوا له إصلاح الجسرين جميعاً ويقيمون الأنزال ، وصاروا لهم أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم . ومضى عمرو ومن معه ، حتى لقي جميع الروم بكوم شريك[1] ، فاقتتلوا به ثلاثة أيام ، وولى الروم منهزمين ، ثم التقى بسلطيس فاقتتلوا تسعة عشر يوماً ، وانهزم الروم فدخلوا الإسكندرية ، وتحصنوا فيها ، واستأسدت

---

١ ـ كل هذه المواقع باقليم البحيرة حول دمنهور .

العرب عند ذلك ، فلجّت بالقتال على أهل الإسكندرية ، فقاتلوهم قتالاً شديداً ، وكان الروم يخرجون من الأبواب في كل يوم يقاتلون ، وكان يقتل من الفريقين في كل يوم خلق كثير. ففي يوم من الأيام اشتد القتال حتى اقتحم العرب حصن الإسكندرية ، فقاتلوهم في الحصن قتالاً شديداً ، ثم خاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم من الحصن واستأسروا عمرو بن العاص ومسلمة ابن مخلد ووردان مولى عمرو ورجلا آخر ، ولم يدر الروم من هـم !! فقال لهم البطريق ؟ إنكم صرتم في أيدينا أسارى ، فعرّفونا ما الذي تريدون منا ؟ فقال له عمرو : إما تدخلوا في ديننا ، وإما أن تعطونا الجزية ، وإما لا نزال نقاتلكم ، إما أن تفنونا بالقتل وإما أن نفنيكم . ! فقال واحد من الروم للبطريق : أتوهم أن هذا أمير القوم فاضرب عنقه . ففطن لكلامهم وردان ، وكان يحسن الرومية ، فحدث وردان لعمرو حديثاً شديداً ، وكلمه وقال له : مالك وللكلام ؟ ما في المعسكر أدنى منك ولا أقل ، فاترك غيرك يتكلم !! فقال البطريق في نفسه : لو كان هذا أميرهم لم يتهيأ لهذا أن يكلمه . فقال مسلمة ابن مخلد : إن أميرنا كان قد عزم أن ينصرف عنكم ، ويترك حربكم ، وبهذا كتب إليه أمير المؤمنين ، غير أنه أراد أن يوجه إليكم بعشرة قواد من أصحابه ، من وجوههم ، ممن لهم الرأي السديد ، حتى تتوافقوا أنتم وهم على شيء تتراضون بينكم وبينهم أيضاً ، وننصرف عنكم ، فإن أحببتم ذلك فأطلقوا سبيلنا حتى نذهب إلى أميرنا ونعلمه ما صنعتم بنا من الجميل حتى يوجه إليكم بالعشرة القواد ، فينقطع الأمر بيننا وبينكم على ما تحبون ، وننصرف عنكم ! فتوهم البطريق أن هذا كلام حق ، فخلاهم رجاءً أن يأتوا بالعشرة القواد فيقتلهم ويتمكن من العرب .. » .

ثم قال ابن البطريق : إن عمرو بن العاص كتب إلى الخليفة يصف له فتح الإسكندرية ، فقال : « إني فتحت مدينة لا أقدر أصف ما فيها ، غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية ، بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للموك ، واثني عشر ألف بقال

يبيعون البقل الأخضر وما يتلوه من البقولات ! وإني فتحتها عنوة بغير عقد ولا عهد ... وإن المسلمين طلبوا قسمتها » . فكتب إليه عمر بن الخطاب يقبح رأيه ويأمره ألا يتجاوزها ولا يقسمها ، ويتركها ليكون خراجها للمسلمين قوة على عدوهم .

* * *

قال : « فأقرَّها عمرو وأحصى أهلها ، وفرض عليهم الخراج . وكانت مصر فتحت صلحاً كلها بفريضة دينارين دينارين كل رجل ، لا يزاد على أحد جزية رأسه أكثر من ذلك ، إلا أنه يلزم مقدار ما يتوسع فيه من الأرض والزرع ، إلا الإسكندرية ، فإنهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى واليهم ، لأن الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة ... وفتحت الاسكندرية يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين للهجرة ، وعشرين للملك هرقل » .

وهذه الروايات لسعيد بن البطريق أحجى أن تقارب التاريخ الصحيح ، لأن صاحبها كان أقرب المؤرخين إلى مراجع الأخبار جميعاً من رومانية وقبطية وعربية ، ولكنها لم تخل من عيب التاريخ في هذه الفترة ، وهو تخلل الوقائع والروايات بالمنازع والأهواء ، بحيث يظهر لون المؤرخ من كلامه ، وإن لم ينسب هذا الكلام إلى شخص معلوم ، وقد ترك ابن البطريق متسعاً لدعواه أو متسعاً لهواه ، كغيره من المؤرخين ، فكان « روماني المذهب » في اختيار الأخبار التي توافق منزعه ، وأولها أن الرومان لم يرتبطوا بعهد ولا عقد عند سقوط الإسكندرية ، وأن سقوط بابلون كان خديعة من الحاكم اليعقوبي ، ولم يكن ضعفاً اضطرت إليه الحامية بعد اليأس من المدد . وكان تعليله لخديعة الحاكم اليعقوبي الوطني أسخف من تعليلات غيره ، فإنهم زعموا أن الحاكم الوطني — وهو المقوقس — قد استبقى عنده ضرائب القطر كله أيام استيلاء الفرس على مصر ، فلم يرسلها إلى القسطنطينية ، ولم يكن

في نيته أن يرسلها . وقد يكون هذا السبب معقولاً بعض الشيء ، لأن إرسال الضرائب إلى القسطنطينية مع سيطرة الفرس على البلاد لم يكن بالميسور وإن أراده المقوقس . وموضع السخف من القصة أن نتصور المقوقس عاجزاً في هذه الحالة عن الاعتذار باغتصاب الفرس لكل ما أصابوه من الغلات والخيرات وأموال الخراج ! فإذا أغضينا بنظرنا عن هذا السخف ، فما عدا ذلك سهل مستساغ ! وأما الذي لا يستساغ فهو امتناع المقوقس عن إرسال الضرائب لأن الفرس يحاصرون القسطنطينية ! إذ الواقع أن الطريق بين مصر والقسطنطينية لم تكن مقفلة من جانب البحر ، ولم يكن الرومان ينقطعون عن طلب الأزواد والأمداد من أفريقية ، وقد استطاع هرقل مع حصار القسطنطينية من الناحية الآسيوية أن يتركها وينقض على بلاد فارس وراء البحر الأسود ، فلم يكن من العسير أن تصل ضرائب مصر إلى القسطنطينية في فترة الحصار ، إلا أن يكون المقوقس قد أعلن قطع الصلة بالأمبراطور ووضع يده على أموال البلد جهرة مع وجود الحامية الرومانية فيها . وعلى هذا لا تبقى للرومان ثقة به وهو معهم داخل حصن بابلون ، ولا ينتظرون منه أن يخدعهم ويتفق مع عمرو بن العاص من ورائهم حتى يتخوفوه ولا يأمنوه .

كذلك يروي ابن البطريق تلك القصة التي رويت عن عمرو وغلامه وردان في أثناء حصار الإسكندرية ، كما رويت في حرب فلسطين ، وهي كما يرى أدنى إلى الخرافة منها إلى التاريخ .

ولا تنحصر الخلافات حول المقوقس فيما تقدم ، بل يقول آخرون – كما قال أميلينو – إنها مشتقة من « كوكيوت » إسم عملة يونانية ، لأن المقوقس كان يلي أمر الخراج ، ولا يستبعد بتلر أن يكون اللفظ مصحّفاً على لسان المصريين من القوقاس ، لأن هرقل نقل فيرس من القوقاس إلى الديار المصرية .

ولكن المقوقس عرف بهذا اللقب في الحجاز قبل فتح مصر بأكثر من

عشر سنين ، وكتب إليه النبي عليه السلام رسالة بهذا اللقب جاءه الجواب عنها مع هدايا المقوقس التي لا جدال فيها . فما تأويل ذلك عند بتلر وأتباعه في التحقيق والتصديق والتكذيب ؟ تأويل ذلك يسير على طرف اللسان ، وهو خطأ المؤرخين العرب في رواية الخبر بعد الفتح الإسلامي بسنين !

إلا أن خبر الرسالة النبوية وجوابها من وراء كل شك وكل تردد وتأويل ، فلا شك في كتابة النبي عليه السلام إلى عظيم القبط في مصر ، ولا في جواب عظيم القبط عن كتابه ، وقد وصلت السيدة مارية وأختها مع الجواب ، وعُرف الرسول الذي جاء مع الهدية ، والبيتُ الذي نزلت فيه بالحجاز ، ثم ولد للنبي عليه السلام ابنه إبراهيم من مارية القبطية ، وتواترت التواريخ بمولده ووفاته حوالي الثانية من عمره ، وتواترت كذلك بكسوف الشمس يوم وفاته ، وقول النبي عليه السلام : إن الشمس لم تكسف لموته . وجاوز الأمر أخبار التاريخ إلى تحقيقات الحساب الفلكي ، فأثبت العالم الكبير محمود الفلكي باشا أن هذا الكسوف حدث في المدينة المنورة « الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين بعد نصف الليل من اليوم السابع والعشرين من شهر يناير سنة ٦٣٢ ميلادية » ويطابق هذا التاريخ تقدير مؤرخي المسلمين عن وقت ولادة ابراهيم ووقت قدوم أمه السيدة مارية إلى الحجاز .

فليس المهم إذن تصريف اسم المقوقس باليونانية أو الحبشية أو القبطية ، وإنما المهم أن هناك عظيماً في مصر كان يملك من أمر شعبها ما لم يملكه عاهل القسطنطينية ، ولذلك كتب النبي إليها ، ولم يكتف بالكتابة إلى العاهل في عاصمة الدولة الكبرى . وقد وصل الكتاب إلى صاحبه المقصود بدليل واضح بسيط ، هو وصول الجواب عنه ، فإذا كانت منزلة هذا الرجل حقيقة مقررة لا خلاف عليها ، وكان اسم المقوقس دليلاً على هذه المنزلة لا يتأتى اختراعه لمن يجهله — فلماذا نلغيه ونبطله ، أو نشك فيه وننفيه !

إن خروج المؤرخ بتلر أو غيره من ورطة وقعوا فيها ، لا تكفي لتغيير

مجرى الحوادث والروايات ، وعلى بتلر وغيره أن يخرجوا من الورطة التي دخلوا فيها كما يشاءون ، ولكن على غير حساب التاريخ . ومهما يكن من أخطاء المؤرخين الأوائل ، فهي لا تكفي للإسعاف من كل ورطة والإحالة عليها في كل تأويل .

* * *

ليست هذه التخريجات أو هذه التأويلات إذن هي المرجع في تمحيص القول عن مسألة المقوقس وما لابسها من الأخبار والروايات وإنما المرجع إلى « الموقف » وما يمليه بحكم البداهة وحكم الحوادث التي عرفت بمقدماتها ونتائجها . وأيّا كان الرأي في هذا المقياس ، فهو أصدق بياناً من جميع المقاييس التي رأيناها تضطرب ذلك الاضطراب بين أيدي المؤرخين .

* * *

وهذا هو حكم الموقف على أسلم الوجوه من النقد والريب ، أو من الاختلاق وتوجيه المنازع والأهواء .

حكم الموقف أننا أمام « دور » واضح محدود لا يقبل اللبس على وجه من الوجوه ، دور زعيم « أهلي » مسئول له صفة شعبية ، لا تستطيع دولة الرومان أن تنتزعها منه ، سواء رضيت عنه أو غضبت عليه .

وليس هو « دور » رئيس روماني بحال من الأحوال ؛ إن الرئيس الروماني إن بقي في مصر لم تكن له صفة ولم يكن له سلطان ، وإن خرج من مصر لم تكن للتعاقد معه قيمة ، ولم يكن أهلاً للالتزام .

وإذا كان الموقف يستلزم « دوراً » واضحاً فلا محل فيه للاختلاق ولا للتنازع بين المؤرخين .

فهناك « أشخاص » يجوز الشك في وجودهم ، بل يستدعي العمل المنسوب إليهم أن نشك في حقيقتهم ، أما إذا كانت المسألة مسألة « أدوار » قائمة لا

مسألة أشخاص ، فلا محل للشك ولا للتنازع ، بل الأمر ينعكس من هذا النقيض إلى النقيض الذي يقابله ، ويصبح من اللازم تأريخاً وعقلاً أن نوجد الشخص الذي يمكن أن يؤديه ، لا أن نراه موجوداً ثم نشك فيه !

إن الدور الذي نسب إلى المقوقس لا يؤديه إلا زعيم له صفة المقوقس ، كائناً ما كان اسمه ولقبه ، وكائناً ما كان عنوانه في الدولة وفي البلاد .

فهو دور يؤديه « زعيم أهلي » عرف الناس حول بلاده أنه يملك منها ما ليس يملكه هرقل في عاصمته ، ويتعاهد العرب معه فيعلمون أنهم يعاهدون البلاد ، وأن البلاد مقرة لما تعاهدوا عليه .

ومن بقي من الرومان — أو من الروم — بعد وصول عمرو بن العاص إلى الفسطاط ، فإنما بقي مقاتلاً أو منتظراً للمدد من خارج مصر لمواصلة القتال ، ومثل هذا لا يتعاهد معه عمرو بن العاص ، ولا معنى للتعاهد معه قبل انفضاض المعركة بين الدولة الذاهبة والدولة الباقية !

فلا يكون المتعاهد أو المصالح في الحرب إلا زعيماً يتكفل بشيء يقدر عليه ، ويعلم معاهدوه أنه قادر عليه باسم قومه ، وأنه إذا نقضه كانت الخسارة عليه وعليهم ، لا على الرومان في مصر والإسكندرية ، أو الرومان في القسطنطينية وبلاد الروم ! !

فالزعيم المصري هنا شخص يفرضه التاريخ فرضاً ، ويتطلب منه تبعة لا يقوم بها سواه .

وهذه التبعة تدل كذلك على حالة محددة واضحة ، لا تلبس بغيرها من الحالات .

إن الصلح في مصر كان نسخة مكررة من الصلح في فلسطين .

ففي العهدين معاً أمان للبيع والكنائس واتفاق على خروج من يريد الخروج مع الروم من أهل البلاد .

وفي عهد فلسطين أمان من إكراه أهل بيت المقدس على مساكنة اليهود ، يقابله في عهد مصر أمان من إكراه أهلها على مساكنة النوب ، لأنهم كانوا معهم قبل ذلك في قتال على الشئون الدنيوية والدينية .

فلا موضع هنا لخيانة ابتدعها الزعيم الوطني في الديار المصرية ، لأنه لم يقبل شيئاً أقل مما قبله أهل فلسطين .

وقد تذكر كلمة الخيانة إذا كانت الدولة الرومانية قادرة على حماية مصر عاجزة عن حماية فلسطين ، ولكنه فرض بعيد لا يخطر على بال أحد ينظر إلى الموقف اليوم ، أو كان ينظر إليه كما رآه المعاصرون في تلك الأيام .

فالدفاع عن فلسطين أهون من الدفاع عن مصر بكثير ، لأن طريق البر مفتوح بين بلاد الدولة الرومانية في آسيا الصغرى ، وبين ميادين فلسطين من شمالها إلى جنوبها . فاذا كانت الدولة الرومانية لا تستطيع أن تبعث البعوث إلى جيرتها القريبة ، فهي أعجز عن ذلك في الميادين المصرية . وإذا كانت السفن لا تسعدها على شواطىء فلسطين فهي لا تسعدها في الإسكندرية ودمياط .

ولا بدّ من النظر إلى اعتبار آخر في هذا الموقف ، وهو حالة فلسطين من الوجهة الدينية ، فإن هرقل كان خليقاً أن يهتم باستبقائها ، لما فيها من الأماكن المقدسة التي تقوم عليها صفته في عاصمة الدولة الشرقية على الخصوص ، وإن رعاياه هناك لم يكن عندهم من أسباب النقمة عليه شيء يثنيهم عن تأييده واستبقاء ملكه ، لأنه لم يكرههم على خلاف عقيدتهم كما فعل في مصر ، ولم تزل ذكـــرى دخوله بيت المقدس ، وحفاوة أهلها به ووعدهم بالكفارة عن يمينه مدى السنين ، عالقة بأذهان القادة والأتباع في تلك البلاد .

وربما وجد من المؤرخين من يصف المقوقس بالخيانة ، إذا كانت دولة الرومان قادرة على شيء في الدفاع عن مصر ، فحال بينها وبين المثابرة على

الدفاع ، فقد يقال حينئذ إنه موظف « روماني » خذل رؤساءه وسادته وسلم البلاد لقوم آخرين ! ! .

ولكن الواقع أن الدولة الرومانية لم تكن لها ذمة تخان في البلاد المصرية ، من الوجهة الشرعية أو من الوجهة الدينية ، أو من الوجهة العملية الواقعية .

فمن الوجهة الشرعية ، هي دولة أجنبية غاصبة ، تعتدي على الأرواح والأموال ، وتستنزف ثروة البلاد في الضرائب والإتاوات ، وتحرمها الغلات والثمرات التي هي أحوج إليها في أيام الشح والغلاء، وتقحمها في منازعاتها قبل انقسامها إلى دولة شرقية ودولة غربية ، وبعد انقسامها إلى دولتين بغير استقرار وبغير انقطاع . وقد ساعدها المصريون على طرد الفرس ، وساعدوا هرقل في ثورته على خصمه فوقاس حتى قهره واستولى على العرش بعده . فمن قوة مصر وأفريقية الشمالية تجمعت قوة هرقل التي انتصر بها على خصمه، ولكنه لم يلبث أن اطمأن إلى مكانه حتى جزى المصريين على معونتهم شر الجزاء، فلم يكن من حقه عليهم أن يحاربوا له حربه ويمسكوا له سلطانه وهو يشارف الزوال .

ومن الوجهة الدينية ، لم تكن على مذهب أهل البلاد ، ولم تكن سمحة معهم فيما يختارونه لعقيدتهم ، وكان النزاع الديني بين مصر والدولة الحاكمة على أشده وأعنفه عند قدوم عمرو بن العاص .

وقد قال ميخائيل السوري في تاريخه : ان « المنتقم الجبار » أتى بأبناء إسماعيل من الصحراء ليخرجوا الأمم من ربقة الروم والرومان .

ومن وجهة الواقع لم تكن دولة الروم قادرة على مهمة الحكومة الأولى ، وهي صد الغارات عنها ، وحفظ الأمن فيها . وكان من عملها ما يخل بالأمن ويغل الأيدي عن الدفاع ، لأنها نزعت سلاح المصريين ، وقسمت القيادة العسكرية أقساماً بين الرؤساء الرومانيين ، وتركت للجنة الوطنيين أن يدفعوا غارات اللصوص بسلاحهم ، فتعرضت للسطو من ناحية الصحراء

ومن ناحية الجنوب ، وما بقي للمصريين من جند مسلح ، فإنما كان من قبيل الشرطة الذين تأمنهم الدولة الحاكمة، لأنهم لا يستطيعون إجلاءها، ولا تأمنهم عصابات اللصوص ، لأنها تتسلح بمثل سلاحهم ويزيد عددها على عددهم في بعض الأطراف . وقد كان قائد ليبيا الروماني على مقربة من المعارك الفاصلة بين العرب والدولة الرومانية ، فلم يتقدم للاشتراك فيها ، لأنها لم تترك في نفس أحد من جندها غيرة عليها ، ولأنه لا يخلي مكانه إلا على خطر من العصابات .

* * *

وأياً كان تفصيل الموقف من جهة السيادة الرومانية على البلاد فإنها لم تكن سيادة ملزمة لأهلها بذمة من الذمم ، ولم يسلبها أبناء مصر شيئاً كانت قادرة عليه بقوتها الغاصبة ، ومن رآها تعجز عن المقاومة في فلسطين لن يخطر له أنها تقوى عليها في بلاده . وليست أمامه حالة « ممكنة » أسلم وأكرم من تصريف الموقف بما يقتضيه ، فهو موقف ضرورة لا موضع فيه للخيانة ولا للاختيار .

وهو — بعدُ — موقف زعيم « أهلي» ينهض بتبعة لا حيلة له فيها ، فإما أن يدع الفاتحين وشأنهم في بلاد لا يتكلم عنها أحد ولا يتفق باسمها أحد ، وإما أن يتكفل بشروط الصلح التي لا يملك خيراً منها . وهذا هو قضاء الموقف بحرفه ومعناه .

والمقوقس الذي يصوره لنا الموقف ، حقيقة لا يسمع فيها جدل المؤرخين ، ولا يزال قول التاريخ فيها أصدق وأوضح من لجاجة كتابه ومدونيه ، أو نساخيه .

وهذا الموقف الذي يبسطه لنا التاريخ ، يتممه الموقف كما كان يراه المقوقس في علاقته بعرش الرومان وغيره من العروش الكبيرة من حوله .

فاذا كرّ راجعاً إلى أول أيامه ، لم يكد يرى على العروش شرقاً وغرباً إلا جرائم الغيلة والتعهر: ثار فوقاس فقتل الإمبراطور موريس ، وثار هرقل فقتل الإمبراطور فوقاس ، والتاث عقل هرقل فلا يكاد يفيق من إحدى لوثاته حتى ترين عليه لوثة أخرى !! .

وينظر إلى المشرق فيرى الشاهنشاه ملك الملوك قتيلاً ، ويرى ابنه كسرى الثاني ناجياً بنفسه إلى حمى بيزنطة ، يتبناه الإمبراطور موريس ويزوجه من إحدى الأميرات طمعاً في عرش فارس من طريق الوراثة ، وقيل إن هذه الأميرة كانت بنت الإمبراطور ، وإن كان قولاً مشكوكاً فيه .

وكان كسرى الثاني قد عاد إلى عرشه بمؤازرة الإمبراطور الروماني ، فلما قتل هذا نهض كسرى الثاني للأخذ بثأره ظاهراً ، ولأخذ بلاده باسم الأميرة البيزنطية وحق الفتح والغلب في باطن الأمر ، واجتاح جيوش الدولة المتداعية أمامه ، ووصل بجيوش فارس إلى أفريقية الشمالية ، ولم يرجع عن غاراته إلا بعد اضطراره إلى إنقاذ بلاده من حملة هرقل التي أوغلت إلى العراق وما وراءه ونفذت عنوة إلى قلب الديار الفارسية .

وبينما الإمبراطور هرقل يتقدم إلى بيت المقدس لرد الصليب إليه . إذا برسالة النبي العربي تدركه في الطريق ، وإذا به قد علم من أخباره من عرب الشام والجزيرة وعرب قريش المتجرين بفلسطين أموراً ذات بال يحسب لها كل حساب ، وتصل الرسالة إلى المقوقس من النبي العربي الذي خاطب هرقل ، فلم يجسر هذا على رده والترفع عليه ، فيعلم أنه أحرى بالحيطة والتقية ، وأن المصانعة والانتظار أجدى من الغلظة والاستنكار .

* * *

ومن الجائز جداً أن يكون المقوقس قد علم بجواب النجاشي عن رسالة النبي العربي ، وأنه أيده ولم يحفل برجاء المشركين من قريش ، ثم تمضي

فترة قصيرة ، فيتسامع المشرق كله إلى أقصى بلاد الصين بغزوات أتباع النبي في العراق والشام وفلسطين ، وأنهم قد هزموا دولة الأكاسرة ودولة القياصرة ، ودخل في ملتهم وكلاء فارس في اليمن ، الذين أمرهم الشاهنشاه باعتقال نبي العرب لاجترائه على دعوته إلى الإسلام !

كيف يقع كل هذا من نفس المقوقس في وطنه المهدد المضطرب بين الغارات والمطامع والمنازعات ؟

إن المؤرخ الحديث قلما يرد على خاطره أن يضع نفسه في موضع الرجل ، ويفكر مثله تفكير السياسي ، وتفكير الزعيم ، وتفكير المتدين المؤمن بالنبوات ...ماذا لو كان صاحب الدعوة هو النبي الموعود من ذرية إبراهيم ؟ وماذا لو كانت رسالته مقدمة لأشراط آخر الزمان ؟ وماذا لو لم يكن هذا وذاك وكان أنه قوة لم يغلبها غالب من القياصرة ولا من الأكاسرة ؟

وإن المقوقس لينظر يميناً وشمالاً بين هذه الزعازع والأعاصير ، ثم ينظر في داخل البلد فلا يرى أحداً يريد أن يفدي دولة الرومان بحياته وإن استطاع ، وإنه مع ذلك لغير مستطيع !

والمؤرخ الحديث يركبه غروره فيظن أن الجهل بالوقائع والأسماء أيسر شيء يتهم به أبناء الزمان ، ويكاد يجزم بغرابة الأمر كله ، لأنه يتوهم أن هذه الحوادث العالمية كانت مجهولة في بلاد العرب ، ولم يكن عند أهلها علم بها وبما يترتب عليها في مصر والقسطنطينية وسائر الأقطار .

على أن الواقع أن هذه الحوادث العالمية كانت من أخبار بلاد العرب اليومية ، وكان العرب يتلقونها أحزاباً وشيعاً ، ويعقدون المراهنات على حاضرها ومصيرها ، وقد تراهن المسلمون والمشركون على عاقبة الغزوة الفارسية البيزنطية ، ودخل في الرهان أبو بكر الصديق رضوان الله عليه ، وجاء في القرآن الكريم من أول سورة الروم : « ألم ، غُلِبَتِ الرُّومُ في أدْنَى الأرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * في بِضْعِ سِنِينَ »

وقد تنزلت هذه الآية بالتاريخ الميلادي في سنة خمس عشرة بعد الستمائة ، ولم تمض سبع سنوات حتى كانت النبوءة قد تمت وآذنت بما يليها ، وهو وعد المؤمنين بالنصر وإنجاز الأمر الإلهي الذي دعاهم أن يسيروا في الأرض وينظروا عاقبة المشركين : «قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ » .

فبلاد العرب لم تكن خِلواً ممن يرقب الحوادث العالمية ، ويوازن بين القوى ، ويضع الخطوة في موضعها وفي أوانها . وأول ما كان من ذلك أن يخاطب النبي عليه السلام هرقل بعد انتصاره المنظور على الفرس ، فلا يخاطبه في شأن مصر ، ويؤثر عليه المقوقس بالخطاب ، ولا تخفى دلالة ذلك على المقوقس أو على الرجل الذي هو في موضع المقوقس ، لأنها تنبئه بالكثير من حقيقة صاحب الدعوة وإنه يعرف من يعنيه وما يعنيه .

فالموقف من أطرافه يوجد لنا المقوقس حيث وجد وبالصفة التي من أجلها قد اتجه إليه الخطاب .

إنه رجل يرتبط مصيره بمصير الأمة القبطية ، ولا يطالب بعهد يلزم الرومان ، ولا كان هذا العهد مطلوباً أو مستحقاً لعناء الطلب ، فإن الرومان أصحاب دولة تبقى أو تزول ، فإن بقيت فلا معنى لمعاهدتها على فتح البلاد ، وإن زالت فقد أغنى زوالها عن كل عهد ، ولن يربطها العهد بشيء وراء البلد الذي خرجت منه ، ولم تكن لتخرج منه إلا مكرهة على غير وفاق .

وهكذا كانت نهاية القتال بين العرب ودولة الرومان الشرقية في فلسطين ، وقد عادت إلى القتال ما استطاعت أيام الخلفاء الراشدين ، وأيام الأمويين ، وأيام العباسيين والفاطميين .

وقد كانت مهمة المقوقس مهمة أمانة يؤديها على أحسنها لمصاحة بلده ، ولو أراد أن يخون لما استطاع أن يخون ، لأنه لم ينزل عن شيء كان في وسعه أن يتشبث به ، ولم يترك شيئاً كان في وسعه أن يبقيه لنفسه أو لقومه ،

أو للرومان إن كان من همه أن يخدمهم بحال .

إن الذين كتبوا عن المقوقس وأثبتوا وجوده مجمعون على علاقته بتحصيل الخراج ، وأنه كان يظهر مذهب الروم الملكيين ويبطن مذهب القبط اليعقوبيين ، وعلاقته هذه بالخراج ترشحه دون غيره للاتفاق مع الفاتحين على ضريبة الرؤوس . فيجوز أن تكون علاقته بالخراج توكيلاً عاماً ، أو أن تكون وكالة خاصة مقصورة على أرضه وثروته . فقد كان الخراج كما سنرى في باب الإدارة مقسوماً إلى ثلاثة أقسام : قسم تحصله المجالس البلدية ، وقسم يحصله الملتزمون ، وقسم يؤديه أصحاب الضياع الواسعة مباشرة بغير وسطاء . ولا شك أن المقوقس كان من هؤلاء ، ولم يكن من الذين يؤدون ضرائبهم للمجالس البلدية . وربما كان هذا الذي عناه بعضهم بخوفه من تأخير الأموال المطلوبة منه إن كان لهذه المسألة أثر من الصحة . وأياً كان عمله في تحصيل الخراج فهو صاحب خبرة ترشحه للتعاقد على أعمال الضرائب والتحصيل .

أما مذهبه الديني ، فربما كان للسياسة دخل فيما يعلنه وما يخفيه . وفي زماننا هذا الأخير نرى بعض الأسر الكبيرة تخشى على مكانتها فتعلن غير ما تبطن من أمر المذهب والعقيدة : ففي مصر طلب الفرنسيون من محمد علي الكبير أن يقنع الطائفة القبطية بالانتماء إلى الكنيسة الغربية ، فدفعه المعلم غالي « مباشر الدواوين » بحيلة موقوتة تصرفه عن هذه الخطة ، ريثما تهدأ وسائط الفرنسيين ، وقال له إنه هو وأسرته سيدينون بالكثلكة ، فيتبعهم أبناء الطائفة بغير حاجة إلى الإكراه أو الإقناع ! ! وفي لبنان حدث مثل ذلك بين الأمراء الشهابيين من المسلمين والمسيحيين ، وبقيت الأسرة كلها على دينها إلى اليوم ! وغير بعيد أن يكون المقوقس قد استبقى مكانته بمحاراة الدولة على مذهبها ، فقنعت الدولة منه بذلك ، وحمدت هذا الحل السياسي ، لأنه يعفيها من مشكلة الاحتيال على اختيار رجل غيره في مكانته ، وليس الاختيار هنا بالميسور ، إذا كان مركز الرجل من مراكز الوجاهة الموروثة والحسب العريق ، وكان

خلفه لا يقدر على قيادة الشعب المصري طواعية ، كما ينقاد لزعيم من ذوي بيوتاته المعروفين .

وحكم « الدور التاريخي » بعد كل فرض وتأويل هو إيجاد رجل بالصفة التي وصف بها المقوقس ، واللقب الذي أطلق عليه : رجل ذو وجاهة لا تتوقف على بقاء دولة الرومان في البلد ، ورجل يخاطب في أمر مصر بمعزل عن عاهل القسطنطينية ، ويعرف من أعمال الخراج ما تتولاه الدواوين المصرية قبل أن يتولاها الفاتحون ، ورجل ترضيه الدولة بالألقاب التي لم تتعود أن تخلعها على أبنائها ، ولم يعهد في التاريخ أن دولة أجنبية منحتها أحداً غير الزعماء الوطنيين تعويضاً لهم عن سيادة الحكم والسلطان .

وهكذا المقوقس قد وجد بصفاته اللازمة عقلاً وعملاً ، فلماذا نحتال على الشك فيه ؟

إن صفاته هذه تعيننا على تصحيح كل صفة وكل شخصية في زمانه ، فمن لم يكن صالحاً لهذا « الدور » فلا يمكن أن يكون هو المقوقس المشهور ، وليكن بعد ذلك من كان !

قال ابن عبد الحكم في فتوح مصر وأخبارها :

« كان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو ميامين ، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر ، كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة ، وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقي عمرو ، فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعواناً .. » ، يريد ابن الحكم البطرق بنيامين ، ويسميه « أبو ميامين ». وقد بادر البطرق إلى الإسكندرية حين استقر الأمر فيها للعرب ، ولم يعد إليها وفيها بقية لسلطان الروم . وهذه خطة من البطرق المختار توافق خطة المقوقس الذي كانت له مكانة الوجاهة الدنيوية ، ولم تكن له في الدين مكانة البطرق بنيامين .

* * *

الحالة الدينية

من المأثورات المتواترة أن المسيحية انتشرت في مصر خلال القرن الأول للميلاد ، وأن الرسول مرقس الإنجيلي تولى نشرها في الصعيد ، ثم في مصر العتيقة والإسكندرية . وتتفق أقوال الأكثرين من الشراح الشرقيين على أن بابل المشار إليها في أعمال بطرس الأول من العهد الجديد هي بابلون المعروفة بموضعها الآن إلى جوار الفسطاط ومصر العتيقة ، وفي ختام هذه الأعمال يشير بطرس الرسول إلى تلميذه مرقس قائلاً : « تسلم عليكم التي في بابل المختارة ومعكم مرقس ابني .. »

ويؤخذ من سيرة مرقس المتداولة بين أبناء الكنيسة المصرية أن المسيحية سبقته إلى مصر ، وأنه جلس إلى جانب إسكاف بالإسكندرية يصلح نعله ، فشغل الإسكاف بالحديث معه وأخطأ ، فأدخل المخرز في يده فصاح : أيها الإله الواحد ! فعلم الرسول أنه يدين بالإلاهية ، وشرح له عقيدته المثلى في الدين .

والقول الأشهر أنه من يهود القيروان أصلاً ، ثم قدم مع أهله إلى بيت المقدس أيام ظهور المسيح عليه السلام ، فكانوا جميعاً من أسرع اليهود إلى تلبية الدعوة المسيحية . وكان خاله برنابا وأبوه أرستوبولس من المسيحيين الأوائل ، وفي منزلهم حضر السيد المسيح وليمة الفصح ، وإلى هذا المنزل كان التلاميذ يترددون قبل انتشارهم في الأقطار .

وقد اختار مرقس وطنه أفريقيا الشمالية للتبشير فيه، بعد أن صاحب بولس الرسول ، ثم صاحب بطرس بعد مقتل بولس .

وقدم من طريق الصحراء الغربية إلى الصعيد ومنه إلى مصر العتيقة ، حيث كتب إنجيله باللغة اليونانية الشعبية ، لأنها كانت أقرب اللغات إلى فهم الخاصة والعامة من اليهود واليونان وأبناء البلاد المصرية . ثم أنشأ بالإسكندرية مدرسة لاهوتية ، وجعل يتردد بينها وبين وطنه الأول بالقيروان ، وينيب عنه أستاذها يستاس أثناء غيابه ، إلى أن توفي سنة ثمان وستين للميلاد ، ودفن بالإسكندرية ، وظل مدة مدفوناً بها ، إلى أن سرقه أناس من البحارة البندقيين في القرن التاسع للميلاد .

وليس في كتابات الفيلسوف المسيحي أوريجين ، ولا كتابات كلمنت الإسكندري إشارة إلى مرقس الرسول . وقد عاش أوريجين بين أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث . ولكن يوسبيوس الذي عاش في القرن الرابع ، يروي خبر إنشاء الكنيسة ، ويؤخذ من خطاب كلوديوس إلى الإسكندريين أن طائفة من اليهود الذين دانوا بالمسيحية ، وشجر الخلاف بينهم وبين أبناء ملتهم ، كانوا يقيمون بالإسكندرية في القرن الأول للميلاد، ويترددون بينها وبين رومة وفلسطين .

ومهما يكن في الرأي في السجلات التاريخية ، فليس من الجائز عقلاً أن يكون الدعاة المسيحيون قد غفلوا عن الإسكندرية منذ القرن الاول ، وهي أكبر معاهد الثقافة والبحوث الدينية يومئذ في عالم الحضارة . وقد ثبت أن أقدم الأساقفة الذين لقبوا بلقب « البابا » كانوا في كنيسة الإسكندرية ، واعترف لهم بهذا اللقب أعضاء مجمع نيقية الذي انعقد في منتصف القرن الرابع للميلاد .

وقد كانت السمة الغالبة على المفكرين الدينيين ، منذ القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن الثاني بعد الميلاد ، شيوع التفرقة بين العقل والهيولى ، أو بين

الروح والجسد، في جميع المذاهب التي ظهرت بين أرجاء الدولة الرومانية، ومحور هذه المذاهب عامة لا يخرج من نطاق مدينة الإسكندرية .

فقبل الميلاد كانت تقيم في أطراف الصحراء ، على مقربة من الإسكندرية ، طائفة من المتنسكين المتنطسين ، يتعبدون بالتأمل وترك الملذات الجسدية، ويعرفون بين الناس باسم المتطبّبين Thera peutae ، ومنهم على الأرجح طائفة الآسين أو الأسينيين ، وهي كلمة بالآرامية تفيد معنى الأساة أي المتطببين ، وأتباعها هم ألد أعداء الدولة الرومانية بين اليهود !

وبعد المسيحية ظهرت طائفة المعرفيين Gnostics ، وظهر أتباع أفلوطين الفيلسوف ، وظهرت طائفة المشبهين Docetists التي تنكر كل الإنكار أن يكون السيد المسيح قد تجسد في جسد من المادة ، وإنما هو كيان شبيه بالمادة في النظر ، وليس منها في الحقيقة .

والمهم أن المسيحية حين شاعت وانتشرت في الشرق وفي مصر خاصة ، كانت بمثابة احتجاج روحاني على السيطرة الرومانية . وإننا نستطيع أن نقسم العالم الروماني يومئذ إلى قسمين : قسم توافقه عبادة الإمبراطور ، وهم السادة الحاكمون ، و كانت نفوسهم تقبل القول بالخلط بين الطبيعة الإنسانية والطبيعة الإلهية على صورة من الصور ، وقسم لا توافقه عبادة الإمبراطور ، وهم الرعايا الساخطون على السيطرة الأجنبية ، وكانت نفوسهم تنفر غاية النفور من الخلط بين الطبيعتين الإنسانية والإلهية ، ويرفضون كل فكرة تومىء إلى جواز عبادة الإمبراطورين ، أو جواز الصفة الإلهية على الآدميين .

وما استمات أتباع الأديان الوحدانية في تمييز العنصر الإلهي ، كما استماتوا في تمييز هذا العنصر بعد طغيان العواهل الرومانيين وطموحهم إلى التشبه بالأرباب !

فاليهود كانوا ينزلقون إلى عبادة الأرباب الكنعانية والبابلية والمصرية ،

قبل خضوعهم لدولة الرومان ، فلما سامهم عواهل الرومان أن يضعوا تماثيلهم في الهيكل ، أو يعلقوا عليه شارة الإمبراطور الإله ، تمردوا غاية التمرد ، وأقاموا الحاجز الحاسم بين سلطان الأرض وسلطان السماء .

والأمة المصرية كانت أشد الأمم سخطاً على الدولة الرومانية ، وأشدها تقبلاً للديانة المسيحية ، ثم أشدّها إنكاراً بعد ذلك للقــول بالطبيعتين ، وهو القول الذي لم ترفضه الكنيسة في عاصمة الدولة الشرقية ، ولا في عاصمة الدولة الغربية ، ولم ترفضه كذلك كنيسة أنطاكية كل الرفض ، لأنها كانت على البرزخ بين القساوسة الأوربيين والقساوسة الشرقيين . وقد رجع بعض المؤرخين إلى تعليل هذا الفارق فعللوه بالفارق بين النفس الشرقية والنفس الغربية ، وهو هنا فارق معتسَف جد بعيد ، وإنما حقيقته أنه الحدّ الحاسم بين النفور من عبادة الإمبراطور ، وبين الترُّخص فيها أو الإغضاء عنها . ولهذا كان في آسيا الصغرى أناس يقولون بالطبيعتين ، وهم شرقيون ، وكان في مصر أناس من الأصل اليوناني يقولون بالطبيعتين ، ومعهم فريق من المصريين الذين لا يتعصبون على الرومان ، بل لهذا كانت قبائل القوط والتيتون تدين بمذهب أريوس وتقبل عليه من ناحية التفرقة بين ربوبية الأب التي لا مثيل لها ، وربوبية الابن التي خلقها الأب ولم تكن قائمة منذ الأزل . فهذه التفرقة كانت تروق عشائر القوطيين والتيتون ، وتدخلهم في زمرة الثائرين على تقديس الإمبراطور من هذا الجانب البعيد .

فعند البحث في الفوارق بين المذاهب ، ينبغي أن نذكر هذا الفارق في مقدمة الفوارق النفسية والعقلية التي قسمت الدولة الرومانية من حيث التنزيه والتوحيد إلى قسمين : قسم السادة الذين لا يسخطون في قرارة ضمائرهم على الخلط بين الطبيعة الانسانية والطبيعة الإلهية ، وقسم الرعايا المضطهدين الذين امتلأت ضمائرهم سخطاً على هذه العقيدة ، فلم تغب قط عن أنظارهم ولا عن عقولهم كلما واجهتهم المذاهب والبدع بشيء جديد .

ومصدر القوة الكبرى التي اشتهرت بها المسيحية المصرية وجعلتها نداً

مـُصاولاً للدولة الرومانية ، هو أنها كانت قوة تمتزج فيها العقيدة الدينية والحماسة الوطنية .

ثم دانت الدولة الرومانية بالمسيحية ، فلم يمتنع هذا النزاع بين القسطنطينية ورومة من جهة وبين الإسكندرية من الجهة الأخرى ، لأن الجانب القومي منه لم يزل على حماسته الأولى ، بل أصبح بعد ذلك أشد وأقوى ، إذ كان طغيان الدولة الرومانية — بعد تحولها إلى دين رعاياها — قد تناول السيطرة على الروحانيات ، بعد أن كان مقصوراً على السياسة وشئون المعيشة الدنيوية .

وعلى ضوء هذا الفارق أيضاً ينبغي أن ننظر إلى نتائج المجامع الدينية التي انعقدت في صدر المسيحية . فكل ما رجع منها إلى سلطان القسطنطينية أو رومة قوبل بالمقاومة في الإسكندرية ومن يدينون بمذهب كنيستها ، وكل مجمع ديني ملك فيه الأساقفة الإسكندريون حريتهم وشرحوا فيه مذهبهم ، لم يجد في مصر مقاومة بين جمهرة المصريين ، ولم ينظر إليه المصريون نظرتهم إلى السيطرة الأجنبية التي تفرض مشيئتها عليهم ديناً ودنيا ، ولا تدع لكنيستهم حقها من الرعاية والكرامة .

وقد كان سلطان الرأي العام المصري مخيفاً مرهوباً على مخالفيه والمارقين عليه ، فكان الأساقفة المصريون في مجمع خلقيدونية يرتعدون فرقاً من العودة إلى بلادهم بغير ما فوضتهم فيه ، وكانوا يصرخون في وجوه الأعضاء الآخرين قائلين : اقتلونا هنا إن شئتم ، ولا تردونا إلى بلادنا بغير ما ترضاه ! !

ومن التهم التي وجهت إلى البابا إثناسيوس السكندري (٢٩٦ — ٣٧٣) ، نعرف مدى المكانة الدينية والدنيوية التي بلغها رؤساء الكنيسة في مصر أمام مكانة الإمبراطور نفسه في القسطنطينية ، فإنه اتهم بمنع تصدير القمح وافتتاح كنيسة بغير إذن الإمبراطور ! ونقل المؤرخ جبون من أخباره أنه لم يكف عن مناضلة قسطنطين وقسطنطينيوس ويوليان وفالنس ، وكان يوليان المرتد يسميه بالمشاغب والبغيض ، ويبادله التهم مبادلة الند للند ! وسأله قسطنطينيوس

مرة : لم لا تأذن بإقامة الكنيسة الآرية في الإسكندرية ؟ فكان جوابه : إنني سآذن بها يوم تأذن أنت بإقامة كنيسة أرثوذكسية في أنطاكية !

وغنيّ عن القول إن المفكرين الدينيين الذين نشأوا في صدر المسيحية ، كانوا يعرفون فلسفة اليونان ، وكان منهم من يحاول أن يوفق بين الدين وهذه الفلسفة ، ومن يفهم قدم العالم وقدم الإله المنزه عن المادة أو الهيولى، على مذهب أرسطو تارة ، وعلى مذهب المعرفيين أو مذهب الأفلاطونية الحديثة تارة أخرى . وكان من هؤلاء المفكرين يونانيون ومصريون ينظرون إلى المسائل من جانبها الفلسفي ، ولا يجنحون بها إلى فريق الحاكمين أو المحكومين : وهذه الآراء العقلية تنجم في كل عصر وفي كل أمة، وتتصل بالسياسة العامة أو لا تتصل بها على حسب الظروف .

ولكن اللازمة التي لا فكاك منها تبرز على الأثر كلما اجتمعت الأسباب اللاهوتية والأسباب القومية في جانب ، وهذه القوة المتجمعة من غيرة الدين وحماسة القومية هي التي اعتصم بها المصريون زمناً في وجه الدولة الرومانية ، قبل إيمان هذه الدولة بالمسيحية ، وبعد هذا الإيمان .

وقد اضطهد المصريون قبل إيمان الدولة الرومانية بالمسيحية ، وبعد إيمانها بها في أيام قسطنطين ، وكان من مضطهديهم قياصرة كالفيلسوف ماركوس أورليوس، وقياصرة لا يفقهون ولا يفكرون مثل كاراكلا ودقلديانوس. ووقع الاضطهاد في عهد النقيضين فوقاس وهرقل ، ووقع من العواهل المتدينين وغير المتدينين ! ولم يكن هذا الاضطهاد الديني قط خِلْواً من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية ، فلما وجدت للمصريين كنيسة قائمة ، كانت هي الدين والدولة في وقت واحد ، أو كانت هي الزعامة التي تلتف بها الأمة وتثبت فيها كيانها ومشيئتها في وجه القوة المفاجئة .

ولم يسع حكومة القسطنطينية إلا أن تعترف بهذه الحقيقة الواقعة ، فأرادت أن تستفيد منها لإرضاء الشعب المحكوم واتقاء التمرد من ولاة

الروماني الطامحين ، فكانت تفصل أحياناً بين سلطان الإدارة وسلطان الجيش ، وكانت تقسم معسكرات الدفاع بين مصر العليا ومصر السفلى ، وكانت تمنح بعض الزعماء المصريين حقوق الرعاية الدينية والرئاسة الحكومية ، لأنها بمثابة الاعتراف بالضرورة التي لا محيد عنها ، وبالحيلة التي تصلح لتفريق القوى ومنعها أن تتجمع في ناحية واحدة للتمرد عليها . وكانت تستعظم قوة البطرق الوطني أحياناً ، فترسل إلى مصر بطرقاً على مذهبها يدير كنيسته إلى جانب الكنيسة الوطنية ، ويتبعها المسيحيون من اليونان والرومان غير الوطنيين ، كما يتبعها بعض الوطنيين الذين يميلون إلى عقيدتها ورأيها ، أو يتزلفون للدولة الحاكمة طمعاً في المناصب والحظوة النافعة .

وكان الوضع الديني في أوائل القرن السابع محدوداً مقرراً بين الكنائس الثلاث في المشرق والمغرب والإسكندرية .

كان الأساقفة المصريون قد تمكنوا من بسط آرائهم في مجمع نيقية برئاسة البابا الإسكندر وتلميذه الكبير أثناسيوس ، فأقروا العقيدة المسيحية كما اتفق عليها الأساقفة الذين شهدوا المجمع ، وحرصوا على رعايتها في القطر المصري وفي بلاد القيروان وما حوله من المدن الإفريقية ، ثم نفس عليهم رؤساء القسطنطينية هذا النفوذ ، وأرسلوا آريوس إلى الإسكندرية بأمر الإمبراطور . فقاطعه الشعب المصري وأوصد في وجهه أبواب كنائسه ، وفعل مثل ذلك مع البطرق جريجوريوس الذي أقامه الإمبراطور مقام البطرق أثناسيوس المصري بالإسكندرية ، فلم يحضر صلواته ولم يعترف بوجوده ، وأهمله حتى مات في عزلة بين رعاياه ! وكان أثناسيوس في هذه الأثناء قد استعان بكنيسة رومة على كنيسة القسطنطينية ، فأعانته ، وبرأته من التهم المنسوبة إليه ، فعاد إلى الإسكندرية وكاد يقتل فيها غيلة بدسيسة من الإمبراطور يوليان !

ثم انعقد مجمع خلقيدونية ، ورجحت فيه كفة رومة والقسطنطينية ، وأهملت فيه الكنيسة الإسكندرية أشد الإهمال ، فوقع الانقسام بين الملكيين

أي التابعين لمذهب الإمبراطور ، وبين المصريين التابعين لمذهب كنيستهم ، وقيل عنهم يومئذ إنهم « يعقوبيون » لأنهم تلقوا من يعقوب البرادعي ، تلميذ البطرق المصري ، تفصيل العقيدة التي يؤمن بها ويوصي باتباعها ، وكان هذا البطرق المصري — ديسقورس — قد حكم عليه بالنفي لمقاومته قرارات المجمع الخلقيدوني على الرغم من تزكية الإمبراطور !

ولكن التفرقة الصحيحة بين المذهبين ، هي التفرقة بين القول بطبيعة واحدة للإله ، وبين القول بطبيعتين إحداهما إلهية والأخرى إنسانية . ولما استعصى على الدولة أن ترغم المصريين على اتباع مذهبها ، توسط بعض الرؤساء الدينيين في حسم الشقاق ، بترك الخلاف على الطبيعة والطبيعتين ، ووصف الإله بأنه ذو مشيئة واحدة . وقدروا أن القول بهذا المذهب يرضي المصريين ، لأنه يرادف القول بالطبيعة الواحدة ، ولا يسخط أصحاب القول بالطبيعتين ، لأنهم يقولون إن الطبيعتين تتفقان في المشيئة الإلهية .

إلا أن هذا التوفيق لم يحسم الشقاق ، ولم تكن له من نتيجة غير تجديد المناقشة في صورة أخرى ، وإثارة الخلاف على الفرق بين الطبيعة والمشيئة ، مما عاد بالمسألة كلها سيرتها الأولى !

ووضح للإمبراطور الروماني أن هذا « العناد » من جانب المصريين ، كما سماه ، يخفي وراءه غير مجرد الخلاف على العقائد اللاهوتية . والواقع أنه كان لاهوتياً قومياً بغير مراء . وإن تهافت المصريين على الرهبانية نفسها لم يكن خِلْواً من الاحتجاج على المظالم الرومانية ، وقد عبر عنه أثناسيوس هذا التعبير حيث قال في كتابه : « حياة القديس انطون » Vita Antonou : « إن رهبان الصحراء كانوا ينشدون المزامير ، ويحبون المطالعة ، ويصومون ويصلون ، ويفرحون بالرجاء في المصير ، ويعملون على إسداء الإحسان ، ويحب بعضهم بعضاً .. حيث لا يقيم بينهم معتدٍ ولا معتدًى عليه ، ولا يقترب منهم جابي الضرائب ، ولا يبصرون

هنالك غير جمهرة من النساك على مقصد واحد ، وهو التطلع إلى الفضيلة » .

* * *

لقد كان هرقل مشغولاً بحرب الفرس وقبائل البرابرة في أوائل أيامه على العرش ، فلما انتصر على الفرس وهادن القبائل حول عاصمته فرغ « للمعاندين المنشقين » ، وغرّه النصر ، فأمعن في طغيانه ، وغلا في مطالب الطاعة من رعاياه ، وُخيّل إليه أن استقرار الأمر له مرهون بتوحيد المذاهب في المملكة ، وأن هؤلاء المعاندين المنشقين يهددونه ويجترئون عليه. فانقسمت الدولة عنده إلى « ملكيين » وخارجين على الملك ، وتبادل الفريقان التهم العنيفة ، فكانت كلمة الوثني الخائن أيسر وصف لمن يخالفون الامبراطور وشيعته ، وكانت كلمة الخلقيدوني مرادفة لوصف الكفر والغشم في نظر أبناء البلاد ! ولم تكن المسألة يومئذ مسألة مذاهب وطوائف في ديانة جامعة ، بل كانت مسألة مسيحية أو لا مسيحية ، لأن مهمة المجامع في القرون الأولى إنما كانت تقرير العقيدة التي يدين بها المؤمن وينكرها غير المؤمن . ثم جاء الاضطهاد فأوغر الصدور ، وخرج به الفريقان من الخلاف إلى العداء ، وآمن كل متدين مخلص في عقيدته أن مخالفيه قد استحقوا الغضب والنقمة من الله !

ولم ينحصر النزاع بين الملكيين وجملة المصريين ، بل ظهرت معه الخلافات بين الآريين والنسطوريين والأوطاخيين والشيوبسقيين أتباع بطرس القصار ، وغيرهم من أصحاب النحل المتقاربة أو المتباعدة في تفسير اللاهوت والناسوت. وغلب الضجر على الكثيرين فاعتزلوا المذاهب ، وساورتهم الشكوك ، وانهارت الأخلاق ، وساءت القدوة بعلية الناس ورؤسائهم ، فمن لم يكن ناقماً متوقعاً للغضب السماوي فهو متهاون غير حافل بما تصير إليه الأمور .

وقد صوّر لنا أبناء ذلك العصر شعورهم في أقوالهم وأخبارهم ، فاتفقوا على شعور واحد مع اختلافهم في كل ما عداه ، وذلك هو شعورهم بالغضب

الإلهي وانتظار الجزاء العادل من الله .

فلما تقدم المسلمون لحرب الدولة الرومانية ، شاع في المشرق كله أن هزيمتها حق ، وأن غلبة المسلمين عليها عدل ، وأن القضاء الإلهي ينفذ في مستحقيه بما قدمت أيديهم من ظلم ومعصية .

وربما نفر الخاضعون للدولة الرومانية من هذا القضاء الذي حل بها ، لو أنه أصابهم كما أصابها ، وعرّضهم للشر الذي كانوا يأمنونه في ظلها ، ولكنهم وجدوا الفاتحين يؤّمنونهم من حيث خافوا ، ويبيحون لهم ما لم يكن مباحاً لهم في أيام الدول الدائلة ، فمن التصدي لعدل الله في قضائه أن ينصروها لتخذلهم ، وأن يدافعوا عنها ليدفعوا عنها غضب الله .

كانت مدينة غزة أول المدن الكبرى التي استولى عليها العرب من أرض فلسطين ، وقالت مجلة المشرق اليسوعية في سنتها الثانية : « إنه كان يسكن وقتئذ في جنوب غزة قوم من قبائل العرب المتنصرين ، وكان قد أصابهم من قِبَل ولاة الروم عسف وجور في المعاملات فالتجأوا إلى عساكر المسلمين ، ودعوهم إلى فلسطين ، فلبّوا دعوتهم ، وزحفوا على غزة في اليوم الرابع من شهر شباط لعام ٦٣٤ ، وظفروا بجيش الروم ، وفتحوا المدينة ...، وبعد أيام قليلة أتموا فتح بقية مدن فلسطين » .

قال ماير Meyer في تاريخ مدينة غزة إن سكانها المسيحيين خرجوا مع جيش الروم عندما حاصرها العرب ، إلا أنهم عادوا إليها بعد اطمئنانهم إلى الفاتحين ، ودخل فريق كبير منهم في الإسلام ، وذهب المتكلمون عنهم إلى عمرو بن العاص يطلبون منه قسمة الكنائس بينهم ، فقسمها بينهم على حسب عددهم ، وأعطى الكنيسة الكبرى لأصحاب العدد الأكبر وهم المسلمون ، وأمر بإبقاء الكنيسة الأخرى لمن بقي من دينه من المسيحيين .

وكانت غزة على أبواب مصر ، تسري أنباؤها إلى الديار المصرية بين ليلة ونهار ، وكان فيها وفيما حولها طائفة من الجنود المصريين والمتمصرين

الذين استنجد بهم هرقل وقائده بميادين فلسطين . وكانت أنباء العهود التي اتفق عليها المسلمون ونصارى العراق والشام تتوالى على كل جانب من جوانب الدولة الرومانية ، فلم يكن في كل أولئك ما يدعو أبناء البلاد إلى مؤازرة الدولة الرومانية ودفع الهزيمة عنها . ولم يكن لانتصار العرب وانهزام الدولتين أمامهم — دولة الأكاسرة ودولة القياصرة — غير تفسير واحد ، وهو قضاء الله وعدل الله .

* * *

ولفهم التاريخ كما حدث ينبغي أن ننظر إليه بأعين المعاصرين ، وأن نشعر بحوادثه كما كانوا يشعرون بها ، وأن ندخل في حسابنا ما دخل في حسابهم من التقديرات والمعايير ، وأن نعرض العداوات والصداقات على المحك الذي عرضوها عليه، ومنها ما خطر لهم وهو لا يخطر لنا الآن، ومنها ما نستخف به ولم يكن خفيفاً قط في موازينهم للحوادث والأمور .

إن العرب أبناء اسماعيل وهاجر . يعلم ذلك من قرأ التوراة واطلع على أصول الديانة المسيحية ، ويعلمونه في ذلك العصر خاصة ، لأنه كان عصر العداوة القومية بين الرومان الأجانب وشعوب الشرق على الاجمال . وقد كانت وحدة الديانة خليقة أن تنسي الشعوب المحكومة فوارق الوطن واللغة ، ولكنها وحدة لم تنتظم قط بين الحاكمين والمحكومين ، ولم يكن فيها ما يجمع المختلفين ، بل كان فيها على الدوام ما يفرق المجتمعين ، ويمشي بينهم بالعداوة والبغضاء . !

فالعرب أبناء إسماعيل وهاجر أقرب من الروم إلى أبناء مصر ، بالنسب الذي تحفظه الكتب الدينية ، وقرابة الأمومة والسلالة ، ومثل هذه القرابة لم تكن من المهملات في ذلك العصر ولا في العصور التي لحقت به إلى عهد غير بعيد من عصرنا الحاضر ، وقد رأينا أنها كانت حجة الفرس في الزحف على بلاد الدولة الرومانية ، لأن زوجة كسرى كانت من بنات الروم .

* * *

ومن مقدمات الفتح الاسلامي تبادل الرسائل بين النبي عليه السلام والمقوقس ،أو عظيم القبط كما سمي في تلك الرسائل ، وقد حفلت بأخبارها كتب السيرة النبوية وكتب التاريخ عن الفتح وما بعده ، نستخلص منها ما لا بدّ من العلم به وبأمثاله في بيان الحالة الدينية بمصر كما واجهها الفاتحون وأهل البلاد .

قال حاطب بن بَلْتَعة ، حامل رسالة النبي إلى المقوقس ، إنني قلت له : « كان قبلك رجل – يعني فرعون – زعم أنه الرب الأعلى ، فانتقم الله به ، ثم انتقم منه ! فاعتبر بغيرك ، ولا تعتبر بك ! وإن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه ، وهو الإسلام الكافي الله به فقدَ ما سواه ، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الانجيل ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به » .

قال حاطب : ثم تناول المقوقس كتاب النبي فقرأ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلامٌ على من اتبع الهدى . أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الاسلام ، فأَسلِم تسلم ،وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين . يَاأهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شيئاً ولا يَتَّخِذَ بعضُنا بَعضاً أرْباباً مِن دُونِ اللهِ فإن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهدُوا بِأَنَّا مسْلمون » .

ثم قال المقوقس كلاماً عن صفات النبوة ، منها : « أنه يركب الحمار ، ويلبس الشملة ، ويجتزىء بالثمرات والكسر ، ولا يبالي من لاقى من عم ولا ابن عم » . وأنه كان يظن أن مخرجه من الشام ، فمن هناك كانت تخرج الأنبياء ، وكتب الجواب فجعل عنوانه « لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط » .

وورد في بعض الأخبار أن المقوقس أراد أن يمتحن دعوى النبوة بالهدية ، فأرسل هدية معها صدقة ، لأن الأنبياء تقبل الهدايا ولا تقبل الصدقات ، وجعل الهدية جاريتين أختين ليرى هل يجمع بينهما أو يتورع عن الجمع بين الأختين ، فكان أن أهدى النبي إحدى الجاريتين وبنى بالأخرى ، وأنه وزع الصدقة على الفقراء .

ومثل هذه الأخبار يوجبها فهم التاريخ كما حدث أو كما ينبغي أن يحدث ، ولا ترفضها إلا الحذلقة التي تُداخل المؤرخ العصري ، فيحسب أن المقوقس يعيش في هذا القرن العشرين ، ويتلقى دعوة النبوة كما يتلقاها أبناؤه ، فلا ينظر في امتحانها بما كانت تمتحن به النبوات في القرون الأولى للميلاد ، وإنما الخليق بالتحقيق التاريخي أن يوقن المؤرخ من حصول شيء كالذي نقله رواة السير والأخبار عن تصرف حاطب بن بلتعة ، وتصرف المقوقس في جوابه وهديته ، فما كان المقوقس ليتلقى رسالة النبي أو ليجيب عنها إلا على ذلك النحو ، مما يحاول المؤرخ أن يتخيل غيره فلا يستطيع !

أما المسلمون فقد جاءوا مصر ومنهم من سمع أحاديث النبي عليه السلام في التوصية بها ، ومنها : « وإنكم ستفتحون مصر ، وهي أرض يسمى فيها القيراط ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمةً ورحماً ، أو قال ذمة وصهراً » .

ومن الأحاديث النبوية عن مصر أنه عليه السلام قال : « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » . قال أبو بكر رضي الله عنه : ولِمَ ذلك يا رسول الله ؟ فقال « لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة » وقال « ما كادهم أحد إلا كفاهم الله مؤونته » .

ومن لم يكن من الجند الفاتح قد سمع الأحاديث النبوية ، كان قد سمع آيات من القرآن الكريم ، وفيها من لعنة فرعون :

« إنَّ فِرعَوْنَ عَلاَ في الأرضِ وَجَعَلَ أهْلَهَا شِيَعاً » ، وفيها من

لعنته : « إن تُريدُ إلاّ أنْ تكُون جبّاراً فِي الأرضِ » ، وفيها : « ونُريدُ أن نَمُنَّ علَى الذين استُضْعِفوُا في الأرضِ ونجْعَلَهُمْ أئمّةً ونجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ ونمكّنَ لهمْ في الأرضِ ونُرِيَ فِرْعونَ وهَامانَ وجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ ما كَانُوا يحْذَرُونَ » .

وعلى ألسنتهم جميعاً حكاية عن قوم يوسف : «ادْخُلوا مِصْرَ إنْ شَاء اللهُ آمنِينَ » وقوله تعالى : « كمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعيُونٍ . وَزُروعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ . كذلكَ وَأوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخرينَ » .

وكل هذه الوصايا القرآنية والنبوية في أذهان الفاتحين تجنح بهم إلى المسالمة والمؤامنة في معاملة أهلها ، وتضع الروم عندهم في موضع فرعون الذي تجبَّر وفرق رعيته شيعاً ، ووجب أن يتركوا الأرض لمستضعفيها، وأن يورثها الله قوماً آخرين .

وتوافق هذه المسالمة خطة مثلها من أبناء البلاد توحيها إليهم أحوال كثيرة كانوا يكابدونها على الأحقاب المتوالية ، وأهمها الحالة الدينية كما صارت إليه في أيام الفتح الإسلامي خاصة ، وهي تلك الحالة التي أزعجت البطرق عن كرسيه ، وألجأت زعيم القوم إلى مذهب في العقيدة غير مذهبه ، فلم تعد الطمأنينة إلى المتعبدين لأول مرة في ثلاثة قرون إلا بإعلا ن الأمان لكل متعبد ورعاية الحرمة لكل معبد .

ولا خلاف بين المؤرخين في منهج الدعوة الدينية في سنوات الفتح الأولى إلى اواسط أيام الدولة العباسية ، فلم يقع إكراه على أحد ، بل وقع ما يناقض الإكراه في رواية الكثيرين من مؤرخي العربية ومؤرخي اللغات الأجنبية ، فقد أدهشهم إحجام الفاتحين عن إكراه أبناء البلاد على الدخول في ملتهم ، حتى التمسوا تأويل ذلك بأنهم كانوا يشفقون من نقص الجزية وإقفار خزانة الحكومة وانقطاع أرزاق الجند والعمال ، وهو تأويل مخطىء

كما سنرى في باب الأحوال الإدارية وتقسيم الأموال بين الجزية والخراج والزكاة ، ولكنه مهما يكن من خطئه صحيح في الإبانة عن الواقع في مسألة الدعوة الدينية ، فإذا بلـغ من إحجام الحاكمين عن إكراه الرعية على التدين بدينهم أن يعلل المؤرخون ذلك بنفورهم من فقدان الجزية ، فقد صحّ على الأقل أنهم أحجموا عن الإكراه ولم يقسروا أحداً على الخروج من دينه .

غير أن الحالة الدينية ، كما وصفناها ، تفسر الواقع كما تستدعيه تلك الحالة ، كما ورد في التواريخ القبطية كتاريخ يوحنا النخيوي المشهور ، فهو يقول إن المسيحيين الملكيين أسرعوا إلى الدخول في الإسلام لأنهم كرهوا أن يثوبوا في أحكامهم ومعاملات زواجهم وطلاقهم إلى الكنيسة التي يعادونها وتعاديهم ، ويشبه الطائفة الملكية أناس في حكمها ، كالطائفة النسطورية والآرية ، ومن يقول بالمشيئة الواحدة ولا يقول بالطبيعة الواحدة ، كما يقول القبط ولا بالطبيعتين على النحو الذي يدين به الملكيون .

وقد حدث في هذه الفترة وما قبلها بقليل أن الطائفة المارونية هجرت أرضها جملة واحدة ، وانتقلت إلى جبال لبنان كراهة الخضوع لليعقوبيين ، ولعلها لو اضطرت إلى البقاء حيث كانت لدانت بالإسلام ولم تذعن لمـن حاربتهم وحاربوها في المعتقدات والأحكام عشرات السنين .

فالذين أسلموا بعد الفتح إنما أسلموا طوعاً غير مكرهين على ترك مذهب ولا نِحْلة ، وهم على رواية يوحنا النخيوي طائفة الملكيين الخلقيدونيين ومن يشبهها من الطوائف التي لا تقول بالطبيعة الواحدة ! ويضاف إليهم أناس من الذين فهموا من انتصار المسلمين على الفرس والروم أنه آية إلهية وبرهان من السماء على صحة الدين وسلامة الدعوة . ويضاف إليهم أناس ممن هان عليهم أمر التدين في محنة الشقاق ومحنة الأخلاق ، فلم يبالوا على أي دين أصبحوا بعد الشك والريبة ، ثم فضلوا الدين الذي يعتقده ولاة الأمر وحكام البلاد !

ولا تفسير للحالة الدينية أيام الفتح أصح من هذا التفسير .

الحالة الإدارية والسياسية

عرفت مصر التقسيمات الإدارية من أيام الأسر الأولى ، وعدّ سترابون ستة وثلاثين من هذه الأقسام التي نسميها اليوم بالمديرية أو المحافظة ، وعرفها اليونان باسم النوم Nom ، وزادت بعد عصر سترابون حتى أربت على الأربعين .

ويقال إنها كانت في مبدأ الأمر مواطن للعشائر أو القبائل المختلفة التي تسكن الوادي وما يقابله من جانبي الصحراء . وكانت كل عشيرة منها مستقلة برئيسها وعباداتها المحلية ، على حسب الطواطم التي تدين بها ، ومن هنا غلبة العبادة في كل إقليم لطوطم من الطواطم الحيوانية ، فمنها إقليم الصقر ، وإقليم التمساح ، وإقليم ابن آوى ، وإقليم الهر ، وإقليم الحمل ، وغيرها من هذه المعبودات الطوطمية . ولهذا كبرت بعض الأقاليم أو صغرت لأسباب لا ترجع إلى الوضع الجغرافي أو المصالح الاقتصادية ، وتعذر تغييرها والتصرف في حدودها قبل اتحاد البلاد جميعاً في عبادة قومية عامة .

وإلى جانب هذه التقسيمات كانت هناك أقسام أكبر من هذه الأقسام ، نلاحظ في تخطيطها الدواعي العسكرية والسياسية ، أو دواعي الدفاع واجتناب النزاع بين أصحاب الحقوق المشتركة في الإمارة .

وأقدم هذه الأقسام قسمان : مصر العليا ومصر السفلى ، ثم زيدت عليها

مصر الوسطى ، وتفرعت مصر السفلى إلى فرعين : أحدهما إلى شرق الدلتا والآخر إلى غربها ، ووجد في بعض العصور قسم آخر يضم إليه الواحات وطرفاً من الأرض الليبية ، ويتصل بالفيوم والإسكندرية حيث يشرف عليه الوالي الأكبر ، لما له من الخطر في الدفاع عن حدود مصر الغربية .

هذه التقسيمات جميعاً تحللت وكادت تندثر أو تختلط بينها التبعات في عهد الامبراطورية الرومانية الشرقية .

ففي عهد الامبراطورية بطلت الحاجة إلى الدفاع شرقاً وغرباً ، لأن مصر كانت محاطة من الجهتين بأملاك الامبراطورية في فلسطين وفي ليبيا وأفريقيا الشمالية .. وبطلت الحاجة إلى الدفاع جنوباً ، لأن نجاشي الحبشة كان على عهد مع عاهل القسطنطينية أن يتعاونا على حرب فارس وإخراجها من اليمن التي كانت تهم الحبشة وتخشى الخطر من جانبها .

فلم تبقَ من حاجة إلى الدفاع في غير الإسكندرية ، ولم يكن دفاع البر هو المقصود بالحامية التي تعسكر فيها ، ولكنه كان دفاعاً بحرياً تعززه الحاجة إلى الأسطول لنقل المحصولات والغلات من القطر المصري إلى بلاد الدولة المترامية الاطراف على سواحل بحر الروم .

وجاوز الأمر إهمال الدفاع إلى تعجيز الحاميات ، وإغراء بعضها ببعض ، خوفاً من اتفاقها على الدولة ، وإجماع قادتها على رفض المطالب التي تتوالى على القطر من القسطنطينية .

فاختلت أحوال الأمن في داخل البلاد ، ولجأ بعض السراة من أصحاب الضياع الكبيرة إلى اتخاذ الجند من أتباعهم وزراعهم وحواشيهم ، فلم يمض غير قليل حتى نجم الخطر من هذه الفرق التي لا تدين بالطاعة لقائد واحد ، فعاثت في الأرض ، وخيف منها على الوادعين المسالمين ، وأصبحت شراً عليهم من عصابات اللصوص وقطاع الطريق ! وفي تاريخ يوحنا النخيوي وقائع شتى من عبث هذه الفرق ، تدل على ما كان من اضطراب الأمن وفزع

الأهلين وعجز الحكومة العامة في الأيام الأخيرة قبل الغزوة العربية .

وآل الغرض كله من التقسيمات الإدارية إلى جمع الضرائب والأزواد المقررة للدولة في كل سنة زراعية .

ولم يكن لهذه الضرائب نظام واحد ولا مقدار معروف لا يتغير مع السنين ، ويظهر هذا الاختلاط في سياسة الضرائب من تضارب الأقوال بين المؤرخين الذين جمعوا كل ما أتيح لهم جمعه من الوثائق والسجلات وأوراق البردي ورسائل العواهل والولاة ، فاختلفوا في ضريبة الأرض ، وضريبة الرؤوس ، وذهب بعضهم إلى نفي الخبر المتواتر عن وجود ضريبة الرؤوس في مصر على عهد الدولة الرومانية الشرقية ، لأنهم لم يجدوا لها موضعاً بين أنواع الضرائب على الأطيان ، ثم اتفق بعضهم على أن ضريبة الأطيان هي ضريبة الرؤوس التي أصبحت أساساً لتحصيل الجزية بعد فتح العرب ، لأنهم كانوا يلاحظون في مقدار ضريبة الأرض كفاية الزارع الواحد طوال العام ، فتحسب الغلات بحساب الرؤوس ، ولا يختلف التقدير بين ضريبة الوحدة الأرضية Jugum وضريبة الرأس على فرد من أفراد الفلاحين Caput ، فلم يكن خراج الأرض Jugatio وضريبة الرؤوس Capitatio إلا صورتين مختلفتين لضريبة واحدة [1] .

واستوجب هذا النظام أن يعتبر الفلاح أسيراً على الأرض التي يزرعها ، ويعامل معاملة الهارب بحق الدولة إذا فارق قريته ولاذ بقرية أخرى . وحل الزارع المحلي Colonus محل العبد الرقيق بعد تعذر الاعتماد على هذا النظام في الزراعة .

وعلى هذا لم يكن مقدار الخراج محدوداً في كل سنة ، بل كان تحديده على حسب المحصول المنظور في أيام الفيضان ، فيصدر البيان السنوي من

---

١ – الامبراطورية البيزنطية تأليف نورمان باينز Baynes .

الوالي الروماني خلال شهر يوليو أو أغسطس [1] ويبلغ إلى الأقاليم في سبتمبر أوأكتوبر ، ويتولى كل إقليم توزيع المقدار المطلوب منه على القرى والبلاد ، كما يروق صاحب الكلمة العليا في الإقليم . وأصحاب الكلمة العليا مختلفون بين حكام رومانيين ، أو أصحاب ضياع من الأجانب والوطنيين ، وبين مجالس بلدية أو إقليمية ، ومستأجرين يتولون زرع الأرض في مساحات واسعة ، ثم يتولون محاسبة المجالس أو أصحاب الضياع .

والمطلوب من الأرض كذلك يختلف على حسب الجودة والصنف المزروع ، فمن الأرض ما يسهل ريّه بماء النيل، ومنها ما يصل إليه ماء النيل ولكنه يغمره أياماً في السنة فلا يصلح للزراعة في غير موسم قصير ، ومنها ما يحتاج إلى الآلات لريّه ولا يأتي بالغلة الكافية إلا مع كثرة الأيدي العاملة فيه .

والدولة لا يعنيها إلا أن تجمع المقدار المقرر في حسابها . والموظفون لا يعنيهم إلا إرضاء الدولة ، وليس للتقصير في أداء مطالبها غير نتيجة من نتيجتين ، كلتاهما مكروهة ومحذورة : فإما العزل وإما العمل بغير مرتب ، لأن المرتبات محسوبة من حصة الضرائب التي تبقى في مصر بعد استيفاء مطالب الدولة جميعاً من المال والمحاصيل .

وربما تسابق الملاك الكبار ورؤساء المجالس المحلية والإقليمية في معاملة الدولة في تحصيل الضرائب ، طلباً للكسب والنفوذ من وراء هذه المعاملة !

فقد كان النظام المتبع مع كبار الملاك أن يؤدوا ضرائبهم إلى خزانة الدولة مباشرة ، بغير واسطة الجباة ورؤساء المجالس ، وكان هذا النظام يرضي المالك الكبير ، لأنه يكسبه الجاه في الدواوين ، ويمكنه من تسخير العمال المستأجرين ، فلا يبرحون أرضه أو يستعين عليهم بسلطان الحكومة

---

١ — الدخول في الاسلام وضريبة الرؤوس تأليف دانيل دينت Dennette .

ويستبقيهم عنده مكرهين . وكان من حقه بهذه المثابة أن يطارد المماطلين لأنهم يماطلون الدولة كما يماطلونه ، وأن يستزيد من الأرض المزروعة لحسابه ما استطاع لأنه يزيد بذلك في نصيب الخزانة العامة ويعطي الدولة حقها جملة واحدة في موعد معلوم !

وهناك غاية سياسية وراء هذه « الإجراءات الادارية » ترمي إليها الدولة البيزنطية في عاصمتها الكبرى ، وهي إثارة الشحناء بين سراة البلاد وأصحاب المناصب الكبرى ، فتضرب بعضهم ببعض ، وتأمنهم جميعاً على سلطانها ، وقد تأمن أن يغتالها أحدهم في نصيبها من الضرائب حذراً من وشاية الخصوم والنظراء !

ويغلب على اعتقادنا أن سلطان المقوقس في مصر إنما كان من عمله على هذا النحو في تدبير أمر الخراج ، فلم يكن والياً مفوّضاً في أمر الخراج كما خطر لبعض المؤرخين ، ولكنه كان مالكاً كبيراً من أبناء البلاد ، فكان يتكفل للدولة بحصته وحصة عملائه وأتباعه ، و كانت الدولة الرومانية تعترف بوجاهته وتستفيد منها ، كما كانت الدولة البريطانية تصنع في الهند مع الراجات وأمراء الولايات .

ولكن الطمأنينة شيء وتنازع الوجهاء على السيطرة شيء آخر ، فهذا التنازع صراع دائم لا طمأنينة فيه لأحد من كبار الملاك ولا من كبار العمال والولاة . وإذا كان مداره على التزايد في إعطاء الدولة وابتزاز المال من المحتاجين إليه ، فهو قلق دائم لصاحب الأرض وزارعها ، والمأجور عليها ، ومن تقوم سيادته على التنكيل بنظرائه ، والعدوان على من هم دونه من الصغار والمستضعفين .

ولم تكن ضريبة الأرض أو ضريبة الرؤوس كل ما تطلبه الدولة من رعاياها المصريين ، بل كانت هنالك ضرائب كثيرة على المقتنيات جميعاً بين ثابتة ومنتقلة ، وقد أحصى منها ميلن Milne في تاريخه لمصر في ظل

الحكم الروماني أنواعاً شتى ، كضريبة الإصلاح والترميم التي تجبى لإقامة الجسور وتسليك الجداول وتنظيف الأحواض ، وضريبة البيوت والمساكن الخاصة والعامة ، وضريبة الحيوانات كالخيل والجمال والحمير ، وضريبة الصناعات والمتاجر ، وضريبة عامة تسمى ضريبة التاج .. وكلها على اختلاط حسابها وحساب مواعيدها والمراجع التي تتولى تقديرها وتحصيلها كانت مصدراً دائماً للشكاية والقلق والنزاع ، بين الشعب والموظفين ، وبين الإدارة المحلية والادارة العامة ، وبين خزانة مصر وخزانة الدولة الرومانية .

واقترنت هذه الحالة في القرن السادس بتدهور العملة الرومانية ، واختفاء العملة جملة من الأسواق المصرية ! وقد فسّر المؤرخ ميلن هذه الأزمة بالخوف من تقلبات التجارة ، واكتفاء أصحاب الزراعات بلوازمهم من غلات أرضهم ومما يحصلون عليه مقايضة ومبادلة على تلك الغلات ، وقد يكون بعضها راجعاً إلى عادة الكنز والادخار ، تهريباً للمال من أعين الحكومة ، وحيطةً للمستقبل المجهول .

وبين هذه الأزمات والشكايات يسمع القوم عن نظام الفاتحين في البلاد المجاورة ، ويعلمون أنه يقصر الضرائب على ضريبة الرؤوس للذميين ، وضريبة العشر للمسلمين . ولم يكن هناك خراج يتقاضاه الفاتحون من الفريقين مستقلاً عن الضريبتين ، لأن نظام الخراج إنما استعير من الدولة الفارسية ، وصُحّفت الكلمة من كلمة « خلاك أو خلاج » الآرامية التي دخلت في تعبيرات الفرس ، لأنهم كانوا يستعيرون الكتابة بالحروف الآرامية ، فلما شرعت الدواوين الاسلامية في تطبيق نظام الخراج والتوفيق بينه وبين ضريبة الذميين وبين عشور الزكاة ، كان قد مضى وقت غير قصير على أوائل أيام الفتوح .

وكان الأمل في الخلاص من شبكة الضرائب الرومانية سبباً آخر من أسباب الرغبة في الخلاص من حكمها كله ، بما اشتمل عليه من ضروب الإرهاق والسيطرة الجائرة على الأرواح والأموال .

وقد خلق المؤرخون كعادتهم مشكلة متشعبة من الأقاويل والتقديرات حول نظام الضرائب في العصر الإسلامي الأول ، وتساءلوا هل كانت ضرائب رؤوس؟ هل كانت غنائم فيء ؟ هل كانت خراجاً على الأرض ؟ هل كان تحصيلها على طريقة الدواوين الرومانية أو على طريقة جديدة لم تكن معروفة في تلك الدواوين ؟

وإنما يخلق المؤرخون مشكلاتهم لأنفسهم ، لأنهم يطلبون النصوص والأوراق دائماً ، ولا يطالبون أنفسهم بتقدير الموقف كما ينبغي أن يكون ، ثم يستعينون عليه بنصوصهم وأوراقهم على هذا التقدير !

وينبغي أن يقدر المؤرخون شيئاً واحداً لا شك فيه ، وهو أن انتقال الضرائب بين ليلة ونهار من الحساب الروماني إلى الحساب الإسلامي هو المستحيل ، لأن اشراف القائمين على الدواوين التي يجري فيها الحساب باللغة اليونانية غير ميسور ، وقد يتعسر إشرافهم عليها بأية لغة من اللغات في سنوات الانتقال من نظام إلى نظام .

كذلك ينبغي أن يقدر المؤرخون أن معاملة القطر كقطعة واحدة من الأرض شيء لم يخطر على بال أحد في ذلك الزمان ! !

فالمؤرخون الأقدمون كانوا يذكرون مصر في كتبهم ، فيتكلمون عن مصر وإسكندرية ، ومصر وطيبة ، ومصر والفيوم ، ومصر والمدن الخمس ، ويفرقون بينها في أحكام الولايات والأبرشيات من الوجهة الإدارية والوجهة الدينية .

ولما تم الفتح كانت الاقاليم مختلفة على حسب الولاة والملاك ، وعلى حسب المقاومة والصلح ، وعلى حسب الجنود والقادة الذين أخذوها عَنْوَةً ، أو أخذوها بعد حصار ، أو أخذوها بغير مقاومة .

فهناك أقاليم كان الملاك فيها من الرومان فهجروها ، وأصبحت من

غنائم الدولة التي تستولي عليها وتتولى تقسيمها وتوزيعها .

وهناك أقاليم يكثر فيها الملاك الوطنيون ، وهذه داخلة في ضريبة الجزية ، وأقاليم حاربت ، وأقاليم لم تحارب ولم تعقد صلحاً ، لأنها كانت متروكة بغير زعامة وبغير رئاسة تنوب عنها في المعاهدة والمصالحة .

أما اختلاف المعاملة بالنظر إلى الجيش الفاتح فمرجعه إلى الفرق بين الغنيمة والفيء في أرزاق الجنود .

فالغنائم التي تؤخذ حرباً تُعزل منها حصة لبيت المال ، وتقسم منها حصة على المقاتلين .

والغنائم التي يأخذها الفاتحون بغير حرب هي الفيء الذي يؤول الأمر فيه إلى تصرف الإمام ولا يصح تقسيمه بين المقاتلين .

فلما حصل الفتح جاء الاختلاف من قِبَل التمييز بين المحارب والمسالم ، وبين حقوق الغنيمة وحقوق الفيء ، ولكن لا اختلاف على الإطلاق في نظام الضرائب كيف يكون في محاسبة الذميين ومحاسبة الجنود .

وقد يُختلف في الأرض الخراجية وغير الخراجية ، ولكن الأمر الذي لم يقع عليه خلاف قط هو ضريبة العشر على المسلم لأنها هي فريضة الزكاة التي تلزمه باستحقاقها ولا خلاف عليها . والتنبيه إلى ذلك واجب لتصحيح أقوال المؤرخين الذين وهموا أن أناساً من أبناء مصر دخلوا الإسلام فراراً من ضريبة الجزية ، فإن نظام الضرائب الجديدة كان يوجب على كل ذمي عامل دينارين في السنة ، ولا ضريبة على النساء ولا على الأطفال ولا على الشيوخ العجزة « ولا يزاد أحد منهم في جزية رأسه أكثر من دينارين ، إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع ، إلا أهل الإسكندرية فإنهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى مَنْ وَلِيهم » لأن سكانها من الروم ، ومن والاهم لم يدخلوا في اتفاق ، وعادوا إلى القتال بأمر الدولة

الرومانية مرتين .

والحكم في تحصيل الجزية كما أثبته الفقهاء « ألا يضرب أحد من أهل الذمة في استيدائهم الجزية ، ولا يقدموا في الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره ، ولكن يرفق بهم ، ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم ، ولا يخرجون من الحبس حتى تستوفى منهم الجزية ».

فإذا أسلم الذمي فراراً من الجزية ، فالإسلام لا يعفيه من الزكاة ، ولا من خراج الأرض بحسب ما يلزم لإصلاحها وريها ، ويوجب عليه « التجنيد » الذي يعفى منه الذميون ، وليس في هذا تخفيف ولا إعفاء من وجهة التكاليف التي تناط بالأنفس أو الأموال .

* * *

وليس من غرض هذه الرسالة بسط القول في النظم الإدارية والمالية إلا من جانب واحد ، وهو الجانب الذي له علاقة بمهمة الفتح وعمل عمرو فيه ، فإذا نظرنا إلى نظام الضرائب ونظام الإدارة عامة في عهد الرومان ، والتمسنا آثارها في فتح العرب مصر ، كان أوضح هذه الآثار أنها يسرت مهمة الفتح تيسيراً عظيماً ، فاستطاع عمرو ببضعة آلاف من الجند ما لم يكن مستطيعه بأضعاف هذا العدد . إذ كانت هزيمة الروم نكبة على الروم ، وكان انتصارهم نكبة يحذرها أبناء البلاد ، وإيذاناً بظلم فوق ظلم ، لأنه ظلم المنتصر الذي استقر له الأمر في بلد مغلوب يحس من أهله العداء والمناقضة في أمر العقيدة وأمر السياسة . وقد وصف ساويرس بن المقفع فرح الجماهير بلقاء رئيسهم بنيامين بعد اختفائه في منفاه ، فقال إنهم كانوا أشبه شيء بصغار النعم خُلي بينها وبين ألبان أمهاتها . وقال البطرق نفسه في جوابه لأسقف نيخو الذي هنأه بزوال عهد الروم « إنني وجدت في الإسكندرية ما كنت أوده من الطمأنينة بعد ما قاسيناه من الكفرة الظالمين » !

أما السياسة التي اتبعها عمرو في تحصيل الضرائب ، فكانت في جانب

المصلحة المصرية كلما اختلفت الآراء بين خطتين . فلما أشار عليه زعماء الجند بقسمة الأرض والمال أبى ذلك عليهم ، وراجع الخليفة عمر بن الخطاب في ذلك فأقره على رأيه . ثم اقتصد في تحصيل الضرائب حتى ارتاب الخليفة في الأمر ، وحاسبه عليه حساباً عسيراً كعادته في محاسبة العمال ، إبراء لذمته من العبث ببيت المال ، وفي الكتب التي دارت بين الخليفة وعمرو في هذا الصدد بيان عن سياسة عمرو ، وبيان أوضح من ذلك عن خلقه وقوة شكيمته مع خليفة لم يجترىء عليه أحد من عماله مثل اجترائه . فلما كتب إليه الخليفة « يعجب من أن الأرض لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه » ، ويعرض له ببعض الشبهات أجابه مغضباً، فقال: « إننا عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمن بعده ، فكنا بحمد الله مؤدين لأمانتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا .... وإن الله قد نزهني عن تلك الطعَم الدنيئة والرغبة فيها بعد كتابك الذي لم تستبْق فيه عرضاً ولم تكرم فيه أخاً .. » .

إلى أن قال ، وهو أشد ما ووجه به خليفة ، وما ووجه به ابن الخطاب خاصة : « والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك مني أشد غضباً لنفسي ، ولها إنزاها وإكراماً ، وما عملت من عمل أرى عليه متعلقاً ، ولكني حفظت ما لم تحفظ ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدت ، يغفر الله لك ولنا .. » ! !

وتكررت المعارضة منه في طلب الزيادة من مال مصر حتى عزله عثمان رضي الله عنه وقال له حين جاءه الخراج زائداً : « أرى أن اللقاح قد درّت ! » فأجابه : « حين أعْجَفْتُمْ فِصالها » ! !

ولم يحاول المؤرخون الغربيون أن ينكروا هذه الخطة من عمرو ، ولكنهم أكدوها واستدلوا منها على نية البقاء في المنصب أو نية العمل لنفسه في المستقبل ، وليس هذا بالبعيد في رأينا ولا بالمستغرب من عمرو أو غيره من الولاة ، ولكنه قول يلقى على عواهنه إذا أريد به أنه كان يقتطع أموال مصر لنفسه بعد الفتح ، فإن الخليفة قد حاسبه على ما زاد من عطائه — وهو مائتا دينار —

فوجده فضلاً سأله عنه ، فقال له إنه من التجارة ، فلم يتقبل منه هذا العذر ، وأرسل إليه من يقاسمه الزائد من المال كعادته مع الولاة في كل بلد ، ثم عزله عثمان فلم يتخلف عنده من المال ما يغنيه بعد عزله ، ولو تخلفت عنده بقية تحسب من الغنى لما قال له عثمان : « إذ جبتك قملت منذ عزلناك . » !

هذه خطته في الإدارة ونظام الضرائب بعد هزيمة الرومان ، وهي الخطة التي عاهد عليها من عاهدوه فيها ، ولم يتغير منها بعد ولايته الثانية في أيام معاوية إلا أنه كان المسئول عن الحكم كله في أيام هذه الولاية ، فلم يكن حفظ ما زاد من المال اختلاساً من حق مفروض عليه لبيت المال في دار الخلافة.

قيل إن عثمان رضي الله عنه عزله لأنه أراد أن يجعله على الحرب ويولي عبدالله بن سعد تدبير أمر الخراج ! ويخيل إلينا أن عثمان رضي الله عنه قد نظر في ذلك إلى نظام الدواوين كما بقي من عهد الروم وأراد أن يجعل للدفاع وللحرب والياً غير ولاة المال ، وقد كان الخلفاء الأولون يبتدئون هذه النظم على غير سابقة ، فيرجعون إلى سوابقها في البلاد التي حكموها بعد الفرس والرومان . وأيّاً كان الباعث على معارضة عمرو في هذا النظام ، لقد كان على طريقته التي انتهجها قبـــل تحويل إدارة الدواوين شيئاً فشيئاً إلى النظام الذي استلزمه تغيير سياسة مصر ، من ولاية تساس لتدبير طعام الدولة الرومانية وتزويدها بالمدد لخزانتها ، إلى قطر يقوم بشؤونه ويرسل من فيضه حصة لا ينفرد بها بين الأقطار التي كانت تشترك في دولة واحدة .

ولا تنفصل مسألة الضرائب والإتاوات ومسألة الفتح في تقدير أحد ممن كتبوا عن هذه الفترة في تاريخ مصر وتاريخ الدولة الرومانية ، فقد اتفق المؤرخون الاجتماعيون والناقدون العسكريون على أن النظام الإداري — أو نظام الضرائب خاصة — كان له أثر قوي في تيسير الفتح من جانب المصريين ، وعزز هذا الرأي ناقد عسكري حديث رجع بالدرس إلى معارك الفتح على أحدث المبادىء العصرية ، وهذا الناقد العسكري هو القائد « فولر » رائد

التسليح الآلي في تركيب الفرق الحديثة ، فإنه راجع فتوح الإسلام وعجب لاتفاق فتح خراسان وفتح مصر في وقت واحد ، ثم كان من تفسيراته لهذه الفتوح « أنها رد فعل على الحكم الروماني الذي أرهق المصريين بالضرائب الثقيلة ، وحجر على عقيدة القبط الدينية » .

* * *

بين الامارتين

أشار عمرو بفتح مصر .

وقام عمرو بفتح مصر .

وكل فتح فله تأمين وتمكين .

وقد قام عمرو بتأمين ذلك الفتح وتمكينه ، على نحو لم يسبقه إليه سابق من فاتحي وادي النيل في قديم عصوره ، لأنه أبقى لهذا الفتح أثراً خالداً في لغة البلد ودينه وفنونه ، فصنع ما لم يصنعه فاتح قديم ، وقلّ أن يصنعه فاتح حديث .

فلم يغفل عن حدود البلاد بعد أن سلّمت الإسكندرية وتتابع تسليم العواصم الأخرى ، ولا سيما الحدود التي يجيء الخطر منها وهي حدود الغرب والجنوب .

ولعله علم من مصر –إن لم يعلم قبل ذلك – أن نقتاس القائد الروماني ، أغار على البلاد من غربيها فأخضعها ، وأن هرقل قد حدثته نفسه مرة بالرجعة إلى المغرب ليحكمه ، فراراً من فتن القسطنطينية ودسائسها ، وقد يفعل ذلك خلف من بعده فيصبح المغرب مَنفذاً لغارة رومانية قد يخشى خطرها على « الفتح الجديد » وهو في أوائل سنواته .

فتوجه في فتح المغرب حتى وقف عند تونس بأمر الخليفة . وعلم أن أهل مصر يخافون من مساكنة النوبة إياهم في بلادهم . ويسألون حاكمهم أن يقصيهم عنها ولا يأذن لهم بطول المقام فيها ، فوعدهم ألا يأذن لهم بهذا المقام ، وسير الكتائب إلى مصر الجنوبية يذود عنها النوبة ويحرس ما دخل في حوزته من أرضها .

وقد أنصف الخليفة عمراً وأحسن جزاءه بتوليته على مصر بعد فتحها وتنظيم شئونها ، على أثر الحروب التي أفسدت فيها كل صالح ، وبدلت فيها كل نظام ، فحرص عمرو جهده على مرضاة الخليفة واستبقاء رأيه فيه ، وكان من الولاة القليلين الذين طال عهدهم بالولاية في خلافة الفاروق .

قيل إن الفاروق استوصف عمراً مصر ، فكتب إليه يقول :

« إن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر ميمون الغدوات ، مبارك الروحات ، يجري بالزيادة والنقصان ، كجري الشمس والقمر ، له أوان ، تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا عجَّ عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، لم يكن وصول بعض القرى إلى بعض إلا في خفاف القوارب ، وصغار المراكب ، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبه ، كأول ما بدأ في شدته ، وطما في حدّته ، فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه : يبذرون الحب ، ويرجون الثمار من الرب ، حتى إذا أشرق وأشرف ، سقاه من فوقه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فعند ذلك يدرّ حلابه ، ويغنّي ذبابه . فبينما هي يا أمير المؤمنين ورقة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، وإذا هي زبرجدة خضراء ، فتعالى الله الفعال لما يشاء . والذي يصلح هذه البلاد وينميها ألاّ يقبل قول خسيسها في رئيسها ، وألا يُستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها . فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق في المبتدأ والمآل »

فإن لم يكن هذا الكلام من نص كلامه ، فهو من صميم رأيه وعيانه لا مراء . والذي لا خلاف فيه أن الفاروق تلقى منه وصفاً لمصر يشبه هذا الوصف ، ودليلاً على الدراية بها يشبه هذا الدليل ، وأن عمراً أخلق الناس أن يحذر في عهد الفاروق « سعي الحسيس بالرئيس » ، وهو الذي يعلم أنه مستهدف لمثل هذا السعي ، وأنه ملاقٍ به شيئاً من القلق الدائم في ساحة الفاروق ، وهو العظامي الذي كان يتعصب للنسب تعصبَ المأخوذ بالريب ، ويتقي كلمة السفلة فيقول : « إن ذهاب ألف من العلية أهون ضرراً من ارتفاع واحد من السفلة » !

وربما كان من الإغراق في الرجاء أن يطمع والٍ من الولاة في الإفلات من حساب الفاروق ، بالغاً ما بلغ نصيبه من الحرص والإحسان . وإن أحق الناس أن يعلم ذلك لهو عمرو بن العاص ، الذي يعلم حساب الفاروق للولاة ، ويسمع بمراجعته للمحسن منهم والمسيء ، فما نحسبه ترقى بطمعه في هوادة « ابن حَنْتَمَة » — كما كان يسميه بلسان الغيظ والإعجاب — إلى أبعد من البقاء في الولاية ، مع الأهبة الدائمة للجواب عن كل جليلة ودقيقة من أعماله التي تنمى إلى دار الخلافة . وقد ظفر بما أراد ، وظل فخوراً بهذا الظفر بقية حياته ، ويقول لمن لا يعجبه حكمه : إن الفاروق قد مات وهو عنه راض ! وحمد الله أنه لم يحاسب في عهده بأكثر مما حوسب عليه . ومن أمثاته — فيما نقلته كتب السير — حسابه على مال الخراج ، وحسابه على غلطة طائشة لابنه محمد ، وحسابه على إعفاء عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب من بعض القصاص في حد الشراب !

كتب إليه الفاروق في أمر الخراج يعجب من قلته ومن « أن مصر لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك ، على غير قحط ولا جدب ! » فرد عليه عمرو في لهجة شديدة وأنفة يعلم موقعها من نفس عمر ، الذي لا يبالي أن يخاطبه الكبار والصغار مخاطبة الأنداد ما حفظوا مع ذلك حق الله وحق المسلمين . وجدد عمر الكتابة إليه يؤنبه على إبطائه مع كثرة الكتب

إليه ، ويقول له : « إني لست أرضى منك إلا بالحق البين ، ولم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك، ولكني وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك » !

وطالت المكاتبة بين الخليفة وواليه ، وتسايرت الأنباء بفاشية من المتاع والرقيق والآنية والحيوان فشت لعمرو في مصر لم تكن له قبل ولايتها ، فعمد الخليفة إلى حزمه المعروف ، وأنفذ إلى عمرو أمينه على العمال محمد بن مَسْلَمة يعلنه أنه قد ساء به ظناً ، وأنه مقاسمه ما عنده من المال . وجعل له مائتي دينار جزاء عمله غير العطاء الذي ربط له أسوة بالمجاهدين من المسلمين .

أما حساب الخليفة له على غلطة ابنه محمد، فخلاصته أن عمراً أجرى الخيل ، فأقبلت فرس رجل من المصريين ، فحسبها محمد بن عمرو فرسه وصاح : فرسي ورب الكعبة ! ثم اقتربت وعرفها صاحبها ، فغضب محمد ، ووثب على المصري يضربه بالسوط ويقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين ! وبلغ ذلك أباه ، فخشي أن يشكوهما المصري . فحبسه زمناً حتى أفلت وقدم إلى الخليفة يرفع إليه مظلمته .. فاستقدم الخليفة عمراً وابنه ، وقال للمصري : دونك الدِّرَّة فاضرب بها ابن الأكرمين ! ثم قال له : أجِلْها على صلعة عمرو فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه . ففزع عمرو ، واعتذر المصري قائلاً : قد ضربت من ضربني ! والتفت الخليفة إلى المصري يقول له : « أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه » ثم إلى عمرو ابن العاص يقول تلك الكلمة التي تعد من جلائل الأعمال ، ولا تحصى في جلائل الأقوال وكفى : « أيا عمرو ! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ! ؟

ولقد حاسبه على إعفاء ابنه –أي ابن الخليفة– كما حاسبه على إعفاء ابنه هو من الجزاء الذي استحقه بالعدوان على بعض رعاياه . فقد ذهب عبد

الرحمن بن عمر بن الخطاب إلى عمرو يبلغه أنه شرب مسكراً ويطلب إليه أن يقيم الحد عليه . فتغاضى قليلاً ، ثم أذن بحده . على أن يعفى من حلق رأسه على مشهد من العامة ، فجاءه التأنيب من الخليفة مع البريد يقول فيه : « عجيب لك يا ابن العاص ولجرأتك عليّ وخلاف عهدي .. فما أراني إلا عازلك فمسيء عزلك . تضرب عبدالله في بيتك وتحلق رأسه في بيتك ، وقد عرفت أن هذا يخالفني ! إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك ، تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين » .

وإن والياً ينجو من الفاروق بهذا القسط من الحساب على هذه المسائل وأشباهها لمجدود بين الولاة !

قضى عمرو نحو خمس سنوات والياً لمصر في خلافة عمر بن الخطاب يتولى له إدارتها وخراجها والدفاع عنها ، ويساعده عبد الله بن سعد بن أبي سرح في ولاية الصعيد ودفاع النوبة .

وقُبض عمر ، فقام بالخلافة بعده عثمان بن عفان ، فشخص عمرو إلى المدينة يبايعه ويعرض عليه شئون ولايته ويتلقى أوامره فيها . وكان أكبر همه أن يسأل الخليفة الجديد عزل عبد الله بن سعد من ولاية الصعيد ، لأنه منافس قوي جسور لا يطيقه رئيس مثله في القوة والجسارة ! فعز عليه المطلب ، واقترح عليه الخليفة أن يتولى شئون الحرب ويترك لعبد الله شئون الخراج ، فأبى ، ونفرت نفسه من هذه المشاركة ، وقال : « إني إذن كمن يأخذ البقرة بقرنيها ليحلبها غيره » وتعذر التوفيق بين المتنافسين ، فانتهى الخلاف بإقالة عمرو وإقامة عبد الله على ولاية مصر ، حربها وخراجها ، وكان ذلك حوالي سنة سبع وعشرين للهجرة .

والظاهر أن ولاية عمرو في مصر كانت على خطر منذ مبايعة عثمان ، لأن رأي عثمان في طمع عمرو وسوء الظن به قديم ، ولأن عبد الله بن سعد كان أخاً لعثمان في الرضاع ، وهو كفؤ ضليع بالرئاسة حرباً وإدارة ، وليس

من دأب عثمان أن يعزل أقرباءه وإن لم يكن لهم من الكفاية والضلاعة ما كان لعبد الله .

ومما لا ريب فيه أن حاشية عثمان كانت تنفس على عمرو مكانه ، وتخشى منه الخطر الأكبر إذا رسخت في الديار المصرية قدمه، وظل فيها قائماً بالأمر إلى أن يمعن الخليفة في الهرم ويؤذن عهده بانقضاء. فليس ببعيد إذن أن يستقلّ عمرو بإمارة الديار، أو يطمح إلى الخلافة، وليس ببعيد كذلك أن يشترك في التحذير منه أناس كمروان بن الحكم ومعاوية بن أبي سفيان . ولو لم يكن لهؤلاء المقربين شأن في الكيد لعمرو لكانت محاسبة عمرو على طريقة الفاروق أجدى وأقرب إلى الطمأنينة على الخراج . ولكن مقاسمة الولاة في أموالهم بعد حين وحين ، شيء يأباه ولاة الدولة الجديدة . فأيسر من مقاسمة عمرو في الخراج أن ينحى عن الولاية برمتها .. وقد كان .

ولعلهم لم يؤجلوا عزل عمرو إلى حوالي سنة سبع وعشرين ، إلا انتظاراً لمصير الفتنة التي نشبت في الإسكندرية ، إذ انتقض الروم ، وجاء المدد بحراً بقيادة منويل الخصي من القسطنطينية ، فأهاب أقطاب مصر بالخليفة أن يبقي عمراً على الولاية لدرايته بالقوم وهيبته في نفوس الأعداء . ثم تبين من كفاية عبد الله بن سعد في كفاح الروم بأفريقية ما عزز مقامه وأبطل تلك الحجة ، فصحت له الولاية ، ورشحه للقيام على الخراج وفرة المال الذي جمعه من الديار الأفريقية المفتوحة .

أما أثر العزل في نفس عمرو ، فلا يصعب إدراكه ، ولا حاجة به إلى الأخبار والأسانيد ، فليس عمرو بالذي يحتمل هذا العزل أو يستكين إليه ! وليس هو بالرجل الذي يثور في غير موضع للثورة ، أو يأخذ في انتقام لا يثق بإنفاذه وسلامة عقباه عليه ! فقصاراه أن يتربص الدوائر بالعهد كله ، وأن يترقب يومه الذي يعلم أنه آت لا ريب فيه ! وقد ترقب ، واختار لنفسه مرصد الرقبة فأصاب اختياره . ترقب في بيته بفلسطين ، حيث تفترق

السبل بين الحجاز ومصر والشام والعراق ، وحيث يحرض من يحرض من عابري تلك السبل وهو آمن جهد ما يتاح له الأمان . وربما رحل بين الحين والحين إلى مكة أو المدينة يستطلع ويستوثق ويدفع الحوادث إلى الطريق الذي يرتجيه ، ثم يقفل إلى مينائه الأمين كالربان الذي يختبىء بسفينته والرياح عاصفة والأمواج زاخرة جارفة ، ريثما تنجلي الغاشية عن مهب الريح أين يتجه على استقرار ، فيوليه شراعه ويستدير إليه .

ووشى به الوشاة إلى الخليفة ، فاستدعاه ، وأغلظ في شتمه ، وراح يؤنبه ويقول له بأحدّ لسان وأشده : « يا ابن النابغة .. أتطعن عليّ وتأتيني بوجه وتذهب عني بوجه آخر ؟ » فتنصل عمرو وقال : « إن كثيراً مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل ، فاتق الله يا أمير المؤمنين » فعاد الخليفة يقول : « استعملتك على ظلعك و كثرة القالة فيك » . فثار عمرو إلى فخره القديم : « لقد كنت عاملاً لعمر بن الخطاب ، ففارقني وهو عني راض » . قال عثمان : « لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت ، ولكني لنت عليك فاجترأت » .

ومع هذا كان عثمان يبعث إليه فيستشيره كلما أعيته الحيلة وغلبته الحيرة في حكومته ! فكان ينصحه بما يعلم أنه لا يضيره ولا ينفع الخليفة . يقول له : « ... أرى أن تلزم طريقة صاحبك — أي الفاروق — فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين . وإن الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شراً ، واللين لمن لا يخلص بالنصح ، وقد فرشتهما جميعها باللين » !

وإن عمرو بن العاص لأول من يعلم أن طريقة عمر لا يصلح لها غير عمر ، وأنه مكلّف عثمان شططاً حين يركبه متن هذا الطريق ، وهو الذي قال له عثمان يوماً : « لقد أمرت عبد الله بن سعد أن يتبع أثرك » فقال : « لقد كلفته شططاً » !!

وتدرج في الجرأة على عثمان ، كلما تدرجت الفتنة في التفاقم والاستفحال :

ففي مجلس الشورى الذي جمعه عثمان سأله : ما رأيك ؟ فلم يبال أن يجيبه أمام صحبه: « إنك قد ركبت الناس بمثل بني أمية، فقلتِ وقالوا، وزغت وزاغوا ، فاعتدل أو اعتزل ، فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدماً » .. ولكنه اجترأ هنا وأبقى للحيطة بقية ، فانتظر حتى تفرق المجلس ، وخلا بالخليفة فأقبل يعتذر إليه بينه وبينه : « لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم علَيّ من ذلك ، ولكني قد علمت أن بالباب قوماً قد علموا أنك جمعتنا لنشير عليك ، فأحببت أن يبلغهم قولي فأقود لك خيراً وأدفع عنك شراً » !

كان يقول هذا وأشباهه ، وفي دولة عثمان أمل يضعف يوماً بعد يوم ، فلما أوشك هذا الأمل أن ينفد صاح به في المسجد : « اتق الله يا عثمان ! فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك . فتب إلى الله نتب » !

ثم ترك الفتنة وأوى إلى مينائه بفلسطين ، يتلقى الركبان ويسأل منهم كل عابر ينفعه سؤاله . فمر به راكب من المدينة فاستخبره خبر عثمان فقال : محصور ! .. ثم أعقبه راكب آخر فقال : قتل عثمان . فيروي رواة الخبر أنه صاح يومئذ : « أنا أبو عبد الله ، إذا نكأت قرحة أدميتها » .. ثم قال : « والله إني كنت ألقى الراعي فأحرضه على عثمان » !

* * *

وبويع عليّ بن أبي طالب بالخلافة فلم ينصره ، ولم ينصر أحداً من خصومه ، ولبث يترقب وينتظر ، حتى انحسر الميدان عن خصمين اثنين هما عليّ ومعاوية بن أبي سفيان ، بعد أن زال عنه طلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوام، فوجب أن يختار له طريقاً من الطريقين ، لأنه لو آثر الاعتزال لم يتركه الفريقان في عزلته ، ولم يزل به أحدهما حتى يستدنيه إليه .

شاور معاوية أصحابه ، فأشار عليه عتبة بن أبي سفيان أن يستعين على أمره بعمرو ، وأن يثمن له بدينه . قال : « فإنه من قد عرفت . وقد اعتزل أمر عثمان في حياته ، وهو لأمرك أشد اعتزالاً إلا أن يرى فرصة » . فكتب

له معاوية بفلسطين : « أما بعد ، فإنه كان من أمر عليّ وطلحة والزبير ما قد بلغك . وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة ، وقدم إلينا جرير بن عبدالله في بيعة عليّ ، وحبست نفسي عليك حتى تأتيني . أقبل أذاكرك أموراً لا تعدم صلاح مغبتها إن شاء الله » ..

فاستشار عمرو ولديه عبد الله ومحمداً فيما يصنع ، فقال عبد الله : « قتل عثمان وأنت عنه غائب ، فقرّ في منزلك ، فلست مجعولاً خليفة ، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة أوشك أن تهلك فنشقى فيها » وقال محمد : « إنك شيخ قريش وصاحب أمرها : وإن تصرم هذا الأمر وأنت فيه خامل تصاغر أمرك . فالحق بجماعة أهل الشام فكن يداً من أيديهم .. »

قال عمرو : « أما أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني ، وأما أنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي ، وأنا ناظر فيه » .

وروي أنه قلب رأيه في الأمرين فقال: « إني إن أتيت علياً قال إنما أنت رجل من المسلمين ، وإن أتيت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني في أمره » .

ولكنه ظل يتردد إلى ساعة السفر بعدما عنّ له أن ينضوي إلى جانب الشام ، فدعا غلامه وردان فقال : ارحل يا وردان ! ثم صاح به : حط يا وردان . فقال له وردان ، وكان كما وصفوه داهياً مارداً : « خلطت أبا عبد الله ! أما أنك إن شئت أنبأتك بما في نفسك » قال : « هات ويحك ! » قال : « اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك ، فقلت : عليّ معه الآخرة في غير دنيا ، وفي الآخرة عوض من الدنيا . ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة وليس في الدنيا عوض من الآخرة . فأنت واقف بينهما » .. قال : « والله ما أخطأت ، فما ترى يا وردان ؟ » قال : « أرى أن تقيم في بيتك ، فإن ظهر أهل الدين عشت عند دينهم وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك » ..فتأمل في قول غلامه ملياً . ولكنه لم يقبل القرار في بيته بعد دعوته ، وعوّل على المسير فسار .

* * *

ومن ثم قصد إلى معاوية بالشام .

ولم تكن بين الرجلين من قبل مودة ولا صحبة ولا مشاركة في منفعة ، بل ربما كانا إلى التنافس والتنافر أقرب منهما إلى المودة والصحبة .

حدث أبو حاتم « أن معاوية قدم من الشام ، وعمرو بن العاص من مصر ، على عمر بن الخطاب ، فأقعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالها . إلى أن اعترض عمرو في حديث معاوية ، فقال له معاوية : أعملي تعيب وإليّ تقصد ؟ هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملي وأخبره عن عملك . قال عمرو : فعلمت أنه بعملي أبصر مني بعمله ، وأن عمرلا يدع أول هذا الحديث حتى يصير إلى آخره ! فأردت أن أفعل شيئاً أشغل به عمر عن ذلك ، فرفعت يدي فلطمت معاوية ! فقال عمر : تالله ما رأيت رجلاً أسفه منك . قم يا معاوية فاقتص منه . قال معاوية : إن أبي أمرني ألا أقضي أمراً دونه ، فأرسل عمر إلى أبي سفيان ، فلما أتاه ألقى له وسادة ، وذكر حديث رسول الله : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه . ثم قصّ عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية . فقال : لهذا بعثت إليّ ؟ أخوه وابن عمه ! وقد أتى غير كبير ، وقد وهبت ذلك له ! »

وأقل ما في هذه الرواية ومثيلاتها أن المنافسة بين الرجلين كانت ملحوظة لا غرابة فيها ، وهي في موقعهما من ولاية الشام وولاية مصر أشبه شيء أن يكون .

ويؤخذ من حديث روي عن عبادة بن الصامت أن الاجتماع بين معاوية وعمرو كان من نوادر الأشياء ، وأن اجتماعهما كان في رأي الأخيار من علامات الأخطار . فلما قدم عبادة بن الصامت عليهما وهما بالشام ، جلس بينهما ثم سألهما : أتدريان لم جلست بينكما في مكانكما ؟ قالا : نعم ، لفضلك وسابقتك وشرفك ، قال : لا والله . ما جلست بينكما لذلك ، وما كنت لأجلس بينكما في مكانكما ، ولكن بينا نحن نسير مع رسول الله صلى

الله عليه وسلم إذ نظر إليكما تسيران وأنتما تتحدثان ، فالتفت إلينا فقال : « إذا رأيتموهما اجتمعا ففرقوا بينهما ، فإنهما لا يجتمعان على خير أبداً » ! !

وفي صحة هذا الحديث نظر ، ولكنها أخبار تدل على مبلغ الصلة بين معاوية وعمرو ، وأنها لم تكن من الوثاقة والقرب بحيث تمنع مثل هذا المقال .

فمعاوية لم يستقدم عمراً لصداقة وصحبة قديمة . !

وعمرو لم يقدم على معاوية لشيء من ذاك . !

ولكنهما رجلان طموحان أريبان ، مثلهما لا يعادي إذا كان له في الصداقة نفع ، ولا يصادق إذا لم يكن له في الصداقة أرب ، وإن أقرب الناس عندهما لوشيك أن يقصى إذا أقصته المنفعة ، وإن أقصاهم لوشيك أن يستدنى إذا كان في بعده ضرر ! !

فهما ملتقيان على تفاهم صريح بلسان المقال ، أو صريح بلسان الحال . وقد عرفا ولا جدال على أي وجه يتفاهمان منذ كتب هذا وأجابه ذلك .

زعموا أن المساومة جرت بين الرجلين أول ما التقيا ، فسأل معاوية عمراً أن يتبعه ، فأقبل عمرو يسأله : لماذا ؟ للآخرة ؟ فوالله ما معك آخرة ! إنما هي الدنيا نتكالب عليها ، فلا كانت حتى أكون شريكك فيها. وأخذ معاوية يذكر ممالأة عليّ على قتل عثمان ، وأنه أظهر الفتنة وفرّق الجماعة ، فقال عمرو : إنه وإن كان كذلك فإن المسلمين لا يعدلون به أحداً ، وليست لك مثل سابقته وقرابته . ثم عاد يساوم مرة أخرى ، فسأل معاوية : ولكن مالي إن شايعتك ؟ قال معاوية : حكمك . قال عمرو : اجعل لي مصر طعمة ما دامت لك ولاية . فتلكأ معاوية ولم يجبه . وحذر عتبة بن أبي سفيان العاقبة ، فحذّرها معاوية وقال له لائماً : أما ترضى أن تشتري عمر بمصر ؟ إن صفت لك فليتك لا تغلب على الشام .

فرضي بالصفقة ، واتفقا عليها .

وليقل الناقدون التاريخيون ما بدا لهم أن يقولوا في صدق هذا الحوار ، وصحة هذه الكلمات ، وما ثبت نقله وما لم يثبت منه سنده ولا نصه ، فالذي لا ريب فيه ، ولو اجتمعت التواريخ قاطبة على نقضه ، أن الاتفاق بين الرجلين كان اتفاق مساومة ومعاونة على الملك والولاية ، وأن المساومة بينهما كانت على النصيب الذي آل إلى كل منهما ، ولولاه لما كان بينهما اتفاق .

فكان معاوية يطمح إلى الخلافة يتولاها ويورثها أعقابه من بعده .

وكان عمرو يطمح إلى ولاية مصر جامعة ، وهي عنده تعدل الخلافة ما لم يكن إلى الخلافة سبيل ، ويرجو أن يضم إليها الشام وأن يترك ولايته ميراثاً من بعده لولده عبد الله .

ومثل هذا الاتفاق أقوى اتفاق ، ولكنه قد ينقلب في حالة من حالاته فإذا هو أضعف اتفاق وأقربه إلى النقض والانتقاض .

فمن سر القوة فيه أن يعمل الرجل لصاحبه كأنه يعمل لنفسه ، ما دامت وسيلته من وسيلته ، وما دامت لهما غاية واحدة يتلاقيان عندها !

ومن سر الضعف فيه أن الشريك هنا هو أعدى الأعداء وأولى المنافسين بالتخلص منه إذا أمكن وجه الخلاص !

وقد أعانت على هذا الاتفاق أمور كثيرة أهمها أمران : وهما أن عمراً لم يكن على أمل في ناحية أخرى ، فإذا فسد الأمر على معاوية فسد الأمر عليه . وأن معاوية كان يعلم أنه يساوم شيخاً يدلف إلى الثمانين ويوشك أن يودع دنياه ، فما ربحه منه فهو دائم له ، وما خسره في مرضاته صائر إليه .

على أن عمراً من جانبه كان رجلاً ممتلئاً بالحياة في شيخوخته ، جريء المطامع ما بقي في الدنيا مطمع يتخايل بين عينيه ، فلم يكن ييأس من الخلافة نفسها ، ولم يستبعد قط أن تسنح له سانحة من طوارىء القدر يغلب فيها

معاوية على عرش الدولة التي شاركه في تأسيسها ، فربما أخاص معه العمل في هزيمة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولكنه لم يخلص معه العمل في تمكينه كل التمكن حتى يستغني عنه ويتغير له ، ويثبت في الخلافة ثبوتاً لا مطمع بعده لطامع .

فقد كان بعض نصائحه لمعاوية سديد المرمى قبل هزيمة علي رضي الله عنه، ولكنه كان متهماً في كل نصيحة أدلى بها إلى معاوية بعد تلك الهزيمة ، وكان ظاهراً من نصائحه في جملتها أنه أراد أن يثير عليه العداوات وأن يوغر عليه صدور الصحابة ويتركه مشغولاً بخوف الفتنة أو واقعاً في أوهاقها ، وهو إذن أقرب قريب من الخلافة متى زال معاوية عنها ، ولا سيما إذا طال عهده بولاية مصر وجمع في يديه الأموال ومن حوله الأنصار والطامعين في النوال .

فمن نصائحه التي لا يندفع مثله فيها لدافع العنجهية الجاهلية وحدها ، أنه حضر مجلس معاوية وحاجبه يستأذن لوفود الأنصار . فقال : ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ اردُد القوم إلى أنسابهم ! ثم قال للحاجب : اخرج فقل من كان ههنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل ، فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الأنصار . فنظر معاوية إلى عمرو نظرة منكرة وقال له : باعدت جدّاً ؟ فقال : أخرج فقل من كان ههنا من الأوس والخزرج فليدخل ، فخرج فقالها ، فدخلوا يَقْدُمُهم النّعمان بن بَشير الأنصاري وهو يقول :

يا سعدُ لا تُجبِ الدعاءَ فما لنا ... نَسَبٌ نُجيبُ به سوى الأنصارِ
إن الذين ثَوَوْا ببدْرٍ منكمُ ... يومَ القليبِ همُ وقودُ النارِ

فجعل معاوية يقول : لقد كنا أغنياء عن هذا .

وأشار على معاوية بقتل أسرى صفّين من جماعة عليّ ، وقد أطلق عليّ أسراه من جماعة معاوية . وهي مشورة لا تنفع معاوية بشيء ، وتجلب

عليه العار لا محالة ، وتنصبه غرضاً لكل مطالب بترة ، في أمة لا تُنسى بينها الترات !

وعلى ما في طبع عمرو من الحيلة ، والجنوح إلى المصالحة واستلال الأضغان ، لم يكن يصدر عن هذا الطبع في مشورته على صاحبه بعد وقعة صفين . فلما شاوره معاوية في أمر عبد الله بن هاشم ، أشار عليه بقتله ، وغضب حين خالفه معاوية ، فقال بعد ذلك من أبيات :

أليس أبوه يا معاويةُ الذي أعان علياً يومَ حزّ الغلاصمِ ؟

وأشار كذلك بقتال قيس بن سعد في جيشه الذي كان معه من بقايا حزب عليّ ، بعد نزول ابنه الحسن عن الخلافة ، وكان قيس رجلاً صعب المراس ، مِقداماً على الخطر ، لا يؤمَّن قتاله ، والدولة الأموية في أوائلها بين الشك واليقين . فأعرض معاوية عن مشورته ، وبذل الأمان لقيس ومن معه ، وأرضاهم بالمصانعة والعطاء .

ولم يكن معاوية يسلك معه غير هذا المسلك ، أو يضمر له غير هذا الضمير . فكان يحتفي به ، ويجلسه معه على سريره ، ويظهر له الركون إلى رأيه والمشاركة في أمره ، ثم يقبل منه ما يقبل ، ويمضي على نيته التي انتواها . وقد همّ أن يُخالف له موعده من ولاية مصر ، لولا أنه توقع الشر منه ، وعلم أنها ولاية عام أو أعوام قلائل ، ثم تصير إليه يعطيها من يشاء . وقد مات عمرو بعد أعوام ، فضم معاوية خزائن أمواله إلى بيت المال ، وخالف رجاءه في تولية ابنه عبدالله مكانه ، وأسند الولاية إلى أخيه لابيه : عتبة بن أبي سفيان .

وربما ثقل عليهما وِقْر الرياء ، فتصارحا بما في الطوايا صراحة هي أشبه بالصراع الذي يجمع فيه الندّان بين اللعب والخصومة . سأله معاوية وهو في حالة من حالات النقمة والطمع : ما أعجب الأشياء؟ فقال : أعجب الأشياء غلبة المبطل ذا الحقّ على حقه ، فما أبطأ معاوية أن ردها عليه قائلاً : بل أعجب من

هذا أن تعطي من لا حق له بحق ، من غير غلبة !

وربما داعب معاوية في أمر آخرته ودنياه مداعبة الرجل الذي يعلم أن المداعبة هنا مقبولة ، لأنهما في الحظ سواء . قال له يوماً : لقد رأيت البارحة في المنام كأن القيامة قد قامت ، ووضعت الموازين ، وأُحضِر الناس للحساب ، فنظرت إليك وأنت واقف قد ألْجمك العرق ، وبين يديك صحف كأمثال الجبال . فعاجله معاوية ساخراً : وهل رأيت في الميزان شيئاً من دنانير مصر !

ودخل على معاوية في مجلسه ، فضحك معاوية حين رآه . قال عمرو : « ما يُضحكك يا أمير المؤمنين ، أضحك الله سنّك ؟ » قال : « أضحك من حضور ذهنك عند إبدائك سوءتك يوم ابن أبي طالب. أما والله لقد وافقته منّاناً كريماً ، ولو شاء أن يقتلك لقتلك » . فلم يبرح عمرو أن أشركه معه في عاره ، وجعل يقول له ويمعن في وصف فزعه : « أما والله إني لعن يمينك حين دعاك إلى البراز ، فاْحولّت عيناك ، وربا سَحْرك – أي صدرك – وبدا منك ما أكره ذكره لك ، فمن نفسك فاضحك أو دع » .

فالرجلان كانا فيما بينهما على صراحة وتفاهم واحتراس .

وكانا يعلمان ما يريدان ، ويعلمان أنهما لا يتعاونان لأنهما على ثقة من إخلاص كل منهما لصاحبه وإيثاره لنفعه ، ولكنهما يتعاونان لأن التعاون أنفع لهما من التخاذل والشقاق ، ولن يتعاونا إذا تبدلت الحال وأصبح لهما أو لواحد منهما نفع في تخاذل أو شقاق !

وكانا يفهمان أن هزيمة عليّ هي سبيلهما معاً إلى ما يريدان .

فعملا متفقين ، ولعلهما عملا مخلصَين لتحقيق هذه الهزيمة . وكانت معونة عمرو لمعاوية في نضاله مع عليّ كبيرة الخطر ، محسوسة الأثر ، في مآزق كثيرة ، ومعضلات متوالية : أهمها حرب صفين ، ومؤتمر التحكيم ،

وانتزاع مصر من والي عليّ و أتباعه فيها ، وهم غير قليلين .

وكانت جهوده العظمى في حرب صفين جهود الداعية المحرّض ، لا جهود المقاتل المستبسل ، فكان يثير الحفائظ ، ويستدرج الأنصار بالأطماع ، ويمحو الوساوس والشكوك التي تثني عزائم القوم عن القتال ، ويشيع الفتاوى التي يقبلها من هو مستعد لقبولها ، ومنها — حين قتل عمار بن ياسر — أن أصحاب معاوية تلجلجوا فيما بينهم ، وساورهم الريب في حقهم ، لأن النبي عليه السلام كان يقول عن عمار : « تقتله الفئة الباغية » . فكان عمرو ابن العاص ، في أشيع الأقوال ، هو الذي حسم هذه الشكوك قبل استفحالها ، فقال : إنما قتله من أخرجه . فقبلها الأنصار المستعدون لقبول أشباه هذه التأويلات .

وكان على بغضه لعثمان أسبق الناس إلى التفجع لمقتله والتحريض باسمه ، فإذا هدأت ثورة النفوس قال لمعاوية : « حرّك لها حُوّارها [1] تحنّ » ... أي علق لهم قميص عثمان المخضوب بدمائه ، لأنهم إذا رأوه هاجت أحقادهم ، كما تدرّ الناقة إذا حركوا لها جلد حُوّارها !

وجاء كذلك في أشيع الأقوال أنه هو الذي أشار على معاوية برفع المصاحف على الرماح ، ودعوة أنصار عليّ إلى تحكيم كتاب الله . فلما عمل بهذه المشورة وقعت الفتنة في جيش علي ، بين قائل بالمضيّ في القتال ، وقائل بإجابة القوم إلى التحكيم ، وأوشك الفريقان أن يدعا جيش معاوية ويشتبكا بينهما في حرب ، أو يبطش جماعة منهم بالإمام عليّ نفسه ، إذا هو لم يأمر شيعته المقربين بالكف عن الحرب وإلقاء السلاح .

وإذا صح ما يُعزى إلى هذه المشورة من الأثر الجسيم في تمكين معاوية وخذلان علي ، فهي كلمة أنفع من جيش ، ومكيدة أمضى من قوة ، وهي

---

١ — الحوار ، بضم الحاء وقد تكسر ، ولد الناقة ساعة تضعه ، أو الى أن يفصل عن أمه .

خليقة أن تغنيه في حرب صفين عن جهود الشجاعة والاستبسال . إذ الواقع أنه لم يغن في تلك الحرب بجهد من جهود الشجاعة والاستبسال ، ولم يذكر أحد من حزبه أنه برز في ميدان قتال ، مع أن الحرب في تلك المعركة خاصة كانت حرب براز ونزال . أما خصومه فقد ذكروا له تلك الفعلة التي سارت بها الأمثال بعد ذلك ، وأصبح من الأقوال الشائعة عن كل من يرد المكروه بالمهانة أنه رده « كما ردها يوماً بسوْأته عمرو ! » .

ويظهر أن خصومه ومنافسيه كانوا يلحظون منه التقاعد عن مخاطر البراز ، فقال الحارث بن نصر الجُشَمِيّ من أبيات :

ليس عمرٌو بتارك ذُكْرَةَ الحرْبِ مدَى الدَّهرِ أو يُلاقِي عَلِيّا
واضِعَ السيفِ فوق منْكِبِه الأيْمَنِ لا يحسَبُ الفوَارِسَ شيّا
ليتَ عمراً يَلقَاهُ في حَمَسِ النَّقْعِ وقد صَارتِ السيوفُ عصِيّا

فزعموا أن عمراً تغيظ من قوله ، وأقسم : « لو علمت أني أموت ألف موتة لبارزت علياً في أول ما ألقاه » !

وكان علي رضي الله عنه كثيراً ما يتقدم بين الصفوف داعياً إلى المبارزة . فبدا له يوماً أن يدعوَ معاوية لمبارزته ، فأيهما غلب فالأمر له ، وتُحقن دماء الناس ، فنادى : يا معاوية ، فقال هذا لأصحابه : اسألوه ما شأنه ؟ قال : أحب أن يبرز لي فأكلمه كلمة واحدة . فبرز معاوية ومعه عمرو ، فلما قارباه لم يلتفت إلى عمرو وقال لمعاوية ، ويحك ! علام يقتتل الناس بيني وبينك ؟ ابرز إليّ ، فأينا قتل صاحبه فالأمر له ، فالتفت معاوية إلى عمرو فقال : ما ترى يا أبا عبدالله ؟ أبارزه ؟ فقال عمرو : لقد أنصفك الرجل ، واعلم أنك إن نكلت عنه لم تزل سُبة عليك وعلى عَقِبك ما بقي عربي . فقال معاوية : يا عمرو ! ليس مثلي يُخدع عن نفسه، والله ما بارز ابن أبي طالب رجلاً قط إلا سقى الأرض من دمه . ثم تلاحيا ، وعزم معاوية على عمرو ليخرجن إلى عليّ ، إن كان جاداً في نصحه ، ولم يكن مغرراً به

طمعاً في مآل أمره . فلما خرج للمبارزة مكرَهاً وشد عليه عليّ المرهوبة ، رمى عمرو بنفسه عن فرسه ، ورفع ثوبه ، وشغر برجله فبدت عورته ! فصرف عليّ وجهه عنه ، وقام معفّراً بالتراب هارباً على رجليه ، معتصماً بصفوفه .

وليس في هذه القصة من موجب للشك فيها إلا أن عمراً كان أشجع من ذلك في معارك كثيرة قبل هذه المعركة ، ولكنه شك ضعيف غير قاطع في إنكار القصة بحذافيرها ، لأن عمراً لم يبارز قط رجلاً في قوة عليّ وبأسه ، ولم يكن قد دلف إلى الثمانين وهو يحارب في المعارك الأخرى ، وأهم من ذلك أنه كان يحارب في تلك المعارك ، وله أمل في الشهادة ونعيم الجنة ، وإيمان بحقه وباطل خصمه ، ولكنه لا يحارب علياً وله أمل في الشهادة قاتلاً أو مقتولاً ، أو ثقة بالحق تعوضه من خسارة الدنيا ، وليس بالعجيب من طبيعة عمرو أن يلوذ بالحيطة ، غير حافل بمقال الناس إذا خاف على حياته ، وأيقن من ضياع دينه ودنياه .

ومهما يكن من مبلغ الصدق في هذه الرواية ، فالمتفق عليه بين ولاته وعداته أنه اشتهر في صفين بجهاد الحيلة والدعوة ، ولم يشتهر فيها بجهاد البسالة والبلاء .

*

أما جهوده في مسألة التحكيم [1] بين علي ومعاوية ، فقد أفادت معاوية بالمطاولة والمراوغة أضعاف فائدتها إياه بالنتيجة التي انتهى إليها قرار عمرو وقرار أبي موسى الأشعري ، لأن تطاول الأيام أعان على تفريق جيش عليّ وتبديد شمله ، وشيوع اللغط بين طوائفه وأصحاب المذاهب المغالية من المتمردين عليه ، ولا سيما الخوارج والقائلين بتحريم القتال ، وكل ما أعان على تفريق جيش عليّ فهو معين على تعزيز جيش معاوية ، وتقريب طلاب المغانم وتبّاع

١ ـ يشك بعض المؤرخين المحدثين في مسألة التحكيم ، ويذكرون لذلك أسبابا ليس فيها سبب واحد يعادل الروايات التي تؤيدها .

الفرص من دولته وسلطانه .

وقد اختار معاوية عمراً للتحكيم وهو لا يأمنه كل الأمان ، وربما كان اطمئنانه إلى أبي موسى الأشعري صاحب عليّ أكبرَ من اطمئنانه إلى صاحبه ووكيله ، لأن أبا موسى يجهر باجتناب القتال واعتزال الفريقين ، وكان اختياره على الكره من عليّ ، وعلى هوى الأشعث بن قيس ، الذي كان متهماً بالتخذيل عن علي ، وترويج كل رأي يرضاه معاوية ، ولا سيما بعد زيارة قيس لمعاوية في إبان معركة صفين .

والذي حدث في أوائل المفاوضات خليق أن يسوّغ قلق معاوية واستّرابته في نيات صاحبه ووكيله ، فإنه قال لأبي موسى : ما يمنعك من ابني عبدالله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته ؟ فقال أبو موسى : ان ابنك رجل صدق ، ولكنك غمسته في هذه الحروب غمساً .

وطالت المفاوضة ، فأوجس معاوية وعظم خوفه ، وجاء داهية العرب المغيرة بن شعبة فألفاه قلقاً يتسمع ويستطلع . فقال له : قد أتيتك بخبر الرجلين . قال معاوية : وما خبرهما ؟ قال المغيرة : إني خلوت بأبي موسى لأجلو ما عنده ، فسألته : ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس في بيته كراهية للدماء ! فقال : أولئك خيار الناس ، خفت ظهورهم من دماء إخوانهم ، وبطونُهم من أموالهم . فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص ، فقلت : يا أبا عبدالله ! ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟ فقال : أولئك شرار الناس ، لم يعرفوا حقاً ولم يُنكروا باطلاً .

ثم عقب المغيرة قائلاً : أنا أحسب أبا موسى خالعاً صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هواه في عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وأما عمرو ابن العاص فهو صاحبك الذي عرفته ، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو لابنه عبدالله ، ولا أراه يظن أنك أحق بهذا الأمر منه .

والذي نراه نحن كذلك أن عمراً لم يكن ليظن أن معاوية أحق بالخلافة

منه ، ولكنه كان أكيس من أن يطلب الخلافة له أو لابنه باتفاق رأيه ورأي أبي موسى الاشعري ، دون ما يستلزمه طلب الخلافة من الجند والدولة والعصبية . فماذا عساه أن يغنم بالاتفاق مع الاشعري على المبايعة لابنه عبدالله ؟ إنه يخسر عضد معاوية ، ولا يكسب أحداً من أنصار عليّ ، ولا يصل هو ولا ابنه عبدالله إلى مأرب . وإنما نعتقد أنه ذكر اسم عبدالله ليغرّر بأبي موسى ، ويلقي في رُوعه أنــه غير جادّ في خدمة معاوية ، وانه يعمل لنفسه ولأعقابه من بعده . وقد أصابت هذه الحيلة محزّها ، فصدّق أبو موسى أن عمراً يخلع معاوية ، وأنه إذا قام على المنبر ليخلع عليّاً ، قام عمرو من بعده فخلع معاوية ، وترك الأمر شورى ليظفر به ابنه فيما يرتجيه . فلما اتفقا على خلع الاثنين ، وأن يبدأ أبو موسى بخلع صاحبه ، قبِلَ هذا الاتفاق ولم يتردد في إنفاذه ، وهو يحسب أن خذلان عمرو لمعاوية غير بعيد ، ما دام يطمع فيها لنفسه من طريق الدعوة إلى ابنه .

وإن جهد عمرو في مسألة التحكيم لجهد يسير عليه ، ولكنه حقيق من معاوية بجزاء غير يسير .

ولقد تطلع عمرو لهذا الجزاء الذي طال اشتياقه إليه ، وهو ولاية مصر جامعة موروثة في عقبه ، فماطله معاوية زمناً ، واستكثر عليه هذه « الطعمة » التي اشتهاها ، وأسرّ في نفسه إذا هو رضخ له بشيء منها أن يرجع فيما أعطاه بذريعة من الذرائع التي لا تعييه . فكتب في وثيقة تصالحا عليها أن ولاية مصر لعمرو « على ألاّ ينقُض شرط طاعة » ، وهو يريد أن يتعلل له بالخروج عن طاعته فيبطل شرطه ، وفطن عمرو لما وراء هذا « القيد » المقحم في الوثيقة فأنكره ، وكتب : « على ألا تنقض طاعة شرطاً » .. يريد أن الطاعة لن تخوّل معاوية الرجعة فيما اتفقا عليه .

وكان معاوية يتهم عمراً بالعجلة كلما ذكر له مصر وأغراه بالزحف إليها . فجمع خاصته يوماً يسألهم : هل تدرون ما أدعوكم إليه ؟ قالوا :

لا يعلم الغيب إلا الله . فقال عمرو : « نعم . أهمّك أمر مصر وخراجها الكثير ، وعدد أهلها ، فتدعونا لنشير عليك . فاعزم وانهض .. في افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك » ، فقال له معاوية : يا ابن العاص ! إنما أهمّك الذي كان بيننا ، يعني طعمة مصر ، والتفت إلى صحبه يستشيرهم : ما ترون ؟ فوافقوا عمراً ، وعاد هذا يقول : « ابعث جيشاً كثيفاً ، عليهم رجل حازم صارم تثق به فيأتي إلى مصر ، فإنه سيأتيه من كان من أهلها على رأينا ، فيظاهره على من كان بها من أعدائنا » ، فخالفه معاوية وقال له : « إنك يا ابن العاص ، بورك لك في العجلة » !

إلا أنه لم يلبث أن تلقى من أنصاره بمصر كتاباً يستحثه إلى غزوها ، ويسأله « أن يعجل بخيله ورَجله ، فإن أعداءنا قد أصبحوا لنا هائبين » .

فعندئذ قبل نصيحة عمرو ، وأشخصه على رأس جيش عدته ستة آلاف رجل ، وخرج يودعه ولا يزال يحذره العجلة ، ويوصيه بالرفق « فإنه يُمن ، والعجلة من الشيطان » .

ولولا الكتاب من أنصاره بمصر لقد كان معاوية يؤثر أن يفتحها له أولئك الأنصار ، وأن يولي عليها زعيماً من زعمائهم ، وله الحجة الناهضة في ذلك ، إذ كان القائد المتغلب على البلد أولى بولايته من الطارق الواغل يقبل عليه لينازعه ثمرة جهاده .

على أن مصر لم تكن إلى ذلك الحين طعمة سائغة ، ولا طعمة عصيّة ، فقد كان فيها محمد بن أبي بكر لا يزال والياً عليها من قِبَل علي بن أبي طالب ، وكان قد ولاه حكمها بعد عزل قيس بن سعد ، أقدرِ رجاله وأخبرهم بشئون الولاية والسياسة ، فقال قيس وهو يسلمه مقاليد الأمر : « ليس عزله إياي بمانعي أن أنصح لك وله . وأنا من أمركم هذا على بصيرة ، وأنا أدلك على الذي كنت أكايد به معاوية وعمراً وجماعة العثمانية المقيمين بخربتا ، فكايدْهم به » ! .. إلا أن محمد بن أبي بكر لم يستمع له ، واستغشّه ،

وبطش بالعثمانية بطشة عنيفة ، فثاروا عليه ، وثار معهم من لم يكن على رأيهم وأبوْا أن يقيموا على حكمه ، فصالحهم آخر الأمر على أن يلحقوا بمعاوية في الشام ، فلحق به الغُلاة منهم ، وبقيت لهم بقية تنطوي على مضض وتترقب الفرصة ، وتزداد أملاً ، ويزداد الأنصار من حولها كلما تضاءل أمر علي وتعاظم ملك معاوية .

فلما أقبل عمرو على مصر أقبل عليها فاتحاً قبل أن ينالها والياً مكين الولاية ، وكان « عمرو الفاتح » يعمل لمعاوية كمن يعمل « لعمرو الوالي » إذا تم له الفتح كما اشتهاه .

* * *

وأوشك الفتح الثاني أن يكون نسخة مكررة من الفتح الأول: عمرو يستعجل غزو مصر ويتهم بالعجاة، ثم يدخل مصر وفيها حكومة وشعب لا يتفقان ، ثم يسلك الطريق الذي سلكه أول مرة ، ثم يلتقي بجيش محمد بن أبي بكر ، كما التقى بجيش الرومان من قبل في جيزة بلبيس ، على مسافة قريبة من الوقعة الأولى عند قرية تسمى المنشاة .

أما محمد بن أبي بكر فقد دافع عن مصر دفاع المستميت ، وصمد لأنصار معاوية المقيمين والقادمين صمود الأبطال ، ولكنه أخفق في دفاعه ، لأنه لم يلبث أن رأى جنوده يتفرقون عنه ، يأساً من الدولة المولّية، وأملاً في الدولة المقبلة ، ثم تعقبه أعداؤه حتى ظفروا به فمثّلوا به شر تمثيل !

ومن الانصاف لعمرو أن يُعلم انه كان بريء اليد في هذه المُثْلة الذميمة ، فقد كان عمرو يشير على معاوية بقتل الأسرى والنقمة من أصحاب عليّ ، حيث كان معاوية هو المسئول عن قتلهم والنقمة منهم . فلما تفرد بالتبعة في أمثال هذه المشورات أقصاها عنه جهدَه ، ووقف منها موقف من لا يدفع ولا يمنع . فكتب إلى محمد بن أبي بكر يقول له : « تنحّ عني بدمك يا ابن أبي بكر ، فإني لا أحب أن يصيبك مني ظفر » ثم وقع محمد في أسر

معاوية بن حُديج ، وهو من أسفه العثمانية عصبيةً لحزبه ، فأرسل إليه عمرو أن يأتيه به كرامةً لأبيه ولأخيه عبد الرحمن بن أبي بكر . وقد كان من عجائب التفرق بين الأحزاب أن محمداً يشايع علياً ، وعبد الرحمن يحاربه في جيش الشام !! فلم تنفع وساطة عمرو ، وأقسم معاوية بن حديج ليقتلنه شر قتلة . وجاء به ، فطلب ماء فقال ابن حديج : لا سقاني الله إن سقيتك قطرة ! إنكم منعتم عثمان الماء ، ثم قتلتموه صائماً ، فتلقاه الله بالرحيق المختوم . والله لأقتلنك يا ابن أبي بكر ، فليسقك الله من الجحيم !

ولم تفارق محمداً أنفته بين يدي آسريه ، فأغلظ الجواب لهم ، وتلفت قائلاً : والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم بي هذا ، فقتلوه ، و « ألقَوه في جيفة حمار ميت ، ثم حرقوه بالنار » !!

ونفض عمرو يده من هذه المُثْلات وأشباهها ، وجهد في تهدئة الزعازع بمصر ، وتمهيد الأمر فيها لنفسه ولأعقابه من بعده، وسرعان ما تمهد له بعد مقتل عليّ ونجاته هو من القتل في السابع عشر من رمضان (سنة أربعين للهجرة) .

وذلك أن ثلاثة من الخوارج تآمروا على قتل علي ومعاوية وعمرو في ليلة واحدة . فأما صاحب عليّ فقد أصابه ، وأما معاوية وعمرو فقد نجوا من صاحبيهما ، وقُتل خارجة بن حذافة صاحب الشرطة لأنه خرج للصلاة في مكان عمرو ، إذ كان هذا يشتكي بطنه في تلك الليلة . فقال عمرو : أردتني وأراد الله خارجة ! وأمر بقتله .

ولم يعرض له في ولايته الثانية حادث ذو بال بعد هذا الحادث.فقد هدأت مصر ، واجتمع الناس على مبايعة معاوية في سنة إحدى وأربعين للهجرة ، فسميت « عام الجماعة » ... وحكمت الشيخوخة حكمها ، فوهن جسمه ، وتتابع سقمه ، ودانت له الدنيا ، وهو يقول إذا سئل عن حاله : « إنه حال من يذوب ولا يثوب » !

وإنه على هذا لمجدود مسعود .

فمن آية الجَد أن ينتفع الإنسان بما يضير الناس ، وقد انتفع عمرو بوهنه مرتين : مرة حين نجا من الموت لاشتكاء بطنه ، ومرة حين سلمت له الولاية ببركة هذا الوهن الذي لا محيص عنه ، فلولاه لما طابت نفس معاوية له بولاية يملك فيها الأموال والرجال ، ولعله يعيش بعده فيغلب أعقابه على الخلافة ، وأهون شيء أن ينتزع ابن العاص ، في شبابه او كهولته ، خلافةً من يزيد .

على أن هذا الفؤاد المتوهج بنوازع الحياة ، لم يسأم العيش يوماً ، وقد جاوز الثمانين ، أو قارب المائة في قول آخرين ، فبكى وهو يجود بنفسه أسفاً على الحياة ، وقال لأبنائه : « إذا واريتموني فاقعدوا عند قبري قَدْرَ نحر جزور وتفصيلها [1] ، أستأنس بكم حتى أعلم ما أراجع به رسل ربي » .

ورحمه الله ... إنه لم يدع الأحوط من الأمرين حيث يدع الحي نفسه ، فكان يقول وهو على سرير الموت : « لو كان ينفعني أن أطلب لطلبت ، ولو كان ينجيني أن أهرب لهربت » . وربما نظر إلى أمواله فقال : « من يأخذها بأوزارها » ؟ وقبل ذلك بعام أو عامين كان يسأله معاوية عما بقي من لذّات العيش فيقول : « مال أغرسه ، وخبر من ضيعتي ! » .

وكانت وفاته ليلة عيد الفطر سنة ثلاث واربعين للهجرة ، فدفن بجوار المقطم عند ضريح الإمام الشافعي القائم الآن . وضم معاوية خزائنه إلى بيت المال ، وولايةَ مصر إلى أخيه عتبة بن أبي سفيان .

وكذلك انقضت حياة حافلة ، حياة عاملة ، وحياة طائلة ، وصح فيه ، على تباين الآراء والأقوال ، أنه رجل من عظماء الرجال . فمهما

---

١ ــ فصل القصاب الجزور تفصيلا : اذا عضاها وقطعها .

يختلف المختلفون في نيّاته وحسناته أو سيئاته ، فالذي لا خلاف فيه أنه كسب للإسلام قطرين كبيرين : هما فلسطين ومصر ، وأن له سهماً وافراً في كل ما نحسبه للدولة الأموية من العظائم والمآثر في تاريخ الأمة العربية والأمم الإسلامية .

* * *

من كلامه

من تمام القول في عمرو بن العاص ، بل من تمام العلم به ، أن نلمّ بطرف من كلامه الذي يدل عليه .

وقد نُسب إليه كلام كثير نسب إلى غيره ، وكان شأنه في هذا كشأن الجِلّة من النابهين في صدر الإسلام فيما ينقل عنهم ، فربما نسبت الكلمة الواحدة إلى ثلاثة أو اربعة من أبناء عصر واحد أو عصور متفرقة . بيد أننا نعتمد في نسبة الكلام إليه مشابهته لما أثر عن خلقه ونسق تفكيره ، ثم شيوع الرواية ومكان رواتها من الثقة والدراية .

فمما يشبهه في التعاظم بالنسب ، أو في الخصلة التي نسميها اليوم بالنزعة الأرستقراطية أنه قال لمعاوية : « يا أمير المؤمنين ! لا تكن بشيء في أمور رعيّتك أشد تعمداً منك لخصاصة الكريم حتى تعمل في سدّها ، ولطغيان اللئيم حتى تعمل في قمعه ، واستوحِش من الكريم الجائع ، ومن اللئيم الشبعان ، فإن الكريم يصول إذا جاع ، واللئيم يصول إذا شبع » .

وكان يؤمن بهذا الرأي كثيراً ، ولا يزال يعيده ، فقال في مناسبة أخرى : « موت ألف من العلية ، أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السّفلة » .

ويتصل بهذا المعنى ، وقد يكون فيه اعتذار من حربه لعليّ بن أبي طالب ، قوله لابنه عن الإمامة والحكومة : « يا بني ! إمام عادل خير من

مطر وابل ، وأسد خطوم خير من إمام ظلوم ، وإمام ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم . يا بني ! مزاحمة الأحمق خير من مصافحته . يا بني ! زلة الرّجل عظم يجبر ، وزلة اللسان لا تُبقي ولا تذر . يا بني ! استراح من لا عقل له » !

ومن وصفه للرجال : « الرجال ثلاثة ، فرجل تام ، ونصف رجل ، ولا شيء . فأما الرجل التام فالذي يكمل دينه وعقله ، فإذا أراد أمراً لم يمضه حتى يستشير أهل الرأي ، فإذا وافقوه حمد الله وأمضى رأيه ، فلا يزال مضيُّه موفّقاً . ونصف الرجل الذي يكمل الله له دينه وعقله ، فإذا أراد أمراً لم يستشر فيه أحداً ، وقال : أي الناس كنت أطيعه أو أترك رأيي لرأيه ؟ فيصيب ويخطىء . والذي لا شيء ، من لا دين ولا عقل له ، ولا يستشير في الأمر ، فلا يزال مخطئاً مدبراً ! ... ووالله إني لأستشير في الأمر حتى خدمي ... !! »

ووصف عبد الملك بن مروان ، فقال : « آخذٌ بثلاث ، تارك لثلاث : آخذ بقلوب الرجال إذا حَدَّث ، وبحسن الاستماع إذا حُدِّث ، وبأيسر الأمرين عليه إذا خولف . تارك للمِراء ، تاركٌ لمقاربة اللئيم ، تاركٌ لما يعتذر منه » .

ويتعاطى وصف الأمم على رأيه ، كما قال في أقوام زمانه : « أهل الشام أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم للخالق ، وأهل مصر أكيسهم صغاراً وأحمقهم كباراً ، وأهل الحجاز أسرع الناس إلى الفتنة ، وأعجزهم عنها ، وأهل العراق أطلبهم للعلم وأبعدهم منه » !

على أنه كان وصّافة لا يجارى في وصف المناظر الكبيرة بالكلمات القليلة . ومن أبرع صفاته للطبيعة والناس معاً قوله في البحر : « إنه خلق عظيم ، يركبه خلق صغير : دود على عود » !

وكان بليغ البادرة ، سريع الجواب ، سديداً في توفيق لفظه ومعناه

ولا عجب أن يكون كذلك ، وهو مع ذكائه المتوقد عرضة للمسبة ، مضطر إلى إفحام من يعتمدونه بالغضّ والإزراء !

قال له المنذر بن الجارود العبدي : أي رجل أنت لو لم تكن أمك من هي ! فسرعان ما ردها عليه قائلاً : « لقد فكرت فيها البارحة ، فجعلت أنقلها في قبائل العرب ، فما خطرت لي عبد قيس ببال » !

وقال له رجل : والله لأتفرغن لك . فقال : « هنالك وقعت في الشغل » ! قال الرجل : كأنك تهددني ؟ والله لئن قلت لي كلمة لأقولن لك عشراً ، قال : « وأنت والله لئن قلت لي عشراً لم أقل لك واحدة » !

وقال له سلام بن روح الخزاعي : كان بينكم وبين الفتنة باب فكسرتموه، فما حملكم على ذلك ؟ قال « اردنا أن نخرج الحق من حظيرة الباطل ، وأن يكون الناس في الحق سواء » .

ومن أشبه الأجوبة به وقد سئل : ما السرور ؟ فقال : « الغمرات ثم تنجلي .. » فهي كلمة رجل يقدم على المغامرة ، ويحسن جلاء الغمرات .
وشبيه به كذلك قوله : « ما وضعت عند أحد من الناس سرًّا فأفشاه فلمته » .. فسئل : ولِمَ ؟ قال : « أنا كنت به أضيق صدراً حين استودعته إياه » .

وشبيه به على هذا النحو قوله : « لا أملّ دابتي ما حملتني ، ولا زوجتي ما أحسنت عشرتي ، ولا جليسي ما لم يصرف وجهه عني » لأن الذي يصطنع الناس ، ويشتري الصداقات ، ويتجمل للرئاسة ، لا بد له من هذه الخصال .

*

وقد اشتهرت القبريات في آداب الأمم ، وشاعت الكلمات التي حفظت عن العظماء في ساعاتهم الأخيرة ، فلو جمعت كلمات المحتضرين ومن

يواجهون الموت ، لما كان في عظماء المسلمين أحفل من عمرو بن العاص نصيباً من هذا الأدب ، الذي يدل على حظ قائليه من الحياة ، وميزانهم في الحسنات والسيئات ، ومعظم المنقول عنه في هذا الصدد يوائمه أن يقوله ، ويشبه ما يستقبل به آخرته ويودع دنياه !

فكان في أخريات أيامه يدعو الله قائلاً : « اللهم آتيت عمراً مالاً ، فإن كان أحبَّ إليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبه بالنار ، فاسلبه ماله ! وإنك آتيت عمراً أولاداً ، فإن كان أحب إليك أن تُثكِلَ عمراً ولدَه ولا تعذبه بالنار ، فأثكله ولده ، وإنك آتيت عمراً سلطاناً ، فإن كان أحب إليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار ، فانزع منه سلطانه » .

ويرحمه الله ! لقد دخل الإسلام وهو يشترط أن يضمن له إسلامه سقوط العقاب على آثام ماضيه ، وهمّ بمفارقة الدنيا فلم يبال أن يخسر ماله أو ولده أو سلطانه إذا ضمن شيئاً واحداً في الآخرة : الا يُعذَّب بالنار !

وكان يقول لبنيه ، كأنه حسب نصيبه من جانبيه ، ورفع ميزانه بيديه : « إني لست في الشِّرك الذي لو مت عليه أدخلت النار ، ولا في الإسلام الذي لو مت عليه أدخلت الجنة ، فمهما قصرت فيه فإني متمسك بلا إله إلا الله » .

وكان يقول : « اللهم لا قوي فأنتصر ، ولا بريء فأعتذر ، ولا مستكبر بل مستغفر ، لا إله إلا أنت . لا إله إلا أنت» ، ولم يزل يرددها حتى مات .

وردد في سرير موته استغفاره الذي يقول فيه : « اللهم أمرت بأمور ، ونهيت عن أمور ، فتركنا كثيراً مما أمرت ، ووقعنا في كثير مما نهيت... اللهم لا إله إلا أنت ، اللهم لا إله إلا أنت » .

ودخل عليه ابن عباس في مرض موته ، فسأله : كيف أصبحت ؟ قال : « أصبحت وقد أصلحت من دنياي قليلاً ، وأفسدت كثيراً ، فلو

كان ما أصلحت هو ما أفسدت لفزت ، ولو كان ينفعني أن أطلب طلبت ، ولو كان ينجيني أن أهرب لهربت ، فعظني بموعظة أنتفع بها يا ابن أخي ! »
قال ابن عباس : هيهات يا أبا عبدالله .. فأجابه بكلمة يجري بها لسان من يحضرون السلطان ويردون الوقيعة عنده ، كأنه أراد أن يستجلب رحمة الله بكلمة ابن عباس ، فقال : « اللهم إن ابن عباس يقنطني من رحمتك . فخذ مني حتى ترضى ! » .

وليس بين العظماء في صدر الإسلام من استقبل الموت بكلام أجزل من هذا الكلام ، وأدل منه على شعور صاحبه في مفترق الدنيا والآخرة ؛ وجملة ما يدل عليه أنه كلام رجل ملأته الحياة ودوافعها القوية ، فلم يخطر الموت بباله حتى خطر له مرة واحدة ، وهو بين يديه لا منصرف عنه .

*

تلك أمثلة عابرة من كلماته المأثورة غير ما تقدمت الإشارة إليه في سياق ا الكتاب .

وقد رويت له آثار في الشعر والخطب الطوال ، تسلكه بين الشعراء والخطباء ، فنسب إليه من الشعر هذان البيتان :

معاويَ لا أعطيك ديني ولم أنلْ ... به منك دنيا فانظرَنْ كيف تصنعُ
فإن تعطني مصراً فأرْبِحْ بصفقةٍ ... أخذتَ بها شيخاً يضرّ وينفعُ

ونسبت إليه أبيات قالها لعمارة الذي راود امرأته ، بعد أن أوقع به في الحبشة :

إذا المرءُ لم يترك طعاماً يحبُّه ... ولم ينْهَ قلباً غاوياً حيثُ يمما
قضى وَطَراً منه وغادر سُبّةً ... إذا ذُكرت أمثالُها تملأ الفما
من الآن فانزعْ عن مطاعمَ جمةٍ ... وعالج أمورَ الموت لا تتندَما

ومن الشعر المنسوب إليه وصف فرسه في قوله :

شَبَّت الحربُ فأعددتُ لها   مُفْرَعَ الحاركِ محبوكَ الثبَجْ[1]
يصلُ الشدَّ بشدٍّ فإذا   ونتِ الخيلُ من الشد مَعَجْ[2]

وكل ما نسب إليه من شعر فهو من هذه الطبقة التي لا تسف ، ولا تعلو إلى الذروة بين بدائع الشعراء .

أما الخطب المطولة ففي النموذج التالي غنىً في الإبانة عن قدرته عليها ، وهو شطر من خطبة ألقاها يوم الجمعة قال فيها :

« يا معشر الناس ، إياي وِخلالاً أربعاً ، فإنها تدعو إلى النَّصَب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السَّعة ، وإلى الذل بعد العز : إياي وكثرة العيال ، وانخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ، في غير درك ولا نوال .. إنه لا بد من فراغ يؤول المرء إليه في توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وشهواتها ، فمن صار إلى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقلّ . ولا يضيع المرء في فراغه نصيب نفسه من العلم ، فيكون من الخير عاطلاً ، وعن حلال الله وحرمه عادلاً . يا معشر الناس : قد تدلت الجوزاء ، وارتفعت الشعرى ، وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقلّ الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السَّخائل ، وعلى الراعي حسن النظر . فحيَّ بكم على بركة الله إلى ريفكم ، فتنالوا من خيره ولبنه ، وخِرافه وصيده ، وأربعوا خيلكم ، وأسمنوها ، وصونوها ، وأكْرموها ، فإنها جُنتكم من عدوكم ، وبها تنالون مغانمكم وأنفالكم . واستوصوا بمن جاورتم من القبط خيراً . وإياكم والمشمومات المعسولات ، فإنهن يفسدن الدين ويقصّرن الهمم . حدثني أمير المؤمنين عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الله سيفتح عليكم مصراً ،

---

١ ـ مفرع الحارك : أي طويل الكاهل من أعلاه ، ومحبوك الثبج : أي متين الظهر .

٢ ـ الشد : العدو والحملة ، ومعج الفرس : أسرع سيره .

فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإن لهم فيكم صِهْراً وذمّة) . فكفوا أيديَكم وفروجكم ، وغُضّوا أبصاركم . فلا أعلمن ما أتاني رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه . واعلموا أنني معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة ، لكثرة الأعداء حولكم ، ولإشراف قلوبهم إليكم وإلى داركم ، معدن الزرع والمال ، والخير الواسع والبركة النامية . حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله يقول : (إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً ، فذلك الجند خير أجناد الأرض . فقال له أبو بكر : ولِمَ ذاك يا رسول الله ! قال : لأنهم وأزواجهم في رِباط إلى يوم القيامة) . فاحمدوا ربكم معشرَ الناس على ما أولاكم ، وأقيموا في ريفكم ما بدا لكم . فإذا يبس العود ، وسخُن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوّح البقل ، وانقطع الورد من الشجر ، فحيّ على فسطاطكم على بركة الله . ولا يَقدَمَنْ أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله ، على ما أطاق من سعته أو عسرته ، أقول قولي هذا وأستحفظ الله عليكم » .

وهذا نموذج نادر من الخطب المنبرية التي كان الخطيب فيها يتولى « وظيفة » الوالي والواعظ والوالد والزعيم ، وكان فيها مسحة من البرامج السياسية ، والخطط الإدارية ، ونفحة من الشعر ، وقبس من الدين والحكمة .

*

ومن لواحق هذا الباب أن يأتي ببعض الأحاديث التي رواها عمرو عن النبي عليه السلام ، لأن عقل الرجل ودينه قد يظهران مما يجري على لسانه من كلام غيره ، كما يظهران من كلامه .

قال رجل من بني بكر بن وائل : لئن لم تنته قريش ليضيعن هذا الأمر في جمهور من جماهير العرب سواهم . فقال عمرو بن العاص : كذبت ! سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قريش ولاة الناس في الخير والشر

إلى يوم القيامة » .

واختصم رجلان إلى النبي عليه السلام ، فقال لعمرو : اقض بينهما . فقال : أنت أولى بذلك مني يا رسول الله ! قال وإن كان . قال : فإذا قضيت بينهما فمالي ؟ قال : إن أنت قضيت بينهما فأصبت القضاء فلك عشر حسنات ، وإن أنت اجتهدت فأخطأت فلك حسنة » .

وقال عمرو : « احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد — وكان في غزوة ذات السلاسل — فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك . فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح ، فلما قدمنا على رسول الله ذكرت ذلك فقال : (يا عمرو ! صليت بأصحابك وأنت جُنُب؟) قلت : نعم يا رسول الله ! إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، وذكرت قول الله عز وجل : « ولا تقتُلُوا أنفسَكم إنْ اللهَ كانَ بِكم رَحيماً » فتيممت ثم صليت . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئاً » .

واستأذن على فاطمة رضي الله عنها ، فأذنت له . فسأل : ثمَّ عليّ ؟ قالوا : لا ، فرجع . ثم استأذن عليها مرة أخرى ، فسأل كذلك : ثمَّ عليّ ؟ قالوا : نعم ، فدخل . فقال له عليّ : ما منعك أن تدخل حين لم تجدني ههنا ؟ قال : إن رسول الله نهانا أن ندخل على المُغيَّبات .

*

وإن الرجل في حديثه مع النبي ، وحديثه عن النبي ، لهو عمرو بن العاص ، في كل ما ثبت له من رواية أو عمل أو مقال .

* * *

خاتمة مفسّرة

ظهرت في السنوات الأخيرة كتب عدة عن تاريخ مصر ، كتب بعضها باللغة العربيّة ، وكتب أكثرها باللغات الأوربية . ووجهتها جميعاً تشويه الماضي ، وتصوير الحاضر على الصورة التي توافق أهواء المؤلفين ، وتخدم مساعيهم التي لا تخفى . ولا تُفهم أهواء أولئك المؤلفين إلا على وجه واحد : وهو أنهم يتمنوْن لو لم تخرج مصر من حكم الدولة الرومانية ، ومن رعاية كنيستها التي كانت قائمة يومئذ في القسطنطينية وفي رومة . وكل ما يأتي بعد ذلك من تصويرات أولئك المؤرخين ، فهو مفهوم على هذا الاعتبار .

وقد أعددنا هذه الطبعة من هذا الكتاب [1] فوجب علينا جلاء الحقيقة عن وجه التاريخ في هذه المسألة التي يشوه فيها الماضي ، خدمةً لبعض المساعي الأجنبية في الوقت الحاضر . ولا نحب أن نتوسع في الشروح والتفصيلات ، ولكننا نحسب أن الصفحات التي عبرها القارىء كافية لنقض تلك الأهواء واجتناب المزالق التي ينحدر إليها من يقرأون التاريخ ، ولا يلتفتون إلى تسخيره في خدمة أصحاب المآرب والسعايات .

فمن حقائق التاريخ التي لا تحجبها الأهواء ، أن انتشار المسيحية في مصر إنما كان احتجاجاً روحانياً على الدولة الرومانية ، ولهذا لم ينقطع الخلاف

١ ـ كان ذلك في أغسطس (آب) سنة ١٩٥٤ م .

بين مصر والدولة الرومانية بعد دخول هذه في الدين المسيحي ، فقد ظهر سخط المصريين بعد ذلك في صورة أخرى ، فقاوموا المذهب الملكي الذي فرضته عليهم تلك الدولة ، وفرقوا بينه وبين مذهبهم بهذه التسمية التي جعلت المذهب الحكومي الروماني في جانب ، وجعلت المذهب القومي المصري في الجانب الآخر ، ودار النزاع على هذا المحور إلى نهاية عهد الدولة في الديار المصرية .

كذلك ينقض التاريخ كل ما يقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية ؛ فمن الحقائق الواضحة أن المسلمين والمسيحيين سواء في تكوين السلالة القومية ، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء في الأصالة والقدم عند الانتساب إلى هذه البلاد ، فإذا كان بين المسلمين المصريين أناس وفدوا من بلاد العرب أو الترك ، فبين المسيحيين المصريين كذلك أناس وفدوا من سورية واليونان والحبشة ، ودانوا بمذهب الكنيسة المصرية أو بغيره من المذاهب المسيحية . ويبقى العديد الأعظم بعد ذلك سلالةً مصرية عريقة ، ترجع بآبائها وأجدادها إلى أقدم العهود قبل الميلاد المسيحي ، وقبل بعثة موسى عليه السلام .

* * *

وحديث المظالم التي يلج المؤرخون المغرضون في التنقيب عنها قد تثبت كل الثبوت أو تثبت المبالغة فيها لغرض من الأغراض ، ولكنها إذا رويت على حقيقتها التاريخية مجردة من تلك الأغراض ، لم تنحصر في مصر ولا في بلد واحد من بلاد العالم . فمن أجل هذه المظالم وأشباهها ثارت الأمم في الغرب والشرق ، ومنها أمم مسيحية تثور على حكام مسيحيين ، أو أمم إسلامية تثور على حكام مسلمين ، وقد يكون الثائرون والطغاة من أبناء نحلة واحدة تنتمي إلى دين واحد ، كما حدث منذ القرون الوسطى إلى القرن الأخير .

وعصمة القارىء والمؤرخ في تمحيص الحقائق أن يلتمس هوى « الدولة

الرومانية » في كتابة تاريخ هذا البلد بعد زوالها ، فكل من كتب التاريخ كأنه يضع نفسه في موضع تلك الدولة ، ويتحسر على زوالهـا ، وزوال سلطانها ، وسلطان عواهلها وأحبارهـا ، فهو « أجنبي الهوى » يشوّه الماضي ، ثم لا يعنيه تشويه الماضي في الواقـع ، بل يريد أن يتسلل من الماضي كما يصوره إلى الحاضر كما يشتهيه ، ودون ذلك ، ويعتصم الحق بحمى الوطن وحمى التاريخ .

* * *

كتب للمؤلف

صدرت عن دار الكتاب العربي

اسم الكتاب	السعر
ابن الرومي	٥٠٠
ابليس	٣٠٠
ابراهيم ابو الأنبياء	٣٥٠
أبو نواس	٢٥٠
أنـــا	٤٠٠
الانسان في القرآن	٣٠٠
الاسلام في القرن العشرين	٢٥٠
بين الكتب والناس	٧٠٠
التفكير فريضة اسلامية	٣٠٠
جحا الضاحك المضحك	٢٥٠
التعريف بشكسبير	٤٠٠
حقائق الاسلام وأباطيل خصومه	٥٠٠
حياة المسيح	٣٥٠
حياة قلم	٤٠٠

اسم الكتاب	السعر
الحسين أبو الشهداء	٢٥٠
الحرب العالمية الثانية	٤٠٠
رجعة أبي العلاء	٣٠٠
الرحالة عبد الرحمن الكواكبي	٥٠٠
سارة	٢٥٠
ساعات بين الكتب	٧٠٠
داعي السماء بلال	٢٥٠
الشيوعية والانسانية في شريعة الاسلام	٥٠٠
عبقرية محمد	٣٠٠
عبقرية الصديق	٣٠٠
عبقرية عمر	٣٥٠
عثمان ذو النورين	٣٥٠
عبقرية الامام علي	٣٠٠

اسم الكتاب	السعر	اسم الكتاب	السعر
عبقرية خالد	٣٠٠	مطالعات في الكتب وا لحياة	٦٠٠
عقائد المفكرين	٢٥٠	مطلع النور	٣٠٠
عمرو بن العاص	٣٥٠	معاوية بن أبي سفيان	٣٠٠
فاطمة الزهراء والفاطميون	٣٠٠	مراجعات في الآداب والفنون	٤٠٠
الفلسفة القرآنية	٣٠٠	هتلر في الميزان	٢٥٠
الفصول	٥٠٠	هذه الشجرة	٢٥٠
ما يقال عن الاسلام	٥٠٠	يسألونك	٥٠٠
مجموعة اعلام الشعر		خلاصة اليومة والشذور	٢٥٠
المرأة في القرآن	٣٠٠	حياة ابن الرومي	٣٠٠

(لمحات من حياة العقاد المجهولة ـ عامر العقاد ـ ٥٠٠)